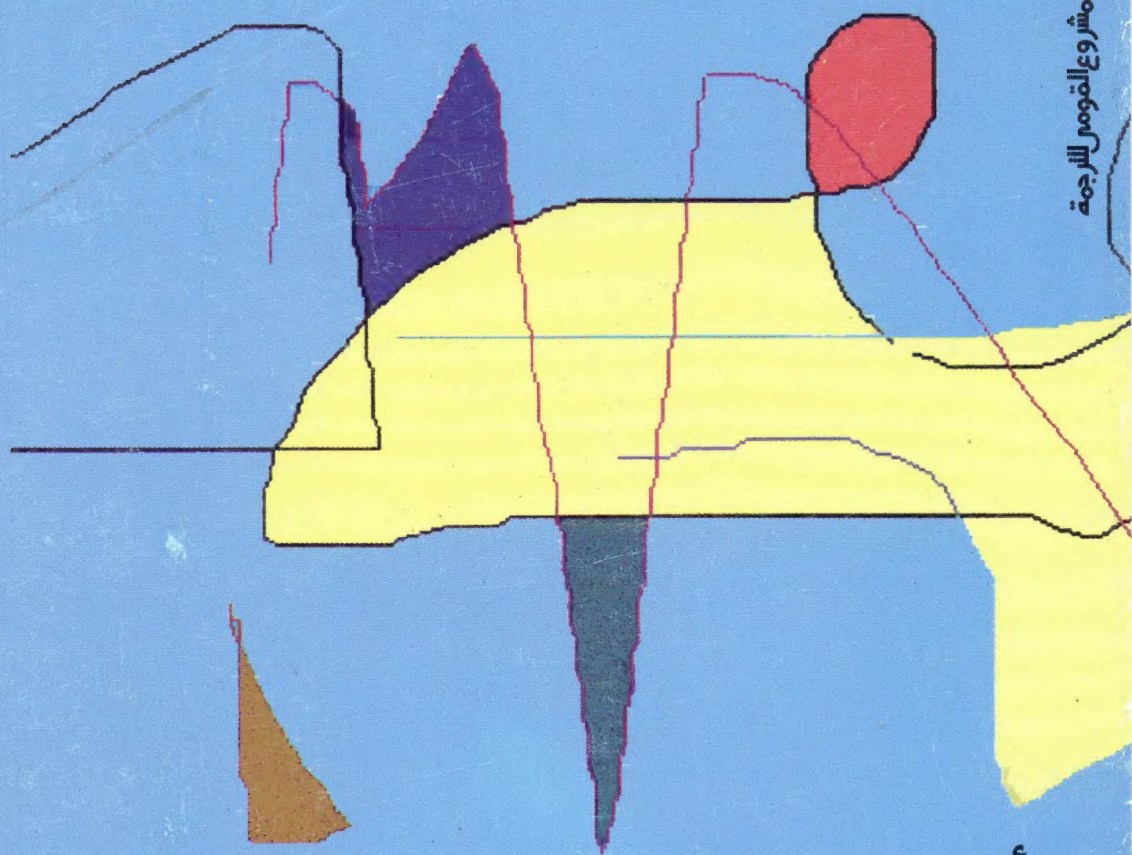


الجدلية الاجتماعية



المشروع القومي للترجمة



أنور عبد الملك

ترجمة
سامية الجندى
عبد العظيم حماد

916

يعود كتاب "الجدلية الاجتماعية" بعد نحو ثلث قرن إلى قاعدته التي منها بدأت المسيرة الفكرية، يدا في يد مع المسيرة الطويلة التي انطلقت في الأربعينيات من القرن الماضي من التحرر الوطني والاستقلال والسيادة الشعبية تجاه الثورة الوطنية والاجتماعية التقدمية صوب ما كنا نصبو إليه من نهضة حضارية. والدراسات التي يتكون منها هذا المجلد الأول من "الجدلية الاجتماعية" تعبر عن موقف المثقف العضوى الذى يقيم عمله فى التنقيب والبحث والاجتهاد للارتقاء إلى مرحلة أكثر تقدما من الفكر فى قلب الدوائر المجتمعية، الذى يعيش فى رحاب الوطن - الأمة، الدائرة الثقافية، الإطار الحضارى - فى المرحلة التاريخية التى تحيط به، وذلك بمفهوم واضح لرسالته الإنسانية بالمعنى الأعم، ألا وهى خدمة تحرك الإطار الذى ينطلق منه ويخدمه إلى مستوى أكثر تحررا ورقيا وتقدما يصبو إلى النهضة.

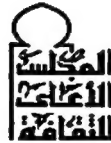
المشروع القومي للترجمة

الجدلية الاجتماعية

تأليف: أنور عبد الملك

ترجمة: سامية الجندي

وعبد العظيم حماد



٢٠٠٥

المجلس الأعلى للثقافة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٩١٦
- الجدلية الاجتماعية
- أنور عبد الملك
- عبد العظيم حماد
- سامية الجندي

هذه ترجمة كتاب

La Dialectique Sociale

De: Anouar Abdel – Malek

© Anouar Abdel – Malek

تمت الترجمة عن الطبعة الإنجليزية للكتاب التي ترجمها عن الفرنسية مايك
جونزاليس (Mike Gonzalez)، وقد تولى المؤلف مراجعة الترجمة العربية
على الأصل الفرنسي.

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St Opera House, El Gwzira, Cairo

9Tel: 7352396 Fax: 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة.

الفهرس

مدخل 11

الجزء الأول: الأركان / مواقف

- ١ - اللحظة التاريخية للعمل النظرى 21
٢ - مستقبل النظرية الاجتماعية 51
٣ - نظرية اجتماعية ذات مغزى: تفاعل الحضارات 75
٤ - علم الاجتماع والتاريخ الاقتصادى - محاولة للتلاقى 89

الجزء الثانى: مفهوم الخصوصية

- ٥ - مفهوم "عمق المجال التاريخى" 121
٦ - مفهوم الخصوصية 133
٧ - التصورات والمعايير فى العلوم الاجتماعية 151

الجزء الثالث: الأمة

- ٨ - الأمة: الإطار التكوينى 191
٩ - الجيش والأمة: جوهر السلطة الاجتماعية 213

الجزء الرابع: الإمبريالية، الهيمنة، التحرر

- ١٠ - فائض القيمة التاريخى 275
١١ - فى نظرية الإمبريالية والهيمنة 285
١٢ - الجيوسياسية والحركات الوطنية التحررية 341
١٣ - الماركسية والتحرر الوطنى 363

الجزء الخامس: الشرق في قلب جدلية الحضارات

١٤- الاستشراق في أزمة 413

١٥- الماركسية وعلم اجتماع الحضارات 459

الجزء السادس: التوجه الحضارى فى صياغة العالم الجديد

١٦- جوزيف نيدهام - عالم الحضارات الموسوعى 493

١٧- دييجول وجدلية الحضارات 503

١٨- المشروع الحضارى 509

١٩- فى جدلية الزمان 519

٢٠- وجهة تحرك الفكر الاشتراكى 535

٢١- لحظة "ريخ الشرق" فى صياغة المشروع الحضارى الجديد 591

خية إلى رسالة

صون تزو(الصين، القرن الخامس ق.م.)
أنطونيو جرامشي (إيطاليا، ١٨٩١ – ١٩٣٧)

الذكاء الكبير يحتوى
الذكاء الصغير يفرق
الكلام الكبير يتألق
الكلام الصغير فضفاض

نتسوانج تزو

الزمان هو حقل النمو الإنسانى

كارل ماركس

الجدلية فى الواقع منهج تفكير، أو بالأحرى تسلسل
متناسك من المناهج المتناسقة،
يساعد على تنويب بعض المفاهيم الجامدة
ويستحضر البعد العملى إلى ساحة الأيديولوجيات المسيطرة.

برتولد بريخت

مدخل

يعود كتاب << الجدلية الاجتماعية >> بعد نحو ثلث قرن إلى قاعدته التى منها بدأت المسيرة الفكرية، يدا فى يد مع المسيرة الطويلة التى انطلقت فى الأربعينيات من القرن الماضى من التحرر الوطنى والاستقلال والسيادة الشعبية تجاه الثورة الوطنية والاجتماعية التقدمية صوب ما كنا نصبو إليه من نهضة حضارية.

يعود هذا العمل بعد نحو ثلث قرن اهتزت فيه أركان المعمورة، و تبدل فيها النظام العالمى والأنظمة الإقليمية وأحوال مصر الوطن الأمة فى قلب دوائر الأمة العربية والحضارة الإسلامية الأوسع، وعالم الجنوب على امتداد القارات الثلاث فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

يعود هذا الكتاب الأول بفضل ما بذله الزميلان السيدة الفاضلة الكاتبة الراحلة العزيزة سامية الجندى، والكاتب الصحفى عبد العظيم حماد، فى ترجمة معظم الأصل إلى اللغة العربية، ثم من تطوع بتضبيب الأصول والترجمة، إلى أن رحب الأستاذ الدكتور/ جابر عصفور، الأمين العام لـ المجلس الأعلى للثقافة - بناتج هذا العمل - ولهم منا صادق العرفان والامتنان.

لماذا هذا المشروع الفكرى؟

انطلقت الحركة الوطنية المصرية، وفى قلبها النواة التقدمية، منذ الحرب العالمية الثانية تسعى إلى فتح الطريق. الطريق المتاح كان يتمثل فى أصداء إنجازات موجة واسعة من حركات التحرر الوطنى فى مرحلة ضعفت فيها قبضة الدول الإمبريالية التقليدية. ولكن هذه التجارب والوثبات، والإنجازات، وكذا التزام وأحياناً الانكسار، تعبر عن واقع مجتمعات وقوميات وأمم، وكذا ثقافات شديدة

التنوع والمغايرة. كان لا بد أن تسعى طلائع حركات التحرر الوطني والثورات الوطنية والديموقراطية والاجتماعية إلى مفاتيح، أى إلى مفاهيم تتشكل فى عدد من الكواكب تكون بمثابة أرضية لصياغة النظريات السياسية والأيدولوجية، بل والفلسفة السياسية والاجتماعية العامة. كانت هذه احتياجات طبيعية لا مفر منها. لكنها سرعان ما اصطدمت بأبواب موصدة لم تتجح المفاتيح المتاحة آنذاك فى فك طلاسمها، دعنا من اقتحامها.

عالم المفاهيم والنظريات القائمة آنذاك، أى حول الحرب العالمية الثانية فى منتصف القرن العشرين، كان يعبر عن ثمار تاريخ المجتمعات المتحضرة، كما كانوا يقولون آنذاك، أى مجتمعات الغرب فى أوروبا وأمريكا الشمالية، أى فى دائرة النظام العالمى المتمركز حول الغرب، والذي تفرع فى ١٩٤٥، ١٩٩١ إلى نظام القطبية الثنائية التى كانت قطبية ثنائية غربية يواجه فيها المعسكر الغربى الأطلنطى بقيادة الولايات المتحدة ما أطلق عليه تسمية المعسكر الشرقى الاشتراكى حول الاتحاد السوفيتى آنذاك، وهو أيضا وقد أراد لنفسه أن يكون جزءا لا يتجزأ من الغرب الحضارى.

الترسانة الفكرية، أى النظرية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كانت تتدرج فى مجموعتين: الفكر الليبرالى بعد انتصاره على الأنظمة الفاشية وهو فكر رأسمالى يعبر عن ديمقراطية الأقلية المالكة الحاكمة، ويبرر استمرار الإمبريالية، بل والهيمنة الغربية على العالم المحيط باسم الحضارة والحدثة. والنقد. وفى مقابل ذلك تبنت منظومة الفكر الاشتراكى حول نواتها الماركسية القادمة من الغرب آنذاك بدأ التعامل مع الترسانتين. فبينما سعت الرأسمالية المحلية التى أطلقوا عليها "البرجوازية الوطنية" آنذاك إلى تقليد ليبرالية الديمقراطيات الرأسمالية الغربية، اتجهت الحركات التحريرية الشعبية الثورية إلى استيعاب مفاهيم الماركسية للإفادة من تجارب المجموعة الاشتراكية فى الغرب.

الطلائع التى تولت الربط بين الفكر والعمل، بين النظرية والتحرك فى الأمم الرئيسية لعالم الجنوب، وخاصة دائرة الشرق الحضارى - فى مصر والصين، فى

الهند وفيتنام والشام، فى أندونيسيا والعراق والجزائر، كانت تتبع فى الأساس من الطبقات الوسطى المتمكنة من ثقافة عالمية ووطنية ذات مستوى رفيع بفضل مكانة أنظمة التعليم العالى، والتفاعل المتصل الحاد والمثمر مع الحركات الفكرية فى الدول الإمبريالية على الضفة الأخرى من النهر. وإذا بهذه الطلائع تستشعر قدرا غير قليل من الغربة بل والغيرية، وكأنها تتحدث عن مظاهر أو تحركات أو مؤسسات أو تيارات لا يجمع بينها وبين مثيلاتها فى الغرب المتقدم المهيمن إلا مفاهيم وعبارات، بل وحروف مشتركة.

الغرب يقول مثلا إن المجتمع القومى، أى الأمة، بدأ فى قلبه منذ القرن الحادى عشر الميلادى. ولكن مفهوم الأمة وهو المفهوم المشترك على ساحة الفكر الغربى كله من فلاسفة التنوير فى إنجلترا وفرنسا وخاصة ألمانيا حتى ستالين، لا يختلف فى الجوهر عما تبدى فى عدد غير قليل من المجتمعات فى عالم الجنوب، وخاصة فى دائرة الشرق الحضارى. إن كانت الأمة لم تبدأ إلا فى القرن الحادى عشر فى أوروبا، فماذا مثلا عن مصر والصين وإيران الفارسية وفيتنام وأثيوبيا واليمن، ثم اليابان والمغرب؟ مجرد مجتمعات سكانية مرحلية فاقدة الاستمرارية والخصوصية؟ أجاب منظرو الغرب بأن هذه الأشكال المماثلة فى العالم اللاغربى إنما هى أشكال من الاستثنائية لا تمت إلى مفهوم الأمة بحال من الأحوال. وإن كانت استثنائية، فما هى؟ وما علاقة هذه الأشكال الاستثنائية بالمفهوم العالمى الذى لا يمكن أن تتم صياغته إلا بدءا من أرضية مجموع التكوينات المجتمعية على ساحة العالم أجمع؟ ثم اتسع الأمر، واستمر يتسع حتى شمل ساحة المفاهيم المعمول بها فى ساحة دراسة المجتمعات، مع التركيز على المفاهيم التى تبدت بشكل ساطع فى المجتمعات اللاغربية، ومن بينها: الحكم الديمقراطى، دور الجيش فى الأمة، الثقافة الوطنية، الجبهة، وخاصة الجبهة الوطنية المتحدة فى مقابل الحصرى الصراع الطبقي الثنائى/ التقليدى، الحياة الروحية بوجه عام، وفى قلبها الدين والفكر الحضارى، الدولة والسلطة المجتمعية. والقائمة تطول، وترتفع تسمية ما تتصف به حياة المجتمعات فى الشرق الحضارى بالمغايرة والاستثنائية

بل والشذوذ - وكان الشرق على موعد مع التغييب، لا مكان له فى عالم الفكر المتحضر، أى الغربى حتى هذه الآونة، اللهم إلا إذا قبل مفكرو الشرق أن يتكروا لخصوصيات مجتمعاتهم وإنجازاتها، وعقدوا العزم على العدول عن هذه المظاهر الشاذة، إن جاز التعبير، الخارجة عن أصول النظرية العامة، وكذا فرض نتائج وأنماط التجارب وأفكار الغرب على مجتمعات الشرق الحضارى باسم الحداثة والتنمية والحضارة.

كانت هذه هى اللحظة التاريخية التى حددت واجب إعادة صياغة الفكر الاجتماعى: المفاهيم الرئيسية أولاً، ثم منظومات المفاهيم والتصورات القطاعية، حتى الوصول إلى منظومات النظرية الاجتماعية فى مختلف المجالات. ساحة واسعة انفتحت بعد الحرب العالمية الثانية أمام المشتغلين فى مجالات البحث العلمى والفكر الاجتماعى - ومن هنا كان مشروعنا الفكرى الذى يمثل كتاب "الجدلية الاجتماعية" أول ثماره. إذ يقدم محاولات البحث والتقيب والتجديد التى تم إنجازها بين ١٩٦٢، ١٩٧٢، وهى المرحلة التى امتدت بين حرب السويس وعبور أكتوبر، وقد أرادت "الجدلية الاجتماعية" أن تواكبهما.

لماذا اتجه مشروعنا الفكرى إلى ساحة ومنهج الجدلية؟

الجو الفكرى السائد، أو الأيديولوجية السائدة فى مرحلة الحرب الباردة بين ١٩٤٥، و ١٩٩١ كانت فى الأساس تمثل المرحلة الثانية من الفلسفة الوضعية. كانت المرحلة الأولى من الفلسفة الوضعية هى التى أقامتها طلائع الغرب الفكرية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لمواجهة نشأة انتشار الفكر الاشتراكى. ذلك أن الفكر الاشتراكى على تنوع فصائله، وفى قلبه الفكر الماركسى، كان يصبو إلى التغيير، إلى الحركة فى مواجهة الجمود - وهو التوجه الذى نمى به إلى المنهج الجدلى، خاصة بعد أن ارتفع هذا المنهج إلى قمة مدوية على أيدي هيجل، الوريث التاريخى للفلسفة الجدلية المثالية فى تراث الغرب التى أسسها أفلاطون. اشتدت المعارك السياسية، وارتفع تحدى التغيير إلى مستوى الثورة فى مجالى الحركات الوطنية التحريرية فى دائرة المجتمعات والبلدان التابعة. بينما سادت

نوعية الثورات الاجتماعية فى اتجاه إحلال الطبقات الكادحة مكانة الطبقات الحاكمة الرأسمالية فى النواة المركزية للدول الرأسمالية الاستعمارية والإمبريالية، ومن هنا تشكلت الموجه الثانية من الفلسفة الوضعية على صورة الوضعية الجديدة، وراحت تؤكد أن إمعان النظر لتحليل التركيب الداخلى للظواهر والمؤسسات القائمة هو الأساس. وذلك بدلا من التركيز على إدراك التناقضات داخل ما هو قائم - فى كافة المجالات، من الاقتصاد إلى الأنظمة الفكرية، مروراً بالنظم الاجتماعية والمؤسسات السياسية - وهو التوجه - المنهج الذى يكشف آليات الصراع بين المتناقضات ومستوياتها، أى، فى كلمة، التوجه - المنهج الجدلى (الديالكتيكى) فى مواجهة مختلف أشكال المنهج الوضعى.

هكذا نشأت كبرى المدارس - أى الفلسفة البنيوية - الفلسفية والفكرية فى دائرة الفلسفة الوضعية الجديدة، وأهم تجلياتها فلسفة الظاهريات الوجودية وهى التى اتخذت شكل المنهج الوظيفى أو الوظيفية على الساحة التطبيقية التى اتسعت إلى عموم العلوم الاجتماعية والإنسانية الوطنية الجديدة تهدف إلى تثبيت أركان النظام العالمى والنظم الاجتماعية القائمة، دون تغيير دعنا من الثورة. كانت هذه هى الأيديولوجية السائدة فى عصر الحرب الباردة بين النظامين الرأسمالى الإمبريالى والاشتراكى الغربى الذى فرض توجهاته على معظم أنواع الفكر المعاصر فى هذه المرحلة: الفكر السائد بطبيعة الأمر يتدفق، يحاصر اجتهادات الباحثين عن الجذور التاريخية لصياغة الظواهر والمؤسسات والأفكار القائمة أو (التاريخانية)، بحيث يضطر الباحثون إلى الاكتفاء بتقنيط ما هو قائم، والإمعان فى تحليل أدق مكوناته كما تتبدى آنيا، على اعتبار أن السعى إلى دراسة الصياغة التاريخية لما هو قائم بدءا من عمق المجال التاريخى، لا تختلف عما يطلقون عليه اليوم بسخاء أنه الفكر التأمري، أى الفكر الذى يبحث عن الجذور التكوينية عميقة الظواهر والأحداث والأفكار، وأسباب تشكلها عبر الزمان فى قوالب خصوصياتها، مما يتيح فهم الصور التى تتخذها هذه الظواهر آنيا، وهو الفهم الذى يتيح بالتالى القدرة على التعامل معها وتشكيلها وإعادة صياغتها إلى حد التحكم فيها لو لزم الأمر. هكذا تتحقق رسالة الفلسفة الوضعية، ألا وهى تجميد الواقع وتحنيطه

والتنكر والتصدى لمجرد إمكانية التفكير فى تحرير الجمود وتغيير الأمور القائمة. أمر طبيعى من جانب أصحاب الهيمنة الراضين للتجديد والتغيير حفاظا على مكانتهم ومصالحهم وامتيازاتهم بواسطة حركات القمع والحروب العدوانية.

ولكن الأمر امتد كذلك إلى قطاع واسع من الفكر الجدلى، وخاصة الفكر النابع من القطاعات التقدمية فى دول الغرب الرأسمالية إلى حد أنها انضمت إلى التتديد بما أسمته "الاشتراكية الحقيقية"، خاصة فى الاتحاد السوفيتى الأسبق، باسم منظومات الفكر الاشتراكى النقى الذى انتهى إلى دروب العجز والفشل رغم النبرات العالية، وراح يندد بالأنظمة النابعة من الحركات الوطنية التحررية على تنوعها من الشيوعية الوطنية إلى منظومات اقتصاد الدولة ومشاركة الجيوش الوطنية - أى منظومة للشرق الحضارى بأسره، وامتدادها إلى القارات الثلاث.

كانت هذه أجواء اللحظة التاريخية التى تمت منها صياغة مشروعنا الفكرى، وقد أردنا أن تكون الجدلية عنوان خطوته الأولى التى قمناها عام ١٩٧٢، وهى اليوم بين يدى القارئ العربى بدءا من أرضنا المحروسة.

الدراسات التى منها يتكون هذا المجلد الأول من "الجدلية الاجتماعية" تعبر عن موقف المتقف العضوى الذى يقيم عمله فى التنقيب والبحث والاجتهاد للارتقاء إلى مرحلة أكثر تقدما من الفكر فى قلب الدوائر المجتمعية التى يعيش فى رحاب الوطن - الأمة، الدائرة الثقافية، الإطار الحضارى - فى المرحلة التاريخية التى تحيط به، وذلك بمفهوم واضح لرسالته الإنسانية بالمعنى الأعم، ألا وهى خدمة تحرك الإطار الذى ينطلق منه ويخدمه إلى مستوى أكثر تحررا ورقيا وتقدما يصبو إلى النهضة.

الفصل الأول فى كل صفحة وكل سطر يعود إلى شعبنا المصرى صاحب أمر الوطن. منه تعلمنا، ومن أجله كافحنا، وفى سبيله نحيا.

١ - لا مجال فى عملية صياغة عالم جديد للجمود الفكرى أو التخاذل والتتحي باسم ثقافة "الواقعية" المزعومة. لا مكان لتطوير النظرية، وخاصة الفكر الاجتماعى، فى دائرة مغلقة لعالم فكرى متباعد أو متعال، ما دام أن الفكر

هو التعبير المركب عن تحديات وتساؤلات وفروض وإمكانات العمل. وهو التوجه الذى أجمعت عليه كبرى انطلاقات الفكر، من الآية الكريمة ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسِرَىٰ اللّٰهِ عَمَلِكُمْ﴾ إلى رسالة ماركس بعد أكثر من ألف عام عن فيلسوف الأدباء فويرباخ: "لقد أكثر الفلاسفة حتى الآن بتفسير العالم. وقد آن الآن لتغييره".

٢ - تعنى دراسة الجدلية الاجتماعية المعاصرة بالجمع بين دراسة دائرتين: الدائرة الذاتية أولاً، أى الفئات والطبقات المجتمعية؛ ثم الدائرة الخارجية، أى الأمم والثقافات والحضارات التى منها تتكون حركة العالم فى عصرنا الذى دخل فى مرحله العولمة. إن التفاعل بين هاتين الدائرتين يتمحور حول مفهوم الخصوصية، الذى حددناه فى السبعينيات من القرن الماضى السلطة أو الهيمنة داخل المجتمعات وذلك فى الإطار الدولى الأعم - أى استمرارية وامتداد وانتقال مركز ثقل السلطة أو الهيمنة فى هذه المجموعة الواسعة.

٣ - النواة المركزية لهذه الجدلية الاجتماعية إنما هى نواة جدلية الحضارات التى تجمع بين تفاعل كبرى حركات التحرر والثورات الوطنية والاجتماعية، وبين الثورة العلمية والتكنولوجية التركيز هنا على التوجه الحضارى ما دام "أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده". وأن المجتمعات تتفاعل وتتصارع وتتكامل فى ساحة تتصاعد فيها فاعلية العامل الفكرى والقيمي والفلسفى والدينى - أى عامل الحضارات - بشكل متصل فى عالما المعاصر رغم ضجيج الهيمنة الحربية وظلمات الفكر العدمى.

٤ - إن ارتفاع نسبة فاعلية العامل الحضارى فى عالما المعاصر تتمثل فى توكيد مختلف أنواع ومعانى الإيجابية الفكرية ورفض الفكر السالب the negative mind ، أى الفكر العدمى الذى اتخذ منذ نصف قرن طابع الوضعية الجديدة والوظيفية حتى أشكال منمقة أطلقت على نفسها تسميات ما بعد الحداثة والتفكيكية. والفكر الحضارى يؤكد أولوية القيم الإنسانية على تنوع أنماطها التفسيرية، أى أنه يرفض كافة مناهج التكرار للعقلانية

والموضوعية والفكر العلمى وكذا الإيمانية. وفى كلمة، فإن الفكر الحضارى الذى تتدرج "الجدلية الاجتماعية" فى إطاره التجديدى يؤكد إيجابية عمل الإنسان والشعوب لصياغة مختلف أنواع المستقبلات الممكنة.

ماذا بعد "الجدلية الاجتماعية"؟

كان المخطط يذهب إلى محطتين. محطة ثانية تركز على موضوع السلطة فى الدائرتين الداخلية والخارجية. وقد رأينا أن نجمع الكتابات المعنية بهذه الساحة فى كتابنا الموازى "ريح الشرق" الذى صدر عن دار المستقبل العربى عام ١٩٨٣، ثم فى طبعة ثانية فى سلسلة "الكتاب الذهبى" بمؤسسة روز اليوسف هذا العام.

ثم يأتى مقام الجزء الثالث المعنى بالتوجه الحضارى من الفكر المعاصر، وهو فى طريقه إلى النور قريبا إن شاء الله" أولا فى كتاب "من أجل إستراتيجية حضارية"، فى كتاب الرسائل الجامعة بعد حين وكلاهما فى الطريق إلى النور.

محطة أولى تكوينية فى صياغة فكر التوجه الحضارى إسهاما فى صياغة عالمنا الجديد. والله ولى التوفيق.

أنور عبد الملك

الجزء الأول

الأركان: مواقف

(1)

اللحظة التاريخية للعمل النظرى

يتعين النظر إلى كل طور أو دورة أو مرحلة فى سياق التطور التاريخى للمجتمعات الإنسانية على أن كل منها لا يعدو أن يكون فترة انتقالية. ولذا فليس هناك سوى قليل من الفائدة يرجى من الإشارة إلى المقترضات الحتمية للدورة الانتقالية الرهيبة التى نحيها مثل التناقض والغموض وانعدام التماسك المنطقى أو التماسك المنطقى المفترض سلفا والجديد الذى يصاغ مقدما.. ذلك أن إشارة كهذه لا تفسر ولا تبرر وحدها أشكال واتجاهات العمل النظرى فى الميادين المختلفة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، كما أنها لا تفسر ولا تبرر العقبات التى تعترض طريق ذلك العمل أو "المناظير" التى يجب رؤيته من خلالها .

أما إذا افترضنا شيئا آخر فإن ذلك سيفضى بنا إلى اختيار رؤية مثالية للتطور التاريخى تقنع فى طياتها النزعة الإيمانية الجديدة، وسائر الآراء القطعية الأخرى .

غير أنه لا يوجد من حيث المبدأ ما يمنعنا من قبول إطار العمل النظرى الأيديولوجى.. ذلك الإطار الذى يتسم بأنه مريح. فما لم نتمكن من إعادة تشكيل العالم تحت العدسة فى مصفوفات مزروعة من النوع الذى كثيرا ما يستهوى الباحثين حيث تغفل أعينهم تماما عن النظر إلى التناقضات والتحديات، فإننا لا نستطيع التمسك بذلك الاتجاه الوعظى المتعطرس المغرور، ومع ذلك فهذا بالضبط هو اتجاه غالبية المتقنين الغربيين.

إن كيف نفسر الهوة التى تزداد عمقا فيما بين التفسيرات النظرية المختلفة للظاهرة المجتمعية؟ وكيف نشرح التعقيد المستمر والمتزايد لنسيج الاختلافات والتناقضات، من خلال الأيديولوجية التى تتضمن النظرية (وتقيدها) فى الوقت نفسه؟

إن الأيديولوجية بلا شك مفيدة على مستوى من المستويات ولكنها ليست كافية بحد ذاتها، ولذا فإننا يجب أيضا أن نفسر أوجه الاختلاف الداخلية فيما بين

التفسيرات النظرية التي تنتمي بوضوح "لعالم" أيديولوجي واحد، كذلك فإنه يتعين علينا أن نشرح تطور الاتجاهات النظرية لخط واحد أو متطابق داخل التفسيرات النظرية الأيديولوجية الكبرى، فهل يكمن التفسير فى النمط أو فى وزن الأيديولوجية السائدة؟

ربما.. ولكن حتى فى هذه الحالة يتبقى شئ، وهذا الشئ مهم. إذ كيف نفسر ذلك التباين الذى اعترف به مؤخرا، والذى يصدر عن تأثير أطر العمل المتباينة التى يتم فى وعائها التركيب الأصلى للنظريات، والمقصود بهذه الأطر هنا هو أطر العمل النابعة من الثقافة القوية التى هى بدورها جزء من محيطات حضارية كبرى.

إننا على أية حال سوف نعود إلى هذه الأسئلة الكبيرة والتى أثّرت هنا كمدخل، وفى الوقت نفسه يفترض أن مشكلة العمل النظرى يجب أن توضع فى إطار من واقع بعينه وهذا الواقع المحدد يعد بدوره مرحلة من مراحل التطور التاريخى فى الحاضر وفى المستقبل المنظور.

١ - نهاية "الإنسانية" العالمية الكلاسيكية:

لا شك أنه شئ يبعث على الضجر أن نجد أنفسنا مضطرين لقبول "الزمنية" أى لقبول فكرة السمة المحدودة فى الزمن، وبعبارة أخرى لقبول فكرة وجود حدود للزمان والمكان والأفكار (ومن باب أولى الكائنات).

فنحن نركز إيماننا فى هذه الأبعاد الثلاثة، وهى التى تبنى حياتنا، كما أنها فى النهاية هى دفاعنا ضد الموت.. ذلك الشئ الكريه، ولقد رأينا كم أنها مشكلة هائلة تلك اللحظة التى نسعى فيها لوضع الأسئلة على مستوى التعميم (العمومية) أى من خلال الرؤية العمومية العالمية الإنسانية السخية أو من خلال الرؤية القائمة على الوساطة الموسوعية العلمية، إذ كيف يتقبل المرء نزعة عالمية هى نفسها مشروطة، أى غير مطلقة وتتصف بالاحتمية التاريخية كما أنها قد تحددت تاريخيا بوصفها وجهة نظر عالمية، وما الذى سوف نفعله إذا ثبت أن النزعة الإنسانية - لحظة أن تحلل وتتصدر السياق - هى ظاهرة من نفس النوع أكثر من كونها خاصية أخلاقية لا زمنية.

إنه لا يوجد بالقطع شئ من الراحة فى النموذج الذى تقدمه ظاهرة العقلانية ومطلب التمسك التنظيمى من حيث تحليل وتفسير الظواهر من كافة الأنواع التى تعبر عنها ظاهرة العقلانية، ولكن العقلانية التى نظر إليها ذات يوم بوصفها عملية مفردة أحادية البعد يعترف الآن وبعد هرقليطس وهيجل وماركس بأنها عملية تتطور على مستويين:-

الأول صورى.. والثانى جدلى.

فإن أمكن تمييز عملية تركيب المفاهيم الواقعة فى مكان القلب من كل "فكر" على هذا النحو، وإذا ما أمكن إخضاع الطابع المفرد أحادى البعد للعقلانية الصورية والتعبير المنهجى عنها المعروف بالمنطق الصورى للنسبية فسوف يكون من الممكن حينئذ معالجة النزعة العالمية والنزعة الإنسانية بالطريقة نفسها.

ولكن غير ممكن على الإطلاق، فالنزعة العالمية والنزعة الإنسانية تشكلان نظرة عالمية ينبغى أن تفسر تبادل التأثير فيما بين المجتمعات فى عالم حقيقى، كما تفسر صراع هذه المجتمعات من أجل الهيمنة والتبعية والتقدم والتقهقر والثورة والرجعية، وأخيراً من أجل الحرب والسلام، ومن ثم فإن ما يتعين تحليله بالأساس هو دور العنف فى ميزان القوى، سواء بين سائر التكوينات القومية ذات الأساس الاجتماعى الاقتصادى أو فيما بين الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة داخل كل تكوين من هذه التكوينات، والواقع إن الحاجة إلى منطق جدلى محدد والحاجة إلى الجدلية الاجتماعية فى عالم حقيقى تمنع المنطق الصورى العادى من أداء وظيفته كما ينبغى أن تكون من عدة وجوه.

وعلى الرغم من أوستريتش^(١) وهيروشىما وقبيلهما فإن النزعة الإنسانية لا تزال آخذة فى الازدهار، إذ تستمر مراكز الهيمنة فى الغرب فى التمسك بها وفى الرفض الإرهابى لثورات الصراعات الاجتماعية والقومية الهائلة أو بوصفها بالضبط مجرد انحرافات عن مقتضيات النزعة الإنسانية، بل إن بعض قطاعات

(١) اسم لأحد معسكرات الاعتقال النازية فى الحرب العالمية الثانية.

الحركة الاشتراكية الغربية تقدم من جانبها محاولتها للتجديد على أنها نضال لاستعادة مصداقية النزعة الإنسانية.

وهكذا فإننا نتعامل مع دفاع عميق الجذور عن النزعة الإنسانية فى جميع أنحاء الروح العامة فى الغرب.. ولكن ما هو مصدرها؟

إن هذا السؤال يفرض مشكلة اللحظة التاريخية التى ظهرت فيها النزعة الإنسانية أولا فى أوروبا ثم فى الغرب ككل فيما بعد، ولقد كانت تلك اللحظة التاريخية هى زمن التوسع الأوروبى الذى أفضى إلى الهيمنة الغربية، أى إنها كانت تقع بين القرن السادس عشر والقرن العشرين.. إنه عصر الكشف البحرية الكبرى، والمحاولات الأولى للإدماج من خلال الهيمنة على الشرق، وعصر الثورات العلمية الإقليمية السابقة على الثورة الصناعية، ثم الثورة الصناعية نفسها وثورات البرجوازية المنتصرة ضد الإقطاع ثم ظهور الرؤية الاشتراكية فى حركات العمال، وأخيرا الإمبريالية الاستعمارية والمهيمنة، وقد كان كل شئ حتى تلك اللحظة وبالرغم من الروح المسيحية نفسها مقسما بالإقليمية والطائفية، ففى عالم ذلك الزمان الذى كانت أوروبا. باستثناء الأطراف الشرقية والغربية فيما وراء موسكو وستوكهولم - كان الإيمان يفرض على غير المسيحيين بالحديد والنار بالمعنى الحرفى للكلمتين وذلك من خلال هيئات التفتيش والجيتو والمذابح، ومن ثم فلم يوجد شئ فى ذلك المناخ العميق المقيد فى أوروبا العصور الوسطى المتدهورة يدفع أحدا إلى النظر فيما وراء عالمه الخاص.

وسوف يأتى ذلك فقط بعد نشوء المجموعات الاجتماعية من الطبقات الجديدة المعاصرة، أى برجوازية التجار والبنوك البحرية، ثم بورجوازية أصحاب المصانع.. أولئك الذين أخذوا على عاتقهم وبإصرار - وفقا لقاعدة إن المزيد من العمل النشط هو أمر أخلاقى كما تفهمها البروتستانتية - مهمة "عقلنة" عالم الاقتصاد وعالم الأفكار، ولأن ذلك العمل الأخلاقى يتطابق مع الأمنى الضمنية لهذه المجموعات الاجتماعية الجديدة وتلك الطبقات الصاعدة.

لقد أصبح جاليليو ممكنا أخيرا.. كما أصبحت ثورات النهضة والاستنارة والمعرفة الموسوعية ممكنة بدورها.

وكان من الضروري فتح الدول الأخرى - أى العالم - لمبادرات أوروبا السياسية والاقتصادية، وفى الوقت نفسه فقد رأى أنه من الممكن إدماج هذه الدول فى الإطار الأوروبى الذى قدم لها، ومن ثم فإن التكافؤ المسلم به بين الوحدات المختلفة من شعوب وطبقات وأجناس وأمم وثقافات وأقاليم - قد توحد داخل "جوهر" واحد هو الإنسانية العالمية، لأن أوروبا قد غضت من شأن أمريكا الوسطى والجنوبية فإنها أعادت تأسيس نفسها فى أمريكا الشمالية.

وهكذا أصبحت الرؤية الخاصة بعالم واحد إمكانية واقعية، وعليه فقد رأى بشكل طبيعى تماما أن الجوهر أو اللب ومحور القوة والموضوع الحضارى لتلك الوحدة القوية هو الغرب.

ولكن فى سنة ١٩٤٩ كان أقل من قرنين من الزمان هما اللذان يفصلان بين الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ والمسييرة الطويلة (فى الصين) ١٩٤٩، وفى سياق هذين القرنين أدى الجمع بين التقدم العلمى والفنى والقوة العسكرية والسياسية التى أوصت بفرض نمونها على الروح، كما أدت إرادة الآخرين وحماستهم إلى جعل مشروع العالمية ممكن التحقيق عمليا وبايقاع سريع فى أجزاء واسعة من العالم، لقد أصبح فى المقدر فرض النزعة الإنسانية، - لأنه ولأول مرة فى تاريخ العالم - تأتى لمركز مهيم من حيث القوة والثقافة أن يسود الشطر الأعظم من العالم. أى أن العالم إذا نظر إليه من الغرب الآن يمكن أن يقدم بوصفة "المشهد العالمى".

فعلى الأقل لا يوجد ما يمنع على مستوى الافتراض من فهم مقولة إن الإنسان يجب أن يثبت أن الحقيقة هى الواقع والقوة The this - Sidedness of his thinking in practice

على أن التطبيق العلمى لعالم الواقع فى الحقتين الحديثة والمعاصرة التى يقع فيهما عملنا النظرى يكشف عن سياق من الأزمات من وجهة نظر الدولة فى الغرب المهيم.

فمن داخل ذلك الغرب المهيمن نفسه اتخذت الجدلية الاجتماعية شكل صراع الطبقات فى كل دولة من دوله، كما اتخذت شكل الحروب بين الدول، وفى الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ اتخذت شكل الحرب التى كانت لأول مرة حربا عالمية أصيلة، حيث أشعلت كل الشعوب وكل الدول فى سياق تلك الحرب حرب التمرد الوطنى ضد استعمار الفاشية، فى الوقت نفسه وفى نقطة الالتقاء بين الفترة الكلاسيكية والفترة بين ١٩٣٩ - ١٩٤٥ اتخذت دولة أوروبية - هى روسيا - مساراً منفرداً وأنشأت سلطة اشتراكية استطاعت فى غمار الحرب أن تتشبه بدورها كوكبة من الدول الاشتراكية فى أوروبا الوسطى والشرقية، وهكذا تلاحقت فترة توزيع النفوذ التى سادت فيما بين معاهدتى فينا وقرساي، حقا استمر الغرب - يقينا - مهيمناً ولكن مركز القوة قد ارتحل إلى الولايات المتحدة مخلفاً وراءه أوروبا مستضعفة ومقسمة إلى كتلتين، ومحرومة فى السنوات الأخيرة من معظم مستعمراتها وأتباعها فى العالم.

كانت تلك هى الدائرة الداخلية، أما الدائرة الخارجية - أى العالم التابع - فقد مر بتطور أكثر جدارة بالالتفات إليه، فنحن نتحدث بطيب خاطر عن تصفية الاستعمار.. وهو تعبير غربى محض، ومع ذلك فالعملية التى تحدث منذ بدايات الاختراق الغربى تشكل فى الحقيقة عملية تحضر توجه فيها نشاطات الحركات الوطنية ضد الاستعمار أولاً، ثم ضد الإمبريالية إلى استهداف تحقيق التحرر الوطنى، لأن ذلك التحرر شرط مسبق لا غنى عنه للنهضة أو بناء الأمة طبقاً لما كانت الدول المنغمسة فى هذه العملية دولا قومية قديمة أو تكوينات لدول قومية جديدة.

وتوجد فى هذا الشأن مرحلتان كبيرتان.. الأولى هى مرحلة الاستقلال الصورى أو الشكلى، حيث تبدو الثورة الوطنية كافية لمواجهة استعمار محدود المدى والاختراق، والمرحلة الثانية هى مرحلة الجمع بين الثورة الوطنية أو التحرر الوطنى - إذا شئت هذا الاسم - والثورة الاجتماعية والاشتراكية. إن الوجود المتزامن فى مرحلتنا لطورين تاريخيين متداخلين من عدة وجوه حسب

المنطقة التي يحدث فيها ذلك.. والتطور التاريخي المحسوس.. والعلاقات الفعلية بين القوى (مع الأخذ في الحسبان إنه في داخل كل طور من هذين الطورين واحد من اختيارين كبيرين هما الوطنية الراديكالية والثورية الوطنية.. التي كانت بالأمس "مجالاً" تابعا، وأصبحت الآن الساحة الرئيسية لحركات التحرر والحركات الثورية).

والعنصر الرئيسي في هذه الحركة على النطاق العالمي هو انبعاث الشرق - آسيا وأفريقيا - من جديد، وقد أسهم أثر هذا الانبعاث في تنمية الديناميات القارية في أمريكا اللاتينية، كما أسهم في تطوير حركات اجتماعية وسياسية من طراز جديد في الغرب ذاته. ويكفي أن نقارن بين حالة الشرق فيما بين عامي ١٨٥٠ و ١٨٧٠ وبين ما هو عليه الآن، فصين تجارة الأفيون قد أصبحت في أعقاب أكبر ثورة شيوعية وطنية في التاريخ واحدا من ثلاثة مراكز للنفوذ في العالم، ويابان الميجي الشريك ذو الامتيازات للغرب غدت أكبر قوة صناعية في العالم، والعالمين العربي والإسلامي بالرغم من المتناقضات التي تنقل حركتهما باننا قادرين على استعادة الدولة وثقافتها، كما أصبحا قادرين على التصنيع، بل أن أفريقيا السوداء وبالرغم من التخلف تشهد تجارب مثيرة للتنمية الشعبية في عدة أماكن منها، وفي فيتنام وكوريا فيما قبل، عرفت الإمبريالية المهيمنة طعم الهزيمة وفقدان المصادقية، وقد عبرت الحركات الأفرو آسيوية (حركات تضام من القارات الثلاث فيما بعد) عن واقع وطموحات هذا النشاط الهائل، وفي السنوات الأخيرة خرجت من الصين نفسها نداءات مهمة تقول: العالم واحد.. فالثورة اخترقت القارات الخمس ورفعتها إلى النشاط.

لقد جاء الوقت الذي تغلبت فيه ريح الشرق على ريح الغرب.. وقد بدأ الشرق يأخذ زمام المبادرة التاريخية. ولكن هذه المبادرة ذاتها عملية جدلية تتفاعل مع الجدلية الاجتماعية للغرب، الذي قد يكون في حالة انحسار أو في أزمة، ولكنه أبدا ليس في حالة انحطاط، وإنه لأمر مهم - ودعنا نتذكر - أن نأخذ زمام المبادرة لا أن نعمل كبديل، فالوقت قد حان عندما أصبح من غير الممكن لميزان القوى الذي

تأسس لآخر مرة من قبل الغرب فى يالتا أن يتوطد بدون الشرق. وهكذا فإننا ندخل مرحلة تاريخية صعبة نعى بها الإنسانية جمعاء بطريقة مضطربة، فالمنظور المستقبلى لم يوضح بعد بصورة واضحة من جانب الشركاء الرئيسيين أنفسهم، ولكنه أصبح واضحا تماما أن المبادرة تكمن الآن فى آسيا أكثر من كونها تكمن فى الشرق بصفة عامة.

إلا أن أى شعور داخلى بالرضا عن الذات لا يستطيع إخفاء عمق الدراما الآسيوية أو دراما شبه القارة الهندية، كما إنه لا يستطيع إخفاء دراما البعث العربى أو تغيير القوى فى أفريقيا.. وسوف نعود إلى هذه المسألة فيما بعد.

وثمة شهادة كاشفة عن هذه الحركة المزدوجة.. أزمة الغرب وانبعاث الشرق.. أزمة الهيمنة الإمبريالية وظهور حركات التحرر والحركات الثورية، ألا وهى الاتجاهات القلقة والمضطربة لدى الشباب فى دول الغرب.. والتى تعبر عن نفسها باليأس والنزعة البيوتوبية والارتحال المستمر.

فالجيل الذى أنشأ الجبهات الشعبية فى الغرب، والذى احتفظ بالثورة على المقاومة ودفع قدما سياسة تصفية الاستعمار، ووقف صامدا فى ستالينجراد وخرج من محنة النازية حيا.. هذا الجيل الذى قبل نتائج يالتا، وجدد صيغتها فى أثر ظهور فكرة التعايش السلمى، واستوعب اقتصاديات الماركسية "وعلم أمراض النفس".. هذا الجيل الذى كان شاهد عيان قلق ومتشكك لظهور الصين.. هذا الجيل هو الذى يدير الأعمال اليوم، وهو الذى يمثل المناصب الرئيسية فى الجهاز الثقافى، والذى عليه أن يقيس ثمن بقائه ويتولى مهمة وضع الحدود التى يفرضها هو نفسه.

وقد جاء الآن جيل جديد لا تعنى يالتا بالنسبة له أكثر من موقع على الخريطة، وهذا الجيل الجديد يكشف عالما جدليته محتواه فى شبكة من علاقات القوى بين الدول - القومية والكتل العالمية، ويشعر شبان ذلك الجيل متفقين فى ذلك معا وفى اللحظة نفسها بأنهم أكثر قوة ولكنهم أكثر تقييدا، وتتبع قوة ذلك الجيل من مزيج من

سياسات ضبط النسل منذ الحرب العالمية الثانية، والتقدم المادى فى الحياة اليومية بفعل المعونة الأمريكية (الإنشاءات - الإسكان - الطعام - الصحة - الضمان الاجتماعى - هوايات أوقات الفراغ)، كما تتبع من التوسع فى الحريات العامة والخاصة (الجنس - حرية العقيدة الدينية - الأيديولوجيات السياسية).. إن كل شئ يبدو (أمام ذلك الجيل) ممكنا إذا أمكن فقط إزالة العقبات، ولكن ما هو الهدف؟.. لا شئ فى الخفاء..

لأنه يوجد قدر كبير من العلانية وظماً شديد للابتكار.. وهنا تصطبغ البيوتوبية بالفوضوية فى ظل النفوذ المباشر لتلك الأجهزة السياسية المكرسة لهدم أسلوب الاقتراب المحدد من الواقعية السياسية.

ذلك الأسلوب الذى يرى الجدلية الاجتماعية مكشوفة فى إطار العالم الحقيقى... عالم الطبقات والتكوينات القوية المتنوعة خلف إطار الدولة.

وهذا الجيل يستهجن - وله مبرراته غالباً - موقف الإذعان الذى يتسم به تاريخ جيل نقطة التحول الكبرى.. ذلك الجيل الذى لم يعامل بعدالة.

والمناخ العام لحركات الشباب فى الغرب هو كما وصفناه، وقد وضع عنف الشباب (الانتقادى) ضد الجيل الأكبر على مستوى أنه ظاهرة، ولكنه نارا ما يبحث عن سبب كل تلك العقبات والسدود التى يستنكرها عن حق، إنه فى هذا الميدان كل الأشياء تحدث معاً، فالشباب فى الغرب - بعد أن يتجاوزوا عقبتهم - يطرحون أسئلة جوهرية تتعلق بالضبط بالأزمة الكبرى التى أشرنا إليها، أى تتعلق بالحركة المزدوجة التى يجد الغرب صعوبة بالغة بطبيعة الحال فى التفكير فيها - بل قبولها - ببساطة.

لماذا كان سفك الدماء والموت فى فيتنام فى الوقت الذى يمكن أن تقبل الذئاب فيه التعايش السلمى؟ لماذا نشوه كوكبنا الأرضى فى وقت تبدو فيه وسائلنا قادرة على جعله مكاناً إنسانياً صالحاً للعيش فيه؟ لماذا نجد أنفسنا تحت وطأة نظام محافظ فى وقت من اليسير فيه للغاية الإيمان بنظام جديد للقيم الجدلية التى تضى

المستقبل؟ ولماذا تنفى المعرفة هكذا بعيدة عن العالم الواقعى فى وقت يبحث فيه العالم بإلحاح عن مسالك تقوده إلى مستقبل من العدالة والإخاء؟ ولماذا نرفض تعلم دروس تلك الحضارة الأخرى - الشرق - الذى يتعين علينا أن نفاوضه، وأن نصل معه إلى اتفاق؟ ولماذا الإصرار على التلويح بالإنسانية العالمية بينما نحن مستمرين فى بناء المقابر الجماعية فى اللحظة نفسها التى نتكلم فيها عن الآخرين؟

لقد بدأنا بفحص الأثر الحالى والمستقبلى لقيتنام على ضمير العالم، ففى بحار دم إخواننا إنفضحت كل صور الرياء والجرائم ومصادرة المستقبل. لقد هزت هذه القفزة الكبرى للأمام فى الوعى الغربى و النابعة من الجذور.. من الشباب والعمال.. هزت الشجرة بعنف، وغالبا ما تحقق العمل المشترك بين الشباب والعمال، وبالرغم من الأقنعة السامة التى ترتديها بعض الأجنحة، فإنه يمكن إعادة اكتشاف طريق العمل الجماهيرى. وذلك لأنه لا يزال صحيحا أن الشباب، ولا سيما العمال والطلبة، هم الذين طرحوا تلك الأسئلة الجوهرية فى عالم لم يتم تفسيره بعد. ولكن ذلك لا يعنى أن الشباب لا يزال يوحده الإيمان بثورة أكتوبر ١٩١٧ أو بالمسيرة الكبرى. إذ أنه توجد مشكلات متعددة وتتناقضات ومزالق وحقائق واقعية كثيرة، ولنضع المسألة بطريقة أخرى.. فقد اتسعت جبهة الشباب بدرجة كبيرة وملحوظة، بينما أصبح محيط إيمانهم أكثر تحديدا (وتقييدا).

إنن فاللحظة مناسبة لظهور حركة قوية تمضى للبحث عن أفكار جديدة.. لقد ولدت نزعة إيمانية جديدة لا تزال بحثا أكثر من كونها مشروعا محددا، فالإيمان القديم والمشروع القديم قد ماتا وشبعا موتا فى أعين الشباب، ومن هنا جاء الطابع الجماهيرى لبحثهم، ومن هنا ينبع الرفض الذى يواجهونه، فحتى هذه اللحظة لا يزال الشئ البارز هو الأيديولوجية البسيطة، ونهاية النزعة الإنسانية.. ورفض العالمية، وباسم شعوب العالم وثقافته وحضاراته يسعى غالبية الشباب والعمال (جانسين خلال تلك الحضارات بطريقة لا تزال مضطربة لاكتشاف أنفسهم عن طريق اليوتوبية والأفكار المجلوبة والانفتاح على الآخرين).

٢ - تكوين أيديولوجية معاصرة سائدة:

ينكشف تاريخ التغييرات التي حدثت في الأيديولوجية السائدة خلال الفترات الحديثة في المجتمع الطبقي ذي التكوينات الرأسمالية (اقتصادية - اجتماعية) داخل إطار أشمل من الحركات القومية وسياسات الهيمنة عن خلفية من الفلسفة المثالية والنظرية السياسية الليبرالية التي يعتقد في كل منهما في إطار قواعد العقلانية والمنطق الصوري.

وكان انتقاد تلك المفاهيم - بعد هيجل - واحدا من أهم إسهامات الماركسية في الفكر الحديث والمعاصر. سواء على مستوى المنهج أو الرؤية العالمية (النظرة العالمية) ويصدر معظم ما سوف نبخته فيما يلي عن هذه المدرسة من الفكر، بل إن تصميم الأيديولوجية السائدة نفسها يصدر عن هذه المدرسة أيضا.

وعلى أساس من ذلك التاريخ يمكننا أن نقترح الخواص التالية للأيديولوجية السائدة:

فالأيديولوجية السائدة تشكل الإطار البنيوي الفوقي.. الأفكار.. النظريات الأساطير.. العقائد.. الذي يوفر - سواء على مستوى البنية الضمنية أو الصريحة - المبرر للنظام السياسي الاجتماعي ذلك النظام الذي يقدم طريقة "الصيانة المجتمعية" التي تطورها واحدة أو مجموعة من التكوينات الاقتصادية الاجتماعية القومية في مرحلة معينة من تطورها التاريخي. وعلى هذا الأساس فالأيديولوجية السائدة هي عنصر واحد من بنية مزدوجة، والعنصر الآخر هو الجهاز الفعلي المختص بالعنف العقلاني (أي الدولة).

ولكن هل من الممكن تحت هذه الشروط أن نتحدث عن أيديولوجية سائدة في الفترة المعاصرة.. هل من الممكن التحدث عن شيء مثل هذا مع وجود هذه الكثرة من الحركات المتناقضة وهذا الطوفان الذي يغرق كل الحدود؟

إن انهيار الميزان البنيوي الفوقي الكلاسيكي وتصدع النزعة الإنسانية العالمية تحت وطأة العالم الواقعي يشير ضمنا إلى أن إيجاد تركيب فكري موحد لم يعد ممكنا على الأقل في المرحلة الحالية.

فهل نستطيع إذن الاستمرار فى الحديث عن أيديولوجية سائدة؟ أليس الأكثر صوابا أن نتحدث عن أيديولوجيات مختلفة تقود ولاء الناس؟

لا شك أنه يوجد هنا إغراء كبير فى اختيار الحكمة الصارمة، وذلك يعنى فى المقابل أن نعطى المصادقية للبرجماتية التى يصدق عليها كل لحظة صخب الصراع الأيديولوجى... إن نهاية الأيديولوجية هى أمر موقع نظر، بل ومناسب إلى حد ما.

ومع ذلك فهذا الاختيار يشيع الاضطراب فى الهدف من واحد من أشكال الأيدولوجية بصفة عامة ولا سيما الأيديولوجية السائدة.. ذلك الهدف الذى يتمثل فى أن العالم مقيد بمعدل محدود نسبيا من التغير، مع الانتقال من ذلك الشكل الأيديولوجى إلى شكل آخر.. شكل معاصر. وفى واقع الأمر فإن تعدد "المقدسات" المعاصرة يمكن أن ينظر إليه على أنهيار للكون الفوق - بنوى وتأثيره إلى عدة أجزاء.. وسوف يتضح أن هذه المرايا الكثيرة يمكن النظر إليها وتفسيرها بوضعها عدسات متعددة تكوين البناء الأيديولوجى الفوقى بصفة عامة والأيديولوجية السائدة على وجه الخصوص. وهذه على أية حال هى المشكلة الكلاسيكية لقضية التغير فى التاريخ.

ودعنا نتخذ من هذه الافتراضات نقطة انطلاق، واثقين من أنها سوف تمحص فى سياق هذا الفصل.

فأين يتعين اكتشاف الأيديولوجية السائدة؟ ولو أنها أنجزت الدور الذى نقتصره فإنه إذن، وفى مجال الجدلية الاجتماعية للعالم الواقعى يتعين علينا أن نبحث عن العناصر المكونة لإشكالية الأيديولوجية السائدة، ما لم نكن راغبين بالطبع فى التمسك بأن عالم الأفكار ينمو من خلال التوالد الذاتى أو التلقائى.

والواقع أن الجدلية الاجتماعية فى العالم الواقعى فى الحقيقة المعاصرة تشكل بصفة رئيسية تغيرا سريعا ورائيكاليا على عدة مستويات وداخل عدد من الدوائر وعلى هذا النحو فإن إشكالية الأيديولوجية السائدة سوف تبرز من خلال دراسة

الخواص المحددة للعالم الواقعي فى وقتنا الحالى، وهذا يمكن أن يأخذ عديدا من الأشكال على الرغم من أن كل واحد من تلك الأشكال سوف يدور حول اختياريين مركزيين.. المحافظة والتغيير..

ويشكل اختيار المحافظة العنصر المركزى للأيدىولوجية السائدة.. كل الأيدىولوجيات السائدة، مع التسليم بأن كل أيدىولوجية سائدة تقترض سبل الاحتفاظ بها، فالقضية هنا إذن هى أى نوع من الإجابة يجب أن يقدم للأسئلة الكبرى لحقبة الأزمات هذه.. حقبة الحركة المزدوجة للتاريخ من أجل ضمان المحافظة على الأمر الواقع على النحو الذى وصفناها به، وعلى أية حال فتلك هى قضية كل عصر.. وعلى أية حال كذلك فقد صنف عصرنا وعرف بوصفه حقبة الاندماج العالمى وحقبة التحولات العظمى على كل المستويات وفى كل ميادين حياة الإنسان فى المجتمع، وبالتالي فإن مطلب التمسك بالأمر الواقع إذا ما اختاره المرء سوف يدفع إلى نهاية الشوط، وفى تلك المرحلة فإن اللعبة لا تعترف بأية قواعد غير قابلة للتغيير، ويحدد ذلك البعد الأول لتلك النظرة.. أى ثباتها فى مواجهة عالم يسير فى كل الاتجاهات.

ولكن ما هو الموقف الواجب من المرء تجاه هذه الحركة إذا نظرنا إليها من وجهة النظر الأخرى؟ سوف يكون من الواضح أنه لن يكون ممكنا تثبيت أى شئ بالمعنى الصارم الجامد للكلمة، ومن ثم تتجسد المشكلة فى التغيير المتكامل، بينما يضمن بعناية أن هذا التغيير لن تكون له تعقيدات بنىوية على الحركة الملموسة للعالم الواقعي، ويستطيع المرء دائما أن يقلل راجعا إلى الفلسفة المثالية للتاريخ ولا سيما فى شكلها المخالف (الديالتيكى أو الجدلى) بطبيعة الحال، ولكن قرن "الانتقادات" - الماركسية قد قوض بعنف مصداقية تلك الفلسفة فى تفسير الحركة بالرغم من إبقائه على مفهوم الحركة التقدمية للتاريخ فى شكل المادية الجدلية، والأكثر من ذلك أن إيقاع التاريخ قد ازداد قوة وتكثيفا إلى الحد الذى جعل الحركة والتغيير يأخذان وجها متسارعا يشكل ظاهرة.

إذن ينبغى الاقتراب من هذه الحركة بقصد معالجتها بطريقة إيجابية بمعنى أنها مشروع للأمام، أو ما يمكن أن يسمى التققيب المستقبلى التفسيري، لكن التماس

الطرق إلى المستقبل ليس أمرا سهلا، فإن أية دراسة واعية لحركة المجتمعات سوف تكشف بوضوح كم أنه أصبح صعبا إقامة علاقة مستمرة بين المثل سواء أكانت واقعية أم يوتوبية وبين تحقيق تلك المثل في العالم المعاصر، فهناك الكثير من أوجه عدم الاتساق.. فهناك أثر حربين عالميتين، وهناك نهضة الشرق، وهناك التغير العلمى والتكنولوجى، وأخيرا هناك تصلب الأشكال القومية والسياسية للدولة..

إن جنة عدن ليست فى متناول أيدينا.. والمجتمعات الجديدة التى خرجت إلى الوجود من رحم الصراعات الكبرى شديدة التعقيد التى تحدث على كل المستويات وفى كل مكان لم يعترف بها بوصفها تجسيدا للأمانى العميقة، وهكذا يصبح هدف فض الاشتباك فى كل هذه الظروف ممكنا، فالتغييرات المرغوب فيها يمكن أن تتحقق الآن عن طريق الإرادة الذاتية لأولئك الذين اختاروا الترويج إليها أكثر من تحقيقها كنتيجة للأعمال التى يتعهد بها من خلال التطبيقات العلمية فى العالم الواقعى فى إطار من التوازن العالمى بين القوى.

وباختصار فإن المشكلة هى ما يلى: كيف يمكن "إنتاج" تغيير مثالى؟ الإجابة هى أنه على قاعدة "إنتاج" النظرية وعلى قاعدة إنتاج التغييرات والثورات نظريا.. تلك التى لا تحقق من خلال التطبيقات العملية. إن سلاح "الزرعة النقدية" هنا هو القاعدة الأصلية، على ألا يكون بديلا لنقد السلاح نفسه أو الأداة نفسها.

وهكذا يمكن تجنب الكتلة المتعثرة للواقع، ويمكن استبعاد أى تحليل دقيق للعالم الواقعى بوصفه فلسفة وضعية أو تجريبية أو برجماتية، ويصبح كل شئ ممكنا على أساس من الإرادة الواعية.

إن علم المعرفة "الإبستمولوجيا" يمكن أن يحل هنا محل التطبيقات الثورية ونظريتها، على أن تولى وجهها شطر التاريخ والتأريخية النقدية المهمتين بالفشل فى الاستجابة للحاجة إليها فى الوقت المناسب وبالطريقة المطلوبة، وعلى أن ترفض الحياة السياسية وحاجتها إلى عقلانية جدلية محددة يمكن أن تقضى بسهولة إلى الانتهازية والإصلاحية أو اليأس بصورها المتعددة.

والإسهام الذى تقدمه هذه الرؤية فى إشكالية التغيير هو إدخال الوظيفة فى الخطوة المنطقية التى تأخذ التاريخ من نطاق المشروع إلى نطاق العمل..

فالأسطورة والأنساق وسلام الأنماط بوصفها معرفة دوجمائية (قطعية) تعنى أن كل شئ يمكن، ويجب أن يتنبأ به ويحسب ويوضع ويبرمج فى برامج.. إنه يتعين أن يكون ممكنا إنتاج أى شئ، ويستطيع المرء أن يرى كم أصبح حيويًا أن يخلق درعا من الإمكانات بالمعنى النظرى. وهنا تحل الجاذبية العلمية فى الاهتمام المعطى للجوانب العملية والأداء الوظيفى السليم نظريا "لعمليات" الاجتماعية التى تنتج على ذلك النحو.

ويأتى ذلك إلى النقطة التى يلتقى عندها أسلوبا الاقتراب (عن طريق المحافظة وعن طريق التغيير) وذلك لأن كلاهما يعملان فى إطار محاولات التعامل مع التناقض المركزى فى إشكالية الأيديولوجية السائدة المعاصرة والسؤال هو إلى أى مدى يتصارع هذان الأسلوبان؟ أو هل هما - ولنتكلم بموضوعية - فى علاقة (تعارض مطلق) أم أنهما غير متعارضين تعارض خصومة؟

دعنا نعود إلى أولئك الذين يدافعون عن المحافظة. إن الدفاع عن الأمر الواقع يقود مباشرة - كما سبق إن أشرنا - إلى "الثبات"، ولكن هذا الثبات لم يعد يتصور بالطريقة غير الطولية للنموذج الذى قدمه القديس توما الإكوينى.

لقد أصبح الثبات يتصور وبطبيعة الحال على قاعدة السير إلى الأمام فى العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية وبمعنى الإيمان بالشمولية، تكافلية كانت أم جدلية.. تلك التى توفر لنا عملية إعادة تركيب سلسلة من العناصر المرتبطة عضويا بقلب الظاهرة المفردة، ففى عصرنا الحالى يقدم الثبات نفسه بوصفة عملية بنائية بالأساس، وميزته الخاصة هى أنه يغطى تحدى التاريخ والتاريخية والمجتمعات الإنسانية التى سوف تظهر إلى الوجود كنتيجة للتطبيق العملى. إنه يقدم مفهوما معقدا للواقع لا هو غير طولى ولا مبسط، كما أن إيمانه بالشمولية والبنائية ومعطياته غير الملموسة حول صيرورة عالم الظواهر تسمح بالتعددية ولكن داخل نزعة توحيدية ثابتة هى فى آن واحد تاريخية ومناهضة للتاريخية وديناميكية ومعادية للديناميكية وثرورية ومعادية للثرورية.

إنها إذا شئنا أن نكون مدققين الوضعية الجديدة لعصرنا.. أى للأزمة العامة للهيمنة الإمبريالية وبصفة رئيسية فى الغرب - كنتيجة لظهور حركات التحرير والحركات الثورية فى العالم وفى الشرق بصفة رئيسية.

إنه من الجلى للغاية أن هذين الأسلوبين يصبان عضويا فى نفس الاتجاه.. فإذا كانت البنائية تشكل إطار العمل الأسمى للأيدولوجية السائدة المعاصرة، فإنه بالرغم من ذلك يتعين عليها أن تسعى للتكيف مع الحركة التى بمجرد تحققها يمكن أن تدمج فى إطارها العام.

وهذا التكيف يكمن فى خلق إجراء يسمح بإمكانية التغير النظرية دون ربط مثل هذا التغير من الجذور فى الحركة الديناميكية للعالم الواقعى، لأن ذلك هو هدف البرنامج الوظيفى.. أى برنامج وظيفى.. فإذا ما رؤيت الوظيفة بهذه الطريقة فإنها تكمل الفلسفة الوضعية الجديدة الثابتة للمدرسة البنائية بإضافة عنصر اختياري أو إرادى يتمثل فى نزعة إيمانية جديدة قادرة على كسب القلوب من العمليات التى تفصل نفسها عنها بازدراء أو تبقى بينها وبين تلك العمليات مسافة لا يتأتى اجتيازها.

ولهذا فإن التناقض الشكلى ليس تناقضا فى الأساس التكويني.. أى أن جناحى الأيدولوجية السائدة المعاصرة يكمل كل منهما الآخر على نحو جدير بالإعجاب.

وهذا الميل للالتقاء يصبح واضحا إذا نظر المرء إلى المسرح الثقافى عن قرب وخاصة فى أوروبا، فهناك الـ epigones للبنائية الماركسية المندرجة تماما فى الخطوط العامة للأيدولوجية السائدة، وهى محاصرة بالمعنى الحرفى بمجموعات من السدنة مؤلفة - على سبيل المثال لا الحصر - من متقضى الجناح اليسارى التقليديين وغير العضويين، ويتيح الإحساس بالأمان فى الإعلان الماركسى "للزنبقة" البنائية بأن يعاد إضفاء الرونق عليها، وهذه البنائية ومع التسليم بالحق فى وضع قوانين لمكونات الثورة - ترس فى آخر المطاف من خلال الأدبيات والإنتاج النظرى مصفوفة من الشروط الأساسية الصلبة للحياة السياسية والقوى المنغمسة فيها، وأخيرا للخطوط التى يجب اتباعها فى الميدان غير

اليوتوبى. فالطبقة السياسية المسيطرة فى الدول ذات النظام الرأسمالى أو الإمبريالى المهيمن ليست مضللة بأى معنى من المعانى، لكنها تفتح الأبواب على مصراعها للمعرفة الانفعالية وللشهرة أو الذيوع، وتوفر "البرنامج" السياسى وتعرف هذه الـ epigones بوصفها سلطاه، وهذه الاستنتاجات sons تساعد تلك الطبقة مساعدة هائلة فى لحظة الأزمة الحضارية التى تزرع تحت وطأتها المراكز المهيمنة القديمة.

ويمكن لهذا التحول أن يحدث باسم الماركسية وسوف يأخذ الـ boffins على عاتقهم مسئولية إلقاء الجدلية الاجتماعية تحت أقدامهم ووطأها بقوة باسم اليوتوبيا المفبركة سلفاً، والتى ترفع إلى مستوى المعرفة العلمية على قاعدة من "الإنتاج" الإيستمولوجى".

وهنا يأتى الشكل الدارج فيضيف ثقله كما أنه سيتم استهجان أنصار العقلانية النقدية التى تعتبر الماركسية أحد مكوناتها المهمة بوصفهم محافظين تنحصر نظرتهم فى الماضى تماماً وتثبت عليه كما يشعر الوضعيون بالقلق إزاء النشاط البراجماتى أو مثلاً تحيى الحفريات القديمة التاريخية ولكن فى الاتجاه العكسى، ويوجد فى كل ميدان من ميادين الثقافة وعلى كل المستويات العلمية دليل على هذا الميل إلى الالتقاء فى قلب الهجوم المضاد العام من جانب الغرب المهيمن الذى يعيش الأزمة. والشئ المدهش هو أن جامعى "المنتخبات" يمسونها بشق الأنفس حتى الآن، على الرغم من أنها حقيقة أن واضعى شروع تلك النظرية يقودوننا للتطلع إلى المستقبل البعيد.

من هذا التحليل للإيديولوجية السائدة المعاصرة يستطيع المرء أن يستخلص سمة عامة هى الفكرة السلبية القائمة برفض الاعتراف بالواقع والتطبيق العملى ووجدانية "المادى". وتجعل النزعة الإيمانية البنائية الجديدة بتقسيماتها الوظيفية تعزيز تماسك ما هو - فى مواجهة الحركة - خصوصيتها وشروطها أمراً ممكنًا، وهذه الفكرة السلبية تقدم بوصفها الإطار الفوق بنائى الأكثر عمومية للعالم (الذى يساندها ويقررها والذى تطورت فيه).

وهكذا عدنا للعالمية وجها لوجه مرة أخرى، فما دام هذا العالم - الغرب - قد اعتقد ويستمر في الاعتقاد بأنه - هو العالم ومركزه، فإنه قد فرض أيديولوجيته السائدة في مراحل زمنية مختلفة بوضعها أيديولوجية كل المجتمعات الممكن حدوثها، وعلى هذا النحو تقع أزمة الغرب في قلب الأيديولوجية المعاصرة السائدة، أى الفكرة السلبية الخاصة بالنزعة الإيمانية البنائية - الوظيفية الجديدة. ويترتب على ذلك أن الأيديولوجية السائدة لم يعد لها طابع عالمي أو طابع يمكن إضفاء الطابع العالمي عليه، وإذا أخذنا في الاعتبار سمات وصراعات الثورة الثقافية الصينية وهبة القوة اليابانية وعالمية الإسلام واليهودية فإننا نقف أمام الأمثلة وضوحا فحسب، ففي كل مكان في العالم يكون ما يعتقد فيه مختلف، سواء على أساس ما هو كائن أو على أساس ما الذى يفعل أو على أساس اتخاذ الحاضر تاريخيا، وقد أخفت الظلال ما كان في الماضى القريب نهضة وتنويرا أو يوتوبية ثورية. ففي مصادر الشرق "المنبعث والمصادر الثورية الأخرى يشتغل بالموروث عن الأسلاف وبالجديد معا، وتتحدث الأبحاث" والنصوص الأخرى عن البهجة والبساطة والسلفية. والقسوة والتسامح والانتقام والتضافر وبالطبع عن صين وقيتنام حملنا الآخرين معهما وأبغنا فكرهم، كما تكونت مثل جديدة مختلفة خارج مثل هذه المادة والمصادر الأخرى الأقل ليونة، وفي قلب هذه المثل تظهر طريقة التفكير الإيجابية الجدلية النشطة المتمسكة بالتناؤل والأخوة.

إن فالأيديولوجية المعاصرة السائدة هي أيديولوجية قطاع واحد من العالم لا يزال مهيمنا.. وهذه حقيقة، ولكن العصر الذى يبدأ الآن سوف يجلب معه تغيرات هائلة في تاريخ العالم. ذلك لأن الفكرة السلبية هي فكرة إقليمية.

إن التراث الأصيل للفكر الغربى يوجد في كل مكان.. في خاصية العقلانية النقدية للروح العلمية الحديثة.. وفي مثل الثورات وهذه هي نقطة الاتصال بين الحضارتين وهنا يكمن الوعد بعلاقة جدلية أصيلة بين هاتين الحضارتين.

٣ - المشروع النظرى:

٣ - ١ - الحقل الإشكالى:

بعد أن بدأنا تحليل اللحظة التاريخية للأيدولوجية المعاصرة السائدة، فإننا نستطيع الآن أن ننقل إلى المرحلة النقدية ونقترح بعض عناصر المشروع النظرى الذى هو الآن فى طور التكوين.

ويجب أن نبدأ بوضع "الصورة" مرتبة بادئين بمسألة اللحظة التاريخية للعمل النظرى منظورا إليها فى ضوء إيجابى ومستقبلى، أولا: يجب تعريف الحركة المزدوجة التى ترمز إلى انهيار توازن القوى العالمى ومغزاها بدقة.

ونحن هنا لا نتحدث عن قوة محسوسة مقومة بالميجاتون وإنتاج الكيماويات أو بعدد براءات الاختراع الممنوحة الخ.. ولكننا نتحدث عن فعالية القوة نفسها بمعنى قدرتها على قيادة زمام الحركة العامة لتاريخ المجتمعات الإنسانية خلال المرحلة المعاصرة من التاريخ وصوب المستقبل المنظور.

ويتعين أن تعول فعالية القوة فى المقام الأول على القدرة على وضع وسائل وأدوات القوة المادية والذهنية فى حالة الحركة وفى الإطار الذى تحتاجه لكى تبدأ عملياتها.. وذلك لأنها سوف تنجح فى تشكيل المستقبل فحسب إلى المدى الذى تكون قادرة فيه على تطوير قواها الكامنة الذاتية فى مناخ من أقوى إجماع ممكن بين جماهير الشعب المعنية، بمعنى آخر فالقوة ليست هى القوة فى "العمل" ولكنها فقط حالة تلك القوة، فالانتقال من قوة كامنة إلى قوة نشطة لا يتحقق أبدا بطريقة أوتوماتيكية ميكانيكية. إذ توجد بين "الكامون" والتحقق مرحلة أو خطوة - أو إذا شئت - مستوى الوعى، أى مرحلة أو خطوة الانتقال من الوعى التحليلى إلى النظرية. وقد كانت تلك - فى التاريخ هى طريقة أولئك الذين أرادوا حل التوازن الصعب لضخامة المشروع وتكليف الوسائل، وهذه المسألة ليست أكثر وضوحا فى أى مكان من وضوحها فى فكر صن ترو الذى أصدر كتابه (فن الحرب) قبل خمسة قرون من الحقبة المسيحية، ذلك أن أحدا فى العالم لم يطرح المشكلة بطريقة

أكثر وضوحا وكما وأن أحدا لم يهاجمهما بطريقة أفضل من طريقته، والدليل هناك فى كل ميدان من الحرب إلى التصوف وفى ميدان الاختراع من الاكتشافات إلى علم الجمال.

والآن دعنا نعود على الحركة المزدوجة للحقبة المعاصرة. فآزمة الغرب المهيمن لا تعنى انحطاطه أو اضمحلاله، فالغرب، وليس أوروبا فقط قادر وسيكون قادرا لفترة طويلة على أن يأتى إلى نقطة تتجمع وتتراكم فيها وسائل وأدوات الهيمنة على كل المستويات من الطاقة الثورية إلى الأيديولوجية.

ومع ذلك فالتصدعات تغدو أعمق فأعمق، كما تغدو إمكانات ممارسة الهيمنة فى المجالات التابعة والمستقلة أقل نسبيا، لأن تلك المجالات أصبحت مجالات الحركات التحررية والثورية. وهذه الشبكة المعقدة من العوامل هى التى تشرح انهيار المشروع العالمى الإنسانى (الهيومانى) الحضارى الذى كان جوهر الثقافة الغربية منذ العصور القديمة (العصور الأوروبية القديمة إذا شئنا أن نكون واضحين) مرورا بالهيمنة الإمبريالية والثورة الاشتراكية الأولى حتى العصر الثورى، وهذا هو جوهر الأزمة، ومع ذلك فالأشياء يمكن أن تستمر فى مسارها المعتاد.. ومن ثم فإبقاء النظام ليس محل تساؤل.. والاضمحلال لا يمكن قياسه بالإشارة إلى الأعراض المرضية بالغة الخطورة لانحسار الهيمنة الغربية أو آثارها على الشعوب التى هى الآن فى طور صعودها.

إنه فى هذه النقطة تتمركز مشكلة المشروع الحضارى. فإذا ما نحن درسنا فترة الصعود الأوروبى وفترة الصعود الغربى فيما بعد فسيكون واضحا أن الغرب كان قادرا على تكوين صورة للإنسان الذى يقف فى نقطة المركز من فلسفة الثقافة التى هى بدورها ليست ذات مراحل مختلفة فقط، ولكن أيضا التى تواجدت داخل إطار حضارى اسمه ومظهره الإنسانية العقلانية العالمية. وخلال تلك المرحلة المعقدة، فالشرق لم يكن فقط مستمر الوجود، ولكنه أيضا واصل القيام بدور طليعى فى الحركة حتى القرن الرابع عشر فى العالمين العربى والإسلامى وحتى القرن السادس عشر فى الصين من خلال الحضارتين العربية الإسلامية والصينية

وعلومهما على التوالي، ومع ذلك فقد كان الغرب وحده هو الذى استطاع تحقيق المحصلة التركيبية من الجمع بين تقدم البنية الفوقية الاقتصادية والتكنولوجية وبين المشروع الثقافى موضوعا فى قلب المشروع الحضارى مجسدا فى صورة العالم فى ذلك الوقت، وبعبارة أخرى فقط: اختص الغرب بالمبادرة التاريخية عن وجه حق وليس فقط - وكما نقول النظرية الماثوية المبسطة - بسبب قدرته على التلاعب أو قوة النيران التى استطاع تركيزها فى يديه، بل وليس حتى نتيجة للصدفة (أو للفرصة).

وهذا المزيج المعقد من العوامل يبدو الآن مركزا فى الشرق المعاصر، وبصفة رئيسية فى الصين واليابان، وعلى اتساع آسيا التى تسكنها ثلث البشرية والتى يتعين العثور على شعوبها ومواردها، إنه من السهل إدراك الاندفاع الاقتصادى لليابان التى أصبحت فى السنوات القليلة الماضية ثالث أكبر قوة صناعية فى العالم، كما أنه من الواضح وبالدرجة نفسها أن هذا التقدم هو نتيجة لمحصلة تركيبية جمعت معا نمونجا للصيانة المجتمعية مركزا على جماعية أوتوقراطية ذات بناء هيراركى قوى من ناحية وتكامل منضبط بدرجة عالية بين العلم والتكنولوجيا الحديثة من الناحية الأخرى. وقد تطور ذلك فى اليابان على أساس من رؤية لاقتصاد الطاقات الكامنة والوسائل التى تسمح بالتقدم على جبهة عريضة - أعرض ما يمكن.. ويثير الموقف من الصين صورا أخرى للمقاومة تنشأ من شعور الكراهية للشيوعية فى أية صورة، وهذا فى المقابل يحىى الذكريات الحديثة للصراع ضد الخطر الأصفر، وهذه هى نقطة التوقف لأولئك الذين جعلوا نقطة انطلاقهم هى المركزية الغربية والرفض العنيد لرؤية ما الذى كانت تواجهه الثورة الثقافية ببسالة، وهو كيف تطرح مشكلة العلاقة بين الحضارة والثورة؟ وكيف نأخذ المبادرة فى نشاط نقدى نظرى وعملى فى آن واحد ضد دولة وجهاز حزبى آخذين فى التعاطف؟ وكيف تحل بسرعة ولكن بطريقة مستمرة مشكلات الانتقال من مجتمع تآكل من جراء الأشكال البالية؟ ومن اقتصاد الجوع إلى تغير اقتصادى واجتماعى ذى كيفية استثنائية، مع ملاحظة أن ذلك يحدث فى مجتمع

يضم نصف البشرية؟. كيف تجبر الإمبريالية المهيمنة على التوقف وتراجع مسارها العام وتتفاوض مع الشرق الثورى الصاعد الذى كان حتى عام ١٩٧١ هدفا لازدراء عام؟ وإلى جانب هذين الجوابين ينبغى إضافة كوريا وكوبا.. وفيتنام قبل الجميع.. لأن حرب الإبادة التى شنتها الإمبريالية على الإطار الصغير لتلك الدولة على كل المستويات قد زودت المأساة الفيتنامية "بوضع" يحتذى به بالنسبة للعالم برمته إلى أبعد ما يمكن أن تصل إليه المحصلة التركيبية للجمع بين العقل والشجاعة والإرادة فى عصرنا.

هذه هى نقاط الانطلاق لمقولتنا بأن الشرق الثورى الصاعد قد أخذ زمام المبادرة فى العالم الذى بدأ يظهر الآن للوجود. ولقد قطعنا شوطا بعيدا عن حسابات الوضعيين. لأن التاريخ بعد كل شئ ليس مجرد تراكم للقوى، ولكنه بالأحرى انتشار للقوى.

إن انهيار توازن القوى العالمى مهما كان من الصعب قبوله هو عملية بالغة الفخامة وجليلة يغلف عمقها ومداهما وتعقدها بقاعه غالبا عملية ثانية فى طور العمل الآن فى العالم المعاصر لها التأثير القوى نفسه.

والتغيرات العلمية والتكنولوجية التى تحدث فى النصف الثانى من القرن العشرين مؤثرة وبالغة الفخامة، والوعد الذى تقدمه والأخطار التى تتطوى عليه أخذه فى الظهور بالفعل، وانفجار كوكبنا الأرضى - ذلك الزورق الذى أورثنا نيهنا الألفى فى الفضاء - هذه النقطة الضائعة نقطة اللانهاية فى تمدد الكون لم تعد مجرد رؤية فى العقل، ولقد بدأت البيوتوبية التقدمية التطورية تدرك الفرضية القائلة بأن كل شئ له حدود معرفة. وأن الشئ نفسه ينطبق على كوكبنا. والانفجار السكانى وموارد الطاقة والطعام وتخريب البيئة وتحرير مصادر الطاقة المدمرة التى يصعب بصورة متزايدة احتواؤها داخل حدود أمانة.. كل ذلك أضيف إلى الآثار "الناحثة" التى تعندى على الشخصية. فى مواجهة هذا الخطر يظهر التغير العلمى والتكنولوجى بوصفة فجر الخلاص الموعود. فكل شئ يبدو ممكنا، ومع ذلك فهذه الإمكانية نفسها هى جزئيا مصدر الخطر، وهذا بدوره مصدر ثان

للتطورات العميقة والمستمرة التى تتزاج مع المصدر الأول، والإيقاع الحثيث للتحول (الذى أخذ جيلين بالكاد) يباريه الانهيار السريع لتوازن القوى العالمى، والنتيجة هى أن الإطار الذهنى الذى كان لا يزال منذ أقل من قرنين له ادعاءات عالمية قد أصبح الآن - وبالتزامن - شيئاً بالياً، ومن ثم فقد أصبح ممكناً التفكير فى عملية إعادة تشكيل عميق للعالم لا يمكن التنبؤ بها مسبقاً.

إن العلاقة الداخلية بين هاتين العمليتين هى عنصر أساس بالمعنى الحرفى للكلمة فى العالم المعاصر، وإنه لتقليد دارج أن نقول إن تحولات العلم والتكنولوجيا هى فى صالح نصف الكرة الشمالى الغربى فقط، أى المجال المهيمن، فماذا عن بقية العالم؟ ولكن وكما رأينا فإن هذه البقية ليست "العالم الثالث" طالما أن قدرة القوة المهيمنة والدول الصاعدة على الإبقاء على الهامش بينهما هو أمر محل اهتمام وقلق، ولأن هذه القوى غير قادرة على التحكم فى إنجاز نتائج هذا التحول العلمى والتكنولوجى.

ففى الفترة الوسيطة ولمرحلة جيل أو جيلين، ومن الآن وحتى عام ٢٠٠٠ سوف يستمر الغرب فى تركيز القدرة الابتكارية الجوهرية فى يديه، وكذلك القدرة على تحقيق هذه الابتكارات. ولكن هذه ستكون فى أفضل الأحوال فترة انتقال من هذا الخلل الحالى فى الهيمنة إلى توازن جديد، فالثورة العلمية والتكنولوجية ليست شأنًا يخص الغرب وحده (وفى الواقع.. ليست أمراً يخص أجزاء معينة هى الغرب فحسب) ولكنها موضوع يخص العالم كله.

وهكذا فإن بناء وإشكالية المشروع النظرى المعاصر تتحدد على أساس اللحظة التاريخية لحقبتنا. وهذا هو السبب فى أن هذا الأسلوب فى الاقتراب من العمل النظرى يقودنا إلى التاريخية النقدية فى مجال الإجابة على غطرسة وتحكم النظرة للوراء التى تطرحها الفكرة السلبية.

إن فإن إشكالية المشروع النظرى المعاصر يمكن أن تتحدد على وجه الدقة كما يلى: فلكى نعرف بموضوعية عملية التداخل فى العمل عند قلب الجدلية الاجتماعية لزماننا، والتى قلنا إن عنصرىها الأساسيين هما انهيار وتحول توازن

القوى منظورا إليه من وجهة نظر المبادرة التاريخية والثورة العالمية التكنولوجية فمن الضروري والممكن أن ندرس الجدلية الاجتماعية للفترة الكلاسيكية (الصراع الطبقي - التطورية الإنسانية) بمصطلحات جديدة وعلى أرفع مستوى داخل إطار التكوينات القومية الاجتماعية الاقتصادية.. الأمم والمجالات الثقافية مندرجة فى الإطار العام للحضارات.

وفى الوقت نفسه فإنها لقضية مهمة على أساس ذلك الوعى الجديد والمتزايد عمقا أن نضمن كفاءة إدخال هذا العمل النظرى فى جدلية الحضارات التى بدأت تتكشف الآن فقط والتى مع ذلك تقود إلى المستقبل، ويمكن تحقيق ذلك بتحويل المتقنين التقليديين إلى متقنين عضويين يخدمون الناس ومستقبلهم.

٣ - ٢ الجدلية الاجتماعية:

يوضح موقع مشكلة الجدلية الاجتماعية ذاتها قضية تحقيقها التى هى المشروع النظرى.. وبالتزامن (أى معا فى وقت واحد) فإن تحقيق المشروع النظرى سيضمن وحدة أننا قمنا ببناء جدلية اجتماعية فى الحقبة المعاصرة من تاريخ العالم.

وبعبارة أخرى فالمشروع النظرى لا يتضمن ولا يعطى فى مانيفستو خاص به يحصل المرء بعده وعلى أساس تحليل الموقع على "إيستمولوجية" جوهر المشروع النظرى. أما ما يمكن وما يجب طرحه فى هذه المرحلة من العمل النظرى هو الرؤية العامة للعمل التى يتعهد بها، وعلى هذا النحو أيضا الرؤية العامة للمنهج الذى أثبت أنه مستمر للغاية، وأخيرا فالمرء يجب أن يكون قادرا على الإشارة إلى تلك المجموعات العنقودية من الإمكانيات التى تبدو معقدة غاية التعقيد وثرية فى قوتها الكامنة الخلاقة.

ويغطى العمل النظرى عملية تحدث بالفعل (وقد بدأت هذه العملية فى نظرنا عام ١٩٦٠) وسوف تستمر خلال عدد من المراحل بنفس حجمها الحالى عند نقطة البداية، وأيا كان النقد الذى سوف يستثيره هذا العمل فإنه يجب أن يطرح بوصفه جزءا من هذه المسيرة الطويلة أكثر من كونه نقدا لنص مفرد لا بد وأن يظهر خارج مجال الحركة بالضرورة كنص جزئى أو طائفى.

ولقد شرحنا لتونا لماذا نرى الجدلية الاجتماعية عنصرا مكملا للتاريخية النقدية في تعبيراتها المعاصرة ورؤيتها الأصلية الجديرة بالثقة، وهذا يثير بالضرورة علاقتها بالماركسية.

طبقا للمفهوم الذى طرحناه بالفعل فى عدة مناسبات - وخاصة فى مؤتمر اليونسكو حول ماركس بباريس ١٩٦٨ - فالماركسية تمثل أكثر صور التعبير تقدما فى التاريخية النقدية فى حقبة الثورات الصناعية والثورات البورجوازية الديمقراطية فى أوروبا وأمريكا، لكن ذلك يبقى داخل إطار الحضارة الغربية، ومن الطبيعى تماما أن التشديد منصب على الجدليات الاجتماعية الباطنة.. على صراع الطبقات والمجموعات الاجتماعية داخل الأمم التى وثقت من وجودها الطويل كأمم، والتى هى نفسها متجمعة داخل الإطار الحضارى العام والذى كان فى ذلك الوقت يمكن أن يعتبر العالم بالرغم من غارات هيجل ثم ماركس وإنجلز فيما بعد على جزء من الشرق، وبمجيئ لينين وستالين أصبحت هذه الماركسية واعية بالظواهر الخارجية.. الإمبريالية والمسألة القومية وميزان القوى العالمى. وكان ذلك هو الموقف الموضوعى للدولة الاشتراكية الأولى فى ذلك الوقت - فى أعقاب حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ - والتى وثقت وجهها لوجه مع نفسها ومع العالم سواء كان خصما أو صديقا أو حليفا لها..

وإذ ذاك أيضا بدأت إيطاليا الموحدة حديثا تجنى مشاكل التكامل السياسى والتجانس الاجتماعى والتوحد الثقافى، وإذ ذاك وجد أيضا فكر ماركس بدأت جنوره فى النمو، وامتد ذلك الإسهام الخاص بالماركسية الطينية الخصيبة فى وعدها أكثر من كونها عقيدة دوجماتية وطور فى تطبيقها على الخصوصية القومية الإيطالية - فماركسية جرامشى، ثم بالمىروتوليات فى أعقابها ومقتضا خطاه تشكل توجيهها خلافا خاصا ومثمرا للماركسية الثورية صوب التكوينات القومية الاقتصادية الاجتماعية فى أوروبا والحضارة الغربية.

إن هذا هو البديل للتجديد المزيف للإلهام اليمىنى والإصلاحى، كما أنه بديل للحديث الهوائى الذى إما أن يكون عالمية خادعة أو عبادة للآخرين.

وعلى الجانب الآخر من النهر يواصل تاريخ الحركات الثورية سيره، إذ يستمر خط مهيب بدأ من سلطان جاليف وتان مالاكا وم . ن . روني إلى ماوتسى تونج وهوشى منه وأيضاً وبصفة خاصة فى تعبيراته الهندية والإندونيسية والفلبينية واليابانية والمصرية والسودانية على الرغم من أن القليل منها هو الذى يعرف أو يفهم فى صياغة الماركسية داخل حركات التحرر الوطنى والثورات الاجتماعية فى دول الشرق. ففى هذه الأرض التى لم تأخذها الاشتراكيات الأوروبية فى حساباتها تحدت الإشكالية: ففىما بعد أصبحت هذه الدول المنطقة المفضلة للثورات والاشتراكية، وقد ألهمت الماركسية هذه النهضة القومية بالتوجه الاشتراكي وهذا هو فى الحقيقة الإلهام الأساسى للـ epigones للماركسية فى البلاد الشرقية، لقد اضطر العالم إلى الاعتراف بماو كزيم لصين شعبية، ولكن هناك محاولة للتقليل شأن الماركسية القيتنامية إلى مبادئ شعبية أخلاقية، أى بشارة جديدة للفقراء.. أما الآخرون فقد استمروا مجهولين أو أنه أسئ دراستهم أو شوهت سمعتهم.

والعنصر الأول فى العمل النظرى الذى يعد هذه المقالة مثل كتابنا السابق عن مصر ونطاق حركتها وانبعائها وأزمته ومستقبلها يجب أن يعتبر جزءاً من ذلك الخط اللئقانى الذى يفهم الماركسية كروية للعالم ومنهج لتحليل جدليات العالم الحقيقى، أى الماركسية التى صاغها جرامش وماو بصفة خاصة.. وكجزء من ذلك الخط ينبغى عدم تكرار الدوجما أو النصوص، ولا حتى كتابليات، ذلك لأنه توجد مؤثرات أخرى داخل هذه الإلهام الأصولى والمركزى.. صن تزو. ابن خلدون - هيجل - ليفيغر - ونيدهام.. الذى سوف يكشف تأثيره خلال تلك الصفحات.

ومع ذلك فالماركسية فى تجلياتها الجديدة هى حقا الملمم الرئيسى على مستوى النظرية، ومجرد اختيار مصطلح الجدلية الاجتماعية لتنظيم كلا من منهج العمل النظرى، والمقدمة الأولية لذلك العمل تشير بوضوح إلى تلك الاستمرارية على المستوى النظرى.

هذا هو مثلاً الأعلى. الانتماء النظرى والأيدىولوجى، لأن الجدلية الاجتماعية ليست "منتجاً" للنظرية من خلال التأويلات الإيستمولوجية، فهناك المصادر الأخرى التى تعمل أيضاً وبعمق.

وقد كان المصدر الأول وسيظل هو دراسة نقدية من الداخل participant . للحركات فى العالم وهذه الدراسة تشارك فى الجدلية الاجتماعية من خلال المساحة الشاملة للتعبير المحدد عنها ومميزاتها الخاصة المتداخلة العلاقات فيما بينها.

وحتى عهد قريب للغاية كان الموقف من الواقع مستمرا فى الإمداد بأاساسيات صرح نظرى مهيب، أى بأاساسيات رؤية موسوعية ومستقبلية للعالم .. وهذا هو الكون "العقلى" أو الذهنى الذى لازلنا نضرب فيه نائمين.. والذى لا تزال مكوناته أو عناصره تمدنا بالمواد التى تمكنا من الاستمرار فى المضى إلى الأمام.

ومع ذلك فيتعين علينا أن نكرر بدأب أن هذا العالم قد تفككت أوصاله، ومن ثم فإن الدراسة العضوية النقدية للحركات فى العالم وللجدلية الاجتماعية لعالم الواقع هى الوسيلة الوحيدة التى لا تزال تملكها فى الوقت الحالى (وأىضا فى المستقبل المنظور) لإعادة تشكيل تماسك المثل الأعلى فى أعقاب الانفجار. وإن فعلى أساس الدراسة النقدية المقارنة للواقع فى حركته الجدلية فإننا نستطيع استخلاص محصلات تركيبية جديدة بتدقيق، وهذه المحصلات التركيبية سوف تكون إطار العمل بالنسبة لنظريات المستقبل.

ولن يكون هناك مطلقا أى تساؤل حول الانسحاب (التراجع) من أجل فهم الأشياء بطريقة أفضل، ولكن الأفضل هو تمييز وترتيب عناصر الواقع المحدد: على الرغم من أن تلك هى الكيفية التى "يراكم" بها الحكماء "الإحالات"، ومن ثم يصبحوا وضعيين أصلاء..

إنها فى الجوهر مسألة التوصل إلى معرفة بعمق الواحد.. والإمكانات المهمة والعقبات الموجودة فى العالم الواقعى، والأفضل هو ضمان استمرار العملية الديناميكية فى المستقبل. ونحن نعرف أنه لا التأويلات ولا الإنتاج الإيستمولوجى يمكن أن يسود على ميزان القوى الذى يعمل فى العالم الواقعى، أن "عتلات" التغيير ستعمل وتوجد فى كل مكان، كما أنها توجد فى التنمية التى اقترحناها.

إن عالم الواقع فى الحقبة المعاصرة كما يفصح عن نفسه فى مسار الأحداث الجارية من خلال المعرفة العلمية والتطبيق لم يعد عالم العنصر الجدلى الاجتماعى

الباطنى المفرد على النحو الذى حدد منذ قرن مضى، ففى حومة وغى وصخب الصراعات المحتدمة فى قلب الغرب فإن العنصر الذى افترض أنه ترك خلف الأظهر - وهو حقيقة الأمة (ظاهرة الاتجاه إلى القومية والقوميات) قد فرض نفسه بوصفه "الرحم" الذى منه تنمو أردنا أو لم نرد - الجدلية الاجتماعية الباطنة، وبعبارة أخرى فهذا هو الصراع من أجل "السلطة" بين الطبقات والمجموعات الاجتماعية، لقد فرض ظهور المحيط التابع - أى القارات الثلاث المنسية والشرق فى آسيا وأفريقيا بالدرجة الأولى - الحاجة إلى فهم الحقائق التى ظلت صامته منذ عصر التوسع الغربى، وأدرجت التكوينات القومية الاجتماعية الاقتصادية - أى الأمم - فى الإطار الأوسع للمحيطات الثقافية الإقليمية.. أوروبا - العالم العربى - أمريكا اللاتينية - العالم الأنجلوساكسونى - شبه القارة الهندية. وهذه المحيطات الثقافية الإقليمية ذاتها يصل مداها إلى قلب الحضارات العظمى التى أكثرها أهمية حضارتين هما الهند وأوربية والصينية.. أما المحيطات الثقافية الوسيطة التى تقع بين هاتين الحضارتين فهى تقدم الدليل على صعوبات وعلى استمرارية جدلية الحضارات.

وهناك أربع دوائر للجدلية الاجتماعية بدلا من دائرة مفردة للجدلية الاجتماعية الباطنة أو المستترة.. فالعالم المانوى المبسط لم يعد له وجود على الرغم من أنه كان مناسباً ذات مرة لانتقالية الدول التى أسست على مبدأ الملكية وعلى الرغم من أنه أعطانا التمييز بين السماء والجحيم خلال الفترة القصيرة من الهدوء الذى ساد منذ معاهدة فينا إلى ثورة أكتوبر وبالتا وتأسيس الصين الشيوعية.

أربع دوائر.. بنيانها المحدد، وتركيبها المتداخل وتفاعلها التبادلى وكثافتها النسبية وخصوصيتها تستحق اهتمام الباحثين، أربع دوائر يمكن تقسيمها إلى مجموعتين: أو دائرتين كبيرتين إذا شئت، دائرة الجدلية الاجتماعية الباطنة: صراع الطبقات والمجموعات الاجتماعية داخل تكوين قومى اجتماعى اقتصادى مفرد، ودائرة الجدلية الاجتماعية الطائفة إذ كان للمرء أن يستخدم هذا الوصف - الأمم - المحيطات الثقافية الحضارات، ومضمون الجدلية الاجتماعية داخل كل دائرة منهما

متطابق: إنه مسألة ممارسة الهيمنة لتأكيد استمرار وضع المجموعة المعينة وتصور استمراريته في المستقبل.

دائرتان كبيرتان.. هنا يمكن للمرء أن يضع افتراضاً أولاً: فالدائرة الباطنة والدائرة الظاهرة للجدلية الاجتماعية تشكلان قطبي diad التي تبنى الجدلية الاجتماعية في الحقبة المعاصرة وسوف تستمر كذلك في المستقبل المنظور.

هذه الجدلية الاجتماعية نفسها أكثر خصبا وتعقيدا إلى مالا نهاية مما كان عليه تصورها منذ قرن مضى عندما حصرت في الصراع الطبقي وحده، وهي تسمح لنا بتصور مدى أكثر اتساعا من الأعمال الممكنة سواء كانت من النوع التكنيكي أى محدودة المكان والزمان بسبب حقيقة أنها نتاج لتداخل عدد محدود من العوامل أو كانت من النوع الإستراتيجي الذي يمارس تأثيره في المجرى العام للتطور التاريخي لأنها نتيجة نشاط شبكة من العلاقات الجدلية الفاعلة بين العناصر المكونة للدائرتين العظيمين.

على هذا الأساس يستطيع المرء أن يتقدم ويضع ثانياً افتراضاً تابعاً مباشرة من الافتراض الأول وهو "التلاقى" أو التقاطع بين الوجود الفعال في أقصى درجاته لكل من هاتين الدائرتين العظيمين - الطبقات - المجموعات الاجتماعية - الأمم - الثقافات الحضارات - في دولة بعينها .. إنه التلاقى أو التقاطع أو مجموعة من الدول بعينها خلال فترة من التطور التاريخي القادر على إنتاج التحولات الضخمة في المسار العام لتطور المجتمعات الإنسانية.

وعلى الناحية الأخرى فإن الفشل في التلاقى لا يفعل سوى أن يضعف الاندفاع إلى الأمام ويقلل من فعاليته، وهنا تأتي الانتقائية وأزمة المشروع الحضاري واليأس والفكرة السلبية.

بعد أن بيّنا المشروع النظري في قلب الجدلية الاجتماعية التي يستطيع المتفكرون العضويون عن طريقها القيام بدورهم الكامل بالتزويد بالخلفية وبالتفسير وبالرؤية المستقبلية، فإننا الآن نستطيع التمييز بين مستويين للعمل النظري في الحاضر وفي المستقبل.

وتسمح الجدلية الاجتماعية أيضا ببناء منظور طيفى ونظرى واسع على قاعدة من المدى الشامل للعناصر التكوينية للدائرتين العظيمين على مستوى عالمى.. أى على مستوى عالم متكامل فى نهاية المطاف فى العصور المتأخرة نتيجة لتطبيق اكتشافات الثورة العلمية والتكنولوجية على كوكبنا الأرضى ككل وكننتيجة للتحويلات الهائلة فى علاقات القوى على النطاق العالمى.

إن الوعى بالعالم الواقعى والعقلية المنهجية التى قدمناها إلى هذا العالم تزود العمل النظرى بميدان هائل للعمل مقياسه العالم كله، إنه ميدان للنشاط البناء حيث أن الطبيعة المجردة لفئات المثقفين قد تحولت الآن تحت وطأة نفوذ وضغوط التطبيقات فى المجتمعات المعاصرة.

والمرحلة الثانية هى إعادة تأسيس إطار التماسك النظرى بمعنى بناء الجهاز المفاهيمى ككل، وقد شرعنا فيما يجب أن تكون عليه هذه العملية عام ١٩٧٠، وهذه العملية وحدها هى القادرة على إرساء أساس مستقبل النظرية الاجتماعية وهى تتطوى على ثلاث مراحل: النقد، التمييز، وبناء سلم الأنماط، ثم عملية إعادة البناء نفسها وفى هذه المرحلة تأتى الفروض العلمية الجديدة والآراء والمفاهيم الجديدة.. وكذلك النظريات المسبقة، ثم يمكن إذ ذاك صياغة وفحص النظريات ذات الطبيعة الشاملة.. وكل واحد من هذه سيكون عنصرا مكونا ومؤسسا فى رؤية جديدة للعالم أو فى النظرة الغائبة للمستقبل.

(٢)

مستقبل النظرية الاجتماعية

١ - الحقيقة المزدوجة للتباين وعدم الكفاية

يبدأ السياق - الذى سوف نقدم خطوطه العريضة فيما يلى - من حقيقة أن النظرية الاجتماعية غير كافية، عدم كفاية الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية. وتتبع عدم الكفاية تلك بدورها وفى شكلها المقابل من حقيقة التباين، أى التباين فيما بين مجتمعات الغرب التى أسست المواد التحليلية الجوهرية للشروح المدققة للمفاهيم ولموقع النظم النظرية فى مختلف فروع المعرفة وبين المجتمعات غير الغربية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، على أنه لم يحدث أن اعترف بهذا التباين إلا فى سياق عمل الجيل الأخير فحسب، فمن الواضح أنه لم يعد ممكنا نفى وجود ذلك التباين بازدياد كمسألة مبدأ، ولكن التاريخ الملموس لمجتمعات العالم الحقيقى فى هذا النصف الثانى من القرن العشرين قد أثار اعتراضا على ذلك ليس من الممكن تذليله، ويبدو أيضا أن الوقت لم يحن بعد لكى تكون نتائج هذا الواقع - واقع الحقيقة المزدوجة - مقبولة على المستوى الذهنى، وبهذا المعنى فلا زال هناك طريق طويل يتعين قطعه.

إن المرحلة الحالية هى مجرد مرحلة أو نقطة تحول، ومع ذلك فليس من الواضح مطلقا أنه بإدماج ذلك الواقع فى جسد الفكر الاجتماعى والنظرى الشائع سيكون هناك ثمة تحول آلى إلى مفهوم دقيق يلتزم به للعمل كنتيجة لهذا الإدماج أو مقدمة له كذلك فليس من الواضح أنه سيكون هناك التزام بتحريك الوسائل اللازمة لتحقيق سياق العمل على النحو الذى حددناه تواء، فهناك عقبتان كبيرتان، فمن ناحية هناك تركيز الأدوات العلمية والثقافية الكبرى فى الغرب.. أى تركيز ثمار الإمبراطورية والثورة العلمية والتكنولوجية التى تشدد بدرجة ملحوظة من آثار ذلك التركيز، ومن الناحية الأخرى هناك الضعف النسبى لتلك الأدوات فى الدول الواقعة

فى محيط القارات الثلاث، وهذا الضعف يسرع أيضا باستنزاف العقول من تلك الدول، وهكذا ينبثق عن الحقيقة المزدوجة للتباين وعدم الكفاية تركيب من العقبات الأخرى.

ولكن ينبغي علينا - على أية حال - أن نمضى قدما فى الطريق النقدى الذى بدأناه عام ١٩٦٠، وقد كان من نتيجة هذا العمل أننا عزلنا سلسلة من العناصر التى يبدو لنا الآن أن صلاحيتها قد استقرت.. ويعد هذا الفصل جزءا من صلب هذا العمل.

٢ - من العالمية إلى النزعة الحصرية.

إن عالمية الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية هى الآن محل تساؤل، فقد فرضت الحقيقة المزدوجة للتباين وعدم الكفاية نفسها عن طريق إقحام عالم حقيقى يفرض حدوده الخاصة.

والعالمية بالمعنى الأخير، أى كصفة للجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية، لا كعملية لإدماج العالم - هى نقطة التقاء لخاصيتين ضمنيتين كبيرتين، وتتبع أولى هاتين الخاصيتين من حالة واقعية هى هيمنة أوروبا، ومن ثم هيمنة الغرب اقتصاديا وسياسيا وثقافيا وعلميا وتكنولوجيا وعسكريا، ليس فقط من خلال أزمة نظم الدولة الاشتراكية وحركات التحرر والنهضة فى القارات الثلاث والشرق الثورى، بل وأيضا من خلال تحجر الولايات المتحدة كقوة كبرى ومن خلال العقبات التى تعترض طريقها. من هنا فإن الحاجة إلى النظر إلى رؤية مستقبل المجتمعات الإنسانية بشروط تديم - إذا شئنا استخدام هذا التعبير الحلم الإنسانى لعصر التنوير بعالم موحد، عالم تلقى به العواصف والأعاصير فى هذا الطريق أو ذاك - لم تتخل رغم ما تقدم عن توكيداتها بوجود أحادية مزعومة، أما الخاصية الحتمية الثانية فهى عنصر تكوينى لكل أنواع التفكير العلمى وكل النظريات، وهى تقول بأن خواص المفهوم هى طابعه المجرد والعام فى وقت واحد.

وباختصار فإذا كان المرء يرغب فى تعزيز قول يكون منطقيا وواقعيا فى الوقت نفسه فعليه أن يعترف بعلاقات القوى وأن يفهم لغة المنطق معا، أى التقليد

وطبيعة الأشياء، إنه عند هذه النقطة يصبح ممكنا الاعتراف بحدود الجهاز المفاهيمي المرتكز حول الغرب وتعزيز مطلب العالمية كعملية إدماج للعالم، وإذا تجاوزنا هذه النقطة فسوف يكون من الممكن تحرير الحكم بعدم كفاية الطابع العالمي للجهاز المفاهيمي الذي يعد الآن في أزمة، وذلك على أساس من العالمية وباسمها.

٢ - ١

يعكس علم المصطلحات غموضا يفضى إلى محاولة إقامة تركيبية من شأنها استعادة التماسك بدون إهمال التنوع في الحركة، وهذا هو ما أشرنا إليه بوصفه البحث عن عقلانية ذات أشكال مختلفة متعددة.

وينبغي في المقام الأول قبول حقيقة التباين أو الاختلاف، وسوف تتعكس هذه المرونة الجديدة وهذا التوسيع للمنظور أول ما ينعكس في مستوى التحليل، أى فى مستوى توصيف الظاهرة الاجتماعية، ومن ثم فى إدخال هذه التحليلات فى النظريات التى يمكن أن تفسر هذه التحليلات، ويبين اختبار هذه العملية من القرب أن تضمين ما هو مختلف - أى تضمين التباين - فى صلب للنظريات الحالية يواجه مقاومة قوية، ويمكن التغلب على هذه المقاومة فى معظم الحالات من خلال القياس المتزايد الدقة والشمول، والذي يتجه لتغطية العالم كله وذلك عن طريق التحديد الدقيق لسلامة الأنماط (انظر جزء ٣ - ٢ فيما يلى)، إذ أنه يوجد رفض عميق الجذور للتصدي للمشكلة النقدية المتمثلة فى إعادة تركيب الجهاز المفاهيمي (العالمي) نفسه، ونتيجة لذلك تبقى الأفكار والمفاهيم بوصفها "قاعدة" خارج الحقل النقدي، لأن النشاط النقدي يجب أن ييتم شطر هذه الأفكار والمفاهيم بعيدا عن الاحتياجات المنهجية بدلا من أن يتجه إليها على أساس من برنامج محدد للعمل النظري.

إن فكرة التباينات (الاختلافات) والمتغيرات هى ذاتها التى تستبعد بطريقة غير حكيمة - فى سياق هذا العمل - رونق العالمية الذاخر إلى مستوى ثانوى، أفلا يجب علينا إذن أن نقرر أن نقبل ذلك؟ إن الإجابة سوف يقدمها حقل المجتمعات

المختلفة ذاته، لأن جذور قيام الحركات التحريرية والثورية وقيام الثورات القومية والاجتماعية لا توجد فى التحليل الماركسى بدرجة أساسية، وفى هذه الحالة ألا يمكننا استبقاء دور البنية الاقتصادية التحقيقية بالنظر إلى أنه حتى التحرر الوطنى والصراعات الطبقيّة تحيل إليها فى تمسكها بمهاجمة دائرة المحيط الخارجى والحقائق الباطنة، فإذا ما اختارت المجتمعات غير الغربية طريق العمل الراديكالى (طريق عمل التحولات الجذرية) لإنهاء انمطاتها وهامشيتها، فهل يمكن ألا تفسر هذه العملية بالشروط الاقتصادية؟ وفى هذه الحالة فإن ما سيكون محل عبث هو حق الحصول على النظام الاجتماعى المعتاد والمعاصر للمجتمعات الصناعية، ولكن ألا يضع الثوريون تأكيدهم فى غالبية الحالات على الإمبريالية بالشروط الاقتصادية والمالية، وألا ينظرون إلى الإمبريالية بوضعها مسئولة عن منع التقدم الاجتماعى والاقتصادى للدول الخاضعة لهيمنتها؟ إن الأمر يبدو كما لو كان من الممكن تفسير مطلب الاستقلال والحرية فى كل مكان وفى كل الحالات بوصفه غضب الأشخاص والمجتمعات الممنوعين من التصنيع والمضطرين للتخلى عن أرض المستهلك الموعودة وعن مجتمع الرفاهية.

إن مثل هذا التفسير يسمح للعالمية بأن تخضع للواقع المعاصر، وبأن ينمو لها جلد جديد، وسوف تكون العقلانية هى المفهوم الرئيسى الذى يجعل من الممكن ضم النمط المثالى للعقلانية الاجتماعية من وجهة النظر العالمية للرأسمالية الصناعية إلى ذلك النمط المثالى فى وقت ما هو نفس الوقت الذى سوف تضم فيه آلية مسيرة المجتمعات المظلومة المتخلفة الطريفة. وهذا التفسير يسير دون القول على هذا المستوى بأنه توجد متغيرات متعددة، ولكن هذه الحالة الواقعية ينظر إليها فى اللحظة التى يعترف فيها بها - بوصفها تضليل وعقلانية غير مرغوب فيها وهامشية تتألم الأطراف المعنية الأطراف المعنية نفسها من محاولة التغلب عليها. وتفسر الصراعات من أجل تحويل المجتمعات بوصفها صراعات كثيرة من أجل تحقيق العقلانية، وبطبيعة الحال فإن تلك هى طبيعة الصراعات بالمعنى التاريخى طويل الأجل، وكذلك من وجهة النظر الفلسفية، ومع ذلك فقد اختزل مضمون هذه العقلانية - وهذا هو مصدر التشويه الذى سبق أن وصفناه - حتى صار هو أبعاد

التكوين الاجتماعى الاقتصادى المهيمن كما هو اليوم، إذ أن هذا التكوين يوصف صراحة بأنه أكثر التكوينات التى يمكن أن يتصورها الناس فعالية وإتقاناً، ومن المفهوم أنه قادر على إصلاح وإعادة تشكيل نفسه فى الأزمنة بعدة وسائل.

إن ما هو واقعى عقلانى، وهذا الواقع العقلانى هو واقع المركز المهيمن ويقوم ذلك على قاعدة الحاجة إلى العقلانية التى تقع فى واقع الأمر فى قلب كل أنشطة الصيانة المجتمعية وفى قلب كل المشروعات الاجتماعية التاريخية، وهكذا فإن المجتمعات غير الغربية مدعوة إلى النمو داخل القالب الغربى، وهكذا تدور العجلة دورة كاملة من العالمية إلى النزعة الحصرية.

٢ - ٢

نستطيع الآن أن نحدد موقع المستوى الثانى.. أى مستوى التطبيق العملى ويتحقق ذلك من خلال تمثل المشاكل، المشاكل لا المواقف، لأنه حقيقة التباين يعترف بها - كما لاحظنا - منذ الوهلة الأولى، وباختصار فإنها مسألة إعادة اكتشاف للتمائل أو الوحدة ومن ثم العالمية (العمومية) على مستوى المضمون بالرغم من الحقيقة المزدوجة للتباين، وعدم الكفاية التى سوف ينظر إليها بوصفها افتراض علمى ولا شئ أكثر من ذلك.

إن التماثل هو عالمية المضامين والإشكالية، وهنا سيدخل بعد التاريخ متصوراً بطبيعة الحال بمعنى غير طولى، حتى يكون تطور مجموعة المشاكل - وليس مضمونها المحدد diachronic ببساطة وفضلاً عن ذلك فإنه سيصبح ممكناً بإدخال بعد التاريخ تقديم تمثل المشاكل كعملية للتقدم على جميع مستويات الوجود الاجتماعى.

إن ذلك هو الإلهام الكامن وراء الأفكار الأساسية التى طورت فى كل الميادين الكبرى "الأمم الجديدة، والإنشاء القوى" على المستوى السياسى، "والتنمية" فى الميدان الاقتصادى، "والثقافى" فى حلبة الثقافة، لقد أصبح واضحاً بين أشياء أخرى أن بعض ما يسمى بالأمم الجديدة (على تحرر الولايات المتحدة التى هى الأمة الجديدة الوحيدة فى العالم الغربى إذا تكلمنا حرفياً) هى أمم العالم القديمة ذات

التاريخ الذى يمتد إلى الورا قرونا وقرونا، والذى قد يمتد فى بعض الأحيان إلى آلاف السنين، وهنا فالتنمية موضع البحث تشير غالبا إلى نمو بدون تنمية.. تنمية للتخلف، كما أن الاقتحامات الثقافية ومحاكاة الغرب تكون مختلفة تماما عن صياغة ثقافية وطنية، ناهيك عن عملية النهضة.

ويظهر سجل القوات الأخيرة بوضوح بدءا بتجمعات المتقنين ومرورا بالجمعيات العلمية والسياسية إلى وسائل الاتصال الجماهيرى كم أن الفوضى عارمة، وغالبا ما تكون الفوضى عن إرادة، وكيف يؤدى نمو أحد الأطراف المقرون بدمار الآخرين إلى تقييم فهمنا للحركة الحقيقية للمجتمعات المعاصرة.

ومع ذلك فكل شئ موجود إذا قدم علم الاجتماع أو إذا قدمت النظرية الاجتماعية - بعبارة أكثر عمومية - الدليل على رغبتها فى أن تقحم نفسها وأن تصبح أكثر فاعلية فى النقطة التى تنشأ عندها الأزمة والتى يحدث عندها التفجر.. أى فى أن تكون فى توافق مع الأحداث.

وهكذا يتأسس الديالكتيك سيكون قطباه هما الخصوصية والعالمية، ويجد المرء هذا الديالكتيك فى التحليل السابق فى شكل العقلانية ذات المتغيرات المتعددة وفى تمثل المشاكل الذى يستطيع أن يزودنا بالمهم نحو المنهج النقدى التاريخى فى تناول مشاكل أزمة النظرية الاجتماعية ومستقبلها.

٣ - اللحظات الثلاث للعملية التاريخية:

إننا نشير مرارا وتكرارا إلى الأزمة لملء خلفية الصورة بما يسمح لنا بالتشديد على عمق وخطورة تلك الأزمة، إلا إنه يتعين البحث عن المسائل الجوهرية فى كل مكان، داخل العملية النقدية ذاتها، وهى العملية التى تحدث الآن فى البلدان المختلفة، إنها عملية مترددة وغير رسمية ومضطربة فى بعض الأحيان، ولكنها رغم ذلك ترتبط مباشرة بالطلب المزوج على التماسك الاجتماعى والنظرى المحدد، ويمكن النظر إلى هذه العملية على إنه بينما نظفت الأرض نسبيا وفى المجمل إلى حد كبير، فإن الجناح الثانى للعملية النقدية - أى البائدة إلى التجديد النظرى - لا تزال متململة بسبب انعدام اليقين.

إن هذا هو السبب الذى يجعلنا نؤمن بأن من الضروري أن نركز أفكارنا فى الميدان الأخير، فكيف يمكننا على أساس من الحقيقة المزوجة للتباين وعدم الكفاية أن نحقق إعادة تركيب هيكل الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية. إن المنهج العام القادر - من وجهة نظرنا - على تحقيق المشروع النظرى يبين بوصفه "تطوراً" من ثلاث لحظات: النقد، الرفض، ثم سبل إعادة تركيب الهيكل أو البنية".

٤ - التقويم النقدى للجهاز المفاهيمى:

التقويم النقدى بوصفه دراسة لاحتمالات الظاهرة المدروسة (وهى فى حالتنا الجهاز المفاهيمى: الآراء - الأفكار - المفاهيم وانتظامها داخل النظريات الموجودة) ليس رفضاً، وسوف يسمح لنا ذلك بصياغة عرض للمرحلتين الكبيرتين للتطور التاريخى للجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية، وأولى هاتين المرحلتين وهى العالمية، عالمية المحيط المهيمن لم تزل بعد مكانها للمرحلة الثانية.

وفى المقدر تطوير هذا العرض بدوره على مرحلتين:

أ - يجب وضع تمييز أولى بين كل من الجهاز المفاهيمى العلمى والجهاز المفاهيمى الإجرائى، ودعنا نقول على الفور إنه من وجهة نظرنا فإن كلا من هذين الجهازين له جذور وامتدادات فى الآخر كأداة كل منهما يتناول المجتمعات الإنسانية والجدلية الاجتماعية وأساليب الصيانة الاجتماعية فى كل الجماعات الإنسانية عبر التاريخ.

وكما أوضحنا فإنه من الممكن رغم ذلك تمييز كل فئة بإبراز السمة المهيمنة فى كل حالة على حدة، ولناخذ بعض الأمثلة، فالدولة "البرجوازية" هما بالقطع مفهومان علميان يحظيان بتعريف عام مقبول عالمياً، كما إنهما معاً لجان لكل الحالات التى ترتبط بكل فئة من الظاهرة (تنظيم السلطة، والعنف الاجتماعى بواسطة واحدة أو أكثر من الجماعات أو الطبقات بهدف الإبقاء على تطور النمط القائم من المجتمع الوطنى وضمانه فى الحالة الأولى، أما فى الحالة الثانية فيتميز التكوين الاجتماعى الاقتصادى بالملكية الخاصة لوسائل الإنتاج فى نظام للإنتاج

يرتكز على اقتصاد السوق والعمل المأجور) ومن الواضح أن كلا المفهومين لهما جذور وامتدادات في ميدان العمل السياسى، ولكن هذه الجذور وتطبيقاتها العملية قبل كل شئ لا تضيق من الحقل المعرفى (الإبستمولوجى) الذى تغطيه هذه المفاهيم، والذى صمدت جدارته العلمية بنجاح أمام اختيار النقد، وإذا أخذ مفهوم الدولة كمثال فيوسع المرء أن يقول إنه أيا كانت الأشكال التى تأخذها أو أخذتها الدولة عبر التاريخ من المجتمع العبودى حتى الاشتراكية، ومن الحكم المطلق إلى الليبرالية، ومن المحافظة إلى الراديكالية، فإن تعريفها المذكور آنفا يبقى صالحا بدرجة كبيرة.

إلا أن الشئ نفسه ليس صحيحا فى المجموعة الثانية، إذ يبدو أن الدولة القومية الديمقراطية على سبيل المثال تكشف عن شكل متقدم من هيكل السلطة ينمو أساسا فى مواجهة مع الإمبريالية، وتعد طبيعته الطبقيّة شيئا ثانويا بالنسبة للعملية السياسية القومية، وبوسعنا أن نرى كيف أن هذا الشكل مقيد فى بعض النواحي وفى ظروف معينة، ومن الناحية الأخرى فإن تعبيرا مثل "الدولة القومية المستقلة" - وهو يبدو أكثر دقة وأقل معيارية - هو تعبير علمى صحيح داخل الإطار العام لمفهوم الدولة، ومع ذلك فإن التعبير الإجرائى "الدولة القومية الديمقراطية" - يشير إلى توجه من جانب الدولة للعمل من أجل توسيع مشاركة جماهير الشعب أو للعمل باسم هذه الجماهير أنه - إذا شئنا القول - يقوم لنا فارقا مفيدا فى مجال تقويم الحقائق السياسية، وهو فارق يمكن أن يجد تعبيرا عن فى شتى المجالات بطريقة أكثر موضوعية، ومع ذلك فلم يعد فى الحقيقة من الممكن اعتبار أن ما يقصد هنا هو مجموعة من الدول التى اختارت فى إطار نضالاتها القومية ضد الإمبريالية أشكالا متقدمة من التنظيم الاقتصادى وسياسة خارجية للاستقلال الديناميكى (الحياد الإيجابى) ابتداء من نهاية الحرب العالمية الثانية تصاعدا. إننا إذن نتعامل مع ظاهرة حديثة، ومع إن هذه الظاهرة تدخل فى التحليل السياسى والاجتماعى المعتاد إلا أنها تغطى مضامين مغايرة ومعاصرة قادرة على إحداث تغييرات مفاجئة فى الاتجاه، ولذا فإن ما هو جوهرى هنا ليس الطابع العلمى للتعبير ولكن فائدته الإجرائية.

وبطبيعة الحال لا تشكل الأمثلة السابقة نموذجا، ولذا فإن ميدان علم الاجتماع السياسى - بل وأكثر من ذلك فإن الميدان الذى أصبح يعرف باسم علم اجتماع التنمية أو علم اجتماع الأمم الجديدة - هما الأرض المفضلة لهذا النوع من الاضطراب والغموض.

ب - وثمة تمييز ثان من نوع أكثر عمومية يحمل سمات الطابع العلمى للجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية - هو طابعه الجزئى أو القطاعى غير العالمى.

ويجب أن يقال - فى المقام الأول - إن هذا الجهاز ليس جزئيا أو قطاعيا بشكل خالص، فمجموعة المفاهيم والأفكار والتعبيرات التى استعارها هى مفاهيم وأفكار وتعبيرات صحيحة من الفروع العلمية الأصلية ابتداء من البيولوجيا حتى الفلسفة، وقد أسست هذه المفاهيم والأفكار والتعبيرات إطارا للفروع المتخصصة فى علم الاجتماع مثل "السلطة"، "تمط الإنتاج"، "الأيديولوجية"، "هياكل علاقات القرابة"، "الحياة الدينية"، "الثقافة"، "التنظيم"، "الأبنية القومية"،.. بين مفاهيم وأفكار أخرى عديدة، ويجب أن تميز بين هذه المجموعة الأولى وبين الإسهام الخاص لعلم الاجتماع، أى العلم الوسيط بين العلوم الاجتماعية وبين المنهج والرؤية التى تدرس من خلاله مشكلات المجتمع مثل "الكاريزما" و"الأيديولوجية الضمنية" والـ "Menianism" و"التضافر العضوى"، و"الرقابة الاجتماعية".. الخ. وفى الحقيقة يبدو أن مجموعة قليلة من المصطلحات هى التى نشأت عن فرع المعرفة المسمى علم الاجتماع نفسه، وهذا هو السبب الذى من أجله تركز التحليل على الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية ككل وليس على علم الاجتماع وحده.

وبطريقة أخرى فإن جوهر ما نتحدث عنه عندما تظهر هذه الفوارق هو أن المواد الملموسة - أى الواقع الاجتماعى، والخبرات التاريخية، وميدان استزراع الظاهرة موضع الدراسة - نشأت فى محلها فى العالم الأوروبى والغربى فى الوقت الذى اتخذت فيه العلوم الإنسانية والاجتماعية أشكالها الحديثة فيما بين القرن السابع عشر والقرن العشرين، وبعبارة أخرى فإن الحقائق (الوقائع) الموجودة والتى تشكل النظرية الاجتماعية الحديثة فى لحظة تكونها وتطورها ليست عالمية،

ولكنها غربية وأوروبية بشكل خاص، وذلك نتيجة لحقيقة الهيمنة الأوروبية ثم هيمنة أمريكا الشمالية فيما بعد منذ عصر النهضة حتى العصر النووي، حقا إنه توجد هناك بعض النقاط الدخيلة على هذا السياق، بل ويوجد "علم" تم بناؤه على أساس علم الفهرسة وتصنيف المؤلفات، ولكن لا آسيا ولا أفريقيا ولا أمريكا اللاتينية كانوا من المشاركين فيه في الفترة التي كان الغرب فيها مشغولا بصياغة رؤيته للعالم المادى (الحقيقى) من خلال ذلك التنوع الهائل من النظريات والفلسفات السياسية.

إن كيف يكون فى وسعنا أن نتخيل أن الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية الذى يشرح العالم المادى الحقيقى بصورة مفصلة قادر على إلهامنا بالعالمية؟ إنه يفعل ذلك فقط من خلال افتراض مبسط ومجرد هو مركزية الغرب.

إن هذا الطابع الجزئى للوقائع القائمة، والذى يكون النظرية الاجتماعية ككل هو ما يعطى هذه النظرية طابعها الجزئى لا العالمى الشامل.

ولكن أن نقول "جزئيا" لا يعنى أننا نقول "إقليميا" أو على الأقل فإن هذا الطابع الجزئى للنظرية الاجتماعية ليس فقط إقليميا ولا هو إقليمى بصفة جوهرية، ويعود السبب فى ذلك إلى أن ذلك الجزء من العالم الذى طور تلك الوقائع القائمة للعالم المادى (الحقيقى) والذى اختزل هذه الوقائع وإخضاعها للدراسة هو الجزء الذى مارس الهيمنة بصورة مستمرة طوال أربعة قرون، وهذه الهيمنة هى التى فى سياقها راكم ذلك الجزء من العالم الموارد والمعرفة (أى عملية التراكم الثقافى فى أوسع معانيها) دون سابقة تاريخية، وقد اندمجت فى أثناء عملية التراكم تلك مواد الدول والشعوب التابعة جزئيا، إلا أنها اندمجت كأشياء وليس كموضوعات، مع أن هذه المواد لم تغب قط عن الوجود، ومن هنا ينبثق التمييز بين خلع صفة الطابع الجزئى على هذا الجهاز المفاهيمى ككل وبين اتهامه بالإقليمية التى تتطوى ضمنا على أنه تجاهل بقية العالم كلية بدلا من معاملته معاملة هامشية والنقليل من شأنه كما حدث بالفعل.

إن الجهاز المفاهيمى الجزئى إذن - وهو على هذا النحو ليس مفاهيميا على إطلاقه - هو جهاز مفاهيمى جزئى يركز على الغرب، وتم وضع مفاهيمه سلفا،

إلا أنه - مع ذلك وفي الوقت نفسه - هو الجهاز الوحيد المتاح لتفسير المجتمعات الإنسانية وللطموح إلى التعميم، وهذا هو السبب الذي من أجله تتجسد وضعيته العلمية والإبستمولوجية في اللحظة التي ينحى فيها الطموح إلى العالمية جانباً، وهذه هي من وجهة نظرنا نقطة البدء.. أى جسد النظرية التي يمكن أن تزودنا بالفروض العلمية والتي بها يمكن تفسير عملية الاستكشاف المتماسكة للمجتمعات الإنسانية في عالمنا المعاصر مع ملاحظة أن هذه النظرية هي النظرية الوحيدة في جعبتنا، وبعبارة أخرى فإننا نرى عملية إعادة بناء النظرية الاجتماعية بوصفها المضمون المحدد لتطوير ونمو النظرية الاجتماعية ذاتها، وليس بوصفها رفضاً للجهاز المفاهيمي المرتكز حول الغرب.

وبفقد المثال التالي في توضيح هذه النقطة، وهو مأخوذ من الجزء (القطاع) الذي يحس فيه بأكثر الطرق مباشرة بوجود المجتمعات الأخرى، إنه قطاع الحقيقة القومية، فبالرغم من تنوع المدارس الفكرية فإن مفهوم الأمة قد عرف بأنه طريقة للصيانة المجتمعية (وحدة الإقليم والتوطن والنشاط الاقتصادي، وكذلك وحدة التطور التاريخي واللغة والثقافة والهوية الجماعية) التي ظهرت في فترة الرأسمالية الصاعدة؛ أى فترة قيام أوروبا على أساس الكشوف البحرية والنهضة وتجلى المعيار الشكلي لهذه الطريقة للصيانة المجتمعية بطريقة أكثر وضوحاً في مجموعة المجتمعات القائمة برسوخ على استمرارية تاريخية تعود إلى العصور القديمة، وكما نعرف فإن مصر والصين وفارس (إيران) هي النماذج الأكثر بروزاً، وبالإضافة إلى ذلك فإن تلك الطريقة نفسها للصيانة المجتمعية تتخذ أشكالاً مختلفة، وتبرز في مراحل مختلفة من التطور التاريخي، وقد كشفت عملية إعادة اكتشاف الشرق، ومن ثم أيضاً إعادة اكتشاف العالم المستعمر في الدراسات والبحوث الحديثة الطريق أمام عودة العوالم غير الغربية إلى الظهور، إذن فكيف يتأتى لنا أن نستبقى ذلك المفهوم للأمة والذي عرف في أوروبا القرن التاسع عشر متيقناً من نفسه ومن سمو مكانته سلفاً؟ ومن الناحية الأخرى كيف يمكننا أن نعمل إلا إذا بدأنا بذلك التعريف للمفهوم الذي سلف تصوره - طالما أنه افتراض علمي، وإلا إذا أعدنا تركيبه بعملية منهجية دقيقة، لأن المفهوم الوحيد الذي نملكه في هذه المرحلة

من مراحل المعرفة أن تنمية النقد وتطوره لم تكن قط عملية ثانوية (أى عملية تقسيم ثنائى) الآن أو فى أى وقت آخر.

٣ - ٢: تمييز وتنظيم الحقل المعرفى الإيستمولوجى: بناء سلم الأنماط:-

"لكى تحلل ثمرة البندق لابد أن تكسرها: من تعريف هيجل للتحليل، وبما أننا أنجزنا توا ذلك التحليل المتقدم، يتعين علينا الآن أن نتحرك إلى الأمام صوب مستوى ثان ونرتب العناصر مع إعطائها فى تشتهتها وتنوعها تماسكا وشكلا، وسوف يكون ذلك مرحلة سابقة على "التركيب" وعلى إعادة تركيب الجهاز المفاهيمى.

ومع ذلك فأين يجب علينا أن نجد "المبدأ التركيبى" أو المنهج - إذا شئت التعبير - الذى سوف يسمح لنا بأن نضع العناصر التى باعد بينها التحليل جنباً إلى جنب مرة أخرى؟.. هنا توجد صعوبات حقيقية، لأن التشتهت على مستوى عالمى وبالقطع فإننا نستطيع أن نتخيل طرقاً لحصر التنوع بدءاً من بناء سلم الأنماط المثالية بإيهام ماكس فايبر إلى سلم الأنماط البنائية الوظيفية الأكثر معاصرة، ولا يهتم النقد الأصلى الذى وجهناه إلى هذين الأسلوبين فى التناول بطابعهما الشكلى ولكنه معنى بطبيعتهما الجامدة غير القادرة على التوليد وغير الجدلية، لأن كل عملية ترتيب منهجى وكل عملية تنمية علمية لا بد وأن يكون لها وبالضرورة جانبها الشكلى القابل فى اللحظة الأخيرة للتعبير عنه رياضياً.

ويسير بناء سلم الأنماط، أى المرحلة الثانية من العملية النظرية التى شرحناها فى اتجاهين:-

(أ) - فى المرحلة الأولى يجد تطبيق المنهج التاريخى النقدى على تعريف محتوى خصوصية المجتمعات التى ندرسها، وإيجاز شديد فإنها مسألة عزل الطريقة المحددة للصيانة المجتمعية فى مجتمع بعينه على أساس من الدراسة النقدية للتطور التاريخى للتكوين القومى الاجتماعى المعطى، وتتضمن هذه الطريقة المحددة للصيانة الوسائل المحددة لترتيب أنساق التفاعل الداخلى للعناصر الأربعة الرئيسية التى تشكل كل عملية الصيانة المجتمعية: إنتاج

الحياة المادية داخل إطار جغرافى سياسى (جيوبوليتيكى) بينى (أيكولوجى) (أى نمط الإنتاج)، ثم إعادة إنتاج الحياة (الحياة الجنسية والتناسل) ثم النظام الاجتماعى (السلطة والدولة) وأخيرا العلاقات بمرور الزمن (النوعية المحدودة زمنيا للحياة الإنسانية، والعقائد الدينية والفلسفات) ويمثل إنتاج الحياة المادية بين هذه المجموعة من العناصر المكانة الحاسمة فى ترتيب طريقة الصيانة - ولكن ذلك يكون فى التحليل الأخير.

وسوف يمكننا تطبيق هذا النموذج على المجتمعات المختلفة من تطوير فكرة أولية عن النسق ككل، ومن إضافة الظلال والألوان - إذا استخدمنا لغة التعبير بالرسم - إلى التحليل الأول الذى أنجز على أساس المعيار الاقتصادى والاجتماعى.

(ب) - ما دام ذلك قد اتضح فإن التكوينات القومية الاجتماعية الاقتصادية المختلفة تقدم صورة تجعل "التعيين أو التمييز أمرا بسيطا مسيبا، وفى الواقع فبينما يسمح العديد من المجتمعات مثل المجتمعات المائتة على سبيل المثال بالتمييز على أسس اقتصادية، فإن مجتمعات أخرى تغزو أهمية أكبر إلى الرباط الموحد للدولة: الولاء الأيديولوجى والاتصال الداخلى، المكان والعوامل الجيوبوليتيكية.. الخ، أما ما نحن معنيون به هنا فهو التمييز التفصيلى وليس تحليل محتوى محدد، وقد عرضنا النموذج الخاص بذلك التمييز التفصيلى بالفعل أنظر (أ) آنفا.

ودعنا نعود إلى المفهوم الموضوع سلفا للأمة، وفى اللحظة التى يكتمل فيها التحليل النقدى تكون المهمة هى وضع جدول منظم للأنماط الكبرى للمنظمات الاجتماعية التى تقع ضمن الحقل المعرفى (الإبستمولوجى) وسوف يشكل كل ذلك حينئذ سلما للأنماط، وسوف تنشأ المشكلة عند تبين أى العوامل فى هذه الطريقة المقررة لصيانة المجتمعية أى صيانة الأمة يظهر إنه العامل الحاسم، إن نقطة البدء هى التحليل الحذر للمفهوم الموضوع سلفا والذى يعتبر افتراضا علميا عاملا. إنه الاستمرارية داخل الديمومة. وهذا هو ما نطلق عليه عمق الحقل التاريخى الذى

يعطى كل عامل مؤسس (مثل الحياة الجماعية، والموقع الجيوبوليتيكي، والوحدة الاقتصادية، واللغة والنفسية الكلية) دوره فى الأمة. إنه بدون هذا العمق للحقل التاريخى فإن كل عامل من العوامل المشار إليها يمكن وبنفس الدرجة أن يميز (أو يعرف) ظاهرة اجتماعية أخرى هى نفسها مزودة بهذا العمق، أو العكس بدرجة كبيرة أو صغيرة، إذ يمكن خلق جماعة دون أن تشكل جزءا من الأمة (المدن الجامعية على سبيل المثال)، فالمكان يمكن أن يخدم بصفة مؤقتة كمساحة للوجود المجتمعى لجماعة مغايرة للجماعة المكونة من أبناء البلد الأصليين مثل الإلزاس واللورين بين عامى ١٨٧٠، ١٩١٨ وفلسطين بعد عام ١٩٤٨، وذلك دون أن تصبح هذه الجماعة جزءا مكونا للأمة، ويمكن أن يقال الشئ نفسه على كل عامل من العوامل المكونة، وقد أصبحت هذه العوامل مكونة للأمة نتيجة لوجودها المتزامن داخل ديمومة تاريخية مستمرة تظهر هى نفسها بارزة بطرق عديدة متنوعة.

وهكذا فإن سلم أنماط الأنواع المختلفة للأمة، أى التكوينات القومية الاجتماعية الاقتصادية المختلفة سوف يوظف - على أساس من فكرة التكوين الاجتماعى الاقتصادى - فكرة عمق الحقل التاريخى بطريقة تفضيلية، فى ضوء الطبيعة الخاصة لمفهوم الأمة ذاته.

أما فى المجالات الأخرى فإن الشئ نفسه لا ينطبق بالضرورة، إذ لا يمكن لمفاهيم وأفكار مثل "الرقابة الاجتماعية" و"الثقافة" و"التنمية" والتصنيع - ولا ينبغى لها - أن تستخدم فى النموذج التفصيلى الملائم، ذلك النموذج الذى يتطابق فى الواقع مع ما يشكل الجوهر العميق لخصوصية كل من هذه العمليات.

إننا ينبغى أن نؤكد على هذا الجانب من الاستخدام التفضيلى غير الخالص للجوهر العميق، إذ أنه توجد فى حقيقة الأمر وجهات نظر تحليلية، أخرى كما توجد نماذج أخرى تحجب الجوانب الأخرى للظاهرة المدروسة تمثل استبدال مفهوم الأمة "بالتضامن الاجتماعى" أو "الهوية"، والاستخدام التفضيلى وحده هو الذى يسمح ببناء سلم أنماط يكون غير تحكمى ما أمكن، إلى حد أنه سوف يركز

على الدراسة المحدودة للجوهر العميق ولخصوصية كل ظاهرة وكل مفهوم وكل موضوع للدراسة وإعادة التركيب.

وبوسعنا أن نرى كيف أنه من الممكن في هذه المنطقة الأولى البارزة بناء سلم لأنماط التكوينات القومية في المجتمعات غير الغربية.. الدول الجديدة ذات الوجهة القومية، والدول القومية الجديدة ذات الوجهة الوحشية، والأمم والدول القومية ذات الأصل الأوروبي المفروضة من أعلى على كيان أجنبي منسق وبائد (هو في الحقيقة كيان أبناء الأرض الأصليين) وأخيرا الأمم المنبعثة، ولكي نضمن معيارا كونيا فلا بد من إضافة فئة خاصة إلى القائمة؛ وهي فئة الدول القومية الأوروبية وهي على وجه الدقة الدول التي شكلت خبرتها عملية تركيب المفهوم المتطور سلفا للأمة.

وسوف يختلف مدى انطباق المجتمعات كل على حدة داخل كل واحد من سلاسل الأنماط هذه على المعيار الأصلي لكل نمط، إلا إننا سوف نكون قادرين في مرحلة لاحقة من عملية التقنيّة المفاهيمية، على أن نضع وبطريقة مفيدة مجموعات فرعية كلما أمكن ذلك للتمييز فيما بين المضامين (المحتويات)، وسوف يسمح لنا ذلك بالتوغل الأعمق في الفهم العلمي للظاهرة موضوع الدراسة، ويجعل هذا الفهم أكثر دقة، وهكذا فإننا نستطيع أن نميز بين الأمم المنبعثة في النمط رقم ٤ على سبيل المثال، وهي بصفة رئيسية مصر والصين وفارس، فهي التي يظهر أنها المثال الوحيد للتكوين القومي الموحد، والذي حصل بصفة مستمرة طوال القرون الست عشرة الماضية على دولة متمركزة في آن معا.

لقد أفضى بنا التحليل النقدي على المفاهيم الموضوعية سلفا، والتي تمكننا باستخدامها كفروض علمية لأغراض البحث من وضع سلاسل أنماط مفيدة داخل كل حقل معرفي (إيستولوجي). فهل أصبحت المرحلة الثالثة مرحلة إعادة تركيب المفاهيم وإعادة عالميتها إليها ممكنة الآن؟

٣ - ٣ إعادة تركيب الجهاز المفاهيمي:

في اللحظة التي تنكسر فيها البندقة فإن العناصر التي منها تكونت، والعناصر التي يمكن أن تكون "بندقة" أشمل ترتكز على العالم الحقيقي (المادى) بدلا من

البندقة التى تكسرت، تستطيع - بل ومن الممكن - أن تسهم فى إعادة تركيب المفاهيم والأفكار والـ Notions والنظريات التى منها يتألف الجهاز المفاهيمى ذاته.

وتبدو العملية سهلة بما فيه الكفاية فى المرحلة الأولى، إذ يمكن للمرء أن يستخرج من المقدار المتواجد جنباً إلى جنب من العناصر المؤسسة ودون نفقات جديدة تكويناً لشمولية مفاهيمية، وسوف تصبح الحقائق (الوقائع) القائمة (المعطيات) فى العالم الحقيقى (المادى) والوجود المتناسك للمجتمعات المحددة فى الزمان والمكان بنفس الطريقة عنصر التكوين التجميعى للعالم المفاهيمى الجديد، ولكن أى تجميع مهما يكن تكوينياً (تأسيسياً) لا ينتج تكويناً لمجرد أنه موجود، ولكنه يسمح بتفاعل (عملية) يجرى حدوثه تحت أفضل الشروط الممكنة.. وهذا هو كل ما فى الأمر.

لقد عرفنا عملية الصياغة النظرية بوصفها تتضمن إعادة تركيب الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية. ويعنى هذا أن المشكلات والصعوبات سوف تكون هى بالقطع نفس المشكلات والصعوبات التى تنشأ فى أية عملية للصياغة النظرية ومع ذلك فسوف يتخذ عدد معين من المشكلات والصعوبات طابعاً خاصاً، وهذا هو السبب فى أننا يجب الآن أن نواصل دراسة بعض النقاط الأساسية:

(أ) إن عملية الصياغة النظرية تلك لن تكون أكثر من وضع العناصر التى نستطيع الرجوع إليها فى مجموعها (الظاهرة وتحليلها) جنباً إلى جنب بمجرد ما أن تكتمل العمليات التى سوف نناقشها فيما يلى، وبعبارة أخرى فنحن لا نتحدث هنا عن عناصر يعيش بعضها متكافلاً مع بعضها الآخر، ولا نتحدث عن مؤاخاة أو "مساواة" بين القياسات الوضعية فى هذه المرحلة من العمل، ولسوف يتعاضد الإغراء الوضعى - إذا بدا أنه سيجعل نقطة بدايته نفس الطريق الذى - إذا صح التعبير - قلب هذا البحث رأساً على عقب، أفلا يتعين إذن على المرء - بغض النظر عن إخلاصه للتعقيد الوضعى أن يحاول تقديم شرح تفصيلى ومدقق لهذا العالم من الاختلافات ومن الأشياء الأخرى المتعارضة أو المتنافرة؟

لكن ذلك سوف يتركنا فى مرحلة وضع سلاسل الأنماط أو فى مرحلة مزامنة سلاسل الأنماط فى أفضل الأحوال، وبوسع المرء أن يرى إلى أى مدى يمكن أن تخدم هذه الرغبة فى الدقة الصارمة - مع التشديد على الفلسفة الوضعية - كدفع مؤيد وكأرض خصبة للمنهج، إن النماذج والمعادلات والتوريدات سوف تسمح لذلك "التأبلوه" الثابت بالحركة، وسوف تقود الوضعية إلى الاصطناعية، وعندئذ تكون حركة العالم قد شوهت.

ومن المهم فى كل عمليات الصياغة النظرية (وهى هنا ربما تكون أكثر أهمية من أهميتها فى معظم عمليات الصياغة النظرية الأخرى) التأكيد على التركيب النقدي الذى يميز النظرية كلها، والشئ الجوهرى هو الدراسة النقدية المقارنة للعوامل التى تظهر قدرتها على التصميم من بين العوامل التكوينية فى مختلف سلاسل الأنماط.. أى عوامل إدماج العناصر التكوينية فى مفهوم مركب وسوف تبقى العوامل الجزئية الأخرى الأكثر تقييدا خارج المجال المحدد لعملية إعادة التركيب هذه.

(ب) سوف يسمح هذا التركيب النقدي فى اللحظات الأولى بإعادة تركيب الجهاز المفاهيمى، وسوف تعنى إعادة التركيب فوق كل شئ بالمفاهيم والأفكار والـ Notions والنظريات التى سوف يعتد عليها فى النقاط المحورية للعلوم الاجتماعية، ويجب أن يأخذ هذا الاهتمام أسبقية على كل العمل الذى يتم فى ميدان المفاهيم إلى الحد الذى تشكل عنده المفاهيم جذور وإطار البناء نفسه ككل، أى يجب أن تأخذ مفاهيم مثل "السلطة" و "الأمة" و "الثقافة" و "الأيديولوجية" و "الرقابة الاجتماعية" و "الحركات الاجتماعية" و "الدولة" و "الطبقات الاجتماعية" و الأولوية بين المفاهيم الأخرى.

وعند هذا المستوى من التعميمية فى عملية الصياغة النظرية سوف نعيد مباشرة ضم الأبعاد المتوازية للنقد الفلسفى، ولن نستطيع إسهام أية نظرية عميقة الجذور فى حقل محدد من حقول المعرفة الاجتماعية إلا أن يخدم هو نفسه فى توضيح العملية النظرية والجهد الإستمولوجى، وهما عملية (تفاعل) وجهد

يواجهان مخاطرة التحطم على صخور الصورية إذا تركا داخل البعد المنعزل الخاص بالنقد الفلسفي، فإذا ما اعترف بذلك فإنه أبعد ما يكون عن النتائج الضئيلة للعملية الذي عرضناه هنا.

(ج) هل يعنى ما تقدم أن قيمة إعادة التركيب تنحصر فحسب فى الجهاز المفاهيمى الذى هو نقطة بداية هذه العملية؟ وبعبارة أخرى هل عملية إعادة التركيب عملية محافظة بصورة خالصة، أم أنها تستطيع أيضا أن تسمح فى التجديد؟.

إننا نعود هنا إلى النقطة الأولى (جزء ٣ - ١)، فما يتعين علينا إعادة تركيبه هو الجهاز المفاهيمى الذى منحنا إياه تاريخ العلوم الإنسانية فحسب إلى أنه ربما يخل إلى البعض أن عملية إعادة التركيب بوصفها الشئ المركزى فى النظرية الاجتماعية ككل سوف تتجز فحسب عملية إعادة تركيب محافظة منقحة أو مفسرة، وبهذه الشروط سوف ينظر إلى الجهاز المفاهيمى على أنه افتراض بحثى علمى، أى المادة الوحيدة الموجودة فى حوزتنا من الفروض البحثية العلمية.

فإذا كانت تلك هى السمة الأساسية للعمل الذى نسير فيه، فإنه من المهم للغاية أن نعترف أن المصدرين الكبيرين للتجديد والخلق فى حقبتنا وهما ظهور القارات الثلاث فى العالم المعاصر، والثورة العلمية والتكنولوجية قد جعلتا فى الإمكان صياغة عدد متزايد من الأفكار والـ Notions والتحليلات، وسوف يعين ذلك حدود حقل إيستمولوجى جديد، كما إنه سيمكننا من بناء "أجساد" جديدة للنظرية ومن بناء مفاهيم جديدة، وذلك على أساس من الاضطراب الهائل الذى حدث فى العالم وفى معرفتنا عن كثير من مستويات ومظاهر الوجود.

لقد وضعنا - فى هذه النقطة الأساسية - تأكيدا ملحوظا على العامل الأول من هذين العاملين، ونعنى بالعامل الأول ظهور محيط القارات الثلاث، لأن خروجها إلى العيان بعد طول بقاء فى الظلال قد قلب رقعة الشطرنج الاجتماعية والسياسية رأسا على عقب بطريقة باهرة بالأبصار، كما أن هذا الظهور قد زود قضيتنا بالمصدر الرئيسى للتجديد فى حقل العلوم الاجتماعية، ومع ذلك ينبغى الاعتراف بأن العامل الثانى - القدرة على التكنولوجية والعلمية - قد دخل بدوره ساحة

المناظرة فى كل ميدان من ميادين، الوجود الإنسانى بكل صوره وذلك على الرغم من أنه معدل التسارع هذا أقل من أن يرى حقا حيث أن العادات المحافظة وميكانيزمات التعطيل تنمو بطريقة أسرع.

٤ - التوجيه إلى وجهات بعينها؟

من غير المجدى أن نحاول حصر عملية نظرية بمثل هذا العمق داخل قالب منهجى يمكن التنبؤ بمساره ومحصلته من البداية، ذلك أن المستقبل هنا كما فى أى مجال آخر لا يكون قد تحدد بعد.

ومن ناحية أخرى فإنه مما يستحق المحاولة أن نلقى الضوء على بعض المشكلات المتباعدة التى سوف تصبح العملية النظرية الجارية الآن، والتى ينبغى أن نحاول تعداد آثارها الانحيازية.

٤ - ١ - السمة الأصلية للمنهج النظرى الذى نواجهه هنا هى أنه علمى أكثر من كونه منهجيا أيديولوجيا، ومن الناحية الفنية فالمنهج الذى شرح أنفا هو منهج تاريخى نقدى فى طبيعته العميقة، ومنهج مقارن بحكم الضرورة فى المناهج التى يتبناها، وهذا نتاج للتشتت البالغ للظاهرة الاجتماعية والتكوينات المجتمعية داخل إطارها الثقافى القومى والحضارى على النحو الذى يكشف عنه هذا الإطار - كلما مر الوقت، وهكذا فإنه - أى هذا المنهج - يغذ سيره ليصير نقدا.. أى دراسة للاحتتمالات المحددة للظاهرة والتكوينات، والغرض هنا هو اختبار أى أجزاء الجهاز المفاهيمى الذى يؤخذ هو نفسه كفرض بحثى سوف يبقى صادقا، إذن فإن هدف هذا المنهج - مثل كل العلوم - هو الاحتفاظ بدرجة عليا من المعرفة والفهم للكلية التى يدرسها.. أى معرفة وفهم كل المجتمعات الإنسانية.

ويعمل النهج الأيديولوجى الدائم حاليا تحت مختلف أسمائه على مستويين: الأول مستوى التمييز المائوى - أى تقسيم العالم إلى ثنائيات على غرار مذهب المؤمنين (بما فى علم البرجوازية فى مواجهة البروليتاريا، والإصلاحية فى مواجهة التورية).. وهذا التمييز يزيل منذ البداية ما ليس متسقا مع النظرية العالمية التى يتبناها، بدلا من أن يزيل ما لا يتطابق مع وقائع العالم المادى (الحقيقى) كما

نعرفه (والذى هو جوهر المنهج العلمى) ثم يلى ذلك توجيهه للتحليل النقدى الذى هدفه هو اكتشاف نهاية العلمية أى إعادة تركيب الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية واكتشاف الاختيارات التى كانت ماثلة للعيان أو متضمنة فى البداية، إن إعادة التركيب سوف تكون إذ ذاك محافظة على ما سلم بوجوده وما تم تحسينه وإعادة وضعه فى موقعه على النحو المطلوب.

ويفرض الحذر نفسه لأن المستوى النظرى يمتلك خصوصية، وتعريف الخصوصية هنا هو أنها خصوصية البحث العلمى نفسه، ولكن هذا البحث يحدث فى إطار اجتماعى ثقافى بعينه وفى بيئة تاريخية، وهذا دليل على أن الاختيار الأيديولوجى فى كل النظريات الاجتماعية الممكنة هو حقيقة موضوعية يجب أن توضع فى العقل بوضوح.. إنها إطار ضرورى وتوجد فى أغلب الأحيان، والمهمة الأساسية هى أن تشير إلى كل من المرحلتين وأن نحلل علاقاتهما بلغة التفاعل الديالكتيكى بدلا من لغة المصطلحات البنائية غير الملموسة.

٤ - ٢ وفى المقابل تؤثر عملية التفاعل الواسعة والمعقدة فى الحقل الإبستمولوجى (المعرفى) وفى فروع الدراسة العلمية من ناحية، وفى المحيطات القومية الثقافية فى أطرها الحضارية من الناحية الأخرى، وباختصار فإنها تكشف عن مجمل مسار تاريخ المجتمعات الإنسانية.

إنن فإن ما يتضمن هذا البحث ليس المهارة الحرفية ولا هو البراعة الذاتية، إذ أنه ينبغى تقويم الحقائق (الوقائع) من خلال أعلى مناهج التحليل الأولى والقانونى كمالا، وهكذا ينبغى أن ترى عملية الصياغة النظرية فى لحظتين: الأولى هى مجموعة العمل المتقاطعة (المتعارضة) والمتعددة التخصصات المعرفية، والتى من شأنها إنتاج أعمال جماعية يمكن أن تقيم وبطريقة مفيدة سلاكم أنماط وإشكاليات متعارضة ومقارنة، ثم - وهذه هى اللحظة الثانية - وضع محصلات تركيبية تفسيرية، حيث يواصل الدور الوسيط والتكويني لبعض المفكرين والمنظرين توكيد دورهم الحاسم على مستوى التجهيز والبلورة النظريين.

٤ - ٣ إلا إن أكثر المشكلات التى تنشأ خطورة فى هذه المرحلة هى أن المرء يمكن أن يطلق وصف "الأرض النظرية المحايدة".

إننا إذا اعترفنا بحقيقة وجود الأزمة، ثم - وفي مرحلة ثانية - بعدم جدوى المناهج الحصرية، الأمر الذى سوف ينتج فى هذه المرحلة مقاومة عنيدة، فإنه سوف يوجد خطر هائل يتمثل فى رواية الصرع المفاهيمى الذى هوى ذات مرة وكأنه غير صالح لإعادة بنيانه.

وبالقطع فإن المرء يمكنه أن يشعر بتحطيم التقليد المحافظ برقته.. ذلك التقليد الذى يمثل مكان القلب فى المركزية الغربية، إذن أليست القضية إذ ذاك وفى نهاية المطاف هى أن ما تم اكتسابه كان نتيجة لعملية تاريخية طويلة؟ وأن الحقيقة هى أن ذلك التطور التاريخى الذى تميز بهيمنة الغرب - والتي لا تستطيع سوى أن تؤكد سقوط الشرق - تجعل ما تم اكتسابه ميراثا مشكوكا فيه، ولكننا فى النهاية لا يسعنا إلا الاعتراف بأن ما حدث قد حدث، فالعالم كما هو الآن قد شكله الغرب منذ عصر النهضة، وهو سيبقى كذلك فى مواجهة أى اعتراض وكل اعتراض، ولنوع المجتمعات الأخرى أن تجرب حظها، وفى أفضل الأحوال يستطيع المرء أن يتوقع تقدما مترددا، ولكن الاضطراب والعجز هما أكثر التوقعات تأكيدا على ما يبدو.

وهذه هى العقبات الثانوية لأن المشكلة حقيقية، فمن الصحيح أن إدخال "العالم" التى وضعت على الهامش فيما سبق إلى "استواء العلم" يستثير قلقا عميقا على مستوى النظرية، ومن الصحيح أيضا وبالدرجة نفسها أن هذه الحقائق غير العادية التى نلتزم شئنا أم أبينا بأن ندمجها فى التحليل فى اطراده تجعل من العسير للغاية تصور التراكيب النقدية للنمط العالمى الحقيقى الذى أشرنا إليه (فى الجزئين ٣ - ١، ٣ - ٢) ثم من الصحيح كذلك أن معرفتنا بالمجتمعات غير الغربية نادرا ما تصل - فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة، وبالرغم من التقدم الذى أحرز فى الوقت الحالى - إلى مستوى الدقة المطلوبة للانتقال من مرحلة الإدماج إلى مستوى التركيب التطويرى، إنه إذن يتعين الاعتراف بأن ظهور هذه العوالم ووصولها إلى مرحلة الحركة الكاملة وبروز العامل القومى الثقافى داخل الإطار الحضارى، وكذلك الطبيعة الجمالية متعددة الوجوه للعالم، والتى بدأنا نعترف بها الآن فقط والتوالد الذاتى الذى بدأ يرى الآن فقط "إنه يتعين الاعتراف بأن كل ذلك خلق مناخا

نظريا كليا جديدا.. وهذا المناخ أبعد ما يكون عن مناخ الهدوء الثابت الراكد الذى كان موجودا فى أيام أخرى.

إن كل نظرية ممكنة تطمح إلى أن تكون عملية ينبغى أن تحوز قواما صلبا يعبر عن نفسه غالبا عن طريق عملية إضفاء للطابع الصورى الذى يمكن أن يعبر عنه بدوره بالمصطلحات - الرياضية، وهذا يعنى أو يقتضى تعريف المصطلحات، والتشخيص الدقيق لعلاقات التفاعل الداخلى يقتضى عملية صيانة وتطور حازمة وقابلة للتنبؤ، فهل يعنى ذلك أن ما يتم تعريفه بوضوح سيسير فى طريقه للحدوث بنفس درجة الوضوح؟.. لكى نفترض ذلك لا بد من تحديد مطلب (القوام الصلب) وإمكانية الإمساك بتلابيب المحتوى العميق للظاهرة والمفاهيم موضع الدراسة إلى جانب إمكانية وصف الظاهرة والمفاهيم باللغة الجارى استعمالها، أو إذا شئت وصف الظاهرة والمفاهيم من خلال أفضل القوالب اللغوية فى الثقافة المهيمنة، وسيؤدى ذلك إلى تحويل المسألة الشكلية أو الصورية الخاصة بإمكانية التعبير اللغوى برمتها إلى معيار الوضوح العلمى ذاته، وعندئذ فسوف يخترل العلم إلى معناه اندراج وسوف تستسلم الجدلية للتحليل الشكلى.

إن هذا التقارب الموضوعى لتيارات النفوذ الفكرى هو الذى أفضى بعدد من الباحثين والعلماء الاجتماعيين إلى التساؤل حول إمكانية العمل صوب التجديد العميق للنظرية الاجتماعية بمعنى تحدى إمكانية بناء جهاز مفاهيمى جديد جدير بالاعتماد عليه من أجل دمج العالم، وهذا هو النفوذ الضاغط المقيد للأيديولوجية المسيطرة فى تنويعاتها الكلاسيكية والماركسية الزائغة.. فهى بعد "مغلقة" أو "مغلقة" أو "مغلقة" فكرى للخبراء المتخصصين فى التقنية الإستمولوجية والتعقيد المنهجى المتمدين فى الأزراء الشائع لتاريخ بعينه لمجتمعات بعينها فى العالم الحقيقى.

إن الأرض النظرية المحايدة ليست ظاهرة أزمة، ولكنها تقدم لنا مقياس التغيرات العميقة الجذرية أحيانا - أى التورية - الحادثة على الأرض التى نحيا عليها من طرف إلى طرف، فلا شئ يعيش بسهولة فى فترات التمزق والانفجار، لأن تلك هى أيضا الفترات التى تنطلق فيها الانفجارات الكبرى إلى الأمام من الناس والحضارات، إن هذا يعنى أن زمن التراكيب النظرية الكبيرة يشير إلى

الأفق، فالعملية الحادثة الآن هي تقويم نقدي لما هو ما كائن أكثر من كونها إعادة تنظيم لوقائع (حقائق) العالم الحقيقي، ولذا فإن الجهد الحالي الرامى إلى وضع المفاهيم ليس إلا الصورة غير الكاملة للنظرية.. إنه نظرة مستقبلية ميزت من داخل حقل الدراسة ولكنها مهمة غير مكتملة.

هذا هو المناخ الصعب الذى يتعين على الجهد الرامى إلى تطوير نظرية اجتماعية مستقبلية أن يعيش فيه لوقت طويل نسبيا قادم، فإذا كان لنا أن نعيد تشكيل الهيكل المقدس النظرى - الذى هو نفسه نتاج مرحلة بعينها - فى صورة قوامها الجدلية الاجتماعية للعالم الحقيقى فيجب أن نقبل العيش خلال التراجيديا المتفائلة للعالم الحقيقى عصرنا، وحينئذ فلن يكون التفريق الضرورى بين العملية الاجتماعية والسياسية ومستوى العلم والنظرية بعد الآن شكلا من أشكال التهرب، ولكنه سيكون عملية تعميق، وهذه هي الوجهة التى يمكن فى ثنائياها تشكيل مستقبل النظرية الاجتماعية.

نظرية اجتماعية ذات مغزى: تفاعل الحضارات

"حيثما يوجد ثلاثة رجال يسبرون معا فسيكون بوسع أحدهم أن يعلمنى شيئا".

كونفوشيوس

"ربما يمكن إيجاز المسألة^(١) برمتها فى الممارسة النشيطة للتواضع والحب الأخوى، إذ أننا فى حاجة إلى اقتناع حقيقى بأن كل صور العنصرية وكل المعتقدات المعتدة بنفسها فى التفوق الثقافى هى تذكر للجماعة الدولية".

جوزيف نيدهام

١ - الوضع الحالى للنظرية فى العلوم الاجتماعية:

١ - ١: لم تشهد العلوم الإنسانية والاجتماعية ولا العلماء المتخصصين فى هذه العلوم قط من قبل شيئا يشبه الانفجار الحالى للنظرية فى كل تصانيفها: بناء النظرية، والنظم النظرية والمقالات التطويرية والنصوص النظرية المختارة والمؤلفات الإبيستمولوجية حول نظرية النظرية (وهى نوع من الكتابات التلخيصية النقدية لكل النظريات الممكنة، ثم البيانات النظرية والفلسفة وعلم نفس العمليات (التفاعلات) النظرية.. الخ، وقد بدأ مفهوم النظرية ذاته يترنح - إثر ذلك - من الموقع الفلسفى التقليدى (الكلاسيكى) إلى وضع بالغ الثقل والغموض فى المناهج الحديثة^(١)، ويستطيع المرء إجمالاً وبدرجة معقولة أن يرى عملية التطوير هذه بوصفها استجابة للحاجة إلى إيجاد تفسير مركب جديد وذى صلاحية لمجتمعات عالمنا المعاصر.. تلك الحاجة التى يحس بها بعمق فى العلوم الإنسانية والاجتماعية.

١ - ٢: من ناحية أخرى يدخل عالمنا الآن مرحلة تاريخية من التغير المتصل التوافق على كل المستويات وفى كل ميدان، ونحن نشعر برياح التغيير الجديدة بصورة رئيسية فى محيط الإنسان للقوى العالمية فى أعقاب اتفاقية بالتا

التي كانت هي نفسها ذروة اللحظة التاريخية للهيمنة الغربية (فيما بين النهضة والأعوام من ١٩٤٥ إلى ١٩٤٩) فمن الواضح أنه ينظر إلى الموجة العارمة من العمليات المجتمعية وخاصة الموجة المعاصرة من الثورات القومية والاجتماعية ومن التحرير والثورة بوصفها عاملا ممزقا للاستقرار القديم، كما أن هذه الموجة غالبا ما تنقد بقسوة ويعنف بوصفها هامشية وغير سوية أو شاذة، وأنها غير ذات موضوع وعارضة، والاقتراض الضمني الكامن هنا هو أن "الاستواء" يمكن تعريفه بوصفه تراث وتجلى العمليات (التفاعلات) المجتمعية داخل الهيمنة الغربية.

فكيف إذن يمكننا أن نربط بين الحصول على نظرية ذات صلاحية عالمية وبين تمزيق التوازن المجتمعي من الناحية الأخرى؟

١ - ٣: الإجابة التجريبية يمكن أن تكون هي أنه توجد علاقة مباشرة وعضوية بين الاثنين، ذلك أنه يمكن أن يقال إنه كلما اتجه عالمنا أكثر نحو نسق الطرد المركزي، كلما تشعر الروح الإنسانية أكثر وأكثر بالحاجة إلى تفسير بالغ التركيب وذى صلاحية عالمية لمجتمعات عصرنا... هذا التفسير هو ما يسمى بالنظرية الاجتماعية. وإن ذاك يمكن النظر إلى الانفجار النظري على أنه عملية مساعدة موجهة نحو بعث الوحدة للضائقة، وبإمكان تفسير الانفجار النظري بالدرجة نفسها وربما بدرجة أعلى من الاضطراب على أنه نتيجة للحاجة التي يشعر بها على نطاق واسع إلى الأمن العاطفي والنفس حيال سقوط الضمانة التي زودتنا بها فترات الاستراحة السعيدة في منهج "العالم الواحد"، وبعبارة أخرى تبدو النظرية هنا بوصفها عملية بحث عن الأمن.

١ - ٤: هناك نوعان رئيسيان من التنظير في العلوم الاجتماعية:

(١) تعميق المنهج الإبيستمولوجي، مع زيادة التركيز على التقنية المنهجية (الميثورولوجية) والتعقيد المفاهيمي وعلى التحليل ذى النزعة التحليلية المتزايدة المكثفة بما يحتوى عليه من عناصر، والأمن هنا يبحث عنه فى وصول النموذج إلى الكمال، وهذا النوع النموذج ذاته يكون فى أغلب الأحيان مشتق من النقد الصورى للمفاهيم السابقة - بمعنى أنه مشتق بطريقة تحليلية استدلالية

- أكثر من كونه نتيجة لمواجهة الواقع المحدد المتطور في عالمنا المحسوس، ومن هنا تتبع الأهمية المتزايدة لعلوم اللغة والرياضيات بوصفها أكثر فروع المعرفة صورية، ويقودنا الانفصال عن هذا الواقع مباشرة إلى نفى التاريخية ونفى الجدلية التاريخية متحولين بدلا من ذلك إلى الوضعية الجديدة مخفية في زى الفلسفة البنائية وتجلياتها في العلوم الاجتماعية أى.. "الوظيفة".

(٢) هناك نمط آخر من النظرية يخرج من المجرى الرئيسى للتفاعلات (العمليات) المجتمعية المحسوسة يدعى أنه يردد صدى عصره، ويظهر فحص هذا النمط الثانى أنه مع ذلك فى واقع الأمر أيديولوجية تنتكر فى ثوب نظرية اجتماعية، إنه رؤى سياسية وإعلانات بالنوايا أكثر من كونه تفسيراً عملياً وموضوعياً ونقداً للعمليات (التفاعلات) المجتمعية، إن الإطار العام هنا - كما هو واضح - إطار يوتوبى، والواقع يقدم هنا أو ينفى بلغة الهدف اليوتوبى.

وهكذا فإن النمطين السابقين للنظرية فى العلوم الاجتماعية كليهما اليوم ينتسبان للنمط العام نفسه.. أى الوضعية الجديدة أو النزعة الإيمانية التى هى البنائية فى الفلسفة والوظيفية فى العلوم الاجتماعية.. إنهما ما سبق أن افترضنا تسميتهما "بالفكرة السلبية"^(٢).. أى الأيديولوجية المسيطرة لفترة سقوط الهيمنة العالمية الحضارية الغربية.

٢ - ظهور النزعة إلى المقارنة الصورية الحصرية:

٢ - ١ المقارنة ظاهرة بالغة الحداثة فى مضمار العلوم الإنسانية والاجتماعية، فمن النادر أن أظهرت الفترة الكلاسيكية التكوينية فى عصرنا الحديث (القرنين ١٨، ١٩) أى اهتمام بالمقارنة، فمن مونتسكيو حتى ماكس فيبر انهمك أعلام المفكرين فى اشتقاق النظرية الاجتماعية من دراسات الحالة مع وجود هدف مقارن بالغ العمق باعتباره وبصفة أساسية - مرجعا إضافيا للحالة المدروسة وتضم بعض هذه الأعمال مثل (روح القوانين) لمونتسكيو و(رأس المال) لماركس و(دراسات فى الفلسفة الوضعية) لكونت و(القانون القديم) لمين والأعمال الأخرى التى احتوت على الإشارات الأولى للمقارنة.. تضم (المجتمع القديم) لمورجان،

و(أصل الأسرة) لإنجلز وكذلك كتابة (الملكية الخاصة والدولة) وأعمال هربرت سبنسر وجون ستينوات ميل وسومبارت و ١٠٠. ويسترمارك. ولكننا بعد ذلك نلتقى بعلماء كبار مثل دوركايم وتونيز وسيميل اتجهوا عن قصد لتنمية نظرية من الدراسة في العمق لحالات منتقاة أو قطاعات علمية في العقد الأول من القرن الحالى، وبطبيعة الحال فمن المؤكد أنه صحيح أن العقول التكوينية الكبرى فى العصور المبكرة مثل أفلاطون وأرسطو وابن خلدون بصفة خاصة كانت أكثر توفيراً على تطوير نظرية اجتماعية من نقطة استشراف مقارنة، على الرغم من أن إطارها المرجعى كان بالضرورة محدوداً من الوجهة الجغرافية (باليونان والعالم الهيلينى بالنسبة لأفلاطون وأرسطو، وبشمال أفريقيا فى حالة ابن خلدون).

ولكن فى أى جانب - إذا كانت هناك جوانب البتة - يمكن للمرء أن يتحدث عن المقارنة فى هذه المرحلة المبكرة، بل المرحلة بالغة الحداثة حقا فى تكوين شبكة العلوم الإنسانية والاجتماعية؟

إنه يبدو معقولاً أن نفترض أن المقارنة فى هذه المرحلة لم ينظر إليها كضرورة، ولكن تجدر إضافة أن العقول التكوينية الرئيسية فى الفكر الاجتماعى والسياسى فى شرق البحر المتوسط كانت - وبإلها من مفارقة - متقدمة فى هذا الجانب أكثر من العقول الأوروبية المؤسسة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ونظريتها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولكنها ليست مفارقة فى واقع الأمر، لأن مدى وكثافة واستمرارية عملية التبادل من التجارة حتى الميثافيزيقيات كانت فى العصور القديمة وفى شرق البحر المتوسط على وجه الدقة حرية بأن تجذب بطريقة صريحة اهتمام المفكرين الكبار الذين كانوا منغمسين بكيئهم فى بينتهم المشروطة لأوضاعها الطبيعية والتاريخية والجغرافية، ومع ذلك فأفلاطون وأرسطو وابن خلدون لم يكونوا وحدهم، فقد ظهور أعلام وضعوا البذرة فى المركز الآخر للشرق - آسيا - مثل صن تزو فى الصين (٤٠٠ - ٣٢٠ قبل الميلاد) ونجوين تراى فى فيتنام (١٣٨٠ - ١٤٤٢ بعد الميلاد) وقدموا مدى موازياً من الاهتمامات بالنزعة المقارنة فى المحيط الآسيوى الصينى. ونحن لا نستطيع أن نشعر بمثل هذه الحاجة فى أوروبا ابتداء من تأسيس هيمنة الكنيسة

وعصر النهضة لأن أوروبا مركز مهيم مكتفى بما يحتوى عليه من عناصر ذاتية، كما أنه مركز آمن ولا يواجه تحدياً، وهذا هو السبب فى عدم وجود مقارنة فى الفترة التكوينية الأولى للعلوم الإنسانية والاجتماعية فى أوروبا الحديثة - على الرغم من وجود بعض الاستثناءات البارزة.

٢ - ٢: أما المرحلة الثانية فى تطور العلوم الاجتماعية والإنسانية وفى تطور النظرية الاجتماعية والسياسية الخالصة الحديثة فيمكن إرجاع تاريخها فى الغرب إلى الفترة من العصر الفيكتورى إلى يالتا، وكانت هذه هى مرحلة الامبريالية.. مرحلة التوتر داخل النظام فيما بين الهيمنة الامبريالية الغربية وحركات التحرر الوطنى، وبوسعنا تصنيف هذه التوترات تحت ثلاثة عناوين رئيسية على أساس ظهورها كموجات مجتمعية عبر الزمن.

أ) التوترات فيما بين الأعضاء المؤسسين للنظام العربى المهيم (الحروب الأوروبية الداخلية بين دولتين وبين تحالفات من الدول المتنافسة والتى بلغت ذروتها فى الحرب الأوروبية من ١٩١٤ - إلى ١٩١٨ والتى يشار إليها عادة بوصفها الحرب العالمية الأولى).

ب) التوترات بين الأعضاء الكبار المؤسسين للنظام الغربى المهيم من ناحية والأعضاء الكبار المؤسسين للعالم المهيم عليه وقتذاك - الشرق بصفة خاصة، أى آسيا والمناطق العربية الإسلامية - من ناحية أخرى وذلك ابتداء من ظهور الحركات الشعبية والثورية والقومية فى أوائل القرن التاسع عشر فى مصر والجزائر والمغرب (مراكش) وفارس (إيران) إلى انتصار الثورة الصينية فى ١٩٤٩ وحرب التحرير المنتصرة فى سنة ١٩٧٣).

ج) الثورات فيما بين كبار الأعضاء المؤسسين للنظام الغربى المهيم بدءاً من انقسامهم إلى كتلتين متخاضمتين من الدول مع حدوث التباعد فيما بين النظم الاجتماعية الاقتصادية والنظم الأيديولوجية (أى منذ ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ إلى الحرب الباردة ثم التعايش السلمى والتعاون البناء حالياً).

وتكشف الدراسة الميدانية أن الجهود والمبادرات والإنجازات الكبرى التى حدثت فى حقل النظرية الاجتماعية من نقطة بداية مقارنة إنما حدثت فى المنطقتين

الأولين، ويعود السبب فى ذلك على وجه الدقة إلى الظهور السريع للمناطق التى كان مهيمنا عليها فيما سبق فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية فيما بعد وإلى أهمية هذه المناطق، وتؤكد هذه الدراسة نفسها ما هو متضمن نظام التعايش السلمى "من أن الكعكتين الاجتماعيتين السياسيتين الأيديولوجيتين فى المحيط الغربى المهيمين تمثلان جزئين مكونين لمحيط حضارى واحد هو الغرب - الذى يضم نظامين اجتماعيين سياسيين أيديولوجيين تعليما يضم العديد من المناطق الثقافية (أوروبا - الولايات المتحدة - أوروبا الشرقية) والعديد من الدول القومية، إن ذلك هو الذى يشرح المحاولة الجارية للانتقال من التعايش السلمى إلى التعاون البناء، ومع ذلك فإن النسبية تبقى على مستوى الحياة السياسية وعلى مستوى الإستراتيجية: فكلما الكتلتين منغمستان فى التقدم عبر النزعة الإنتاجية إلى الهدف الذى تتوخاه كل المجتمعات الصناعية المتقدمة: أما تباعدهما فينشأ عند مستوى نظام القيم الرسمى وعمليات صنع القرار وإنسان القوة داخل كل كتلة.

ويوجد فى هذه الحلبة مفكران كبيران فى عصرنا هما ماكس فايبير وجوزيف نيدهام ولكن تحول فايبير من مستوى الدراسات الأوروبية المقارنة إلى مستوى الدراسات المقارنة بين الشرق والغرب لم يعط إلا قدرا ضئيلا من الاهتمام حتى الآن، فقد طور ماكس فايبير قبل وأثناء حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ بوصفه المنظر الأيديولوجى للإمبراطورية الألمانية مفهومه الخاص "بالأنماط المثالية" وكان هدف فايبير هو تعزيز شرعية صراع ألمانيا من أجل الهيمنة على أوروبا، وفيما بعد استغرقت ثقافة الحضارات البعيدة مثل الصين والهند، جهود فايبير وبذلك وجدت فى الغرب ولأول مرة عقول تتوجه فى ميدان النظرية الاجتماعية نحو العالم ككل وتتخذ منه ميدانا للعمل النظرى، وقد تجاوزت هذه العقول - فى هذا المضمار - حدود المنهج المتمركز حول الغرب الذى كان ويزال سائدا، ومع ذلك فإن إصدار العمل الموسوعى وتعبير فى عصرنا - العلم والحضارة فى الصين - - والذى أخذ يتزايد ابتداء من سنة ١٩٥٤ بتوعية رفيعة المستوى وإلهام من جوزيف نيدهام يبقى امتيازاً لعميد كلية كينر وجونفيل بجامعة كامبريدج البريطانية، إن هنا عملاً يمكن وضعه على الجانب الآخر من النهر ليقف وجها لوجه مع موسوعة ديد دور ودائرة المعارف البريطانية، وبالقطع فقد كان العمل مخصصا للصين بصفة رئيسية

ولكن أعمالاً رئيسية أخرى مندمجة في هذا العمل أو احتوت عليها المجلدات المرافقة تعالج بصورة متخصصة موضوعات مقارنة بين الشرق والغرب في محاولة للإجابة على الأسئلة الأساسية على مستوى نظري حول العالم والتكنولوجيا والتنظيم الاجتماعي والثقافة والحضارة والفلسفة والدين^(٣) إلا أن طبيعة أعمال نيدهام سواء في مجلداتها المختصرة أو في إجماليتها المعقد تمنعنا رغم ذلك من الإمساك بالسمة الجوهرية لإسهامه، ولذا فليس هناك دليل على أن أعمال نيدهام قد استوعبت في التيار الرئيسي للدراسات المقارنة والنظرية الاجتماعية، ومع ذلك فإن العملية قد بدأت.

٢ - ٣: وإلى جانب هذا التطور الكبير أو بموازنته ظهر رافد آخر للدراسات المقارنة، هذا الرافد هو ما أقترح تسميته "بالدراسات المقارنة الصورية القائمة على الحصر النمطي" فلقد أخذ إدراك المعدل المتسارع للتغير المجتمعي في عالمنا المتغير يتزايد منذ سنة ١٩١٧، وخاصة منذ انهيار الاقتصاد في الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٣٢، لقد أنمى انهيار النظام الغربي المهيمن منذ سنة ١٩٤٥ فصاعداً والصعود السريع للشرق إلى جانب موجة الثورات القومية والاجتماعية محصولاً جديداً من الدراسات المقارنة التي تتصل بتطور النظرية الاجتماعية، فإلى جانب كتاب بارسونز "النظرية الكبرى" - البرنامج الأيديولوجي لإمبريالية الولايات المتحدة في زورتها شغلت عشرات المقالات لحاملي الدكتوراه وعشرات الندوات نفسها بمفهوم المقارنة، وكانت أداة هذا المفهوم - مفهوم المقارنة - هي القياس (الكمي) حيث يتم اختيار المتغيرات من بين الأهداف التي يرسمها العالم المهيمن ومن ثم يوضع تكرارها الدوري ومداها تحت الاختبار عن طريق دراسة العينات، وقد أعطانا ذلك مقارنات بين تركيا واليابان ومقارنات بين الانتشار اللغوي المتكرر في كل من بيرو والهند وكندا وعلاقته بأنماط الأمة، كما أعطانا اتباع مفهوم المقارنة بالقياس الكمي مقارنات بين التنمية الاقتصادية في مصر وبين التنمية الاقتصادية في بوليفيا وبين الأديان أو الأيديولوجيات الدينية في فرنسا الكاثوليكية وفيتنام البوذية..... الخ وقد بدأ أن كل استواء مجتمعنا أو أية أمة يمكن مقارنتها بأية وحدة أخرى، وسوف تصنف هذه الأمم أو الاستواءات المجتمعية

تحت عناوين يتم اختيارها وفقا للأهداف الموضوعية سلفا، وفي أحيان أخرى فإنها تدرس لمجرد حب الاستطلاع أو لزيادة الثقافة، وقد أصبح مفهوم المقارنة نتيجة لذلك مفهوما رائجا ومطلوبا لأناقته العلنية ومكانته المحترمة، والهدف من هذا المفهوم على المستوى السياسى هو كما شرحناه أنفا، أما هدفه العلمى فهو جعل مجتمعات وأمم أخرى معاصرة تتفاعل مع نمط وأنماط المراكز الغربية المهيمنة.

إن الحصر النمطى - باختصار - يرتدى ثيابا تجعله مقارنة تؤدي إلى العالمية، والحصر النمطى لا يزال أيضا ضاربا بجذور عميقة فى التكنيكات الكمية التى هى فى الواقع منهج صورى، أو محاولة لإخفاء المنهج الصورى مع إعادة تسميتها بالمنهج.

وبالرغم من ذلك وفى الوقت نفسه بدأ يعلن عن شعور بعدم الرضا لا سيما فى الفترة الأخيرة على وجه التحديد فى الفترة من ١٩٤٨ إلى ١٩٧٣، فالدراسات المقارنة للخط السائد لم تقدم سوى كيلا من المقارنات، وحتى فإذا توسعت فإنها لا تضيف إلى شروحنا وتفسيرنا وفهمنا لعالم متغير، ولم نحس بالحاجة الملحة إلى رؤية قادرة على توحيد المجتمعات المختلفة وعلى مزج إحداها بعدد آخر منها بطريقة جدلية الآن - والآن فقط على وجه - الدقة عندما ارتبطت أجزاء العالم ببعضها من خلال الإمبريالية والاشتراكية والظلم والتوسعات والعلم والتكنولوجيا (لاسيما عبر وسائل الإعلام الجماهيرية) وأخيرا عبر الجيوسياسية والأيدولوجية، فكيف يمكن إذن أن نواجه هذا التحدى؟.

٣ - المواقع

٣ - ١: إطار مفهوم المقارنة:

يتعين أن تكون الخطوة الأولى قبل أن نشرع فى ارتياد الطريق الذى تدافع عنه هى تقديم شكل من أشكال سلام الأنماط المتماسكة للوحدات المجتمعية التى يتعين المقارنة فيما بينها، وبعبارات أخرى ينبغى أن نعرف حقا ما الذى سوف نقارنه وبماذا سوف نقارنه قبل المقارنة ذاتها.

ويتألف إطار مفهوم المقارنة من ثلاثة أنماط كبرى ومتداخلة من الدوائر:-

(أ) الأطر الحضارية: هذه هي الدائرة الخارجية الأكثر عمومية والتي نعرضها على أساس منهج نهدف لدائرة الحضارة الهندوآرية، ولكن ذلك يترك أمريكا اللاتينية غير محسوبة في هذا المستوى من التحليل، إلا أننا سوف نعالج هذه المسألة تحت البند (ب).

(ب) المناطق الثقافية: إنها الدائرة الوسيطة، وهي غالبا متداخلة على نحو مشوش مع الدائرة الحضارية (كما هو الحال في مؤلفات توينبي حيث يمكن اتباع محاولاته المتعاقبة لوضع سلاسل للأنماط بصورة مفيدة)، ويمكن بشكل متوسع تحديد المناطق الثقافية التالية:

١ - داخل الدائرة الحضارية الهندوآرية:

- العصور المصرية والفارسية القديمة والعصور القديمة في بلاد الرافدين.
- العصور الإغريقية الرومانية القديمة.
- المنطقة الثقافية الأوروبية.
- منطقة أمريكا الشمالية الثقافية.
- الأجزاء الرئيسية من المنطقة الثقافية الهندوآرية في أمريكا اللاتينية.
- المنطقة الثقافية لشبه الصحراء الإفريقية.
- المنطقة الثقافية الإسلامية وهي جزئيا المنطقة الإسلامية العربية والمنطقة الإسلامية الفارسية (مع استثناء المناطق الثقافية الإسلامية الآسيوية التي تقع ضمن الدائرة الحضارية الصينية).

٢ - داخل الدائرة الحضارية الصينية.

- الصين الخالصة.
- اليابان.

- منغوليا ووسط آسيا.
- الاوتيانوس باستثناء استراليا ونيوزيلندا.
- ٣ - منطقتان حضاريتان - ثقافتان وسطيتين تجمعان بين الإطارين الحضاريين الرئيسيين، وتمثلان همزة الوصل بين الإطارين الكبيرين:
- المنطقة الثقافية الإسلامية وهي جزئيا.
- شبه القارة الهندية، التي يمثل في قطاعها الشمالي جزء مهما من الدائرة الحضارية - الثقافية الإسلامية.
- (ينبغي تفسير هاتين الدائرتين الخارجيتين الكبيرتين على أساس إبراز أوجه الاختلاف التاريخية الأصولية فيما بين "العالم" التي تتكون منها البشرية أى فيما بين الشرق والغرب).
- وفى واقع الأمر يمكن النظر إلى الشرق بوصفه يتألف من المكونات التالية:
- ١ - دائرة الحضارة الصينية ومناطقها الثقافية.
- ٢ - الدائرة الثقافية الحضارية للإسلام... الرابطة الواحدة الكبرى بين دائرة الحضارة الهندوأوروبية ودائرة الحضارة الصينية... وكلاهما دائرتا وساطة ومنطقتا توترات كبرى^(٤).
- ٣ - الدائرة الحضارية الثقافية الهندية.
- ٤ - أجزاء المنطقة الثقافية الهندوأوروبية فى أمريكا اللاتينية المرتبطة مباشرة بأفريقيا (وهى البرازيل بالتحديد وكذلك منطقة الكاريبى).
- ٤ - المنطقة الثقافية فى شبه الصحراء الأفريقية.
- لذلك يتألف الغرب من القطاعات الكبرى للحضارة الهندوأوروبية.
- (ج) الأمم (أو التكوينات القومية) وهى وحدات أساسية لوجود واستمرارية وتطور العمليات المجتمعية الكلية والكشف عنها، ولقد افترضنا سلما للأنماط يركز على خمس فئات:-

١ - الأمم الأصولية والتي توصف أيضا بالأمم الناهضة (مصر والصين وفارس وكذلك تركيا وفيتنام والمكسيك والمغرب).

٢ - النمط الأوروبي، ومن ثم الغربى للدولة القومية.

٣ - الدولة القومية الجديدة تتحرك نحو التوحيد، وتضم دولا قومية بالمعنى الحرفي لكلمة الدولة مثل (أثيوبيا وغانا ومالي وبورما وتايلاند) وتضم أيضا تكوينات قومية داخل إطار جماعات متعددة (أرمينيا - جورجيا، أوزبكستان... الخ).

٤ - الدولة القومية الثقافية (الهندية ثم الأوروبية فيما بعد) وهى منتشرة بصفة رئيسية فى أمريكا اللاتينية.

٥ - الدول الجديدة ذات الوجهة القومية (وهى موجودة بوجه خاص فى أجزاء متفرقة من شبه الصحراء الأفريقية وفى قطاع صغير من أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية).

وليس فى وسعنا سوى معالجة التمييز الأساسى بين الدوائر الثلاث فى عرض مستفيض.

وسوف يتم تحديد المناطق الحضارية على أساس التصور العام للعلاقات بين الثقافات والأمم والتكوينات المجتمعية من ناحية، وعلى أساس البعد الزمنى من ناحية أخرى، وإذا تكلمنا حرفيا فإن تلك العلاقة الفلسفية بالزمن بوصفه ميدان التطور الإنسانى ونتائجه هى ما يمكن أن يقال للتمييز بين الشرق والغرب، وهذه العلاقة شئ أكبر من أن تكون مجرد نظرة عالمية، وإذا ذاك فسوف يكون بمقدورنا النظر إلى المناطق الثقافية بوصفها مجموعات مجتمعية تقسم، على أن يكون ذلك بشروط الحتمية التاريخية الجغرافية عبر التاريخ (بشقيها الأيكولوجى (البيئى) والجيوسياسى أكثر من كونه بشروط الفلسفة الخالصة) وهذا تصور للعالم يعبر عن نفسه غالبا فى قائمة محدودة من اللغات الرئيسية، بل ويعبر عن نفسه أحيانا فى لغة واحدة فقط (العربية، الصينية، الإنجليزية - الفارسية، اليابانية فى كل واحدة

من المناطق الثقافية المعنية). وهكذا يصبح تمييز الأمم والتكوينات القومية أكثر سهولة عندما يتم التوصل إلى اتفاق حول سلم الأنماط التكوينية الضروري.

إننا بوضع تلك أنماط الثلاثة الكبرى المتداخلة من الدوائر كإطار لمفهوم المقارنة لم نفعل - مع ذلك - أكثر من تقديم وصف طبوغرافى (أو عملية تشريح) لميدان المقارنة، ويجب الآن أن نمضى قدما لربط الوحدات المختلفة داخل كل واحدة من الدوائر الثلاث بالدائرتين الثانيتين المحيطتين بهذه الوحدات ربطا جدليا، وهذا هو بالضبط الهدف من مقدمتنا عن مفهوم الخصوصية^(٥).

٤ - حول ملائمة مفهوم المقارنة عمليا ومقتضياته:-

لقد أصبح واضحا من الشروح التى قد كوناهما أن مفهوم المقارنة ليس مسألة تكنيكات أو منهج بالرغم من أنه سوف تكون هناك حاجة إلى تطوير التكنيكات والمنهج على نحو جدير بالاعتبار إذا كان لها أن تفى بحاجة مفهوم المقارنة فى إطار منظور تقاطع الحضارات.

ويمكن ربط المراحل المختلفة فى تاريخ مفهوم المقارنة فى العلوم الإنسانية والاجتماعية وكذلك فى النظرية الاجتماعية الخالصة على النحو الذى وصف آنفا فى جزئى (٢٢) بالمراحل الحاسمة فى تطور إنسان القوة فى العالم، ولهذا السبب فإنه لا يمكن اقتراح مفهوم المقارنة داخل إطار منظور تقاطع للحضارات كأساس لنظرية اجتماعية ذات هدف إلا على أساس المزج بين العوامل التالية:-

(١) ظهور أنساق جديدة للقوة فى العالم وظهور الشرق فى النهضة والقوة وموجة الثورات القومية والاجتماعية فى العالم وأثر المستويات الجديدة من العلم والتكنولوجيا على التغير الصناعى.

(٢) الإدراك الواضح لحقيقة أن القواعد التى تم الحصول عليها منذ فترة - لنقل إنها قرن مضى - وحتى يالنا لم تعد صالحة للتطبيق، إذ يجب أن يفهم العلماء والمنظرون الاجتماعيون على السواء وبوضوح أن العملية الجدلية المتفاعلة داخلها فى العالم المحسوس يمكن - بل ويجب - أن تنعكس فى عملية متوازية

فى حلبة العلم والنظرية، إنه لم يعد من الممكن انتقاء مجموعة عينت نفسها بنفسها من العلماء والمنظرين الاجتماعيين المنتمين إلى الجزء صاحب الامتياز فيما سبق من العالم (أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية) لكى تزن هذه الحركة، وفضلا عن ذلك فما دامت هذه الحركة بطبيعتها ومضمونها وهدفها تعنى نهاية الهيمنة السياسية والثقافية الأيديولوجية على كوكب الأرض كله، فإن فرق العلماء الذين يمثلون المناطق الثقافية القومية تمثيلا صادقا، والذين يمثلون المدارس المختلفة للفكر فى كل منطقة - ولكن ليس العلماء الراغبين دائما فى قول نعم - هى فقط التى تستطيع الاضطلاع بهذه المهمة الهائلة بطريقة هادفة وفعالة، والميدان مفتوح للجميع، ولكن الأصوات التى سوف يستمع إليها وتندرس أفكارها سوف تكون بالقطع أقل عددا للأسباب التى ذكرناها.

٣ - سوف تعتمد القدرة على تنظيم مثل هذه المشروعات إلى جانب حشد الموارد السياسية (الدول والأحزاب المعنية) والموارد الثقافية (كل من الأجهزة الأكاديمية والبحوث والعوامل الثقافية فى أوسع معانيها) على التسهيلات المؤسسية والفلسفات السياسية لكل الأطراف المشاركة إلى حد كبير، وبهذا فإن فتح ميادين جديدة على أساس الرؤية الموضحة هنا يمكن أن يكون ذا أثر منشط للتفاعل على العملية التى هى الآن فى دور التكوين ككل.

لهذا السبب تستطيع النظرية الاجتماعية ذات الهدف - وينبغى - أن تلعب دورا مهما كمؤثر وسيط فى خلال عملية إعادة تركيب نسق القوة العالمية فى عصرنا والتى هى عملية معقدة وملينة بالصراعات. كما أنها تستطيع أن توفر بصلاحيات تامة ميدانا فسيحا ونبيلًا يعمل فيه العلماء والمنظرون المخلصون وفى أذهانهم رؤية للتاريخ، وسوف يفيد هؤلاء من ذلك ومن وجهة نظرنا الحصول على نقطة انطلاق جديدة، وهى منظور تقاطع الحضارات الذى من خلاله سوف يضع العلماء والمنظرون أيديهم فى أيدى الطاقات الإنسانية القوية والطاقات المجتمعية والثقافية العلمية الكامنة.

إن ذلك سيكون هو الوعد الذى يبشر به حيال علم الاجتماع إن صح التعبير والذى سوف يأتى جنباً إلى جنب مع النشاط الرابع على المستوى وفى الإطار الذى نقترحه هنا على كل المهتمين.

(^١) قارن هذا بغياب أى مدخل عن " النظرية " فى International Encyclopedia of social Sciences (١٩٦٨) الأمريكية ، وبالمعجم الصادر عن اليونسكو (لندن ١٩٦٤) A Dictionary of the Social Sciences, الذى يقدم تحت مدخل " النموذج النظرى " نبذة راقية من الإبداع الفلسفى بقلم E.A.Gellner (ص ٤٣٥) . وبالتعريف الأساسى والواضح والدقيق فى مقال " النظرية " فى المؤلف الكلاسيكى A. Lalande Vocabulaire technique et critique de la philosophie , ٨th edn. (PARIS ١٩٦٠) pp.

١١٢٧-٨

(^٢) تعتمد الآراء الواردة فى هذا الفصل على أبحاثنا فى مجال النظرية الاجتماعية والسياسية بين أعوام ١٩٦٠ و ١٩٧٢ .

(^٣) بدأ مشروع Science and Civilization in China كمشروع كبير فى عام ١٩٤٢ . وظهر الجزء الأول فى ١٩٥٤ فى دار Cambridge University Press وينتظر استكمالها فى ١٩٨٠ وقد نشر حوالى ثلثة حتى الآن فى سبعة أجزاء وصدرت إلى جانب الموسوعة الأعمال الآتية :

Clerks and craftsmen in China and the west (١٩٧٠) within four seas . The dialogue of East and West (١٩٧٢) . The Grand titration . Science and society in East and West (١٩٧٢)

(^٤) انظر مؤلفا (دراسات فى الثقافة الوطنية) بيروت ١٩٦٩ وبشكل خاص " من أجل إستراتيجية حضارية " فى الثقافة العربية ، بيروت لبريل ١٩٧٣ (ص ١١٦-١٣١)

(^٥) وذلك وفقا للتعريف الذى قدمناه لمفهوم الخصوصية .

علم الاجتماع والتاريخ الاقتصادي - محاولة للتلاقى

خضع المؤرخون الاقتصاديون العاملون في الشرق الأوسط - ولا سيما في الفترة الحديثة - لأثر مجموعة معقدة من عوامل التغيير، وقد أعادت هذه العوامل تشكيل ميادين الدراسة والبحث فيما قبل ليكون كل ميدان منها وكعلم اجتماعي (بما في ذلك التاريخ الاقتصادي) وكدراسات إقليمية (وهي دراسة أوضاع القارات الثلاث المختلفة بما في ذلك الشرق الأوسط) بعيدا عن الآخر، إلا أننا ينبغي أن نتساءل من وجهة نظر مناهج البحث التي يجب أن تكون عملية وصالحة بوجه عام بدلا من أن تكون مقصورة على إقليم واحد - حول استعمالات وحدود التاريخ الاقتصادي، ليس كعلم في حد ذاته ولكن في إطار العلوم الاجتماعية، كذلك ينبغي أن يعنى هذا التحليل بالميدان موضع الدراسة بلامحه الخاصة، أى الشرق الأوسط مع إشارة خاصة لمصر، ويجب في الوقت نفسه أن يوضع هذا التحليل داخل الإطار الأوسع لآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

إن المصدر الرئيسى للرؤية المحدودة للاستشراق الحديث هو التدريب والإعداد غير الكافيين للمتخصصين في فروع المعرفة الحديثة^(١)، وأظن أن المشكلة المركزية هي "الطريق الضيق" الذى توضع فيه المشكلة، لأن "المنهج" ليس إلا الرأس الطافية من عديد من الفلسفات الاجتماعية المتباينة مطبقة على واقع محسوس.

١ - التاريخ الاقتصادي والتنمية القومية:

يحتفظ علم الاقتصاد أو الاقتصاد السياسى كما نعرفه اليوم ببعض ملامح أعطاه إياها الكتاب الكلاسيكيون مثل أفلاطون وأرسطو أو الأب المؤسس لهذا العلم ابن خلدون، ولكن ما يعترف به اليوم هو أن علم الاقتصاد ولد في مرحلة الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية في أوروبا، ومن الفلسفة السكولاستية أو التمسك الحرفى بتعاليم أرسطو إلى "ثروة الأمم". وكان على الرأسمالية التجارية، ثم

الصناعية فيما بعد، أن تحل عددا من المشكلات هي الطبيعة الظاهرية للعقبات الاقتصادية أمام التقدم، ودور العوامل المختلفة في النشاط الاقتصادي، وأهداف ذلك النشاط ثم البحث عن مبررات أخلاقية وسياسية لهذا النشاط وهكذا، ويتناقص كتاب آدم سميث الصادر في (١٧٧٦) بصورة حادة مع العرض التبشيري السعيد الذي قدمه أتباع المذهب الفيزوقراطي في الاقتصاد (الاقتصاديون الطبيعيون)، ففي تلك اللحظة كان يأتي إلى الوجود تكوين اجتماعي اقتصادي جديد هو الرأسمالية وكانت طبقة جديدة هي البرجوازية ثم القطاع الصناعي منها آخذين في البروز، وهذه الطبقة هي التي وصلت إلى السلطة في النهاية مع انتصار الثورة الفرنسية.

هل هو التحليل الاقتصادي أم إنه التاريخ الاقتصادي؟ هذا السؤال الذي طرحه كتاب ثروة الأمم أثير مرة أخرى في كتاب رأس المال (١٨٦٧ - ١٨٩٤)، لقد اضطر المتخصصون في الميادين العديدة للاقتصاد السياسي إلى مراجعة مناهجهم، كما اضطرت العلوم الاجتماعية التي كانت آخذة في الظهور إلى مراجعة مناهجها في مواجهة هذين الكتابين الشامخين اللذين مزجا فيما بين التاريخ الاقتصادي والتحليل الاقتصادي والتحليل الاجتماعي والفلسفة^(٢) وقد شرعوا في العمل، ليس لوصف، ولكن لتفسير ما أسماه سميث "الكائن الاقتصادي" و"الإنسان الاقتصادي" وكذلك تفسير السببية الاجتماعية وديناميات التاريخ الإنساني كما فهمها ماركس، ومن ثم فلم يكن عملهم مجرد تجميع للحقائق فحسب، كما لم يكن مجرد إعادة ترتيب نظام عرض وتقديم تلك الحقائق، ولكن الوضعية في ذات الوقت كانت قد بدأت تظهر على أثر ظهور التجريبية وفي سياق الأيديولوجية المسيطرة في القرن التاسع عشر، وهكذا فقد أكد هذان المفكران في العصور الحديثة وفي حقل الاقتصاد ذاته مقولة أوسكار لانج إن وجود معرفة علمية بالاقتصاد يعتمد على وجود طبقة اجتماعية تسعى لاكتشاف العلاقات الاقتصادية والقوانين التي تحكمها في أرض الواقع، وهي طبقة تعبر أمانيتها عن نفسها في أيديولوجية تقدمية وفي أيديولوجية تميط اللثام عن الواقع^(٣).

لقد فهم ظهور المدرسة التاريخية (و. روسشر، ب. هايلد براند، ك. نايز.. الخ) اعتبارا من ١٨٤٣ فصاعدا مع بدايات التاريخ الاقتصادي هذه النقطة كتاريخ

للأفكار الاقتصادية وكذلك فهمتها كتابات ريتشارد جونز، وقد توافق ظهور المدرسة التاريخية كما توافقت كتابات جونز كثيرا أو قليلا مع بدايات التاريخ الاقتصادى، ويظهر المسح الموجز لأعمال ذلك القرن فى ميدان التاريخ الاقتصادى أن التعريف يشمل ثلاثة ميادين متباينة: تاريخ الأفكار والنظم الاقتصادية⁽⁴⁾، وتاريخ التنمية الاقتصادية أو التطور الاقتصادى لدولة واحدة أو - مجموعة من الدول، وتاريخ قطاعات محددة من النشاط الاقتصادى (الصناعة، النقل.... الخ).

ويقع التاريخ الاقتصادى للقارات الثلاث متضمنة الشرق الأوسط فى طوره الحديث - كما هو حاليا فى الميدان الثانى ويفضى بنا إلى الميدان الثالث، ولقد ندر أن بذل مجهود جاد لتحليل حركة الأفكار الاقتصادية أو لربطها بالتيار العام لتاريخ الأفكار، ويفترض أن الدول المستعمرة تستطيع تطوير جسد مستقل ذاتيا من الأفكار النظرية إذا نحينا جانبا النظرية الاقتصادية، وقد استمر ذلك - إذا تكلمنا على نطاق واسع لأسباب جلية - ليكون هو الموقف فى الدول المستعمرة سابقا حتى الثلاثينيات، وهذا هو السبب فى أنه من المهم جدا توضيح طبيعة العمل الذى قام به المؤرخون الاقتصاديون الكلاسيكيون الأوروبيون والأمريكيون الشماليون ككل، فهذا العمل سوف يمكننا من وضع أعمال زملانهم فى الدول المستعمرة سلفا ولا سيما فى الشرق الأوسط تحت المنظار.

إن المسلمة الأساسية للتاريخ الاقتصادى لكل العلوم الاجتماعية فى الواقع هى أن الإنسان والمفاهيم التى تطورت فى الدول الرأسمالية المتقدمة فى أوروبا وأمريكا الشمالية ذات صلاحية (أو شرعية) عالمية، ومن الواضح أن العالم ليس مصنوعا من وحدات متشابهة، ولكن يفترض أن أوجه الاختلاف يمكن تقليلها عند تحديد المبادئ العقلانية التى تضمن نموها "الطبيعى" لتصبح على وفاق مع النموذج الذى قدمته الدول الواقعة على الخط الأمامى للتقدم، وسوف يكون من الواضح أن جذور هذه المسلمة الأساسية تكمن فى الفلسفة الإنسانية، بل وربما فى الفلسفة التطورية التى اخترقت ميدان الدراسات الاجتماعية زهاء نهاية القرن التاسع عشر، وقد تعززت هذه المسلمة بالافتراض الضمنى القائل بأن ما هو خير للغرب لا

يمكن إلا أن يكون نورا هاديا لبقية العالم، أى الدول المستعمرة على سبيل المثال، وهكذا جاءت المركزية الأوروبية لتحل تدريجيا محل الإنسانية التطورية عندما جاءت الدول المستعمرة التى كانت تتاضل من أجل التحرر القومى إلى دائرة الضوء، ومن الطبيعى أن هذا الاتجاه قد ازداد قوة باقتراب القرن التاسع عشر من نهايته مع تركيز الحياة الأكاديمية والمؤسسات فى الغرب، فقد وفرت مراكز التعليم العلمى المتخصص والمكتبات والنشر والصحافة وكذلك الباحثون والمعلمون البارزون؛ كل هؤلاء وفروا المصادر الكبرى لمساندة الاعتقاد بالمسلمة العالمية فى ذلك الميدان والعمل وفقا لها، ولقد كان الإطار المفاهيمى للعلوم الاجتماعية - ولا يزال - غربيا فى أصوله وفى توجهاته، ولقد زاد من قوة هذا الاتجاه بشكل ملحوظ فى ميدان علم الاقتصاد الدور الاقتصادى القائد للدول الرأسمالية الكبرى فى السياسة العالمية وخلق سوق اقتصادية عالمية والدمج الإجبارى للدول المستعمرة والتابعة فى هذه السوق، كذلك عزز من قوة هذا الاتجاه هيمنة الغرب على تلك السوق، ومع ذلك فقد استمرت الثقافات والديانات التقليدية للنمط غير الأوروبى مهيمنة على الجزء الأكبر من العالم. ولم تكن معظم الشعوب والدول مضطرة كما حدث بالفعل - لاتباع الطريق الغربى إلا فى ميدان النشاط الاقتصادى.

وقد أشار آسبريجز مؤخرا إلى حقيقة أن النظرية قد أدخلت حقنا إلى التاريخ من خلال تنمية "التواريخ الفرعية" أو الجزئية بالدرجة الأولى، ويمدنا التاريخ الاقتصادى بواحد من أفضل الأمثلة، فماركس صاحب النفوذ الرئيسى تبعه ماكس فاير، فالنظريات سوف تركز على "المفاهيم والأطر" وتكنيكات التفكير، إذ أن المؤرخ عندما يشرع فى دراسة مشكلة معينة فإنه يجد فاير يبدأ بالمفاهيم والأطر وتكنيكات التفكير بوصفها بيانات الدراسة⁽⁵⁾ وقد أخذ هذا الطريق ذو الاتجاهين بين التاريخ وعلم الاقتصاد ينمو مع تكثيف متزايد للأعمال العادية فى التاريخ الاقتصادى والنظرية، ووجد المتخصصون أنه من الضرورى أن يتعاونوا مع الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع وعلماء النفس وسائر العلماء الاجتماعيين.

وشينا فشيناً أخذت المشكلات موضع الدراسة تظهر بوصفها "كليات معقدة" بدلا من ظهورها كظاهرة أو ظواهر مستقلة، وهذا هو الأصل في ظهور التاريخ الاجتماعى كفرع من فروع المعرفة، وهو الفرع الذى سرعان ما نسخ علم التاريخ التقليدى، لاسيما فى فرنسا مع ظهور مدرسة "مارك بلوشى" Annols.

ولكن ما الذى تكشف عنه التغيرات الاقتصادية: معدلها ومداهها، وما الذى يكشف عنه النمو الاقتصادى والركود والرخاء؟ وما الذى تكشف عنه التنمية الاقتصادية والقيم الاقتصادية؟ وما الذى تكشف عنه هذه الأفكار والمفاهيم الاقتصادية عندما يطبقها المؤرخون الاقتصاديون على القارات الثلاث؟

دعنا الآن ندرس ذلك النوع من المشكلات التى تفرض نفسها، إن هذه المشكلات تقع فيما يبدو فى ميدانين:

أ - نمط البيئة الاقتصادية: تشير كل الدلائل إلى حقيقة أننا هنا نتعامل مع وحدات متغيرة الخواص، وهذا التباين فى الخواص يحدث على مستويات عديدة، فنحن نعرف حكاية "القطاعين" فى الاقتصاديات المتخلفة أو الاقتصاديات النامية أى القطاع التقليدى أو القطاع الحديث، أو القطاع القديم الجامد و القطاع النامى ^(٦) Forward – looking sector، ولكن فى وسعنا الآن أن نرى كيف يمكن أن تقترن التنمية الاقتصادية "بالتخلف الاقتصادى"، على الرغم من أنه لا يزال يتعين استكشاف أشياء كثيرة إذا كان لنا أن نحصل على مستوى مفيد من التحليل ^(٧).

فلقد وضع التناقض فيما بين الدول القومية القديمة (مصر، الصين، إيران، تركيا.... الخ) وكذلك وضعت الأنماط الأخرى من التكوينات القومية "التي تضم ما يسمى "بالدول الجديدة" إلى جانب مشكلة الحدود الاستعمارية المصطنعة.. كل ذلك وضع المفهوم الإجرائى المطبق على "العالم الثالث" موضع التساؤل ^(٨)، إن صورة المناطق الواسعة التى تهددها المجاعة والموت تحتل مساحة ضخمة من بيانات وتوجيهات وفكر الثوار، وفى الحقيقة فقد أصبحت هذه الصورة مقبولة كأحد جوانب حالتنا الإنسانية المعاصرة.

ويشير ذلك إلى تباين الخواص وليس إلى الانقسام الثنائي فحسب، أى لا يشير إلى عملية مزج فيما بين القديم والجديد ولكن إلى نتيجة عمل عوامل معقدة ومتباعدة في أنحاء البناء الاجتماعى لتلك الدول، إنه يشير إلى نقص أساسى واختلال جذرى، كما يشير إلى القلق والاضطراب، وفى مثل هذه الحالة الإنسانية لا يستطيع المرء أن يبحث بعد الآن عن الإنسان الاقتصادى.

ب - ومع ذلك وبالرغم من هذه البنية الأساسية، فإن الاضطراب والفوضى قد أمكن تحاشيهما بثبات وإصرار فى الدول القومية القديمة، كما أن إرادة تحاشيهما توجد فى الأنواع (الفئات) الأخرى من الدول، فكيف إذن نستطيع تفسير هذا الاتجاه نحو التماسك والوحدة وسط تباين الخواص؟

لقد أصبح المتخصصون والرأى العام فى الغرب يدركون تدريجيا أنه يكمن خلف تلك التفاوتات الاقتصادية وخلف انعدام التماسك والوحدة ذلك طور كامل وعميق الجذور من المعتقدات والعادات وأساليب الحياة ومن الأفكار ونظم الفكر، كما تكمن إرادة تطمح إلى أن تكون جماعية بل وإلى أن تكون قومية، وسوف يتعين البحث عن مصدر تلك الإرادة القومية فى أيديولوجية ضمنية^(٩) - هى إذا قبلنا الوصف - المركز العصبى لبنيتها العميقة، وتمثل هذه الأيديولوجية الجزء الأعظم من جبل الجليد، الجزء المختفى خلف الإحصاءات والمسوح الشاملة، واستطلاعات الرأى وما إلى ذلك، أنها شئ شامل قهى بالتحديد بقية تاريخية اجتماعية قومية مغمورة بحيث لا يستطيع أى محلل اجتماعى أن يتجاهلها أو يغض من قيمتها، إن هذه الإرادة هى إذن الفرضية التى سأعمل بناء عليها، وهذا الفصل سوف يسعى إلى إثبات صحتها.

بعد أن قلنا ذلك، وبعد أن حددت المشكلات، فبوسعنا الآن أن نمضى قدما لندرس أعمال المؤرخين الاقتصاديين فى الميدان الذى يشغلنا.

١ - هناك قائمة أولى من الكتب والدراسات توفر مسوحا وقائعية وهى كتب ودراسات وصفية بالدرجة الأولى، ولكنها أحيانا تكون تحليلية، وفى الحالة الأخيرة يكون التحليل عادة قد تم فى مواجهة خلفية تاريخية إجمالية

غامضة، إلا عندما تكون نقطة بداية التحليل افتراض عام حول الأديان الشرقية في علاقتها بالنشاط الاقتصادي، ولقد حاول اتجاه من اتجاهات التفكير الاقتصادي - وما زال يحاول تحت تأثير كولين كلارك - تقويم التنمية الاقتصادية في الدول التي كانت مستعمرات سابقة من خلال مصفوفة موحدة من المعايير الإحصائية والرياضية، ولاسيما عن طريق المقارنات الدولية للدخل القومي^(١٠)، ولكن المحاسبة والقياسات الاقتصادية (econometrics) تحت التأريخية جانباً وبإصرار، وبذلك فإنها تتجاهل المميزات القومية الخاصة^(١١).

٢ - تبدأ الدراسات التي تتم في مواجهة خلفية تاريخية عادة من مسلمات عامة حول العلاقة الداخلية بين الأديان الشرقية والنشاط الاقتصادي الحديث، فيتم شرح التخلف وآفاق المستقبل بلغة الوحدات البنائية الدائمة، وتقدم المقولات المعروفة عن الإنسان الإسلامي لملاً الفجوات الحتمية التي تتركها الأعمال التي تحدثنا عنها في الفقرة السابقة.

٣ - ومع ذلك فهناك مجموعة ثالثة من الدراسات ذات مظهر أكثر حداثة، وقد بدأت هذه الدراسات في المزج بين استخدام أدوات التحليل الحديثة وبين التحليل الاجتماعي موضوعاً في منظور تاريخي، وأما القضايا الرئيسية في هذا النوع من الأعمال فهي انقطاع الاستمرارية والتباين في الخصائص والطابع الخاص للتنمية الاقتصادية في دول القارات الثلاث المختلفة والعلاقة الداخلية بين التاريخ الماضي والتنمية الحالية، وبين الأيديولوجية والبناء الاجتماعي الاقتصادي وكذلك أسباب التطور المتفاوت للدول المختلفة ودور الاختيارية والفعالية السياسية.... الخ.

وقد استثارت الفروض الموضوعية قدراً كبيراً من المناقشات النظرية حول اتجاه الممارسة في المستقبل، ويهدف عمل هذه المجموعة المشكلة حديثاً في ميدان النظرية والتطبيق العملي على السواء إلى إقامة العلاقات التاريخية الدقيقة بين العام (الشامل) والخاص وبين العلم والتنمية القومية، فهذه العلاقات هامة وفعالة.

٢ - استعمالات علم الاجتماع:

طرح ريمون أرون - مضطرا - فى الفترة الأخيرة حجته القائلة بأن خط التقسيم بين نوعى علم الاجتماع الغربى والسوفيتى، أى بين علم الاجتماع البرجوازى - الليبرالى وعلم الاجتماع الماركسى، يتعرض الآن لعملية استبداله بتقسيم جديد يتميز بين التيارات التجريبية والتيارات النظرية^(١٢)، وبالرغم من أنه يبدو أن الكتابات الماركسية فى علم الاجتماع لا تزال واقفة فى حلبة علم الاجتماع النظرى، فإن الأعمال البارزة لعلماء الاجتماع الليبراليين (وآرون نفسه فى الخط الأمامى لمعسكرهم) تشير إلى وجود "الشقين" فى كثير من القطاعات والمواقف.

ومن الواضح أنه إذا كان التاريخ الاقتصادى الكلاسيكى يدعو - عند تطبيقه على القارات الثلاث إلى نقده نقدا قاسيا بسبب افتقاره إلى الرؤية النظرية لعملية بناء الأمة "national itasian psaces" فإن المعونة التى نحتاجها فى هذه اللحظة من علم الاجتماع لن تأتى إذن من قطاعه التجريبى، إذ أن نظرية علم الاجتماع التى نولى وجهنا شطرها الآن ليست فى واقع الأمر انحرافا فلسفيا عن المجتمع، ولكنها بالأحرى الصياغة المفاهيمية الدقيقة لاكتشافات علم الاجتماع داخل إطار التاريخ.

ويأتى ماركس وماكس فايبير فى المقدمة - وإن جاء كل منهما بطرق مختلفة، وقد طور جيلنا - المختلف كثيرا عن أجيالهما فى أنه شاهد ظهور ونمو دول اشتراكية وشاهد ظهور الحركات القومية ويقظة العالم الذى كان مستعمرا فى السابق - لقد طور جيلنا هذا علم اجتماع يعترف تدريجيا بأنه أكثر كفاية وملاءمة من المدارس الفكرية التى كانت مسيطرة فيما مضى، وربما يكون ذلك صحيحا بوجه خاص فى ميداننا الذى يعد ميدانا خصبا فيما يحتوى عليه من جديد والذى يعد ظاهرة غير كلاسيكية تقوض الأفكار التى تلقاها جيلنا.

لقد أثار كتاب ك. رايت ميلز "الخيال الاجتماعى" الصادر ١٩٥٩ - لمده ورؤيته ولصدق عاطفته ونفاذ بصيرته، ناهيك عن جدارته بالشروط العلمية الكلاسيكية فى عدد كبير من العلماء الاجتماعيين وغير المتخصصين على السواء

بوصفه نقطة تحول فى التاريخ الفكرى لعصرنا وبوصفه إلهاما ومرشدا نحو المنهج لأولئك الذين تهتم أعمالهم بالمشكلات الجديدة التى أثارته التحولات العميقة الحادثة فى عالمنا المعاصر، وهناك فى هذا الكتاب ثلاث نقاط تتطلب دراسة موجزة:

أ - يعتبر علم الاجتماع حاليا شيئين فى آن واحد، فهو رؤية للأشياء، وهو نوع معرفى متخصص يعنى بالمؤسسات الاجتماعية مادية كانت أم روحية، ولم يبدأ علم الاجتماع بوصفه رؤية فى التشكل إلا الآن فقط، ويمكننا "الخيال الاجتماعى" من الإمساك بالتاريخ والسير الذاتية وبالعلاقة بينهما داخل التاريخ عن طريق توجيه ثلاثة أنماط من الأسئلة:-

١ - ما هى بنية مجتمع ما ككل؟ ما هى مكوناته الجوهرية، وكيف يرتبط كل منها بالآخر؟ وكيف تختلف عن غيرها من متغيرات النظام الاجتماعى؟ وما معنى أى ملمح خاص داخل هذه البنية لاستمرارها ولتغيرها؟

٢ - أين يقف هذا المجتمع فى التاريخ الإنسانى؟ ما هى الوسائل التى يتغير بها المجتمع؟ ما هو مكانه وما هو المعنى الذى يسهم به فى تنمية الإنسانية ككل؟ كيف يؤثر أى ملمح خاص نقوم بفحصه فى الفترة التاريخية التى يتحرك المجتمع داخلها؟ وكيف يتأثر هذا الملمح بتلك الفترة؟ وما هى الملامح الجوهرية لهذه الفترة نفسها؟ وكيف تختلف تلك الفترة عن الفترات الأخرى؟ ما هى أساليبها المميزة فى صنع التاريخ؟

٣ - ما هى نوعيات الرجال والنساء التى تسود هذا المجتمع فى هذه الفترة؟ ما هى الطرق التى يختارون ويكونون من خلالها؟ وما هى الطرق التى يتحررون أو - يضطهدون بها؟ وما هى الوسائل التى يصبحون بها إما حساسين وأما متبلدى الشعور؟ ما هى أنواع "الطبيعة الإنسانية" التى تكتشف سواء فى السلوك أو فى الشخصية التى نلاحظها فى ذلك المجتمع فى تلك الفترة؟ وما هو معنى الطبيعة الإنسانية لملمح المجتمع الذى تفحصه ولكل ملمح على حده؟.

هذه الأسئلة التي يسألها أفضل المحللين الاجتماعيين سواء أكان موضوع الاهتمام هو دولة ذات قوة عظمى أو مجرد حالة المزاج الفني والأدبي أو وحدة صغيرة كأسرة أو سجن أو عقيدة دينية، فهذه الأسئلة هي المحاور الفكرية للدراسات الكلاسيكية للإنسان في المجتمع، أو هي أيضا أسئلة من المحتم أن يثيرها أى عقل يملك الخيال الاجتماعي، إذ أن هذا الخيال هو القدرة على التحول من منظور إلى آخر.... ومن منظور سياسى إلى منظور نفسى، من فحص أسرة واحدة إلى تقويم مقارن للميزانيات القومية فى العالم.. من المدرسة الثيولوجية إلى المؤسسة العسكرية.. من دراسات صناعية بترولية إلى دراسات الشعر المعاصر، إنها القدرة على التنوع من أكثر التحولات اللاشخصية، أى أكثرها بعدا عن الذات إلى أكثر الموضوعات قربا من الإنسان ذاته، وكذلك هي القدرة على رؤية العلاقات بين النوعين^(١٣).

لقد اقتبست من هذا العمل الأول عن "الخيال الاجتماعي" باستفاضة لأنه يبين كل المشكلات المثارة فى الجزء الأول جنباً إلى جنب، ويظهر بوضوح الروح التي من المقترح استعمال علم الاجتماع بها لتذليل المصاعب التي يواجهها التاريخ الاقتصادي الكلاسيكي حالياً.

ب - عندما نصل إلى اتفاق حول العلاقات بين العلوم الاجتماعية المختلفة وبين كل قسم فرعى منها على حدة نكون القضية الرئيسية هي كيفية إدماج البعد التاريخي فى الدراسات الاجتماعية.

إننا قد ألفنا تمييز فرديناند بروديل بين المستويات الثلاثة للتاريخ، التاريخ قصير المدى الجزئى فى طرف والتاريخ طويل الأجل البنائى فى الطرف الآخر، وبين هذين الطرفين يقف التاريخ الوسطى (متوسط المدى).

والمستوى الثانى هو الذى يوجد من وجهة نظر بروديل - فيما بين التاريخ وعلم الاجتماع، ولا يمكن للتاريخ متوسط المدى الذى ينصب عليه اهتمامنا المركزى أن يخفق فى تبيان آثار هذا التعايش المبكر بين شينين غير متشابهين، ومن هنا يأتى القبول العريض لمقولة رايت ميل بأن (التاريخ هو "ساق" الدراسة

الاجتماعية)^(١٤)، ويأتى أيضا من هنا القبول العريض لمفهومه القائل بأن "علم الاجتماع الذى يستحق هذا الاسم هو علم الاجتماع التاريخي"^(١٥)، ويمكننا إبراز العديد من الأسباب التى تشرح هذه الصلة الوثيقة بين التاريخ وعلم الاجتماع وقابليته للتطبيق على كل المجتمعات.

ونحتاج فى إيضاحنا لما يتعين شرحه إلى أطول أجل ممكن، ولن يتأتى لنا التزود بهذا المدى إلا بمعرفة المتغيرات التاريخية للمجتمع الإنسانى، ولكن الدراسات - التاريخية - تميل عادة إلى أن تكون إسنادية أو إلى أن تكون دراسات قصيرة الأجل لبيانات محدودة، فإذا ما عرفنا أن ما ندرسه عرضه للتغير فإننا على أبسط المستويات الوصفية يجب أن نتساءل: ما هى الاتجاهات البارزة؟ ولكى نجيب على هذا السؤال يجب على الأقل أن نقدم إيضاحا حول "اتجاه من ماذا إلى ماذا؟ أما الاتجاهات طويلة الأجل فتظهر الحاجة إليها عادة إذا رغد، فقط فى التغلب على الإقليمية التاريخية، والافتراض هنا هو أن الحاضر نوع من الخلق المستقل ذاتيا^(١٦).

وهنا تتداعى تباعا مقولة ثانية هى: "إذا كان التغير التاريخى هو تغير العلاقات الاجتماعية وتغير العلاقات فيما بين الأجزاء المكونة للعلاقات الاجتماعية فإنه يتبع ذلك أن العالم الاجتماعى يصبح واعيا عندما يقارن بأن "التاريخى" هو جزء جوهرى مما يريد أن يفهمه وليس مجرد "خلفية عامة"^(١٧).

وترتكز المقولة الثالثة على مبدأ الخصوصية التاريخية الشهير لماركس، فهل يتضمن هذا المبدأ أن الماضى يسيطر على كل من الحاضر والمستقبل ويعيد تشكيلهما؟ لقد شدد. ب. بوتومور مؤخرا على حقيقة أن النطاق الشامل للظاهرة القومية (مثله فى ذلك مثل إخفاء العقلانية البيروقراطية على المجتمع ظلا غير معترف بهما حتى ماكس فايبير^(١٨))، ولهذا السبب فإن مبدأ ماركس يشير أولا إلى خط إرشادى، فأى مجتمع بعينه ينبغي أن يفهم بشروط الفترة الخاصة (المحددة) التى يوجد فيها، ويشير ثانيا إلى أن الميكانيزمات المتنوعة للتغير داخل هذا النمط التاريخى تلتقى فى نوع محدد من التقاطع، ولكن رليت ميل ذهب إلى أبعد من ذلك كاشفا تجاهل ماركس لحجم وأهمية (مغزى) العملية القومية.

وبطبيعة الحال فإنه من الواضح تماما أن فهم مجتمع يتحرك ببطء... مجتمع واقع عبر القرون في إसार دائرة الفقر والتقاليد والأمراض والجهل يتطلب أن ندرس الأرضية التاريخية، كما تجب دراسة الميكانيزمات التاريخية المطردة لوقوعه المخيف في أحبولة تاريخه الخاص، ويتطلب شرح هذه الدائرة وأساليب كل مرحلة من مراحلها تحليلا تاريخيا يسير في العمق مسافات طويلة^(١٩).

والإحالة هنا إلى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، ولكنها أيضا إلى أمريكا الشمالية من بعض الوجوه.

وبوسعنا أن نصبح واعين بغياب مراحل تاريخية معينة في مجتمع ما، وهي مراحل تكون غالبا ضرورية للغاية لفهم الشكل المعاصر لهذا المجتمع عن طريق الدراسات المقارنة فقط، فالتفهم من التاريخ - مع ملاحظة أنني اخترت الكلمة بعناية - يجعل الفهم الدقيق لمعظم الملامح المعاصرة لهذا المجتمع المعين - الذي هو بناء تاريخي لا نستطيع أن نرجو فهمه - من ضروب المستحيلات ما لم نسترشد بمبدأ الخصوصية التاريخية الاجتماعية^(٢٠).

ج - لا ينبغي أن تفضى بنا الخصوصية التاريخية إلى عدم القابلية للحركة والتنقل ولا إلى الركود، فيجب أن ندرس التاريخ دائما لتخلص منه، إذ بدلا من أن "نفسر" شيئا بوصفه "استمرار من الماضي" ينبغي أن نسأل لماذا استمر هذا الشيء؟ ومن هنا فغالبا ما تكون محاولة شرح الملامح المعاصرة لهذا الشيء المستمر وفقا لوظيفة المعاصرة أولا قاعدة صالحة، إذ يمكن للتاريخ إذا ما تم تصويره على أنه حكم بالإدانة غير قابل للنقض أن يعوق التاريخ إلى التطور، وأن يحيل الحاضر إلى تاريخ^(٢١) وبكلمات بول سوزي الممتازة فإن الحاضر غير الموجود لا يمكن ببساطة إلا أن يكون صورة معاصرة للماضي التاريخي، إذ يشجع القالب القومي للتأليف التاريخية استعمال الأنماط المتكررة بما في ذلك الأنماط المتكررة للطابع القومي (الشخصية القومية)^(٢٢) وهنا - وكما يشير آسابريز مضطرا - يقع خطر أنماط ماكس فايبير المثالية.

(إن سلم الأنماط يكون عند تطبيقه على العالم الذى كان مستعمرا عنصرية مستترة، ولكن مبدأ الخصوصية التاريخية بدلا من هذا المنهج الاستاتيكي (الجامد) وبالتناقض معه يقود مباشرة إلى مفاهيم التطور والتغير، لأن هذا المبدأ إذا أردنا الدقة يقدم فكرة التاريخ، وهذان المفهومان يتطلبان فى المقابل إدخال الأدوات النقدية، وما دام الحاضر هو موضع الاهتمام فإن السؤال المركزى يصبح هو: لماذا؟ وفيما يتعلق بالمستقبل يصبح السؤال: كيف؟.

فكيف إذن نتصور مبدأ الخصوصية التاريخية فى ضوء الخيال الاجتماعى عندما يطبق على اهتمامنا المحدد الذى هو التاريخ الاقتصادى؟.

١ - ما دمنا نتعامل مع جزء من العالم له تقاليد تاريخية طويلة من الوجود العرقى - وفى بعض الأحوال له تقاليد تاريخية طويلة من التماسك القومى - فيجب أن يكون هدفنا الأول هو الدراسة المتعمقة للتاريخ الطويل لتلك الدول، على ألا تكون الدراسة سجلا للحوادث ولكن ترتيبا تعاقبيا للتكوينات الاجتماعية الاقتصادية، ثم علينا أن نحاول عزل تلك الملامح التى تبدو ثابتة، وأن نميز بعناية شكلها ودرجة تأثيرها فى الفترات المختلفة، ثم نصل بهذا إلى ما يظهر أنه الجوهر المركزى، أى إلى نواة أى تقاليد تاريخى خاص، وبعبارة أخرى الخصوصية التاريخية لمجتمع معين.

٢ - يجب أن يتم تصور هذه النواة بوصفها عنصر استمرارية وتغير معاً، إلا أن تأثيرها فى الاستمرارية أكبر وأكثر مباشرة، وفى التحليل الأخير تكون تلك النواة هى نسيج الاستمرارية القومية، ومع ذلك فعندما يحدث وأن تتغير النواة فإن العلاقات الداخلية تكون أكثر تعقيدا، إذ أن تلك النواة التى تضمن الاستقرار المطرد لا يمكن أن ترى هنا إلا على أنها شئ يزود بالإطار الأساسى الذى بداخله يمكن أن يحدث مدى محدود من أنساق التغير.

٣ - المفاهيم التى يجب أن تمدها أساس الدراسات التاريخية العلمية الحديثة هى التغير والتحول والتطور، إذ لا تستطيع هذه التغيرات باعتبار أنها تحدث داخل إطار أية خصوصية تاريخية بعينها إلا أن تترك "بصمتها" على

الإطار السياسى نفسه، ويعنى هذا أنه يتناول عناصر التغير المركزية هذه (مثل التكنولوجيا والمؤسسات وهيكل العلاقات الاجتماعية وربما الأيديولوجية بصفة خاصة) بطريقة واعية ومطرقة الثبات وفعالة فإن تلك العناصر التى تبدو أكثر انفتاحا للتعديلات سوف تكون مقبولة بدرجة واسعة لدى الرأى العام، ويوسع المرء أن يأمل - ولديه أسبابه المعقولة - أن الإطار الأساسى نفسه وكذلك نواة الخصوصية التاريخية لمجتمع بعينه يمكن فى المقابل أن تعدل تدريجيا.

وعلى أية حال فالمسألة ليست مسألة تغير إذا ما حدث تغير فى الزى الخارجى والطبيعة العالمية التى هى الحلم المهيمن للمجتمعات الصناعية ولا هى الركود المنيع الذى تؤدى إليه حتماً سلام الأنماط العرقية العنصرية، ولكنها بالأحرى مسألة المدى الخاص لإمكانات التحول وأساليبه وأشكاله الممكنة.

٣ - ماضى مصر يتحرك صوب حاضرها ومستقبلها.

والآن دعنا أن ندرس كيف يمكن تطبيق هاتين السلسلتين من الاعتبارات على مشكلات محددة معينة، وهى مشكلات معقدة ومشهورة تتعلق بالتاريخ الاقتصادى الحديث لمصر، وسوف أشير إلى عدد مختار من الدراسات لتوضيح هذا التحليل ولإبراز المسائل المركزية.

وتتعلق المشكلة الأولى بالتحول من الإقطاع إلى الرأسمالية، وما يجدر الانتباه إليه هو أن هذه المشكلة التى تنتمى إلى التقاليد الكلاسيكية فى التاريخ الاقتصادى قد أثرت مؤخراً بتأثير المناقشات الأيديولوجية حول طبيعة الثورة المصرية فحسب وليس نتيجة للدراسة الأكاديمية، فلقد اضطر المفكرون الاجتماعيون والكوادر السياسية على السواء إلى دراسة طبيعة المجتمع المصرى أثناء الحرب العالمية الثانية لكى يتسنى لهم وضع إطار لرؤية المستقبل الذى سوف تلح الحركة الوطنية فى طلبه، فهل كانت مصر مجتمعاً إقطاعياً على نحو كاسح؟ وإذا كان الوضع كذلك فهل الهدف هو ثورة قومية رأسمالية وبرجوازية وديموقراطية؟ أم أن الإقطاع هو ببساطة من بقايا الماضى، ومن ثم فهل الهدف العاجل هو موصلة الضغط نحو مزيد من الخطوات الراديكالية وربما حتى نحو الاشتراكية؟

لقد ارتكز النظام الاقتصادى قبل سنة ١٩٥٢ بكثافة على الزراعة، وكانت الطبقات والموعات الحاكمة كلها، فيما عدا استثناءات قليلة تنتمى إلى القطاعات المختلفة لأرستقراطية الأرض، وكانت الثقافة والتقاليد وكذلك دور الدين ونوعية العلاقات فيما بين الأشخاص وأوضاع النساء كلها تميل إلى تأكيد هذه الصورة الزراعية المتخلفة، وقد تركزت مظاهر التحالف المعلن أو الضمنى بين المجموعات المصرية الحاكمة والإمبريالية فى (مصطلح) الإقطاعيين.. وهو مصطلح يرمز إلى الذين اعتبروا - أو يعتبرون عند النظرة الأولى - من كبار ملاك الأراضى، مع وجود الأسرة المالكة السابقة على رأسهم، وتبينت مجموعات راديكالية عديدة هذا التعريف للنظام الاقتصادى والاجتماعى فى مصر رغم تباین نظراتها وبرامجها، وكان من بين هذه المجموعات الحركة الوطنية للديموقراطية وهى إحدى المنظمات الشيوعية الأساسية، كما كان من بينها الضباط الأحرار، وفعل الشئ نفسه رأى العام والصحافة على وجه الإجمال، بل إنه توجد بعض الأمثلة على أن هذه المقولة قد أخذ بها فى الجامعات والدوائر البحثية، وبوسع المرء أن يقول إن الإصلاح الزراعى بعد انقلاب سنة (١٩٥٢) فهم على أنه تصفية للإقطاع والبدء فى مرحلة جديدة وحديثة فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى لمصر، وقد تمسك الصناعيون من جانبهم بهذه المقولة لكى يطالبوا بنصيبهم فى السيطرة على الاقتصاد وعلى الدولة وفى إدارتهما، مشيرين إلى أنه يمكن تجنب كلا من الثورتين البرجوازية الديموقراطية والاشتراكية فى اللحظة التى يتحقق فيها الهدف المهم إلا وهو تحطيم الإقطاع والتحول صوب التصنيع، ولكن التاريخ الاقتصادى الذى كان فى شكل كتيبات ومقالات كان قد اتخذ مظهرًا غريبًا من عدم الاستمرارية الشاملة، فبقيت الفترة ما بين محمد على ويوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ غير مكتشفة.

إن المناقشة حول "الإقطاع" لم تكن قد بدأت حتى حوالى الفترة من سنة (١٩٤٤) إلى سنة (١٩٤٦) أى بعد بضع سنوات من نشر كتاب أ. ا. جروتشلى عن التنمية الاقتصادية فى مصر الحديثة سنة (١٩٣٨)، وفى سنة (١٩٤٤) نشر

كتابا تاريخ لمصر أحدهما لمحمد فهمي لهيطة، والثاني لراشد البراوى ومحمد حمزة عيش، وفى هذا الوقت جرت مناقشات جادة فى المراكز السياسية الثقافية الماركسية فى القاهرة والإسكندرية ولم يستطع تطبيق مفهوم دورات التكوينات الاقتصادية الاجتماعية^(٢٣) الذى كان كلاسيكيا إذ ذاك على مصر لأنه يخفق فى الكشف عن أن البنية الاجتماعية الاقتصادية كلها قد تحركت إلى مستوى جديد هو بالتحديد الرأسمالية بسميتها (الماركسيين) (الإنتاج من أجل السوق والعمل بالأجر) على الأقل منذ ظهور مؤسسة ملكية الأراضى فى عهد سعيد، ولاسيما منذ اندماج مصر فى السوق الاقتصادى العالمى تحت الحكم البريطانى بعد عام ١٨٨٢، وإذن لم يعد فى المقدر القول بأن الإقطاع هو النظام السائد فى مصر، ويمكن اعتبار صيغة البراوى التى وضعها تحت تأثير اليسار المعاصر أول تعبير أكاديمى عن هذا للاتجاه فى الفكر^(٢٤) الذى اكتسب الاعتراف الرسمى (القومى) مع تحليل حسين خلاف للتحديث فى سنة (١٩٦٢)^(٢٥) ومع ذلك فإن الأعمال الأكثر أهمية أنجزت فيما بين عامى (١٩٥٦)، (١٩٨٢) حيث أعطى اهتمام أكبر إلى أشكال التحول من الإقطاع الشرقى إلى الرأسمالية فى عهد محمد على من جانب مجموعة من المؤرخين والمنظرين الماركسيين الذين يعد أكثرهم أهمية بالنسبة لأغراضنا الحالية إبراهيم أمير^(٢٦)، كما تعهد عيسوى وباير منفردين بدراسة أكثر تعقيدا أو لكن أقل براعة لنفس المشكلات على الرغم من أن نتائجها كانت مشابهة بدرجة أساسية^(٢٧).

فى ذلك الوقت لم يكن الإقطاع هو القضية، ولكنها كانت الرأسمالية، فأى نوع من الرأسمالية كانت؟ إن الصيغة الحالية لوصف ذلك الشئ المتخلف من عصر الانحطاط هى "بقايا الإقطاع" وجاءت نتائج حرب السويس لتنشيط البحوث فى اتجاهين:-

١ - حول طبيعة الرأسمالية المصرية: فمن الواضح أن زراعة المحصول الواحد والاقتصاد الموجه للتصدير (انظر عيسوى) فى مصر كما فى غيرها من الدول التى كانت مستعمرة والأخذة فى الخروج ببطء من التخلف والسيطرة الخارجية قد أسهما فى تشكيل نسخة مشوهة من الرأسمالية الغربية، ولم يكن

فى الوسع أن يوصف القطاع الزراعى آنذاك بأنه "إقطاعى" مع أنه كان متفوقا على القطاعات الأخرى (الصناعية والتجارية والمالية) إلى حد أن هذه القطاعات توارت إلى الخلف، وهكذا يمكن وصف النظام الاقتصادى الذى كان سائدا فى مصر الحديثة (من عصر إسماعيل إلى سنة ١٩٥٢) بأنه "كان رأسمالية متخلفة من النمط الاستعمارى مع وجود قطاع زراعى متفوق"^(٢٨)، وبوسع هذا التعريف أن يساعدنا على تفسير مسار التنمية ابتداء من الثلاثينيات فصاعدا، أى أثناء الفترة التى حارب فيها القطاعان الصناعى والمالى للرأسمالية المصرية للحصول على حق الوصول إلى السلطة والقرار فى المسائل الاقتصادية، مع وجود هدف نهائى لهما يتمثل فى إعادة تشكيل بنية السلطة فى القمة ككل، ويمكن لهذا التعريف أن يساعدنا أيضا على فهم التاريخ الاقتصادى لمصر فى عهد النظام الجديد بدءا من الإصلاح الزراعى على التأميم الشامل للقطاعات الحديثة.

٢ - تطلب الموضوع الثانى تحليلا أكثر قدرة على النفاذ فى ميدان علم الاجتماع هذه المرة، إذا كيف تأتى لمجتمع مندمج على هذا النحو الوثيق بالسوق العالمية منذ ستينيات القرن الماضى أن يقدم هذا الرداء من "بقايا الإقطاع" فى منتصف القرن العشرين؟ إنه يمكن تفسير ذلك بطغيان العوامل الأيديولوجية على العوامل المادية (البنية التحتية)، وهناك تفسير آخر تقترحه الملامح الخاصة للتاريخ المصرى فى حالة مصر المحددة ذلك أن الدور المركزى المهيمن والمستمر لدين الدولة كأيديولوجية يعنى أن المرء بوسعه أن يتوقع الإحساس بآثاره فى الميادين الثانوية من أيديولوجية وثقافة، وفى الحياة الاجتماعية اليومية وهى الميادين التى سبقت الإشارة إليها فعلا، ولقد تعزز هذا الطغيان الكبير (للعوامل الأيديولوجية) من جراء الوحدة العرقية والقومية القوية بشكل استثنائى والتى ميزت المجتمع المصرى، وفى الواقع يمكن - بل وينبغى - على المؤرخين والمراقبين الاقتصاديين المعنيين عندما ينقبون عن الطرق التى يربطون بها فيما بين "العالمية والحالات

الفردية المحددة أن يعترفوا بالاختلافات الواضحة بين مصر والهند مثلا ما دام اندماجهما في السوق العالمية ومستوى كل منهما في الوحدة العرقية والوطنية هو محل الاهتمام.

والاشتراكية هي المشكلة الرئيسية الثانية: فتاريخ خلق ونمو القطاع العام اعتبارا من سنة (١٩٥٧) إلى سنة (١٩٦٣) وما بعدها تاريخ مؤثر، ولكن وسائل الإعلام حاولت التعنيم على الأرقام التي أعلنتها المصادر الحكومية، فقد وضعت تقديرات ميزانية عام (١٩٦٢) - (١٩٦٣) مساهمة القطاع العام عند نسبة ٦٥,٨% تاركة بذلك ٣٤,٢% فقط للقطاع العام، وتوضح أهداف خطة عام ١٩٦٤ - ١٩٦٥ أن القيمة المضافة المتوقعة كانت ١٥٣٨ مليون دولار من القطاع الخاص مقابل ٣٧٥,٦ مليون دولار من القطاع العام، في الوقت نفسه فإن حوالى ٨٠% من الصناعة والنقل والتجارة كانت في يد القطاع العام منذ عام ١٩٦٣ حتى اليوم، وبحلول عام ١٩٧٠ فإن الجزء الأكبر من الإنتاج الزراعى سوف يتم إنتاجه داخل إطار تعاونيات المنتجين^(٢٩).

ولقد كتبت في ١٩٦٤ ملخصا انتهى عشرة سنة من التنمية الاقتصادية ما يلى:-

"يظهر الاقتصاد المصرى بوصفه اقتصاد مختلطا، فهو لا يزال من عدة وجوه رأسماليا، فقد بقيت الأرض فى معظمها بمنأى عن التأميم، أما القطاع العام فلا يزال مكوما بالسوق وبدافع الربح العام بالرغم من أنه تحت قيادة المديرين (التكنوقراطيين)، ويميل كل من التخطيط والمعونة الخارجية بوجه خاص إلى تعزيز هذا الخط فى المدى القصير على الأقل، إنه اقتصاد ينمو بسرعة كبيرة نسبيا مع وجود قطاع رأسمالية دولة مركزى (القطاع العام) بنسب غير عادية، ومع ذلك فإن كل موجة تأميمات جديدة لا تفعل سوى أن تزود التكنوقراطيين بمزيد من المواقع الحصينة ومزيد من السلطة، فى الوقت الذى تضعف فيه سلطة (قوة) رأس المال الخاص"^(٣٠).

وقد قدم حسن رياض لتوه تقويما أكثر نقداً^(٢١) بينما اختارت دراسة باتريك أوبريان المدققة بالرغم من عنوانها الفرعى (مصطلح اقتصاد السوق المتمركزة بوصفه أكثر قدرة على الكشف عن الحقائق من الصفات الغامضة مثل "المخطط" والاستراكي)^(٢٢).

وتدور هذه التقويمات الثلاثة مثلها مثل الأعمال التى نشرها مؤخراً عديد من المتخصصين حول مصطلح أساسى هو "التمركز" وقد حاولت أن أبين أن ٧٠ قرناً من التمركز ليست مقصورة فحسب على المحيط الاقتصادى فى هذا المجتمع الذى يعد أكثر المجتمعات المائية قاطبة اندماجاً وتلاحماً، فالدولة تسيطر على النيل وكانت حتى النصف الثانى من القرن الماضى تملك الأرض، كما أن موقع مصر الجيوسياسى يتطلب منها تركيز جهاز قوى فى يديها، وبالإضافة إلى كل ما تقدم فهناك هيمنة أيديولوجية واضحة وأصبحت فى أغلب الأحوال "ثيوقراطية" بدءاً من الفراعنة ومروراً بالعصر القبطى وانتهاء بالإسلام السنى: أنه هنا فى هذا التآلف تقع نواة الخصوصية التاريخية لمصر ويتعين على أى محلل لتاريخها الاقتصادى أن يأخذ ذلك نقطة بداية إذا كان له أن يصل إلى تفسير عقلائى محدد يمكن أن يشير إلى الأمام؛ أى فى اتجاه المستقبل، ولكن الدور المركزى المهيمن للدولة لا يبين فى حد ذاته عن تكوين اجتماعى اقتصادى كما أنه لا يفصح عن اقتصاد للسوق الحر.

إن أسلوب تناول هاتين المشكلتين المركزيتين فى التاريخ الاقتصادى الحديث يتركز على العلاقة بين الأيديولوجية والبنية الأيديولوجية، وعلى تحليل التغير قصير الأجل فى علاقة هذه العلاقة بالخصوصية التاريخية للمجتمع المصرى عبر آلاف السنين، وهكذا تظهر الأيديولوجية والخصوصية التاريخية فى حالة هذه الدولة القومية القديمة بشكل فريد بوصفهما عاملين من الحجم الأول (الذى يسميه لويس التوسير فى سياق آخر بالـ *surdétermination*)^(٢٣) وفى التحليل الأخير يظهر أن هذين العاملين ذاتيهما قد تشكلا بتأثير الشروط الجغرافية والاقتصادية التى وضعت تلك البصمة التى لا يمكن محوها على التاريخ المصرى منذ بدايته حتى اليوم.

إن هذا الأسلوب الاجتماعى فى تناول المشكلات الاقتصادية يستطيع - أكثر مما تقدم - أن يلقى الضوء على إمكانيات تحقيق مستقبل غير يوتوبى، ويقترح الدور المستقبلى لذلك التمرکز الزائد فى كل ميادين الحياة الاجتماعية مسارين ممكنين على الأقل:

١ - الأول.. يقتضى استخدام هذا التفكير فى التعجيل ببناء قطاع اقتصادى قائد أكثر قوة كراس حربى للتنمية، وسوف يكون مفيدا أن ندرس بالتفصيل أثر الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٩ - ١٩٣٢) على الاقتصاد والمجتمع المصريين والذى يتمثل فى التحول نحو اليمين، وفرض حكم إسماعيل صدقى الديكتاتورى على الجماهير الوفدية مقرونا بتعريفات الحماية الجمركية للصناعة الناشئة وبسياسة شاملة موجهة لصالح رأس المال الوطنى وخصوصا قطاعيه الصناعى والمالى ومع ذلك فيمكن أن يقال وبأسباب معقولة بأن نظام الحكم الحالى فى مصر قد قطع شوطا طويلا فى هذا الاتجاه، وأن العقبات الرئيسية أمام أية تنمية اقتصادية تالية تكمن فى الطبقات الجديدة المتحصنة، وفى التخريب البيروقراطى الخفى الذى تمارسه مجموعة متراسمة من الفروع الحكومية والديناميات الاجتماعية (الموضوعية وليست الأيديولوجية) للسياسة القومية الراديكالية الحالية، وسوف يكون من غير الواقعى أن نتصور أن أى تغيير فى طبيعة الدولة ذاتها يمكن أن يعزز وبطريقة حاسمة دور جماعات الفلاحين والطبقات العمالية أو المثقفين الراديكاليين.

٢ - وينتمى السياق الثانى إلى التاريخ متوسط المدى، وسوف تكون نقطة العقدة هنا هى نسج المجتمع المصرى نفسه الذى يشكل الفلاحون أغلبية أبنائه، وهنا كما فى أى مكان آخر فى القارات الثلاث - توجد المشكلة الكئود فى الموضوع كله، فالتخلف والفقر والأمية لا يزالون فى الريف أكبر بكثير منهم فى المدن رغم أن تقدما ملحوظا تحقق منذ سنة ١٩٥٢، ومع ذلك فالجهد الهائل المتطلب لتنمية مصر ليس مقصورا على مستوى التكنولوجيا

والدولة، إنه يتطلب التعبئة الشاملة للشعب، فإذا ما رغب فى أن لا تأخذ تلك
التعبئة اتجاهها غير مرغوب فيه، ففى المقدور إحداثها فقط بطريقة عقلانية
وإنسانية بواسطة المؤسسات ولمنظمات المنبثقة عن المجتمع الفلاحى نفسه،
ويلوح أن ذلك هو المغزى الحقيقى لحادث كمشيس (أبريل عام ١٩٦٦) وما
يترتب عليه من أحداث.

٣ - وأخيرا.. ينبغي توجيه الانتباه إلى الشمول العميق فى الحقل الاجتماعى
الاقتصادى نفسه سواء على مستوى البنية التحتية (المؤسسات الاقتصادية،
الشروط المعيشية للشعب العامل) أو على مستوى الأيديولوجية (الأثر
العميق لتبنى الاشتراكية كبرنامج قومى وأيديولوجية رغم كل غموضها
وتشوهات) ولكن المستوى الوسيط للهرم الاجتماعى - وهو جهاز الدولة
من ناحية "والطبقة الجديدة" من ناحية أخرى - يتخذ مظهرا استاتيكيًا طاغيا،
ومع ذلك فإن العمل يعكس النوايا أما طوعا وإما كرها، ذلك أننا وصلنا إلى
قلب مشكلة السلطة.

صحيح أن تطبيق مبدأ الخصوصية التاريخية على الحالات التى نحن بصدد
دراستها مسألة بالغة الحساسية، ولكن مشكلات تطبيقه ليست من المشكلات التى لا
تقهر، ويبين التحليل أن عناصره متماسكة.. بطريقة ديناميكية، وبالرغم من أن
متغيرات التغير الكامنة بالنظر إلى التاريخ المستقبلى متضمنا التاريخ الاقتصادى قد
تكون محدودة طالما أن المستقبل هو موضع الاهتمام، فإن جدلية المجتمع المصرى
لم تخدم قط، بل أنها فى حالة عمل مكثف منذ فترة ما بين سنة (١٩٣٩) وسنة
(١٩٤٦).

هل التاريخ سبب للشقاء أم أنه الملوح بالوعد؟...

ذلك هو الدور الذى يمكن تخويله للخيال الاجتماعى.

- (١) انظر University Grants Committee Report of the Sub. Committee on Oriental , Slaronic , East European and African studies (London ١٩٦١) ولا تتخل أمريكا اللاتينية في هذا التقرير، نظرا لأن العامل اللغوي لا يعوق البحث العلمي، ومع ذلك فإن مشكلتها متشابهة مشكلة آسيا وأفريقيا .
- (٢) A.W Small , " Adam Smith and Modern Sociology " , vol I pp ٢٣٥ in H. Becker and H.E Bernes, Social Thought Frame lore to science , ٣rd ed.(N.Y.١٩٦١)vol II , p ٥٢٣-٥٢٦
- (٣) ترجمة. Economic Politique, A, Posner (Paris ١٩٦٢) vol. I, p. ٣٧٩.
- (٤) انظر E.Roll, A History of Economic Thought London , ١٩٦٢, pp ١١-١٧, ٣٠٣-٣٠٨.
- (٥) Asa Brizgs, " History and society" in AGuide to the Sicial Sciences, ed , N. Macken zie(London, ١٩٦٦) pp.٣٣-٥٢.
- (٦) هناك كتابات كثيرة في العلوم الاجتماعية في بلدان العالم الثالث وخاصة من أمريكا اللاتينية . مثل أعمال Celso Furta do و Raoul Prebisch ، انظر في ذلك العدد Partisans ٢٧/٢٦ من ١٩٦٦
- (٧) انظر مجموعة الآراء والمناقشات ، خاصة T.Balogh oH. Hyint في The Teaching of Development Economics Martin and K. Knaap (London ١٩٦٧) والمقدمة العامة بقلم شارل عيسوى في The Economic History of the Hiddle Easr ١٨٠٠-١٩١٤:ABook Rcodings (Chicogo – London, (١٩٦٦) pp.٣-١٣.
- (٨) انظر أنور عبد الملك " La vision du probleme colonial par le monde ofro - asiatique" in Cohiers de sociolopic internationoux.xxx (١٩٦٣). Pp١٤٥-١٥٦. and "sociology of National Development" Social (Dialectics, vol. ٢London, ١٩٨١)

- (٩) تم بلورة وتطبيق هذا المفهوم على يد ماكسيم روندسون في (Islam et Lapitalinc Paris, ١٩٦٦)
- (١٠) على سبيل المثال ، على أساس القوة الشرائية للدولار في ١٩٢٤-١٩٣٣.
- (١١) J.Welier " Le Passage de l'analy se e`la sociologie e`conomique " in (١١) ٣٥٧-٣٨٢ vol I pp (Paris ١٩٦٢) Gurvitch . Traire de sociologie ٦. وهو يذكر انتقادات مشابهة ومهمة J.Nef.
- (١٢) انظر مقدمته في (Paris, ١٩٦٧) pp. Les etapes de la pensee sociologigue ٩-٢٢.
- (١٣) (W. Mills . The Sociological imagination, (Harmonds worth. ١٤. pp (١٣٠) ١٩٧٠ وقد مثل اقتراب جاك بيرك في الدراسات العربية فاتحة بالنسبة للمتخصصين ، باستخدامه ما يمكن وصفه " بحس الاستشراف "
- (١٤) " History et Sociologie in o. outvich, Traite de sociologic vol. I. pp. ١٦٤. c.w Mills Sociological imagination ٨٣-٩٨. ولمتابعة هذا الموضوع كمجال خاص لعلم الاجتماع في الأسلوب التقليدي للقرن التاسع عشر
- (١٥) انظر H.E. Borns , Historical Sociology : its Origins and Development (New York , ١٩٤٨).
- (١٦) C.W. Mills. Sociological Imagination p ١٦٣، ١٦٥، ١٦٨ وتعلمه أمر بالغ الدلالة أن ينصب اختيار ميلز على موضوعي الجيش والقومية .
- (١٧) المصدر السابق ص ١٦٦-١٦٧
- (١٨) " Sociology " in A Guide to the social Sciences p. 79-94
- (١٩) C.W Mills . Sociological Imagination p. 172.
- (٢٠) المصدر السابق ص ١٧٤، وقد أثار هذه القضية كل من T. Bottomore , Ara Briggsمصدر سابق.
- (٢١) المصدر السابق ص ١٧١
- (٢٢) A. Briggs , " History and Society " _p ٤٩.

وانظر أيضا أنور عبد الملك " أزمة الاستشراق " و I. Sachs , " Du Moyen – Age à nos jours : Europe – centrisme et découvertedu Tiers- Monde , " in Annals, xxi (١٩٦٦) pp. ٤٦٥-٤٨٧

وبيلغ هذا الاقتراب التصنيفى أوجه فى كتابات J Austruy

(٢٣) للمجتمعات المشاعية البدائية ، العبودية ، الإقطاع ، الرأسمالية ، الإشتراكية والشيوعية . وقد دفع نشر مؤلف ماركس تدريجيا إلى تشجيع Grudrisse (Hermensworth (١٩٧٣ المناقشة حول التكوينات الاقتصادية قبل الرأسمالية غير الأوروبية، ومنها ما يسمى بنمط الإنتاج الآسيوى ، انظر أيضا إلى مقدمة لكتاب كارل ماركس E.Hobsbown

Precopitalist Economic Formation (London , 1864) pp 9-65

(٢٤) التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث (القاهرة ١٩٤٤) ص ٢٧-٢٨ وكانت المراكز الرائدة فى هذه الفترة هى " دار الأبحاث العلمية و لجنة نشر الثقافة الحديثة " .

(٢٥) التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث القاهرة ١٩٦٢ . ص ٤٣١-٤٤١ .

(٢٦) الأرض والفلاح ، المسألة الزراعية فى مصر (القاهرة ١٩٥٨) ومن الدراسات الأخرى فى هذا المجال ، أبحاث كل من شهدى عطية الشافعى وفوزى جرجس، وقد ناقشنا جوانب الموضوع والجدل الدائر حوله فى أنور عبد الملك Egypte societe militaine (Patis, ١٩٦٢) pp. ١٥-٩١ .

(٢٧) C.Issawiy , Egypt at Mid – Century (New York , ١٩٥٤) الفصول ٣ و ٢
٦. Bare , A History of landownership in modern Egypt ١٨٠٠- ١٩٥٠ (London ١٩٦٢) : على الجريتلى بنى الصناعة الحديثة فى مصر (القاهرة ١٩٤٨)
والذى لا يحدد إلا خلفية تاريخية ممدودة، على عكس مؤلفه بالغ الأهمية " السكان والموارد الاقتصادية فى مصر (القاهرة ١٩٦٢) .

(٢٨) وهى الصيغة التى استخدمت فى مؤلفنا Egypte societe militaine

(٢٩) الرقم الأول مأخوذ عن The VAR Budget Estimates ١٩٦٢-١٩٦٣ Ne`tionel
Bank of Egypt Econemic Bulletin vol XV (١٩٦٢) pp ١٠٨-٧٥

P.D`Brien, The Revolution in Egypt`s Economic
Systtem from private Enterprise to Socialism ١٨٥٧-١٩٦٥, (London ,
١٩٦٦) p ٣٨٥-٣١٧

A- Abdel – Melak " Nasserism and Socialism " The Socialist Register 1964.
(London, 1964) pp. 38, 55.

l`Egypte nassenienne (Paris ١٩٦٤) (٣٠)

(٣١) المصدر السابق ص ٣١٦، وكذلك وثيقة مقترحات الخطة الخمسية الأولى، وعلى الرغم
من أن معظم النشاط الاقتصادى خاضع للتخطيط المركزى ، إلا أن الخطة المصرية
تتضمن الإنفاق الاستثمارى فى القطاعين العام والخاص ، وتوزيع المبادلات الخارجية
(ص٣١٩) .

Pour Merx (Paris, ١٩٦٥). (٣٢)

المصادر

- 1- "LP'Home et la societe". N 23 (1972), P. 111-31.
- 2- "Cahiers internationaux de Sociologie". n 50 (1971), 23 – 40.
- 3- "Alternatives", vol. II (1976), 163 – 175
- 4- Cook, M.A. ed: Studies in the Economic History of the Middle East, Oxford U.P. London 1970 268 282
- 5- Sociologie des Mutations, Balandier, G. ed. Anthropos, Paris, 1970, 51 – 62.
- 6- Working group 14' Civilizations : one of many?

المؤتمر العالمى التاسع لعلم الاجتماع اوبسالا ١٩٧٨

- 7- ٦٤- "الكروول" رام الله، عدد ٥٣ (١٩٩٧) ٧٥
- 8- "Dialectics and Humanism", Warsaw, n 1 (1982) 5 – 29.
- 9- "Cahiers Internationaux de Sociologie". Vo1. XLII (1967), 49 – 57.
- 10- Abdel – Malek, Anouar, ed. YL' Armee dans la Nation (Asie, Afrique, Amerique Latine), S.N.E.D. Alger, 1975, 9 – 17.

-
- 11- 9th World congress of Sociology, uppsala (August 1978), 9 pp.
 - 12- "L'Homme et La Societe", n 20 (1971), 279 – 298.
 - 13- "Radical Geography: alternative viwpoints on contemporary social issues" peet, Richard, ed. Maaroufa Press, Chicago, 1977" Methuen, London, 1978, 293 – 308.
 - 14- Le Centenaire du capital" du capital" Decades du Centre Culturel de Cerisy – la – Salle, nouv. Serie 10, Mouton, Paris – La Haye, 1970, 256 – 296.
 - 15- "Diogene", Unesco, Paris, n 44 (1963), 109 – 142.
 - 16- "Diogene", n 64 (1968), 105 – 133.
 - 17- "Le Monde diplomatique", auot 1974, 19.
 - 18- "Espoir", n 6 (1974), 15 – 17.
 - 19- "Les Conditions de l'Independence nattonale dans le Monde moderne". Actes de Colloque International, Institut Charles de Gaulle (21 – 23 Decmber 1975). Cujas, Paris, 1977, 499 – 509.
 - 20- First Sy mposium of the Iranian Centre for the Dialogue of Civilisations : "Can the planetry impact of western thought render possible a real dialouge between civilizations? (20 – 23 October 1977), Berg International, Paris, 1979, 197 –216.
 - 21- Socialism in the World Beograd, n 7 (1977) 59 – 74.

قائمة المراجع

تم تقديم الآراء الواردة في هذا الفصل اعتباراً من عام ١٩٦٠ في كتابات عديدة منها:

- Egypt socitte militoire immediate paris le seuil 1962 348pp
indexes

- L' Drientalisme en Crise Diogence no 44 1963 pp. 109 – 142.

- idlologie et renaissance nationale: L'Egypt moderne coll
sociologie de la connaissance paris Edihons Anthropos, 1969.
575pp. bibliograghy, glossery transliteration index.

- La jalectige sociale Paris leseuil 1972 480 pp.

- La renaissance du monde arabe

Ed. A. Abdel – Meleb, H. Hanefi A. A.belal. Brussels. Duclot,
Algiers SNED, 1973 . 551 PP.

من أجل استراتيجية حضارية "الثقافة العربية ببيروت ١٩٧٣ ص ١١٦ – ١٣١

Naciones y Rerolueiones "Estudios Orientales vol 8.n.3 (1973)
pp. 229 252

"Le concept de speciticite "Economic et Humanisme no 216
(Morch – April 1974) pp. 43 – 47.

“Charles de Gaulle et la dialectique des civilisations Esposito n 6
(June 1974) pp. 15 – 17.

الخصوصية والاصالة بحث خصوم إلى ندوة أزمة النهضة الحضارية في الوطن
العربي

الكويت، أبريل ١٩٧٤. الآداب مجلد ٢٢ ١٩٧٤ العدد ٥ ص ٤١ – ٤٣.

- الفكر العربي في معركة النهضة بيروت: دار الآداب ١٩٧٤. ٢٤ صفحة.

Ciarnée dans la nobo n

الجيش في الأمة. مؤلف جماعي الناشر أنور عبد الملك
Algiers: SNEA ١٩٧٥ ٤٤٠ PP

- “Clarifying Concepts and Criteria in the social sciences
Possibility report”.

توضيح المفاهيم والمحددات في العلوم الاجتماعية تقرير اليونسكو قسم التنمية
الدولية للعلوم الاجتماعية ٥٦ pp.

The civilisation project: the visions of the Orient

المشروع الحضاري رؤيا في الشرق. ورقه مقدمه إلى المؤتمر الدولي —
٣٠ للعلوم الإنسانية في آسيا وأفريقيا الشمالية المكسيك ٣ أغسطس ١٩٧٦. ٩
صفحات.

Le projet de civilisation positions Les conditions de
l'indépendance nationale dans le monde moderne

أعمال الندوة الدولية، معهد شارل ديوبول في ٢٣ ديسمبر ١٩٧٥.

Paris ed Cuias 1977. pp 499 – 509.

Specificté et theore jociale

Ed. A. Abdel – yalek Paris Ed. Anthropos 1977 470pp.

On the Dialectics of Time Posibons

ورقه مقدمة إلى الندوة الدولية الأولى للمركز الإيراني لحوار الحضارات
حول موضوع "هل يسمح التأثير العالمي للفكر العربي بحوار أقصى بين
الحضارات؟ طهران ٢٠٠ - ٢٣ أكتوبر ١٩٧٧. ١٣ صحفه.

Arabe Culture in a Cheging World.

الثقافة العربية في عالم متغير

ورقة مقدمة إلى الدورة الثانية المجلس الاستشاري للثقافة العربية/ اليونسكو،
تونس، ٥ - ٩ ديسمبر ١٩٧٧).

الجزء الثاني

مفهوم الخصوصية

(٥)

مفهوم عمق المجال التاريخي

١ - طرح المشكلة

يقتصر تاريخ علم الاجتماع - الذي عاد إلى بؤرة الاهتمام بعد فترة من الإهمال - على وصف وتقييم المراحل التاريخية. كما يسعى أحيانا إلى طرح إشكاليات بغرض التنبؤ. وباستثناء بعض النماذج النادرة، فإن تاريخ علم الاجتماع قد ظل منصبا على التأريخ بمعناه الكلاسيكي. وقد تركز اهتمام مؤرخ السوسيولوجيا على رصد كافة العوامل المكونة من وجهة نظرهم لتمييز واستمرارية هذا الحقل المعرفي، ولهم في هذا بعض الحق، خاصة وأن السوسيولوجيا قد تعرضت لانتقادات علوم أخرى أكثر قدما. على أن مؤرخي السوسيولوجيا لم يوجهوا الاهتمام الكافي حتى الآن للتفسير السوسيولوجي للسوسيولوجيا. فهناك إدراك واضح للجهد الاقتصادي يذهب إلى حد اعتباره عاملا حاسما ذا تأثير مباشر. كما أن العلوم الاجتماعية تتجه في مجملها إلى الاعتراف بالدور المحوري للبعد السياسي في أية صياغة نظرية. وفي المقابل فإن ثمة أبعاد لم تتضح بعد بالدرجة المطلوبة، ويأتي على رأسها علاقات التفاعل بين مكونات الثقافة الواحدة، ونخص بذلك تلك العلاقات بين السوسيولوجيا التي ينتجها مجتمع ما أو منطق قومية ثقافية ما في لحظة ما من تطوره التاريخي، وبين خصوصية هذا المجتمع كما تظهر في استمراريته التاريخية واستجابته لصدمة المعاصرة. لكن المثقفين - خاصة الغربيون منهم يحجمون عن تناول هذه الأبعاد. وحتى في حالة سعى بعضهم نحو تحليل نقدي لأسباب ومظاهر التمايز والاختلاف، فغالبا ما يتمسكون بالجانب الشكلي والبنائي، ذلك أن الاقتراب البديل وهو القائمة على التحليل التاريخي النقدي لا يسمح باستبعاد العامل القومي الثقافي - أي بعد الخصوصية، خاصة في مرحلة بعث الظواهر ذات النوع القومي.

وفى الإطار المحدود لهذه الدراسة، فإن الاقتراب الثقافى من مسألة تمايز السوسيولوجيا النظرية غذاء الحرب العالمية الثانية، قد يسمح برصد الانتشار بين التيار البنائى الوظيفى من جانب، والتيار التاريخى النقدى من جانب آخر، أخذاً فى الاعتبار بالمعنى التنظيرى لهذا التيار الثقافى. إن هذا الانقسام الأساسى لا يتطابق مع الانقسام الأيديولوجى الذى درجنا على إعطائه الأولوية فى خضم الحرب الباردة، صحيح أن الاقتراب التاريخى النقدى المتمحور حول الماركسية يتعارض كلية مع المفاهيم السكونية للتيارات المحافظة، إلا أن ثمة بدايات لاتجاه من داخل الماركسية يتبنى الاقتراب البنيوى، سواء لأسباب تتعلق بالحدث أو بالموضوعات الثقافية، وعلى الجانب الآخر فهناك من يتجه إلى السوسيولوجيا التاريخية، تأثراً بالميراث الثقافى الأوروبى. ذلك هو باختصار شديد الإطار العام والذى سبق تناوله باستفاضة فى أعمال أخرى، والذى يسمح بتناول بحث مفهوم التاريخ كظاهرة بكل ما تعنيه كلمة البحث من معان، فضلاً عن المفاهيم المشتقة التى تسهم اليوم فى بناء الحقل الإبنستمولوجى لمفهوم التاريخ، فى القلب من النظرية السوسيولوجية الحالية، على أن إحياء هذا المفهوم جاء على يد التيار التنظيرى التاريخى/ النقدى.

وقد واكب ذلك تحول ثان آثار مخاوف السوسيولوجيا الكلاسيكية. فقد كانت نقطة انطلاق وارتكاز كافة النظريات فى العلوم الاجتماعية، هى العقلانية الكلاسيكية الشكلية خاصة فى تنويعاتها الأرسطية والوضعية، وسواء كانت هذه القاعدة ضمنية أم معلنة طرحه، ونقترح تسمية هذه القاعدة بالتعادلية، ذلك أنها تشكل لب العلوم الاجتماعية المتمحورة حول الذات الأوروبية والتى تتميز بالنظرة التجزئية، فمقتضى هذه النظرة، يفترض أن المعطيات السوسيولوجية متساوية القيمة من الناحية الفكرية والمثالية من حيث قابليتها للتطور والتحول والتقدم. على أن التطورات التاريخية المعاصرة تكذب هذه الفرضيات، فأسطورة قفزات التنمية تتراجع أمام احتمالات تنمية التخلف كما أن المفهوم الخطى الاستمرارى للنقدم الاجتماعى وتطور الأمم قد تلاشى فى مواجهة المفهوم الجدلى والصراعى لتطور المجتمعات البشرية. ومثل هذا التطور القائم على التناقض يتعرض هو الآخر

للانكسار والأزمة بل والتراجع، ومن ثم فإن التفسيرات حسنة النية والتي كانت تفسر الظواهر اعتمادا على متغيرات البيئة أو الظروف الخارجية أو على السياق التاريخي تبدأ في التساؤل: أليس من الأجدي أن نشدد على دور العامل الداخلي وعلى البناء الداخلي للمجتمعات محل البحث، وبصياغة أخرى على خصوصية المجتمعات، عوضا عن افتراضات العالمية والتعادية؟⁽¹⁾

إن مثل هذه الأسئلة والقضايا التي لم تكن متوقعة، توضح اليوم حجم المأزق الذي تواجهه العقلانية الميكانيكية الشكلية في مجال التحليل السوسيولوجي وبلورة المفاهيم السوسيولوجية .

إن الواقع يفرض نفسه، ولا يمكن اليوم الاقتراب من المجتمعات البشرية إلا من زاوية بعد الحركة السياسية، ومن ثم فإن السؤال الأساسي المطروح على كافة علماء الاجتماع هو كيفية تفسير عالمنا الواقعي المعاصر وتناقضاته المتعددة.

إن الاقتراب الأول يعتمد على العوامل ذات الطابع العالمي كالإطار الجغرافي في بعده التاريخي، كما يولى هذا الاقتراب اهتمام كبير للعبة القوى السياسية داخل المجتمع محل الدراسة وعلاقاتها بتوزيع القوة على الصعيد العالمي، كما أن تحليل الأبنية الاجتماعية - وخاصة الطبقة - يحتل أهمية كبيرة بتأثير الماركسية، فضلا عن الاعتراف بدور البنية التحتية الاقتصادية التي يذهب البعض إلى حد اعتبارها بمثابة العامل الحاسم.

وبناء على ذلك فإن التفسير السببي اعتمادا على تفاعل هذه العوامل، يسمح بالإجابة عن بعض التساؤلات غير التقليدية حول الاختلاف بين المجتمعات، ولا شك أن هذه التفسيرات أفضل من تلك التي تقدمها التعادية البحتة.

إلا أن مجمل هذه العوامل لا يكفي.. فهناك ما يستعصى على التفسير، وإن كان متفاوت الأهمية.. إن التطور في أدوات التحليل على مدى قرن مضى لم يحدث أى تغيير في طبيعة التحليل ذاته، والذي ظل مستندا منذ عصر الأنوار وحتى اليوم على مبدأ العالمية وفرضية إخضاع كافة الظواهر الاجتماعية في كافة المجتمعات القومية لتصنيف موحد.

إن ما يستعصى على تحليل العوامل السابقة يؤكد توقعات البعض، أو يناقض توقعات البعض الآخر، فالفريق الأول ينتمى إلى التقليد المتمركز حول الذات الأوروبية، الذى يسعى إلى وضع المجتمعات داخل أنماط موحدة ويرفض تمايزها واختلافها. وإذا ما فرض التمايز ذاته فإن هذا الفريق يتشبث بالفرض. كان هذا هو المناخ النفسى والسياسى الكامن وراء أنماط ماكس فيبر التى تأكدت من بعده على يد ألفريد فيبر، فإذا كان ما يستعصى على التحليل أو يشذ حقيقة دامغة، فالسبب فى ذلك هو أن المجتمعات القومية المختلفة تنتمى إلى أنماط مثالية مختلفة وسرمدية، أى إنها عاجزة هيكلياً عن تحقيق أى تطور مغاير للنمط، لأنه بحكم التعريف ثابت وجامد وغير قابل للتحول "كالألماني" أو "المسلم" أو "الصيني"، هنا فإن الاختلاف يتحول إلى هوة سحيقة لا سبيل إلى عبورها ما دامت تتحدد هيكلياً بناء على نمط مثالى، كما إنها هوة ثابتة لا تتحرك، ومن ثم يصبح الاختلاف هو نفس التطور والتحول الذى يقضى على احتمالات الديناميكية الاجتماعية ويصب التاريخ فى قوالب جامدة، ويفقد كل من الديناميكية الاجتماعية والتاريخ كل شرعية.

وتتضح إذن أسباب تفجر الأزمة عند مستوى معين من مستويات التحليل. صحيح أن المجتمعات القومية تختلف فيما بينها، لكن هذا الاختلاف ليس له طابع ميتافيزيقى، إلا كان معنى ذلك هو نكران كافة مكتسبات علوم الإنسان والمجتمع منذ ابن خلدون وباركليس وحتى ظهور الفكر الحديث فى القرن الثامن عشر. وهنا فإن الاهتمام ينصب على إيجاد وسيط بين الخاص والعام، بين الاختلاف ووحدة القالب الأولى. ذلك هو الهدف المحورى لمبدأ الخصوصية التاريخية، والذى كان سى. رايت ميلز واحداً من واضعيه، وقد حاولت تقديم البلورة النظرية لهذا المبدأ وتحليل عدد من مظاهره المحددة.

٢ - تحديد وتعريف المفهوم

لن نتعرض هنا لتحليل مفهوم الخصوصية التاريخية - وإن كان من الضروري أن نتعرض لخطوطه العريضة - وبعد أن قمنا بتقنين وفرض الاقتراب البنائى الوظيفى الذى يستند إليه مفهوم النمط المثالى وهو بعد مفهوم إثنو عنصرى

وجامد، يتعين علينا أن نبرز عوامل الاستمرارية التي تؤسس الذات التاريخية وتوفر لها الإطارات اللازمة عبر الحركة التاريخية، ومن ذلك تغير العصور والتكوينات الاجتماعية الاقتصادية والأنظمة السياسية والأنماط والنظم الثقافية والأيدولوجية إلخ...

ويتركز البحث في المرحلة الأولى حول العوامل الرئيسية الكامنة وراء استمرارية المجتمع القومى عبر الزمن التاريخى. وقد ظل المفهوم المثالى - بل والروحى - مهيمنًا لفترة طويلة خاصة من خلال فلسفة التاريخ، حتى أزاحه أخيرا الدور الحاسم للبنية التحتية الاقتصادية بتأثير من الماركسية. ويبدو لنا إنه من الأهمية بمكان أن نتعرض لثلاثة أبعاد إضافية، قد تكون ثانوية لكنها ذات دور حاسم فى هيكلة القالب الاجتماعى حول البعد الاقتصادى، وهى إعادة إنتاج الحياة البشرية، وفى القلب من هذا البعد قضايا الجنس والمشار، ثم النظام الاجتماعى أى قضايا السلطة والدولة، وأخيرا قضية الزمن / الموت والتي تطرح موضوعات الأديان والميتافيزيقا.

أما المرحلة الثانية من التحليل فتدرس التفاعل المميز بين هذه العوامل الأربعة فى مجتمع قومى معين بحيث تكشف عن نمط استمراريته التاريخية. ويبدو أن تضافر هذه العوامل يتحدد بناء على إطار حركة هذا المجتمع، فهناك أولا الجغرافيا كإطار طبيعى لكل حياة اجتماعية، ثم تطور هذا الإطار - أى الجغرافيا التاريخية - وعلاقة هذا الإطار المتغير بتوزيع القوة العالمى، أى الجغرافيا السياسية. ويشار فى هذا الصدد إلى الاهتمام الذى أثارته مقولة المجتمعات الهيدروليكية وإلى التمايز الصارخ لتجارب التحديث فى كل من اليابان وأمريكا اللاتينية، إن هذا الاقتراب يسمح باستخلاص خصوصية تضافر العوامل الأساسية للاستمرارية.

وهنا فإن الذات التاريخية لا تعد نمطا مثاليا، وإنما محصلة ونتاج للخصوصية كما أوضحناها. وهذا التحليل يناقش كلية الاقتراب المثالى من قضية الخصوصية ويبنى المنظور التاريخى النقدى القائم على جدلية المجتمعات الواقعية.

وقد لاحظنا أن بلورة مفهوم الخصوصية التاريخية في علم الاجتماع تتم بشكل طبيعي عبر الزمن التاريخي باعتباره الحقل الإستمولوجي لمفهوم الخصوصية. ولن نتعرض هنا للقضايا الفلسفية المرتبطة بالزمن.. وحسبنا أن نشير إلى أن الزمن التاريخي لا يتألف من التتابع الحدثي للظواهر والأبنية بشكل خطي ومتوال، ولكنه عمليه وترحال بطيء تعتريه التناقضات، كما قد تطرأ عليه لحظات الانفراج. وهذه العملية لا تخضع بالضرورة لقانون الجدل بأضلاعه الثلاثة فالمركب الجدلي ليس حتمياً، كما أن فترات القطيعة والتراجع هي جزء من ظواهر التاريخ.. الخ بمعنى آخر، ينظر إلى الزمن التاريخي باعتباره بنية وراثية. ومن ثم يصبح من الممكن تحديد مفهوم عمق المجال التاريخي، والذي يبدو كأحد العوامل المشكلة لمفهوم الخصوصية التاريخية. فكيف يتم ذلك؟

إن عمق المجال التاريخي هو السند الزمني لمفهوم الخصوصية التاريخية أو قل هو البعد الرأسي الذي تتجلى فيه هذه الخصوصية. وإذا كان لب إشكالية الخصوصية التاريخية هو استمرارية مجتمع قومي عبر التطور التاريخي، فإن لذلك صلة واضحة بمسألة الزمن. وليس المقصود هنا هو زمن المشروع أو الذكرى، وإنما الزمن في استمراريته، وهو ليس خطاً متقطعاً وإنما مجال للانتشار. ومن هنا تكون تسميته بالمجال التاريخي، ويكون العمق هو أهم سماته وعمق المجال التاريخي ليس مجالاً فحسب، ولكنه أيضاً إطار للهيكلة. حيث يمكن أن نتحقق الاستمرارية وأن يتم تناولها وفق أساليب مختلفة تتعلق بالكثافة والاتساق. قد تختلف دلالات الاستمرارية. وهنا فإن المتغيرات الدالة تنتج عن تفاعل طائفتين من العوامل أولها إدماج الزمن التاريخي في حركة مجتمع قومي ما، ثم التضافر المتميز للعوامل المكونة لهذا المجتمع. ويوضح تفاعل هذه العوامل أن المجتمعات البشرية تستعصى على تفسير الاقتراب الجزئي الذي يدعى العالمية.

وبمعنى آخر، فإن عمق المجال التاريخي يصبح صورة لمفهوم الوقت في محاولة رصد استمرارية وكثافة الجدل الاجتماعي في المجتمعات البشرية، أو هو الإطار العام الذي تتشكل داخله الخصوصية التاريخية لمجتمع قومي معين في إطار منطقة ثقافية معينة تعد بذاتها واحداً من مكونات إحدى حضارات العالم.

٣ - ديناميكية المفهوم: مخطط برنامج البحث

إن الهدف من هذه المقدمة التحليلية ليس طرح ملاحظات ختامية، وإنما الشروع في برنامج بحثي يتبلور حول ثلاثة محاور رئيسية:

٣ - ١ - أولها هو محور النظرية العامة، وخاصة الإبستمولوجيا، وتتمثل الإشكالية الرئيسية في تغطية وبحث العلاقة بين مفهوم الزمن وبين مجموعة المفاهيم المرتبطة بكثافة الزمن في مجال تاريخ المجتمعات البشرية. إن ظهور العالم غير الغربي - أي أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا على وجه الخصوص - في مجال العلوم الاجتماعية الغربية قبل نصف قرن قد أدى إلى إثراء وتنوع المصادر الأولية للبحث عند أدنى مستوياته، وهو مستوى التحليل الثانوي، حيث اتسعت إمكانيات التعداد والإحصاء والتصنيف المنظم.

أما في المرحلة الثانية - وهي مرحلة التحليل فإن إتساع مجال البحث الذي أشرنا إليه، يسمح بأعمال إعادة البناء النقدية في الحقل الإبستمولوجي للزمن، وذلك انطلاقاً من عالمية حقيقية وليس اعتماداً على معطيات وتقاليد المراكز المهيمنة المتتالية في الحضارة الغربية. ومن ثم فإن كل من اختلاف الأزمنة والتعارض المتوازي بين الشرق والغرب لا ينظر إليه ككليات مثالية كتب عليها الاختلاف وككائنات مجردة من القدرة على التعالى ومن الجدلية الاجتماعية، وإنما ينظر إليه كتعبيرات مختلفة عن إدراك الزمن وفق إيقاعات اجتماعية واقعية تتحدد بناء على تاريخ خاص، وفي إطار بيئي وجغرافي وثقافي متميز.

أما المرحلة الثالثة فتتمثل في التوصل إلى مركبات جديدة، أي في إتمام بناء المفهوم ذاته، وتتركز الدراسات في المرحلة الحاضرة والمستقبل على المستوى الثاني، ويتعين أن تسمح بالانتقال إلى المستوى الثالث، وهو مستوى الصياغة النظرية عبر المدى المتوسط.

٣ - ٢ - ويلي ذلك محور النظرية السوسيولوجية، وهنا فإن الأبحاث ينبغي أن تتناول النقطة الرئيسية وهي التناقض الأساسي بين الهوية والحركة - أي بين طائفتين من العوامل.

٣ - ٢ - ١ - عوامل القابلية للتغير والتي تنتج مباشرة عن مدى عمق المجال التاريخي للمجتمع محل البحث وكثافة ودلالة الجدلية الاجتماعية التي تدور في هذا المجتمع في إطاره القومي أو الإقليمي فضلا عن الاندماج والتماسك الاجتماعي والقومي والتحكم في سلطة القرار القومي والوحدة الثقافية والهوية القومية والقدرة على الإشعاع والتأثير على صعيد الأبنية الفوقية، بغض النظر عن حصر الإمكانات الموضوعية المتاحة وفاعلية وراديكالية الرغبة في التغيير إذا ما تم الاتفاق حول ضرورته سواء على صعيد الجماهير أو على مستوى الدولة.. إلخ ومن الواضح هنا أن أكثر الأمم والتكوينات القومية قدما ورسوخا هي أكثرها ثراء من حيث الإمكانات الذاتية التي تسمح بطرح قضية التغيير والتمسك بالتغيير وتنفيذه.

٣ - ٢ - ٢ - عوامل عرقلة التغير والمواكبة لعوامل التغير في إطار نموذج مجتمعي واحد: التقليد القومي والتقاليد الفرعية في كافة مجالات الحياة الاجتماعية والتمسك بالصورة الجماعية للذات، وبالهوية القومية الشعبية عبر الزمن، وجود طبقات وقوى اجتماعية ومراكز وأجهزة ذات تأثير كبير تتحاز للمحافظة وتستند إلى الأيديولوجية الضمنية ذات الجذور العميقة السائدة في المجتمع، حيث نجد صداها القوى والمروغ خاصة في لحظات الأزمة إلخ...

وهنا أيضا - وكما هو الحال بالنسبة لعوامل التغير - فإن الحضارات والثقافات القومية الأكثر قدما هي تلك التي قد تعرقل فيها العوامل الذاتية عملية التغيير بفاعلية أكبر وعلى امتداد فترات أطول.

إن تحليل هذا التناقض الأساسي، أو هذه التناقضات يجب أن يهتدى إلى طرح إشكالية العامل الذاتي في مجال الديناميكية الاجتماعية: الرؤية والإرادة والمشاورة والفعل.

وهنا فإن هناك أكثر من مازق. ويرجع ذلك إلى التمسك بمقولات الذاتية وإلى رفض أي اقتراب نقدي من مسألة دور الفرد في التاريخ في آن واحد، فهل تسمح

العناصر التى تعرضنا لها بتناول هذه المشكلات على نحو أفضل؟ قد يبدو هنا أن الذاتية الجماعية - وهى بعد معطاة ذو طابع موضوعى وينبغى التعامل معها على هذا الأساس - قد يبدو أن هذه الذاتية الجماعية لا يمكن أن تكون ذات فصل إيجابى فى مجال الديناميكية والتغيير الاجتماعى إلا إذا استندت على معرفة محددة بالخصوصية المميزة لمجتمع ما انطلاقا من طبيعة ودرجة خصوصية الجدلية الاجتماعية الخاصة بهذا المجتمع.

وهنا فإن العوامل والمستويات والنقاط الفاصلة التى قد تتعرض لها عملية التغيير تتضح بشكل أفضل، حيث تمكن هذه العملية من خلق التغيير أو الإسراع به، أى من إحداث تغيير عميق فى نمط تضافر العوامل الأساسية للاستمرارية الاجتماعية. ومن الواضح هنا أن اختفاء الديناميكية على مجتمعات متميزة ومختلفة كفرنسا وأثيوبيا ومصر والولايات المتحدة والصين والمملكة المتحدة لا يمكن أن يتم وفق ذات التصورات، وذلك أيا كانت أطروحات اليمين واليسار والليدان يتساويان فى تجاهل واحتقار الواقع.

٣ - ٣ - أما المستوى الثالث فهو مستوى السوسيولوجيا المقارنة واستخدامها لمفهوم عمق المجال التاريخى، فضلا عن استخدام هذا المفهوم فى مجال السوسيولوجيا السياسية وعلم السياسة. إن استخدام هذا المفهوم يمكن من إثراء البحث حول طائفتين من الإشكاليات.

٣ - ٣ - ١ - وتتمثل أولاهما فى تصنيف التكوينات القومية.. ويبدو لنا أن هذا التصنيف ينبغى أن يتم استنادا إلى الإحياء المعاصر للعالم غير الغربى منذ قرنين، أى استنادا إلى المعطيات التاريخية، والواقع المعاش للقسم الأكبر من المجتمعات البشرية، ونحن نعلم جميعا كيف طرحت مشكلة التشكل التاريخى لمفاهيم العلوم الاجتماعية.

وفى تصنيف التكوينات القومية الذى تعرضنا له فى كتابات أخرى يحتل مفهوم عمق المجال التاريخى دورا أساسيا ومحوريا فى صياغة وتصحيح وتنويع هذا التصنيف.

٣ - ٢ - ٣ - وتتمثل الإشكالية الثانية فى العلاقة بين هذا المفهوم وبين إمكانية التكوينات القومية حديثة العهد وتلك التى وضعتها الجغرافية التاريخية على الهوامش، وهنا فإننا نكون بصدد إشكالية المجموعات التى تسمى "بالأمم الجديدة" وبشكل خاص تلك المجتمعات التى توصف "باللاتاريخية". وهذه الإشكالية تعود بنا مرة أخرى إلى الطابع الوظيفى للسوسولوجيا حيث نواجه الهندسة الاجتماعية فى حالة "الأمم الجديدة" والبنائية فى حالة "المجتمعات اللاتاريخية" والتى تستند إليها البنائية فى بناء تصوراتها الثابتة، حتى وإن تم ذلك اعتمادا على أعمال وصفية لا تخلو من الصحة.

تلك هى الخطوط العريضة التى تسمح بتعريف مفهوم عمق المجال التاريخى وتحديد دور وإمكانيات هذا المفهوم فى السوسولوجيا المعاصرة.

The nation of "Depth of Historical Field" ^(١)

وهذا هو التوجه الأساسي لكتابنا:

Ideologie et renaissance nationale "Egypt moderne.

(Paris' ١٩٦٩) وكما تم تلخيصه في النتائج النظرية ص ٤٨ - ٥١٧

(١) مفهوم الخصوصية

١ - توجهات

ثمة حاجة للتأكيد على ضرورة التوصل إلى رؤية تجمع بين الخصوصية والعالمية، وبين العام والخاص، ومثل هذه الضرورة هي استجابة لمقتضيات كل من علوم الإنسان والمجتمع من ناحية أولى ومقتضيات الممارسة المجتمعية من ناحية ثانية، وصولاً إلى رؤية موحدة وفهم موحد للعالم.. والحق إنه لم يسبق أن شهدنا وشاركنا في هذا التنوع الهائل من الوحدات والعمليات الاجتماعية. وفي ذات الوقت، فإن الطفرة في الاكتشافات العلمية وتطبيقاتها التكنولوجية، ترتبط أيما ارتباط بالروى الكلية، والأيديولوجيات والتصورات حول الأنظمة العالمية، والبيوتيا المستقبلية وغير ذلك من أفكار.

ويزداد الإحساس بالحاح هذا المطلب في المناطق المستبعدة من المشاركة في هذا العالم، أى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، أو بمعنى آخر وباستخدام مصطلحات الحضارة: فى الشرق. (الدائرة الآسيوية فى القلب منها الصين، والدائرة الإسلامية من حول العالم العربى، ومن حول هذه الدوائر كل من أفريقيا، وأقسام من وسط وجنوب أمريكا). ففى هذه المناطق، يتجلى السعى نحو الذاتية والهوية القومية، لعدة أسباب ترتبط مباشرة بصعود الحركات القومية فى المناطق التابعة، فى مواجهة الهيمنة التى فرضها الغرب منذ القرن الخامس عشر. إلا أن نظرة موازية إلى مضمون الأنظمة الاجتماعية الرئيسية فى المجتمعات المتقدمة، توضح أن هناك سعياً مماثلاً نحو تعريف معايير جديدة فى هذه المنطقة فى العالم أيضاً.

وقد تسارع هذا السعى بشكل ملحوظ من جراء صعود الشرق خلال القرن الحالى. ومن ثم، فإن الحاجة إلى البحث فى العلاقات بين العام والخاص هي حاجة

عالمية تتشارك فيها كافة المجتمعات البشرية في وقتنا الحالى، وهو ما يطرح عددا كبيرا من القضايا والتساؤلات كيف يكون الربط - إذا كان ممكنا - وإلى أى درجة؟

فماذا عن بنية السلطة فى الدول الحديثة (غينيا الجديدة، جوايانا، جاميكا) والدول الفيدرالية والكونفدرالية، وماذا عن مؤسسات الدول القومية الحديثة والقديمة وهل هناك ما يربط على نحو معقول، تعريف السياسات الثقافية فى كل من فرنسا والبرازيل وتزانيا ومصر واستراليا واليابان والمكسيك؟ وهل يمكن تحقيق الإجماع حول اقتراب مقارن فى قضايا مثل التعددية السياسية والهوية وإمكانية التغيير المجتمعى فى مجتمعات مختلفة مثل كندا والباراجواى وأندونيسيا وبولندا ومدغشقر؟ وما هى الإمكانيات المحتملة للإبداع الفكرى والعلمى والتكنولوجى وعناصر مقاومة الغير ونمط المواجهة بين التقليدية والحداثة فى أمم مثل منغوليا وإيطاليا والمجر وشيلي وبيرو والهند؟ إلى آخره.

إن القضايا الأساسية، التى ينظر إليها على إنها من "الاستثناءات"، تثير حيرة العقل التقليدى، ومنها: دور الجيش فى السياسة، عودة البعد القومى، ممثلا فى ظاهرة الحركات ذات النزعة القومية، اتجاه الأديان إلى البعد الثقافى الفلسفى الأيديولوجى والعكس، الوعى بالتمائل الجوهري بين أشكال عدة للثبوت الاجتماعى مختلفة الشكل كالدولة الأوتوقراطية، والتعددية السياسية، والإجماع الشعبوى أو القبلى. إن معظم مجالات علوم الإنسان والمجتمع لا تخلو من غموض، وتطرح العديد من التساؤلات التى تبحث عن إجابة.

وتهدف النقاط التالية إلى الجمع بين عدد من الآراء - نطرحها هنا بشكل موجز - بهدف توضيح القضايا الأساسية حول مفهوم مركزى هو مفهوم الخصوصية.

٢ - إطار المقارنة

إن الخطوة الأولى والتمهيدية تتمثل فى طرح تصنيف للوحدات المجتمعية الكبرى محل المقارنة، وبمعنى آخر فإنه قبل إجراء المقارنة، يتعين أن نحدد على

وجه الدقة أطراف هذه المقارنة. ويمكن فى هذا الصدد، رصد ثلاثة أنواع متداخلة من الدوائر التى تشكل إطار المقارنة.

٢ - ١ - الحضارات تلك هى الدائرة الأوسع، والتى تم تعريفها بناء على اقتراح جوزيف نيدهام.

(أ) دائرة الحضارة الهندية الأوروبية.

(ب) دائرة القارة الآسيوية الصينية.

ولا تتدرج أمريكا اللاتينية فى هذا الإطار، وإنما يمكن إدراجها على مستوى آخر.

٢ - ٢ - المناطق الثقافية وهى الدائرة الوسطية التى كثيرا ما يتم الخلط بينها وبين دائرة الحضارات حسبما ننظر فى أعمال آرنولد توينبى، والذى يمكن تتبع محاولاته الناجحة فى صياغة الأنماط. ويمكن رصد المناطق الثقافية التالية:

(أ) فى دائرة الحضارة الهندية الأوروبية

- العصور القديمة فى مصر وفارس وبين النهرين.

- العصور القديمة اليونانية الرومانية.

- المنطقة الثقافية الأوروبية.

- المنطقة الثقافية الشمالية الأمريكية.

- معظم أجزاء المنطقة الثقافية الهندية الأوروبية فى أمريكا اللاتينية.

- المنطقة الثقافية الإسلامية جزئيا، أى المناطق الثقافية العربية الإسلامية والفارسية الإسلامية، باستثناء المنطقة الثقافية الآسيوية الإسلامية، التى تتدرج فى إطار دائرة الحضارة الصينية)

(ب) فى دائرة الحضارة الآسيوية الصينية

- الصين فى حد ذاتها

- اليابان

- منغوليا ووسط آسيا

شبه القارة الهندية

- الإقيانوسية (باستثناء استراليا ونيوزيلاندا)

- المنطقة الثقافية الآسيوية الإسلامية (من فارس إلى الفلبين)

وننظر إلى هاتين الدائرتين بوصفهما الأساسى التاريخى للتميز الأساسى بين عالمى الشرق والغرب.

والواقع أن "الشرق" يمكن رؤية تكوينه على النحو التالى:

(أ) دائرة الحضارة الآسيوية الصينية ومناطقها الثقافية.

(ب) الدائرة الحضارية / الثقافية الإسلامية - والتي يتضح أنها أهم الروابط بين دائرة الحضارة الهندية الأوروبية ودائرة الحضارة الآسيوية الصينية، ويتمثل الرابط إما فى الوساطة أو فى حقيقة أن هذه الدائرة تشهد توترات ساخنة.

(ج) أقسام من الحضارة الهندية الأوروبية فى أمريكا اللاتينية والمرتبطة مباشرة بأفريقيا وخاصة البرازيل ومنطقة الكاريبى.

(د) المنطقة الثقافية جنوب الصحراء الأفريقية.

ومن ثم فإن "الغرب" يتألف من معظم مناطق الحضارة الهندية الأوروبية.

٢ - ٣ - الأمم (أو التكوينات القومية تلك هى الوحدات الأساسية لوجود واستمرارية وتطور العمليات الاجتماعية الكبرى. وقد اقترحنا تصنيفها إلى خمس مجموعات:

(أ) الأمم الأساسية والتي يمكن وصفها حاليا بالأمم ذات النهضة المتجددة (مصر، الصين، فارس، تركيا، أثيوبيا، فيتنام، اليابان، كامبوديا والمكسيك والمغرب).

(ب) أنماط الدولة القومية الأوروبية ثم الغربية.

(ج) الدول القومية الجديدة الساعية نحو الوحدة، ومنها الدول الجديدة بالمعنى الحرفي (غانا، مالى، بورما، تايلاند) والتكوينات القومية الواقعة فى إطار مجموعات متعددة القوميات (أرمينيا، جورجيا، أوزبكستان إلى آخره).

(ب) الدول القومية المزدوجة الهندية ثم الأوروبية وخاصة فى أمريكا اللاتينية.

(د) الدول الجديدة ذات النزوع القومى (خاصة فى عدة مناطق فى جنوب الصحراء الأفريقية، وبعض مناطق وسط وجنوب أمريكا اللاتينية).

٢ - ٤ - ولن نعرض هنا على نحو مفصل لأسس التمييز بين الدوائر الثلاث إلا لإبراز الخطوط العريضة.

(١) يتم تحديد المناطق الحضارية وفقا لعاملين هما المفهوم العام للعلاقات بين الثقافات والأمم والتكوينات الاجتماعية، من جانب أول، ثم البعد الزمنى من جانب ثان، وليست هذه مجرد رؤية للعالم، بل أن أساس التمييز بين الشرق والغرب، هو الرؤية الفلسفية للزمن كمجال للتطور البشرى وما يترتب على هذه الرؤيا من نتائج.

(٢) يمكن النظر إلى المناطق الثقافية، باعتبارها مجموعات مجتمعية تشترك فى رؤية واحدة للعالم. وترتبط هذه الرؤية بالمحددات التاريخية والجغرافية عبر التاريخ (بعدى البيئة والجغرافيا السياسية) أكثر مما ترتبط بالفلسفة بالمعنى الحرفي وقد تعبر عن رؤية واحدة للعالم، مجموعة محددة ومحدودة من اللغات ولغة واحدة (العربية، الصينية، الإنجليزية، الفارسية، واليابانية فى كل المناطق الثقافية الموازية).

(٣) لا شك أن تعريف الأمم أو التكوينات القومية هو أسهل بكثير، طالما تم الاتفاق، حول أهمية وضرورة التصنيف.

إلا إننا عند وضع هذه الأنماط الثلاثة من الدوائر المتداخلة، نكون قد قدمنا وصفا طوبوغرافيا (أو تشرicha) لمجالات المقارنة، وتبقى ضرورة الربط الجدلى

بين مختلف وحدات الدوائر الثلاث من الأوسع إلى الأضيق. وهذا هو على وجه التحديد، الهدف من وراء طرح مفهوم الخصوصية.

مفهوم الخصوصية، البناء والديناميكيات

سوف نبدأ بطرح المفهوم الشامل الأول الذي قدمناه في ١٩٧٠. يمكن تحليل مفهوم الخصوصية على ثلاثة مستويات ومراحل.

١ - مستوى / مرحلة التعريف العام منذ البداية.

إن التوصل إلى خصوصية مجتمع ما يمكن أن يتم من خلال التعرف على نموذج الثبوت الاجتماعي الخاص بتكوين اجتماعي واقتصادي قومي معين، وذلك من خلال القراءة النقدية لتطوره التاريخي. ويتمثل نموذج الثبوت الاجتماعي الخاص في نمط بناء وتفاعل مكوناته الأساسية الأربعة وهي:

(أ) إنتاج الحياة المادية في الإطار الجغرافي والبيئي (نمط الإنتاج).

(ب) إعادة إنتاج الحياة (الجنس)

(ج) النظام الاجتماعي (السلطة والدولة)

(د) العلاقة بالبعد الزمني (محدودية الحياة البشرية، الأديان والفلسفات)

ويشكل إنتاج الحياة المادية الدور الفاصل في هيكلية نموذج الثبوت ككل، ولكنه يتدخل كمحدد أخير. وتطبيق هذا النموذج على عدة مجتمعات يوضح الصورة العامة، ويمكن من إضافة التفضيلات، وصولاً إلى المستوى الأول للتحليل بناء على المحددات الاجتماعية الاقتصادية.

٢ - مستوى / مرحلة الوعي بالأبعاد الزمانية والمكانية.

إن دراسة الخصوصية لا تتم في مجال الإيستمولوجيا البحتة المحددة، لكنها تقع في إطار التطور الفعلي للمجتمعات. ومثل هذا التطور يبرز أهمية العامل الزمني، ومن هنا كانت الأهمية المركزية لمفهوم "عمق المجال التاريخي". إن

السؤال عن الخصوصية ليس مطروحا بصدد المجتمعات العارضة (الحركة الطلابية مثلا أو الدول المصطنعة كالبافرا) إن الحديث عن الثبوت الاجتماعي، يشترط امتداد الفترة التاريخية، وهو يصدق بهذا المعنى على التكوينات الاجتماعية القومية القديمة. وهو المجال النموذجي للخصوصية، وعلى تلك التكوينات التي لم تصل بعد إلى المستوى القومي المكتمل، وعلى "الأمم الفتية" بالمفهوم الذي يتحدث به توماس جيفرسون عن الولايات المتحدة.. ويوضح هذا اتساع مجال البحث الذي يشمل معظم شعوب وأمم عالمنا المعاصر. ولا شك أن العلوم الاجتماعية قد تواجه بمشكلة أكبر فيما يتعلق بالبعد المكاني، بسبب فقدان الثقة في تصنيفات الجغرافيا السياسية. إلا أن التطور التاريخي للمجتمعات لا يتم في الفراغ المجرد لجديليات العقل وهو مغذى فكرة التاريخ، كما أنه لا يدور في مجال الإيستمولوجيا. ويمكن النظر للمجتمعات - في إطار ظروفها الجغرافية - من زاويتين.

(أ) زاوية الموقع وما يترتب عليه من نتائج بالنسبة لوضع المجتمعات والدول؛ وهو مجال الجغرافيا السياسية.

(ب) زاوية المحددات الداخلية، أي البيئة، التي تشير إلى الموارد والإمكانيات، والتي يتعين تقييمها على ضوء المعطيات الديموغرافية.

٣ - مستوى / مرحلة التفاعل الجدي بين عوامل البقاء وعوامل التغير، كالتأثير الفاصل لنمط الإنتاج، وعلى صعيد آخر، تقدم تقنيات الإنتاج.

ويكون من المهم التمييز بين ما هو باق وما يسمح بالثبوت (وهو أمر يختلف تماما عن الحديث عن "ثوابت" أصلية) وما يبقى وفق نموذج معين، وما يطرأ من جديد، وما هو قائم وما يزول. كما يتم تحديد العناصر الأربعة المحددة وأوزانها النسبية في شتى مراحل التطور التاريخي.

٤ - ينطبق مفهوم الخصوصية على كل من المناطق المهيمنة والمناطق التابعة..*

"Pour une sociologie de l'imperialisme"

٢١ (١٩٣١) pp. ٢٧٩ - ٢٩٨ L'homme et la Société n

ويمكن رصد عدد كبير من القضايا التي تحتاج إلى الدراسة، بقدر ما تشكل إطارا لتكوين الخصوصية، في القلب من النظرية الاجتماعية. ويمكن تقسيم هذه القضايا إلى مجموعتين.

(أ) استخدامات مفهوم الخصوصية: أى دلالة هذا المفهوم فى شتى نماذج المجتمعات.

(ب) تحديد المناطق ذات الأولوية فى الاقتراب المقارن باستخدام مفهوم الخصوصية كأداة ومفهوم مركزى.

٤ - الخصوصية والأصالة.

يظل البحث في مجال الانتقال من العالمية إلى الخصوصية من خلال الدراسات النقدية المقارنة، بحثا استثنائيا نظرا لأن الافتراضات النظرية المتمركزة حول الذات الغربية واليقين الفكرى والميل إلى الاختزال المميز لها، ليس من المتوقع أن تختفى من تلقاء ذاتها فى الظروف العالمية الحاضرة بما يميزها من تغير يتمثل فى ظهور حضارات وثقافات وأمم الشرق الناهض، فضلا عن تصاعد الإحساس بالآزمة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة فى الغرب بما يميزها من أنماط ومعايير استهلاكية.

إلا أن الخصوصية باقية. كيف يمكن تحديد موضع هذا المفهوم على وجه الدقة؟

إن الخصوصية كمفهوم صالح عالميا تبدو قائمة بالنسبة لكافة المجتمعات. إلا أن نظرة فاحصة إلى الكتابات الدائرة حول هذا الموضوع، تكشف عن صورة مختلفة بعض الشيء. فهى توضح أن المفهوم المقبول للخصوصية يتم ربطه بشكل

Sociologie de l'imptialisme (Anthropos ١٩٧١) ،٩ La gialectipue

Sociale (Le seuil, ١٩٧٢). pp. ٣٨٩ – ٣٩٢.

أساسى بالمجتمعات القومية غير الغربية وغير الصناعية: الصين وشبه القارة الهندية وآسيا باستثناء اليابان والعالم العربى والإسلامى وأفريقيا والمناطق الداخلية فى أمريكا اللاتينية. وقد كانت مثل بعض المحاولات للتجديد النظرى كالانتقال من سوسيولوجيا المستعمرات التى عفا عليها الزمن، إلى سوسيولوجيا التنمية (أو التخلف أو العالم الثالث إلى آخره...) والتى لا تزال قائمة. الواقع أن مفهوم الخصوصية يستخدم ويتم تصوره على أنه دراسة العرقية Ethnicity دراسة سوسيولوجية. وقد استخدمت عدة تعبيرات تعكس جميعها انطباق المفهوم على المجتمعات الهامشية دون غيرها. ومن ثم استخدام المصطلح العربى - الأصالة - كمرادف للخصوصية. فلنحاول إعمال النظر فى هذا. ما الذى يمكن اعتباره "أصيلا" من المنظور السوسيولوجى؟

إنها العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية والأخلاقية والنماذج التقليدية إلى آخره، هى بمعنى آخر تلك الظواهر التى تنتمى للماضى والمستمرة عبر التطور التاريخى، والتى استمرت بدرجات متفاوتة من التغير واحتفظت بتجانسها ودلائنها. ومن ثم، تكون قيم البداوة من منظور "الأصالة" مساوية للمفاهيم العربية حول الشرف والحب / النشوة، والخلط بين السياسة ونموذج العمارة الأندلسية والموشح كقالب موسيقى وأداء صوتى يتراوح بين المعانى الصوفية والدلالات الجنسية، والقدرة على التعاون الثقافى جنباً إلى جنب مع رفض السلطة، والعناد، كل ذلك يكون ضمن مكونات نموذج الأصالة العربية الإسلامية، وقد كانت هناك محاولات لنفى "الأصالة" عن مناطق قومية ثقافية ومجتمعات قومية أخرى، وكتبت فى ذلك صفحات طريفة أو ساخرة.

والآن، ما الذى يمكن أن نتوصل إليه بعد الرصد شبه الكامل لمعظم خصائص مجموعة مجتمعية ما (حضارات ومناطق قومية ثقافية ومجتمعات قومية) ومقارنتها بمجموعات أخرى؟ وإذا ما تم رصد تلك السمات، فإنه يبقى الكثير بشأن المجتمعات الغربية. إن محاولة المقارنة مع مجتمع غير غربى واحد أو أكثر تهدف إلى قياس الوزن الكامن فى كل خانة، لكنها لا تكفى للوصول إلى مستوى التفسير

التاريخى النقدى أو التاريخى الجدلى للاستمرارية، كما أنها تعجز عن فهم التنويعات القائمة وتأثيرها العلمى ونمط تطورها إما كعناصر تقع ضمن إطار معين للثبوت الاجتماعى أو كمكونات أساسية أو عوامل مشكلة لهذا الإطار ذاته. ومن ثم فإنها لا تسمح بفهم نمط الثبوت الاجتماعى للمجتمع محل البحث. إن هذه المميزات، لا تعدو إن تكون قائمة مطولة من "العادات والتقاليد" (فى ظل إعلام قومية غير أوروبية) تصلح للرحالة المستنير أو رجل الأعمال أو الدبلوماسى. فماذا بعد؟

إن قوائم الصفات تميل فى مجال الاقتربات المقارنة إلى الشكل الإحصائى، أى إنها تتحول إلى تعداد وإحصاء يقتصر إلى أى خلفية تاريخية أو تحليلية موضوعية، شأنها فى ذلك شأن برامج المعلومات.

وهنا فإن الأداة المفهوم الجديدة" تتحول إلى نقيض المستهدف منها، وهو نقد الرؤية الجزئية للعالم، والمتمركزة حول الذات الأوروبية. ومع ذلك فإن كافة التغيرات العالمية تدفع نحو ذلك، وتضعنا أمام تحدى إعادة ضبط الأدوات النظرية، انطلاقاً من نظرة كلية. وهذا هو المناخ الثقافى الذى دفع نحو تحديد وتعريف مفهوم الخصوصية وصياغته تدرجياً. إن الزمن قد تجاوز فى رأينا كافة الاقتربات الجزئية القائمة على الاختزال.

إن ما نحتاج إليه، سواء فى مجال الأفكار أو فى مجال الممارسة السياسية هو أداة تمكن فى ذات الوقت من:

(أ) رصد الاستمرارية والتغير فى مختلف المجتمعات، وهو ما أسميناه بنموذج الثبوت الاجتماعى.

(ب) أن يتم هذا الرصد انطلاقاً من العوامل المشتركة بين كافة المجتمعات القومية والتى تتفاوت فى الدرجة والشكل، وفقاً للإطار التاريخى الجغرافى لكل مجتمع.

ولنعد إلى ما طرحه قضية "الأصالة" من مشكلات. ليس من العسير رصد عشرات التسميات و المصطلحات التى تعبر عن مضامين مشابهة.

وهي تعنى فى أحيان كثيرة بالافتراضات العرقية هنا وهناك، وقد نكتسب طابعا عنصريا، ودائما ما تكون متأثرة بالتمركز حول الذات، وحول الذات الغربية تحديدا. وقد برزت فى فترة متأخرة صياغة أكثر تعقيدا تستمد أساسها من النماذج المثالية الفيررية، وهى ترجع جذور الخصوصية إلى وجود أنماط مختلفة من المجتمعات والتكوينات الاجتماعية. وهنا فإن هذه التمايزات المرتبطة بالتاريخ تؤدى إلى نماذج مثالية من التكوينات الاجتماعية، والشخصيات التاريخية التى تتميز كل منها بسمات هيكلية وروحية وثقافية. ويرى الكثيرون من مفكرى العلوم الاجتماعية أن الاقتراب الفيررى هو خطوة أكثر تقدما وعقلانية من الخليط المعتاد من الافتراضات والآراء المسبقة. إلا أن هذا الاقتراب، يعنى فى آن واحد:

(أ) الاعتراف بالتمايزات بين المجتمعات فى مواجهة فكرة العالمية القائمة على الاختزال وما يستتبعها من سياسات لنشر العالمية وفرضها فرضا.

(ب) وجود هوة لا يمكن تجاوزها بين مختلف التكوينات الاجتماعية، خاصة المجموعات القومية والقومية الثقافية، بحيث تتمايز كل بخصائصها المستقلة تمايزا بنائيا ولا يعود هذا التمايز إلى اختلاف مسار التطور التاريخى الموضوعى بقدر ما يعود إلى التميز البنىوى. وهنا فإن هناك أمثلة عديدة على ما يسمى "بالأصالة"، نذكر منها الطابع العسكرى لبعض الجماعات القومية والقومية الثقافية فى الشرق والغرب على السواء، الطابع العاطفى المميز لسكان حوض البحر الأبيض، خصوصية العلاقة بالبعد الزمنى فى أمريكا اللاتينية، ما يقال عن الميل إلى رفض الاندماج فى جنوب الصحراء الأفريقية، العقلانية فى فرنسا، العقل التاريخى الفلسفى فى ألمانيا، البراجماتية والتجريبية فى العالم الأنجلوسكسونى المسعى، إلى حدود جديدة فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، الرؤية المتكاملة للعالم فى الأمم القديمة (مصر، الصين، فارس... إلى آخره) ويمكن أن تضاف العديد من الأمثلة إلى هذه القائمة. وعند هذا المستوى المتواضع من التحليل، تتضح أهمية الاختلافات القائمة بين المجتمعات والتى ليس من المقصود أن تزول، فكأنه قد حكم على المجتمعات أن تظل

مختلفة ومنفصلة وعاجزة عن التلاقى. إن الاعتراف بالتمايزات وبحق التمايز يؤدي إلى الفصل والعزلة وغياب التواصل. ويبدو العالم وكأنه مجموعة من الجزر غير المتصلة نظرا لاختلافاتها وانتمائها إلى نماذج مثالية مختلفة. فهل هناك من سبيل لتجاوز هذه الرؤية السوداوية والميكانيكية؟

٥ - نحو فهم عميق للواقع الكلى

يتعين أن يستخدم مفهوم الخصوصية في مجال الدراسة المقارنة ذات الدلالة، نحو إعادة بناء النظرية الاجتماعية. والسبيل إلى ذلك هو تحديد أولويات المقارنة فعلى أى أساس يتم ذلك؟

٥ - ١ - لتكن نقطة الانطلاق هي القبول بأوسع مجالات التعددية. إن المحددات والأولويات في مجال العلوم الاجتماعية، تتأثر مباشرة بطبيعة السلطة السياسية، أما العوامل الاجتماعية الاقتصادية، فإنه يبدو أنها تمارس تأثيرها بأسلوب غير مباشر وكخلفية، وليس على نحو ميكانيكي، كما أن هناك تفصيلات مؤسسية مشروعية وتفضيلات شخصية ذات تأثير. ومن ثم فإن قضية الأولويات ومحدداتها تستوجب البحث. ولنبدأ بالتفصيل فيما قدمناه.

إن طائفة أولى من أولويات المقارنة - ومن ثم من المحددات التى تتحدد بمقتضاها الأولويات - ترتبط بالضرورة بالمجالات ذات الموقع الوسيط بين الفكر والممارسة، أو بمعنى آخر بالمشروع الاجتماعى / الاقتصادى والسياسى والثقافى الذى يتبناه المجتمع القومى فى فترة ما من تطوره التاريخى، إن الخاصية المميزة لهذا الاقتراب - الذى لا يمكن تجاهله، والذى يتميز بطابعه العملى - هو أنه يهتم بما يتم فعلا، على صعيد الممارسة الاجتماعية والسياسات العملية، مستخدما فى ذلك أدوات قياس كمية كثيرة، حتى إنه لا يبدو أن البعد التاريخى الممتد لا يكون له إلا نصيب محدود جدا من التحليل. وهو ما يمكن أن نسميه بالمقارنة الوظيفية أو التكتيكية.

وتبقى طبقات عميقة غير معلومة، وهى تلك التى تتركز فيها المادة الأولية للنظرية الاجتماعية، من منظور تعدد الحضارات. وهنا تحديداً، تتضح أهمية مفهوم الخصوصية، والذي ينبع أساساً من مفهوم عمق المجال التاريخي، الذي يشكل جوهر ومصدر الخصوصية والذي يسمح بصياغتها. إن تبنى مثل هذا الاقتراب يبرز كافة العوامل التي يمكن على أساسها تحديد الأولويات والمحددات، وبذلك يتم الانتقال إلى مستوى آخر من المقارنة، هو ما نسميه بالمقارنة الأساسية / المجدية، أو بالمقارنة الحضارية الاستراتيجية.

٥ - ٢ - وتشكل مجالات البحث الأربعة نمط الثبوت الاجتماعي ذاته، وهى إنتاج أدوات الحياة المادية وإعادة إنتاج الحياة البشرية والسلطة الاجتماعية والعلاقة بالبعد الزماني. ويمكن إدراج عدد كبير من الظواهر والعوامل ضمن هذه المجالات الأربعة. ويتبقى بعد ذلك عدة عوامل وظواهر ذات طابع تاريخي مؤقت.

وهنا تثار عدة تساؤلات

(أ) هل تتساوى المجالات الأربعة فى أهميتها بالنسبة لتطور المقارنة الأساسية؟ هنا يجب الأخذ فى الاعتبار بأنماط التداخل بين هذه المجالات من جانب أول، وبضرورات الممارسة الاجتماعية من جانب ثان. فمجال إنتاج أدوات الحياة المادية، لا يمكن أن، يفصل عن السياسات العملية والممارسة الاجتماعية المتصلة، فى كل زمان ومكان، وهو ما يدفع الرؤية الماركسية إلى تمييز هذا المجال، باعتباره العامل المحدد فى الجدليات الاجتماعية. والأمر صحيح رغم وجود قوالب متميزة. وبمعنى آخر فإن التكوينات الاجتماعية الاقتصادية الرأسمالية وتطور المجتمعات القومية والمجموعات القومية الثقافية المختلفة (اليابان وكندا، مصر والسويد إلى آخره) هو تعبير أو تجسيد لخصوصية كل من هذه المجتمعات من زاوية تطورها التاريخي.

(ب) أما المجالات الأخرى فهى أكثر التصاقاً بالخصوصية حيث يبدو أنها تشكل مستوى الأبنية القومية، وذلك من خلال إعادة إنتاج الحياة البشرية، أى مجال

الجنس، الذى يقف فى منتصف الطريق بين الإنتاج الاقتصادى من جانب وتركيبية السلطة / الثقافة من جانب آخر. ويشار فى هذا الصدد إلى أن تغييرا ملحوظا قد طرأ على هذا التوازن الدقيق:

فيمكن أن يقال أن الجنس كان أكثر ارتباطا بالإنتاج الاقتصادى فى المجتمعات ما قبل الرأسمالية، حيث لم تكن هناك وسائل إعلام لتضخيم الإحساس بالذات، وكانت أخلاقيات الإنتاج والاستهلاك تختلف عما هو قائم الآن فى المجتمعات الصناعية الأكثر تقدما. وفى المقابل، يمكن القول بأن الجنس قد أصبح اليوم أكثر تأثيرا بمختلف صور الأوضاع البشرية وإلى حد ما بعلاقته بالبعد الزمنى والفلسفة والأيدولوجية والميتافيزيقا والأديان والاتجاهات الصوفية، كما أنه شهد تغييرا أساسيا على أثر العمل من أجل تغيير وضع المرأة فى المجتمعات المتقدمة فى عالمنا المعاصر.

(٣) وقد كشفت السلطة مؤخرا عن صلاتها الهيكلية بالجزء غير الظاهر من الحقيقة، أى بالجذور العميقة للخصوصية القومية الثقافية، خاصة فى المسارات المتميزة للتجربة الاشتراكية فى كل من الاتحاد السوفييتى والصين. وفى دور وموقع الجيش فى القلب من السلطة السياسية فى شتى النماذج الناصرية (مصر، الجزائر، بيرو، الأرجنتين، البرتغال) وذلك مع الاختلاف الكلى عن الانقلابات الرجعية التقليدية فى المناطق ذات التقاليد القومية الهشة، ونجاح الليبرالية فى الدول الرأسمالية الغربية والمرحلة ما بعد الاستعمارية بالنسبة للقوى الاستعمارية التقليدية (بريطانيا وفرنسا والبرتغال وبلجيكا خاصة) والهيمنة الأمريكية الإمبريالية (فى فيتنام خاصة).

(٤) وتتجلى أهم سمات الخصوصية فى المجال الرابع المتعلق بالعلاقة مع البعد الزمنى. ذلك أن هذا المجال يتصل مباشرة بالفكر والثقافة وتفاعلهما على صعيد شبكة العلاقات المعقدة والمنظمة بين الدين والفلسفة. وهناك فإن الحاجة إلى وصف الأشكال والقوالب والطبائع تكون محدودة، لأننا نتجاوز مستوى الجدل

حول العرق، ولأن النقاش يدور على صعيد آخر أكثر ارتفاعاً من المظاهر الواضحة التي يسهل رصدها.

وعلى الرغم من وضع هذه الفكرة، إلا أنها لا تؤخذ في الاعتبار على نحو كاف. فإن كان كل من الثقافة والفكر المرتبطان بعلاقة الإنسان بالبعد الزمني وكما تعبر عنها الأديان والثقافات، تعكس هذا القدر الكبير من الاختلافات، وتنتج من خلالها، نماذج الخصوصية، فذلك لأنها تعبر عن لب نموذج الثبوت الاجتماعي، أي عن الواقع الكلي العميق الجذور، وعن الإنجازات وأشكال التوازن والإمكانات المحتملة لمجتمع ما.

إن تركيز مثل هذا القدر من الخصوصية في هذا المجال بعينه، هو ظاهرة بالغة الأهمية. ويعني ذلك أن مجال تفاعل البنية القومية الثقافية كما تعبر عنه كل من الأديان والفلسفات والميتافيزيقا والأيدولوجيات والأشكال فوق السيكلوجية والصوفية، هو المجال الأساسي لإعمال المقارنة الأساسية، الإستراتيجية والحضارية، حيث تتجلى في أوضح أشكالها الأهمية المركزية للبعد الزمني ولعمق المجال التاريخي.

٥ - ٣ - ومن ثم فإن المحاولة الأولية لرصد الأولويات تكون على النحو التالي:

(أ) إن مجال / مستوى البنية الثقافية والفكرية ممثلاً في الفلسفات والأديان والأيدولوجيات هو الذي تظهر فيه أكبر وأوضح التمايزات، ويمكن أن يستخدم بكفاءة كنقطة بداية أساسية نحو الدراسة المقارنة.

(ب) ومن الممكن أن تمكن دراسة هذا البعد من توضيح مظاهر الخصوصية في سائر المجالات المرتبطة بالبنية الفوقية، وهي إعادة إنتاج الحياة المادية والسلطة، وقد يسمح هذا بإلقاء الضوء على مجال البنية التحتية الاقتصادية.

(ج) إن أهم المجالات وأوسعها وأكثرها ثراء هو الذي يجمع بين كل من علاقة الإنسان بالبعد الزمني وعامل السلطة. فالسلطة قد تتردد في الارتباط بالأديان والفلسفات والأيدولوجيات، في حين أنها تدعم صلاتها العضوية بالبنية التحتية

الاقتصادية والتي تتأثر بدورها بالتقدم التكنولوجي، والذي يسهل تعميمه فى خطوطه العريضة على مناطق قومية ثقافية مختلفة.

٥ - ٤ - وثمة مثال مهم يمكن أن يلقي الضوء على هذا المجال بالغ التعقيد. فالنظر إلى المجتمعات التى عرفت تحت عنوان "المجتمعات الهيدروليكية". وهى كما نعلم، تلك المجتمعات التى تعتمد على الرى الصناعى لإنتاج غذائها، فى غيبة الرى الطبيعى القائم على الأمطار المنتظمة. ومثل هذه المجتمعات توجد وفق هذه الفرضية فى منطقة خط الاستواء وجنوبه، وتعتبر من أقدم المناطق الحضرية، حيث ظهرت أقدم المجتمعات والحضارات فى تاريخ البشرية (مصر، بين النهرين، الصين، وسط وشمال الهند، أمريكا الوسطى، وسط أفريقيا) ووفقا لهذه النظرية فإن الحاجة إلى الرى الصناعى - أى بناء السدود وشق القنوات والمصارف - كانت هى السبيل الوحيد لإحكام السيطرة على مجارى الأنهار الكبرى، كالنيل ويانج تسي كيانج، والجانج، دجلة والفرات والكونغو... إلى آخره، وقد أدت هذه الحاجة الدائمة إلى السيطرة على موارد المياه، إلى خلق أداة للسيطرة الموحدة والمنظمة على هذه الشبكة الممتدة والمعقدة، بما يستتبعها من سيطرة على عدد من الوحدات الإقليمية أو الأدنى من الإقليمية. وهو ما يفسر ظهور الدول المركزية الجديدة فى أفريقيا، بما يميزها عبر مضى القرون، من طابع أوتوقراطى لا سبيل لتجاوزه. حسنا.. هناك سؤالان يجب طرحهما:

(أ) إذا كانت الطبيعة الأوتوقراطية لسلطة الدولة فى هذه المناطق، تفسر كذلك، فكيف يمكن تفسير هذا الطابع الأوتوقراطى فى سائر أنحاء العالم، وعلى امتداد التاريخ البشرى، باستثناء مناطق محدودة وفترات مؤقتة؟ هل من الأدق القول إن وظائف الدولة هى تلك تتمثل تحديدا فى الضبط الاجتماعى والاستخدام العقلانى للقوة بغية الحفاظ على نظام اجتماعى معين؟

صحيح أن هناك درجات متفاوتة من الأوتوقراطية. إلا إنه يبدو حتى الآن، أن القوة هى سمة مستمرة عبر تاريخ البشر.

(ب) إذا ما تناولنا المجتمعات التى أشير إليها، فهل يمكن الجزم بأن مؤسساتها الثقافية والاجتماعية وظواهرها وعملياتها متشابهة حقا فى كل من فيتنام والسودان وباكستان والمغرب وإيران وكامبوديا على سبيل المثال؟ وإن لم يكن الأمر كذلك، فكيف يمكننا رصد الاختلافات، إذا تمسكنا بالعموميات السطحية ورفضنا الغوص فى الأعماق باستخدام مفهوم الخصوصية كما تم توضيحه، وبحيث يسمح هذا المفهوم برصد أبعاد كل من البقاء والتغير فى هذه المجتمعات والجماعات القومية الثقافية؟

إن المجتمعات الصناعية المتقدمة ليست بحاجة إلى نفى أو إخفاء ما يعبر عن "أصالتها" أو إلى اعتبارها فى عداد "العادات والتقاليد" المشكلة لخصوصيتها. ويصدق هذا أيضا على المجتمعات الأقل تصنيفا، وخاصة غير الغربية. ومن هنا فإن مفهوم الخصوصية يكتسب أهميته من كونه مفهوما وإرادة للرؤية الكلية، التى تستهدف معرفة أعمق بأسباب الاختلاف بين المجتمعات على امتداد تطورها التاريخي. إن الهدف يتمثل فى الربط الجدلي وليس الاختزال. وبدلا من "بنوك المعلومات" التى لا تكتسب قيمتها إلا كأداة لخدمة التحليلات التاريخية النقدية، فإن هذه التحليلات، تبقى وسيلة للربط بين الاقتراب الكمي الإحصائي فى رؤية كلية للعالم، وصولا إلى أى بعدين رئيسيين هما رأسيا التطور التاريخي، وأفقيا الحضارات والمناطق الثقافية والمجتمعات القومية.

(٧)

التصورات والمعايير فى العلوم الاجتماعية

١ - ملاحظات تمهيدية

١ - ٣ - يتضمن القرار ٣ / ٢١ / ١، الصادر عن الدورة الثامنة عشر، للمؤتمر العام لليونسكو، (الفقرة ٣٠٢٤ من ١٨ ج) عددا من الأطر المرجعية التى تهدف إلى توجيه الجهود المشتركة فى مجال العلوم الاجتماعية، حيث نَص على ما يلى " بهدف توضيح المفاهيم ودفع تطور العلوم الاجتماعية، فإن قضية عالمية النزعة فى العلوم الاجتماعية، وإقليمية الجنور، سوف تظل محل بحث، بالتعاون مع المنظمات الدولية والإقليمية والمتخصصين. وسوف تتواصل الجهود بهدف جمع وتحليل وجهات النظر الرئيسية السائدة بين الآراء الواردة فى هذا المقال، لا تعكس بالضرورة وجهات نظر اليونسكو.

الجماعة الدولية للعلوم الاجتماعية". ويعطى النص التالى ملخصا لخطة العمل هذه:

"إن الهدف فى المشروع هو المساهمة فى ضبط المفاهيم الأساسية والمحددات المتعلقة بتطور العلوم الاجتماعية على الصعيد الدولى والإقليمى والقومى. وبشكل خاص، فإن قضية النزعة العالمية والتمايز الجغرافى والأسس الفكرية والمنهجية التى تؤسس التعدد فى أنماط التفكير فى العلوم الاجتماعية، سوف تدرس، بالتعاون مع المؤسسات القومية والإقليمية وجمعيات المتخصصين. وسوف يتم رصد وتحليل وجهات النظر الرئيسية وإعداد دليل عمل للمشاركين، كما سوف يتم إعداد تقرير عام اعتمادا على المساهمات الفردية".

١ - ٢ - وقد تم بعدها تقديم برنامج القرار ١١١٢٠٣ إلى اللجان القومية لليونسكو، حيث تم التركيز على صلب الموضوع وهو "إن قضية عالمية نزعة

العلوم الاجتماعية وإقليمية جذورها، سوف تبحث بالتعاون مع اللجان القومية والمؤسسات الدولية والإقليمية والمتخصصين". إن إحدى السمات المميزة للعلوم الاجتماعية في وضعها الحالي، هي الاتجاه إلى "المحلية" أو "الإقليمية"، في مواجهة تلك العلوم الاجتماعية "المستوردة" وهو الاتجاه الذي يتخذ موقفا نقديا من الحركة الثقافية الأحادية الاتجاه من المركز إلى الهوامش، ويهدف إلى تحقيق الاستقلالية الحقيقية للعلوم الاجتماعية في مناطق شتى من العالم. وعلى المستوى المؤسسي، يؤدي مثل هذا الاتجاه إلى إقامة مؤسسات إقليمية للعلوم الاجتماعية، من أجل تعميق التعاون في مجالات البحث والتوثيق والتدريس، كما يؤدي على مستوى المضامين إلى إعمال الرؤية النقدية في المفاهيم والمحددات السائدة، والتي كثيرا ما تتأثر بالتمركز حول الذات والانحياز الثقافي.

"إن أحد اهتمامات اليونسكو الرئيسية كجهاز مسئول عن نمو العلوم الاجتماعية على الصعيد العالمي، هو ما إذا كان من الممكن أن تمثل المحلية أداة للبراءة وخطوة نحو العالمية بفضل إسهام مختلف الدوائر الثقافية والاجتماعية السياسية، بدلا من أن تكون مجرد انشفاق في العلوم الاجتماعية، إلى عدة مدارس يصعب التوفيق بينها".

وتتضمن الوثيقة تعريفا موسعا لاقتربات المشروع على النحو التالي:

"وفي مجال انتقاء البلدان والمؤسسات الدولية والإقليمية المشاركة في المشروع، فإن ثمة اقتراب بينهما صحيح وقابل للتنفيذ، هما المعيار الجغرافي، ثم معيار المضامين. ذلك أن هناك بالفعل العديد من مدارس العلوم الاجتماعية في شتى المناطق الجغرافية، كما أن هذه المدارس تختلف فيما بينها على صعيد المنهجية المطبقة في البحث العلمي".

"وهنا فإن كل من المعيارين مكمل للآخر ويسهم في محاولة تجاوز الرؤية المحلية والضيقة لمحددات ومفاهيم العلوم الاجتماعية".

"لذا فإنه يتعين أن يأتي على رأس الأولويات، ضرورة تنمية أطر منهجية متميزة ومفاهيم ومحددات تكشف عن اتجاهات الفكر الاجتماعي المرتبطة بالقيم

المحلية وبتمایز الهیاكل الاجتماعیة والتوجهات الثقافیة، وفی هذا الإطار فأنه ینبغی الأخذ فی الاعتبار بكل من التمایزات الجغرافیة وتلك التمایزات الفکریة والمنهاجیة".

١ - ٣ - من الطبیعی أن تعکس هذه الاقتباسات الاتجاه السائد فی العلوم الاجتماعیة، ثم فی الثقافة بشكل أوسع.. ولا شک أن الممارسین فی مجال العلوم الاجتماعیة یعترفون بأن تطوراتهم لم تقابل بالإهمال علی الصعيد الدولی وعلی المستویین الثقافی والمؤسسی، وأن الإطار المرجعی الواسع الذی أعدته الیونسکو قد طرح المشكلة بشكل دقیق، وهی کیفیة الربط بین القومی وما فوق القومی، و بین الإقلیمی والکلی، و بین الخصوصیة والعالمیة.. إلا أن الباحثین قد یرون أيضا - وهذا أمر طبیعی - أن ثمة تساؤلات عدیده کان ینبغی أن تطرح حول التمایزات النظریة والمنهاجیة والتحلیلیة.. وقد یرى البعض الآخر، أن ثمة مبالغة فی طرح هذه القضية التی تخص مناطق معینة.. ومن هنا کان المشروع البحثی الذی نقدمه، بشكل موجز، لتنفیذ مشروع الیونسکو.

١ - ٤ - ونؤكد بداية علی أن الطبیعة المركبة والدائرة لهذه المقترحات تستلهم مضمون وإطار "المخطط التوجیهی"، كما أنها تتفق ونتائج المتوخاة، وهی بالتالی مرحلة أولى فی الجهود المشتركة وعلیه:

(أ) نؤكد بداية علی أن هدفنا المشترك هو كما واضح: السعی من أجل عالمیة حقیقیة للإطار المفاهیمی للعلوم الاجتماعیة مواکبة وإثراء للاتجاهات العامة السائدة، ومن ثم فأننا ننظر إلى تحقیق عالمیة الإطار النظری للعلوم الاجتماعیة، كعملیة شاملة تذل فی اعتبارها عددا کبیرا من المتغیرات، ولیست كحقیقة قائمة لا تدع المجال مفتوحا أمام أیة تساؤلات مستقبلیة.

(ب) سوف یتم تعریف الخصوصیة فی مختلف أبعادها الإقلیمیة والقومیة والحضاریة والثقافیة إلى آخره.. وهنا فأن هناك عدة فلسفات وأیدیولوجیات ونظریات ومناهج تعبر عن هذه المتغیرات وتؤثر فی استخدامها وتوجیهها.

(ج) من ثم فإن المشاركين فى المشروع، سوف يمكنهم بالطبع، الاختيار بين أكبر قدر من البدائل المتنوعة، الأمر الذى من شأنه إثراء المساعى المشتركة.

٢ - السياق التاريخى للقضية

١ - إن جدلية العلاقات بين العالمية والخصوصية وبين الكلية والإقليمية، تواكب مرحلة جديدة ومعقدة من مراحل التطور التاريخى لمجتمعات هذا العالم.

٢ - ١ - ويمكن رصد أبرز الملامح الجديدة للوضع العالمى متمثلة فى نهوض آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، انتقالا من الاستقلال الشكلى إلى مشروعات النهضة الثقافية والحضارية. إن النصف الثانى من القرن العشرين قد شهد العديد من عمليات التغير، إلى حد أن معظم المراكز الدولية والقومية الكبرى قد اتجهت إلى تحليل العمليات المرتبطة بالوضع العالمى الجديد واستشراف مستقبله، ذلك الوضع الذى كثيرا ما يطلق عليه فى الوثائق الرسمية للأمم المتحدة النظام الاقتصادى العالمى الجديد".

٢ - ٢ - ومواكبة لهذا التحول السياسى الاجتماعى الجديد، يمكن رصد أن العلوم الاجتماعية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية والعالم العربى، تتجه بشكل متزايد نحو إثبات الذات. وليس هناك أى نقص فى المواد المرتبطة بتطور العلوم الاجتماعية فى هذه المناطق، حتى وإن كان بعضها لا يأخذ بشكل الأبحاث والتقارير العلمية، وإنما يظهر فى شكل وثائق سياسية رسمية، تشريعية وتنفيذية، كما يظهر فى وسائل الإعلام والمناقشات العلمية والفكرية والسياسية، الدائرة فى الجامعات والمراكز الثقافية والبحثية فى هذه القارات.

وتتمثل أهم القضايا فيما يلى:

(أ) هناك إحساس بأهمية الحاجة إلى تكوين مراكز كبرى للإبداع الثقافى / العلمى والفكرى على السواء. حيث ترتبط العلوم الاجتماعية فى هذه القارات ارتباطا مباشرا بالاستقلال الوطنى ومتطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية.. ومن ثم فإن التحدى الذى تواجهه النخب القومية والسياسية والثقافية / العلمية يتمثل فى

وضع أسس خاصة للنشاط العلمى، ارتباطا بالتقدم الاجتماعى. ويستتبع ذلك بالضرورة أن يعتمد بلوغ هذه الأهداف على شبكة واسعة من التوجهات القومية أو القومية / الثقافية والإقليمية. وهذا هو الدافع الرئيسى للاتجاه نحو السياسات القومية / الثقافية التى كثيرا ما تقترن فى العديد من المناطق بالتوجه الإقليمى.

(ب) وفى مرحلة أولى يتم التركيز على الإطار المؤسسى متمثلا فى الجامعات والأقسام والمعاهد المتخصصة، ومراكز الأبحاث وقوائم المراجع والدوريات والمكتبات إلى آخره.. ويمثل تراكم المادة البحثية وطرح ما توصلت إليه مختلف العلوم الاجتماعية، المرحلة التمهيدية الأولى فى عملية البناء القومى والإقليمى.

(ج) أما المرحلة الثانية وترتبط مباشرة بالمشروع البحثى لهذه الهياكل، فتتمثل فى تحديد الأولويات العلمية إما وفقا للموضوعات أو للمناطق، وذلك على ضوء المشكلات التى تواجهها المجتمعات القومية والتجمعات الإقليمية. وهناك محاولة لطرح وحل هذه المشكلات اعتمادا على المناهج والنظريات والأدوات العلمية الواردة من المجتمعات الصناعية المتقدمة. على أن الاهتمام ينصب أساسا على المشكلات الخاصة بمجتمعات محددة. ومن ثم فإن الاتجاه نحو الاقتراب القومى والإقليمى، يكون مرتبطا ارتباطا عضويا بالسعى من أجل الاستقلال القومى والتوحد والتجمع الاجتماعى / الثقافى الإقليمى، كأكثر العوامل حيوية فى وضع عالمى متميز.

(د) ويفضى ذلك إلى مرحلة ثالثة أكثر تعقيدا بدأت تتضح معالمها. وتتعامل أساسا مع مضمون المفاهيم والنظريات والمناهج والاكتشافات المتعلقة بالعلوم الاجتماعية، خاصة تلك الصادرة عن كبرى المراكز فى أوروبا وأمريكا الشمالية. حيث تبرز هنا الحاجة إلى عملية تكوين وتنمية مناهج ومؤسسات للإبداع العلمى والفكرى، تجمع بين الباحثين المنتمين إلى هذه المناطق. وثمة إحساس فى هذه المرحلة بأن هناك العديد من الموارد التى ينبغى اختبارها والاستفادة منها، كتلك المستمدة من التقاليد ومن القوالب التاريخية للحضارات

والثقافات والقوميات والنماذج الخاصة لضمان الثبوت والتحول المجتمعي. ولا ينظر إلى هذه العملية باعتبارها مهمة الجماعة العلمية أو الباحثين في العلوم الاجتماعية فحسب، ولكنها تتم بمشاركة قطاعات اجتماعية أوسع، طالما أن التنمية الثقافية والعلمية ينظر إليها كجزء عضوي من التنمية القومية والإقليمية.

ويمكن إذن، أن نصف هذه الحركة بأنها عملية مركبة تشارك فيها العديد من القوى بدءاً من تشكيل المؤسسات ثم هيكلية العناصر الجديدة ووضع أطر للإبداع العلمي والثقافي، وبكلمة واحدة، فهو الانتقال من ما قبل العالمية، إلى عالمية حقبة للعلوم الاجتماعية عبر المرور بالتمايز والإبداع القومي والإقليمي.

٢ - ٣ - هناك عدد متزايد من مراكز البحث الاجتماعي في أوروبا وشمال أمريكا، التي شرعت في الاستجابة لتغير الأوضاع العالمية، ومدى تعقدها ومدى ملائمة أطروحات العلوم الاجتماعية، فشرعت في طرح التساؤلات حول الحدود العلمية للإطار النظري للعلم الاجتماعي.

(أ) وتركز الرؤية المحافظة على ضرورة التمسك بما سبق، أي أنها ترفض التسليم بوجود أزمة في مفاهيم علوم الإنسان والمجتمع، وتفسر المشكلات في هذا الصدد على أنها مجرد نتيجة "للتعصب" و "الإقليمية العاجزة".

وافترضها الأساسي، هو أن علماء - ما يسمى بالهوامش - لم يتمكنوا بعد من الإلمام بمقتضيات البناء النظري في عالمنا المعاصر.

(ب) وقد ساد هذا الاتجاه في منتصف الأربعينيات، التي شهدت إحياء للفلسفة الوضعية الجديدة ممثلاً في البنائية في مجال الفلسفة والفكر الاجتماعي، والوظيفية في مجال العلوم الاجتماعية التطبيقية، والتي جلبت معها ترسانة من الإمكانيات الجديدة لتدعيم النمط الثقافي السائد. والعنصر الأساسي في هذا الصدد هو الاختزال بحيث أن ما كان صالحاً بالنسبة للمجتمعات الصناعية المتقدمة، يظل صالحاً للبلدان النامية، وافترض العالمية في هذا الصدد يعني أن كافة الوحدات الاجتماعية المتخلفة والتكوينات الاجتماعية، ما عليها إلا أن تتبع

خطى المجتمعات الصناعية المتقدمة. وهذا الاقتراب الذى ما يزال مهيمنا، قد يسلم بوجود التمايز ولكنه لا يعترف بوجود مشكلة فى البناء النظرى أو بين منظرى العلوم الاجتماعية، ويرى أن التمايز يمكن تجاوزه من خلال الفعل الاجتماعى، دون أن يعنى ذلك أى مساس بالإطار المفاهيمى للعلوم الاجتماعية.

٣ - من الخصوصية القومية والإقليمية إلى العالمية.

يتمثل التحدى إذن فى الربط بين قطبى العالمية والإقليمية. وعلى الرغم من أن هناك إجماع وتمسك بين أعضاء الجماعة العلمية للعلوم الاجتماعية حول قضية العالمية، فإنه يبقى التركيز على البعد القومى والإقليمى، الذى يتعين فحصه، باعتباره السبيل الوحيد نحو الوصول إلى عالمية العلوم الاجتماعية فى عالمنا المعاصر. إن سلسلة العمليات التى يشتمل عليها مفهوم "الإقليمية كطريق نحو العالمية" يمكن فهمها بأساليب عديدة، بل ومتناقضة، يتوافق كل منها مع غايات وأهداف قد تتكامل مع بعضها، وقد تختلف.

٣ - ١ - وفى بداية تعرضنا لبعض التحليلات الصادرة عن الجهات المعنية بإقليمية العلوم الاجتماعية، ومنها سمنار "العلوم الاجتماعية كنظام فوق قومى" (بلاچيو. إيطاليا مركز مؤسسة روكفلر ١٦ - ٢١ يوليو ١٩٧٣) نجد أن هناك العديد من الاختلافات، حيث تتمثل الفكرة المحددة فى تقرير السمنار فيما يلى:

"لقد أدت الحركات التاريخية إلى غياب التوازن عن العلوم الاجتماعية فوق القومية، متمثلا فى علاقات التبعية التى تربط علماء الاجتماع فى الدول النامية، بالعلماء فى الدول المتقدمة". ويسرد التقرير الملامح الأساسية للأزمة محل البحث.

"ترجع علاقات التبعية إلى النظريات والمناهج المهيمنة السائدة فى البلدان المتقدمة والتى تستخدم كمرجع عالمى للبحث والتدريس، وإلى تركيز إمكانيات البحث العلمى المتقدمة والنشر والكشف عن نتائج الأبحاث العلمية وتركز كبرى المراكز الأكاديمية فى أوروبا والولايات المتحدة، والتى كثيرا ما تجذب إليها الصف الأول من الباحثين فى العلوم الاجتماعية من شتى أنحاء العالم". ثم ينتقل

التقرير بعد ذلك إلى جوهر الأزمة "إن نتيجة انعدام التوازن والتبعية، تذهب إلى ما هو أبعد من مجرد عدم التكافؤ في توزيع إمكانيات البحث والتدريس. حيث تتمثل أخطر سماتها في استمرار سيطرة النظريات والمناهج المرتبطة بالتقاليد الثقافية والتجارب التاريخية الخاصة بالغرب وحده، والتي لا تشكل نسقا واحدا، كما إنها ليست بمنأى عن النقد. وهى تقوم على عدة تصورات فلسفية، كما أنها لا تقدم تفسيرات مؤكدة حول القواعد الأساسية للسلوك البشرى والأبنية الاجتماعية.

وبصدق هذا على كافة الاتجاهات الماركسية، وتلك المسماة بالماركسية الجديدة، و المضادة للماركسية والسلوكية والتاريخية والبنائية والوظيفية. حيث تتصف هذه الاتجاهات بقدر عال من الأمبريقية وتميل إلى معالجة الأنظمة الاجتماعية بوصفها وحدات قائمة بذاتها. والأهم من ذلك هو أن هذه النظريات تختص بمشكلات المجتمعات الصناعية، ويرى الكثير من متقفي الدول النامية، أنها ليست مجرد أدوات للتقدم العلمى فحسب، ولكنها أدوات للسلطة السياسية تعمل على ترسيخ البنية الحالية للعلاقات الدولية". وبكلمة واحدة - وحتى لو اعترض البعض على وصف الفلسفات الاجتماعية الغالبة - السلوكية / الوظيفية - فإن التبعية السياسية - الناتجة عن الهيمنة السياسية - تؤدي مباشرة إلى التبعية العلمية الفكرية".

٣ - ٢ - ويستهدف هذا المشروع جمع وجهات نظر الباحثين والمؤسسات والهيئات الإقليمية، حول مفاهيم ومستويات الإقليمية.

٣ - ٢ - ١ - ويمكن أن نبدأ بطرح أكثر المعانى شيوعا ووضوحا وهو النظر إلى الإقليمية كنتاج لانقسام العالم إلى مناطق جغرافية، وبحيث ينقسم تحليلنا لقضية عالمية العلوم الاجتماعية إلى المناطق التالية: أفريقيا - أمريكا الشمالية - أمريكا اللاتينية - العالم العربى - آسيا - الاقيانوسية. ثم يأتى بعد ذلك التعرف على الوحدات الفرعية أو المناطق كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية إلى آخره أو القطاع الأنجلو / ساكسونى واللاتينى، الوحدات الفرعية الأوروبية والآسيوية كالصينية واليابانية وشبه القارة الهندية. ومثل هذا التصور الجغرافى، له

جدارة على الصعيد الكمي أى حساب الموارد البشرية والمؤسسية وحجم ونسبة الباحثين وكم المطبوعات والمشروعات والأنشطة العلمية ومخصصاتها المالية وما إلى ذلك.

ويستتبع هذا، النظر إلى الإقليمية بوصفها عملية خلق الظروف الملائمة لتحقيق زيادة كمية النشاط الفكرى، فى المناطق التى تعاني نقصا، وصولا إلى الحد المطلوب من الموارد المخصصة للعلوم الاجتماعية، ومن السهل إيجاد مواضع القصور فى هذا الاقتراب. إلا أن التساؤل لا يزال قائما: فهل بإمكاننا تجاهل الحاجة إلى البنية التحتية العلمية الملائمة؟ وكيف يمكن إذن أن نعمل على توفير أسس بديلة لتطوير العلوم الاجتماعية فى مختلف مناطق العالم؟

على أن التساؤل الأخطر هو: هل يعنى توفير البنية الأساسية للعلوم الاجتماعية، ضمان الاتجاه نحو تحقيق العالمية المنشودة؟ ألا تعنى العالمية فى هذه الحالة مجرد نشر الاكتشافات والنظريات الجاهزة، من المجتمعات الصناعية المتقدمة إلى العالم النامى فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية؟

أو ليس من الأجدى أن ننظر إلى التقسيم الجغرافى باعتباره أداة لرصد البنية الأساسية للنشاط العلمى، وهو الشرط الضرورى للوصول إلى الهدف؟.

٣ - ٢ - ٢ - ثمة اقتراب ثان يؤسس الإقليمية على الأساس الأيديولوجى. وعلى ضوء هذا الاقتراب، تتضح ثلاثة أقسام هى المجتمعات الصناعية ذات النموذج الرأسمالى (الليبرالية - رأسمالية الدولة - الاحتكارية - الاستعمارية الإمبريالية..) أو ما يسمى بالعالم الأول، والمجتمعات الصناعية ذات النموذج الإشتراكى فى أوروبا أو العالم الثانى، ثم الدول المتخلفة و النامية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، والمسماة بالعالم الثالث، أخذا فى الاعتبار بانقسام العالم الثالث إلى ثلاثة قطاعات (انظر ١٠٥).

ونقطة الضعف الأساسية فى هذا الاقتراب هو أن هناك درجة عالية من التماثل الأيديولوجى بين المجتمعات الصناعية الأوروبية والأمريكية، أعلى بكثير من

تلك القائمة بين المجتمعات الاشتراكية فى كل من شرق أوروبا وآسيا كما أن ما يسمى بالعالم الثالث يضم شتى التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية فضلا عن التمايز العميق فى القوالب الحضارية والثقافية. على أن لهذا الاقتراب تأثيرا قويا على العلوم الاجتماعية المعاصرة. فقد أصبح للأيديولوجيات السياسية والتصورات الفلسفية والمعتقدات الدينية تأثير حاسم على صياغة وتحول العلوم الاجتماعية. فقد واكبت "نهاية الأيديولوجيات" التى تدعمها الاتجاهات الوضعية الجديد، نهاية "موت الفلاسفة" الذى تنبأت به النظريات الاشتراكية فى القرن التاسع عشر، حيث تشهد الفترة الحالية بعثا للديان، بما فى ذلك أكثر شعبية ومسيانية. فهل يعنى ذلك أن العوامل التى طال إهمالها، قد أخذت فى الاتساع، حتى أنها امتدت إلى كافة مظاهر المجتمعات، لم يعد من الممكن تجاهل الأبعاد المتعلقة بالبنية الفوقية للثبوت والتحول الاجتماعى. فهل يمكن تفسير ذلك على ضوء حركة الأحياء الموازية فى المجتمعات التقليدية فى أمم آسيا وأفريقيا والعالم العربى وأمريكا اللاتينية - أى فى المجتمعات "الطرفية" المهمشة؟ وبعبارة أخرى فهل هناك ارتباط بين بروز البعد القومى / الثقافى وبين الاعتراف بالبعد الأيديولوجى والفلسفى للعلوم الاجتماعية؟

هناك عدد من القيود على هذا التحليل. إلا أنه يمكن ملاحظة أن هناك درجة عالية من التماثل بين مختلف التيارات الفلسفية الأيديولوجية - على الأقل الاشتراكية والرأسمالية. أما عما يسمى بالعالم الثالث، فهو يطرح سؤال مهم وهو ما إذا كان من الممكن تعريف أيديولوجية موحدة إن وجدت؟ يمكن تعريفها على أنها أيديولوجية قومية أو بمعنى أدق ذات نزوع قومى. ثم تنقسم بعد ذلك إلى أشكال عدة قومية رايكالية، أو تقليدية، أو إصلاحية، أو شعبية أو تقدمية. إلى آخره.. وموطن المشكلة، بالنسبة لكافة المناطق، أن مثل هذا التقسيم قد يدفع إلى تبسيط مغل، وهو ما يطرح مرة أخرى مخاطر الاختزال.. فهل يمكن أن يصبح الاقتراب الأيديولوجى هو طريقنا للانتقال من الإقليمية إلى العالمية فى مجال العلوم الاجتماعية؟

٣ - ٢ - ٣ - بعد استعراض كل من الاقتراب الجغرافى الأيديولوجى، لا يبقى إلا الأخذ بالإطار الأوسع، وهو الاقتراب القائم على الحضارات والثقافات.

وهو لا يقتصر على الموقع الجغرافى، بل يتعرض للتكون التاريخى للأفكار والنظريات؛ فاستراليا ونيوزيلاندا شركاء فى التكوين التاريخى الثقافى لأوروبا فى أمريكا الشمالية، أكثر من الإيثنوسية وشرق وجنوب شرق آسيا. وسوف نتعرض لذلك بالتفصيل فى فقرة تالية (انظر الفقرة ٥). إلا إنه من المهم أن نقرر الآن - وطالما أن اهتمامنا ينصب على المضامين الخاصة بالمعرفة العلمية للمجتمعات وليس على الموقع والبنية الأساسية فحسب، أن التساؤل يدور حتما حول جذور وتطور وتحول تلك المضامين والعلاقات القائمة فيما بينها.

كيف يمكن بناء على ما سبق أن نقيم هذه الاقتراحات من مسألة الانتقال من الإقليمية إلى العالمية، وكيف يمكن أن نربط بينها؟

٣ - ٣ - يجب أولا أن نقدم اعتبارين أساسيين:

٣ - ٣ - ١ - نود بداية أن نقدم طرحا واضحا وعمليا للمشكلة وماهيتها، وما هى القطاعات التى دفعت التساؤلات حولها وتطلعاتها إلى طرح القضية محل البحث، إن الإجابة واضحة فى صياغة السؤال.. إن المطلب صادر عن آسيا وأفريقيا والعالم العربى وأمريكا اللاتينية، ارتباطا بجذور هذه المناطق على الساحة وتكوين بنية أساسية قومية للعلوم الاجتماعية فيها، وفى هذه المناطق، يسود الإحساس بغياب الملاءمة سواء على صعيد المفاهيم أو على صعيد تطبيقات العلوم الاجتماعية، كما تعكس بوضوح ذلك العديد من الوثائق، التى تعرضنا لأحدها فى البداية.

فالأمر لا يتعلق أنه بكافة المناطق، وإنما بآسيا وأفريقيا والعالم العربى وأمريكا اللاتينية أساسا. كما أنه لا يتعلق بكافة الأيديولوجيات وإنما بتلك المعنية بالتغير الاجتماعى الاقتصادى والسياسى الراديكالى. كما أن الأمر لا يتعلق بكافة المناطق الحضارية والثقافية، وإنما بتلك القائمة فى إطار ما يسمى بالهامش، والتى تتطابق إلى درجة كبيرة مع منطقة الشرق كتكوين تاريخى، (وكما يعبر عنها مشروع الشرق / الغرب لليونسكو).

٣ - ٢ - ٣ - تتعلق المشكلة محل البحث بالتكون التاريخي الاجتماعي للأفكار في إطار سياقها الحضاري / الثقافي الخاص، وهو ما يمكن تعريفه أيضا بعلم الاجتماع التاريخي للثقافة والمعرفة. إن التكون التاريخي للأفكار والمفاهيم المتعلقة بالمعرفة الاجتماعية لمختلف المجتمعات والتكوينات الاجتماعية هي المنطلق الأساسي لهذا المشروع. ومثل هذا الاقتراب النقدي / التاريخي أكثر جدوى في دراسة التطور المقارن للإطارات النظرية للعلوم الاجتماعية، من كل من الاقتراب المثالي - الأنماط المثالية - والاقترابات الوظيفية التي تحمل مخاطر الاختزال والتبسيط.

وهنا فإنه من الملائم أن نشدد على الطبيعة العلمية والنظرية لهذا المشروع، من حيث إنه يدور حول طرق تكوين مختلف مفاهيم ومحددات العلوم الاجتماعية وليس حول مختلف العمليات المعرفية في ذاتها، وهو الأمر الذي يدخل في إطار الإيستمولوجيا النقدية المقارنة.

ويبقى أن نتعرض لطائفة من الآراء حول الموضوع، وهي وإن كانت محدودة إلا أنها تشكل نموذجا معبرا عن شتى الآراء التي نأمل أن تكون بمثابة مؤشر مفيد في هذه المرحلة التمهيدية من المشروع.

٤ - عرض للآراء التمهيدية

استتبع المرحلة التمهيدية للمشروع بعض الآراء العامة المشتركة، فضلا عن عدد من وجهات النظر المتميزة.

٤ - ١ - وقد أكدت طائفة أولى من الآراء على التوجه العالمي للمشروع.

٤ - ١ - ١ - وشدد أحد الآراء على الربط بين التفاؤل بنجاح المشروع، ومقتضيات التعايش السلمي.

أما عن التعدد في المنطلقات والمدارس الفكرية، فقد نظر إليه من زاوية المناطق الجغرافية أولا، ثم من زاوية الأيديولوجيات، وأخيرا من منظور الوحدات القومية الثقافية. واعتبر أن هذا التعدد يؤدي إلى طرح إيجابي للمشروع في ذاته وإلى تمكن اليونسكو من تحقيق أهدافه.

"إن وجود عدة مدارس للعلوم الاجتماعية، يصعب التوفيق بينها وإن تنعكس من خلالها وجهات النظر الثقافية والسياسية، وأن تلعب الأبعاد الإقليمية دورا هاما في صياغة هذه المدارس، كل هذا يعبر عن تعدد المشكلات التى يواجهها العالم، بالنظر إلى تنمية المجتمع البشرى. ومن العبث أن نتجاهل هذه الحقائق التى تشير إلى التعددية حتى وإن كان الهدف هو تحقيق وحدة العلم على المستوى العالمى".

ومن ثم فإننا نرى إنه من الضروري - خاصة فى مجال العلوم الاجتماعية - أن نستخلص من وثيقة اليونسكو، المفاهيم التى تسمح بتركيز البحث حول نقاط محددة (...) ومثل هذا الاقتراب هو وحده الذى يسمح بتحقيق تعاون حقيقى بين مختلف العلماء المنتمين إلى شتى المدارس الفكرية فى كافة المناطق، وألا تحول الاختلافات المنهجية والنظرية والخصوصيات القومية والثقافية فى مفهوم العلوم الاجتماعية دون التعاون الفعال، وذلك على ضوء المبادئ التى تضمنتها الوثيقة التأسيسية للمنظمة. إن وضع قائمة الأولويات التى تسمح بصياغة أطر ومفاهيم ومحددات العلوم الاجتماعية، يجب أن يتم على أساس تفكير عميق فى جوهر الموضوع، ودون أى جنوح نحو الشكلية".

وتعكس إجابة أخرى ذات الرأى:

"مع إيماننا بأهمية هذه الدراسة فى تقدم العلوم الاجتماعية، فإننا نود أن تشمل المناقشات عددا كبيرا من باحثى العلوم الاجتماعية، سواء فى المرحلة التمهيدية أو أثناء تنفيذ المشروع.

٤ - ٢ وقد أكدت طائفة أخرى من الآراء على ضرورة المضى فى المشروع، مع إبراز عدد من المشكلات:

(أ) أرى أن المشروع سوف يكون له أهمية بالغة إذا تم تناوله بعمق وموضوعية، بعيدا عن "الأساليب الدبلوماسية".

وإذا ما تم تنفيذ البحث بواسطة طائفة من علماء الصف الأول، الذين يتميزون باستقلالية حقيقية، فسوف أكون من أشد المؤيدين له، وإلا فلا".

(ب) إن مفهوم العالمية من المفاهيم التى يجب أن تتناقش من حيث واقعها الحالى، وما إذا كان ممكنا ومرغوبا كهدف.. على أنه لدى تحفظات قوية على المشروع، إذ يبدو أن به تعقيدات كثيرة وإنه ليس بمنأى عن الخلافات الأيديولوجية. وإذا كان المشروع يسعى إلى المصادقية، فمن الضروري أن يتم الكشف صراحة عن هذه الخلافات".

(ج) إن المجالات الأكاديمية التى تغطيها عناوين الاجتماع وعلم الاجتماع الأنثروبولوجى، وغيرها، تنقسم إلى "نظرية عامة" ثم "تطبيقات عملية" وأعتقد أن أجهزة مثل اليونسكو، تكون معنية بهذا القسم الأخير، إن تقنيات واهتمامات الباحثين المدرسين فى المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة، ودراساتهم العملية (...). ليست لها أية صلة واضحة بالمشكلات الاجتماعية التى تسعى بلدان العالم الثالث لبحثها. من المؤكد أن كافة الأكاديميين فى مجال العلوم الاجتماعية، يطرحون نفس القضايا على المستوى النظرى المجرد، وأن ثمة ضرورة لاستخدام ذات المفاهيم لكى يصبح الاتصال الدولى ممكنا. ولكن هل هم بحاجة لتوصيات اليونسكو بهذا الشأن؟

(د) إن وصف برنامج اليونسكو (المشروع الفقرة ٣-١١٢-١) للقضية يثير عدة مشكلات مختلفة الطابع. كما أننى لا أثق، إلى أى مدى يمكن الحديث عن "جماعة دولية" واحدة للعلوم الاجتماعية، ولكن أظن أن ما يدور فى ذهن اليونسكو هو قضية محددة، هى العلاقة بين النزعة العالمية وإقليمية الجذور. وما يثير قلقى فى هذا المشروع هو (أ) ما إذا كان قد تم تعريف خصوصية هذه المشكلة بشكل منفصل عن مشكلات أخرى لصيقة قد تطرأ خلال المناقشة (ب) ما إذا كانت أساليب البحث المستخدمة فى المشروع ملائمة أو إن كانت قد حددت أصلا و(كل ما قيل فى هذا الصدد هو مجرد الإشارة إلى "الجهود من أجل جمع وتحليل وجهات النظر الرئيسية)..

(هـ) ماذا عن مضمون وأساليب التحليل؟ وعلى سبيل المثال، كيف يتم تقييم وجهات النظر، بغرض التعرف عليها؟ وعلى أى أساس يتم قبول بعضها أو رفض البعض الآخر؟

٤ - ٣ - كما طرحت بعض المقترحات والتعليقات حول تعيين مجموعة واضحة من القضايا، التي تتصل بالمقترحات النظرية وببعض جوانب العلوم الاجتماعية التطبيقية.

(أ) إن المشكلة التي أشرتم إليها واضحة بلا شك في مجال العلوم الاجتماعية. بل إن "الإقليمية تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فهي لا تتعلق فقط بالتمايز الإقليمي في مجال العلوم الاجتماعية، ولكنها تمتد إلى الأقليات في مختلف المناطق. ومع ظهور العديد من الحركات الاستقلالية، يتضح أن العلوم الاجتماعية تصبح أداة في خدمة طرف ما. ويواكب ذلك نقد مريير لما يسمى "بالعلم الرسمي" ومحاولة تطوير مفاهيم بديلة لا يشوبها الانحياز المسبق ضد بعض الفئات كالعمال والمرأة إلى آخره. إن ما نتطلع إليه هو علم وثيق الصلة بالمشكلات التي تعانيها الجماعات وأن تكون العلوم أكثر انتباها لما هو مميز لكل جماعة بشرية وأكثر ارتباطا "بالتعريف الذي تقدمه الجماعات بذاتها عن أوضاعها".

"وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى الأهمية الفائقة لتيارات العلوم الاجتماعية المعنية بالتأكيد على القدرات الإبداعية للإنسان والتجديد الثقافي، ومنها على سبيل المثال وليس الحصر علم الاجتماع القائم على مشاركة الجماعات في التفكير، والأنثوغرافية المنهجية، والرومانسية الجديدة في مدرسة فرانكفورت والاهتمام المتجدد بالتفاعلات الرمزية. ونحن نرى أن مثل هذه الاتجاهات البديلة يمكن أن تشكل إلى حد كبير، خطوة في اتجاه العالمية، شريطة توفر بعض الشروط. إن المناقشة الدائرة حاليا حول أطر العلوم الاجتماعية يمكن أن تؤدي إلى تهميش بعض هذه الأطر ورفض الحوار حول تطور العلوم الاجتماعية، مع من يؤمنون بمعتقدات مغايرة".

(ب) لست مقتنعا تماما أن مثل هذا البحث المقترح في المشروع (٣-١١٢-١) هو أفضل الوسائل لبلوغ الهدف. وأرى أن البحث يجب أن ينصب في أحد جوانبه على كيفية استخدام بعض التصنيفات (العرق، الذكاء، المرض العقلي) في مختلف البلدان والمؤسسات، ومثل هذا لا يمكن التوصل إليه بمجرد جمع وجهات النظر".

(ج) مقترحات لإجراء دراسات حول الجوانب الاجتماعية والفكرية والثقافية لتأكيد السلام والأمن العالميين (..) وتلك المرتبطة بتصفية الاستعمار والعنصرية والفصل العنصري والاستعمار الجديد (..) دور المؤسسات فوق القومية في الحياة الدولية (..) وأثرها السلبي على التعليم والثقافة والاتصال. دراسات حول التأثيرات الاجتماعية والثقافية للتقدم العلمي والتقني، ودراسات حول عدد من مشكلات التنمية الاجتماعية الاقتصادية في البلدان التي خضعت للاستعمار في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية (...).

(د) "ما هو مقترح هو أن يتم تنفيذ المشروع إما على أساس جغرافي أو على أساس "نظري منهجي". وأرى من جانبي أنه من الضروري تعيين قضية أو قضيتين من كبرى القضايا محل المناقشة في كافة البلدان، وبحث مساهمة العلوم الاجتماعية في كل منها.. وهذه العلوم تتأثر كثيرا بالسياسات العامة ودور الحكومة.

فالبطالة والتضخم ووضع العمالة الأجنبية المهاجرة، كل هذه القضايا تتم مناقشتها في العديد من البلدان، وتسهم فيها العلوم الاجتماعية بدرجات متفاوتة.

٤ - ٤ - وهناك طائفة موازية من المقترحات التي تتعلق مباشرة بكيفية تنظيم الأنشطة العلمية:

(أ) ما هو المقصود على سبيل المثال بـ "تنمية إطار خاص للعلوم الاجتماعية ومفاهيم ومحددات إلى آخره؟ هل الهدف هو صياغة مخطط يصلح كإطار للمناقشة حول العلاقات بين مختلف المنهجيات والممارسات والسمات والمشكلات الخاصة بمناقشة المناطق؟ هل الهدف هو الجمع بين ممثلي مختلف المدارس والمناطق للعمل معاً، أم إن المشروع يندرج في إطار علم اجتماع المعرفة؟ في هذه الحالة كان من الأجدر أن يبادر بدعوة المتخصصين في هذا المجال (..) وبالنظر إلى طبيعة المشروع، فإن عقد ندوة دولية استطلاعية يبدو فكرة جيدة. ولا يشترط أن يكون المشاركين فيها من المنتمين إلى مدارس

محددة، لكن المعيار هو مدى اهتمامهم بهذه القضايا وانعكاس هذا الاهتمام فى كتاباتهم".

(ب) طالما أن اليونسكو مناط بمثل هذا المشروع، فمن الضروري إتمامه. وحول هذا الافتراض، أشير إلى أن المهمة الأولى لمثل هذه المجموعة هى تعيين المفاهيم والمحددات (أيا كان المقصود بالمحددات) محل الجدل والخلاف، وإبراجها فى قائمة، على أن يكون الهدف حول إبراز المشكلات والجوانب الخلافية وليس البحث عن حلول فورية".

(ج) وتؤكد إحدى الأوراق الجماعية على الاقتراب القائم على علم اجتماع المعرفة، نورد منها على سبيل المثال:

"إن الوحدة الأساسية للتفكير" هى المفهوم وليس الكلمة (..) ويمكن كسر الحواجز بين المفاهيم، توضيح العلاقات القائمة فيما بينها (...) باستخدام لغة تتفق والمنطق الأساسى للعلم".

٤ - ٥ - لقد أشار استخدام بعض الألفاظ قدرا من عدم الوضوح، كالتضاد بين ما يسمى بالإقليمية والعالمية، والموازاة بين العلوم الفيزيائية والبيولوجية من جانب، والعلوم الإنسانية والاجتماعية من جانب آخر.

(أ) فى حالة العلوم الفيزيائية والبيولوجية، فإن القانون الطبيعى الواحد يصدق على كافة الحالات. أما فى العلوم الاجتماعية، وباستثناء الألسنية، فإن ذلك لا ينطبق. ولا أعتقد أن ثمة قوانين عامة للعلوم الاجتماعية، وإن حدث ذلك، فلن يتم إلا إذا اتفق الممارسون على جدوى تطبيق مفاهيم واحدة على الصعيد العالمى. لكن أحدا لن يستطيع فرض مجموعة من المفاهيم العالمية على معطيات إمبريقية غير متجانسة. إن المشروع المقترح، لو تم تنفيذه على نحو صحيح، لسوف يكشف أن البشر الذين يعيشون فى ظل أنظمة اجتماعية اقتصادية وسياسية مختلفة، لديهم أفكار مختلفة حول طبيعة ووظيفة العلوم الاجتماعية وإطارها النظرى.

(ب) تكشف إحدى الوثائق عن تلخيص واف لكافة الآراء المؤيدة والمعارضة.

"أود أن أؤكد أولاً على أن الإقليمية ليست في ذاتها هدف نهائي لكنها وسيلة لاستعادة معاني ودلالات غابت عن العالم الثالث، كنتيجة للعلوم الاجتماعية "المستوردة"، أما إذا تحولت إلى هدف، فقد تؤدي إلى "ترقيع" ثقافي يحرم العالم الثالث من التعرف على قيود التبعية الاقتصادية، بل والسياسية أحياناً التي لا تزال تربط ما يسمى بالمركز والهوامش. إن من خصائص وديناميكيات الأنظمة الدولية، أن كافة الأمم والثقافات - بما في ذلك أكثرها انعزالية - قد بلغت اليوم قدراً من الترابط، بحيث أنه يستحيل تحليلها على ضوء المفاهيم الأصلية وحدها. إن الهدف النهائي يجب أن يتصل في علم اجتماعي دولي يربط بين *verstehen* أصيل، وبين تحليل للنظام الدولي وانعكاساته على المستوى القومي. ومثل هذا العلم الاجتماعي متسع بما فيه الكفاية لقبول كل من ما يسمى بالمحددات الجوهرية للإثبات، وما يسمى بالمحددات الوضعية الجديدة القائمة على الفروض والاستنباط والرفض الإمبريقي".

ومثل هذا الربط، يستخدم كلمة الأصالة بالمعنى الحرفي والإثنولوجي. إلا إن علماء الاجتماع والمنقّفين في ما يسمى بالعالم الثالث، يجمعون على أن لفظ السكان "الأصلية" وكل ما يرتبط به من ألفاظ، مشتق مباشرة من التجربة والمصطلحات والمعايير الخلقية الخاصة بالتجربة الاستعمارية (فمن الذي يتحدث عن مؤشرات اجتماعية أمريكية أصيلة، أو عن مفاهيم أخلاقية فرنسية "أصيلة" أو رؤية سويدية أصيلة حول أنماط الاقتباس؟) ومن ثم فإنه ينبغي إعادة المصطلح ضمن المصطلحات العلمية المقبولة عالمياً، كالذاتية أو أفضل منها للقومية والقومية / الثقافية والإقليمية إلى آخره. وهو ما تشير إليه تحديداً عدة وثائق.

٤ - ٦ - وتؤكد إحدى الوثائق الأساسية - وهي الوحيدة الصادرة عن المجتمعات النامية - على المشكلات الواقعية التي يواجهها البحث العلمي الاجتماعي في هذه المجتمعات:

"بالنظر إلى موضوع تحديد أولويات للتنمية أطر العلوم الاجتماعية والمفاهيم والمحددات إلى آخره فإنه فيما يتعلق ببلدنا، أشير إلى أهمية أن يتبنى القائمون على العلوم الاجتماعية على المستوى القومي، موقف وأسلوب تفكير يعترف للبحث العلمي البحث بأهميته، وبحيث يتجلى ذلك على مستوى المساندة المعنوية والمادية للعاملين في هذا المجال، والذين يعملون بحكم طبيعة تخصصاتهم في مجال البحث العلمي البحث. إضافة إلى ذلك، فإنه يتعين إحداث طفرة قوية في تمويل الدوريات المتميزة في مجال العلوم الاجتماعية والكتب وسائر المطبوعات، التي يمكن أن توجه لمختلف مستويات الجمهور. وسوف يكون هناك طلبا كبيرا في السنوات القادمة، على مختلف أنواع المجالات البحثية والمؤلفات، نظرا للارتفاع السريع في رقم دراسي العلوم الاجتماعية. كما أنه يجب أن يتاح المجال أمام حرية البحث عن مصادر تمويل العلوم الاجتماعية في البلاد، داخل وخارج الجامعة".

تلك هي أولويات العلوم الاجتماعية، وفق تعريف اليونسكو".

وتميز الوثيقة بين ثلاثة أنماط أساسية للعلوم الاجتماعية:

- (١) البحث العلمي الأساسي ومجاله هو تقدم المعرفة.
- (٢) البحث التطبيقي والذي يعنى بالتطبيق العملي للمعرفة بحيث تترجم فوراً على صعيد الممارسة
- (٣) البحث حول مشكلات محددة والذي يربط بين الأنماط السابقة، بهدف توفير أنواع جديدة من المعلومات وتوضيح البدائل وتعميق الرؤية لكل القضايا الحيوية في حياة المجتمع" (..)

وقد أثبتت قضية أساسية هي: إلى أي مدى يعكس اهتمام اليونسكو بالبحث الأساسي، حاجات وافتراضات المجتمعات النامية، كما يعبر عنها اتجاه الإقليمية؟ ومن المعروف أن هذا الاتجاه الأخير لا يلفظ العلوم الاجتماعية في صورتها الغربية، ولكنه يعمل الرؤية النقدية إزاء جنوبها نحو التمرکز حول الذات ويبرز انحيازها الثقافي وينتقد نزوعها نحو تفسير يصلح عالمياً، دونما أسس حقيقية. ومن

ثم فإن جوهر اهتمام اليونسكو في مجال البحث الأساسي في مجال العلم الاجتماعي هو:

(١) التأكد من أن مطالب الدول النامية تتم الاستجابة لها بالكامل.

(٢) وفي نفس الوقت، يتم تشجيع الإقليمية بدلا من انقسام العلوم الاجتماعية إلى مدارس يصعب التوفيق بينها. ويشكل هذا الاقتراب إثراء وخطوة نحو العالمية، بفضل مشاركة مختلف القطاعات الثقافية والاجتماعية السياسية. وربما كانت أكثر النقاط العلمية أهمية، هي تلك المتعلقة بإمكانية إعمال المقارنة على الأصعدة الثقافية والاجتماعية والقومية. والمشكلة الأولى في هذا الصدد هي قابلية البيانات للمقارنة والتي يمكن تحقيقها من خلال استخدام إطار موحد من المفاهيم والأدوات. إلا أن البلدان تنتمي إلى عدة مستويات للتنمية.

ومن ثم فإن العلاقة بين مجموعة البيانات والسياق الاجتماعي الثقافي والاقتصادي من التميز بحيث أنها تجعل من مقارنة النتائج، وإصدار التوصيات بشأن السياسات أمرا بالغ الصعوبة. لذا فإنه ينبغي أن يكون إطار المقارنة والدول التي يشملها واضحا.

ولضمان أعلى مستوى من المقارنة بين البيانات فإنه ينبغي تبادل الاستشارة بين الباحثين في عدة مراحل هي تخطيط البحث وصياغته ومدى ظهور النتائج المؤقتة وإعداد التقارير المبدئية".

ومن ثم يكون السؤال المطروح هو: ما هو الإطار الملائم لتحقيق مقارنة مجدية يمكن من خلالها إعادة الهيكلة النقدية والواقعية للإطار النظري للعلوم الاجتماعية؟

٥ - إطار الرؤية المقارنة

إن نظرة إلى مجال المقارنة، تكشف عن التقسيمات التالية:

(أ) العالم "الأول" أي مجتمعات البلدان الرأسمالية الصناعية في الغرب.

(ب) العالم "الثاني" أى المجتمعات الصناعية فى البلدان الاشتراكية.

(ج) العالم "الثالث" أى البلدان النامية أو الأقل نموا فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

والواقع أن تبلور التغيرات المرتبطة بتوزيع القوة على الصعيد العالمى فى ١٩٧٢ / ١٩٧٣ قد أفضى إلى إعادة بناء ما يسمى بالعالم الثالث، وذلك على النحو التالى:

(د) العالم "الثالث" بكامل معناه: ويضم مجتمعات غير صناعية تتوافر لديها مصادر الطاقة والبنية التحتية للتنمية.

(هـ) العالم "الرابع": بلدان ليست لديها مصادر طاقة أو بنية تحتية اقتصادية ذات شأن.

(و) العالم "الخامس": بلدان لا تتوافر فيها الطاقة ولا البنية التحتية وهى بشكل رئيسى بلدان صحراوية.

إن ما يسمى بالعالم الثالث، قد ينبثق عنه قطاع أعلى، مركزى الطابع، وهى الفكرة التى يشار إليها ضمنا فى المفهوم الإجرائى المسمى "بالمجتمع ما بعد الصناعى". إن المضى قدما فى مهمتنا العلمية، يقتضى وضع إطار تصبح المقارنة من خلاله وعلى أساسه مجدية وذات دلالة.

٥ - ٢ - والاقتراب الأول من المقارنة، يقضى أولا بوضع تصنيف متماسك للوحدات المجتمعية محل المقارنة، وبمعنى آخر، فينبغى قبل أعمال المقارنة، أن نحدد ما هى الوحدات محل الدراسة.

٥ - ٣ - إن الجهود المكثفة التى بذلت فى مجال وضع إطارات الرؤية المقارنة بدءا من عام ١٩٤٥ وطوال العقود الماضية، قد أدت إلى تعايش عدد من الإطارات التى يمكن الاستفادة منها لتعميق الاتجاه نحو المقارنة. ونود أن نشير هنا بوضوح إلى أنه لم يحدث بعد أى إجماع بين أعضاء الجماعة العلمية حول أفضل

الخيارات. وقد تعرضنا باستفاضة للاقترابات الأساسية الثلاثة (أنظر ٣ - ٢) لذا فإننا نقدم الاقتراب التالي على سبيل الاقتراح، وكواحد ضمن عدة اقترابات يجدر الأخذ بها في الاعتبار.

٥ - ٤ - والاقتراب الذى نقتـرحه والذى يتبع الملامح التى طرحها كل من جوزيف نيدهام وآرنولد توينبى، يتجه أولا إلى تعيين ثلاثة أنماط من الدوائر المتداخلة، كإطار للمقارنة.

٥ - ٤ - ١ - الحضارات: وتلك هى أوسع الحلقات ونعتمد هنا على تعريف جوزيف فيدهام.

(أ) دائرة الحضارة الهندية الأوروبية.

(ب) دائرة الحضارة الآسيوية الصينية.

وهو ما يعنى عدم الأخذ فى الاعتبار بأمريكا اللاتينية عند هذا المستوى من التحليل، على أن تدرج فى ٥ - ٤ - ٢ - أ.

٥ - ٤ - ٢ - المناطق الثقافية: وهى تلك الحلقة الوسيطة التى كثيرا ما يتم الخلط بينها وبين حلقة الحضارات، ويمكن تتبع محاولات آرنولد توينبى للتصنيف فى هذا الصدد. ويمكن بشكل موسع، رصد المناطق الثقافية التالية:

(أ) فى دائرة الحضارة الهندية الأوروبية:

- الحضارات القديمة فى مصر وفارس وبين النهرين.

- الحضارة اليونانية الرومانية القديمة.

- المنطقة الثقافية الأوروبية.

- المنطقة الثقافية لشمال أمريكا.

- الأقسام الأساسية للحضارة الهندية الأوروبية فى أمريكا اللاتينية.

- المنطقة الثقافية جنوب الصحراء الأفريقية.

- المناطق الثقافية الإسلامية جزئياً، أى المناطق العربية الإسلامية والفارسية الثقافية، باستثناء المنطقة الآسيوية الإسلامية المرتبطة بدائرة الحضارة الصينية.

ب - فى دائرة الحضارة الآسيوية الصينية:

- الصين.

- اليابان.

- منغوليا - وسط آسيا.

- فيتنام وجنوب شرقى آسيا.

- شبهه القارة الهندية.

- الأقيانوسية (باستثناء استراليا ونيوزيلاندا)

- المنطقة الثقافية الآسيوية الإسلامية (من فارس إلى الفلبين) وننظر إلى هاتين الدائرتين بوصفهما الأساس التاريخى للتمييز الأساسى بين المسارات التاريخية بين عالمى الشرق والغرب.

٥ - ٤ - ٣ - الأمم (أو التكوينات القومية) كوحدات أساسية لوجود واستمرارية وتطور العمليات الاجتماعية الكبرى. وقد اقترحنا تصنيفها إلى خمس مجموعات:

(أ) الأمم الأساسية التى يمكن وصفها حالياً بالاسم ذات النهضة المتجددة.

(ب) النموذج الحديث للدولة الأمة.

(ج) الدول القومية الجديدة الساعية نحو الوحدة، ومنها الدول الحديثة بالمعنى الحرفى للكلمة، والتكوينات القومية التى تقع فى إطار مجموعات متعددة القوميات.

(د) الدولة القومية المزدوجة.

(هـ) الدول القومية الجديدة ذات النزوع القومى.

٥ - ٥ - ولن نتعرض هنا على نحو منفصل لأسس التمييز بين الدوائر الثلاث إلا لإبراز الخطوط العريضة. يتم تحديد المناطق الحضارية، وفقا لعاملين هما المفهوم العام للعلاقات بين الثقافات والأمم والتكوينات المجتمعية، والبعد الزمني. والأمر لا يقتصر على رؤية للعالم فحسب، بل إن أساس التمييز بين الشرق والغرب، هو الرؤية الفلسفية للزمن ك مجال للتطور البشرى، وما يترتب على هذه الرؤية من نتائج. ويمكن النظر إلى المناطق الثقافية باعتبارها مجموعات مجتمعية تشترك فى رؤية واحدة للعالم. وترتبط هذه الرؤية بالمحددات التاريخية والجغرافية عبر التاريخ (بعدى البيئة والجغرافيا السياسية) أكثر مما ترتبط بالفلسفة بالمعنى الحرفى للكلمة، وقد تعبر عن رؤية واحدة للعالم، مجموعة محددة ومحدودة من اللغات أو لغة واحدة (العربية، الصينية، الإنجليزية، الفارسية، اليابانية... كل فى منطقتها). ولا شك أن تعريف الأمم أو التكوينات القومية، أسهل بكثير، طالما تم الاتفاق على أهمية وضرورة التصنيف. إلا إننا عند وضع هذه الأنماط الثلاثة من الدوائر المتداخلة، نكون قد قدمنا وصفا طبوغرافيا (أو تشرicha لمجالات المقارنة). وتبقى ضرورة الربط الجدلى بين مختلف وحدات الدوائر الثلاث، من أوسع إلى الأضيق وهذا هو على وجه التحديد الهدف من وراء طرحنا لمفهوم الخصوصية.

٥ - ٦ - لا شك أن الأنماط الأساسية للمقارنة تتمثل فى الاتجاهات التاريخية. وقد تنامي موازاة لذلك اقتراب للمقارنة، يقوم على المحددات الكمية وانتشر بين فروع العلوم الاجتماعية، وهو ما يؤكد على أهمية التشديد على الحاجة إلى التحليل النقدى وإلى إعادة بناء شبكة "المؤشرات الاجتماعية" السائدة حاليا، بدءا من الاقتراب المقارن.

وربما يحمل هذا الاقتراب أهم إمكانيات التطور لكونه يجمع بين إعادة البناء النقدى لكل من المقارنة الاجتماعية ذات الاتجاه التاريخى، و اقتراب "المؤشرات الاجتماعية" بما يميزه من اتجاه كمى.

٦ - نحو العالمية. تعيين المفاهيم والمحددات والحاجة إلى إعادة بناءها خلال الرؤية النقدية.

٦ - ١ - إذا ما اتفقتنا على صلاحية ما أوردناه كإطار ممكن للرؤية المقارنة، يصبح من الممكن أن نتقدم إلى الأمام نحو صياغة مجموعات من المفاهيم، هي في أشد الحاجة إلى إعمال الرؤية النقدية وإعادة البناء. ولذا فقد حاولنا في الملحق رصد عدد من الموضوعات في قوائم ثلاث.

- تضم القائمة (أ) بشكل أساسي تلك المفاهيم والمدرجات المرتبطة أساسا بالمجتمعات الغربية الصناعية، الرأسمالية والاشتراكية.

- أما القائمة (ب) فتضم المفاهيم والمدرجات الخاصة بمجتمعات وأمم آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

- وتجمع القائمة (ج) أخيرا بين المفاهيم والمدرجات المشتركة بين (أ) و (ب) والتي تشكل بهذا المعنى محور الرؤية النقدية.

٦ - ٢ - وقد تمت صياغة المفاهيم والمدرجات الواردة في (أ) و (ب) و (ج) كوحدات قائمة بذاتها. ومن المهم أن تتم صياغتها بعد ذلك على نحو أكثر ترابطا، بحيث تكون بحق أساسا لمهامنا المشتركة. وقد أبرزنا عددا من المفاهيم الأساسية في القوائم (أ) و (ب) و (ج) للإشارة إلى أولويتها. وبشكل عام فإن المدرجات والمفاهيم الواردة في (أ) ترتبط بافتراضات التوسع في التنمية والأيديولوجية الإنتاجية والاستهلاكية وإطلاق إمكانيات العلم والتكنولوجيا، والأنظمة الاجتماعية والسياسية التي تواكب هذه الافتراضات. أما القائمة (ب) فتضم المفاهيم والمدرجات المرتبطة بإشكاليات التحرر والتنمية في مواجهة الهيمنة والتخلف. والواقع إن مفاهيم القائمة (ج) تشكل مجال الفلسفة الاجتماعية بما تميل إليه في صورة أنماط التنمية الجديدة والتصور السائد عن العالم والتصورات عن الحضارة والثقافات إلى آخره.

٦ - ٣ - أما عن استراتيجية تحديد الأولويات، فيمكن أن تتمثل في:

١ - (أ) - (ب) - (ج)

كما يمكن أن تتمثل أيضا في:

٢ - (ج) - (ب) - (أ)

وقد يرى البعض أن أكثر الاقتربات واقعية هو (ب) - (ج) - (أ) لما يعنيه من تركيز على المفاهيم والمدرجات الخاصة بالمجتمعات الآسيوية والأفريقية والأمريكية اللاتينية، بحيث تأتي القائمة (ب) في المقام الأول، ويواكب ذلك العمل من أجل إعادة بناء الإطار النظري للعلوم الاجتماعية - (ج) - ثم تأتي أخيرا قضية المجتمعات الصناعية المتقدمة - (أ) - وقد يتبنى اتجاه آخر، انتقاء مجموعة موسعة من المفاهيم أو الموضوعات تتم صياغتها كنقطة انطلاق أساسية للمقارنة، على أن يتم اختيارها من القوائم الثلاث دون تمييز وبحيث تصبح هذه القوائم مجرد مثال توضيحي.

يجدر أخيرا ونحن بصدد المضي قدما في مشروعنا المشترك، أن نذكر بالطابع الأولى لهذا المشروع. ولا شك أن هناك عدة اعتبارات علمية وثقافية واجتماعية سياسية سوف تؤثر حتما على دراستنا. إلا إنه يمكن توقع الكثير من وراءها، ومن المسيرة الطويلة نحو عالمية العلوم الاجتماعية ومن معرفتنا بالمجتمعات البشرية كسبيل لتعميق معرفتنا بالأساس التاريخي للخصوصيات القومية الثقافية.

مسرد

charismatic power	السلطة الزعامية
Implicit ideology	الأيدولوجية الضمنية
pre- conceptual frame	(المستوى) الإطار السابق على الإطار التصويرى وإطار المفاهيم
epistemological field	حقل/ ميدان المعرفة
typology	سلم الأنماط
mode or social maintenance	نمط الاستمرارية الاجتماعية
geopolitics	جيوبوليتيكا (الجغرافيا السياسية)
hydraulic	المجتمع المائى/ الهيدروليكي
depth of the historical field	عمق الحقل التاريخى
conceptual refinement	إرهاف/ تدقيق المفاهيم
critical synthesis	التركيب النقدى
socio- economic formation	تكوين اجتماعى - اقتصادى
interpretative synthesis	تركيب التفسيرى
theoretical 'no man's land	أرضية الدائبات النظرى
hypothetical mode	الكيفية الاجتماعية
methodological sophistication	التعالى المنهجى
distanciation	التباعد - الاستبعادية
nationalitarian	القومى/ القومى التكوينى
vection	محصلة الاتجاه
reconquest of the identity	استرداد الهوية

polycentrism	تعدد المراكز
thematic	موضوعاتى
esoteric	التنسيق الذاتى
mediation	الوساطة
partnership	المشاركة
societal delegation	الإنابة الاجتماعية
theory building	عملية التنظير
professionalism	الاحترافية
integration	(عامل) ادماج
civilist	المدنية
hegemony of decision power	هيمنة سلطة الإقرار
political class	الطبقة السياسية
national project	المشروع الوطنى
philosophical illusionism	البهلوانية الفلسفية
functionalism	الوظيفية /
universalism/ globalism	العالمية
national formation	التكوين القومى
modality	الكيفية
new nationally oriented state	الدولة الجديدة ذات الرسالة/ الوجهة القومية
new national states geared towards unification	الدولة الجديدة ذات الرسالة/ الوجهة الوحدوية
renascent nation	الأمة المنبثقة/ الناهضة
conceptualisation	عملية تركيب المفاهيم
Islamic fundamentalism	الأصولية الإسلامية

liberal modernism	اتجاه التحديث الليبرالي / المحرر
raricalisation	التحول نحو الجذرية
sociological itinerary	السيرة الاجتماعية
epistemological object	موضوع علم المعرفة
oligarchy	حكم القلة
compradore	الرأسمالية العملية
productivism	النزعة الإنتاجية
voluntarism	النزعة الإدارية
operational sociology	علم الاجتماع الحركي
capitalistic	الرأسمال / الرأسمال التكويني
sumbiosis	تجميع / تكوين تجميعي
synthesis	تركيب
dichotomy	ازدواجية
symbiotic state	
hegemonic choice	تجميع / تكوين تجميعي للدولة
sociological imagination	هيمنة اختيار
historical specificity	الخصوصية التاريخية
agnostic	اللاإيمانية / اللاتدين
theoretical elaboration	التركيب النظري
formativre factor	عضو تكويني
modernist syncretic philosophy	البنية التأليفية التحديثية
Neo-dogmatism	
activist humanism	النزعة الإنسانية الإيجابية
residual	المتبقى

patterning, structuration	تشكيل
semantic variation	التنوع في الدلالة
hegmonic centre	مركز مهين/ مركز هيمنة
negative thought	الفكر السالب/ فكر الردة
space- time factors	العناصر المكانية الزمنية
combinatory	تركيب توافقي - محصلة تركيبية
matrix	قالب
theoretical field	مشغل - ساحة نظرية
hegemonic imperialism	الامبريالية المهيمنة
socio- political indicators	المؤشرات السياسية والاجتماعية
exceptionalism	نظرية الاستثنائية
putschism	ظاهرة الانقلاب العسكرية
cultural area	الدائرة الثقافية
marginal	هامش
pluralist normality	الاستواء التعددي
extra- societal	ما بعد الاجتماعي

Encyclopedias, Dictionaries, Vocabularies

Guid and kolb (eds) A Dictionary of the social sciences, Tavistock 1946.

Lalande, A. Vocabulaire technique et critique de la philosophie, P.U.F. Paris 1960.

Taylor, Ch. L. Hudson M. C. World Handbook of political indicit rs, 2nd ed, Yale U.P, London 1972.

Cranstom, M. (ed) A Glossary of political Terms, the Bodely Head, London 1966.

Rivaud, A. Dictionnaire de la longue philosphique paris.

Foulquie, Dictionnaire de la langue philosophique, paris.

Edwards, P. (ed) Encyclopedia of Philosophy, 8 vol. New York 1962.

Williams, R. Keywords, a vocabulary of culture and society London 1986.

Runes, D. D. (ed) Dictionary of philosophy, 18th ed. New York 1960.

Welmar, B.J. (ed) Dictionary of Behavioural Science, New York, London 1973.

Duncan Mitchell, G. (ed) Adictionary of sociology London 1968.

Elliott, F. A Dictionary of Politics 7th ed., London 1973.

Davies D. A Dictionary of Anthropology, London 1972.

Winick, C. Dictionary of Anthropology, Totowa 1968.

Plano, J. C. Oithon, R. the international relations dictionary, New York 1969.

Seldon, A. Pennance, F. G. Everyman's Dictionary of Economics, London 1965.

Greener, M. the penguin dictionary of commerce, London 1970.

Drever, J. A Dictionary of psychology, London 1952.

Stamp, D. A Glossary of Geographical Terms, 2nd ed. London 1966.

Moore, W. G. A Dictionary of Geography, London 1961.

Monkhous, F. J. A Dictionary of Geography, 2nd ed. London 1972.

Theodoren, G. A. & A. G. A Modern Dictionary of Sociology, London 1970.

Roberts, G. K. A. Dictionary of Political Analysis, London 1971.

Sauvet, T. Dictionnaire Economique et Social, Paris 1962.

Gilpin, A. Dictionary of Economic Terms, 3rd ed. London 1973.

Ashworth, G. Encyclopaedia of Planning, London 1973.

Hout, T.F. Dictionnaire of modern sociology totowa 1969.

Pieron H. Vocabulaire de la psychologie

Romeuf J. Dictionnaire des sciences economiquew 2 vol.

Appendix 3: BIBLIOGRAPHIC ORiENTATIONS

Abdel-Malek;A. "Orientalisme en' Crise", Dioglme No. 44 (1963):109-42;La Dialectique sociale, Ed. Le Seuil, Paris 1972;

Al-Fikr al-'Arabi Fima'rakat al-Nadhah (Arabic Thought in the Struggle for Renaissance), Dar-al-Adab; Beirut 1974, p. 240.

Akiwowo, A. Ethnosociology, 'The Captive Mind, and Sociology, University of Ife, JULY 1975; 10 pp.

Alatas, S. H. "The 'Captive Mind in Development Studies", Cultures, Unesco 1975; "Erring Modernization - the Dilemma of Developing Societies", Symposium on the Developmental Aims and Socio-Cultural Values in Asian Society, Bangkok, Nov. 3-7, 1975, 45 pp.

Barel, Y. La Reproduction sociale, Anthrapos, Paris 1974, 552 pp, Bauer, R. A. (ed.) Social Indicators, MIT Press 1966, xxi-357. Bdieman, A. Cultures in International Relations.

Brodbeck, M. Readings in the Philosophy of the Social Sciences, Macmillan, London, 1968, ix-788 (cf. last page).

Casanova, P. G. "Historical Systems and Social Systems", Studies in Comparative International Development, Rutgers Univ. Vol. VIII, Fall 1973, No.3.

Cecconi, O. Croissance économique et sous-développement culturel P.U.F., Paris 1975.

Current Research and Development in Scientific Documentation, Wishing ton, D. C. ,National Science Foundation, Quarterly since 1957.

Desanti, J. Toussaint La Philosophie scientifique au critique des philosophies de la science, Le Seuil, Paris 1975, p. 283.

Dubois, J. "Pourquoi des restrictions?", Social Science Information 1967, 6 (4): 101-112.

Ditmer, R. W. A Thesaurus of Planning Terms, Council of Planning, Librarians - Exchange Bibliography No. 983, February 1976.

Durkheim, E. and Mauss, M., *Primitive Classification*, University of Chicago Press 1963; *Revue Sociologique*. 1901-2: 1-72, Paris 1903,

Evans, D. *Explorations in Title, Council of Planning Librarians ~, Exchange Bibliography No. 911 and 112: November 1975.*

Eller, J. L. and Panek, R. L. "Thesaurus Development for a Decentralized Infor-

mation Network", *American Documentation*, July 1968: 213-220.

Fairbank, J. K., Reischauer, Craig, A. M. *East Asia, the Modern Transformation*, G. Allen and Unwin, London 1965, xvi-954.

Flathman, R. E. (ed.) *Concepts in Social and Political Philosophy*, Macmillan, London 1973, ix-53:1.

Foskett, D. "The Problems of Indexing and Classification in the 'Social' Sciences", *International Social Science Journal* 1971, 23 (2): 244-255.

Goldberg, A. L. "Information, needs of social scientists and ways of meeting them", *International Social Science Journal* 1971, 23 (2): 273-283.

Gould and Kolb (eds.) *A Dictionary of the Social Sciences*, Tavistock Publications, 1964, vi-760,

Harris, M. *The Rise of Anthropological Theory - A History of Theories of Culture*-

ture, Crowell Co., New York 1968, p. 805.

Himmelstrand, U. "Structure, Mechanism" *Communication and Action in Applied Sociology*; 19 pp'. Paper presented to the Conference on Social Engineering-

Warsaw, April 18-19, 1975; International and Application: extending the reach of Survey Research, 51 pp.

Hortan, R. and Finnegan, R. (eds.) Modes of Thought - Essays on Thinking in Western and non-Western Societies, Faber & Faber, London 1973, p. 400.

Hunt, R. (ed) Personalities and Cultures - Readings in Psychological Anthropology, Natural History Press, New York 1967, xxi-434.

International Associations, special issue on: 'Conceptual Problems of International Discourse II', April 1974, 26 (4).

International Centre for the Terminology of the Social Sciences, Social Science Information 1966, 5 (3): 88-90.

Iyer, R. (ed.) The Glass Curtain between Asia and Europe, London 1965. Khakhulina, L. A. Formation of Systems of Concepts in Interdisciplinary Studies, paper presented to the 8th World Congress of Sociology, Toronto, August 1974, p. 25.

Lalande, A. Vocabulaire technique et critique de la Philosophie, P.U.F., Paris 1960, xx-1323.

Lefebvre, H. Logique formelle, Logique dialectique, Anthropos, Paris 1969; La vie quotidienne dans le monde moderne, Gallimard, Paris 1968.

Lengyel, P. "The Unesco pilot project in social science terminology", Babel 1956, 2: 24-27.

Mandersloot, W. G. B., Douglas, E. M. B., and Spier, N. "Theasurus Control the Selection, Grouping and Cross-Referencing of Terms for Inclusion in a Co-ordinate Word List", Journal of the American Society for Information Science, Jan-Feb., 1970: 49-57.

Manners, R. A. (ed.), Kaplan, D. Theory in Anthropology - A Source book, Routledge and Kegan Paul, London 1968, xii-578.

Moon, Pary and Spencer, D. E. "Internationality in the names of scientific concepts", American Journal of Physics 14: 285--293; 431-438, 1947, 15: 84-92, 1948, 16: 100-104.

Moore, B. Jr. Social Origins of Dictatorship and Democracy - Lord and Peasant in the Making of the Modern World, Beacon Press 1966.

Moore, Ch. A. (ed.) The Status of the Individual in East and West, University of Hawaii Press, Honolulu 1968; xxi-606; Philosophy and Culture East and West, Univ. of Hawaii Press, Honolulu 1968, xv-832.

Mukherjee, R. The Sociologist and the Social Reality, Presidential Address to the Twelfth All-India Sociological Conference, Varanasi, October 28--30, 1974,

p.24.

Id. On Social Indicators: GNE in particular, Calcutta 1926, p. 5.

Nash, R. fl., Dutton, E. P. Ideas of History Vol. I, II, New York 1969.

Needham, J. Science and Civilization in China, 1954, particularly vol. I General Orientations, and Vol. II History and Scientific Thought in Chinese Philosophy; Clerks and Craftsmen in China and the West, Cambridge 1970; Within Four Seas: The Dialogue of East and West; The Grand Titration: Science and Society in East and West, London 1969.

Nkrumah, K. *Le Consciencisme - Philosophie et Ideologie pour la decolonisation et la Developpment*, avec une reference particuliere d la Revolution africaine, Payot, Paris 1964, 176 pp.

Newsletter 9 of the Program on Public Conceptions of Science, Harvard University 1974, 46 pp.

Paenson, I. *Systematic Glossary of Selected Economic and Social Terms* (English, French, Spanish, Russian), Pergamon, Oxford 1963; Macmillan, New York 1963.

Pool, Ithiel de Sola "Symbols, Meaning and Social Science", in Bryson, L. (ed.) *Symbols and Values*, Harper, New York 1954.

Preiswerk, R., Perrot, D. *Ethnocentrisme et Histoire*, Anthropos, Paris 1975, p. 390. *Regionalization of Social Sciences in Latin America, Asia, and Africa*, *International Social Science Journal* Vol. xxv, No 4, 1973.

Riggs, F. W. *On Definitions*, Pittsburgh, Pa.: University Center for International Studies, University of Pittsburgh, Working Paper No. 11, August 1974.

Salton, G. "Automatic processing of foreign language documents", *Journal of the American Society for Information Science*, May-June 1970, 187-194.

Scharam, S. D'Encausse H. Carrere *Le Marxisme et l'Asie, 1853-1964*, A. Colin, Paris 1965, 488 pp.

Taylor, Ch. L., Hudson, M. *World Handbook of Political and Social Indicators*, 2nd ed., Yale U.P., New Haven 1972, xiv-42.

Toynbee, A. *A Study of History*, 13 volumes, London 1933-1955.

Tsurumi, K. *Dochaku Bunko to Cairai Bunka Nihon no Shakai Shi* (Endogenous and exogenous cultures, Social and cultural history of Japan), vol. III, Kodansha 1973.

Unesco: *Bibliography of Interlingual Scientific and Technical Dictionaries* Fifth ed. 1969 .

Viet, J. *Thesaurus for Information Processing in Sociology*, Mouton, Paris 1971. Wallerstein, I. "The' Rise and Future Demise of the World Capitalist System:

Concepts for Compartive Analysis", *Comparative Studtes in Society and History* Vol. 16, No.4, September 1974, 387-415.

Wiener, Ph. P., Noland, A. *Ideas in Cultural Perspective*, Rutgers U.P., New Brunswick, N.J. 1962, 3-758.

wilson, W. J., and Dumont, R. G. "Rules of Correspondence and Sociological

Concepts", *Sociology and Social Research* 1968, 52 (2): 217-2:7.

Wolman, B. B. (ed.) *Dictionary of Behavioural Science*, Macmillan 1973, ix-478:

Wright Mills, C. *The Sociological Imagination*, Oxford U.P., New York 1959, 234 pp. Wuester, E., "Bibliography of monolingual and technical glossaries", vol. I, Natio-

nal Standards, Unesco 1955.

الجزء الثالث

الأمة

(٨) الأمة: الإطار التكويني

"لقد حرثنا البحر"

(سيمون بوليفار ١٨٣٠)

إن عام ١٩٨٣ - عام الاحتفال بمرور مائة وخمسين عاما على مولد سيمون بوليفار، محرر أمريكا اللاتينية، وعام الذكرى المئوية لوفاة كارل ماركس - هذا العام يعد بمثابة دعوة صريحة لكافة رجال الفكر والعمل لأن يبدؤوا فى النظر إلى حصاد فترة ما بعد ١٩٤٥ فيما يتعلق بالإشكالية العامة للأمة والثورة. إن ضجيج الاحتفالات الرسمية سوف يعطى روح هذه العصور كما كانت على الأقل على المستوى الرسمى الظاهرى، ولكن وراء ذلك يوجد الفكر المتضمن أو النسيج الحى للحياة اليومية الاجتماعية والسياسية والفكرية الجارية، وغالبا دون فهم واعتراف كاف.

هل يكون باستطاعتنا إذن أن نحاول اتساقا مع هاتين العمليتين التوأمين أن نقوم باستكشاف الدائرة العلمية والسياسية للأمة على كلا المستويين العامل والمفاهيمى لنطرح عددا محددا من الطروحات أمام مزيد من التحليل المناقشة؟

لقد كان التطور الأساسى والخرج منذ عام ١٩٤٥ على الساحة الدولية وفى الفكر والفلسفة السياسية هو: عودة ظهور البعد القومى للمواقع السياسية فى المشكلات الاجتماعية، وذلك بعد خسوفها أو على الأقل تهيمشها فيما بين عام ١٩٤٥ و ١٩٦٨.

وخلال الفترة اللاحقة للحرب العالمية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) كان هناك هجوم مركز سواء على مستوى وسائل الإعلام أو على مستوى العلوم الاجتماعية موجه إلى أسس النظام الاجتماعى الموجود وليس الدولى أو العالمى. وقد بدا ذلك من

خلال "الشخصية الفاشستية" التي نشأت كرد فعل للدول الديكتاتورية والاستبدادية في فترة ما قبل ١٩٤٥. ومع ذلك فقد تجاوزت غايتها إلى حد بعيد تلك الوعود البراقة التي أطلقها روادها. واتضح عاما بعد عام ثم يوما بعد يوم بإصرار لا يهدأ أن الهدف كان هو تفتيت الدولة القومية وتشويه جذورها التاريخية الخصوصية إلى ما كان يعرف ولا يزال يعرف "بهيوتها القومية" لحرمانها من قلبها الأشمل والأوسع، أى من تراثها القومى والتقالى الخاص داخل إطارها التقافى الجغرافى ومن دائرتها الحضارية الخارجية الأوسع التى تنتمى إليها كل دولة قومية. كانت تلك هى روح العصر فيما بين يالنا والثورات الشعبية عام ١٩٦٨ فى العالم الغربى وخصوصا فى كل من الولايات المتحدة وفرنسا. ومع ذلك فلم يستطع هذا التحدى أن يصل إلى جوهر بناء النظام الدولى: حيث لم تكن الحملة ضد الحرب القيتنامية سوى رفض أخلاقى أيديولوجى للإمبريالية الأمريكية المهيمنة ولم تكن رفضا لمعاهدة السلطة المقسمة بين القوتين العظميين كما رسختها يالنا. كذلك فإن حرب التحرير المأساوية فى الجزائر لم تثر تلك الأصداء الحارة فى وسائل الإعلام العالمية التى يهيمن عليها الغرب، فى حين مرت عملية استئصال جذور الشعب الفلسطينى.. تلك العملية التى تمت فى ظل الحماية - الدبلوماسية والسلطة المركزة للعالم الغربى التى مكنت من إنشاء الدولة الصهيونية فى عام ١٩٤٨ مما أدى إلى سلسلة من الحروب والمآسى... مرت هذه العملية على أنها "ظاهرة ثانوية".

وعلى الجانب الآخر من النهر... فى القارات الثلاث: آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية - كانت هناك عمليات أعمق تسير فى اتجاه مختلف تماما، فمنذ عام ١٩٤٥ - تحرير الصين وإنشاء جمهورية الصين الشعبية - حتى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ التى أفضت إلى أزمة البترول والانهييار العملى للاقتصاديات الرأسمالية الغربية ظهرت موجة من الحركات القومية والتحرر القومى والثورات القومية وحروب التحرير، وتزايدت بمصاحبة عمليات عميقة للتحويل الاجتماعى التى كانت تصبو إلى الثورة الاجتماعية تحت لواء الاشتراكية. وكما نكتب اليوم فى عام ١٩٨٣ احتقالا بذكرى سيمون بوليفار بينما لا يزال البناء ذو القطبين الذى

خلقته بالتا يعمل بقوة، فإن التحول العالمى قد بدأ بأساليب وخلال طرق لم تحددها الكتب والأيدولوجيات.

(أ) إن ٦٢ فى المائة من حجم البشرية يعيشون فى قارة واحدة هى آسيا. تلك القارة التى تضم أكبر دولة فى العالم.. الصين التى تعد هى ذاتها المراكز القيادية الثانى للاشتراكية فى هذا القرن بعد أقوى ثورة فى تاريخ البشرية إلى جانب اليابان التى تعد ثالث دولة من الناحية الصناعية والفنية، وإن كانت من ناحية الفعالية والقدرة العملية تعد أول وأسرع قوة صناعية وتكنولوجية صاعدة فى الاقتصاد الرأسمالى العالمى بالاشتراك مع شبه القارة الهندية - وشرق وجنوب شرق آسيا التى تمثل جبهة للنمو الصناعى وتركيز الموارد لم يكن يسمع عنها منذ جيل فقط.

(ب) بناء مركز قوة دولى رئيسى ثالث حول معاهدة السلام والصداقة التى وقعت بين الصين واليابان فى عام ١٩٧٨ ليرتبط مباشرة بالمنطقة الأفرو - آسيوية العربية الغنية بالبترول عند ملتقى أوروبا وأفريقيا وآسيا.

(ج) الإنجازات السياسية والاجتماعية الاقتصادية الناجحة فى الاتحاد السوفيتى على الرغم من الخسائر الفادحة التى منى بها خلال حرب ١٩٤١ - ١٩٤٥. إلى جانب القوة اقتصادية للولايات المتحدة بالرغم من عدم كفاية نفوذها السياسى لأسباب قلما عرفت داخل مركز هيمنتها ذاته.

(د) ظهور محيط أمريكا اللاتينية الغربى فى كل من أمريكا الوسطى والجنوبية كمجموعة رئيسية ذات أهمية وتأثير ومغزى متزايد، ليس فقط بالنسبة لسياسات القارات الثلاث ولكن أيضا بالنسبة للمعادلة الشاملة فى المواجهة بين الشمال والجنوب، بالإضافة إلى ظهور المحيط الجنوبى وبمحيطاته وأراضيه كساحة للصراعات الرئيسية فى القرن الواحد والعشرين.

(هـ) الحقيقة التى نادرا ما تفهم والتى تقول بأن أكثر من أربعة أخماس الشعوب التى تعيش فى ظل نظم اشتراكية اجتماعية موجودة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا

اللاتينية، فى حين يتكون الربع الباقي من الجزء الأوروبى من الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية الأوروبية فى وسط وشرق أوروبا.

(و) بداية نهاية الوهم البروميتيوسى بأن البشر قوى خلاقة، وبالسير اللانهائى فى اتجاه الإنتاجية والاستهلاكية والمتعة. إلى جانب انبعاث روح التسامى والتحضر فى أشكال جذرية راديكالية شعبية.

(ز) التأثير العميق المحدود نسبيا للمرحلة الثانية من الثورة الصناعية والتكنولوجية أو ما يسمى بالثورة العلمية والتكنولوجية لأسباب مرة أخرى لم نجد من التحليل إلا القليل، وسوف نتحدث عنها فيما بعد.

وباختصار فإن ما يحدث ليس هو ما كان مفروضا أن يحدث. وما كان مفروضا أن يحدث لم يحدث. والممثلون والعاملون الذين لم يكن من المتصور وجودهم يقفون الآن فى مقدمة المسرح التاريخى حيث تواجه تحدياتهم وأعمالهم مراكز السلطة والنفوذ التقليدية بتحديات جديدة فى أقل العصور المفضلة لدى النظام العالمى التقليدى.

وفى قلب هذا التحول العالمى أو فى قلب انتقال البعد الرئيسى للمبادرة التاريخية إلى مراكز القوى الجديدة الناشئة فى القارات الثلاث يقف المتغير المحتجب (الظاهرة، البعد، العملية، المؤسسة، التكوين): الأمة - الحقيقة القومية فى حركة.

٢ - ولقد كانت عودة قدوم الأمة كمتغير أساسى مصحوبا بظهور مواز لعدم كفاية الدولة الحديثة.

ومنذ عام ١٩٤٥ أنشئت ٩٩ دولة جديدة، وأصبحت الآن عضوا فى منظمة الأمم المتحدة. وفى نفس الوقت كان يتضح يوما بعد يوم أن أغلبية هذه الدول ليست فى وضع يمكنها من القيام بعمل فعال سواء فى تغيير الظروف والأوضاع الموجودة داخل حدودها أو فى الحفاظ على هذه الحدود كما رسمتها المعاهدات

السابقة التى قننها القانون الدولى، بالإضافة إلى التحرك على الساحة الدولية. لقد تمتعت هذه الدول بأصواء وسائل الإعلام الغربية وكان ذلك قبل أى شئ فرصة أخرى لتعزيز وتقوية الهجوم على المؤسسات السياسية للنظام العالمى بما فى ذلك الدولة القومية التى تكونت تاريخيا. وفى واقع الأمر لم يلق تحليل الجانب الإيجابى لاستمرارية وفعالية الدولة فى العصور الحديثة إلا القليل جدا من الاهتمام، بل ومن الأبحاث العلمية لدهشتنا أيضا.

إن إحياء الدولتين الألمانيةين للأمة الألمانية بعد يالنا، وظهور الدولة اليابانية رغم الصورة المنزوية التى اتخذتها بعد هيروشيما، ومرونة مصر الثورة منذ عام ١٩٥٢ رغم ستة حروب (الحروب الأربعة الكلاسيكية لأعوام ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣، ثم حرب الاستنزاف ١٩٦٩ - ١٩٧١ وحرب اليمن من ١٩٦٣ - ١٩٦٥). واستمرارية الدولة الإسبانية خصوصا خلال فترة الانتقال الحرجة من نظام فرانكو إلى المؤسسات التقدمية الديمقراطية الحالية حول الملكية. وقدرة المكسيك والبرازيل وغيرهما من دول أمريكا اللاتينية على مواجهة التحديات، خصوصا التحديات الاقتصادية والمالية الخطيرة وتحقيق درجة معقولة من التقدم الاقتصادى الاجتماعى والثقافى. وإعادة بناء الدولة الفيتنامية بعد سنوات الحرب الـ ٢٥ بنفس القدرة على تكوين الدولة الجزائرية بعد الفترة الاستعمارية، والإمكانات المؤكدة لاحتواء الاتجاهات الانفصالية الطاردة بواسطة الدولة فى الهند وسويسرا ونيجيريا وكندا وماليزيا وكذلك المرونة الموازية للدولة القومية فى فترة ما بعد الإمبراطورية وفى هولندا والبرتغال بصفة خاصة.. كل ذلك وغيره كان خليقا بها أن تكون نماذج أساسية تشد انتباه المحللين السياسيين والفلاسفة وممارسى السياسة لو لم يكن مجال الدولة ذاته قد اختفى وراء ظل الانهيار الحتمى.. الشك فى الشعارات الفوضوية والعدمية.. وباختصار هى التأثيرات المميتة للعقلية السلبية على الفكر والممارسة منذ عام ١٩٤٥.

إن محاولة التمييز هنا لا بد أن تكون بين مفهوى: "وحدة التحليل" و "وحدة العمل".

وفى حالة الأمم التى تشكلت تاريخيا، أى التكوينات القومية القائمة حول مراكزها السلطوية القومية المتتابعة، يمكن رؤية التصادف بين وحدة التحليل ووحدة العمل. ويمكن لهذا التصادف أن يصل إلى درجة عليا تنتهى ذروتها فى أقدم الدول القومية فى العالم: مصر، الصين، فارس التى تتبعها مباشرة دائرة أوسع من الأمم القديمة مثل اليابان، أثيوبيا، المكسيك، كمبودشيا، فيتنام، المغرب ليلحق بها بعد ذلك ما يسمى بالدول القومية الحديثة فى أوروبا كما حدث فى النهضة التى حاولناها فى عام ١٩٧٦، سلم أنماط التكوينات القومية فى فئاتها الخمس التى يمكن تطبيقها هنا وهى:

(أ) الدول الجديدة ذات التوجه القومى.

(ب) الدول القومية الجديدة ذات التوجه الوحوى.

(ج) الأمم والدول القومية ذات الأصل الأوروبى التى فرضت من أعلى على أساس أجنبى منهار.

(د) الأمم المنبعثة.

(هـ) الدول القومية الأوروبية أو الغربية.

إن الشئ الأساسى فى هذا الصدد هو أن نفهم بوضوح أن الوجود المجرد لدولة "كوحدة تحليل" لا يجعل منها أوتوماتيكيا "وحدة عمل". ذلك لأن الانتقال من "التحليل" إلى "العمل" يتطلب بدقة "عمق المجال التاريخى" وهو الوحيد الذى يجعل بالإمكان أن يتحول الاحتمال إلى فعل ويعطى صوتا لهذا الجزء الخفى من جبل الجليد الذى يبرهن على الأهمية الحاسمة فى العمل التاريخى.

وفى الوقت نفسه فإن التفهم الأفضل لهذا التمييز.. على سبيل المثال أولا "الأمّة" كمتغير أساسى إذا قورنت "بالدولة" التى تقوم فى تكوين اجتماعى غير قومى.. هذا التفهم يمكن أن يساعد على أن نفهم لماذا لم يكن لظواهر العالمية (الكوزموبوليتانيزم)، وتجاوز القومية، والكروية المفردة إلا القليل جدا من التأثير فى أعماق الأمم الرئيسية أو فى المناطق المستقلة ذات البناء الثقافى الجغرافى

الجيد. وأينما وجدت تعد الأمة هي الموضوع الأساسي والفاعل الرئيسى فى التاريخ. ولم يكن فى استطاعة المؤسسات المتعددة الجنسية ولا القوى المهيمنة الرئيسية، ولا هذا التيار الكوزموبوليتان الخارج عن القومية الذى يسيطر على أعماق القطاع المتغرب من مفكره أن يعدل من مساره بشكل أساسى، رغم ما يواجهه من عقبات على الطريق.

وفى الوقت نفسه فإن عدم فعالية التكوينات الاجتماعية غير القومية التى أسست على أنها دول أو عدم فعاليتها النسبية لأسباب تتعلق بالحجم والقدرات والإمكانات الحقيقية قد أدى إلى الحاجة إلى إعادة التجمع على المستوى الإقليمى وهو ما يمكن أن يعد التطور الأساسى فى المسرح السياسى الدولى فى عصرنا وهو التطور الذى يجمع بين الدائرتين القريبتين من بين الدوائر الثلاث (الأمم، المناطق الثقافية الجغرافية، والحضارات)، على سبيل المثال، الأمم داخل مناطقها الثقافية الجغرافية فى مجموعتها الأوسع تسعى بأمل إلى تحقيق قوة اجتماعية مقبولة وواقعية سواء فى صورة جامعة أو تجمع كونهيدرالى أو حتى تجمع فيدرالى على حسب ما تسمح الأوضاع والظروف.

ولذلك فإن ما يتعرض للخطر هنا ليس صلاحية وفعالية الأمة كعامل مكون أساسى ("متغير" باستخدام مصطلح العلوم الاجتماعية) ولكن ما يتعرض للخطر فى الواقع هو فعالية "الأمة" و "الدولة" التى يجب أن يتحول إليها الانتباه حتى نختصر الطريق فى محاولة التغلب على عدم فعالية العديد من الكيانات الموجودة وتجاه بناء وحدات تحليل وتطبيق إقليمية فعالة وخلاقة عندما تكون هناك حاجة إلى ذلك.

إن واحدا من أهم عوامل حجب هذا التمييز بين وحدات التحليل ووحدات العمل كان يتمثل فى ظهور الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها القوة العالمية الرئيسية منذ عام ١٩٤٥. ذلك لأن ما كان يعتبر "الأمة الجديدة" فقط على حسب تعبير توماس جيفرسون أصبح فى أقل من جيلين (من ١٩١٩ إلى ١٩٤٥) القوة العالمية الرئيسية على المستويات الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية. وقد كان بالإمكان تحقيق ذلك من خلال حقيقة مؤداها أن هذه النصف قارة ظلت محصنة

ضد الحروب والاحتلال والدمار الذى هو من صنع الإنسان.. إن الدولة التى اتخذت قرار ضرب هيروشىما وناجازاكى بالقنبلة الذرية لم تكن قد عرفت أبدا ثمن طلاقة واحدة تطلق على سكانها عبر الحدود الأطلنطية الطبيعية والتى ينبغى أن تضاف إليها الظروف المناخية والبيئية الاستثنائية فى الولايات المتحدة والحصانة الكاملة التى تتمتع بها حدودها الجنوبية والشمالية، وقد تضخمت إلى حد كبير نتيجة هذا الوضع الفريد فى الجغرافيا التاريخية بواكير هيمنة حركة النشر الأمريكية خصوصا فى مجال العلوم الاجتماعية منذ أواخر الثلاثينيات وبالتحديد منذ عام ١٩٤٥ فى وقت خسوف الإمبراطوريات الكلاسيكية التى كانت قائمة فى كل من بريطانيا العظمى وفرنسا وهولندا وإيطاليا بالإضافة إلى الهيمنة الألمانية على أوروبا.

وما كان يبدو أن الولايات المتحدة قد اكتسبته بحق النشأة، لم تكتسبه وحدات التحليل والعمل الأخرى، أى الأمم الأخرى وفى الواقع الدول الأخرى. ولذلك فإنه عندما يكتشف الضعف فى الفعالية السياسية لممارسة الدولة فإنه يرجع فوراً إلى مجال الحصر الكمى، أى إلى حجم وقوة هذه الدولة بعينها وليس إلى طاقتها، إلى القيام بالعمل أى إلى خصوصيتها التاريخية كتكوين قومى، كأمة فعالة قابلة للحياة والنمو. وبما أن الأمة والدولة قد امتزجتا معا فى غموض تكافلى فى الولايات المتحدة حيث يعد تكوين الدولة ذات بناء غير متماسك بشكل واضح بغض النظر عن خصوصية مجموعة قوميات العرقية داخل النظام الفيدرالى. وجنبا إلى جنب مع هذا التأثير لا بد للمرء أن يلاحظ تأثير إنشاء الدولة الصهيونية لإسرائيل فى عام ١٩٤٨. وعلى المستوى الظاهرى كان من المستحيل بالنسبة للعلوم الاجتماعية التى سيطر عليها منهج "الحصر النمطى" (حيث "الهوامش" - أى القارات - لا بد وأن تخضع لـ "المركز" الغربى المهيمن) The periphery approach أن تبرر حقيقة أن دولة صغيرة تستطيع أن تعمل بمثل هذه الأسلوب بالفعل الواضح من خلال حجب الشخصية الخصوصية القومية الجاذبة نحو المركز للطوائف اليهودية - عبر الصهيونية وتجاه دولتهم فى

إسرائيل. وبذلك كانت الطريقة الوحيدة لتبرير فعالية الدولة هي الادعاء بأنها "معجزة".. استثنائية الدولة المنتخبة كما كانت في مكان وزمان التحليل الأسمى لتكوينها التاريخي كوريث موضوعي لجماعات الأقلية اليهودية القومية في الدول المسيحية الغربية منذ القرن الثالث، بالإضافة إلى التأييد الاستراتيجي الشامل الذي لاقاه هذا التكوين من جانب القوى المجتمعة لكافة العالم الغربي منذ زرعها في قلب منطقة الحرب والسلام في عصرنا.

إن هذين النموذجين يمكن تكرارهما في عدة حالات أخرى. ومع ذلك يبدو أن ما قيل فيه الكفاية للإشارة عند هذه النقطة إلى: كيف كان الاختلاط بين وحدات التحليل ووحدة العمل قاتلا بالنسبة لفهم الأمم في عصورنا هذه.

٣ - داخل إطار التكوينات القومية الاجتماعية تكون الأولوية - للسياسة للحاضر على أنه التاريخ، وإلى الأنماط القومية على المتغيرات الثانوية الأخرى داخل التكوين الاجتماعي القومي ذاته مثل الطبقة والفئات الاجتماعية والأقاليم والجماعات العرقية. إلخ.

والجدل الأول في هذا الصدد يتعلق بصعود متغير "الطبقة" إلى مستوى الهيمنة تحت تأثير نفوذ الماركسية الكلاسيكية والفكر الماركسي الجديد فيما بين ١٩٤٥، ١٩٦٨ في فترة أزمة الدول الجديدة التي أثارت اضطرابا على أنها أمة عديدة. وقد كان من السهل عندئذ أن نبرهن على أن ضعف أغلبية الدول الجديدة كان يرجع أساسا إلى فقدانها لتماماتها وإلى الطابع غير القومي لجماعة السلطة الجهورية التي عادة ما توصف بأنها "طبقة اجتماعية" بالمصطلحات العلمية. لقد كانت هذه هي الأوقات التي وضعت فيها الكومبرا دورز على أنها التجربة الثورية الصينية أو الطبقة الاجتماعية غير القومية التي لا تستطيع بأسلوب حاسم أن تغير من مصير الأمم التابعة في نفس الوقت الذي تكون فيه قادرة في حالات عديدة على أن تعمل كقوة تحديث غربية عنيفة. وكانت هذه أيضا هي الأوقات التي بدأت فيها الإمبريالية المهيمنة للولايات المتحدة تأخذ شكلها النهائي تجاه مفهوم "الانتشار الشامل" globalreach وهو مفهوم جيوبولوتيكي وجيوستراتيجي أدى فيما بعد إلى

ما يسمى "بالعالمية" globalism رغم عملية الإصفاة الشرعية "لانتشار" الشامل ذاتها كما نرى فى الموقف الراهن فى كافة أرجاء القارة الآسيوية، وفى آسيا الغربية، والشرق الأوسط وأمريكا الوسطى.

وبالنظر من مركز الإمبريالية - المهيمنة - حتى لو كان ذلك بأسلوب مضطرب يبدو أن الحاجز الأساسى كان هو التماسك القومى الذى مكن وحده من وجود الغالب التكوينى وعناصر تشكيل جبهات قومية متحدة قوية تقوم على أساس التحالف التاريخى بين الطبقات العاملة والبرجوازية الأصلية غالبا حول الجيش الوطنى. وقد كان ذلك بالتحديد هو محط اهتمام الإمبريالية المهيمنة الذى توافق مع مصالح منفذى البشرية من العدميين والفوضويين الذين تسوتروا وراء اليسار "الجديد" والذين اهتموا بصورة مرضية بتقسيم مرة أخرى جبهة القوى الاجتماعية داخل الأمم إلى الحد الذى جعل من المستحيل وجود جبهوية، وهو ما أدى إلى الإسراع بتمزيق الجبهات القومية الداخلية للأمم.

وعند هذه النقطة لا يسع المرء أن يتفادى تحليل الجذور والحدود التاريخية لمفهوم "الطبقة" وموقعها الأساسى فى الفكر الماركسى، ويكفى أن نقول هنا إن الاشتراكية كما طورها كارل ماركس وفريدريك إنجلز نشأت فى وقت كانت هيمنة الغرب - وخصوصا هيمنة الرأسمالية الأوروبية - لا تبدو فيه موضوعا لأى شك وهى تحصد فوائد فائض القيمة التاريخى. ولذلك فقد كان العمل الحيوى الأساسى الذى انشغل به مؤسسو الاشتراكية يسعى إلى إيجاد السبل والوسائل التى تمكن من نقل فائض القيمة التاريخى هذا وفوائده من القلة الحاكمة فى المجتمعات الغربية إلى الأغلبية المطحونة، وخصوصا الطبقة العاملة وحلفاؤها الفقراء. وقد أمكن تحقيق ذلك من خلال القالب السياسى والفلسفى للتراث الحضارى الغربى الذى يقوم على أساس العقيدة المانوية التى تؤمن بالانقسام الداخلى بين المؤمنين وغير المؤمنين، وبين المؤمنين من قطاعات مختلفة ثم بين طبقات اجتماعية مختلفة، مما أدى إلى أعنف الحروب وأطولها فى تاريخ العالم والنتى وصلت إلى ذروتها بالحرب الأوروبية ١٩١٤ - ١٩١٨ ثم الحرب العالمية ١٩٣٩ - ١٩٤٥.

ومن هذا القالب وفي هذا المناخ نشأت هيمنة مفهوم الطبقة كمتغير أساسى فى التحليل الاجتماعى والعمل السياسى ليفرضه من أعلى على كيانات اجتماعية مختلفة تماما (فى آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية والعالم العربى).

ولقد بدأ التاريخ يقول - وسوف يقول - كيف أصاب هذا الاستقراء الميكانيكى وأضر بالإمكانات الثورية الانتقالية لشعوب البشرية وبقياداتها الثورية التى انحصرت داخل القوالب المذهبية الحديدية للفكر الاشتراكى الغربى فى القرن التاسع عشر.

إن التسليم بأن "الطبقة" - كواقع ملموس فى مجتمعات واقعية وليس كمفهوم - هى المتغير الأساسى، أو الظاهرة الأولية يعنى التسليم بأن تجمع البشر انطلاقا من العدم لا لهدف أو سبب أو مشروع لا يأخذ شكله الحقيقى إلا إذا نظم فى إطار عدة معسكرات من أجل الحرب المدنية. والواقع أن تاريخ أقدم الحضارات التى تشكلت فى إطارها - ولا تزال تتشكل - أقدم التكوينات الاجتماعية وتؤدى وظيفتها غالبا بأساليب أكثر تطورا وأكثر تحضرا مما تفعل العديد من المجتمعات المعاصرة.. إن هذا التاريخ يشير بوضوح إلى أن التجميع كان له الأولوية على التقسيم، وأن الحضارات والمناطق الثقافية والتكوينات الاجتماعية القومية كانت قلبها الأشمل والأوسع الذى تعمقت فى إطاره هذه التباينات والتنوعات. وهذه التباينات والاختلافات هى التى أدت بالتحديد إلى تشكيل المجموعات الاجتماعية التى تطورت فيما بعد لتصبح طبقات اجتماعية بظهور أول مجتمعات الطبقة فى تاريخ العالم، أى مجتمعات العبيد القديمة فى الشرق فى خط مواز لتلك التى نشأت فى إطار الحضارات العظيمة للعالم الغربى فى أمريكا الوسطى والجنوبية. ذلك لأن أية طبقة اجتماعية لا تستطيع أن تتشكل وحدها من العدم، وإلا كان ذلك يعنى معالجة العملية الاجتماعية على طريقة روبنسون كروزو. وبوسع المرء أن يتخيل طبقة فى تعارض مع طبقة أخرى بحيث يتشكل من مزج الاثنين تكوين اجتماعى يسمى فيما بعد "أمة". إن الجنور، القالب التكوينى والقالب المستمر للاستمرارية والتحول الاجتماعى كان ولا يزال وسيبقى إلى أمد بعيد حقا هو التكوين الاجتماعى

الذى أصبح يعرف باسم "أمة"، وإذا كان لهذا العالم أن يبدو أقل غربة وأكثر ألفة أو قبولا فى عام ١٩٨٣ فإن الفضل سوف يكون للتحول الموضوعى للعالم الذى لعبت فيه القارات الثلاث دورا حاسما، وإن كان لا يزال هذا الدور غير واضح بعد على المستويات الفلسفية والفكرية والنظرية.

إن الطريق القومى له الأولوية كشرط أساسى للتحول الاشتراكى والثورة. ولا يمكن تحقيق التحول الاشتراكى والثورة وصيانتَه وحمايَتَه وتعميقه فى إطار الاستقلال الوطنى والسيادة إلا من خلال طريق النضال الشعبى الوطنى التحريرى ومن خلال تعبئة أوسع جبهة من القوى الوطنية حول الشعوب العاملة.

إن تاريخ الثورات فى القرن العشرين لم يعالج من زاوية جذليات الأمة مع الطبقة ولكن من زاوية الأيديولوجية - وتحليل الطبقة والنظم السياسية، والملاحظات الاستشراقية التالية يمكن أن تسهم فى تعميق الفهم لهذه الأطروحة الثالثة:

(أ) إن النمط الأول للثورات الأساسية فى وقتنا هذا.. أى النمط الاستقلالى الوطنى قد تحقق بشكل طبيعى تماما من خلال الطريق الوطنى، ودائما تحت قيادة البورجوازية الأصلية. ولكن عندما تتجج عادة ما تدخل فى تحالف وثيق مع الشعوب العاملة خصوصا طبقة الفلاحين والمتقنين الوطنيين. وعندما يتشكل تراث الدولة القومية المركزية يكون المركز الموحد هو دور الجيش كجيش الأمة. وما من معالجة ساخرة تستطيع أن تقلل من حجم إنجازات الثورة الوطنية على مداها المتعدد الذى يضم كا من مصر والمكسيك واليابان والهند وإيران وغانا.. وهذه ليست سوى أهم الأمثلة وأكثرها شهرة. فى حين يدخل توحيد ألمانيا وإيطاليا فى أواخر القرن التاسع عشر مباشرة فى إطار هذا النمط. والتحليل الأوسع والأدق لمدى الدول الجديدة المستقلة بعد عام ١٩٤٥ بالإضافة إلى الحالات الرئيسية المذكورة سابقا سوف يظهر اختلالا مدهشا فى الأهداف السياسية لهذه الثورات الوطنية.

إن الأمم القديمة كانت دائما تستهدف مصاحبة التحرير أو الاستقلال بالنهضة أو استعادة الذات، في حين أن التكوينات الاجتماعية الحديثة التكوين كانت تهدف أكثر إلى الجوانب السياسية المجردة للاستقلال التي صاحبها في الأوقات الأخيرة البعدين الاقتصادي والثقافي.

(ب) وإذا انتقلنا إلى تحليل الثورات الاشتراكية فإننا سوف نواجه موقفا أكثر تعقيدا أيضا على المستوى الأكثر مباشرة، فنمط الطبقة ضد الطبقة أو الثورة البروليتارية، أو هيمنة الطبقة العاملة الذي ارتفع صوته في القرن التاسع عشر قد تحقق في الواقع في مثل فريد واحد هو ثورة أكتوبر ١٩١٧ التي قادتها العسكرية السوفيتية ومن ورائه منظمة البلشفية السرية، التي اكتسبت فيما بعد سلطة الدولة والسيادة الاجتماعية من خلال طريق دموي وشاق وصعب استطاعت أثناءه أن تحصل تدريجيا على هيمنتها القوية على الفلاحين وهي تسعى في الوقت نفسه إلى تحقيق توازن دقيق مع الأمم غير الأوروبية الواقعة ضمن الاتحاد السوفيتي أو الأمم الآسيوية من الاتحاد السوفيتي، وهو ما يعد أكثر إنجازاتها ثراء وبقاء.

هذه الحالة في نقردها تحققت من خلال إضعاف الجيوش والدول الرئيسية في النظام الإمبريالي التقليدي في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ وخصوصا تفتت روسيا القيصرية وجيشها. ومنذ ذلك الوقت فشلت كافة محاولات الثورات التي قادتها الأقلية البروليتارية، مما فتح الطريق مباشرة أمام الفاشية والنازية التي ساندتها ما يشبه إجماع شعبي خصوصا في ألمانيا وإيطاليا.

ولذلك كان على الموجة الثانية من الثورات الاشتراكية في أوروبا أن تنتظر حتى الحرب العالمية ١٩٣٩ - ١٩٤٥، وحرب التحرير الوطنية العظيمة التي قادها جوزيف بروز تيتو في يوجوسلافيا، والتي نجحت في كسر شوكة جيوش الاحتلال وتبويج الاشتراكية قمة سلطة سياسية مستقلة في يوجوسلافيا المحررة. وبذلك رسمت يوجوسلافيا الطريق الذي امتزج فيه التحرر الوطني بالثورة الاشتراكية بصورة عصرية، بحيث كان الأول هو الشرط الأساسي لتحقيق الثاني كما طرحنا في أطروحتنا الأولى.

أما الدول الاشتراكية الأوروبية الأخرى: جمهورية ألمانيا الديمقراطية وبولندا والمجر ورومانيا وبلغاريا وألبانيا بدرجة أقل.. هذه الدول تحررت أساسا بالقوة المسلحة للجيش الأحمر بالاشتراك مع درجات متباينة من المقاومة السياسية الفعالة فى هذه الدول. ولم تكن لا الثورة البروليتارية ولا عملية التحرر الوطنى هى التى فتحت الطريق أمام التحول الاشتراكى، ولكن كانت هيمنة الجيوبوليتكس التى وفرت الظروف الوطنية الملائمة فى هذه الدول.

وعلى الجانب الآخر من النهر كانت أعظم ثورة فى تاريخ البشرية، نحو الصين تحت قيادة ماوتسى تونج - وشواين لاي - وشوتين.. كانت هذه الثورة نتيجة انتهاج المسلك الشعبى واستراتيجية المسيرة الطويلة التى صاغها الحزب الشيوعى الصينى بزعمامة ماوتسى تونج، وهى استراتيجية كانت على قدر واسع من الوطنية حتى أنها ظلت مفتوحة أمام الجنرال شيانج كاي شيك وحبس حتى عام ١٩٤٧ على الرغم من الهجمات العسكرية المذكورة التى شنّها الكومينو ضد حلفائه الشيوعيين. وليس من محض الصدفة أن. كان يوم أول أكتوبر ١٩٤٩ مخططا من جانب القيادة والشعب الصينى ليكون "يوم التحرير" ولد يوم "انتصار الاشتراكية" ناهيك عن انتصار الشيوعية.

إن هذا الدرس الثورى العظيم أو أعظم الدروس الثورية فى تواضعها وواقعيتها لم يفهم ولم يجد وعيا ملائما فى معظم الحركات الثورية التى كرسّت نفسها للاشتراكية على المستوى العالمى. وبدلا من ذلك فقد اختارت هذه الحركات أن تركز على الانقسام السوفيتى الصينى الحاد وعلى الوجه اليسارى "لثورة الثقافية" حتى تجعل من فكر ماوتسى تونج وصفاً أو صيغة لكل طائفة يسارية، فى حين أنها فى واقع الأمر ومن ناحية تاريخية تعد أقوى أعداء الطائفة اليسارية. وقد انتهجت ذات الاستراتيجية.. استراتيجية الجبهة المتحدة الواسعة فى كل من كوبا وكوريا وفيتنام تحت شعار الاشتراكية بينما فتحت الطريق أمام الثورات التقدمية الوطنية فى معظم المناطق الأخرى من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية حيث كان التحرر الوطنى والاشتراكية هما الشعار، وخصوصا فى الجزائر وأنثيوبيا وأنجولا

وموزمبيق وغينيا ونيكاراجوا. فى الوقت الذى أدى فيه الفشل فى تحقيق ذلك من خلال هيمنة القوى الثورية إلى مأساة فى شيلى، بالإضافة إلى الفوضى التى أصابت العديد من القوى الثورية فى عدد من المناطق الأخرى وخصوصا فى الشرق الأوسط.

(ج) إن أية دراسة مقارنة دقيقة للنمطين السابق ذكرهما للثورات الوطنية والاشتراكية الرئيسية سوف تكشف على الفور أنه لم تكن هناك حالة.. أية حالة واحدة كانت الثورة الوطنية الراديكالية تعتبر فيها مرحلة أولى ثمهد لثورة راديكالية وطنية ثانية، وعلى اعتبار أن الأولى تستهدف تحقيق أهداف الاستقلال الوطنى والتحول الاشتراكى بينما تنتقل الثانية إلى تحقيق الاشتراكية والشيوعية. وبمعنى آخر عندما تحقق أمة ثورتها الوطنية الراديكالية فليس هناك ما يشير فى التاريخ حتى الآن وعلى حد علمنا به إلى أن هذه الأمة نفسها قد قبلت الدخول فى طريق ثورة راديكالية ثانية تتحرك تجاه الاشتراكية، بينما تحققت كافة الثورات الراديكالية التى أدت مباشرة إلى الاشتراكية فقط فى دول لم تدخل تجربة الثورة الوطنية الراديكالية قبل ذلك باستثناء واحد ووحيد هو الاتحاد السوفيتى. وبمعنى آخر فإن نظرية المراحل الثورية باعتبارها تتابع تفرضه الضرورة والمصير التاريخى لن تتحقق فى الواقع التاريخى، وقد تظل على أفضل الأحوال مجرد أمل أو حلم. ولذلك فينبغى أن تأخذ النظرية الثورية فى اعتبارها هذه الحقيقة التى يبرهن عليها التاريخ المعاصر من القرن الثامن عشر حتى أيامنا هذه.

(د) هل يعنى ذلك أن كافة الثورات الراديكالية الوطنية فى عصرنا ينبغى بالضرورة أن توجه إلى طريق الاشتراكية؟ سوف يحدث ذلك على الأرجح. وكانت العلاقة النسبية للراديكالى القومى بالمكونات الاشتراكية فى كل ثورة وطنية سوف تتحدد ليس فقط بواسطة توازن القوى السياسية على كلا المستويين الداخلى والخارجى وفى الدائرتين الخارجية والداخلية للجديلات الاشتراكية ولكن أيضا - وهذه هى نظريتنا - من خلال البنية الخصوصية

للأمة المعنية. أى بواسطة قدرتها على العمل كتكوين اجتماعى فعال، كأمة حول دولتها. وفى استطاعة المرء أن يغامر بفرضية تقول إنه كلما كان ذلك أقل، أى كلما ظل المجتمع المعنى عند مستوى التكوين الاجتماعى أكثر منه كأمة، كلما كان بالإمكان تحقيق حلم الوصول إلى الاشتراكية، وكلما قل فهم القيادة السياسية للجدليات المعقدة للتحرر الوطنى والبناء الوطنى والتحول الاشتراكى أو قل قبولها من جانب الشعوب المعنية ومن جهة أخرى كلما زاد انتشار العامل الوطنى داخل التكوين الاجتماعى المعنى كلما أمكن للمعالجة أن تركز على الأمد الطويل.. على الجبهة الوطنية المتحدة كاستراتيجية تاريخية وعلى العلاقات المتداخلة بين العمليات الثورية من جانب وعلى المشروع الاجتماعى ثم الوطن، وفى الحالات الأفضل على المشروع الحضارى من جانب آخر. هنا وعندئذ وفى حالات الكثافة الوطنية الأفضل وفى حالة الأمم المتأصلة فى خصوصيتها سوف تكون هناك ثقة أقوى من الربط بين التحرر الوطنى والتحول الاشتراكى.. السيادة بالاشتراكية - والهوية بالمقاومة. ويمكن أن يصبح ذلك أرضية الانطلاق تجاه ما بدأ يظهر الآن كما أنه الحضارة الاشتراكية، وإن كان لا يظهر على أنه حتمى وبحكم الضرورة فى الصيغ الخصوصية القومية والأشكال الاستقلالية.

إن الأمة التى تواجه الهيمنة والعدوان هى حلقة الوصل الخلاقة تجاه إعادة التجميع على نطاق أوسع، خصوصا الكتل الإقليمية، الجيوثقافية والقالب الحضارى الأوسع. وحيث أن الأمر كذلك فإن الظواهر القومية تعد أكثر الحقائق ثباتا من التاريخ، فى نفس الوقت الذى توفر فيه أداة يمكن بواسطتها تشكيل عمليات الاستمرار والتحول القادرة على الربط بصورة أفضل بين الخصوصية والعالمية أو على تعزيز العالمية الجديدة داخل إعادة بناء ميزان القوة العالمى وصنع النظام العالمى.

لقد ارتبط دائما مفهوم الأمة بمفهوم "القومية" التى تضرب جذور دلالاتها أساسا فى التاريخ التوسعى الغربى والذى قصد به أن يكون جوهر تاريخ العالم. أن

القيم الأساسية المتعلقة بالارتباط بالأرض والولاء للدولة والحب والإخلاص للشعب الذى ينتمى إليه الفرد والتضامن مع هؤلاء الكبار والصغار الذين نشأوا على نفس الأرض وفى ذات الثقافة وعانوا معا لأجيال وربما لقرون من الاضطرابات والقلق التى شكلت وصاغت الواقع الراهن.. كل هذه القيم اختفت وتوارت خلف شعار التوسع والتعصب والشفونية، والمواقف القائلة تجاه المجتمعات القومية الأخرى، وبذلك طبع التراث الدموى للتاريخ السياسى الأوروبى مرة أخرى بصورة سلبية إيجابية الجدليات التاريخية من خلال سلبياتها ورغما عنها.

لقد خيمت الحروب الداخلية والحروب القومية على جميع القارات بكل تأكيد ومع ذلك فقد كان التركيز والتجميع السريع الفائض القيمة التاريخية فى أوروبا الغربية منذ عصر النهضة حتى يالنا وسيظل ظاهرة فريدة فى تاريخ العالم. حيث كان ذلك هو وحده الذى وفر الدوافع للتتابع الفريد فى الحروب القائلة التى أدمت القارات الغربية القديمة، فى حين ألحق الدمار والقمع بالمناطق الجغرافية الثقافية التى أصابها توسعه القاسى فى شبه الصحراء الأفريقية وفى العالم الإسلامى اللأفرو آسيوى وفى المجتمعات الهندية من المحيط الغربى وجنوب شرق وأخيرا شرق آسيا.

وفى مواجهة العمليات الحربية المتدفقة أصبحت روح القومية أو السياسة التوسعية العدوانية العميقة للتفوق القومى على المجتمعات والهويات القومية الأخرى تسير على مساحة "الأمة" بأكملها، وفى هذا الصدد قد يكون من المفيد أن نلاحظ أن أسوأ الفترات لم تكن فترات ١٩١٤ - ١٩١٨ ولا ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ولكن كانت أسوأها هى فترات مذابح الشعوب السوداء فى أفريقيا ومذابح الهنود فى المحيط الغربى واستخدام القنبلة الذرية ضد اليابان والحروب ضد فيتنام وأكثر من ذلك ضد الشعب الجزائرى وهويته الثقافية. ومنذ عام ١٩٤٥ ظلت عشرات الحروب القومية مستمرة ناهيك عن محاولات استئصال والقضاء على الشعب الفلسطينى، بالإضافة إلى رفض الاعتراف بحق الأمم السوداء فى أفريقيا الجنوبية فى الوجود.

وقد بدأ رد فعل القارات الثلاث يظهر مع ظهور باندونج عندما التقى زعماء الشرق لأول مرة فى إبريل ١٩٥٥ للإعلان عن بداية التضامن الأفرو آسيوى الذى يؤمن بالتضامن وبضرورة تنفيذ المبادئ السامية الخمسة للبانشيليا. Panshila واضعا بذلك فلسفة للسلام، ومحددا المبادئ التكوينية للمشروع الحضارى فى الشرق. ومنذ هذه اللحظة شاهد التاريخ امتداد هذه الحركة حتى أمريكا اللاتينية من خلال مؤتمر القارات الثلاث وتوسيع المنطقتين من خلال الدائرة الملحقة لدول حركة عدم الانحياز التى بدأت تكتسب دعما أساسيا فى العالم الغربى ذاته وخصوصا يوجوسلافيا.

وفى إطار هذا النسيج الأوسع الذى قد نستطيع أن نطلق عليه نسيجا حضاريا طالما أنه يضم الدائرتين الأساسيتين للقالب الحضارى فى الشرق إلى جانب الدائرة الثقافية الواسعة جدا فى أمريكا اللاتينية والكاريبى المرتبطة بكل من القالب الحضارى الغربى وصعود الشرق من الناحية السياسية.. فى إطار ذلك كان هناك تطور ثان ربما يكون له مزيد من الأهمية الواقعة الفورية وهو عملية إعادة التجميع الإقليمى الثقافى الجغرافى منذ سنة ١٩٤٥ التى شهدت إنشاء جامعة الدول العربية، والتى كانت صدى لحركات قومية اتجهت إلى التوحيد القارى أو الأقاليمى فى أمريكا اللاتينية مستلهمة بشكل مباشر سيمون بوليفار، وتكوين الاتحاد الهندى بتركيباته الثقافية، وإنشاء منظمة الوحدة الأفريقية، ومنظمة دول جنوب شرق آسيا ومحاولات توحيد أوروبا "كسوق" يستهدف إعطاء ثقل أكبر للقارة الغربية القديمة فى مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية، ثم الكتلتين السياسيتين الأيديولوجيتين، حلف شمال الأطلسى وحلف وارسو، إلى جانب عمليات أصغر.

ومن الواضح أن إعادة التجميع الأيديولوجى السياسى من أجل التحالف، لها طابع مختلف عن إعادة التجميع الثقافى القومى أو الثقافى الجغرافى. حيث أن النمط الثانى الذى نعى به هنا يظهر عندما تكون الدولة الأمة غير قادرة لأسباب تتعلق بالحجم أو الموقع الإمكانات المتاحة على مواجهة تحديات السيطرة الأجنبية وحدها. هنا تحدث أهم التطورات ذات المغزى: لأن هذه التجمعات الإقليمية، لا تتم

وفقا للجغرافيا، أى ليست بالضرورة نتاج تقارب الموقع الجغرافى ولكنها أساسا تتم وفقا لدائرة المنظورات الثقافية والهوية والمشاعر المشتركة وأحيانا مع لغة أو لغتين مشتركتين. وهذا يعنى أن أرض الأمة ليست هى جانبها الاجتماعى الاقتصادى، ولكنها تعد بمثابة عمقها وهويتها القومية فى عالم تعد ثقافته أو مات يسمى بنيته العليا متأصلة فى الأمة سن خلال الجدليات التاريخية.

وهكذا فإن الموجة المتصاعدة من العنف والعدوان والسيطرة والهيمنة والحروب المصحوبة بالخطر النووى تؤدي إلى التعزيز القوى لأولوية السياسى.. ولكن السياسى بالقدر الذى يكون فيه مستودعا للتراثات التاريخية وللحضارات والثقافات التى تشكل المدى الكلى للأمن والدول والمجتمعات والجماعات العرقية التى يتكون منها هذا العالم.

إن أولوية السياسى تقود مباشرة إلى المطلب الحضارى وإلى ظهور التسامى، الروحانى، الثقافى جنبا إلى جنب مع العوامل الاقتصادية الاجتماعية التقليدية والعوامل الأيديولوجية السياسية فى عملية تكون فيها وحدة التحليل والعمل أو البوتقة هى الأمة العصرية.

٥ - ونعد الأمة خلال فترة الصراعات وحروب التحرير وخلال فترة السلام العالمى هى أكثر الموضوعات التى يمكن الاعتماد عليها. فى حين أنها تعد أيضا المفتاح للجدليات المتشابكة للجيوبوليتكس وللإستراتيجية الجغرافية. وفى الحالة الأخيرة تكون جماهير الشعب فى إطار قالبها الثقافى الوطنى هى العامل الأساسى فى الجيوبوليتكس وفى الإستراتيجية الجغرافية. وليست القوة الهيمنية الميكانيكية التى تعتمد على التفوق الاقتصادى والتقدم التكنولوجى. وهكذا فإن الحقيقة والظاهرة والعلمية القومية يمكن لها أن تسهم إسهاما حيويا على المستوى الثقافى القومى للسلام.. بظهور المطلب الحضارى السامى بتوجهاته نحو تحديد المشروعات الحضارية وإستراتيجياتها المصاحبة.

"وعند آخر المطاف". عند آخر المطاف فقط تصبح الأمة هى العامل الحاسم حقا إذا كانت قد تشكلت فى قالب الجدليات التاريخية وإذا كانت قد تمكنت من

تطوير إطار واسع إذا لن يكون الإطار الأوسع للاجتماع بين طبقاتها المختلفة وعناصرها الأخرى من الجماعات الاجتماعية والعرقية. هنا فقط يمكن لعملية بناء الجبهة الوطنية المتحدة في مستوياتها للتأمين: المستوى السياسى الأيديولوجى للأحزاب السياسية ومنظمات النقابات العمالية والمنظمات الاجتماعية المهنية والمؤسسات إلخ.. والمستوى الثقافى الذى يتكون من مدارس الفكر والعمل المختلفة - أن تكون الأداة التى لا تستطيع الأمة بدونها أن تأمل فى استكشاف قوتها الكامنة وتعزيز وتقوية قدرتها على المرونة والتكيف ومواجهة العدوان بقلب مفتوح والتطلع إلى المستقبل.

وخلال هذا التحليل كان ينظر للأمة دائما من خلال البعدين التوأمين للجدليات التاريخية من جهة، ومن جهة أخرى من خلال المنظور الحضارى الثقافى والرؤية والبعد - وبالتدرج فإم ما فشلنا فى إدخاله ضمن الأطر المذهبية التقليدية للتحليل السياسى يمكن فهمه بأسلوب أكثر واقعية وإنسانية إذا قبلنا معالجته من منظور مختلف.. أى من منظور القطاعات المتقدمة من المثقفين، وهو منظور أساسى فى القلوب والعقول وفى حياة الأغلبية العظمى من الشعوب الكبار والصغار على السواء الذين تدفعهم أحاسيسهم بالقلق وحاجتهم إلى الأمان والتسامى والقيم والوصول إلى معنى الحياة إلى الأمة كبوتقة.

إن التحولات التى طرأت على العالم فى عصرنا عادة ما ينظر إليها على أنها مجموعة ممتدة ومتداخلة جدا من الدوائر المعقدة تمتد من الجيوبوليتكس إلى الاستراتيجية الجغرافية إلى المطلب الحضارى المتسامى. إن الموجات المتصاعدة من المواجهات والأزمات الاقتصادية العميقة فى الدول الصناعية المتقدمة. بالإضافة إلى سلب قوة المجتمعات الفقيرة والخطر الدائم للمذابح النووية، والانتشار الشرير للعقلية السلبية كتلك التى تطلقها مراكز الإعلام الغربية المهيمنة.. كل هذه العوامل تتجمع لنشر الخوف والقلق خصوصا فى أوقات تعثر فيها الإيمان اليوتوبى أخيرا. ولا يأخذ هذا القلق الإنسانى بالتأكيد شكل الجماعات الفردية التى مستوًدى إلى ظهور فرويد أو كافكا فى الحضارات والثقافات والأمم والمجتمعات غير

الغربية. هنا كانت الأمة دائما وعبر قرون طويلة تعدّ قالبا جماعيا تتصهر فيه العلاقات الإنسانية والاجتماعية والصراعات لتتحول إلى إجماع وإلى تعزيز الوحدة على حساب الاندفاع الحاسم تجاه العصرية أو التحديث باعتباره عملية استقلالية وطنية أو عملية تاريخية خصوصية. ومع ذلك وحتى هنا استمر ويستمر القلق ولكن بدرجات أقل بكثير وفي أشكال وقوالب أكثر إنسانية.

ومن هذه المجتمعات بالتحديد.. من قاراتنا الثلاث المتجمعة حول الأمم القديمة في الشرق خصوصا نستطيع أن نستخلص الدرس من أجل مستقبل صالح. وهو أن الحاضر كتاريخ ومرحلة انطلاق من أجل المستقبل يمكن أن يعايشه ويقبل رغم نبضات الزمن القاسية، وذلك ليس هدفا بسيطا للعقول والأرواح العذبة. فيستطاعته أن يوفر الواحة الضرورية للسلام والتأمل والتركيز.. تلك الواحة الضرورية جدا من أجل شحذ طاقاتنا وتنمية رؤيتنا وإطلاق أصواتنا التي كتب عليها الخفوت. ولو أصبحت هذه الواحة أيضا "مكان سعادتنا المشتركة" (الطهطاوى) التي لا بد من بنائها بالمعرفة والإبداع وامتزاج الآمال بالجهود، وإذا أصبحت فى كلمة واحدة "أمة حقيقية" فإن وقتا قد يجئ نشعر فيه "أننا لم نحرق البحر" بلا جدوى. لأننا لو أردنا أن نحرق البحر بطريقة مؤكدة ذات مغزى فلا بد أن يكون هناك مكان لخلق هذا الجمع من الذكاء والقوة ومن البديهة والمعرفة الدقيقة، ومن الشعور والرؤية التي كانت ولا تزال وسوف لا تتوفر بدون الأمة كبنوة للاستمرارية والتحول الاجتماعي.

(٩) الجيش والأمة جوهر السلطة الاجتماعية

لقد أصبحت هناك حاجة اليوم إلى مؤشرات اجتماعية وسياسية، إلى معرفة دقيقة وموضوعية، أى إلى المعرفة ذاتها. وهو الأمر الذى يعنى فى حقيقته الابتعاد عن البلاغيات التى تستهدف إنقاذ ماء الوجه والتى حلت فى العديد من المراكز محل النظرة العالمية إذا لم يكن محل النظرية ذاتها.

إن عملية "الإدماج" التى شهدتها العالم بعد الأزمة الخطيرة التى واجهها النظام الرأسمالى الغربى فى الفترة ما بين الأزمة الاقتصادية الخطيرة (١٩٢٩ - ١٩٣٢) والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) ثم انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية التقليدية وظهور الشرق الثورى الناهض وموجة حركات التحرر الوطنى العاتية والثورات الاجتماعية ذات التوجه الاشتراكى وإنشاء نظام للدول الاشتراكية إطار متنوع.. كل هذه العوامل مكنتنا من رؤية هذه الوحدة ومن تحقيقها، وكشفت عن العوائق والتباينات التى تقف فى طريقها.

وحيث أن عملية الإدماج والتوحيد هذه عملية جدلية فإنها لا تحقق الأمن خلال تعميق الخصوصيات.

هذه هى الأرضية التى ينبغى أن نفسر فى إطارها الظمأ إلى الدقة والسعى وراء الحساب الكمى والنماذج التركيبية، والتعبير عنها فى إطار العلوم الاجتماعية والوظيفية.. وهى جميعها مكونات متلازمة للأيدولوجية المسيطرة على جوهر ثقافتنا المعاصرة وحركة أفكارنا فى وقتنا الراهن.

ومما لا شك فيه أن "الجيش" أو "المؤسسة العسكرية" هى من بين هذه المؤشرات. ولكن كيف يتأتى لنا فهم "السلطة" و "السلطة العسكرية" على وجه الخصوص؟ كيف نستطيع أن نحدد العلاقة الشكلية بين أفراد المؤسسة العسكرية -

الصناعية، أو أن نحدد حتى العلاقة بين الجيش والحركات الوطنية وهى المشكلة الأصعب؟

إن علم اجتماع "المؤشرات" ⁽¹⁾ Indicators إذا وضع فى إطار أشمل لسوسيولوجيا العلوم الاجتماعية قد يكون بوسعه أن يوضح أن كلا من المسلمات الضمنية والاختيارات الظاهرية لن تجد تعبيرا عنها أفضل مما ستجد على مستوى "المؤشرات"، ذلك إذا أخذنا فى الاعتبار أن مهمتها هى الوصول بدقة المعرفة المنطقية - التى تعمل معى نفسها من خلال عملية التمييز - إلى أعلى نقطة لها. إننا نحدد هنا فقط الخطوط العريضة لتلك القضايا التى نرغب فى إلقاء مزيد من الضوء عليها، ومعى تلك القضايا التى لا تتطوى على أى خطر علينا.

إن الجيش يوجد بالتحديد فى قلب السلطة. أو عند نقطة الالتقاء بين المشروع السياسى الوطنى والجهاز الذى يضمن حمايته. أى يمكن القول إنه يوجد من جوهر نمط الاستمرارية الاجتماعية التى تتحدد من خلالها كافة الخصوصيات على المستوى النظرى، والذى يكفل الوجود الفعلى للتكوينات الاجتماعية والاقتصادية القومية فى التاريخ على مر الوقت.

ونتيجة ذلك تصبح الإشكالية غير واضحة وتزايد البلبلة حول أكثر العناصر التركيبية للسلطة ويصبح من العسير استيعابها. وهو ما يعكس بالتالى عدم دقة المعرفة والتفسيرات النظرية التى تكونت طبقا للمؤشرات من خلال دراسات الحالة. غير أنه لابد من تحديد موقع ذلك فى حد ذاته.

١ - ظهور عامل "العسكرية" فى العلوم الاجتماعية:

هناك دراستان حديثتان لكورت لانج Kutr Lang يتتبعان تاريخ ظهور عامل العسكرية فى العلوم الاجتماعية. وإذا وسعنا نطاق هذا الحقل موضع الدراسة ليشمل الثقافة العامة ككل فإنه سوف يصبح من الواضح إلى أى مدى كانت الاضطرابات العميقة التى جاشت بها التركيبات الاجتماعية الاقتصادية وجدليات الإمبريالية المهيمنة والحركات الوطنية والثورات الاجتماعية وبصفة خاصة فى

عالم القارات الثلاث (آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية).. إلى أى مدى كانت هذه العوامل هى التى دفعت بالجيش أو بالعامل العسكرى إلى الظهور على السطح خصوصا فى الفترة ما بين ١٩٦٠ - ١٩٧٠ (السويس، فيتنام، الثورة الثقافية الصينية، الجزائر، وبيرو... الخ).

ونحن نجد أن طبعة عام ١٩٦٣ من الموسوعة البريطانية تقتصر فقط على تدوين تاريخ الجيوش. وتتضمن مدخلا خاصا بأساليب وتكتيكات القوات المسلحة وخاصة فى الولايات المتحدة. وبعد خمس سنوات - أى فى عام ١٩٦٨ - خصصت الموسوعة الفرنسية ثلث المدخل المعنون: "الجيش" لدراسة سوسيولوجيا "العسكرية" والعلاقات بين الجيش والمجتمع وذلك تمهيدا لمدخل آخر تحت عنوان "العسكرية" لم ينشر بعد.

والشئ نفسه ينطبق على القواميس الأساسية فى العلوم الاجتماعية، حيث تخلو تقريبا من تناول هذه المسألة، سواء كان ذلك فى قاموس العلوم الاجتماعية الذى وضعه كل من ج. Gould. J و ل. فلورنس إيليوت Florence Eliot عام ١٩٦٩، أو قاموس علم الاجتماع لدنكان ميتشل Duncan Mitchell فى عام ١٩٦٨. وغيرهم كثيرون.

وقد ظل الحال على ما هو عليه حتى نشرت فى الولايات المتحدة الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية. وفيها أخذت العلوم الاجتماعية فى اعتبارها للمرة الأولى عامل العسكرية^(٥). ومما يستحق الذكر هنا هو أن هذه الموسوعة لم تضم سوى مداخل بسيطة لا يمكن الزعم بأنها شاملة.

هذا هو الإطار الثقافى العام الذى يمكن أن نحدد من خلاله ظهور عامل الجيش أو العسكرية فى العلوم الاجتماعية.

١ - ١ تتضمن الأعمال موضع الدراسة ثلاث مراحل:

(أ) مرحلة علم الاجتماع الكلاسيكى:

إن الاتجاه المعادى للعسكرية له تاريخ طويل يمتد إلى ما قبل سانت سيمون أو مدرسة التطوريين الاجتماعيين. وبصفة خاصة هربرت سبنس^(٦) الذى يرجع إليه لانج أصول هذا الاتجاه..

ومع ذلك فقد كان المفكرون الاجتماعيون فى واقع الأمر وسواء كانوا من أصحاب مذهب اليوتوبيا أو مذهب التطور.. كانوا استمرارا لواحد من مدلولين أساسيين (وهو ما يمكن تسميته بمدلول الإنسانية التكتيكية فى التراث الأوروبى العالمى كما تم تطويره فى الـ Ufklaring والـ Encyclopedie. حيث تتجلى روح القوانين من خلال العقل الذى كان قبل "عصر الثورة"^(٧) ينعم فى عالم مثالى روحانى. يرى تطور التاريخ على أنه صعود مستمر إلى عالم التتوير والسعادة والخلص عن طريق ممارسة الهيمنة بطبيعة الحال على العالم وقتئذ.

غير أنه بعد نصف قرن كان استيلاء البرجوازية على السلطة السياسية فى أوروبا وما أدى إليه ذلك من انتشار المبادئ الأولى للعمال والثورة الشعبية وراء فضح الحدود الفعلية للسلطة ومشاكل العنف. ومن ثم تركزت أعمال هيج وماركس النظرية على مشكلة السلطة فى المجتمعات الإنسانية، فعالجها الأول من خلال الجدليات المثالية للروح. أما الثانى فقد ركز على الجدليات الموضوعية والمادية والاجتماعية.

ثم حان وقت ظهور اتجاه الإنسانية الواقعية. وهو الاتجاه الثانى فى التراث الأوروبى الذى أسسه أرسطو وميكافيللى وهوبس الذين فرضوا أنفسهم مع هيجل وماركس ولينين بصورة حاسمة على الفكر الغربى.

ومع ذلك فلا تزال هناك أوهام تسيطر على هذا المجال ربما أكثر من أى مجال آخر من مجالات الحياة الاجتماعية. فالقضية الحقيقية هنا فى واقع الأمر هى قضية حقيقة السلطة ودور العنف فى التاريخ. غير أن التراث الثقافى الغربى لا يسعه إلا أن يلجأ دائما إلى أصوله المسيحية بهدف تأجيل لحظة الإلهام السياسى أو على الأقل التقليل من أهمية مظاهرها العنيفة. ولذلك فإنه من اليسير علينا أن ندرك لماذا ظل الجيش كما كان بعيدا عن الأنظار، مختفيا وراء ظلال لا يظهر منها إلا فى لحظات الخطر والهزيمة، ولماذا لا يزال مغلفا فى الثوب الأحمر والأسود.

لا تزال إذن توجد هذه الأوهام العنيدة التى تصر على تقسيم السلطة إلى الشرعية العلمانية واليوتوبيا. وهى كلها تأثيرات متنوعة دفعت الطبقة السياسية إلى

رفض الاعتراف بالجيش إلا كملاذ أخير.. تأثيرات متنوعة قادت المثقفين والمفكرين والمنظرين إلى موقف السلبية الذي يرفض حقيقة الجيش وحقيقة العنف المحتمل. كما لو كانت الدولة البرجوازية والمجتمع الرأسمالي يحاولان باسم إنسانية تأثرت بدورها بالنزعة الروحانية والفكر العلمي التكتيكي غسل أيديهما مما يشكل في واقع الأمر درع وجودهما وقوتهما.

وبدءاً من سبنسر حتى حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥، كانت مشكلة العنف تفسر باتفاق عام في إطار ثقافي. فقد آمن سبنسر بأن التنافس الصناعي لم يكن في استطاعته أن يقضى على الصراع المسلح. أما جومبلowitz Gumplowiz الذي كان أكثر وعياً بالتوسع الاستعماري، فقد تنبأ بأن الكراهية العنصرية سوف تتحول إلى عبودية واستغلال اقتصادي بدلا من أن تتحول إلى حرب. في حين كان راتزينهوفر Ratzenhofer يشعر أن باستطاعته أن يكتب أن "دولة الثقافة" سوف تحل محل "دولة الصراع". أما أي. ك. لاي فقد كان يحذو حذو هـ. سبيري في ملحوظته الصحيحة تماما بأن اكتشاف التصور الخاص بالتركيب الاجتماعي في الولايات المتحدة قد ابتعد بالنقاش ككل عن العنف.

ومن ثم كان من المنطقي تماما أن يتطور علم الاجتماع ليشمل الفقر والاستغلال الاقتصادي والصراع الطبقي والعلاقات بين الجماعات. أي جميع مجالات التوتر الاجتماعي المهمة، وذلك قبل ظهور على اجتماع العسكرية^(٨).

وفي هذا الصدد نستطيع أن نذكر أيضا "وظائف الصراع الاجتماعي" لصاحبه لويس كوزر الذي يزر بتحليل الصراعات السياسية والدينية والصناعية. ومع ذلك لا يكاد يذكر الصراعات العسكرية إلا نادرا.

وفي عام ١٩٥٦ وتحت تأثير أوجست كونت - وهو نفسه كان تابعا لمونتيسكيو - كان علم الاجتماع الأوروبي يعادى فكرة العنف، وبالتالي عجز عن أخذها في الاعتبار.

ورغم أن توكفيل Tocqueville التفت في لحظة ما إلى الحركة الملموسة للصراع على السلطة، إلا أن ظهور الاشتراكية عزز هذا العداء تجاه فكرة العنف

عند ديركهايم Durkheim ومدرسته.. أما فى ألمانيا فقد كان ماكس فيبر Max Weber أبرز علماء الاجتماع فى النصف الأول من هذا القرن، وهو الذى أعطى مزيدا من الاهتمام لظاهرة الحرب وعلاقتها بالتركيبات الاقتصادية والاجتماعية. ومن هنا وصلنا إلى نقطة التحول، وأصبح مستحيلا منذ ذلك الوقت تجاهل العنف وتاريخه. فقد أقام شوميتز Chumpeter فى علم اجتماع الإمبريالية (١٩١٨) علاقة مباشرة بين الرأسمالية وآليات الحرب، وذلك رغم أنها كانت علاقة مضللة فى هذه الفترة، لأنها صورت فكرة المركب العسكرى - الصناعى^(٩).

أما مشروع مؤسسة كارنيجى فقد جمع فى إطار "التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للحرب العالمية" ١٥٠ مقالة دراسية خاصة بـ ٢١ دولة (رغم أن هذا العمل لم ينشر إلا فى عام ١٩٤١).

وفىما يتعلق بـ "Soziologie Krieger" لـ رودلف شينيميز (١٩٢٩) فهو يعد عملا تمهيديا فى هذا المجال. ومع ذلك فإن الدراسات الكلاسيكية. وحتى أحدث السجلات التاريخية لعلم الاجتماع نصر على إما تهيمش هذه القضية أو تجاهلها تماما.

(ب) حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ وفترة يالتا:

انتهت الحرب الأوربية الثانية التى سرعان ما تحولت لتصبح حربا عالمية حقيقية "وهى الأولى من نوعها رغم أنها عادة ما يشار إليها على أنها الحرب العالمية الثانية" فى الفترة ما بين ١٩٣٩ - ١٩٤٥.. بتحديد توازن القوة العالمى الذى اتفق عليه فى يالتا. ولأن هذه الفترة أكدت على الأهمية الحاسمة للجمع بين القوة العسكرية، والإستراتيجية السياسية والبنية الاقتصادية الأساسية فقد كان لها تأثيرها الحاسم أيضا على دراسة عامل العسكرية فى العلوم الاجتماعية.

وفى بداية الحرب أشارت الكتابات الألمانية والأمريكية إلى احتمالات وجود دراسات اجتماعية حقيقية للعسكرية. لكن واقع الأمر أن متطلبات العمل العسكرى لقوى الحلفاء: (بريطانيا العظمى والولايات المتحدة) إلى جانب الاتجاه الأيديولوجى

الذى كان سائدا فى ذلك الوقت.. وهو اتجاه البراجماتية والوظيفية والتفعية الميكانيكية الرافض تماما للتتظير.. هذا الاتجاه فرض نفسه على برنامج العمل فى ذلك الوقت. وفوق كل ذلك كانت ضرورات المرحلة تتحصر فى قياس درجة الاستغلال القصوى للموارد (بشرية واقتصادية وامدادية Logistiques) وفى تطوير المناهج الإجرائية المنظورة لتحقيق أهداف الحلفاء فى الحرب. وفى هذه الفترة انصب الاهتمام الأساسى على علم النفس الاجتماعى والطب النفسى والبحث الإجرائى فى علاقتها بضرورات تعبئة الجماهير فى الدولة المحتلة عن طريق جهاز عسكرى مهنى تدريب وتعلم وفقا لمتطلبات الحرب الكلاسيكية. أى أنه كان توجهها إجرائيا - بالمعنى الحرفى للكلمة - أكد مرة أخرى على المعالجة الوظيفية للعلوم الاجتماعية فى الولايات المتحدة وفى الغرب بوجه عام.

وهنا ينبغى علينا أن نشير بصفة خاصة إلى "الجندى الأمريكى" لـ س. أ. ستوفر فى عام ١٩٤٩. وهو عمل أساسى من بين مجموعة من الأعمال التى اهتمت بسلوكيات الجيوش والسكان ككل أثناء المعركة وعند الانسحاب، أى تحت تأثير الحرب بشكل عام^(١١).

ويلخص صامويل هنتنجتون Samuel Huntington فى "الجندى والدولة" (١٩٥٧) الاتجاه العام لهذه الأعمال.

ومع ذلك فلا يزال الطابع العلمى المحدود والصبغة المحلية السياسية التى سيطرت على هذه الأعمال فى تلك الفترة تثير الكثير من الدهشة. حيث أبرزت جميعها الدور الحاسم للقيادة السياسية والبنية الاقتصادية، ودعمت هذا وذاك بالبحث العلمى والتكنولوجى. ولكننا لا نكاد نجد - إلا نادرا - عملا يهتم بدراسة ما سمي بعد ذلك "بالمركب العسكرى الصناعى" كما لو أن الجوانب الشكلية لعملية صنع القرار العسكرى التى تحوطها السرية فى أوقات الحرب هى التى سمحت بتجاهل المشكلة الأصلية الخاصة بسلطة القرار السياسى.

وهكذا ظلت العلاقة بين الجيش والمجتمع بمعناها الواسع فى الظل، فى نفس الوقت الذى خرجت فيه مفاهيم مثل "الدولة فى ظل سيطرة الجيوش" و "الحرب

الشاملة" و "العمود الخاص" من الضباب والظلام حتى رغم أنها لم تكن قد نجحت بعد فى النفاذ إلى دائرة البحث العلمى والنظرى.

على أى حال لا تزال هناك قضايا أكثر خطورة سوف نعود إليها مرة أخرى. ومنها على سبيل المثال: إلى أى مدى تطورت الأفكار والأبحاث فى تلك الفترة وفى هذه القطاعات التى تورطت بصورة عميقة فى الصراع مثل الاتحاد السوفيتى وألمانيا والصين واليابان؟

كذلك فلا زلنا نجهل تماما الأبحاث التى أجريت فى وقت كان العالم فيه - رغم انقسامه الروحانى - لا يزال عالما غربيا ينظر إلى كل شئ فيه من منطلق علاقته بالغرب، ومدى إسهامه فى استمرارية تجربته التاريخية وتقاليدته الفكرية.

ولا تزال هذه التقاليد الفكرية فى واقع الأمر ورغم الاضطرابات التى نشأت عن الحرب هى التى تضع العراقيل فى طريق ظهور عنصر العسكرية فى مكانه الطبيعى فى داخل البناء القياسى للعلوم الاجتماعية.

(ج) شهدت الفترة التى بدأت بإنشاء أول دولة اشتراكية فى الشرق: (جمهورية الصين الشعبية. أكتوبر ١٩٤٩) كلا من تفكيك الإمبريالية الأوروبية الكلاسيكية وتصعد نظام جديد للإمبريالية المهيمنة على المستوى العالمى تسيطر عليه أمريكا الشمالية بالإضافة إلى موجة جديدة من الحركات الوطنية والثورية فى آسيا وأفريقيا، وفى أمريكا اللاتينية وفى بعض القطاعات الغربية. ولذلك فقد أصبح الشرق الثورى المنبعث الذى استحوذ بجدارة على المبادرة التاريخية الثورية هو حد الريادة فى الحقبة التاريخية الراهنة وفى المستقبل المنظور. ومن ثم فإن الجدل بين الحضارات - فى الشرق والغرب - الذى يشكل الإطار العام يرتبط تركيبيا فيما يتعلق بالشرق بجدلية التكوينات السياسية القومية والاقتصادية الاجتماعية، وبهذه الوسيلة فإن الشرق يساهم فى توصيل الجدلية الاجتماعية إلى أعلى مستوى لها.

وهكذا فإن مشكلة العنف الميرر للسلطة وأدواتها فى أجهزة الدولة تفرض نفسها على اهتمامات العلوم الاجتماعية فى وقتنا الراهن. وطالما كان هذا العنف

المبرر يشكل أهم أداة منظورة لإحداث تحولات فى توازن القوة العالمى والهيمنة التطبيقية داخل المجتمعات التى تخوض عملية التغيير، فإن ذلك سوف يضطرنا إلى إعطاء مزيد من الاهتمام للظواهر الجديدة ومنها الظاهرة القومية، ولعناصر جديدة أيضا وغير مألوفة يعد الجيش عنصرا أساسيا منها. بالإضافة إلى الإطار الجيوبوليتيكي ومجالات الثقافة والحضارة. وهذه جميعها تبدو أنها تسهم إسهاما مهما فى انهيار الحقبة الجميلة.

هذا هو المناخ أو الضرورة الاجتماعية التى سوف تجعل من الممكن أخيرا الاعتراف بالدور المهم لعنصر العسكرية فى الحركة الموضوعية للمجتمعات الواقعية فى العالم الراهن. ومنذ عام ١٩٦٠ وما بعدها أصبح علم الاجتماع العسكرى علما معترفا به كفرع من فروع العلم: فى الولايات المتحدة من خلال "المعهد الجامعى للتنظيم العسكرى" والذى تحول أخيرا إلى "المعهد الجامعى للقوات المسلحة والمجتمع"، وفى بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا الغربية والدول الاشتراكية الأوروبية. وذلك نتيجة نشر عدد متزايد من الدراسات والمشروعات الجماعية، ومن خلال إنشاء لجنة بحث على مستوى عالمى تختص بموضوع "القوات المسلحة والمجتمع" تحت إشراف الرابطة السوسولوجية الدولية (المؤتمر السوسولوجى العالمى السادس.. إيفيان ١٩٦٦). ثم بصورة أشمل نتيجة الاهتمام المتزايد من جانب علماء الاجتماع وعلماء السياسة فى القوات المسلحة فى القارات الثلاث التى هى مجال الحركة الضخمة والتجديد وموضع الملاحظة المضطربة.

٢ - الاستثنائية وظاهرة "الانقلابات العسكرية": المنهج الوظيفى:

٢ - ١ تعريف الحقل العلمى

يبدو أن عنصر العسكرية قد دخل الوعى السوسولوجى بطريقة عكسية. فبدلا من ظهوره نتيجة العمليات الواقعية فى العالم نجد أنه نشأ على أساس وعى زائف وتطور بحذر بالغ وفى الحدود العتيقة للمناخ الثقافى التقليدى. وإذا كانت المعايير العادية حسبما نزع من هى بالفعل المتعلقة بالمدنية والعلمانية والإنسانية؛ فإن عنصر

العسكرية يمكن اعتباره عندئذ عنصرا غير عادى أو جسما غريبا أو إيقاعا شاذا في حركة التطور السلمية المتناغمة تجاه التقدم.

وهذا هو السبب في أنه كان هناك ميل إلى إجراء الدراسات الأولى فى المجالات الثقافية الهامشية للمجتمعات السياسية بالتحديد فيما يسمى بالعالم الثالث.. حيث يجد المحلل نفسه هنا وجها لوجه أمام عمليات تختلف موضوعا عن تلك التى تحدث فى العالم العادى أى فى عالم المجتمعات المتقدمة اقتصاديا فى أوروبا وأمريكا الشمالية. وسوف يتم تبرير هذا التباين فى معظم الأحيان باستخدام منهج تاريخى وهو المنهج الذى يوحى به بوضوح النمط المثالى لـ فيبر Weber وكما طوره خلفاؤه وتلاميذه. وفى أحيان أخرى يتم الاعتراف بهذا التباين على أنه حتمية تاريخية تفسرها الخصوصية. وبذلك يتحمل التاريخ الموضوعى للجدليات الاجتماعية مسئولية هذا الشذوذ أو الانحراف عن المسار الطبيعى.

ويبدو أن هذا التطور الطبيعى تماما يواجه المحللين والمنظرين بصعوبات ضخمة، فكيف للمحلل أن يؤيد التأثيرات الغربية للظواهر التى تفرضها الأيديولوجية الغربية السائدة، وفى الوقت نفسه يستطيع أن يطور الأدوات الضرورية اللازمة لتقليل هذه التأثيرات الغربية ذاتها أو يشرح منطقتها التاريخية؟ إن ذلك ينطوى على خطر جوهري حقيقى يتمثل فى اضطرار المحلل إلى قبوله هذا الاستواء التعددى الذى يضم دوائر قومية وثقافية وحضارية متعددة. وهو الأمر الذى يؤدي بدوره إلى كشف الطابع المتميز للجهاز المفاهيمى وللنظريات المستخدمة حاليا أو - إذا جاز القول - فإن ذلك سوف يكشف انحراف المنحرفين. وسوف تكون نتيجة ذلك كله الالتقاء الموفق بين المضمون وحقه الجغرافى، وهو ما سوف يلقى الضوء على الظاهرة ككل.

إن باستطاعتنا أن نعرف هذه الظاهرة فى ضوء طابعها العام بظاهرة "الاستثنائية"، غير أن هذه الدراسة المتخصصة للبحث تكشف عن الطابع غير المؤكد أو المشكوك فيه للمشروع العلمى ذاته.. هل هو "علم اجتماع العسكرية" سوف يتم تعريفه فى أفضل الأحوال على أنه "الحقل العلمى" الذى يشكل فيه استخدام العنف

المنظم أو القوات المسلحة أهمية أولى سواء كوسيلة أو كعقبة فى محاولة متابعة أى موضوع اجتماعى محدد^(١٢).

وهنا تحدث البلبلة: هل ما نناقشه هو عنف غريب على الحياة الاجتماعية؟ هل العنف المسلح يعتبر خاصية من خصائص الجيش وحده؟ أم أنه خاصية محددة من خصائص جهاز الدولة؟ وأخيرا هل من الممكن أن نتصور تحقيق أى هدف اجتماعى ذى أهمية دون اللجوء إلى العنف المنظم؟

وهكذا ينشأ العديد من التساؤلات التى تكشف وتثير قضية الافتراضات الأيديولوجية المسبقة لهذا العلم من علوم الاجتماع كما تم تعريفه فى النص العلمى الرسمى الذى نشر فى عام ١٩٦٥ تحت إشراف الرابطة السوسيولوجية الدولية بدعم من اليونسكو.

والقضية هنا على ما يبدو تتعلق بكيفية فهم "الدور ما بعد العسكرى للجيش"^(١٣) وكيفية إدماج "العسكرية الجديدة"^(١٤) فى الصورة الكلاسيكية (رجال العسكرية القدامى)، ثم كيفية فهم أسباب هذه العناوين المثيرة للقلق مثل: "الجيش يتدخل"^(١٥).

ليس بوسعنا أن نجد تفسيراً أفضل لهذه التساؤلات. فالمناقشة تدور كما لو أن الدور الأساسى للجيش هو دور "عسكرى ضمنى" منفصل (طبقاً للتحليل الصورى عن جهاز السلطة) ويتم فى إطار مركب الدولة - الأمة الطبقة. كذلك يبدو الأمر وكأن الجهاز العسكرى فى اغترابه عن هذه العملية الغريبة للسلطة أصبح يعى فجأة قدراته، فأدار ظهره للتقاليد القديمة وألقى بنفسه فى خضم مغامرة، أو على أفضل الأحوال فى عمل لم يسبق له مثيل.

هذه هى بكل تأكيد نظرية الاستثنائية، ولكن فى إطار ما يوصف بالفعل بأنه حقل "علم اجتماع الجيش"^(١٦).

وفى عام ١٩٧٠ كان هذا الحقل الدراسى يعرف عادة بأنه "يشكل كافة الأوضاع والتركيبات التى يتخذ فيها عنصر العنف المنظم دوراً رئيسياً وشرعياً".

ولنلاحظ هنا أنه في الفترة ما بين ١٩٦٥ و ١٩٧٠ تطورت مفاهيم جديدة مثل: "الأوضاع"، "التركيبات" و "الشرعية". ومن ثم فإن هذا الحقل من شأنه أن يضم أربعة مجالات: الحرفة المسلحة، المؤسسة العسكرية كبناء اجتماعي، العلاقة بين المدنيين والجيش، ودراسة الحرب^(١٧). وهو ما يعنى القول أن الحقل العلمى الذى يتحدد فيه موضع عنصر الجيش فى المنطقة المهيمنة ومنطقة القارات الثلاث يطمح على الأقل إلى تحقيق الوحدة والتجانس. إذن هل يمكن لنظرية الاستثنائية أن تكون أساسا لوضع نظرية عامة؟

٢ - ٢ الحقل العلمى فى إطاره الجغرافى

لقد بدأت تعبيرات مثل "الجيش والمجتمع"، والجيش فى الأمة (وبعد أن فرض الواقع المعاصر نفسه بأساليب غير مرئية) تتسلل إلى ما يمكن اعتباره أنماطا قديمة أو عتيقة. وبما أن الحال كذلك فما هى أفضل وسيلة لفهم مثل هذه التعبيرات؟

سوف نتحول إلى العالم الآخر: إلى العالم الثالث أو عالم القارات الثلاث.. هذه المنطقة التابعة.. عالم الثورات والحركات الوطنية.. وحيث يأتى المؤشر ليس من علم الاجتماع الاستعماري القديم الذى تأسس فى الماضى فى أوروبا ولكن من الولايات المتحدة.. هذا القادم المتأخر إلى عالم الإمبريالية المهيمنة الذى وصل فى الفترة ما بين أزمة ١٩٢٩ - ١٩٣٢ وحرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥.

لقد دخلت الولايات المتحدة إلى هذا المجال الجديد للسيطرة بروح ريادية: أو ليست هى كما كان يحلو لتوماس جيفرسون أن يؤكد دائما: "الأمة الجديدة الحقيقية الوحيدة؟".

غير أن هذه الدولة التى نجحت فى أقل من مائتى عام فى أن تتطور من مرحلة "الأمة الجديدة" لتصل إلى أن تصبح أعظم دولة فى التاريخ من خلال قوة مؤسساتها العسكرية الصناعية إبان الحرب.. تجربته الخاصة وعلى أساس نمطه الخاص وبهدف توزيع مشاكله؟

كانت هناك إذن خطوة واحدة بين كون الولايات المتحدة: "الأمة الجديدة الوحيدة" وبين فرضها لنموذج "الأمة الجديدة" على المجتمعات القومية فى مناطق

التبعية^(١٨). ثم ألا يسود الاعتقاد وبصفة عامة بأن المرء لا يلاحظ بدقة أدنى مستويات الاستوائية إلا داخل هذه التكوينات القومية؟ أو ليست هذه التكوينات هي بالتحديد الحقل المفضل لممارسات العسكريين حيث تكثر الحركات الثورية المطالبة بالاستقلال؟ ثم أليس هؤلاء هم ذاتهم العسكريون الذين يلعبون دورا كبيرا فى اتخاذ القرار السياسى فى الولايات المتحدة؟

ومن ثم وبناء على ذلك تصبح "الأمم الجديدة" هى الميدان المفضل لدراسة علم اجتماع العسكرية. وهذا الميدان الذى يعد إضافة متأخرة إلى المجال السوسيولوجى الواسع سوف ينجح فى تحقيق وصفه العلمى عندما يقيم رأس جسر على الضفة الأخرى من النهر مبتدئا بعلم الاجتماع العادى كحقل أكثر ضمنا وأمنا.

هذا هو الإطار الجغرافى - المفضل إذا لم يكن الوحيد - وذلك طالما بدأ العمل فى المجتمعات المتقدمة اقتصاديا والمهيمنة سياسيا.

وهكذا فإنه باستطاعة الدراسة السوسيولوجية لعنصر الجيش أن توفر بصورة طبيعية عناصر المقارنة الاجتماعية الكبرى طالما تحملت مسئولية التعرف على كل المجتمعات التابعة والمجتمعات المهيمنة التى تسيطر عليها. وهى أيضا الوحيدة التى باستطاعتها أن تضع أساس نظرية عامة بظاهرة الجيش فى المجتمعات القومية طالما أستكملت عملية التنظير الثلاثى^(١٩). وسوف تكون هذه هى أول مرة تتقلب فيها عملية محدودة على نفسها وتثمر عن نتيجة إيجابية.

ولكن هل من الممكن عندئذ أن نتجاوز نظرية الاستثنائية أو بمعنى آخر كيف لنا فى هذا الحقل المحدد موضع الدراسة أن نقيم الجدل بين الخصوصى والعمرى؟!

٢ - ٣ المعالجة الوظيفية: الإحلال (البديل) الاجتماعى

يبدو أن هذا هو الهدف الذى سعى إليه علماء الاجتماع والسياسية - ومعظمهم من الأمريكيين - فى أعقاب يالنا وانتصار الثورة الصينية.

٢ - ٣ (أ)

تعد هذه العملية فى الواقع عملية مختلفة بشكل ملحوظ حيث يوجد التزام قوى بتطوير النظرية منذ عام ١٩٦٠ وفيما بعد، وذلك طالما كانت الحالات الرئيسية هى موضوع البحث. غير أن هناك تصورا بأن عملية التنظير هذه تعد انعكاسا نظريا للأسلوب العام الذى تودى من خلاله المجتمعات (خصوصا الولايات المتحدة) وظيفتها. وهو أسلوب تزينه بعض الملامح المحلية المحددة التى لها دورها المبرز بالضرورة. بمعنى آخر فإننا لا نقوم بالتحليل المقارن للمجتمعات القومية بهدف تعزيز تصور الخصوصية على أساس دراسة دقيقة ملموسة لخصوصية كل منها، ولكن على العكس من ذلك فإننا نقوم بهذا التحليل على أساس نمط الاستمرارية الاجتماعية والوظيفية الاجتماعية التى يفترض عندئذ أنها تتكاثر على نطاق أضيق فى المناطق المختلفة من العالم اللاغربي.

٢ - ٣ (ب)

وحيث أن دراسة المصطلحات تثبت دائما أنها دراسة تنويرية فإننا سوف نشير هنا إلى المصطلحات الأساسية فى هذه الإشكالية وهى "التحديث" و "التكامل" (التكامل وليس الخصوصية) والتصورات والمفاهيم التى تتبع منها.

وفى البداية حدد كل من جون ج. جونسون وهانز سبيير وإدوارد شيلز هذا الوضع فى إطار أول بحث أساسى تقوم به مؤسسة راند Rand فى سانت مونيك (١٩٥٩ - ١٩٦٥) كما يلى^(٢٠):

"يلعب الجيش دورا حيويا فى كثير من الدول التى نشأت فى حقبة ما بعد الاستعمار. فهو كقوة ثورية ساهم فى تفكيك النظام السياسى التقليدى فى بعض الدول، ولكنه فى دول أخرى لعب دور قوة الاستقرار حيث ساهم فى تجنيبها الوقوع فريسة للحكم الشيوعى. وفى أحيان أخرى لعب الجيش دور القوة التحديثية لنصرة آمال الطبقة الوسطى أو المطالب الشعبية التى تسعى على التغيير الاجتماعى ومنح الخبرات التكنولوجية والإدارية للقطاع المدنى فى الدول التى لا تتوفر فيها هذه الخبرات"^(٢١).

"ومع ذلك فإن هناك سعيًا أساسيًا وراء مؤشرات عن كيف يتنافس السياسيون العسكريون مع الوطنيين والبيروقراطيين والمتقنين المتأثرين بالغرب. وعندما يستولي العسكريون على السلطة من المدنيين كما يحدث في مناسبات لا حصر لها في كافة مراحل نمو المجتمعات، فإنه يبدأ على الفور فحص صفاتهم الكاريزمية ومهاراتهم الإدارية والتنظيمية وغيرها بهدف التوصل إلى إجابة عن السؤال حول: لماذا نجحت الحكومات العسكرية في تحقيق تقدم النمو القومي والممارسات الديمقراطية في بعض الدول بينما كانت عامل تخلف في البعض الآخر؟" (٢٢).

إن القضاء على هذه الفجوة بين الصفوة التحديثية والجماهير الشعبية هو الشرط اللازم لخلق مجتمع سياسى (٢٣) ..

وهنا تبدو المصطلحات كما لو أنها ذات المصطلحات المستخدمة في العلوم السياسية ، ولا تزال السيكلوجية الاجتماعية تسيطر عليها بصورة عميقة.

إن كيف يكون باستطاعتنا أن نبرر انحراف العسكريين عندما يتحولون إلى سياسيين؟. لقد تم تعريف هذه اللعبة بالفعل على أنها لعبة التحديث. وفي هذه المرحلة من نموها يشارك علم الاجتماع العسكري بالكامل في رواج الدراسات حول "عملية التحديث".

ما هي إذن "عملية التحديث" هذه بالتحديد؟ إنها تتضمن تقليد عملية التنمية الغربية (و. و. رستو) ولكن مع انعدام القدرة على اللحاق بعملية التنمية الغربية. كيف يمكن تحقيق ذلك؟

الإجابة هنا تكون بالتركيز على "الإدماج". أى على تشكيل مركز قوى قادر على توحيد وإدماج المكونات المختلفة لمجتمع ما (الطبقات، الجماعات السلالية، المناطق، الأقالي، الثقافات، الأقليات، والتكوينات السياسية والأيدولوجية). وبدون هذا المركز التجميعي فإنه يصبح من المستحيل تقريباً تكاثر النماذج التحديثية التى شكلتها المراكز المهيمنة. هذه النماذج هى وحدها القادرة على ضمان تحقيق التطور السوى الرشيد للمجتمعات التابعة (هذا المحيط الذى يرقص على نغمة مركز الهيمنة). ولكن فى الجوهر تكمن مشكلة السلطة وصلب مركزها: الجيش.

وسوف يتم استخدام تصور "التكامل" على مستويين: أولهما على مستوى المركز العسكري ذاته الذى يجب تركيبه قبل التحرك إلى العمل على المستوى الأشمل للمجتمع القومى.

ومن ثم فإنه دراسة "النظام العسكرى" سوف توصف على أنها تتألف من عملية "التكامل الوظيفى" (لانج) التى صاغ منها س. أندريوسكى و م. ديفلد^(٢٤). نماذج لأنماط عديدة. ومن هنا سيتضح على الفور أن الجهاز العسكرى يستجيب للتكامل الوظيفى للطبقة السياسية عندما يصل إلى أفضل مستوياته بمفهوم (الامة تحت سيطرة الجيش) وفقا لفيلد، و "المركب العسكرى الصناعى" و "الصفوة السلطوية" كما يقول ل. س. رايت ميلز.

أما المستوى الثانى - وهو مستوى "العلاقات المدنية العسكرية" الذى ينظر إليه على أنه يشكل عملية "التكامل المعيارى" فهو ينبع من المستوى الأول حيث أن كل شئ تقريبا يندرج تحت هذا العنوان: "العلاقات بين الطبقات الاجتماعية والمؤسسة العسكرية، بين رجال الدين والسواد الأعظم من الشعب، بين البيروقراطية والأوليغاركية والمجتمع ما قبل الصناعى، بين تأثيرات الانتصار والهزيمة، عدم الاستقرار الحكومى، الروح المعنوية، الوحدة الوطنية فى مواجهة الروح الطائفية، القيادة العسكرية والتدخل السياسى. مفهوم المركب العسكرى الصناعى والدولة العسكرية. الجيش والبحث العلمى والتكنولوجيا. المساعدة الأجنبية: علم السكان (الديموجرافيا) وفرص العمل الطاقات التنظيمية والإدارية والسيكولوجية، الزعامة. وفى التحليل النهائى الإمبريالية"^(٢٥). أى أن كل شئ ينتمى إلى هذا المجال. وسوف نرى فيما يلى ما ينطوى عليه ذلك. كذلك ستتولى الموجة الثانية، أو بمعنى أصح علم الاجتماع العسكرى كما طوره موريس جانوفيتز مهمة استكشاف هذا الحقل الضخم من منظور وظيفى ولكنها ربما تولى مزيدا من الاهتمام للصعوبات النظرية.

٢ - ٣ (ج)

إن الإضافة التى قدمها جانوفيتز^(٢٦) مستندا إلى فرضية حديثة لكاتب هذا الكتاب تتركز فى محاولته تحديد دور الجيش داخل إطار عملية "تكامل ديناميكى"

تفتح سبلا مهمة أمام عناصر تنشأ عن المنعطفات الدولية. ومع ذلك فكل شئ يرجع بنا إلى نفس القضية التي حدد جانوفيتز إشكالياتها الرئيسية على النحو التالي:

أولاً: "إلى أى مدى عدل الجيش فى الدول الصناعية والدول النامية من منظوراته المهنية حتى تأخذ فى الاعتبار الأسلحة الجديدة للتنمير الجماعى والطابع الاجتماعى السياسى للحرب التقليدية؟".

وثانياً: لماذا تتمتع طبقة الضباط فى الدول النامية بنفوذ أقوى فى شئون السياسة الداخلية مما تمتعت به نفس الطبقة فى المجتمعات الصناعية؟

ويقترح الكاتب أن نسعى للإجابة على هذه التساؤلات بدراسة البناء الداخلى لمهنة العسكرية فى مجتمعات مختلفة ودراسة التباينات فى البناء الاجتماعى بين الدول القومية المختلفة.

وبما أنه ثبت أن "تحليل الجمع الإحصائى" غير مرن فى الإسقاط النظرى، فإنه يصبح من الضرورى أن نتحول إلى البحث عن "فئات مفاهيمية محددة" خصوصاً من أجل تحديد التطبيق المحدد للمشكلة الكلاسيكية لعقلانية التنظيمات الكبيرة. أى للأوضاع التى يصبح من الممكن فى ظلها تطوير أو تنظيم التكيف الفعال بين الوسائل والغايات على التنظيمات العسكرية.

وفيما يتعلق بالسؤال الأول فقد كانت هناك إجابات أكثر جدية، منها على سبيل المثال: "داخليا يحمل مفهوم العسكرية فى طياته معنى تنمية وثبيت الممارسات التى تعوق هذه الإجراءات العلمية والإدارية التى من شأنها أن تؤدى إلى مزيد من "المهنية". أما خارجياً فإن العسكرية تتضمن السلطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى يحددها الجيش وتأثير هذه السلطات على البناء الاجتماعى الداخلى وعلى السياسات الدولية".

إن العسكريين متخصصون فى إدارة العنف والدمار الجماعى. والنموذج المثالى للرجل العسكرى المحترف ليس فى أن يكون عالماً أو مهندساً أو رجل أعمال دائماً يدخل فى تكوين صورته الحرفية الذاتية عنصر بطولى لا يمكن التقليل منه إلى درجة أن الرجل العسكرى ينبغى أن يكون قد واجه الخطر وجها لوجه".

وهكذا سرعان ما يتحول إلى معلم. ويقودنا ذلك مباشرة إلى السؤال الثانى الذى يتعلق بالعلاقة بين القوات المسلحة والبناء الاجتماعى.

سوف تكون نقطة البداية هنا النموذج "الأرستقراطى - الإقطاعى" الأوروبى الذى يبرهن بعدم كفايته على الحاجة إلى دراسة "الجنور الاجتماعية" للمؤسسة العسكرية. ومن ثم فإن الدراسات المقارنة قد تمكنت من التمييز بين خمسة أنماط للعلاقات المدنية العسكرية هى: "النظام الفردى الديكتاتورى للسيطرة المدنية العسكرية"، ونظام الحزب المدنى الجماهيرى، ونظام التنافس الديموقراطى أو شبه الديموقراطى، ونظام الائتلاف المدنى العسكرى. وأخيرا نظام الأوليغاركية العسكرية.

ومع ذلك فإن سلم أنماط النظم هذا لا يقطع الشك حيث يكون رد فعل العسكريين فى أفريقيا وآسيا بأساليب غير متوقعة.. فهم "عملاء ناقصون للتغيير السياسى".

وهنا يتدخل البعد الدولى سواء على أساس منهج "الصراع" أو من خلال منظور "نظامى"، وهنا أيضا نادرا ما نجد إشارة لوجود الإمبريالية المهيمنة (مصطلح إمبريالية ليس موجودا فى أى مكان فى النص). أو لتوازن قوة التعايش. ويبدو "الأمر الواقع" وكأنه قادر على تخفيف التوترات وتسوية الحروب المحلية، وهى تلك الصراعات التى يمكن معالجتها بقيام القوات المسلحة بدور بوليسى بحيث تمارس مهامها "كقوة شرطة عسكرية" من المفترض أنها تمثل "إضافة سوسيولوجية لمشكلة التنظيم". وتتخذ أشكالا متعددة، سواء الشكل الوطنى (قوة البوليس الوطنى كما وصفها و. ميلز و ج. بريد) وشكل القوة المتعددة الجنسيات أو الدولية (قوات المراقبة الخاصة فى إطار الأمم المتحدة كما وصفها توماس شيلينج).

إن يستخدم الجيش على المستوى الداخلى كأداة لتحقيق الوحدة، أو كوسيلة غير كاملة للتحديث. أما على المستوى الخارجى فإنه يقوم بدور الحارس على العلاقات الدولية. وهذه هى أفضل صورة استطاع علم الاجتماع السياسى أن يقدمها لدور الجيش فى المجتمعات المعاصرة. وهى تقع فى إطار وظيفى عام رغم أنها

أصبحت الآن أكثر قابلية للفهم أى بعد أن اتخذت هذا البعد الدولى. ومن ثم فإن النتيجة التى وصلنا إليها والتى وصفناها بأنها منهج التكامل الديناميكى للعنصر العسكرى فى المجتمع تجعل من اليسير علينا أكثر من ذى قبل أن نأخذ فى الاعتبار الصيغ المختلفة التى يودى بها المجتمع المدنى العسكرى وظيفته.

ومع ذلك فلا يزال هناك مفهوم خارج مجال تخصص الحقل العلمى. وهو هذا المفهوم الذى يسمح لنا تطبيقه هو وحده بأن نأخذ فى الاعتبار هذا الانتشار الطيفى الواسع المدهش للجيش فى كافة مجتمعات هذا العالم المعاصر، وليس فقط فى المجتمعات الخاضعة للسيطرة.

وسواء نظرنا إلى القطاعات الصناعية الرأسمالية (الجيش فى فرنسا والولايات المتحدة وسويسرا وبريطانيا العظمى والبرتغال على سبيل المثال. أو فى ألمانيا النازية والمعاصرة) أو المجتمعات الاشتراكية.. (الجيش فى الصين والاتحاد السوفيتى وكوبا بصفة خاصة) ثم هذه المجتمعات فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية التى أقامت نظام الدولة القومية المستقلة استنادا إلى نمط راديكالى.. مصر والجزائر وشيلي وتنزانيا وغيرها. أو مجتمعات هذا المحيط التابع ذاته حيث تعرضت الحركة القومية للاحتواء أو للحصار فى إطار الاستقلال الشكلى. ثم معظم الدول الأفريقية شبه الصحراوية ودول أمريكا اللاتينية على سبيل المثال. فى كل هذه الأنماط لا تعمل الأشياء بنفس الأسلوب، حتى دخل كل فئة من الفئات الاجتماعية السياسية العظمى التى يمكن تحديدها على المسرح الدولى.

ولذلك فإن "الاستثنائية" ليس بوسعها حتى داخل حدود العقلانية الشكلية للوظيفية أن توفر لنا الإطار النظرى لتفسير العالم الواقعى.

ومن الواضح أن الصعوبة هنا تنشأ من أمرين: أولا من الطريق المسدود الذى تصل إليه الوظيفية بشكل عام^(٢٨). وثانيا من عجز كافة الوسائل الوظيفية المتاحة من جهة، ومن جهة أخرى من محاولة استخدام الاستثنائية من وجهة نظر أوروبية كأساس لجزء واحد من نظرية عامة. ونقصد بهذه النظرية نظرية التكامل الديناميكى التى تتخذ فى هذه الحالة شكلا محددا هو "البديل الاجتماعى". ومن ثم

يكون هدف البحث أساسا هو اكتشاف عامل الإدماج ويصبح هذا الهدف أكثر إلحاحا وضرورة عندما تكون هذه المجتمعات التى يطلب فيها تدخل الجيش هى المجتمعات التى تقع فى منطقة العاصفة حيث تتشكل حركات التحرر الوطنى وتتدلع الثورات القومية والاجتماعية. وحيث تغطى نظرية الاستثنائية على نقطة الالتقاء التاريخى الموضوعى عند تمزيق نظام الهيمنة العالمى لصالح القوى الشعبية الثائرة فى الدول القومية، التى لا تزال تقع فى محيط التبعية. عند هذه النقطة تبدو كافة القوى الاجتماعية.. الطبقات الوسطى والبورجوازية الوطنية والصفوة المثقفة والتكنوقراط التحديثية وكأنها قد امتلكت زمام أمورها على الأقل فيما يتعلق بالدور المنوط بها فى مركز جهاز السلطة. وعند هذه النقطة يبرز دور الجيش كعامل إدماج: كمعلم وكعنصر للتحديث.

٢ - ٤ اللحظة التاريخية للمنهج الوظيفى

يتعين علينا الآن أن نسعى فى إطار تحليل قمنا به فى مجال آخر⁽²⁹⁾ إلى تحديد الدوافع التاريخية سواء على نطاق واسع أو وفقا للشروط المحددة التى يفرضها الحقل العلمى موضع البحث.. تلك الدوافع التى أدت بمجموعة من علماء الاجتماع والسياسة إلى التفضل التلقائى للمنهج الاستثنائى ومحاولة تطوير نظرية وظيفية.

وبما أننا قد انتهينا من مناقشة الدوافع التاريخية والثقافية وراء المنهج الاستثنائى فإنه يتعين علينا الآن أن نحدد العناصر التاريخية التى أتاحت بلورة هذا المنظور عند هذه النقطة فى مجال العلاقات بين الجيش والمجتمع المدنى، وهى تنحصر فى عنصرين: الأول حالة الأمر والواقع التى ترسخت فى الغرب على أساس تقسيم العالم إلى معسكرين: معسكر رأسمالى (حر) ومعسكر إشتراكى كما اتفق فى يالنا. غير أن العنصر الثانى يبدو أقل وضوحا. فالمجموعة الرئيسية من المتخصصين من العنصر العسكرى فى العلوم الاجتماعية كانت - ولا تزال - كما رأينا متمركزة فى الولايات المتحدة. وقد بدأ العنصر العسكرى يتحول إلى قضية فى وقت كانت فيه هذه الدولة قد بدأت ترتدى عباءة الإمبريالية الأوروبية

الكلاسيكية، حتى أن منطقة نفوذها التقليدية ظلت طبقا لما حدده مذهب مونرو فى عام ١٨٢٣ هى العالم الغربى ومنطقة أمريكا الجنوبية والمحيط الهادى. وهى مناطق تبدو دولها مجموعة من الأمم لا تنتمى إلى النموذج الأوروبى أو التقليدى الذى حددنا موقعه قبل ذلك فى سلم أنماط يشمل: "الأمم والدول القومية ذات الأصل الأوروبى التى فرضت على أساس أجنبى متدهور ومتفكك "والأم المنبعثة" والأمم القومية الجديدة ذات التوجه الوحوى، "والدول الجديدة ذات التوجه القومى".

هذه الأمم غير التقليدية تعتبر أما جديدة وذلك نتيجة للنزعة الأمريكية التى اتجهت إلى تطبيق التجربة الخاصة بالولايات المتحدة على كل منطقة خارج حدود العالم القديم.. أى خارج حدود أوروبا.

وفى الوقت ذاته، وبينما كانت العلوم الاجتماعية فى أمريكا تحول إنتاجها إلى العنصر العسكرى فى هذه المناطق التى نشأت فيها التكوينات القومية غير التقليدية كانت هذه التكوينات - الضعيفة البنية - فيما يتعلق بتكامل الدولة القومية والتى كانت قد منحت جذور "طبقة سياسية" بينما تثير مشكلة الهوية القومية⁽³⁰⁾ قلقها - باستثناءات قليلة - هذه التكوينات كانت تمر بمرحلة تفكك وعدم تماسك خطيرة اتسمت بسلسلة من الانقلابات العسكرية المتعاقبة.

كان ذلك إذن هو عصر الكولونيلات.. عصر العدو السريع عبر مسافات شاسعة مفتوحة لا تودى إلى كاليفورنيا. كان ذلك عصر صعود الأوليغاركية العسكرية والكومبرادور. وأخيرا كان ظهور رجال حرب العصابات وراء الجبال وفى عزلة عن الجماهير الشعبية التى ظل مستوى اندماجها القومى والاجتماعى الضعيف يمثل مشكلة دائمة.

هذا إذن هو المعامل Catalyst. وسوف يكون ذلك هو الإجابة النظرية، فالجيش والجهاز العسكرى والعلاقات بين الجيش والقانون سوف ينظر إليها جميعا من خلال هذا المنظور.

ومعنى ذلك أننا سوف نجد استثنائية هذه الدول الواقعة تحت سيطرة الإمبريالية الجديدة المهيمنة للولايات المتحدة والتى كانت فى ذات الوقت المصدر

الرئيسى للبحث فى عنصر العسكرية فى العلوم الاجتماعية.. سوف نجد هذه الاستثنائية فى الجيش، وبواسطته ومن خلاله سوف نصل إلى عقلانياتها التى تفسر فى حد ذاتها وفقا لمعنى وظيفى.

ولأن هذا بالقطع يعد تطبقا مفتعلا غير يسير فإنه يودى إلى أسئلة بلا إجابات ومراوغات وتقديرات استنتاجية - سطحية وما ينتج عنها من فشل نظرى، وذلك رغم التقدم الحقيقى فى تحديد الحقل العملى وطرح الفروض القابلة للتطبيق والقضايا المتصلة.

وهكذا تبقى الإشكالية الأساسية هى: ما هو دور الجيش فى المجتمعات الحديثة؟ وهى ليست إشكالية مقصورة على محيط القارات الثلاث أو منطقة التبعية.

ولذلك - كما قلنا فى بداية هذه الدراسة - فإنه بقدر ما يوضع الجيش فى مركز السلطة لكل مجتمع قومى على حدة بقدر ما تتخذ عملية التركيب النظرى بعدا عالميا. وبقدر ما تجرب التكوينات الاقتصادية الاجتماعية القومية المختلفة منعطفات تاريخية متباينة بقدر ما ينبغى على النظرية أن تأخذ فى اعتبارها أوسع مدى من المتغيرات المستمدة ليس من ظاهرة الاستثنائية، ولكن من مفهوم الخصوصية الذى سننتقل إليه الآن فى محاولة لاستكشافه.

٣ - الجيش فى عملية بناء التكوين القومى

٣ - ١

يتناقض تاريخ المجتمعات الإنسانية مع كل من الاستثنائية الفكرية Cematic والاستثنائية الإقليمية: بل إن تاريخ المجتمعات الإنسانية يشهد على صدق حقيقة أن الجيش كان دائما فى مركز العملية التى يتم بمقتضاها بناء التكوينات الاجتماعية الاقتصادية كتكوينات قومية. أى أنه كان على الدوام جوهر بناء الأمم والدول.

وهذه الفرضية الأساسية التى لا يمكن الاعتراض عليها تجد دليلا وبرهانها فى جيش مصر الفرعونية - وفى الجيش الذى وحد الصبين تحت زعامة هانز وفى بلاد الفرس القديمة. كذلك فهناك دليل على ذلك فى الدول القومية - الأوروبية

الحديثة، فرنسا منذ Vercingetorix حتى نابليون. وبريطانيا العظمى فى عهد كرومويل. وروسيا منذ بيتر العظيم حتى سوفيتيات الجند (١٩١٧) وبولندا قبل هزيمتها، والسويد تحت زعامة تشارلز الثانى عشر. وينطبق نفس الشئ على أرجاء أخرى من اليابان إلى تركيا ومن إسبانيا إلى أنثيوبيا. وفى هذه الدول الضائعة فى أفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية^(٣١).

وكلما كانت المجتمعات الإنسانية تسعى إلى تحقيق وجود متكامل كوحدة قومية حول مركز سلطة يكون هو فى حد ذاته أداة لهيمنة طبقات مهيمنة. كان الجيش هو جوهر هذه العملية ككل، فالجيش كان مثل رأس حربة يقوم بتمهيد الطريق وحماية السلطة القومية ويجوب الحدود، وعندما تثير الظروف قضية الوحدة يكون على الجيش توحيد المكونات المختلفة للكيان القومى حول مركز الهيمنة. ومما لا شك فيه أنه عادة ما كان يتم تنفيذ ذلك باستخدام النار والسيوف، ولكن دائما استنادا على مشروع سياسى قومى، ودائما فى إطار نظرة عالمية شاملة.

٣ - ٢

إن هذه الحقائق وهذه الفرضية ليست لها أية استثناءات فى أية مرحلة من مراحل تاريخ العالم، ومع ذلك فإن العلوم الاجتماعية لن تأخذ منها سوى دور العنف الذى اضطلع به الجيش انطلاقا من رؤية أخلاقية بحتة، وهكذا تنقلص الظاهرة بأكملها إلى مستوى الانحراف اللا إنسانى المستمر. ويصور دور الجيش فى تحقيق الوحدة الاجتماعية الكاملة دورا استثنائيا فى استواء يعتبر كامنا فى أسبقية نشوء المجتمع المدنى بتوجهه الديموقراطى التعددى الإنسانى السلمى العلمانى.

كان هذا إذن هو اتجاه هذا العصر، لا سيما بعد فترة حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ وحيث لم يستطع العالم المهيمن (الغرب) أن يجد وهو يحاول أن يواجه حقبة تاريخية بأكملها (عشرة قرون من الحروب الأوروبية) وسيلة أخرى لتعديل التوازن بصورة دائمة وجذرية بين دوله الأساسية التى حاول هتلر أن يوحدتها فى مواجهة دولة واحدة من بينها اختارت طريق الاشتراكية.

ومع ذلك يظل الجيش فى مركز السلطة. وتستمر الحروب ناشبة فى أرجاء العالم تحت رايات الغرب المتمدين الديموقراطى العلمانى السلمى.. هذا الغرب الذى خاض عشرة قرون من الغزوات الصليبية ضد العالم الإنسانى "الملحد" الذى يتحكم فى المناطق الهامة المحيطة بالبحر المتوسط حيث تلتقى أوروبا بالشرق سواء بأفريقيا أو آسيا.. هذا الغرب الذى ارتكب أعمال القمع البربرية ضد السكان الهنود الأصليين فى الأمريكتين، والذى قام بعمليات الاستغلال التجارى لأفريقيا وبلقنتها وإنشاء الإمبراطوريات الاستعمارية، التى تبعها النظام الإمبريالى وهو نظام كان أول ما ضرب الشرق (أى العالم العربى والإسلامى) ثم الهند والصين، ومعظم أرجاء آسيا.

وليس بخاف أنه فى الفترة التى أعقبت يالتا لا تزال الحروب التى يتورط فيها الغرب هى تلك الحروب التى يخوضها ضد الشرق الثورى الناهض: فى كوريا وفيتنام والهند الصينية وفى مصر والجزائر. ومع ذلك لا تزال العمليات العسكرية البوليسية مستمرة ومتكاثرة بحيث أنها أصبحت تتحكم فى حجم الدمار وتحفظ ماء الوجه فى نفس الوقت. ومثال على ذلك ما حدث فى إيران "مصدق وتودة" وما حدث فى أندونيسيا فى عهد سوكارنو وعيديت Aidit وكوبا الشيوعية وجمهورية الدومينيكان وجنوب أفريقيا وأنجولا وموزمبيق والسودان والأردن والمغرب.

أما فى "فيتنام الشهيذة" وحدها فقد فجرت الولايات المتحدة كمية من المتفجرات تفوق ما شهده العالم خلال فترة الحرب العالمية الثانية كلها. وفيتنام أيضا مثال على هذا النمط من الصراع المحلى الذى يسمح بصيانة وهم السلام العالمى.. فهو سلام يستبعد منظوره العنصر العسكرى من الحقل الرئيسى للمعرفة العلمية والثقافية بقدر ما يستطيعون.

٣ - ٣

إن هذه المبادرة العسكرية التى تأخذ شكل هجوم شامل من جانب الإمبريالية المهيمنة على مستوى عالمى شامل تصبح أكثر حتمية أمام ظهور حركات الاستقلال الوطنى فى محيط التبعية لا سيما فى الشرق إلى جانب أمريكا اللاتينية وبعض أنحاء أوروبا.

ومن الطبيعى أن نمو الحركات الوطنية سواء اتخذت شكل بناء دول جديدة ذات توجه قومى أو شكل الانبعاث لأقدم الأمم فى العالم - وهو أقصى أطراف التكوين الاجتماعى القومى - لا يتأتى إلا بعمل مشترك لكل من جماهير الشعب والدولة القومية المستقلة.

ولذلك فإنه يصبح من الطبيعى أيضا أن يجد الجيش نفسه فى قلب هذه الأزمة الصعبة، حيث أنه يضطلع فى التحليل النهائى بمهمة حماية استقرار مؤسسات الدولة القومية واستقلالية سلطة القرار لديها وعلى أنه جيش الشعب الذى يناضل من أجل تحرره وثورته. ومن هنا نجده يضطلع بالدور التقليدى للمؤسسة العسكرية فى نفس الوقت الذى يتحمل فيه وظيفته كحامل رسالة المستقبل. والصين ومصر هنا مثلان واضحا.

وهكذا يصبح الجيش الآن وأكثر من أى وقت مضى جوهر وطلبة الجداية الاجتماعية فى أنحاء العالم، سواء جيوش القوى الإمبريالية المهيمنة التى تقوم بمهامها فى الخارج ومن ثم فهى تعمل على حماية أو هام المجتمع المدنى الإنسانى المسالم من جهة، أو من جهة أخرى جيوش الحركات الوطنية فى أرجاء المحيط التابع سواء كان محيطا منبعئا أو فى حالة ثورة والذى يأخذ شكل جيش الدولة أو القوات الشعبية.

كل هذه الضغوط تفسر ظهور "علم اجتماع العسكرية" لفهم الثورة الطائشة لما كان يعتبر استثنائيا وغير عادى فى محيط عادى طبيعى.

٣ - ٤

وهكذا كما رأينا يبرز "علم اجتماع العسكرية" عندما يقتحم الجيش مرة أخرى حقل الرؤية العلمية. ومن هناك يتقدم سواء فى محيط الهيمنة أو فى المحيط الثورى التابع فى اتجاه رد منطقى مألوف.

٣ - ٤ (أ)

إذا سلمنا بأن الجيش يقوم دائما بدور إيجابى تقدمى فى النضال الوطنى ضد الإمبريالية، فإننا سنحاول أن نقيم معادلة بين هذا النمط من الجيش وجيوش الدول

المهيمنة. وفى كلتا الحالتين سوف يعتبر الجيش جماعة اجتماعية محايدة تؤدي وظيفتها وتستجيب لمؤثرات وضغوط وتقاليد واحتياجات متشابهة. وفى هذا الإطار تستخدم الوظيفية لتبرئة الجيش فى الدول الإمبريالية حيث تفسر أعمال القمع والمذابح وحتى الإبادة على أنها مجرد اضطرابات تحدث أثناء أداء النظام الاجتماعى لوظيفته وهو النظام الذى بإمكانه تلبية كافة الاحتياجات.

ولذلك فإن التحليل الوظيفى يلقى قناعاً على المضمون الاجتماعى السياسى للمؤسسة العسكرية وهى تعمل فى بيئة قومية متباينة للغاية وفى مواقف زمنية مكانية مختلفة.

٣ - ٤ (ب)

إذا كانت نقطة البداية لدينا هى الدور الأسمى للجيش كمؤسسة مهمتها حماية النظام الاجتماعى بمعناه الواسع فى أية دولة قومية معينة. فإنه سيكون من الممكن دائماً العودة إلى نفس الرأى السائد القائل بأنه فيما يتعلق بالقوات الشعبية أو جيش الدولة التى تخوض نضالاً من أجل الاستقلال والثورة هناك نفس المعامل السلبى الذى يعد مقبولاً بالنسبة للجيش فى الدول المهيمنة. غير أن هذه المناقشة تؤدي فى أكثر أشكالها المتطرفة الفاضحة إلى نفس رد الفعل الراض الذى عبرت عنه القطاعات التقدمية العريضة فى الغرب تجاه دور الجيش فى الصين الشعبية خلال فترة الثورة الثقافية⁽³²⁾. فقد نظرت هذه القطاعات إلى الكوادر التى تكونت من الفلاحين المسلحين والعمال المثقفين الذين بنوا الثورة طوال نصف قرن من النضال حتى المسيرة الطويلة وبمجرد أنها نظمت نفسها فى الجيش الشعبى على أنها متطابقة مع الجيش فى الدول الإمبريالية. وهنا يلعب التفسير التروتسكى دوراً رئيسياً إذا سلمنا بكرههته للدول الاشتراكية وجهاز السلطة فيها طالما كانت هذه الدول تمتلك بناء بيروقراطياً، أى شكلاً من أشكال التنظيم الذى يضطلع بمسؤولياته أمام الجماهير الشعبية على مستوى إقليمى.

غير أن هذا الغموض وهذه المتناقضات ليست نتيجة الصدفة، فنحن نؤمن تماماً بأنها تعد نتيجة مباشرة لوجود حقل علمى محدد خاص بعلم الاجتماع

العسكري، وذلك لأن دراسة العنصر العسكري ينبغي أن تكون جزءاً طبيعياً مندمجاً في علم الاجتماع السياسي وسوسيولوجيا الحركات الوطنية. وعندئذ فقط نستطيع أن نبدأ في تفسير الطابع الانحرافي للعنصر العسكري وذلك بوضعه في إطار بينته الموضوعية في العالم الواقعي.

ومع ذلك فإن هذا المنهج هو الذي أعطى هذا الطابع العلمي لتلك الأعمال التي أثرت في تحديد اتجاه العلوم الاجتماعية على مستوى أكثر شمولية، بينما ظل البحث في علم اجتماع العسكرية يركز طاقاته على تكييف وسائل الاتصال بالجماهير ولا سيما الصحافة.

٣ - ٥

إن دراسة الجيش ينبغي أن تعالج في إطار علم اجتماع السلطة. وبما أننا قد اخترنا أن نضعه في طليعة العملية التي تتشكل بمقتضاها التكوينات القومية فإنه سوف يوفر لنا أيضاً الفرصة لأن نضيف إلى هذا الإطار الشامل علم اجتماع الحركات الوطنية. وإنه مما يستحق الإشارة إليه هنا أن التحليل سوف يتبلور في إطار مفهوم الخصوصية.

والمشكلة في واقع الأمر تتلخص في الآتي: كيف لنا أن نبرر الاختلاف الملحوظ في الدور الذي يقوم به الجيش في دولة متشابهة وفي إطار تكوينات اجتماعية اقتصادية استطاعت بكل وضوح أن تحقق نفس مستويات التنمية الاقتصادية؟ ثم كيف نفسر على سبيل المثال التباين بين دور الجيش في اليابان وبريطانيا العظمى، في البرازيل والمكسيك، في مصر وتركيا، في الصين وبولندا، في نيچيريا وجمهورية مالاجاش، في الولايات المتحدة وألمانيا؟

إننا إذا استخدمنا المنهج الوظيفي لمعالجة هذه المشكلة فإننا لن نتوصل إلى إجابة شاملة، وسوف يقتصر الأمر في النهاية على التفصيلات الإحصائية والسلوكية التي يهتم بها علم الاجتماع العسكري.

ولكننا من جهة أخرى إذا افترضنا وضعاً تاريخياً نقدياً يقوم على أساس تصور الخصوصية، فإنه يصبح من الواضح على الفور أن الجيش ليس كياناً

مجردا - فى أفة عفة معرفة - منعزلا عن الأساس الملموس الذى فوفد وفعمل فى إطاره^(٢٣). ولكنه بالقطف عنصر فكوفن مندمف فى الفكوفن الالفئماى الفافئفاى ككل، وفشكل المهور الأساسى للسلطف.

وفى هفه الفالة فإن الففلل سوف فشر إلى المففمف القومى فاففه، وسوف ففظر إلى الففش من فلال هفا الإطار الشامل، لفس ببسافطف "كفش" فقط ولكن كفش قومى فى مففمف قومى معفن وعنف مرطفة معفنة من مراحل فطوره الفافرى، ثم فوفض فلك فى إطار عملفة الفطور الفافرى ككل.

وبمفرد أن ففم فففد فصوصفة هفا المففمف القومى ككل فإنه سوف فكون بالإمكان الفركفز على شكل الفكوفن القومى المعفن وعلى أسلوب الفحول من فكوفن الفئماى افئفاى إلى أفر (من الفففاىفن إلى الرأسمالفن على سبفل المفال). وفى إطار هفه الفائرة فكون بالإمكان أن ففظر إلى الأسالفف الفاصة الفى ففشكل بها سلطة الفولة. وعنفئذ فكون من الممكن أفا أن ففد مغزى لعناصر أفرى مثل فصل السلطة بالنسبة للففجه العلمى والفقفى للفش الفرنسى، والفعافش بفن سلطة الفولة الفى فضم العنصر العسكرى والكفاءة الفافئفاىة والأفففولوجفة القومفة فى مصر، والفور الأصلى للفش فى الإمفالف ونقل الفنوف وإفوافهم فى البرازفل وأفونفسفا، والفور الرئفسى للفش فى ففلفة الشعبفة والاستفءاففة فى روسيا، وسفطرة فزعة الانفلافاف العسكرفة، أو العمل المفشرك مع القوى الموفوءة مفاففن الففمنة عنف بعض ففوش الفول فاف الفففجه القومى والطابع الوحفوى والشعبى الذى مفز الففش فى الصين وفففام فى بعض الأفواف والفففجه البطولى الفعلمى للفش فى كوبا والمؤسسة العسكرفة الصناففة فى فقفبة الفورة الففولوجفة والعلمفة فى الولافاف المففءة... إلخ.

ولسنا نقصف هنا أن نقول بأى فال أن السلطة السفساففة وبالفالى الففش ممفزان فى طابعهما الأساسى فى أى من هفه الفول، ولكن الأمر ببسافطف هو أن عملفة الفطور الفصوصفة لكل فولة لها فاففرافها على الفور المنوط عادة بالففش فى فلك الفولة، على أن فكون مففوما بوفضوف أن الففش فشكل فى كل الفالات

المحور الأساسى لسلطة الدولة لحظة إنشائها، وعند تلك النقطة التى يتحول فيها كل تكوين اجتماعى اقتصادى إلى أمة منبعثة جديدة وموحدة. ورغم أن المصطلح مشترك، إلا أنه سوف يتضح أن لدينا هناك شيئا مشتركا بين جيش الكومبرادور الذى يقوم على حماية المصالح المشتركة للإمبريالية وحلفائها وعملائها من الأهالى الأصليين من جهة وبين مؤسسة عسكرية نشأت نتيجة تراث تميز بالرغبة فى تحقيق استقلال الدولة القومية، أيا كانت حدودها: الجيش اليونانى أيام الثورة المضادة (١٩٤٥ - ١٩٤٩) والجيش الذى قدر له الاستيلاء على السلطة بعد عدة سنوات فى مصر، والجيش الذى قاده أتاتورك فى حرب الاستقلال (١٩١٩ - ١٩٢٣) والجيش الذى يطارده الليبرالية فى جواتيمالا وبارجواى وأفريقيا البرتغالية. والجيش الذى برز أثناء المسيرة الكبرى وجيش دولة ظل دائما على هامش جميع الصراعات على مر التاريخ مثل جيش سويسرا. وهكذا يتضح أنها جميعها مختلفة للغاية يصعب حصرها فى نمط أو تعريف أو وظيفة سياسية مشتركة.

٣ - ٦

نستطيع الآن أن نرسم سلم أنماط مبدئى استنادا إلى العلمية التى يتم بمقتضاها بناء الأمة كالاتى:

٣ - ٦ (أ)

الدول ذات معامل عال لاشتراك العسكرية فى الحياة الاجتماعية وهذه المجموعة تضم مجموعتين فرعيتين:

١ - الدول القومية الواقعة فى محيط التبعية التى تناضل من أجل التحرر وتحقيق ثورة قومية واجتماعية. وهذه المجموعة تضم المحيط القارى الثلاثى بأكمله لكنها تضم بصفة أساسية، تلك التكوينات القومية التى تتمتع بعمق تاريخى عظيم، أو بالأحرى الأمم القديمة التى تسعى فى مرحلة تكوينها القومى إلى تحقيق نهضة قومية وليس مجرد استقلال بسيط.

٢ - الدول الإمبريالية المهيمنة التى أثرت الدخول فى نشاط إمبريالى فعلى على مجرد حماية ممتلكاتها القديمة^(٣٤).

٣ - ٦ (ب)

دول ذات معامل ضعيف لمشاركة العسكريين في الحياة الاجتماعية. وهذه المجموعة تضم أيضا مجموعتين فرعيتين:

١ - الدول الجديدة ذات التوجه القومي في المحيط التابع، والتي تركز اهتمامها على بناء نفسها أكثر من التركيز على المواجهات، مع التسليم بأن إمكانياتها كأمة تبدو وكأنها ليس لها جذور عميقة جدا.

٢ - هذه الدول الواقعة في محيط الهيمنة التي تعنى بصيانة مكاسبها السابقة أكثر من التورط أكثر من التورط في مسار عدواني إمبريالي فعلى.

٣ - ٦ (ج)

سوف يظل نموذج الأنماط الذي حددناه على هذا النحو صالحا للتطبيق على نطاق المسار المنظور لعملية التطور، رغم أنه من المسلم به أن أى انفجار مفاجئ قد يؤدي إلى تدخل الجيش حتى في تلك الدول التي تبدو بعيدة جدا عن التراث العسكري.

إن هذه الخطوة التحليلية الأولى تقودنا بالضرورة وبشكل مباشر إلى مشكلة السلطة، أى إلى قضية الدولة.

٤ - الجيش وممارسة السلطة المهيمنة

٤ - ١

لقد اشرنا مرارا إلى هذا الستار الدخاني الذي يثار في محاولة لحجب دور العنف في ممارسة السلطة. ولذلك ينبغي علينا الآن أن نأخذ في الاعتبار عنصرا حديثا هو استنزاف المناقشات القديمة حول الطابع الأساسي غير العنيف لسلطة الدولة بدءا بالليبرالية الفلسفية الكلاسيكية، وانتهاء بفلسفة المجتمع المفتوح التي أثارها مؤخرا كارل بوبر، وفي ذات الوقت الذي كانت فيه الدولة الأتوقراطية تسير في طريق النمو الكامل في كل من أوروبا وأمريكا الشمالية^(٣٥). كان هذا التطور يسهم بشكل مباشر في جلاء ووضوح العنصر العسكري.

ولا يسع المرء إلا أن يندهش وهو يرى كيف وبأى قدر من التشويش استطاعت الدول القومية فى أوروبا الرأسمالية الاستعمارية أن توهم، أو بالأحرى أن تفرض على العالم وهم الطابع الليبرالى المدنى الإنسانى المسالم للدولة.

فمنذ عصر الثورات (البورجوازية) الكبرى بداية من الثورة الفرنسية وانتهاء بتحطيم النظام الرأسمالى العالمى باندلاع ثورة أكتوبر وبعد ذلك تحطيم النظام الإمبريالى الكلاسيكى فيما بين أزمة (١٩١٩ - ١٩٣٢) وحرب (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وحتى الانفجار الأخير الذى أحدثه بعث الشرق تحت تأثير الصين الشعبية.. خلال كل هذه الفترة كان تاريخ سلطة الدولة فى العالم أجمع هو تاريخ التنظيم العقلانى المضطرد للعنف كأداة لحماية استمرارية هيمنة الطبقات والمجاعات الاجتماعية المسيطرة فى الدولة القومية. ولذلك فسوف يبدو أنه فى الإمكان العثور على تفسير ذلك فى فترة التوافق الأوروبية. وهى تلك الفترات من التاريخ الحديث التى أُلقت فيها الدول الأوروبية مؤقتًا بسلاحها ووافقت على التعايش فى إطار سلام دائم هش بدءًا من معاهدة فينا (١٨١٥) إلى الحرب الفرنسية البروسية فى عام ١٨٧٠، ومن سحق كوميون باريس حتى حرب (١٩١٤ - ١٩١٨) ومن معاهدة فرساي، (١٩١٩) إلى ميونخ (١٩٣٨). ثم فى أوروبا الغربية وبتأييد من الولايات المتحدة، وحتى فى أمريكا الشمالية ذاتها بعد عام ١٩٤٥.

خلال هذه الفترات استطاعت دول أوروبا والغرب الرأسمالى أن تقبل إنشاء مناطق تكاد تخلو من العنف على أراضيها، بينما كانت تحتفظ فى الوقت ذاته بهيمنتها على العالم. ومع ذلك فقد كان هذا السلام المدنى مصحوبا دائما بتفجير العنف الدموى ضد الأعداء من الشعوب الوطنية (كوميون باريس، وقمع الثورة الروسية الأولى فى عام ١٩٠٥، والثورات الألمانية والمجرية التى اندلعت فى أعقاب ثورة أكتوبر لعام ١٩١٧). كذلك كان هذا السلام مصحوبا دائما بالممارسات المستمرة المنتظمة للعنف فى المستعمرات وشبه المستعمرات والأراضى الخاضعة للتبعية فى آسيا وأفريقيا وأستراليا وأمريكا اللاتينية، وهكذا ساد السلام المدنى

داخليا، بينما استمر العنف ضد جميع الأعداء سواء على الساحة الداخلية أو على الساحة الخارجية. واستطاعت الدولة أن ترى نفسها كدولة السلام المدنى المتاح فقط، ولكن الثمن كان نوعا من التثويه النظرى والأيدىولوجى الذى كان يستند إلى رغبة عارمة فى إخفاء الطابع الطبقي للسلطة من أجل تعزيز وهم تقسيم السلطات، أو هذا الوهم الذى يعطى أولوية للحرية الفردية الشكلية على الحريات الجماعية. ومن هنا جاءت النظريات المثالية حول الدولة حتى العصور الحديثة.

ومع ذلك فقد كان لا بد أن يودى انهيار النظام الإمبريالى الكلاسيكى فى عام ١٩٤٥ ثم انتصار الاشتراكية فى الجزء الأعظم من آسيا فى نفس الوقت الذى كانت تمر فيه الدول الاشتراكية الأوروبية بعملية البناء.. كان لا بد أن يودى كل ذلك إلى انهيار مواز للنظريات المثالية بشأن الدولة. وفى عالم أمكن توحيد أخيرا على نطاق شامل أصبحت التجربة الحية للعنف - سواء العنف المنظم فى الدول المهيمنة أو العنف الهمجى فى الدول التى أخضعها الإمبريالية بقوة السيف - تشكل جزءا من التجربة اليومية لكل البشر فى جميع أرجاء العالم، ولم يعد هناك الآن ما ينقذ نظريات الحقبة الجميلة وهى تلك الحقبة التى حققت فيها الدول الرأسمالية تقدمها تحت ستار الإنسانية الليبرالية المتمركزة فى الغرب.

عنف بالغ وانتهاكات لا حصر لها... ونماذج فيتنامية عديدة... وبدأت الشعوب تدرك تدريجيا حقيقة سلطة الدولة... والعنف الذى كان بالأمس من فعل الشياطين كشف عن نفسه اليوم... إنه أداة الموت الجماعى ووسيلة لخلق عالم جديد. وهكذا فإنه يتحول إلى جزء من رؤية عامة شاملة لعالم يشكل أو لمشروع حضارى يتيح للشعوب فرصة انتزاع حق تقرير مصيرها.

ولقد كان لهذا التطور الذى شهدته الروح العامة نتائجه الواضحة فيما يتعلق برؤية الدور الرئيسى للعنصر العسكرى فى ظاهرة السلطة. حيث أصبح ينظر الآن إلى هذا العنصر من منظور يتسم بالواقعية أكثر منه باليوتوبية حتى أنه يبدو من الطبيعى تماما أن يحتل الجيش مكانا رئيسيا فى جهاز العنف المنظم الذى هو جوهر طبيعة السلطة والدولة.

ولكن ما هي إذن هذه السلطة وهذه الدولة في المرحلة الراهنة من التطور التاريخي للمجتمعات الإنسانية؟

٤ - ٢

كانت نظرية السلطة السياسية التي تتجسد من خلال وسيط الدولة محل دراسات قليلة في العصور الحديثة^(٣٦). بل إن هذه الدراسات كانت مقصورة على التجربة الغربية، في الوقت نفسه الذي كانت "الدولة" كواقع تنمو فيه داخل الإطار العام للسلطة السياسية في اتجاه عمق غير مرئي في أرجاء الشرق ومحيط القارات الثلاث بصفة عامة. ومع ذلك فإنه يبدو من الصعب في حدود هذا الإطار البحثي أن نحدد خطة تحليلية دقيقة لهذا التطور الذي كانت جوانبه النظرية المبكرة موضوع بحثنا منذ عام ١٩٦٢.

٤ - ٢ (i)

إن العامل الأساسي في هذا التطور هو ظهور الخصائص الشاملة الكلية لهيمنة سلطة القرار على كل المستويات كما تمارسها الدولة المعاصرة لمصلحة طبقة أو عدة طبقات أو مجموعات اجتماعية، وذلك كبديل لدولة ذات طبيعة محدودة تتركز على ممارسة العنف المنظم تأييدا لهيمنة طبقة أو عدة طبقات أو مجموعات اجتماعية.

وعلى مدى المرحلتين العظيمتين للتاريخ الحديث... مرحلة الثورة الصناعية، ومرحلة الرأسمالية الكلاسيكية، ثم المرحلة الأحدث للثورة التكنولوجية العلمية.. على مدى هذه الفترة كانت الخصائص الأساسية لسلطة الدولة أو جوهر هذه السلطة كما هو يؤكد على هيمنة قطاعات مختلفة من البورجوازية من خلال ممارسة العنف المنظم. وفي حالات أخرى يكفي أن نستبدل مصطلح "البورجوازية" بمصطلحات أخرى تعبر عن الطبقات المالكة السابقة عليها في التكوينات الاقتصادية الاجتماعية القومية في الغرب.. مجتمع الإقطاع وامتلاك العبيد، وذلك حتى نصل إلى تركيب نظري صادق لسلطة الدولة داخل مجتمعات الطبقة.

غير أن القول بذلك وإثباته على نحو واف ليس سوى بداية. فالواقع أن الدفعة القوية التي أخذتها وسائل الإنتاج أو التكنولوجيا بالمعنى الشامل لها والعلوم الرياضية والطبيعية (من خلال الحروب والثورات) على مر أكثر من قرنين، بدءا من عصر الموسوعيين حتى عصر الثورة الثقافية قد أدت إلى تحولات عميقة في العالم على كافة المستويات.

وخلال فترة الرأسمالية الكلاسيكية استطاع القطاع الخاص أن يضمن التنمية الضرورية بتقدم الاقتصادى. وغالبا كما كان التقدم العلمى والتكنولوجى يستمر فى إطار هذا القطاع الديناميكي. أما الثقافة بدورها فقد كانت لها جذورها فى ذات الأرضية حيث عبرت من خلال الفردية عن تطلعات الفلسفة المثالية وأفضلياتها فى البورجوازية الجديدة على سبيل المثال. وباختصار كانت الدولة تمارس وظيفتها المهيمنة بصورة مباشرة على القطاع السياسى الخصوصى، وعلى دعم النظام الاجتماعى كما تحدده الطبقات الحاكمة. ومن هنا كان للقطاع السياسى الخصوصى ولجهاز الدولة هذا الوضع المتميز. وليس معنى ذلك أن الدولة قد فشلت فى الاهتمام بالاقتصاد والثقافة. فقد كانت تفعل ذلك دائما وبصورة فعالة للغاية. غير أن هذه المجالات لم تكن أبدا محل اهتمامها الرئيسى، وذلك لأن الرأسمالية الليبرالية.. كانت تبدو هى ذاتها وكأنها تمتلك أدوات انتشار هذه المجالات الأساسية للديناميكية الاجتماعية.

غير أن الأمور اختلفت فى السنوات التالية بصورة كبيرة بعد أن سيطرت الإمبريالية المهيمنة والحركات الثورية وحركات التحرر والثورات الاجتماعية والوطنية العظيمة على هذه الحقبة. وأيضاً بعد الثورة فى مجال العلم والتكنولوجيا. فقد شهد العالم تحولات بعيدة المدى تمثلت فى القضاء على غموض العالم وشمولية العلاقات الدولية والوظيفة المعجلة للصناعة الكيميائية والكهرباء والطاقة النووية والإلكترونيات وانتشار وسائل الإنتاج الحديثة التى أصبحت لا غنى عنها للمسيطرين على هذه الصناعات الجديدة وعمالهم فى نطاق واسع.. هذه التحولات جعلت من الحتمى اللجوء للحاجة التقليدية، إلى الوصول بترشيد توظيف المجتمعات

والجدلية الاجتماعية إلى مستوى غير معروف حتى الآن يستطيع فى نفس الوقت أن يتحكم فى مستقبل العالم كله وأن يوجهه ويخططه.

لقد كان على أساس هذه الاحتياجات الجديدة التى نشأت نتيجة تطور العلوم والتكنولوجيا نفسها أن طرحت مشكلة السلطة بمفاهيم جديدة فى الفترة ما بين ١٩١٧ - ١٩٤٥ ولا سيما فى أعقاب الأزمة الاقتصادية العالمية فيما بين (١٩٢٩ - ١٩٣٢). Volens nolens. وهكذا أصبح واضحاً للجميع أن المراكز التقليدية (الكلاسيكية) لسلطة القرار فى المجتمعات الرأسمالية لم تكن فى وضع يمكنها من احتواء هذه العملية الواسعة بالقوة اللازمة.

وقد يبدو ذلك عن بعد وكأنه المغزى الحقيقى لظهور أربع حركات مختلفة لسلطة الدولة المعاصرة وهى حركة الاشتراكية الماركسية، وحركة الإصلاحية الكانزنية (نسبة إلى جون منيارد كينز John Maynard Keynes) عالم الاقتصاد الإنجليزى، والمؤسسة العسكرية الصناعية وحركة الـ Statism ذات التوجه الاستقلالى.

ومع ذلك فقد بدأت الدولة وجهازها بأسلوب تعارضى - تكاملى فى إحكام قبضته على ثروة متزايدة أبداً من المعرفة وسلطة دائمة النمو لاتخاذ القرارات الأساسية، ووصلت تدريجياً إلى مستوى تخطيط الحياة الاجتماعية وتوجيهها ككل. وب نفس الأسلوب التعارضى التقاربى لا يبدو أن الحاجة إلى العقلانية القصوى التى تفرضها مركزية السلطة - أى الدولة - قد استطاعت أن تستحوذ على المركز غير الدولانى لاتخاذ القرار فى أى مكان.

ولكن هل تتناقض المؤسسات المتعددة الجنسية مع هذا التوكيد؟

إن هذه المؤسسات يقوم على توجيهها فى الأساس رأس المال الاحتكارى الأمريكى - مع شركائه - الذى يمارس سلطة القرار من خلال المؤسسة العسكرية الاقتصادية، ويجد وسائل التنفيذ فى جهاز الدولة الإمبريالية المهيمنة التى تجد دورها سندا من أجهزة الدول التابعة وتنوع أنشطتها من خلالها^(٢٧).

إن هذا التحول فى طبيعة السلطة ذاتها وأداتها (الدولة) يمكننا من تبرير الدور الجديدة المنوط بالجيش الذى هو المحور الرئيسى للدولة. فالجيش لا يجد نفسه فى قلب كل مرحلة سياسية اليوم لمجرد التعويض عن غياب أية طبقة أو مجموعة اجتماعية معينة. ولكنه يضرب بجذوره أصلا فى تطور التركيب الداخلى للتكوينات الاجتماعية الاقتصادية القومية فى عصرنا الحالى، أيا كانت أيديولوجيتها والتي سلمت الدولة السلطة المركزية لاتخاذ القرار فى كافة مجالات الحياة الاجتماعية التى هى مسئولة عن صيانتها وتنميتها. سواء كانت هذه المجالات اقتصادية أو هيمنة سياسية أو ثقافية أو أيديولوجية أو صور الحياة اليومية.

... هذه هى القضية الرئيسية لعلم الاجتماع السياسى فى عصرنا الحالى. وهذا هو الأساس الموضوعى لظهور عنصر العسكرية - من خلال إطار واسع ومتميز إلى أقصى حد - فى جوهر الجدلية الاجتماعية. فضلا عن ذلك فإن هذا هو الإطار الذى يصبح من الممكن من خلاله أن نعالج كافة التناقضات بين الجيش والمجتمع.

٤ - ٢ (ب)

أما المظهر الثانى من مظاهر تطور الدولة المعاصرة فهو الحاجة إلى التمييز بين الوسائل المحددة التى يتم وفقا لها تركيب الجدلية الاجتماعية فيما يتعلق بممارسة سلطة القرار.

إننا إذا نظرنا إلى الدول الغربية الرئيسية فسوف نجد تنوعا طبقيًا مدهشا فى القوى المنغمسة فى الصراع على السلطة. فنجد بريطانيا العظمى والدول الإسكندنافية حيث استطاعت الأحزاب السياسية أن تؤسس نفسها فى مجرى عملية تاريخية ممتدة. وفى نفس الوقت وبصفة أساسية فى وجه غزوات أجنبية عادة ما تؤدي إلى تصلب الدولة كملجأ أخير ومأوى لا بديل عنه. وهكذا يظل دور هذه الأحزاب مهما فى عملية صنع القرار السياسى، وإن كان لا يزال أقل أهمية مما كان عليه حتى منذ نصف قرن مضى.

أما فى الدول الحديثة التوحيد نسبيا فإن جهاز الدولة المركزية يتمتع بوضوح بوزن مهم إلى حد ما: غير أن النضال الطويل من أجل الوحدة (خاصة فى إيطاليا

وألمانيا) يكشف عن مدى عمق الخلافات الموجودة، ويفسر المغزى النسبي للأحزاب السياسية الإقليمية في هذه الدول (وخصوصا الحزب المسيحي الاشتراكي الألماني في بافاريا، والحزب الشيوعي الإيطالي في الأقاليم الوسطى والجنوبية التي تمكنت من تحقيق وحدتها، إلى جانب المافيا الأداة التحريرية الوحيدة الجنوبية).

أما في فرنسا وهي البلد الذي تمتع بفترات طويلة من الوحدة وكان ضحية غزوات عديدة، فقد كانت الدولة هي العمود الرئيسي للبناء السياسي بأكمله منذ فترة ليست بقصيرة قبل ظهور اليقوبيين (Jacobins). وقد كان للأحزاب فيها دور أبعد ما يكون عن التفاهة، ولكن فقط إلى الحد الذي يمكنها فيه أن تقدم بديلا وطنيا للدولة (كما استطاع أن يفعل الحزب الشيوعي إبان فترتي الجبهة الشعبية والمقاومة على وجه الخصوص).

وأخيرا نجد عند الطرف الآخر للولايات المتحدة حيث لم يكن للحزبين الرئيسيين (الديموقراطي والجمهوري) سوى القليل من الوزن. فالسلطة في الواقع تركزت في أيدي المؤسسة العسكرية الصناعية. أو بمعنى آخر اشتركت مؤسسات الاحتكار وجهاز العنف المنظم في ممارسة السلطة. ذلك لأن الولايات الأمريكية قد تشكلت من خلال المؤسسات الاحتكارية والجيش في حروب الانفصال، وبعد ذلك تحت لواء الإمبريالية المهيمنة. وقد تم ذلك في غضون فترة قصيرة نسبيا.

ورغم أن الأحزاب في الولايات المتحدة لها شعبيتها الوطنية بكل تأكيد، إلا أنه ليس هناك سوى القليل جدا من تلك الأحزاب أو التكوينات السياسية التي تعمل على المستوى الإقليمي أو على مستوى أي من الولايات الفيدرالية: فالمعروف أن الإحساس القوي بالانتماء إلى طائفة إلى جانب الانتماء إلى الأمة أقوى بكثير من الولاء الحزبي.

أما في الدول الاشتراكية الغربية فهناك عملية موازية من التمايز حيث انعدمت تقريبا تجربة تعدد الأحزاب في الاتحاد السوفيتي الذي ورث التقاليد المركزية للإقطاعية العنصرية، بينما تشهد الدول الاشتراكية الأوروبية الأخرى

تعددا للأحزاب الديمقراطية إلى جانب الحزب الشيوعي الحاكم. وهنا أيضا يجد المرء عملية مختلفة سارية فيما يتعلق بالمجموعة الرئيسية (تداخل الحزب الشيوعي مع جهاز الدولة) في إطار حزب الدولة، الذي يختلف جذريا عن جميع الأحزاب في الدول الرأسمالية.

ولكن الشرق يختلف هنا أيضا حيث يجد المرء نموذج الدول الاشتراكية الغربية: التعددية حول الحزب الشيوعي في الصين وشتيتام. والحزب الواحد في كوريا الشمالية ومنغوليا. نجد أيضا في الشرق نظاما تسير موازية لتلك النظم الموجودة في الغرب الرأسمالي، رغم أنها تعطى الدولة في جميع الحالات دورا ممتدا (والهند أوضح مثال على ذلك). كذلك فهناك في الشرق دول تابعة أو شبه تابعة تحت قيادة عسكرية، وحيث يخضع حزبها الواحد لسيطرة الجيش أو للمؤسسة العسكرية.

أما أمريكا اللاتينية فهي تقدم لنا صورة أكثر تنوعا من كافة النماذج الغربية إلى جانب نموذج الدولة القومية الضعيفة جدا ومحاولات بناء حياة سياسية اجتماعية حول دول من النمط الحديث.

لقد كان هدفنا من سرد هذه النماذج القليلة ليس رسم نموذج لأنماط السلطة السياسية في عالمنا المعاصر، ولكن لنصور إلى أى مدى اختلف التطور التاريخي والتركيب الأصلي لجهاز السلطة السياسية من أقصى الدنيا إلى أقصاها.

ولهذا السبب ذاته فقد استعرنا من خلال منظور مقارن شامل مفهوم جرامش (أنطونيو جرامش مفكر الحزب الشيوعي الإيطالي (١٨١٩ - ١٩٣٧) عن "الطبقة السياسية" لنرمز إلى الجوهر الرئيسى لممارسة سلطة الدولة في كافة التكوينات القومية الاقتصادية الاجتماعية. وتتكون هذه "الطبقة" من: كوادرات الطبقات المسيطرة والمجموعات الاجتماعية وأحزابها وأجهزة الدولة وكوادرات الطبقات المهيمنة والمجموعات الاجتماعية وأجهزة أحزابها المتورطة في صراع على السلطة وتصور كليهما لاحتمالات تحويلها إلى دولة.

وفى إطار هذه "الطبقة السياسية" تستحق الأدوار المتتالية للعناصر التركيبية المختلفة اهتماما خاصا. وتشمل هذه العناصر: الأحزاب وأجهزة الدولة والمؤسسات العسكرية والجماعات الأيديولوجية والمدنية والدينية الأساسية... الخ.

ولكن كيف يفيدنا هذا التصور الجديد للتركيب التاريخي الخصوصى لسلطة الدولة؟

إنه بعبارات دقيقة يسمح لنا بالإجابة على أسئلة محددة حول أسباب اختلاف دور الجيش اختلافا جذريا فى أنماط المجتمعات المختلفة.

إنه لمن الواضح على سبيل المثال أن الجيش يلعب دورا أساسيا فى تكوين السلطة السياسية فى الدول التى لم تعرف تقليد ما يسمى (التعددية السياسية) سواء كان ذلك بسبب احتلال الدولة للمركز الرئيسى لعدة قرون (مصر، فارس، الصين، اليابان) أو بسبب النشأة الحديثة للدولة القومية (نيجيريا، البرازيل، باكستان، أندونيسيا) كذلك فإنه يلعب دورا رئيسيا فى تلك الدول التى يكمن تراثها الثقافى القومى فى اندماج السلطة الروحية بالسلطة المدنية، كما هو الحال بالنسبة للإسلام.

أبضا يلعب الجيش دورا مماثلا (بالمعنى التاريخى والأيديولوجى) فى الدول التى تكون فيها سلطة الدولة نتاجا مباشرا للنضال الشعبى المسلح تحت قيادة حزبها الثورى كما هو الحال بالنسبة للصين وفيتنام وكوريا وكوبا.

وهكذا فإنه ليس هناك فى واقع الأمر سوى مجموعة قليلة من الدول فى أوروبا الغربية إلى جانب أمريكا الشمالية - وهى الدول التى مارست نفوذ الهيمنة على تاريخ العالم منذ عصر النهضة وحتى يالنا - التى استطاعت أن توفر الظروف الضرورية لإقامة نظام سياسى تعددى بالمعنى الحزبى. وبذلك أحالت دور الجيش إلى دور ثانوى نسبيا يخرج منه فجأة كلما تفجرت الأزمات، الحروب، الغزوات الاستعمارية والثورات.

إنه إذا تحقق البناء التاريخى للسلطة السياسية فى أعقاب فترة غزو أو سيطرة أجنبية طويلة أو متوسطة الأجل، فإن الطبقة السياسية تبرز كطبقة مدنية مهيمنة

وإن كان يدعمها جهاز الدولة الذى يعد الجيش محوره الأساسى. وفيما عدا ذلك فإنه فى جميع الحالات - وهى الغالبية العظمى فى تاريخ المجتمعات الإنسانية - تكونت الطبقة السياسية بصورة سافرة حول الجيش الذى تَعترف بتميزه.

وبما أننا أكدنا على الاتجاه العام، فإنه يصبح بإمكاننا الآن أن نرسم نموذجاً للأنماط المختلفة لسلطة الدولة يقوم على أساس معامل الوجود المؤثر للجيش فى قلب هذه السلطة.

وهذا النموذج لن يكون مجرد إعادة تجميع أخرى للعناصر الإمبريقية المتفاوتة، ولكن سوف يكون تنظيراً للدراسة النقدية المقارنة للأشكال الخاصة المختلفة التى تتخذها التكوينات الاقتصادية الاجتماعية القومية فى العالم. وبمعنى آخر فإن دراسة العنصر العسكرى فى العلوم الاجتماعية ليس موضوع حقل علمى كاذب يسمى (علم الاجتماع العسكرى) لأن ما نحتاجه أساساً هو تقصى واضح تماماً غير غامض لسوسيولوجيا السلطة بأبعاد نموها الباطنى (الدولة) ونموها الخارجى (الحركات الوطنية والثورات أو الهيمنة والإمبريالية).

وعندئذ فقط نكون قد حددنا موضع الإشكالية فى العلاقات التعارضية بين الجدلية الموضوعية للسلطة والجيش.

٥ - الجيش فى جدلية الاستمرارية الاجتماعية والثورة

طوال هذه العملية التى وصفناها سالفاً، وسواء على المستوى التحليلى النقدى أو على مستوى البناء النظرى بقى التعارض بين الجيش والاستواء normality الاجتماعى السياسى: فى إطار التيارات المختلفة للعلوم الاجتماعية والنظرية السياسية وفى مدرسة "علم الاجتماع العسكرى" التى كانت نقطة بدايتها هى تلك الميثولوجيا المقبولة فى جوهرها من جانب كافة الاتجاهات المختلفة فى إطار الأيديولوجية السائدة. وأيضاً فى جوهر الخطوط العريضة لنظرية اجتماعية حول السلطة يحتل فيها الجيش مكانه التاريخى والبنىوى المناسب. وهى تلك النظرية التى حددنا إطارها العام فيما سبق.

إن استمرار التعارض على هذا النحو المتواصل يخلق مشاكله الخاصة به.

يكمُن العامل الأول من عوامل هذا التعارض المتواصل فيما أسميناه "أعماق طبيعة الجيش" كالمحور الأساسى للسلطة السياسية للدولة وكأداة رئيسية للحفاظ على استمرارية كافة التكوينات القومية والاقتصادية والاجتماعية.

لقد كان هذا هو الحال دائما كما أشرنا سلفا. غير أن تطوّر المجتمعات المعاصرة أدى إلى كشف أغوار هذه الطبيعة، وذلك لسبب بسيط هو أن عملية التطور هذه تضع فى أيدي سلطة الدولة وفى أيدي الجيش كمحورها الرئيسى الأدوات السياسية للقرار والفعل ليس فقط على المستويات السياسية والعسكرية المجردة، ولكن أيضا على المستويات التكنولوجية والعلمية والثقافية والأيدولوجية.

وهكذا وبما أننا افترضنا وجود هذا التركيز للقوة الفعالة (السلطة) فى أيدي الدولة والجيش، فإنه يصبح من الضرورى أن نقيس مغزى ووزن هذه الحقيقة على الإطار الجماعى لكافة جوانب الحياة القومية الممكنة (المشروع القومى).

وفى واقع الأمر فإن عناصر الاستمرارية الاجتماعية فى جميع التكوينات الاقتصادية والاجتماعية القومية أو فى جميع الأمم كما تحدد وضعها فى إطار مفهوم الخصوصية الذى افترضناه.. هذه العناصر ليست فى حد ذاتها طاقة لضمان هذه الاستمرارية التى تعتمد أساسا على الإرادة المشتركة للجماهير الشعبية وللطبقة السياسية فى صيانة واستمرار مجتمع قومى معين إلى الحد الذى يجعله كيانا خصوصيا متميزا. فالروح العامة والإرادة الجماعية فى عودتها على هذا النحو إلى قاعدتها التركيبية التاريخية الموضوعية الملموسة تتخذ شكلا دقيقا محددا يضمن للأمة فى مرحلة معينة من النمو التاريخى التطور من خلال الاستمرارية.

وهذه القاعدة تستمد جذورها من كل من التاريخ البين (الواضح) للمجتمع القومى ككل، ومن الوعى الكامن بهذا التاريخ بين جماهير الشعب. وهو وعى له جذور فى أعماق الأمة.

إن الرغبة فى العيش معا لا تعنى بالضرورة الرغبة فى استمرار هذا التعايش. إنها أيضا الرغبة فى استمرار التطور معا. وهذا أساسا هو دور المشروع القومى ووظيفته ورسالته.

ورغم أنه بإمكان كافة المجتمعات القومية أن تشيد بالطبع مشروعا وتسميه المشروع القومى إلا أنه سوف يكون واضحا مع ذلك أن فعالية المشروع السياسى أو قدرته على الوصول إلى مرتبة المشروع القومى لا نقل قدرته على حشد طاقات الأمة.

إنها بمعنى آخر مهمة الاستمرارية فى عمق الحقل التاريخى، سواء بالمعنى الموضوعى أو بالمعنى الذى يستقر فى وعى الجماهير. وهذه الاستمرارية هى وحدها القدرة على استيعاب الصدمات وتغذية وصيانة وتوفير اللحظة السياسية ومكانها، بما يمكن أن يضمن نمو وترعرع المشروع.

إن مؤسسات الدولة تنشأ وتتطور على أساس هذا المشروع القومى، وينطبق نفس الشئ على التكوينات الرائدة للطبقة السياسية التى تؤدى وظيفتها وفقا لمصادر طبقية وأيديولوجية. ومع ذلك فلا يرى المرء فى أى مكان مثل هذا التوافق الواضح بين المشروع القومى والمشروع المؤسسى كما هو الحال بالنسبة للجيش. فشعار مدرسة العلوم التطبيقية: "من أجل الوطن والعلم والمجد" يتردد بتتويحاته المخلفة فى كل مكان لتعليم كوادر الجيش. ولأن مسؤولية الجيش هى فى نهاية الأمر وفى أساسها حماية الأمة ودولتها، فإن التوافق بين المشروع القومى والمشروع المؤسسى الخاص يكون توافقا تأسيسيا بنائيا بالمعنى الحرفى وليس بأى حال توافقا تكتيكيا أو عارضا.

ومع أنه من الممكن تعريف الوطن بأنه مجموعة من الأشخاص يخضعون لقيادة طبقة أو عدة طبقات اجتماعية، فى حين أن المجد يعنى أشياء مختلفة تماما بالنسبة للقيادات التى تحدد مواقفها الفلسفية والأيديولوجية اتجاهاتها المتعارضة والعلم هو أكثر هذه العناصر الثلاثة وأيسرها عالمية يقوم على أساس سياسات علمية وثقافية عامة تحدد ضرورات طبقية وأيديولوجية مختلفة.. رغم ذلك إلا

أنه في كل مكان وفي ظل كافة الظروف في مناطق مختلفة وأيديولوجيات متباينة يكون الجيش دائما هو حامى: "الوطن والعلم والمجد" في قلب الحياة القومية وهذه الرسالة تتحدد وتستمر من خلال قسم الولاء حتى الموت الذى يؤديه كل من ضباط الجيش والكوادر الثورية (المتقنون العضويون) رغم أنه لا يؤديه أبدا المتقنون التقليديون.

هكذا يمكن رؤية كل شئ على أنه وظيفة الطبقة والطابع الأيديولوجى للسلطة. وبقدر ما يمكن صياغة المشروع القومى فإنه سوف يكون من إعداد الطبقة السياسية الموجودة فى السلطة، وإن كان إعداده لابد أن يكون متصلا بأعماق قلب الأمة.

٥ - ٢

لقد استطاع الجيش طوال فترة تاريخية طويلة نسبيا - بداية من تأسيس الدول الأولى وحتى الثورة الصناعية - أن يحتذى داخل هذا البعد: النظام وحماية المشروع القومى. ثم وصلت الأساليب الفنية الحديثة التى تطورت ببطء إلى الجيش أولا، وكان بعضها نشأ فى جذوره فى هذه المؤسسة مثل البارود وبوصلة الملاحة والقذائف.

أما الاختراعات الكبرى فقد نشأت فى قطاعات مختلفة: بعضها مثل الطباعة نشأ فى القطاع المدنى من خلال الدولة المدنية، وبعضها مثل الهندسة الهيدروليكية وتطبيقاتها انتشر فى مؤسسة الجيش وفى الجهاز الإنتاجى. ولكن ودون أى استثناء استطاع الجيش أن يسيطر على هذه الاختراعات ويستخدمها ويطورها جميعها.

وكان لا بد من أن تتبلور هذه العلمية وتعمق بشكل ملحوظ نتيجة الاكتشافات البحرية العظيمة. ثم نتيجة الثورة الصناعية قبل أى شئ آخر. حيث تحولت عملية تجميع المواد والحصول على الوسائل والبرامج طويلة المدى إلى مهمة شاقة معقدة ومتنوعة خصوصا فى العصور الحديثة، حتى جعلتها الدولة مهمتها الأساسية باضطراد. وهذا هو ما يفسر كيف أصبح الجيش هو النقطة التى تركزت عندها

أكثر وسائل التقدم التكنولوجي تطورا بما أنه في حاجة ضرورية إليها إذا كان له أن يستمر في إطار وظيفته. وعندئذ نشأ التوتر الذي كان أصل التناقض الذي أشرنا إليه.

٥ - ٢ (أ)

هناك في واقع الأمر سلسلة من التوترات. الأولى على مستوى التعارض بين الرسالة الخصوصية للجيش من جهة - أي حماية النظام لصالح المشروع القومي ومن جهة أخرى الطابع الخاص للنشاط الفكري والعلمي، الذي يعتمد أساسا على معالجة نقدية للظواهر: أي أنه في جوهره دراسة نقدية لإمكانيات وحدود الظروف الاجتماعية التي ينمو فيها هذا النشاط بشكليه (سوسيولوجيا العلم والمعرفة).

مثل هذه العلمية لا بد بطبيعتها أن تتطور جدليا من خلال حركة مستمرة محورها دائما التساؤل حول ما هو موجود واستكشاف آفاق جديدة، غالبا ما تكون متعارضة مع المعرفة القائمة.

وهكذا يصبح في وسعنا بسهولة أن نقول إن التعارض بين العسكريين والمتقنين يشبه إلى حد ما الصراع بين بارمينيدز (Parmenides) وهيرقليطس (Heraclitus) ولكن في صورة صورة عامة مجردة للغاية. فهناك وفرة في المسارين للأعراف Conformists بين المتقنين - سواء المتقنون العضويون أو التقليديون - وذلك رغم تشدقهم بالمعاصرة. وبالمثل فهناك أقلية من المؤسسة العسكرية كانت لها مواقفها الإيجابية إزاء قضية التجديد سواء في مجال التكنولوجيا أو فيما يتعلق بالديناميكية الاجتماعية والسياسية للعالم. ومع ذلك فإن التعارض يستمر ويشجعه هؤلاء المفكرون الذين يعارضون فكرة التحكم في الثقافة والمعلومات.

٥ - ٢ (ب)

أما مصدر التوتر الثاني فهو يكمن في التناقضات العميقة داخل المؤسسة العسكرية نفسها بين القطاعات التقليدية التي تركز اهتمامها على مفهوم النظام وبين

القطاعات الديناميكية التي ترى أن استمرارية نظام المشروع القومى ما هو إلا جزء من معالجة ديناميكية مستقبلية لهذه الاستمرارية.

وترى هذه القطاعات الديناميكية أن بوسع الجيش - بل ينبغي عليه - أن يصبح بمثابة الوسيط بين الفئات المعنية بالنظام والتقدم بدلا من محاصرة نفسه داخل حدود مجال النظام وحده. ومن الواضح أن التقدم التكنولوجى والعلمى قد منح هذا التصور لرسالة الجيش مصداقية لا بأس بها فى عصر الإلكترونيات والأسلحة والطاقة النووية، أو عصر الإمبريالية المهيمنة والثورات الوطنية والاجتماعية العظمى.

هذا هو المصدر الأساسى للقلق داخل الجيش. فمع أن المتقنين قد أحالوه إلى مرتبة هامشية، إلا أنه يجد نفسه الآن يمر بتغييرات جذرية. ورغم أنه قد تكون تاريخيا كأداة للحفاظ على استمرارية النظام ككل، إلا أنه نادرا ما يجد نفسه الآن فى وضع يمكنه من المشاركة فى عملية إعادة التقييم الجذرية الجارية الآن بما تتطلبه عليه من إحلال المنهج الجدلى محل المنهج الإستاتيكي المحدد.

إن الدولة المعاصرة قد أعادت صياغة نفسها بسهولة نسبية فيما يتعلق ببعديها الاقتصادى والثقافى. ولكننا لا نجد هذه التعارضات بين النظام والحركة، بين الاستمرارية والجدلية إلا فى جوهر الدولة، أى داخل الجيش. ومن هنا جاء مناخ الصراع والتوتر المتزايد وانعدام الفهم والإحساس بالهامشية الذى يسيطر على الجيش. وهنا أيضا نجد تفسيراً لظهور عامل العسكرية كإشكالية سوسيولوجية.

إن بروز الجيش كإشكالية سوسيولوجية عند نقطة التوسط بين العلوم الاجتماعية المختلفة^(٢٩)، جاء مصاحبا للتحول الممتد العميق الذى طرأ على طبيعة الدولة المعاصرة ووظيفتها، بالإضافة إلى وضوح وجلاء هذا التحول أمام الطبقة السياسية ومتفقيها.

إن هذين التحولين يمثلان نهاية الوهم الفلسفى والوظيفية الخالدة فى تلك العلوم المعنية بدناميكية المجتمعات الإنسانية. ورغم أننا سوف نفتقد هذه اليوتوبيا الكريمة

غير الفعالة، إلا أنه إذا كان لليوتوبيا أن تتحول إلى حقيقة فعلية أولاً أن تخوض التجربة المريعة التي صنعت التاريخ بكل منعطفاته وتحولاته.

ومع ذلك فإن هذا التطور الذى يبعث على البهجة يختلف جذرياً عن محاولة عزل الجيش فى مجال علمى منفصل يسمى "علم الاجتماع العسكرى"، فليس هناك من يتحدث عن "علم اجتماع البوليس" أو "علم اجتماع القضاء" وهما جهازان أساسيان من أجهزة الدولة.

أما المطلوب فله بالفعل اسم وحقل علمى محدد بوضوح وهو:

"علم اجتماع السلطة" أو "سوسيولوجيا السلطة".

إن علم اجتماع السلطة، وليس علم الاجتماع السياسى، هو الذى نجد فيه هذا الخلط الحتمى بين الدولة والحكومة، وبين السلطة والإدارة، وذلك وسط المناقشة العادية للتعددية وللديموقراطية والانتخابية والرأى العام والاشتراكية والمنظمات الدولية، أى أن كل شئ خاضع للبحث والمناقشة.

ومع ذلك فقد حان الوقت لأن تتمكن العلوم الاجتماعية من التغلب على العوائق التى تنمخض عن السلطة فى واقعها الملموس، أى على مشكلة العنف وتنظيمها وترشيدها.

وعندئذ فقط سوف يكون بالإمكان أن نفهم علمياً مشكلة الجيش وعلاقته بالنسيج الاجتماعى، الذى يعد جوهر وجوده مرهوناً بحمايته.

إن هذا المنهج سوف يؤدى فى المرحلة الأولى إلى وضع الجيش فى قلب سلطة الدولة. وهكذا يصبح من الممكن فى مرحلة تالية بعد عزل خصوصية المجتمع الذى تعد هذه الدولة هى مركز سلطته - وهنا توجد المشكلة الحقيقية - تحديد العوامل الخاصة التى تحدد مستوى عمل الجيش فى قلب سلطة الدولة فى هذا التكوين القومى أو ذاك، وفى مرحلة محددة من تطوره التاريخى - وليس لأى تكوين قومى فى أى مرحلة من مراحل تاريخه.

ولذلك يستطيع المرء أن يرى أن الدراسة السوسيولوجية للجيش هي جزء متكامل من علم الاجتماع النقدي والمقارن للسلطة السياسية، يحركها - شأنها في ذلك شأن علوم المجتمع ككل - مفهوم الخصوصية، الذي يعد هو وحده القادر على التوسط بين الجدليات الاجتماعية على امتدادها وعلى الربط بأسلوب منطقي جلي بين الخاصوى (ما هو قومى) والعمومى (ما هو شائع بين الإنسانية ككل).

هذا هو ما ينبغى أن تكون عليه حال دراسة مشكلة العلاقات بين الجيش والمجتمع فى المرحلة الراهنة من تطور كل من التاريخ الملموس والعلوم الاجتماعية.

إذن ينبغى أن يبدأ البحث بطرح الأسئلة والفرضيات المترسخة فى هذا الحقل المعقد الملئ بالعوائق. وبقدر ما يكون الجيش هو جوهر السلطة فى كل مكان حتى لو كان ذلك بدرجات خصوصية متفاوتة من الفعالية، بقدر ما يمكننا هذه الدراسة من الكشف بوضوح عن الدعامات الأساسية لعملية الاستمرارية الاجتماعية القومية والعنف المنظم، وأن نلقى ضوء قويا على وظيفة الجدليات الاجتماعية فى التاريخ. وقبل أى شئ فى عصرنا هذا وفى هذه الحقبة من التاريخ التى تبدأ فى اللحظة الحاسمة عندما يصل بنا توازن القوى العالمى إلى مشارف التحول للعالم.

(١) إلا إذا اعتبرنا أن هذه المؤشرات تعد من المسلمات. راجع البحث الهام الذي بدأه اعتباراً من
Program Yale Data ١٩٦١ وحرره

Bruce M. Russett, World Handbook of Political and social indicators. (New
Haven and London 1961)

لا يشمل رموس الموضوعات جيش (أو حرب) وهناك بعض المؤشرات في المقالات التالية:

"Military Personnel, as percentage of population age 15-64". (p.p. 72-8, 81,
269, 293-300, 319, 336) "Expenditure on defence: a 5 percentage of GNP"
(PP. 72-3, 79-81, 269, 288)

لكنه مع ذلك لا يقدم أية إيضاحات حول طبيعة قوة الدولة

Kurlang "Military Sociology, a trend Report and Bibliography" current (٢)
sociology. Vol. xlll, no. 1 (1965, Oxford). "

"Military Sociology" 1963-9 Current sociology, vol no 3 paris (1968).

Encyclopedia Britannica (Chicago – London فى "Army" فصل (٣)
vol 2 pp 443 1963ed حيث تتعرض كافة الموضوعات المتعلقة بالعسكرية لمختلف الجوانب
59 – باستثناء العلاقة بين الجيش والمجتمع.

(٤) انظر مقالات

"Armee et pouvoir by B. C و "Armee" (typologic historique) by p. Devautour
hantebout in Encyclopedia universalis (Paris, 1938) vol. 2pp 405-21 and
422-8

(٥) وبشكل خاص المداخل التالية فى:

International Encyclopedia of the Sciences (New Yourk. 1968).

S.P. Huntington, "Cinil-military relations" vol 2 pp 422-8

L.I. Radway, "Militarism" vol 10pp. 300-5: Klanq. "Military" vol. 10 pp.
305 – 12.

(٦) تجدر قراءة دراسة J.Y. Peel حول

"Herbert Spencer: the Evolution of a Socilolgis (London 1971).

-
- S. Andreski (ed) وأيضاً دراسة pp 191, 223، خاصة الصفحات
- Herbert Spencer: Structure, Function and Evolution (London 1971)
- (٧) عن الثورة البرجوازية في فرنسا والتحول الصناعي في إنجلترا راجع:
- E.J.Hobsbawm. the age of revolution 1798 – 1848 (London 1962)
- وحول أيديولوجية تلك الفترة راجع كل من
- Sidney pollard, the idea of progress, History and Society (London 1968).
- Andre Vachet, L'ideologie liberale: l'individu et sa propriete (Paris 1970).
- كما يمكن إيجاد بعض المعطيات الهامة في الدراسات التي قامت بتجميعها (اللجنة الدولية لتاريخ الحركات والأبنية الاجتماعية).
- Movements national d'indépendance et classes populaires aux XIX^e et XX^e siècles en occident et en orient, 2 vols (Paris 1971).
- (٨) K.Lang "Military Sociology p.1 - 2 م.س.ذ.
- (٩) "إن الرأسمالية لا تخلق آلة حرب، والأصوب إلى القول هو أن آلة الحرب التي خلقت لتواجه متطلبات الحرب أصبحت بدورها تخلق الحروب التي تحتاج إليها".
- (J.Schumpeter, Zur Soziologie der imperialismen" Archiv für sozialwissenschaft und sozialpolitik, vol xiv (December 1918) pp 275-310.
- كما تتبع الدراسات التالية نفس الخط
- M.H. Cornefo, La guerre au point de vue sociologique (Paris 1930)
- M.R.Davies the evolution of war (New Haven, 1929)
- Quincy wright, A study of war (chicago london 1942)
- Alfred vagts a history of militarism 2nd ed (New York 1959)
- Leon bramson and george w. goethals (eds) war: studies from psychology sociology, anthropology (New York 1946)
- Emile Wnty L'art de la guerre 3 vols (verries 1967-8).
- وقد تابع تطور هذه المسألة على نحو جيد

Morris janowiz in jacques van Doorn (ed) Armed forces and society
Sociological essays (the hague/ paris 1968) pp 17 – 19

وانظر أيضا:

J.van doorn (ed) military profession and miliatary regimes: commitments
and conflicls (the hague, 1970).

Armand cuvilliet, manuel de sociologie 3 vols. (Paris ١٠) انظر على سبيل المثال
guy rocher introduction a la sociology generale 3vols (70-1950 عدة طبعات)
(montreal/paris 1968 – 70) Dristel (ed) recent sociology 2 rols (London
1969)

Ronald fletcher the making of sociology a study of socielolgical theory 2
vols (London 1971)

ويضاف إلى ذلك التجاهل التام لسلسلة الدراسات البالغة الأهمية التي أجرتها تحت إشراف
اليونسكو مجموعة من أهم المراكز العلمية الدولية

Tendances principales de la recherche dans les sciences sociales et humains
part I sciences sociales (Paris/ the hague, 1970)

(١١) انظر بشكل خاص

A.K. Davis “Bureaucratic patterns idn the new officers corps” social foreces
vol 27 (1948) pp. 142 – 53

E.D. Spindler “the military a systemic anglysis” P. 38 - 8 المصدر السابق

T. caplow, G.D Spindler “the military a systemtic anglysis” vol المصدر السابق
25 (1947) “rumors in war”

vol 25 (1974) pp 288 - 302 f. elki “soldiers language” in المصدر السابق
american journal of sociology vol 51 (1946) pp 414-22 E.A. Shils and
M.janowiz “cohesion and disintegration of the wehrmacht in world war”
public opinion quarterly vol 12 (1948) pp411 – 17, C.H. Page “Bureaurcacy
94-other face” social foreces vol 25 (1946) pp 88

“Informal socieal Organisation in the Army” ولنفس الكاتب

American journal of sociology, vol 51 (1946) pp. 365 – 70

Morris janwitz the professional soldier (New York 1960) R.C Homans "the small warship" American sociological review vol 11 (1946) pp 294 – 300.

S.L.A Marshall "Men against fire" infantry journal (washinton 1947) R.C. Strone "status and leadership in a combat fighter squadron" american jouranal of sociology vol 51 (1946) pp 388 – 94

R. Grinker and J. spiegel men under stress philadelphia 1945

K. Demeter Das deutsche heer und seine offiziere berlin 1935

W. A. Hunt an inverstigation of naval neuropsychiatric screening procedures in H. gvetzkhov (ed)(gropus leadership and men pittsburgh 1951 pp. 2450 – 6

W. Weller the veteran comes back New York 1944

D.N. Michell some factors tendin to limit the utlility of the social scientist in military systems analysis operation research, vol 5 (1957) pp 90 – 6

كما يمكن الاطلاع على تلخيص مفيد في

K. Lang military organization in j.g. march (ed)

Handbook of social organization (New York 1964) pp 838 – 78

Guy michelat and jean pierre homas contribution a l etured du recutiement des ecoles d officiers de la marine 1945 – 60

وهو تقرير مقدم إلى المؤتمر العالمي السادس لعلم الاجتماع. ليفيان 1966 وحول الكتابات الفرنسية انظر

Raoul girarder problems militaies contemporainsetat des travaux reue fracaisis de science politique n 10 1960 pp 395 – 418

(١٢) K.long military sociology pp 5-6 ص.س.د.

Leo Hamon ed le role extra militaire de l armee dans le tiers mond paris (١٣) 1966

على أننا نلاحظ في الوقت نفسه ظهور اتجاه لتجديد دراسات سوسيولوجية القوة لا يستثنى العامل انظر الاعداد الخاصة 1961 revue francaise de sociologie vol ii no 2

"queve – armee – societe l'armee et le pouvoir" La nouvelle revue marxiste no 1 1961

"le sabre et loi" and "armed forces and society in western europe" archives
europeennes de sociologie vol II No 1961 and vol vi no 2 1965

وعلى رأس هذه المراجع

Paul – marie de la gorce, La republique et son armee paris 1963

(١٤) هذا هو عنوان المؤلف الجماعي الذي حرره

M.Janowiz the New military: changing patterns of organization (New York
1964)

والذي كان (Sociology and the military establishment (New York 1959)

ثم أصبح the professional soldier: a social and political portrait (New York
1960)

والذي كان الغرض منه هو توفير قاعدة لبدء أعمال لجنة أبحاث "القوات المسلحة والمجتمع"
المنبثقة عن "الجمعية الدولية لعلم الاجتماع".

Henry Bienen (ed) the military intervenes: case studies in political
development (New York 1968)

Edwin Lewren. Generals versus presidents: neo militarism in latin america
(London 1964)

لذا فإن الرؤساء لا يمكن أن يصبحوا جنرالات

(١٦) هناك قضية أوسع وهي أنه بدلا من بناء سوسيولوجيا عسكرية على نمط السوسيولوجيا
الاقتصادية والسياسية يبدو لنا أنه من الأكثر دقة أن نتحدث عن سوسيولوجيا الجيش أو الاقتصاد
أو السياسة أخذا في الاعتبار أننا هنا بصدد الاقتراب السوسيولوجي من قطاع اجتماعي معين
وليس حقل علمي متميز يمكن أن تبنى على أساسه منهجية جديدة. وهنا فإن القضية المطروحة
هي خصوصية علم الاجتماع.

(١٧) K.Lang, Military sociology. P. 7 م.س.ذ.

(١٨) يسعى Lucy Mair في (New stations (chicago, 1963 لتقديم الأسس النظرية لهذه
العملية وكيفية التعبير عنها في مختلف المجالات. انظر:

M. Jonowitz, the military in the political development of new nations
(chicago, 1964)

على أن البعض يشير بدقة أكبر إلى "البلدان الجديدة" ولكن ذلك يأتي في الإطار غير الواضح لما
سمى "بناء الأمة" في إطار المؤتمر السادس للمنظمة الدولية لعلماء الاجتماع المتحدثين بالفرنسية"
(رويومون اكتوبر ١٩٦٥)

انظر العدد الخاص

"sociologie de la construction nationale dans les nouveaux etats" revue de
L'Institut de sociologie no 2-3 (bruxelles 1967), "L'edification national
dans divers regions) revue internationale des sciences sociales vol xxiii
no3 (1971)

وتخلط الكتابات بين التشكيلات القومية وبناء الدول والأبنية الإدارية، على أن هناك اهتماما برصد
اشكال الاستمرارية في أعمال jacques berque وخاصة. L'Orien second (Paris 1970).
(١٩) انظر مقالنا: L'Atenir de la theorie sociale في المجلد الأول من الجدلوية الاجتماعية،
تحت الطبع

JJ. Johnson (ed) the role of them military in underdeveloped countries (٢٠)
(princeton 1961)

ولا تخفي بعض الدراسات احتقارها للمناطق التابعة

E.A. Shils "the military in the political development of the New States p 7-
68"

وفي فترة من الفترات صدر عن مركز أبحاث العمليات الخاصة بالجامعة الأمريكية

A preliminary bibliography on studies on the role of military establishments
in developoing countries (washington 1963) mimeo.

H.Speir in JJ.Lohnson, the role of them military في (٢١)

JJ. Johnson, p 4 (٢٢) المصدر السابق

E.A,Shils in Johnson p 61 (٢٣) المصدر السابق

stanilaw andrzejewski military organisation and society london 1945 (٢٤)
M.D. Feld "A Typology of military Organization" in C.J Friedrich and s.e.
harrie (ed) public policy harvard 1958.

وانظر أيضا

Michael howard (ed) soldiers and government: nine studies in civil military
relations (London 1957)

K.Lang military sociology pp. 1-26 (٢٥) انظر

"military sociology" 1963 – 9 pp 7-21 special number "beitraze zur militar –
soziologie" Kolner zeitschrift fur soziologie und sozialpsychologie
sonderheft 12 (1968)

ومعظم عناصر (٨٤٥) الليبليوجرافيا التي أوردتها 57 – 327 rolf ziegler pp في المصدر
السابق

"armed forces and sociey a world prespective" in j.van doorn (ed) (٢٦)
38–armed forees and society pp. 15

(٢٧) انظر بشكل خاص:

w. milis and j.read the abolition of war (london 1969) thomas c.sheling "A
speical surveillance force" in I. Wright, w.m. evan and D. Morton (eds)
preventing world warIII (New York 1962) pp 87 – 105 warren elwood
the role of the politicals armies in xxth century european politics university (1965)
mimeo: fred r. von der mehden & charles w. anderson, "political action by
the military in the developing areas" social research vol 28 (1961) pp 459 –
79 d.c rapoprt "a comparative theory of military and political types" in s.p.
huntington (ed) chaning patterns of military polititcs glencoe 1962) pp. 71 –
101.

ومن الدراسات الحديثة انظر

Anatol rapoport the big two soviet – ameriean perceptions of foreign policy
(New York 1971)

"disarmament A. Kalyadin المقدمة إلى مؤتمر إثيان ورقة
15–as a social problem" (moscow 1966) mimeo pp. 13

- A. arsumanyan a stuggle between two systems and world developmetn
moscow 1964
- P. Fedoseev and j.frantsev on working out the metholdolgical questions of
history 1963
- S. strumilin problems of military economy and disarmament 5 vols 1964 vo
4
- V . aboltin ed policy of stae and disarmament, 3 vol 1966
- G. modrginskaya ed problems of peace and war in philosophy and sociology
1966 academy of sciences of the ussr economic problems of disrmament
1961 v yemyelyanoy atom and peace 1965 n tlensky anti – rocket system
and disarmement problems 1965
- I. Glagolev economy as in flueced by disarmament 1964
- V. morsov disarmoment and the probledm of the capitilist market moscow
1964 o. bogdanov nuclear disarmament 1961 and universal and total
idsarmement international law questions 1964
- L. gromov and v. strigachev problems of disarmamet as the main issue of
these days 1963
- N. nikolsky the main question of modern times: problems of annihilating
wars 1964
- N. pitersky international security forces 1966
- disarmament and help rendered to developing countries in المؤلف الجماعي
education (1966)
- K. Ivanov and B. bastanov: we look into tomorrow 1964 s. malinin and v.
onushkin. International cooperation in them field peaceful utilisation of
atomic energy 1961
- وحول وجهة النظر الغربية انظر
- Frtwin hackel military and political purpose (london 1970)
- Sir robert thompson rerolutionary war in world strategy 1945 – 65 (London
1970) L.S Griling peoples war: the conditions and the consequences in chian
and in south east asia (London 1969) Alexander dolov (handbook of

intelligence and guerrillas warfare (ann arbor 1963 martin oppenheimer the urban guerrillas (chicago 1969)

وعلى الجانب الآخر عدة مؤلفات على رأسها

w. Pommeroy guerrilla warfare and marxism (london 1969) richard gott guerrilla movements in latin america (London 1970) lewis gann guerrillas in history (stanford 1971) hamza alawi "peasants and revolution" socialist register 1969 (London 1969) pp. 241 – 77 russel stetler (ed) the military art of peoples war selected writing of general vo nguyen giap (New York/ London 1970).

Eric r. wolf peasant war of the twentieth century (New York 1969)

Shingo shibita marxist military theory and the people's war in vietnam: vietnam to shiso no modai (Tokyo 1968) فييتنام وإشكاليات النموذج

Carlos marighella of the liberation of brazil (harmonds worth 1978)

وقد طرح ماوتسي تونج إشكالية الحركات الثورية (Peking) military writing ٢٨ والمؤلف الرئيسي في هذا المجال هو c. wright mills the sociological imagination والذي انطلقت منه حركة علم الاجتماع الراديكالي وانظر في الاتجاه نفسه

Henri lefever, au-delà du structuralisme

(٢٩) خاصة في Le moment historique de la recherche theorique

(٣٠) وهناك تلخيص واف لهذا الموضوع في

S. Stabb in quest of identity: patterns in the spanish american essay of edas 1890 – 1960 (Chapel Hill. 1967)

كما أن هناك معلومات في

I. L. Horowitz j.de castro and j. gerassi (eds) latin american radicalism: a documentary on left and nationalist movements (New York 1969)

لقد تركت هذه الإشكالية بصماتها على مجمل الانتاج الأدبي في أمريكا اللاتينية، كما يمكن الرجوع إلى تعبيراتها الفلسفية في عدة كتابات منها

Sergio bagu tiemop realidad social concimiento (Mexico 1970)

florestan fernandes and darcy riberio وخاصة في كتابات

-
- (٣١) وعلى رأس الكتابات حول هذا الموضوع تشير إلى مؤلف أساسى هو
Barrington moore. Social origins of dictatorship and demecracy: Lord and
peasant in the makin of the modern world (Boston 1966).
والذى يكاد يبدأ الاعتراف بأهميته كمصدر نظرى. ومن الأعمال المفيدة حول بلدان معينة:
Karl Demeter, them german officer corps in society and the state 1650 –
1945 (Frank furt 1962, London 1965)
F.L. Carsten them reichswehr and politics 1918 – 1933 (Oxford 1966)
Paul Marie de la gorce, la republique et son armee (Paris 1963)
Christorpher hill, the english revolution (London 1940): society and
puritanism in pre-revolutinary england (London 1964) intellectual origins of
the english revolution (London 1965) God's Englishman: oliver cromwell
and the english revolution (London 1970).
Niyazi berkes the development of secularism in turbey (Montrcal 1966)
Joseph Needham, Science and Civilisation in china (Cambridge 1954)
Raymond aron. Paix et gurerre entre les nations (Paris 1962)
Anouar abdel-malek ideologie et renaissance nationale : L'Egypte moderne
(Paris 1969) لمدينة مصر ، القاهرة ١٩٨٣
Russel B-Nye this almost chosen people: people: Essays in the history of
american ideas (East Lenisng 1966)
Richard hosfstadter and S.M.Lipset (eds) turner on the sociology of the
froniter (New York 1968) R. Palme Dutt india today (London 1938):
etienne balazs La bureau cratie celeste, recherches sur l'economie et la
societe de la chine traditionnelle (Paris 1968).
(٣٢) انظر فى هذا المصدر العمل الهام
John Gittings the role of the chinese army (London 1967) والذى يطرح مسألة تحليل دور الجيش فى الثورة الثقافية
(٣٣) ويمكن الاطلاع على إشارات حول هذا الموضوع - وأن كانت لا تخلو من الادعاء فى
Andre Glucksmann Le disours de la guerre paris 1967
(٣٤) ويتيح ظهور عدد من الدراسات الحديثة والمتناقضة حول هذا الموضوع دفع الجدل بشكل
اعمق انظر المجتمع المصدر والجيش ١٩٨٦ A-Abdel - Malek Egypt societe

militaire (Paris 1962) roger murray militarism in africa research paper No 1,
The Tanganyia African National Union National headquarter (July 1966)

David Wood the armed forces of the african states (London 1966).

Ruth first the barrel of a gun: political power in africa and the coup d'etat
(London 1970), Amos perlmutter, military and oplitics in Israel, nation
building and role expansion (London 1969),

C.Herweitx. middle east politics: the military dimension (London 1969)

Bernard vernier armee et politique ou moyen – Orient (Paris 1966)

P.J.Vatikiotis , politics and the military in jordan : a study of the Arab
Legion 1911 – 1957 (London 1963)

Philipe G. Schmitter military intervention- political competitiveness and
public policy in latin America 1950 – (1970)

تقرير مقدم إلى مؤتمر فارنا:

كما يمكن الاطلاع على ملخص واف لمختلف الكتابات حول هذا الموضوع، خاصة في أمريكا
اللاتينية في

Alain rouquie, Le role politique des forces armees en amerique latine etat
des travaux revue francaise de science polititique vol XIX no 4 (1969) pp
862 – 85.

Maurice cornforth the open philosophy and the open society نظر نقد
(London 1968)

(٣٦) المصدر الأساسي في هذا المجال هو Barrington Moore (مراجع هامش ٣٦) كما
يمكن الرجوع إلى الجوانب المكملة في C. Wright Mills, the Power elite (New York
1956)

Ralph milliband, the state in capitalist society (London 1969).

وقد سبقت ذلك محاولة لاجراء مماثل للمجتمعات الشرقية من زواياة التمرکز حول الذات
الأوروبية في:

Karl wittfor gel, oriental despotism a comparative study of total power (Yale
1957)

أما بالنسبة للاطار للتاريخي فيمكن الرجوع إلى كل من :

Arnoud brecht, political theory the foundations of twentieth century political thought (princeton 1958) D.D. Raphael: problems of political philosophy (London 1970)

وأحد أمثلة الرؤية المتمركزة حول الذات الأوروبية هو:

N.Poulantzas: Political power and social and social classes in the capitalist state (London 1971)

ويمكن الرجوع إلى الرؤية الجماعية في

Jean Dru: De L'Etat socialiste: vol II Ici, maintenant, demain (Paris 1968)

(٣٧) وحول المواقف المرتبطة بالتروتسكية والكميونيكية يمكن الرجوع إلى:

A. G. Frank Le developpement du sous- developpement L' amerique Latine (Paris 1970) S.Amin L'accumulation a lechelle mondiale (Paris 1970)

كما أن هناك طرح لبعض الأفكار في

Robin murray "internationalisation of capital and the nation – state" new left review no 76 (1971) pp 84 – 109

والتي يوجه لها الانتقاد في

Bill worren "on the internationalisation of capital and the nation – state" ibidem no 68 (1971) pp. 83 – 8.

على أنه لا يجب نسيان أنه للحفاظ على أنفسهم يحتاج الأمريكيون إلى ربع إنتاج العالم من الصلب والسماد الكيماوي و ٤٠% من لب الخشب و ٣٦% من الوقود وخمس إنتاج العالم من القطن و ١٠% من المساحات المنزوعة خارج نطاق الحدود الأمريكية وأوروبا الغربية بدورها ليست بعيدة عن هذه الأرقام

Gerald Leach: "Spaceship Earth: the crisis to end all crises?" observer (DET. 1977 PP. 6 – 7

وانظر أيضا قائمة المراجع في

Christober tugendhat, the multinationaltionls (London 1971) pp 226, 8.

(٣٨) اعتمد للنقد المعاصر على تقليد بريطاني راسخ في مجال تاريخ العلوم

J.D. Bernal social function (London 1939) science in history (London 1954)
J.G. Crowther, the social relation of science (London 1941) science in
modern society (London 1967)

J Needham Science and civilisation in china

كما يمكن الرجوع إلى الكتابات المتميزة لـ

Victor perlo militarism and industry arms profiteering in the missile age
(London 1963) harry magdoff the age of imperisalism the economics of U.J
Foreign (New York 1966): robin clarke the science of war peace (London
1971).

و حول دور J.D. Bernal راجع:

loren R. Graham "science in history" the New York times book review
LXXVI no 31 (1 October 1977) pp 18 – 19

(٣٩) حول التطورات الحديثة للجنل حول خصوصية علم الاجتماع، انظر:

Robert W. Friedrichs, A Sociology of sociology (New York 1970)

A-Abdel – Malek "le vime congre's mondial de sociology" Atomes no 7
(1970) p 691

P.Bourdieu, J.C. Chamboredon, J.C.Passeron, Le Metier de sociologue voll
(Paris 1968)

كما أن هناك طرح لبعض الأفكار في

Robin murray "internationalisation of capital and the nation – state" new left
review no ٧٦ (١٩٧١) pp ٨٤ – ١٠٩

والتي يوجه لها الانتقاد في

Bill worren "on the internationalisation of capital and the nation – state"
ibidm no ٦٨ (١٩٧١) pp. ٨٣ – ٨.

على أنه لا يجب نسيان أنه للحفاظ على أنفسهم يحتاج الأمريكيون إلى ربع إنتاج للعالم من الصلب
والسماد للكيماوى و ٤٠% من لب الخشب و ٣٦% من الوقود وخمس إنتاج للعالم من القطن و
١٠% من المساحات المنزوعة خارج نطاق الحدود الأمريكية وأوروبا الغربية بدورها ليست بعيدة
عن هذه الأرقام

Gerald Leach: "Spaceship Earth: the crisis to end all crises?" observer (DET.
١٩٧٧ PP. ٦ – ٧

وانظر أيضا قائمة للمراجع في

Christober tugendhat, the multinationtionls (London ١٩٧١) pp ٢٢٦, ٨.

(٣٨) اعتمد النقد المعاصر على تقليد بريطاني راسخ في مجال تاريخ العلوم

J.D. Bernal social function (London ١٩٣٩) science in history (London ١٩٥٤)

J.G. Crowther, the social relation of science (London ١٩٤١) scence in
modern society (London ١٩٦٧)

J Needham Science and civilisation in china

كما يمكن الرجوع إلى الكتابات المتميزة لـ

Victor perlo militarism and industry arms profiteering in the missile age
(London ١٩٦٣) harry magdoff the age of imperisalism the economics of U.J
Forign (New York ١٩٦٦): robin clarke the science of war peace (London
١٩٧١).

وحول دور J.D. Bernal راجع:

loren R. Graham "science in history" the New York times book review
LXXVI no ٣١ (١ October ١٩٧٧) pp ١٨ – ١٩

(٣٩) حول التطورات الحديثة للجدل حول خصوصية علم الاجتماع، انظر:

Robert W. Friedrichs, A Sociology of sociology (New York ١٩٧٠)

A-Abdel – Malek "le vime congre's mondial de sociology" Atomes no ٧
(١٩٧٠) p ٦٩١

P.Bourdieu, J.C. Chamboredon, J.C.Passeron, Le Metier de sociologue voll
(Paris ١٩٦٨)

الجزء الرابع

الإمبريالية، الهيمنة، التحرر

فائض القيمة التاريخي

لقد أحاط الغموض وما برح يحيط بالمكانة التي تشغلها مسألة القوة من جراء ضباب كثيف من الاعتبارات المنوعة تصب كلها باتجاه إنكار أولية المكائنة السياسية لهذه المسألة.

وقد بدأ مفهوم القوة (العنف) لفترة من الزمن، أما محرماً، أو على الأقل هامشياً بالنسبة للفكر الاجتماعي. تلك كانت فترة الغلبة غير المنازعة تقريباً لأيديولوجيا التقدم.

كان الشعور الذي يخامر البرجوازيات الحاكمة أنها حققت فعلاً للشطر الأعظم من المهام التاريخية للتقدم الاجتماعي - الاقتصادي والثقافي، في حين كان هدف القوى الصاعدة للاشتراكية هو استكمال الثورة الديمقراطية ودفعها باتجاه الشعبوية، ولما كان "العنف" في النظرية السياسية والاجتماعية بالذات يمثل شكلاً للأعراض المرضية المتلازمة الخارجية المنشأ، فقد بقي العلم المختص بعلم التنظيم الاجتماعي ملتزماً، من الناحية الجوهرية، بإمكانية تحقيق السلام الأبدى، بالتقدم غير المحدود، وبالأزدهار اللامتناهي... بالسعادة، أى بكلمة، بالأرض وقد استحالت فردوساً.

بعد ذلك جاء انقسام العالم الصناعي المتقدم إلى معسكرين في أعقاب ثورة أكتوبر ١٩١٧، وما أصاب الخطوات الاجتماعية للأنظمة للرأسمالية من جراء الركود الذي ضرب الاقتصاد العالمي في أعوام ١٩٢٩ - ١٩٣٢، أضف إلى ذلك استياء قطاعات واسعة من السكان فيما بعد من جراء تناقص التسهيلات والمنافع في بلدان الهيمنة السابقة تحت تأثير حركات التحرر الوطني في الشرق، وفي وقت أخذ فيه الخطر النووي يلوح على نطاق واسع... هذه العوامل هي التي أدت إلى نشوء الاهتمام المستجد بالحجم الذي يتخذه عنف القوة داخل المجتمعات الحديثة، وفيما بينها.

لقد ظل البعد الإمبريالي، بوصفه عاملا مركزيا في تركيب القوة في العصر الحديث، يرى باستمرار في مباشرته، وليس كأحد العوامل والتعبير المعاصر للسيرورة التاريخية. وإزاء دوران العنف - من تصاعد حمى التسلح، وتكاثر الحروب بين القوميات، وصولا إلى الحرب العالمية في الأعوام ١٩٣٩ - ١٩٤٥ واستخدام السلاح الذرى لأول مرة في التاريخ ضد أمة كبرى من أمم الشرق - إزاء هذا العنف، لم يعد ممكنا، أو قل لم يعد معقولا بعد الآن، تجنب مواجهة الحقيقة: حقيقة القوة السافرة لعنف الكلى الواسع النطاق، وسياسات التسلح، والحاجة إلى شكل من أشكال الكبح وال ضبط. لهذا، كان المسمى إلى نزع السلاح، من بين أمور أخرى، مطلبا ملحا من مطالب العصر.

يمكن القول إن التوجه الأساسى فى الشطر الأخير من القرن التاسع عشر ثم فى القرن العشرين كان، وما يزال، توجهها أخلاقيا إلى حد بعيد. فالعنف والتسلح ينظر إليهما كعمل شرير، والسلاح ونزع السلاح كعمل أخلاقى محب للخير. ولو قدر لأحد أن يجرى تحليلا لمضمون الخطب والمقررات والكتابات والبيانات حول الحرب والعنف والسلام أو نزع السلاح، لتكشف هذا التحليل عن حصيلة وفيرة جدا من الاعتبارات الخلقية ونسبة أقل بكثير من التحليلات السياسية للقوة، فما بالك بالمقارنات الحضارية؟ والظاهر أن المآزق والنتائج اللامتناهية المترتبة على مثل هذا التوجه الأخلاقى لم تستطع التغلب قط على ذلك المزاج الخيرى، إذا جاز التعبير، لدى أتباع المبادئ الأخلاقية المعاصرين تجاه مقولتى القوة والعنف، ولا سيما أن معظمهم ما انفك يطلب الدفء فى أحضان البيئة التسلطية للإمبريالية والهيمنة اللتين يتظاهرون بالاشمئزاز منهما واستكثارهما. أما من جانبنا، فقد جرى تحديد اللاعنف والسلام ونزع السلاح باعتبارها جزءا من إطار أعرض من المصطلحات المهجورة وعودة إلى زمن ما قبل الرأسمالية. وهكذا كان العجز، فى الحقيقة، يتستر خلف برقع الشعبوية. وعلى ذلك، استطاعت مراكز القوة أن تواصل السير كالمعتاد.

إن جذور العنف، جذور الحرب الشاملة، والطريق إلى التسليح، إنما تكمن فى التركيب التاريخى للنظام الدولى... أى فى التكون التاريخى للهيمنة الغربية، هذه الهيمنة المتجذرة فى فائض القيمة التاريخى، ابتداء من القرن الخامس عشر.

٢ - ١ لئن كان صعود الغرب إلى موقع الهيمنة، من بداية القرن الخامس عشر وحتى اجتماع يالطا لا يقع ضمن المجال المباشر لهذا البحث، إلا أن المرء لا يسعه أن ينسى كون تلك الفترة هى بالذات الفترة المتصلة بامتداد ظاهرة الحرب إلى مناطق أوسع فأوسع من العالم، كما كان معروفا فى ذلك الحين، إلى أن شملت الجزء الأكبر من أوروبا وآسيا وأفريقيا فى وقتنا الحاضر.

٢ - ٢ غير أن الشئ الأهم فى التحليل البنىوى للهيمنة الغربية ليس ذلك البعد الحربى، بقدر ما ينبغى تركيز الاهتمام على تشكيل فائض القيمة التاريخى.

(أ) الموجة الأولى من الغزوات، والنهب، والاختراق والاحتلال، جاءت لتضرب المنطقة العربية - الإسلامية اعتبارا من القرن التاسع عشر: بدءا بالحملات الصليبية ووصولاً إلى العسكرية الصهيونية.

(ب) الموجة الثانية، الموجة الأشد فتكا من الناحية البشرية، عصفت بالقارة الأفريقية. والنزف اللاحق الذى ترتب على تجارة الرقيق كان له أعمق الأثر فى إمكانيات أفريقيا المعاصرة.

(ج) الموجة الثالثة أتت لتدمر الحضارات والمجتمعات الهندية فى أميركا الوسطى والجنوبية، وإخضاعها للإمبراطوريات البحرية الإسبانية والبرتغالية.

وهكذا دشنت حقبة تاريخية امتدت، فى دائرتها الأوسع، أحد عشر قرناً ونيفاً، وفى دائرتها الأضيق خمسة قرون. وخلال هذه الحقبة، نجحت أوروبا والغرب فى القضاء على مراكز القوة فى الشرق، وبدرجة أعم، فى آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. كما نجح فى مراكمة ثروات قاراتنا الثلاث - ثرواتها المادية وإمكانياتها البشرية والثقافية على حد سواء - وتكديسها فى دول البرجوازيات الغربية

("القومية") للصاعدة آنذاك. وللغريب أن هذه السيرة الضخمة والطويلة الأمد من المراكمة والتكديس، هذا السلب الضارب في أعماق القارات الثلاث طوال قرون وقرون من السيطرة، ظلت موضع تجاهل من قبل أبرز مفكرى أيديولوجيا التقدم فى الغرب. فصيغهم كانت صيغة "قائض القيمة الرأسمالى"، كما لو أن الشئ الأهم فى تاريخ للبشرية هو ذلك الطور الأخير من الصراع الطبقي فى المجتمعات الطبقيّة، حيث ينتظر من الرأسماليين أن يقوموا باستغلال الطبقات العامة.

٢ - ٣ إننا هنا أمام الجذور عينها لمشكلة الهيمنة والعنف والعنف المضاد فى التاريخ. فى الواقع، لم يكن قائض القيمة التاريخى محصورا، فى يوم من الأيام، ضمن مجال الاقتصاد فحسب. إن تكديس المواد الأولية، ومصادر الطاقة، والأراضى والمساكن، والسيطرة على المدن والموانئ وشبكات المواصلات الرئيسية والمحيطات، إلخ...، كان أمرا على جانب كبير من الأهمية بالتأكيد. لكن قائض القيمة التاريخى أتاح للبرجوازيات الغربية، أولا وقبل كل شئ، الوسيلة للكفيلة بضملمان هيمنتها على العالم.

فيفضل قائض القيمة التاريخى هذا، أمكن للثورة العلمية والصناعية أن تحدث. وفتحت للجغرافيا السياسية المجال واسعا للانتشار باتجاه السيطرة على العالم من خلال القوة البحرية، فيما ساهمت تقنيات الاتصالات فى التخفيف من فيض الأفكار والنظريات والمفاهيم من "المركز" إلى "الأطراف" المختلفة. وكانت النتيجة تكدسا فريدا من نوعه عند "المركز"، بلغ ذروته فى تركيز صياغة النظرية الاجتماعية والاتجاهات الفكرية الحديثة عموما، وفى مراكز الهيمنة الغربية. من هنا، فقد استحل على شتى "الأطراف" - آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية - أن تتطور إلا وفق للنهج الذى تقترحه وتفرضه فرضا مختلف المدارس الفكرية فى الغرب المهيمن.

لهذا السبب، كان وضع المسألة المشار إليها - أعنى وضعها فى الموضوع ذى المعيار الأخلاقى - مصاعغا بتعابير مستعارة من المؤسسة الشعبوية أو الليبرالية للغرب نفسه.

٢ - ٤ إن الانتقال من الأشكال المبكرة للاستعمار إلى الإمبريالية الكلاسيكية، إلى الشكل الأرفع من الإمبريالية فى عصرنا، أى إمبريالية الهيمنة، قد أدى إلى تكوين ما يسمى بالنظام الدولى (المعهود) الذى وجد تعبيره الحديث فى الفترة ما بين ١٨١٥ و ١٩٤٥، وبشكل أكثر تحديدا فى يالطا، هذا النظام الدولى كان يعنى التكريس الرسمى للهيمنة الغربية، رغم لتقسامها إلى ضروب اجتماعية - سياسية من النظم والأيدولوجيات، وإقصاء كل ما عداها. وقد تطور هذا النظام الدولى، كما نعلم، عبر ثلاث مراحل متوالية: الحرب الباردة، التعايش السلمى، والانفراج، وبإستطاعتنا أن نرى حاليا التحديات التى يواجهها الانفراج نفسه بوصفها نتيجة الارتقاء أتباع "اللجنة المثلثة" (*) إلى سدة الحكم، ووجود "قوات" الحرب الباردة والصهيونية فى قلب القوة الإمبريالية الرئيسية فى عصرنا، لمواجهة المد الصاعد لحركات التحرر الوطنى والثورات الاجتماعية التى تظهر الآن فى العالم.

٢ - ٥ ومما يجدر ذكره هنا، أن الدعوة إلى إقامة نظام دولى جديد قد حرفت هى نفسها، بفعل مؤثرات الهيمنة الغربية، إلى دعوة لإقامة نظام "اقتصادى" دولى جديد، كما لو أن المسألة تتلخص فى إعادة توزيع بعض أشكال للموارد المادية وبذلك تستقيم اللعبة.

إننا ندعو مجددا إلى عكس الطريقة التى تطرح بها المسألة. فالدعوة إلى نظام دولى جديد، يعترف اعترافا كاملا بالقارات الثلاث التى بقيت منسية حتى الآن -

(*) وتسمى أيضا "منظمة المثلث المتوازى الأضلاع" وهى لجنة أسسها دافيد روكفلر، مدير بنك (تشيس منهاتن بنك)، وتضم نخبة من المثقفين والسياسيين ورجال المال فى كل من الولايات المتحدة وأوروبا = الغربية واليابان، ومن هنا كانت تسميتها بالمثلث المتوازى الأضلاع. وقد أوكلت رئاستها إلى زبنيو بريجنسكى، مستشار للرئيس الأمريكى لشنون الأمن القومى، ومن أعضائها البارزين: ريمون يار، رئيس وزراء فرنسا. ويذكر أن هذه اللجنة هى التى دعمت حملة ترشيح كارتر للرئاسة.

قارات آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية - فى تفاعل جدى مع المجتمعات المتقدمة القائمة فى أوروبا وأميركا الشمالية، الرأسمالية منها والاشتراكية على حد سواء، إنما تعنى، فى حقيقة الأمر، أننا مدعوون الآن إلى التفكير بلغة سياسية حقيقية، مؤكدين بذلك على أولوية السياسى فى مجال السياسة.

لا بد من التسليم، إذن، بأن النضال فى سبيل نظام دولى جديد إنما يرتبط أشد الارتباط بإشكالية العنف والعدوان والتسلح. زد على ذلك أن النضال من أجل نظام دولى جديد هو، فى حد ذاته، السبيل الذى يؤدى إلى عالم أكثر إنسانية، عالم يمكن للعقلانية السياسية والسلام ونزع السلاح أن تقوم فيه على أسس ومرتكزات واقعية.

- ٣ -

إن المسألة المطروحة أعلاه تفضى بنا إلى صياغة إستراتيجية واقعية العقلانية السياسية بلغة تتعارض تعارضاً كلياً مع الجو السائد حالياً سواء على صعيد الحد من السلاح، أو الإدانة الأخلاقية لسياسة التسلح.

باختصار، إن الطريق إلى العقلانية السياسية والسلام ونزع السلاح إنما يمر بالضرورة عبر تحويل المسار الرئيسى للسياسة الدولية فى الاتجاه المعاكس، وإقامة نظام دولى جديد وتغيير مفهوم الإنسان كقوة حاسمة بالمعنى الفافوسنى المحدث للكلمة.

ولكن حسبنا أن نتساءل: كيف السبيل إذن للمضى قدماً؟ .

٣ - ١ النقطة المحورية وهنا هى الانطلاق بالمبادئ والمتطلبات السياسية لكافة مراكز القوة الصاعدة فى النظام الدولى الجديد من منطلق الاعتماد على النفس. وينبغى النظر إلى الاعتماد على النفس، فى هذا السياق بمعناه الأرحب، أى باعتباره يشمل كافة قطاعات وأوجه الحياة القومية، بدءاً بالاقتصاد وانتهاء بالجغرافيا السياسية والاستراتيجية دون أى استثناء على الإطلاق. كذلك لا بد من تمييزه بوضوح على ذلك التوجه الباطنى: فالمجهود السياسى فى الاعتماد على النفس إنما يتركز على تعبئة كل الامكانيات المتوفرة لدى الأمة المعنية، أو فى

منطقة ثقافية - قومية ما، بما يفتح الطريق واسعا أمام الإبداع الفكري للنابع من الداخل، بدلا من تلك الطرق والوسائل المتبعة، على اختلافها، للتكيف مع المعرفة والتقنيات السائدة حاليا على المسرح الدولي.

وهكذا، فإن الاعتماد على النفس لا بد أن ينظر إليه كتوكيد على الاستقلال القومى، ضمن إطار التكافل بين الأمم، والأقاليم والمناطق، مع الضغط دائما باتجاه الوضع القومى للمسألة وليس العكس.

٣ - ٢ وإذا فهم الاعتماد على النفس على هذه الصورة، فسوف يعنى إعطاء قدر أكبر من الأهمية للنضال التحررى الوطنى، والحركات الاستقلالية ولتلك الموجة المتنوعة من الثورات الوطنية والاجتماعية فى القارات الثلاث على وجه الخصوص، وذلك بقصد حمل قوى حديثة ومراكز جديدة للقوة الإقليمية إلى داخل الهيكل الحالى لميزان القوى الراهن فى العالم. أى، وبتعبير آخر، بقصد تعديل السيناريو السائد الآن، وبشكل أساسى سيناريو الانفراج ما بين الدولتين العظميين، على ضوء التدخل المتزايد للمركز الثالث - المركز الصينى المتين للقوة فى العالم. إن مناطق كالإيابان، وشبه القارة الهندية والعالم العربى، والبرازيل، وإيران، وفيتنام، وجنوب شرق آسيا، والصين فى مقدمتها طبعاً، يمكن أن تحدد على ضوء هذه الحقيقة، كعوامل رئيسية فى إعادة تشكيل الأنماط المتغيرة للقوة فى العالم.

ومن شأن جملة السيرورات هذه، المعقدة إلى أبعد الحدود، والمشوشة فى أكثر الأحيان، أن تؤدى إلى انبثاق ما اقترحنا تسميته "بالسيناريو البديل". وبمقتضى هذا السيناريو البديل، تتوازن الجبهة الحالية للهيمنات السائدة فى العالم الغربى بجبهة قوامها المراكز الرئيسية للقوة المتعادلة فى الشرق، وفى القارات الثلاث بشكل أعم أى بالضبط ما تعمل "اللجنة المثلثة" للحيلولة دونه.

٣ - ٣ وعلى امتداد الحقبة التاريخية التى تفتتح الآن لأماننا، سيكون من الضرورى بالنسبة لنا جميعاً أن نعمل بتأن وهذوء دون أى إثارة، وذلك خوفاً من أن تجربنا الأحلام. لأن بروز نماذج السيناريو البديل - أى انبثاق السيناريوهات البديلة - سيكون عملية طويلة، تسلك طرقاً لم تكن معروفة حتى الآن. عدا أنه

سيأتي من خلال سلسلة من النضالات والنزاعات مع النماذج العالمية للهيمنة في العالم. ومن هنا منشأ الضرورة لاعتماد الرؤية البعيدة النظر للتاريخ، ولاسيما على ضوء المعرفة بأن في استطاعة الأمم والثقافات والحضارات الأقدم في العالم، التي تتكلم الآن فيما بينها الغالبية العظمى من الإمكانات البشرية والموارد الاقتصادية والمواد الأولية ومصادر الطاقة، وتسيطر على المناطق الجغرافية السياسية على المستوى الإقليمي، أن تعي وتحتشد تدريجيا الإمكانات اللازمة لصد موجات المد الناجمة عن للهجوم للمعكس المحتوم، وتقيم توازنات أكثر عقلانية شيئا فشيئا.

٢ - ٤ والحال أن النضالات في سبيل بناء النظام الدولي الجديد قد اتسمت منذ البداية، بهذه العينة الجبلية.

إن بلوغ نقطة للخطر لن يكون، من الناحية النظرية، إلا عندما تبلغ الجبهتان - جبهة الهيمنة القائمة حاليا والجبهة المتعاضمة لمراكز القوة الصاعدة - مستوى قريبا من التعادل. والواقع أن الدفع والهجوم المعاكسين سوف يظهران، كما بينا أعلاه، قبل ذلك بوقت طويل. فكما نعلم جميعا، لم ينقض عام التغيير العظيم، عام ١٩٧٣، الذي شهد للخاتمة المظفرة لحرب فيتنام وحرب أكتوبر في الشرق الأوسط، إلا وكن للهجوم المعاكس الاستراتيجي والشامل للجبهة التقليدية المهيمنة في الغرب - وفي قطاعاتها الإمبريالية بالدرجة الأساسية - سجل تحركات حازمة وفعالة في أجزاء واسعة من أفريقيا وآسيا.

والتصعوبات الكامنة هنا مزدوجة: سلبية وإيجابية.

أ - من الناحية السلبية، سوف تتمثل الصعوبة الرئيسية في الموافقة على العمل بطريقة ثنوية (مثنوية)، أي اعتبار جبهة الهيمنة كجبهة واحدة غير متنوعة، ينبغي مواجهتها ومقاومتها بطريقة تنافرية. ومن شأن هذا التصرف أن يفضي رأسا إلى الكارثة. إنه لمن الأهمية المحورية بمكان، فيما لو أردنا ترشيد مسار العلاقات الدولية، أن نتخذ مقاربات محددة، محنكة ومتنوعة جدا، حيال المسائل الاستراتيجية وتطبيقاتها الإقليمية سواء بسواء. إن الضرورة ستحتّم علينا، ولوقت طويل وطويل جدا بالفعل، أن ندخل في

أنماط ونماذج معقدة من العلاقة الجدلية غير التناحيرية عبر صيغة
"الاستقلال من خلال التكافل" ذات الأثر الفعال على مختلف المستويات
والوئانر.

ب - أما الصعوبة الإيجابية، إذا جاز لنا القول هذا، فهي أشد هؤلاء بكثير. لأنه إذا
كان لنا أن نجارى عملية إعادة بناء النظام الدولي المنطلقة قما باستمرار،
فعلينا حكما أن نكون قادرين على توفير البدائل للأنماط الحالية للتطور
الاجتماعى - الاقتصادى، السياسى والثقافى.

- ٤ -

هذا هو موضع محل دعوتنا إلى تكوين مشروع حضارى جديد للبشرية،
مشروع يتألف هو نفسه من مجموعات متفاوتة: ومع ذلك متباينة، من المشاريع
الحضارية لمذنيات وثقافات العالم الرئيسية فى عصرنا، فضلا عن مميزاتها
وخصائصها المتشكلة عبر التاريخ، وهكذا، بوسع حقبة تاريخية بارزة من تاريخ
البشرية، الحقبة المنفتحة الآن أمامنا، أن تشهد النقاء سيرورتين.

٤ - ١ من جهة، سيرورة تغيير الأنماط التقليدية للقوة فى العالم باتجاه إقامة
نظام دولى جديد على نحو واعد. إذ ليس إلا بخلق مراكز قوية فى مواجهة
الهيمنات القائمة يتسنى للبشرية أن تمارس مزيدا من العقلانية على العنف ومباق
التسلح واستخدام الأسلحة الفتاكة تحديدا، لو فى شكلها الرادع المزعوم. عندئذ فقط
سيغدو من الممكن سماع الدعوات الفلسفية والأخلاقية والوصول بها إلى نتيجة.
ليس من سبيل إلى نزع السلاح إلا من خلال قلب حالة عدم التوازن الحالية فى
النظام الدولى.

٤ - ٢ فى الوقت نفسه، وفى آن معاً، سيرورة أجزاء تقييم لتلك الثروة الهائلة
من القيم الروحية والمفاهيم الفلسفية والتجديدات النظرية، النابعة من صلب
الإبداعية الثقافية لقاراتنا الثلاث، والتي تجد جذورها المتأصلة عميقا فى عظمة
حضارات الشرق، كل ذلك بغية التعجيل بتطوير المشروع الحضارى الجديد، حتى

ولو بصورة جزئية، حتى يكون فى المقدور التصدى لأخطار ومعضلات المجتمعات الصناعية المتقدمة، التى تبرر ما يرتكب من تجاوزات باسم سياسات سباق التسلح، وتصلح عنرا لإخفاء شرورها المتأصلة عن وعى الجماهير.

فى نظرية الإمبريالية والهيمنة

"ألا تستطيع أن تحل مشكلة؟ حسنا. إذن عليك أن تعرف وضعها وتاريخها".

ماوتسى تونج

فإذا أردت أن تفهم ظاهرة ما فلن تستطيع أن تصل إلى ذلك إلا إذا اتصلت بهذه الظاهرة. وعشت في البيئة التي حدثت فيها.. فكل المعارف الحقيقية إنما هي ثمار تجارب حية.

إن الجدليات المادية ترى أن المسببات الخارجية هي شروط التغيير، أما الظروف الداخلية فهي مصدر التغيير، وأن المسببات الخارجية تقوم بوظيفتها من خلال وساطة المسببات الداخلية.

منذ بداية البحث والشرح النظرى الذى نأمل فى أن يشترك فى تطويره عدد متزايد من علماء الاجتماع والمتخصصين فى العلوم الاجتماعية والإنسانية فى مجال الإمبريالية وجدلياتها الملموسة - كما حددنا هنا العلاقات الجدلية بين الإمبريالية والحركات الوطنية خلال التاريخ المعاصر - أقول منذ البداية ظهرت حقيقتان سوف يتكرر ظهورهما بدرجات مختلفة فى مجالات أخرى من عملية تنظيم العلوم الاجتماعية.

أولى هذه الحقائق هو العالم الحقيقى.. عالم الإنسان والمجتمعات التى تعيش فى صراع.. تناضل من أجل تحررها - وربما بقائها - فى عالم يجيش بالاضطرابات.

لقد كان للنظام الرأسمالى وامتداده الإمبريالى الذى تركز فى الغرب منذ أوائل العصر الحديث تأثير قوى دفع الإحساس بالإقليمية إلى حدودها القصوى وعزز

للبعد الدولي لجدليات التكوينات الاجتماعية القومية - الأمم - التى شكلت، ولا تزال تشكل النسيج الأساسى الذى نمت وتطورت حوله الجدليات الاجتماعية لأولى المجتمعات التى ظهرت فى عصرنا. إن العالم ليس عالما واحداً، وهو أمر واضح جداً، ومن جهة أخرى فإن العالم بدأ يتجه إلى تعميق وتكثيف العلاقات المتداخلة بين وحدته المكونة المختلفة بأساليب وبسرعة لم تكن معروفة قبل ذلك الوقت. وليس هذا للعصر الذى نعيشه عصر الاندماج العالمى (العالمية: تطور أخلاقى وسيكولوجى نو جذور ظواهرية) بقدر ما هو عصر بدأ فيه تحريك جدليات الحضارات والثقافات القومية بما يوفر الإطار الذى تواجه فيه الجماعات والطبقات الاجتماعية المتضادة بعضها البعض سعياً وراء السلطة داخل كل تكوين اجتماعى. وأحياناً على مستوى مجموعات محددة معروفة من التكوينات الاجتماعية داخل محيط ثقافى إقليمى واحد.

فى خضم هذه العملية تواجه الإمبريالية الحركات الوطنية ليس فقط فى محيط الدول التابعة التى كانت ممثلة فى مؤتمر القارات الثلاث. وقد كانت آسيا وأمريكا اللاتينية بكل تأكيد هما الميدانين الأساسيين اللذين تكشفت فيهما الجدليات الهائلة للإمبريالية وحركات التحرر. غير أن تطور مصير أوروبا التى يحدها الأطلنطى والمتوسط ومصير الولايات المتحدة عندما حوصرت فى الحركة الارتجاعية لاحتصار الحروب الإمبريالية، وظهور مشكلة السود وغيرهم من الجماعات العرقية فى أراضيهم.. كل ذلك يشير إلى أن إشكالية جدليات الإمبريالية والحركات الوطنية إشكالية موجودة فى قلب العالم المعاصر. إنها تظهر اليوم بصورة أضخم مما كانت عليه خلال منتصف القرن الماضى أو قبل الحرب العالمية الأولى.

أما الحقيقة الثانية فهى أكثر إثارة للاختلاف؛ على الأقل إذا نظرنا إليها خارج بينتها العامة. ويمكن صياغتها كالآتى:

إذا نظرنا إلى ما يسمى بالدراسات العلمية للإمبريالية فإنه يبدو واضحاً أن أفكار هذه الحركات التى أغمست طوال القرن الماضى والنصف فى الكفاح ضد الاستعمار والإمبريالية قد تم تجاهلها عملياً. كذلك غابت أفكار الحركات العمالية

الشعبية التي عادة ما ينظر الفكر المحافظ إلى نضالها على أنه تم حشده. وقد انتصرت معظم الأعمال الحديثة على تفسيرات النصوص الكلاسيكية، خاصة النصوص التي وضعها المنظرون الماركسيون الغربيون، وكان افتراضها أن الأسئلة الأساسية تعنى بتماسك الحديث المنطقي، ودقة الفوارق المفاهيمية والإجازات النشطة وغير الحقيقية لعلوم المنهج ونظريات المعرفة التي تنفر من الواقع الملموس. وترفض المذاهب التاريخية للنقدية، وتصد المعالجة السياسية الاجتماعية للنظرية السياسية بحجة "إنتاج" نظرية سياسية، وهي في هذه الحالة النظرية السياسية للإمبريالية المتضخمة: وقد أصبحوا بطرقها الأيديولوجية.

هل هذا إذن مثال آخر على الانفصام المتزايد بين النظرية والممارسة.. بين الجدليات الملموسة للعالم الواقعي وتفسير هذه الجدليات؟ يبدو أن هذه هي الحال ولكن إلى حدود معينة. وفي هذه الحالة يكون ميدان الملاحظة هو القوة في أعلى مستوياتها طالما أنها تتضمن أيضا البناء الجوهري لشبكة للقوى المهيمنة التي تجد نفسها في مواجهة اتجاه للانفصال عن هذه الشبكة التي تكتسب أيضا مستويات جديدة أعلى. وبنفس المنطق فإنه سوف يكون واضحا أن العمل التتظيري لا يمكن أن يتطور خارج إطار السياسة والرؤية السوسيولوجية للسياسة. إن كل شيء يعود بنا بإصرار إلى علم اجتماع السياسة الواسعة التي لا تعنى بمشكلة السلطة داخل تكوين اقتصادي اجتماعي قومي محدد، ولكنها تعنى بالنضال من أجل السلطة وفي مواجهتها على مستوى عالمي، بما يتضمنه ذلك أيضا على مستوى أوسع من دراسة الجماهير الشعبية، والجغرافيا السياسية والأيديولوجية والاستراتيجية والاقتصاد الدولي والحضارات والثقافة والدولة والثورة.

وهنا لا بد، كما في كل مجالات علم الاجتماع السياسي أكثر من أي مجال آخر، من تأصيل التحليل والشرح النظري. على أن تكون نقطة البداية هي الحقل الاجتماعي في السياسة والممارسة ليستمد منها عناصره الأساسية وإشكالياته وإلهاماته وتوجهاته وفرضياته التفسيرية الهائلة. إن أي أسلوب آخر للمعالجة سوف يكون محكوما عليه بأن يبقى غير متصل بالموضوع، منفصلا دائما عن الاتصال الحقيقي بالشئ الذي يبحثه.

١ - التطور التاريخي لنظريات الإمبريالية

ليس هذا مجال الاستفاضة في سرد تاريخي مفصل ومرتب لنظريات الإمبريالية. ولكننا سوف نحدد ببساطة أهم الأطوار ومراحل التطور النظرى فى علاقته بتطور العالم والمصاعب التى تواجه اليوم هذه النظريات، كل ذلك بهدف تحقيق الانفراج فى المأزق الذى وصلت إليه المعرفة العملية بالإمبريالية.

إن الدراسة النقدية لتطور نظريات الإمبريالية يمكن بناؤها حول لحظتين عظيمتين كلتاهما تمثل المراحل التاريخية الاجتماعية وخطوات التطور فى النظرية فى نفس الوقت.

١ - ١ فترة الإمبريالية الكلاسيكية: المعالجة السياسية ذات البعد الاقتصادى

لقد كان شائعاً فى السنوات الأخيرة أن ينظر إلى دراسة الإمبريالية على أنها تقتصر فقط على دراسة النظرية اللينينية وملحقاتها^(١) مما أدى إلى إحداث خلط بين أهم عمل نظرى علمى وبين كافة الأبحاث والدراسات العلمية الموجودة تحت أيدينا. غير أن بالنسبة لهؤلاء الذين يتخذون هذا الموقف تصبح النتائج التى يتوصلون إليها مجرد مزيد من التدريب فى علم الماركسية مبتعدة مرة أخرى عن الطبيعة الجدلية التركيبية للماركسية، رغم أن هذا الجانب بالتحديد هو الجانب الذى ينبغي إعادة التأكيد عليه الآن.

١ - ١ (i)

إن دراسة التغيرات اللفظية^(٢) التى حدثت أثناء فترة الإمبريالية الكلاسيكية وخصوصاً خلال القرن التاسع عشر، وتركزت حول قوة بريطانيا، تكشف عن خليط غير عادى من الأفكار والآراء الأخلاقية والدينية والعرقية والسياسية والاقتصادية والثقافية والسيكولوجية. فكل شئ مسموح به طالما أنه يبرر "أعباء الرجل الأبيض". هذه الرسالة التاريخية التى أنزلت على أوروبا لتتحمل عبء مصيرها ومهمة تمدين العالم وتحضره.

ويبدو أن كلمة "إمبريالية" ذاتها قد صيغت حوالى عام ١٨٣٠. ثم استخدمت مرة أخرى فى عام ١٨٤٨ لتعزز طموحات لويس نابليون القيصرية.

ومنذ هذه الفترة تطور المصطلح في اتجاهين: في مضمار قد يبدو للبعض مثيرا للدهشة إذا أصروا فقط على إدارة ظهورهم إلى العالم الواقعي، الذي يعد محوره الأساسي الصراع من أجل السلطة على مستوى العالم وليس على المستوى القومي الداخلي.

وهكذا كان العصر الفيكتوري يركز على البعد السياسي للمصطلح، خصوصا من خلال أعمال جلاستون Gladstone و أ. ليال A..Lyal و س. رودس C.Rhodes و جراي Grey و سالزبوري Salisbury و روبرارد كيبلينج Rudyard Kipling و كوبدين Cobden و أ. ميلنر A..Milner و جوزيف شامبيرلن Joseph Chamberlain. تماما كما فعلت الحاشية البروسية في عصر بسمارك، وخصوصا: Bethmann-Hollweg, Moltke, Treitschke, W.Giesebraht and E.Haeckel.

وقد كان لمثل هذا التقليد فعاليته في فرنسا في أعقاب تشامبلين Champlain وريكليو Richelieu بدءا بمشروعات نابليون الثالث. ثم تطورت بواسطة جوليس فيري Jules Ferry و ب ليروي بوليو P.Leroy – Beaulieu و هـ. ليوئي H.Lyautey.

أما الاتجاه الثاني فقد ركز على الفوائد الاقتصادية الناجمة عن سياسة الإمبريالية من خلال المدرسة التجارية التي نشأت في أوروبا في فترة ما قبل الماركسية والتي يمثلها س. ديلثاي Dilthey و كليبينج Kipling و ديزي و م كينجلى ولينتون و د. رويتر. وقبل كل هؤلاء جلاستون مع شومبيتر^(٣) اللذين أعطياها التعبير النظري.

ولقد ذكر مؤخرا - وهو أمر صحيح - أن هذا الاتجاه يعود إلى فترة الصليبية التي استمرت بلا انقطاع لمدة قاربت على العشرة قرون^(٤). وهي الفترة التي كانت مطلوبة لإخضاع الشرق غير المسيحي.

وعن نقطة الالتقاء بين هذين الاتجاهين نجد أن المنظر الأساسي هو الأميرال الأمريكي ألفريد تاير ماهان من خلال عمله الأول: تأثير القوة البحرية على التاريخ". ١٦٦٠ - ١٧٨٣.

ومن الواضح بكل تأكيد أن الاتجاه الثالث الذى يؤكد أولا على أن المشروع الحضارى أو إنسانية الإمبريالية الحضارية هو الاتجاه الذى استنتج أن يحافظ على بقائه وسط حكام الإمبريالية الكلاسيكية. ويجد أن هذا الاتجاه خير تعبير عنه اليوم فى مذهب نيكسون الذى لا تترك قسوته أى مجال للأوهام فيما يتعلق بما تتضمنه الإمبرياليات الغربية من محتوى حضارى: أى التغلب بالقوة والسيف على شعوب وأمم العالم غير المهيمن جسديا وروحيا وقلبا وإرادة.

١ - ١ (ب)

ولقد جاءت نهاية القرن التاسع عشر لتبلور بوضوح النظام الإمبريالى البريطانى والصراعات المترامنة التى أثارها المبادرات الإمبريالية خصوصا فى فرنسا وألمانيا.

إن هذه الخلفية من الصراعات المريرة التى اتسمت بمستوى عال من العنف وانتشرت على مساحة جغرافية أوسع مما كانت عليه فى أى وقت سابق (هذه الأيام التى سبقت الحرب العالمية الأولى) كان حريا بها أن تتمخض عن المحاولات الأولى فى التركيب synthesis من داخل الإطار الأنجلوساكسونى المهيمن ذاته.

وفى عام ١٨٩٠ نشر الأدميرال الأمريكى تاير ماهان كتابه الأول الذى نظّر فيه إلى بناء الإمبراطورية البريطانية من الناحية السياسية.. سيطرة البحر، وهو مجال للسيطرة أنشئ فى حد ذاته على أسس الثورة الصناعية. وليس هناك ما يفسر الصمت الذى أحاط بهذه الأفكار سوى انعدام الثقة فى الجغرافيا السياسية بعد ١٩٤٥.. تلك الأفكار التى بدأت الآن تفقد أهميتها والإحساس بانساقها مع الواقع تلقى اعترافا من خلال إعادة اكتشاف المؤسسة الصناعية العسكرية. وبعد ١٢ عاما من ذلك الوقت وفى ذروة حرب باور Bore نشر جون أ. هوبسون كتابه: "بحث فى الإمبريالية" ١٩٠٢. وقد بنى هوبسون تفسيراته وتحليلاته على السياسة البريطانية فى جنوب أفريقيا والصين وعلى تحليل الاقتصاد البريطانى وذلك بعد جيل من ظهور ماركس. وبعد أن رفض الالتحام بين الإمبريالية السياسية والعسكرية وكبار الرأسماليين، ومعظمهم من اليهود الأجانب ذهب هوبسون إلى

التأكيد على حقيقة أن المشروع "يرتكز في التحليل النهائي على تحالف سرى قوى داخل ثنائي الشخصية القومية.. هذا الشغب العنصرى من أجل السيطرة.. هذا الإحساس الداخلى غير المرشد بالبطولة التى تقيس مجد كل دولة بمقياس إذلال دولة أخرى من أجل الوصول فى النهاية إلى هذا التعريف الذى وصفه هوبسون قائلا: "إن الإمبريالية هى محاولة يقوم بها كبار المتحكمين فى الصناعة لزيادة تدفق الفائض بواسطة اكتشاف أسواق وقنوات للاستثمار فى الخارج يمكن أن تستوعب البضائع أو الرأس الذى لا يستطيعون توظيفه فى بلادهم^(٥). (كوبدين أكثر منه ماركس)، ولكن علينا ألا ننسى حقيقة أن ماركس لم يطرح أبدا مشكلة الإمبريالية.

وبين التحليل الماركسى للحدود الخارجية للاقتصاد الرأسمالى الذى كان مركزه بريطانيا العظمى، والتحليل اللينينى للإمبريالية على أنها أعلى مرحلة من مراحل تطور الرأسمالية.. بين هذين التحليلين يتداخل تطوران كلاهما يقوم على أساس التحليل النقدى لفعالية الإمبراطورية البريطانية. وقد احتفظ لينين والنيكار الماركسى الأوروبي بأحد هذين الاتجاهين اللذين قدمهما هوبسون حتى الحرب العالمية الثانية.

١ - ١ (ج)

هناك عدة قوائم حديثة متنوعة خاصة بالتناول الماركسى للإمبريالية وخصوصا فى إطار البحث الفرنسى بمركز الدراسات والأبحاث الماركسية. وهى قوائم يمكن أن نضيف إليها سلسلة من الدراسات والمؤتمرات الأخرى مثل "تدوة الجزائر" إلى جانب هذا البحث الذى ظهر فى الألمانيتين تحت إشراف Das Argument. وليست هذه بالطبع سوى نماذج لا تمثل بأى حال القائمة الطويلة الشاملة.. هذه الدراسات تسمح بوضع نموذج مؤقت لأنماط المعالجات البحثية فى أوروبا وفى ضوء الماركسية خلال النصف الأول من القرن العشرين.

وهناك مجموعة أولى من النظريات التى تبدأ بتحليل "رأس المال" - وخصوصا الجزء الثالث - وهى تستهدف تحديث كل من نظرية ماركس فى الرأسمالية وبنائها. وهؤلاء المنظرون الذين كانوا منشغلين فى الوقت نفسه بدرجات

متفاوتة في العمل السياسي، جاءوا في معظمهم من وسط أوروبا الأمر الذي يعطى بطبيعة الحال طابعا مميزا لمعالجتهم للمشكلة التاريخية الخاصة التي يهتمون بها.

وفي ألمانيا في عهد فيلهيلم الثاني حيث سيطرت الديمقراطية الاشتراكية اليمينية طالب بيرنشتين في كتابه

"مقتضيات الاشتراكية ومهام الاشتراكية الديمقراطية" (١٨٩٩)

باتباع كتاب ماركس بدقة بعد أن أصبح الجزء الثالث من رأس المال ليس كافيا لتفسير التوسع الألماني وخصوصا المسيرة نحو الشرق.

وقد كان على برنشتين أن يستشهد باسم الاشتراكية ليروى بوليو Leroy Beaulieu عميد مفكرى التوسع الإمبريالى الفرنسى. أما أوتو باور الذى كان باستطاعته الاطلاع على أعمال هويسون وتوجان بارانوسكر فقد بدأ فى كتابه (قضية القومية والديموقراطية الاشتراكية) فيينا ١٩٠٧ من نقطة التناقض بين الشعوب والأمم فى الإمبراطورية النمساوية المجرية (المعروفة اليوم باسم تشيكوسلوفاكيا) وألمانيا صاحبة أحدث صناعة حديثة متطورة. ويشير باور Bauer إلى اتجاه الأخيرة إلى تراكم فائض القيمة المأخوذ من الأولى منتهيا إلى أن التنمية الاقتصادية إذا تحققت على هذا النحو فسوف ينتج عنها أيضا مزايا وفوائد للعمال فى الدول المسيطرة، ومتنبأ فى نفس الوقت بأنه "عندما يحرك رأسمال فى صراعه من أجل الأسواق ومناطق النفوذ الجيوش الضخمة الحديثة التى تتشكل من ملايين الجنود فإنه سوف يكون قد وصل إلى ذروة السلطة".

ومن هنا فإنه سوف يسقط فى الهاوية. هذا الانهيار للإمبريالية على نطاق العالم سوف يأتى معه بالثورة الاشتراكية العالمية.

وهنا نلاحظ أنه فى كل مرحلة يهتم النقاش بأوروبا وبالصراعات الأوروبية - الداخلية، وبجدليات حركة العمال الأوروبية والدول القومية التى تهيمن على القارة الأوروبية: فإذا تمكن رأس المال الضخم من توصيل الأمور إلى نتائجها الحتمية فإنه سوف يؤدي إلى اندلاع حرب أوروبية داخلية سوف تكون نتائجها فى النهاية انتصار أعداء رأس المال الضخم أى العمال الاشتراكيين.

لقد كان باور النمساوى الماركسى يكتب فى وقت تحولت فيه أسطورة الوسطية الأوروبية إلى أسطورة بالية (انتصار اليابان على الصين، الحركات القومية المهمة فى الهند والصين ومصر والثورة فى المكسيك الخ).

وبالنسبة لباور ورفاقه كانت اللعبة دائما إما فائزة أو خاسرة فى أوروبا، وليس فى الغرب ولا فى الولايات المتحدة التى كانت لا تزال فى ذلك الوقت أمة جديدة لم تتحول بعد إلى طرف مهم.

ولقد كان هناك بالتأكيد بعض التحسن منذ دافع برنشتين عن "حق الشعوب ذات الحضارات الأعلى فى ممارسة الوصاية على الشعوب ذات الحضارات الدنيا". ومع ذلك لم يتم حتى الآن تجاوز المعالجة الليبرالية الأخلاقية حيث أن كوتسكى Kautsky الذى ندد بالبعثة الألمانية للصين (١٨٩٩ - ١٩٥٥) رأى فى هذه المعالجة سياسية "شبه إقطاعية" لا تتماشى مع مرحلة التطور التى وصلت إليها الرأسمالية الأوروبية والألمانية. هذه المعالجة وصلت إلى نقطة النهاية فى عمل هيلفيردينج Hilferding.

ثم جاء رأس المال المالى Finance Capital (١٩١٠) ليبلور المعالجة الميكانيكية الاقتصادية بالتركيز على مستوى البناء التحدى: القول بأن انتهاء التنافس على المستوى القومى كان نتيجة التراكم المتزايد لرأس المال الذى جاء بدوره كنتيجة للاندماج بين قطاع الصناعة وقطاع الاحتكارية من جهة والاستراتيجية من جهة أخرى. وقد كانت نتيجة هذه المعالجة إهمال العامل السياسى بمعنيين: أن الإمبريالية تتحرك للبحث عن مجالات للاستثمار خارج أوروبا ولكن تصدير رأس المال نادرا ما يتطلب سيطرة سياسية مباشرة. ومن ثم فإن البديل سوف يكون إما حربا عالمية أو اشتراكية. وكلتاها ثمرة عملية يمكن وصفها بأنها عملية الترشيد الجاذبة نحو المركز أى تدخل إمبريالية عظمى أو عكسها ذات وجه اشتراكى أوروبى.

ولم تفعل روزا لوكسمبرج سوى أنها أضافت المزيد من الظلال والتفاصيل إلى هذه المعالجة. فأولا تعد روزا لوكسمبرج أقل تقدما فى تفكيرها من

هيفيردنج حيث تقول إن الإمبريالية تسعى إلى السيطرة على العالم الخارجى من أجل تسويق منتجاتها أكثر من زرع رأسمالها. ومن هنا يأتى المغزى التجارى للسوق الخارجية. وانطلاقا من ألمانيا انتقلت إلى تحليل اقتصادى بنى أساسا على قياس العوامل المؤثرة فى التنمية الداخلية أو عدم التنمية فى القوى الإمبريالية. وهو تحليل اعتمد على دراسة حالات معينة، خصوصا فى مصر. وفى كل جزء من كتابها (تراكم رأس المال) ١٩١٣، نجد انفصالا تاما وأساسيا عن المسألة القومية وتجلياتها فى العالم الاستعمارى فى تلك الفترة. فهو أساسا بحث نظرى كتب لأغراض سياسية طالما أنه يبدى اعتراضا لفرضيات الديمقراطية الاشتراكية اليمينية فى ألمانيا. إن خلفية أوروبا الوسطى تظهر ثم تغلق على نفسها مرة أخرى وكأنها تسلم بصلاحية نظريتها عالميا.

هذا هو إذن الأساس النظرى الذى بنى عليه لينين مقاله حول: "الإمبريالية أعلى مرحلة من مراحل الرأسمالية" ١٩١٧. وهنا تبدو القضية الأساسية فى مكان آخر. فقد كانت الإشكالية اللينينية بأكملها بقواعدها فى أوروبا وتقاليدها فى الماركسية الأوروبية وحركات العمال الأوروبيين تعنى بوضوح بتحقيق الثورة وليس باستكمال المسار النظرى. وفى الفترة ما بين ١٩١٧ و ١٩٤٢ كان كل شئ قد وضع فى مكانه: أطروحات إيريل، الإمبريالية، الدولة والثورة، الشيوعية اليسارية، إنشاء أول دولة اشتراكية فى التاريخ وتأسيس الدولة الثالثة. لقد عانت روسيا التى كانت أساس اهتمام لينين من الصدمات الأولى التى أحدثها الشرق النائر فى الغرب الإمبريالى الاستعمارى.. الانتصار اليابانى فى عام ١٩٠٥ الذى كان أول خطوة فى مسيرة البعث الطويلة.. شرق ثورى كان له أن يسهم فى تعميق الأزمة التى بدأت بالثورة الروسية عام ١٩٠٥. والتى منيت بالهزيمة قبل أن تتمكن من الوقوف على أقدامها. وبعد ذلك بتسع سنوات دخلت روسيا فى الحرب الأوروبية أو فيما سعى بالحرب العالمية.. مما كلف القيصرية سلطتها فى أكتوبر ١٩١٧. ومن توشىما إلى وينتر بالاس كان لينين يضع استراتيجيته. وكانت قضيته الأساسية هى الربط بين حركة العمال الاشتراكيين فى قلب صراع الإمبراطوريات، والربط أيضا - وإن كان ذلك له مغزى ثانوى فى تلك الفترة - بين هذه الحركات ونضال الأمم والشعوب التى كانت خاضعة لهيمنة النظام

الإمبريالي المشتبك في الحرب. وقد كان هذا التطور بالتحديد هو الذى أخذ الأولوية على البحث عن الحلفاء الداخليين رغم أن هذا المسعى لن يهمل مطلقاً.

وقد كان طبيعياً أن تتدفق النظرة الثاقبة فى ظاهرة القومية الناشئة وفى الأهمية الحاسمة لتوازن القوى الدولى، أى للجغرافيا السياسية، على مستوى أكثر عمومية لتضع بذرة شيوعية الجناح اليسارى والتي استمرت كعلامة مميزة من: "نظامين للديموقراطية الاشتراكية" (١٩٠٥) "خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء" (١٩٢٠) عبر أطروحات إبريل ١٩١٧ التى كانت أساس أول ثورة اشتراكية فى التاريخ.

إن التحليل البنائى للإمبريالية المعاصرة (الخصائص الخمس) قد حدد أهمية الجوهر الاقتصادى العميق والذى كان لا بد من التأكيد على دوره الحاسم فى اللحظة الأخيرة طوال الوقت. غير أن هذا الجوهر الاقتصادى العميق لم يتم التأكيد عليه من منظور اقتصادى ميكانيكى جاف ولا على أساس تنقيح تحليل نظرية المعرفة، ولكن على العكس كان أساس العالم المعاصر الواقعى للحرب الأوروبية التى عبرت عن مستوى نمو القوى الإنتاجية وعلاقات الإنتاج. لقد كان هذا التحليل الواقعى وليس "الخصائص الخمس" هو الذى كشف عن التحولات الجذرية التى حدثت فى واقع الرأسمالية الدولية. لقد استبعدت الرأسمالية الإمبريالية أكثر من مليون شخص فى وقت كانت الجدليات الاشتراكية الأساسية قد بدأت وقبل قرن من الزمان تكشف عن نفسها داخل عالم أوروبا المغلق... هناك عبرت هذه الجدليات عن نفسها فى الصراع الطبقي.. هذا الصراع الذى يسعى إلى إعادة بناء الهيمنة التى تمارسها طبقة أو مجموعة من الطبقات الاجتماعية ضد بقية المجتمع القومى وفى مثل هذا الوقت وفى هذا القطاع من العالم لم يكن للقضية القومية أكثر من دور ثانوى فرعى.

باستطاعة المرء إذن أن يلحظ أن يوجد الخلاف الأساسى بين معالجة لينين وتلك التى قام بها ماركسيو أوروبا الوسطى فى وقت سابق على ثورة أكتوبر. فبالنسبة للينين لا تتفجر القوة الاشتراكية فى محيط التأملات النظرية، وهو أمر

واضح تماما. وقد اكتمل تحليله الواقعي للرأسمالية فى روسيا هنا بالتحليل الواقعي للرأسمالية على نطاق العالم (الإمبريالية على سبيل المثال).

وقد كشف هذا التحليل الثانى عن تعديل فى المجال السياسى الاجتماعى حيث ظهرت المسألة القومية وحركات الاستقلال القومية وميزان القوى الدولى على أنه العنصر الثانى فى الجدليات الاشتراكية فى بداية القرن العشرين. وهكذا لا يمكن أن يكون هناك أى مركب نقدى Criticl Synthesis للجدلية الاشتراكية الرأسمالية (لا ثورة اشتراكية) لا يستمد جنوره من الإشكالية الجديدة للرأسمالية الإمبريالية، وقد كان هذا هو أساس الخط العام للماركسية فى القرن العشرين، والذى حدده كل من لينين وماو، ثم أضاف إليه إضافات مهمة كل ستالين وتوجلياتى وهوشى منه وفيدل كاسترو وذلك عندما أعطوا أولوية للمستوى السياسى.

واليوم وبعد جيلين من كتيب لينين يصبح من المفيد أن نكرر المعالجة السياسية الأساسية والفرضيات العلمية لهذا العمل تشكل الخيط المشترك بين الأغلبية العظمى من الدراسات النظرية والأبحاث الواقعية حول قضية الإمبريالية فى مختلف مجالات العلوم الاجتماعية. وقد كان هناك على ما يبدو عدة محاولات ناجحة تماما للربط بين أسماء الماركسيين النمساويين واسم روزا لوكسمبرج وبين هذه العملية المهمة، خصوصا فى أعقاب فترة المعاداة للستالينية التى أحييت بدورها موجة المعاداة للقومية فى ماركسية أوروبا الوسطى. وكما أظهرت الأعمال الحديثة فليس ممكنا أن يحدث مثل هذا التحول، فكل ما نواجهه هو عمليتان علميتان وسياستان متعارضتان ومختلفتان تماما رغم حقيقة أن كليهما استمدت إلهامها من الأرضية الأيديولوجية النظرية نفسها^(١).

ولقد كان لهذا التحول الأساسى أن ينكشف من خلال الدراسات النظرية حول الإمبريالية خلال المرحلة الثانية للإمبريالية الجديدة ونظام الهيمنة الإمبريالية العالمية كما نفضل أن نصفها وهى الإمبريالية المهيمنة.

١ - ٢ مرحلة نظام الهيمنة الإمبريالية العالمية: الانفصام بين المعالجة السياسية الاجتماعية من ناحية والأيدولوجية من ناحية أخرى.

١ - ٢ (أ) تجديد المعالجة السياسية الاجتماعية

منذ ثورة أكتوبر ١٩١٧ وحتى تأسيس جمهورية الصين الشعبية فى أول أكتوبر عام ١٩٤٩ (خلال ٢٠ عاما تجمع أكثر من خمس البشرية حول الاشتراكية) لم يتطور البحث والنقاش فى الإمبريالية إلا قليلا.

حتى الأعمال التى تناولت هذه القضية فقد اهتمت بالتدوين التاريخى السياسى وبالتحليل المالى والاقتصادى أكثر مما اهتمت بتجديد النظرية. وفيما يتعلق بالمراكز الثقافية الغربية المهيمنة فقد طرحت المشكلة السياسية الاجتماعية الأساسية فى فترة ما بين الحروب من خلال الصراعات الاجتماعية الضخمة، أى الصراعات الطبقيّة داخل العالم المهيمن ذاته. ومع ذلك فلم ينظر إلى ظهور الفاشستية إلا بمعنى صغير جدا وعلى أنها ديكتاتورية الرأسمالية الاحتكارية الكبيرة فى مواجهة الخطر المتزايد للثورة البروليتارية. وقد أكد الكومينترن - وخصوصا منذ فترة سيطرة توجلياتى وديميتروف - على الصلة البنائية بين هذا الطرف، وهو طرف داخلى، بمعنى أنه كان يعمل داخل كل دولة أوروبية اهتزت بالأزمة الاقتصادية العالمية.

١٩٢٩ - ١٩٣٢، والطرف الخارجى للصراع بين مختلف الدول القومية فى إطار النظام الإمبريالى والرأسمالى الدولى.

وهناك أمكن النظر إلى الجدليات الموضوعية لهذين الطرفين على أنهما سيؤديان حتما إلى حرب عالمية جديدة سوف يكون هدفها إعادة بناء مختلف محيطات الهيمنة ومستعمراتها. وكان مفتاح هذه العملية كلها هو التوصل إلى فصل أول دولة اشتراكية فى التاريخ.. الاتحاد السوفيتى.

ودعنا نحلل هذه المشكلة بشكل أكثر تحديدا. فقد كشف الاهتمام الذى حظى به خطر الفاشستية وخصوصا فى ألمانيا عن أن الطاقات السياسية لهذه المجموعة

الجديدة من الدول الإمبريالية تكون موجهة تماما وبصورة طبيعية ضد الدول الأخرى فى المحيط المهيمن أكثر مما تكون موجهة ضد ممتلكاتهم فى المناطق المستعمرة فى آسيا وأفريقيا (أمريكا اللاتينية لم تدخل فى هذا النزاع حتى الحرب العالمية الثانية). ومن ثم نجد ثلاث نتائج لهذا التطور:

١ - أولا نفهم دقيق للعلاقات البنائية بين الرأسمالية الاحتكارية من جهة والنظام الإمبريالى من جهة أخرى. وحيث أن معظم الأعمال قد خصصت للمجتمعات الغربية فإن هذه المجتمعات تشكل أكثر الوسائل قابلية للتحقيق بما يعزز المعالجة السياسية التى يسيطر عليها العنصر الاقتصادى كما هو الحال فى عمل لينين.

٢ - لأسباب واضحة تؤدي هذه المعرفة الدقيقة إلى إدراك أهمية المظاهر العسكرية والسياسية المحددة للنشاط الإمبريالى، وهو ما يؤثر بدوره مفهوم المؤسسة الصناعية العسكرية التى صيغت أول ما صيغت فى أعقاب الانتصار على الفاشستية فى عام ١٩٤٥. أما الدولة التى لا يزال ينظر إليها على أنها نموذج ميكانيكى عضوى - الدولة كعمل للعنف الرشيد الذى يسعى إلى تعزيز سلطة طبقة أو عدة طبقات مهيمنة - فقد بدأ قناعها يسقط نتيجة الممارسات العنيفة لهذه الملحمة المعذبة: فقد كان الجيش والبناء التحتى الصناعى والعلمى الذى يدعمه فى قلب هذا العنف خصوصا فى تلك العمليات الخارجية التى كانت الوسيلة الوحيدة لإنشاء قوة ذات تطلعات هيمنية. قوة إمبريالية قادرة على أن تلحق بنفسها محيطات تابعة مستقلة وأحيانا مستعمرة. كذلك ظهرت هذه الظاهرة التى من خلالها عبرت عن نفسها هذه المرحلة القصوى للرأسمالية على أنها أعلى مستويات ممارسة الهيمنة التى أصبحت مظاهرها العسكرية والسياسية أكثر وضوحا اليوم، طالما أنها كانت أوروبا التى اضطرت منذ ذلك الوقت على مواجهة الخطر المباشر.

وفى الواقع فقد كانت الكتابات الأساسية حول مشكلة التبعية والنضال ضدها فى هذه الفترة هما تلك الكتابات التى اهتمت بالفاشستية من جهة وبالجهات الشعبية الوطنية من جهة أخرى.

٣ - وعلى النقيض من ذلك فقد تحركت إلى المستوى الثانى رؤية الجدليات الاشتراكية فى قلب المنطقة التابعة، أى الحركات الوطنى فى الدول

المستعمرة وشبه المستعمرة والتابعة فى آسيا وأفريقيا. فقد اعتبرت العلوم الاجتماعية فى الغرب المهيمن (وهو أمر طبيعى للغاية) أن هذه المجموعة من العناصر لا تشكل عاملا أساسيا فى الصراع بين القوى. إنها مجرد عامل آخر ولكنه عامل ليس له دور أساسى يلعبه. فهذا العالم لا يستحق سوى المكانة الثالثة. وقد استمر هذا الموقف حتى عصرنا الحالى كما سنرى.

ورغم أنه تم حسم المشكلة داخل الكومينترن فيما بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٢٣ حيث عولجت هناك بالطبع من زاوية سياسية، غير أن الأطروحات الأيديولوجية والنظرية التى اعتمدت عليها المناقشة كانت هى التى حددت توجهات العلوم الاجتماعية ذاتها. وهناك أطروحتان متضادتان تحركت عليهما أطروحة أوروبا الوسطى إلى مجال الانتصار الخارجى. فمن جهة هناك سيراتى Serrati وم. كالينينى M.Kalinini بتأييد من ج. ف ستالين J.V.Stalin وقد اقترح ستالين مقتبسا من ماركس وإنجلز ما أصبح بعد ذلك الأطروحة الأساسية للحزب الشيوعى السوفيتى فى مؤتمره الثانى عشر وهى: "أن القاعدة السياسية لديكتاتور البروليتاريا تتشكل أساسا وأولا فى الأقاليم الصناعية الوسطى وليس فى المناطق البعيدة الهامشية التى تعتبر مناطق زراعية.

وبالنسبة لـ م. كالينين كانت المسألة هى تعليم شعوب الغابات فى كيرجيزيا والأوزبكس والتركمان وتعويدهم على قبول أفكار شعوب ليننجراد.

وقد كان يشير بالطبع إلى الاتحاد السوفيتى بشكل خاص جدا. ولقد أصغر ستالين على قوله "دعونا لا ننسى الشرق". وفى عام ١٩١٨ عين سلطان جاليف نائبا له فى قيادة "لجنة القوميات". كما تكشف أعماله لنظرية فى تلك الفترة عن اهتمامه بالتأكيد على التقارب بين القومية والشيوعية إلى درجة أكبر وهو ما عبر عنه بعمق أكبر مما استطاع أى منظر رائد فى تلك الفترة. وكان من الطبيعى أن يكون تروتسكى هو الذى يسير إلى أبعد من ذلك فى تأكيد العناد "النتظيرى" لقيادات المدن وأوروبا فى العملية الثورية العالمية وبالتحديد فى وقت تجمدت فيه الثورة الأوروبية فى مسارها^(٧).

وعلى الجانب الآخر من النهر دافع سلطان جالييف بتأييد من حنفى مظفر و م. إن. روى وتان ملاكا من مواقع مختلفة عن الأطروحة الأساسية التى صورت فيما بعد بأسلوب مدهش، وذلك فى الوقت الذى كان فيه توازن القوى الدولى الذى استقر فى يالنا عام ١٩٤٥ على أساس تفوق الغرب ينقلب بظهور قادة الثورة الصينية من أمثال شان دوكسيو المؤسس، ثم ماوتسى تونج وشواين لاي ولين بياو بصفة خاصة.

ويقول سلطان جالييف "إن الشعوب الإسلامية أمم بروليتارية، وهنا فارق ضخم بين الوضع الاقتصادى للبروليتاريا الإنجليزية والفرنسية وهذا الوضع بالنسبة للبروليتاريا فى المغرب وأفغانستان. وفى استطاعتنا أن نؤكد أن الحركة الوطنية فى الدول الإسلامية لها طابع الثورة الاشتراكية".

هذه هى الفرضية التى سوف تقود إلى تفوق رياح الشرق عشية الثورة البروليتارية العظيمة. ولقد جاء وقت كان الشرق فيه مخولا بعد إعادة ولادته وهو يفوز بالثورة للاستيلاء على المبادرة التاريخية على نطاق العالم أجمع^(٨).

هذه الفرضية سوف تواجه دائما نفس الأعداء فى نفس القطاعات وفى قلب ذات التكتلات الثقافية التى تظهر احتقارا للعالم الحقيقى. إن أوضح مثل على هذه الكراهية التى يشعر بها عالم محدد أو قطاع غير قومى من اليسار الغربى للاتحاد السوفيتى (لأنه بيروقراطى) والصين (لأنها عنصرية) وكوبا (بسبب واقعية الدولة فيها) بالإضافة إلى مشاعر الكراهية تجاه الأحزاب العمالية والشيوعية والحركات الوطنية الشعبية التى تعمل من أجل الاستقلال والتحرر فى عالم القارات الثلاث.

وفى الفترة من ١٩١٧ إلى ١٩٤٩ تأرجح توازن القوى العالمى ليس نتيجة الثورات الاشتراكية الناجحة فى الغرب (أوروبا وأمريكا اللاتينية) إنشاء نظام فى الدول الاشتراكية الأوروبية "للجمهوريات الشعبية" يرجع أساسا إلى انتصار الاتحاد السوفيتى على ألمانيا الهتلرية - بقدر ما كان نتيجة انبعاث الشرق الشيوعى - كما هو الحال فى الصين وكوريا وفيتنام. ثم بعد ذلك على الطرف الآخر من العالم التابع للثورة الكوبية والنظم للرايكاالية القومية أو الثورية المعادية للإمبريالية فى

العالم الأفروآسيوى، وأخيرا فى عالم القارات الثلاث ككل الذى يعد رواده هم مصر والجزائر وتنزانيا وغينيا وشبلى وبيرو.

ولذلك فإن النضال ضد الهيمنة، وضد الهيمنة الإمبريالية بصفة خاصة، قد انتشر بشكل موضوعى على نطاق منطقة لم يكن من المستطاع معرفة حدودها. فقد انفتحت القارات تحت ضغط الحركات الوطنية وانسحبت الإمبراطوريات الكلاسيكية. وواجهت الإمبريالية الأمريكية الهيمنة ذاتها مقاومة قوية. ولذلك فإن كل العناصر التى يمكن أن تؤدي إلى تجديد نظرية الإمبريالية فى إطار النظرية العامة للعلاقات الدولية كانت موجودة بقوة وبعمق وبصورة لا يمكن الرجوع عنها.

كانت كل العناصر هناك بالفعل فيما عدا الرغبة فى البدء فى هذه العملية التى تعيد "اكتشاف الإمبريالية" والتى دعا إليها هارى ماجدوف Harry Magdoff فى عام ١٩٦٦.^(٩) إن ثراء التجديد الاجتماعى والسياسى الذى حدث من جانب إلى آخر فى القارات الثلاث كان مصحوبا بتحفز على نفس القدر من القوة فى قلب العالم الثقافى للعالم المهيمن، الذى يواجه الآن مقاومة تعد من ناحية التفسير التاريخى مقاومة مريحة ويمكن التحقق منها تقوم على أساس التحليل الخلاق أو التطوير النظرى.

ولقد كان غير المتصور أن تستطيع العواض البنائية التى تكون على مثل هذا القدر من الأهمية أن تسيطر إلى مالا نهاية على حركة التاريخ.

ولقد كانت هناك أربعة أحداث رئيسية ذات أهمية غير متساوية استطاعت أن تدفع عملية التجديد النظرى: تأسيس جمهورية الصين الشعبية فى نهاية المسيرة الطويلة: السويس والناصرية، والمقاومة الفيتنامية الناجحة، وكوبا والكاستروية خلال الستينيات. وسوف نتعرض للمحتوى الأيديولوجى لهذه الأحداث فى الجزء الثانى من هذا الفصل. ولكن ينبغى علينا أن نشير فى هذه المرحلة إلى أن هذا التجديد النظرى يتطور فى خطين مختلفين ومتكاملين فى نفس الوقت: الخط الأول هو تجديد تحليل الهيمنة الإمبريالية الذى يبرز فى المقدمة مسألة طبيعة المؤسسة الصناعية العسكرية. والخط الثانى هو الذى يعنى بالمقاييس الأولية لتطور

الحركات الثورية وحركات التحرر الوطنية ويؤدي إلى وجود مفهوم جدلي للإمبريالية أكثر من تنقية مفاهيمية داخل الإطار المغلق لعلم المعرفة الذي يستجيب عنصره للحركة الحقيقية في المجتمعات الواقعية في العالم المعاصر: الهيمنة الإمبريالية من جهة والحركات الوطنية من جهة أخرى.

ومع ذلك فإن عملية التجديد هذه قد وصلت الآن فقط إلى مرحلة اكتمالها ونضجها ولم تستطع بعد أن تتغلب على مفهوم الإمبريالية الذي لا يزال يسيطر في الغرب حتى الآن. وهذا هو المفهوم الذي يجب أن نبحثه الآن.

١ - ٢ (ب)

لقد حددنا بالفعل التناقضات بين الحركة الحقيقية للعالم من جهة والاتجاه المسيطر في عملية التنظير داخل العالم الإمبريالي من جهة أخرى. ولقد مكنتنا بعض الأعمال الأخرى من أن نعالج هذه الظاهرة بالنظر بصفة خاصة في مشكلات الإمبريالية والبعث الوطني والحركات الوطنية والجيوبوليتيكية ودور الجيش وفي القارات الثلاث، وذلك داخل إطار مجال كامل من المشكلات السوسيولوجية والسياسية التي تتمخض بدورها عن القضية العامة الخاصة بالعلاقة بين الثورة والحضارة. تلك القضية التي تعد نقطة بدايتها النظرية والمنهجية هي تحليل الديالكتيك الاجتماعي الذي اهتمت به منذ عام ١٩٥٦.^(١٠)

وليس الهدف هنا هو تقديم تحليل نقدي منظوم. ولكن بدلا من ذلك سوف نقتصر على مناقشة المحتوى النظري المشترك بين مختلف الدراسات التي تنطلق من الأيديولوجية السائدة، وهي الوظيفية التي تعبر عن نفسها في الجانب الأيديولوجي الرجعي المحافظ، بنفس القدر الذي تعبر به عن نفسها في جانبها الماركسي، وربما بقدر أكبر من الأخير إلى الحد الذي يستطيع فيه المرء أن يسعى إلى اللينينية الماركسية من أجل العثور على نظرية واقعية للإمبريالية.

إن جوهر هذا المضمون المشترك يمكن أن يتضح من خلال ثلاثة عناصر أساسية:

أولا - الإطار العام يوفره لنا ما يمكن وصفه "بعالمية النظرية" التى كان مسلما بها سابقا فى لحظة تاريخية محددة عندما كانت مظاهر الخصوصية العنيدة التى لا يمكن مقاومتها قد بدأت تظهر (الحضارات العظيمة، المجالات الثقافية والتكوينات القومية) فى قلب تلك الأطارات الأيديولوجية التى كانت مدعوة أساسا للقيام بمهمة عالمية (الاشتراكية بالإضافة إلى المسيحية أو لنكون أكثر تحديدا الماركسية والكاثوليكية والإسلام أيضا والبوذية... الخ). ومع ذلك فلا يزال مفسرو النظرية يعطون ظهورهم للجذليات الضرورية للحضارات ويعتبرون العالم سائرا فى طريقه، يقاد ويفكر له بواسطة "العالمية" أو بواسطة رغبة المراكز المهيمنة فى الغرب فى فرضه نماذجها النظرية وأطرها المفاهيمية وفرضياتها - وهى كلها نتاج تجاربها القطاعية - على الحركة الواسعة للعالم المعاصر.

وقد يكون ذلك هو الدافع وراء الموقف الذى اتخذته الكومينترن من الصين فى عام ١٩٢٤ والولايات المتحدة من فيتنام واليسار الغربى المعادى للشيعوية من كوبا وشيلي والطبقة السياسية الأوروبية من مصر والعالم العربى فى ظل القيادة الناصرية أو فى رد فعلها تجاه غينيا والجزائر وغيرهما.

ولنكن أكثر وضوحا: فالإمبريالية ظاهرة عالمية واسعة تتشأ من وجود مركز الهيمنة - الولايات المتحدة التى تسيطر وتستغل المناطق المحيطة بها أى مجالات القارات الثلاث. إن المسرح العالمى قد أصبح أكثر عقلانية - إذا جاز لنا هذا الوصف - مما كان عليه فى أى وقت سابق بمعنى أن الانتشار والتداخل بين دوائر الصراع المهيمنة والمستقلة يمكن التقليل منه بواسطة نظام تنظيمى أو تطوعية نظرية وبحيث توجهه إلى الوسط والأطراف. كل شئ إذن فى مكانه، وأهم من ذلك أصبح من الممكن التخلص من شبح الظاهرة القومية والحركات القومية وشبح التلاقى بين الثورة الاجتماعية والوطنية. وهكذا أيضا زالت احتمالات وجود مراكز قوة لصنع القرار القومى وفرضه مراكز صنع القرار المهيمنة، أى النزعة للطردة إذا شئت.

وكما سنرى فإن ذلك جعل من الممكن تجاهل خصوصية العالم السياسى ذاته لأن كل شئ قد أعطى مكانه فى المشروع النظرى والذى تلتصق به عوامل محددة

قسرا وطوعا أو كرها. تلك العوامل التى سوف يكون تحليلها مرفوضا على أساس أنه تحليل إمبريقى أو وصفى.

إن أحد مميزات هذه المعالجة هو أنها تحشد قطاعا مهما من رأى المطيع حول هذه الظاهرة للإمبريالية التى تعتبر واحدة من عدة ظواهر عالمية من بينها وسائل الاتصال والتحديث وتلوث البيئة والتى سوف تكشف عن أية دراسة دقيقة لها عن تفاوتات وتوزيعات. نفس الاختلاف فى وجودها الفعال وفى أهميتها داخل الكيانات القومية الثقافية المختلفة.

ثانيا - أما العالم الثانى فهو يوفر لنا أداة تحليل الواقع ويمكننا من اختبار كفاية أو عدم كفاية النماذج الأيديولوجية التى افترضت من أجلها. هذه الأداة هى "الانتفاع الميكانيكى بالعامل الاقتصادى" وليس ببساطة الاقتصاد الكلاسيكى البسيط.

إن مفهوم "شكل الإنتاج" سوف يطرح على أنه موضوع أساسى وحاسم أكثر من المفهوم الشامل "للتكوين الاقتصادى الاجتماعى"^(١١) وأكثر من ذلك فإنه طالما يبدو سلم الأنماط الأوروبى لأشكال الإنتاج الخمسة فى الماركسية الكلاسيكية غير قادر على احتواء تنوع المجتمعات غير الغربية التى اكتشفتها العلوم الاجتماعية منذ قرن تقريبا، فإنهم سوف يهرعون إلى اقتراح أنماط أخرى يكون من شأنها تقليل التفاوت، وأن تجعل من الممكن تنظيم عالم معقد إلى درجة لا يمكن تصديقها حتى قبل أن تصل المعرفة العلمية إلى مستواها الأمثل.

هذا هو التفسير التاريخى والأيديولوجى للاستقبال الحافل الذى أعطى لمفهوم (النموذج الآسيوى للإنتاج) والذى يتطلع إليه البعض لإضافته إلى مفهوم "النموذج الأفريقى للإنتاج" الخ. ولا يسع المرء إلا أن يقول أن الخصوصيات الثقافية القومية المختلفة تفرض نفسها بإلحاح على كافة التطويرات السابقة. وعند هذه النقطة يكتسب التطور النظرى فى المراحل الثلاث التى حددناها فى (مستقبل النظرية الاجتماعية) التصديق والاعتماد.

وهذه المراحل الثلاث هى: فقد الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية، وتحديد الميدان العلمى وبنية سلم أنماط وإعادة بناء الجهاز المفاهيمى بالتأكيد على العامل

المزدوج للاختلاف والتباين. وهى الأداة المفضلة التى يستخدم فى تحقيقها وتوضيحها مفهوم الخصوصية^(١٢).

إن النتيجة التى سوف تتمخض عن طرح مشكلة الإمبريالية بهذا الأسلوب سوف تتلخص فى إمكانية الاستثمار الدقيق (ربما يكون دقيقا دقة الرياضيات) للخط البياني لعلاقات القوى على مستوى العالم.. وبالتالي فإن العناصر التى عينت طبقا لوضعها الاقتصادى تظهر على أنها حالات عديدة لا تختلف جذريا إلا فيما يتعلق بتقدمها على نطاق أنماط أشكال الإنتاج وإلى الدرجة التى يوجد فيها تنوع فى كثافة العوامل الاقتصادية داخل كل عنصر.

إن منطق التغيير يفرض نفسه على عالم متغير، والجدلية الاجتماعية تعمل طبقا لضرورات محددة سلفا تمشيا مع هذه الحسابات الاقتصادية. إن الأمم والمجتمعات، الطبقات الاجتماعية والتكوينات السياسية، الثقافات والأيديولوجيات تدخل أوتوماتيكيا فى نشاط على أساس "مبدأ تطورى" يوفر لها المفتاح الاقتصادى ولكنه لا يستطيع إلا أن يثير شكلا معينا من أشكال السلوك الذى لا بد له بدوره أن يثير نتيجة معينة... الخ.

إن إهمال خصوصية العامل السياسى يظهر على أنه نتيجة لا يمكن تفاديها لهذه الآلية التى يتسم بها الفهم العلمى للإمبريالية والحركات الوطنية.

ثالثا - هذا الإغفال لخصوصية العامل السياسى لا يستتبع بالضرورة إغفال وجود وضرورة الصراعات السياسية. ولكنه يعنى بدقة أكثر إغفال العملية السياسية والنظر إليها على أنها لا شئ سوى التحول الأوتوماتيكى والمقدر سلفا لاحتياجات نمط الإنتاج وللصراعات بين أشكال الإنتاج المختلفة.

وهكذا فإن إغفال العامل السياسى يمكن النظر إليه على أنه يودى إلى العامل المكون للثالث وهو اليأس السياسى.. هذا اليأس الذى أدى إلى وجود للفوضوية وأسلوب حرب العصابات والاعتداءات الوحشية على رشادة وعقلانية العملية السياسية خصوصا فى تنوعاتها الشيوعية.

وفى حقيقة الأمر فإنه إذا أمكن تنظيم التداخل بين الوحدات المختلفة داخل أشكال الإنتاج المتنوعة مقدما على أساس تعريف هذه الوحدات المختلفة طبقا للمعايير الاقتصادية، فإن العمل السياسى الذى يستمد جذوره من المشروع السياسى وأشكال صنع القرار والتنظيم يصبح عندئذ أقل أهمية. ونستطيع أن نقول إذن إن الثورة كانت مستحيلة فى أى من دول المجال المعطى - أمريكا اللاتينية والعالم العربى - إذا سلمنا بالمفهوم الذى تتوحد طبقا له أشكال الإنتاج المهيمنة، أى تلك الخاصة بال رأسمالية الإمبريالية تحت إشراف الولايات المتحدة التى تقوم بعملية تجميع "الوسط على نطاق العالم" (الأطراف).

إن الحل الأوحى سوف يكون تدمير المركز الإمبريالى نفسه، رغم أن المرء سوف يضطر بالضرورة إلى قبول احتمال الثورات القارية القادرة على كسر القوة الإمبريالية الخائفة. وهكذا فإن أى شئ لا ينفذ عمليا المشروع النظرى للثورة العالمية سوف يكون مدعاة للاحتقار والتقليل من شأنه ورفضه على أنه ادعاء مبالغ فيه. وسوف يتخذ نفس هذا الموقف إزاء نظرية مراحل الثورة وتجاه حركات الاستقلال الوطنى التى تقوم على أساس التحالف مع البرجوازيين الأصليين (عند النقطة التى تبدأ منها فى القيام بدور وطنى) وتجاه الطبقات العمالية ودور الجيش فى بلدان تلعب فيها الدولة دورا تاريخيا رئيسيا فى تدعيم المجتمع الوطنى وتجاه التعايش الذى بدأ يدخل بوضوح مرحلة أكثر تعقيدا - وإن كانت أقل تحديدا - من مراحل جدلية دوائر التعايش المضاعفة وتجاه دور النظام فى الدول الاشتراكية وتجاه استراتيجيات التحالف العالمى بين الدول الاشتراكية والأحزاب من جهة والحركات الوطنية المعادية للإمبريالية، من جهة أخرى.

وبينما ننتظر انهيار المركز المهيمن - وهى عملية تاريخية بكل وضوح - فإن كل ما نستطيع أن نقوم به لسياسة فن الممكن، على حد تعبير ماركس، كخطوة على طريق التحرر والثورة سوف يدان بجريمة "الانتهازية" باسم التطهر الثورى.. هذا للتطهر الذى طالما ظل عاجزا عن رفع أصابعه سوف يستسلم بطبيعة الأمر لليأس والوهم وللعمليات اليائسة. وهو مثل واضح على المستوى السياسى والأيدىولوجية السائدة التى تعد أساسا "الفكرة السلبية"^(١٧).

هذا التوصيف التحليلي المختصر يرجع بوضوح إلى ذلك الموقف النظري الأيديولوجي السياسي الذي تجمع في القرن العشرين حول أسماء ليون تروتسكي وروزا لوكسمبرج. أما الجدليات المعاصرة فهي تدور أساسا بين تفسيرات وتاويلات مختلفة. نحن نعرف إلى أى مدى يندر مستمعو هذه المجموعات داخل الحركات المعادية للإمبريالية في العالم أجمع.

٢ - من الأيديولوجية إلى علم الاجتماع: جدلية الإمبريالية

إن القلق المتزايد في نظرية الإمبريالية المعاصرة يرجع إلى المسافة التي تفصل باضطراد بين أحدث محاولات تطوير نظرية - خصوصا تلك التي تنتمي إلى الإطار الوظيفي - وبين التحديات التي يمثلها لهم العالم الواقعي.

إن جهل واضعي هذه النظريات الحديثة الذي يتجلى عندما يبدعون في معالجة التحليل النقدي الذي يوفره لهم قادة الإمبريالية، حول موضوع هو من صميم خبرتهم الملموسة - خصوصا في فيتنام - هو أمر مثير للدهشة. ولذلك فإن كتاب "جوهر الأمن Essence of Security" الذي نشر في عام ١٩٦٨ والذي ينظر فيه جوزيف ماكنامارا إلى حالة المشكلة ويحلل أسباب الهزيمة ويحدد مسار الإمبريالية المهيمنة في المستقبل، كان ينبغي أن يلفت أنظار الباحثين أكثر من تلك الكتابات القصصية التي تهتم بالرؤى الغامضة لعالم ثوى (مانوى) وتتعهد بتكريس نفسها للشهادة والبعث. ذلك لأنه في جوهر التحليل الذي قدمه رجل كان، ولا يزال، بعد المنظر الأساسي لبناء السلطة في الإمبريالية المهيمنة للولايات المتحدة تكمن الحقيقة الوطنية؛ الظاهرة القومية.

فقد كان فشل الإمبريالية في فهم الظاهرة هو الذي أدى إلى الهزيمة في فيتنام وفي التحليل النهائي إلى الخسارة في آسيا كلها. إن هذا النقد الذاتي التحذيري (والذي يمكن البناء عليها بأشكال مختلفة) يمد العالم التابع ككل بمفتاح الخطأ الإمبريالية الرئيسية حتى عام ٢٠٠٠ وفيما بعد، إنه منظور للسلطة السياسية القائمة على السيطرة على عملية التنمية وهي محل التنمية العسكرية المالية الكلاسيكية.

إن للتطور الذى نود أن نراه هو ذلك الذى يكون هدفه التغلب على هذا الانفصال الذى هو نتيجة أساسية للطابع الوظيفى الغربى المزدوج لغالبية الكتابات النظرية حول الإمبريالية. أى القول بأن نضع عملنا فى قلب العملية الملموسة التى تحدث الآن فى العالم. ومثل هذا التطور يجد صياغته من خلال عدة فرضيات أساسية نلخصها فيما يلى:

٢ - ١ الإمبريالية كظاهرة اجتماعية عالمية

إنه أمر ضرورى ونو جدوى لأى تحليل أن نبحث ظاهرة فى حد ذاتها ولكن ينبغي أن ننتبه دائما إلي حقيقة أساسية هي أن الإمبريالية بوصفها ظاهرة اجتماعية عالمية ليست ظاهرة أحادية المعنى.

فالإمبريالية وجدت فقط عندما كانت هناك أمم هناك وتكوينات قومية وحركات وطنية تتطلع إلى الاستقلال والحكم الذاتى...^(١٤) حكم ذاتي وجد الاستعمار والإمبريالية فيما بعد أن رسالته الأساسية هي عرقلته وإخضاعه وتفكيكه وتدميره. وإذا كانت دوافع ظاهرة الإمبريالية مجرد دوافع داخلية أساسا أي تلك التى تتعلق بمستوى تطوير رأس المال الاحتكارى، الذى يقوم على أساس الدور الرئيسى لرأس المال فإن القوة الطاردة تجاه السيطرة الخارجية ترى فقط على إنها موضوع معين للبحث عن الحد الذى تلتقى فيه هذه الحركة الخارجية وتضطدم بالمقاومة. وهكذا فإن بناء الإمبراطورية التى تسعى إلى السيطرة عليها يولد من استخدام العنف ومن الممكن أن نتخيل دراسة للإمبريالية فى خضم الصراع من أجل السيطرة على الإنتاركتيك أو القمر. ولكن يبقى دائما أن التحليل لنشاطات الإمبريالية البريطانية فى الهند ومصر والفرنسية - والبلجيكية والإيطالية - فى أفريقيا، والألمانية فى أوروبا، والأمريكية فى آسيا وأمريكا اللاتينية هو الذى يوفر أساسا موضوع للعمل التحليلي والنظري الذى يتطور اليوم والذى ننتظره فى المستقبل. ونحن نعرف أن أكثر الحالات إحياء أو أكثرها ذخرا بالصعوبات و الاستكشافات المنورة هي بالتحديد تلك الحالات التى تتصادم فيها الأشكال المختلفة من الإمبريالية مع المجتمعات الصغيرة التى تعد فى حد ذاتها تكوينات قومية

راسخة قادرة على المقاومة العميقة للتغلغل الإمبريالي. ذلك لأن هذه المقاومة تستمد جذورها من المشروع السياسى الذى يعتمد فى أساسه على هوية قومية تعززه، والذى يختلف جذريا عن القفزات والطفرات التى يستطيع المرء أن يلاحظها فى مكان آخر والتى مهما كانت تستحق فهى فى نفس الوقت غير ذات فاعلية.

إن ذلك يعنى أنه ليست هناك نظرية للإمبريالية ليست فى أساسها البنائى جدلية للسيطرة والتحرر، وفى هذه الحالة بين الهيمنة الإمبريالية والحركات الوطنية. إن دراسة نظرية الإمبريالية دون وضع الظاهرة منذ البداية فى إطار الجدلية الكاملة للهيمنة والاستقلال وفى قلب جدلية للعلاقات الدولية للقوى فى عصرنا سوف يكون بمثابة إدارة ظهورنا للواقع. وهنا كما فى كل مكان آخر فى العلوم الاجتماعية ينبغى على علم المنهج أن يفسح المجال لعلم الاجتماع. وعلى النظرية العقائدية أن تتخلى عن مكانها للتحليل الديالكتيكى - إلا طبعاً إذا كان المرء يتخيل أن الإمبريالية المهيمنة تحركها رغبة فى تنقية مفاهيمها الأساسية وتخفيف صرامتها المنهجية.

إن مشكلة هؤلاء الذين يؤمنون بهذه النظرية عن العالم إلى جانب هؤلاء الدارسين والمنظرين الذين يتوقون إلى جعل أعمالهم متناسقة مع العالم الواقعى هى مشكلة مزدوجة: فمن جانب عليهم السعى إلى فهم دقيق لعلاقات القوى بين المجتمعات القومية والقوى المحتملة فى عالمنا المعاصر. وبذلك يرسو عملهم على أرضه الحقيقية. ومن جانب آخر عليهم تطوير إطار مفاهيمى قادر فى المقام الأول على أن يكون وسيطا بين العوامل المتضادة المكونة لصورة العالم، ثم على تحديد علاقة جدلية رشيده بينها وأخيرا على توحيدها.

إن الإطار الذى نرغب فى رسمه من واقع البناء الداخلى لهذه الجدلية يتطلب مفهوما منظما. ولذلك فإنه من المناسب عند هذه النقطة أن نناقش هذا المفهوم المسمى بمفهوم الخصوصية.

٢ - ٢ مفهوم الخصوصية

إن تحليل مفهوم الخصوصية يمكن أن يقدم فى لحظات مختلفة:

٢ - (أ) فى البداية: فى لحظة التعريف العام

حتى نستطيع أن نحدد خصوصية مجتمع معطى فإننا سوف نسعى إلى عمل دراسة نقدية للتطور التاريخى للتكوين الاقتصادى الاجتماعى القومى المعطى وهو ما سيمكننا من تحديد النمط الخصوصى للاستمرارية الاجتماعية فى هذا التكوين. إن شكل الاستمرارية الاجتماعية هذا هو ببساطة النمط الخصوصى لتنظيم وتداخل للعناصر الأربعة الأساسية المكونة لكل نظم الاستمرارية الاجتماعية وهى: إنتاج الحياة للمادية داخل حدود جغرافية وبيئية مقررة (شكل الإنتاج) والتكاثر (النشاط الجنسى) وللنظام الاجتماعى (السلطة والدولة) والعلاقات الزمنية (الطبيعة النهائية للحياة الإنسانية والديانات والفلسفات). وفى هذه المجموعة يلعب عامل إنتاج الحياة للمادية دورا حاسما فى تنظيم نمط استمرارية ككل ولكن فقط فى المثل الأخير. غير أن تطبيق هذا النموذج على مجتمعات مختلفة سوف يجعل من الأسر رسم الصورة ككل والتغلب على مناطق وظلال الاختلاف من خلال الملاحظات السائدة. فى التحليل الأولى الذى تم على أساس المعايير الاقتصادية الاجتماعية^(١٥).

٢ - ٢ (ب) لحظة الوعي بالعوامل الزمانية المكانية

إن دراسة الخصوصية لا يمكن أن تتم فى إطار البحث المنهجى الخالص، بل ينبغي إتمامها فى إطار التطور الملموس للمجتمعات المعطاة. وبعد عنصر الزمن عاملا أساسيا فى هذا التطور. ومن هنا تأتى أهمية مفهوم "عمق المجال التاريخى"^(١٦). ولا يتعلق الأمر بالكشف عن الخصوص فى قلب مجتمع يختار اعتباطا.. حركة طلابية مثلا أو دولة نحتت فى أرض منعزلة (بيافرا من نوع ما...) الخ. ولكن عندما نتحدث عن الاستمرارية الاجتماعية فإننا نعنى بذلك فترة تاريخية طويلة تؤدى بالتالى إلى تكوين مجتمع.

إن المسألة ليست مسألة مصادفات أو احتمالات. وهكذا نستطيع أن نتحدث عن خصوصية تكوينات اجتماعية قومية ذات أساس قوى (المحيط الذى لا يتيسر فيه فهم هذا التصور) لهذه المجتمعات التى لم تكتسب الوضع القومى بمعنى أدق "وللألم الجديدة" كما وصف توماس جيفرسون الولايات المتحدة.

ومن الواضح أن الشبكة سوف تنتشر وتتسع أو فى حقيقة الأمر فإنها سوف تغطى نظم أمم وشعوب عصرنا الراهن.

أما فيما يتعلق "بعامل المكان" فإن العلوم الاجتماعية سوف لن تكون على مثل الاسترخاء وذلك لأسباب يمكن نسبتها على الجيوبولوتيك^(١٧).

فالتطور التاريخى للمجتمعات لا يحدث فى محيط جدلية الروح - التاريخ بدلا من التاريخ - ولا داخل حدود المنهجية المغلقة. إن المجتمعات تتطور ولكنها تتطور فقط داخل حدود وجودها الجغرافى الذى يتحدد من منطلقين: الموقع الذى يتحكم فى كيفية تقييم المكان الذى يعنيه الموقع للمجتمعات، وفى علاقات دول هذه المجتمعات بعضها ببعض، أى تأثيرها السياسى الجغرافى على سبيل المثال. وثانيا الظروف الداخلية... البيئة مثلا التى تصف وتضع الحدود على الموارد والإمكانات المحتملة، وهى عوامل سوف يتم تعديلها وتكييفها طبقا لاعتبارات ديموجرافية.

٢ - ٢ (ج)

لحظة جدليات عوامل الاستمرارية والتحول

بمعنى آخر يمكن الاحتفاظ بالاستمرارية الاجتماعية من خلال عملية تطور تمر بتحولات جذرية ابتداء من أشكال الإنتاج (وهى حاسمة فى المثال الأخير) وتصل إلى الحدود التى يحددها مستوى نمو تكنيك الإنتاج. وحتى نميز ما يدعم وما يتم تدعيمه (وهى قضية مختلفة تماما عن قضية الثوابت التى يثيرها فيبر Weber) داخل نمط معين وبين ما لم يوجد بعد ولكنه فى الطريق إلى الوجود وما هو موجود الآن ولن يكون موجودا فى المستقبل.. أن نميز بين هذه العوامل الأربعة عن غيرها أيا كانت القيمة النسبية لهذه العوامل الأخرى فى أى حقبة تطور تاريخى معينة.. هذه هى المهام الأولى.

سوف يستعمل مفهوم الخصوصية فى كل من المحيط المهيمن والمحيط التابع

إن الإمبريالية هى نظام من الدول الإمبريالية المهيمنة أكثر منها كيان أو وحدة موحدة. وقد كان الأسلوب والوسيلة التى تمارس بها الدول الإمبريالية هيمنتها مألوفة لدينا بعض الوقت، ومع ذلك لم يحدث إلا نادرا أن وجدت محاولات للربط بين هذا الجانب من الإمبريالية وخصوصية الدولة القومية التى تمارسها، أى وضع وحالة الخطوط السياسية وتحليلها، والاستراتيجيات والتكتيكات التى توصى بها والتنافس بين الإمبرياليات المختلفة.

إن لدينا العديد من الأدوات الكاشفة، غير أنه ليس هناك تفسير سوسيولوجى نستطيع أن نلجأ إليه. وهذا التصور يصبح أغرب عندما نعرف أن مارس ودوتوكفيل وفير (ناهيك عن ابن خلدون وأرسطو) الذين أشاروا بإشارات دائمة فى بحثهم عن السياسات الأوروبية الغربية إلى الصلة بين طبيعة التطور التاريخى لكل دولة قومية (خصوصيتها) والعلاقات التى تقيمها هذه الدول فيما بينها فيما يتعلق بالقوى والتبعية.

إن كل شئ يحدث كما لو كان خارج أوروبا بعيدا عن الغرب. وقد اقتسمت كل الدول المهيمنة بالتساوى هذا العبء الذى يتحمله الرجل الأبيض إلى الحد الذى اشتركت عنده أكثر الدول تقدا فى النظام الرأسمالى الغربى والأوروبى ككل فى الاستغلال الشامل للدول التابعة. وفى هذه الحالة فإن استخدام مفهوم الخصوصية ينبغى أن يودى إلى أن نأخذ فى الاعتبار التباينات الموجودة فى جوهر النظام فى الدول الإمبريالية المهيمنة. وهذا بدوره سوف يسمح بمزيد من الدقة فى تناول هذه التباينات.. فى هذه الحالة النضال من أجل التحرر الوطنى. لأن فى ذلك تعمل أكثر القضايا أهمية فى التاريخ المعاصر.. قضية العالمية والطموح الإنسانى مباشرة على تقليل تأثيرات القمع.

إنك تستطيع أن تقول ما شئت عن حركة التاريخ ولكن التحليل النقدى الذى يستطيع أن يكشف ويقسم ذلك فإنه شئ يخشى منه.

وعلى الجانب الآخر من النهر، فى المحيط التابع الذى يضم الجزء الأعظم من القارات الثلاث لآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية تتحرك الجدلية الاجتماعية على محور تشكل الحركات الوطنية بأوسع معنى لهذا المصطلح: التكوين، إعادة التكوين، والتجميع وإعادة التجميع، بعث الأمم وحركات التحرر الوطنى وحركات المقاومة الوطنية والثورات الوطنية، والثورات الاجتماعية والوطنية... إذن ليست هناك أية صعوبات. فمفهوم الخصوصية يعمل إذا جاز القول فى قلب للمحيط الذى هو ملكه.. وذلك لأن من أهم ملامح الحركات الوطنية هو تأكيدها على الهوية القومية، وتحديد المشروع القومى، والتغلب على قوة القرار القومى تحت قيادة البرجوازية الوطنية أو عمال المدينة والريف^(١٨).

وسوف تنشأ الصعوبة فقط عند التمييز بين هذا القبول الإجماعى للقومى، وبين دراسة نقدية تتناول الجوانب الإيجابية والسلبية لمفهوم الخصوصية فيما يتعلق بقدراتها على إيجاد حل لواقع التبعية أو الفشل فى ذلك.

وليس هناك أهم من المقارنة بين مصر محمد على ويابان ميجى فى القرن التاسع عشر سوى المقارنة الأشمل التى لا بد أن تكون بين التطورات المختلفة جدا والموازية فى نفس الوقت التى أدت إلى فتح أبواب الصين واليابان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وهناك العديد من الحالات الأخرى، أى بمعنى آخر من المهم جدا أن نفهم لماذا تسمح الخصوصية لدولة أن تتطور من التبعية إلى الاستقلال، أى تركد أو تتجمد، أن تجرب المصاعب والتراجعات بأساليب تبدو فى ظاهرها غاية فى التعارض حتى أنها غالبا ما تنسب إلى الأزمة وحدها.

٢ - ٣ مرحلتا جدلية الإمبريالية

بين علم اجتماع الإمبريالية أو سوسيولوجيا الإمبريالية على أساس مفهوم الخصوصية وبمساعده.. هذا المفهوم الذى لا بد من النظر إليه من زاويتين فى مرحلتين:

١ - لحظة أو مرحلة التحليل البنائى لجدلية الإمبريالية الذى يسمح بوضع العنصرين المكونين - المحيط الإمبريالى المهيمن، والمحيط القومى التابع -

حول عاملين: للخصوصية (العامل الداخلى وميزان القوة العالمى "العامل الخارجى").

٢ - لحظة أو مرحلة الديناميكية الواقعية لهذه الجدلية أو التضاد بين هذين المكونين وتطورهما.

٢ - ٤ المحيط التابع: الحركات الوطنية

إن أى تحليل بنائى لجدلية الإمبريالية سوف يسعى إلى تحديد البناء الداخلى لكلا المحيطين اللذين يشكل التضاد بينهما لب جدلية الإمبريالية.

٢ - ٤ (أ)

يعد محيط المجتمعات القومية التابعة الأساس ونقطة البداية فى نفس الوقت: فالتكوينات الاجتماعية القومية تشكل فى حقيقة الأمر النسيج الأساسى للجدلية الاجتماعية على مر التاريخ، وسوف يظهر أن ذلك سيستمر على ما هو عليه فى المستقبل القريب.

ومع ذلك فينبغى أن نوضح أننا لا نناقش "الأمم" بالمعنى الأوروبى للكلمة ولكننا نناقش "التكوينات القومية" التى حددنا سلم أنماطها فى البداية. وينبغى أن نؤكد مرة أخرى على أن الأساس ليس حقيقة التبعية، ولكن الأساس هو وجود مجتمع قومى واستمراريته. هذه المجتمعات القومية كما نعرفها اليوم تتوزع بالتساوى بين كل من المحيطات المهيمنة والتابعة. وبالمثل فإنه من الواضح أن المجتمعات القومية فى المحيط التابع اليوم هى التى تطرح بقوة مطلب الوجود القومى المحكوم ذاتيا إلى حد أن التطور البنائى للإمبريالية المهيمنة يمنحها فرصة أعمق للنفاذ وأكبر أثرا مما كان عليه الأمر فى العصر الكلاسيكى للاستعمار.

وهكذا فإنه فى المجتمعات القومية للمحيط التابع التى تعد أيضا أكثر عددا بالمعنى الديموجرافى يطرح بعد الخصوصية الداخلى بأعظم تأثير، حيث يكون النضال الوطنى نفسه منظما على أساس الشخصية القومية والتغلب على الهوية القومية وسلطة القرار القومى، سواء فيما يتعلق بالبناء القومى أو إعادة البناء وإعادة للتجميع أو البعث القومى.

ماذا عن العامل الثاني؟ هنا أيضا تشير الدلائل إلى أن المجتمعات القومية في محيط التبعية تعى بحرص الإطار الجيوسياسي للقيود الخارجية التى تعمل فى وسطها. إن تقدم الإمبريالية المهيمنة فى حد ذاته يجعل ذلك أمرا حتميا. وقبل أى شئ فإن هناك قوتين ضاربتين نوويتين تواجهان الصين (الأسطول السابع) والأسطول السادس الرابض على سواحل العالم العربى. ومع ذلك فإنه لمن الجدير بالإشارة فى نفس الوقت أن نقول إن هذه الدرجة العالية من الوعى على المستوى القومى تكون مصحوبة ببعض الالتباس وبعض اللين داخل الطبقة السياسية. ويمكن تفسير ذلك فى جزء منه فى هذا الدور غير المتناسق الذى تلعبه العلوم الاجتماعية والتى تتركز فى مراكز ثقافية يقع معظمها فى المحيط المهيمن.

على أن النظرة إلى علاقات القوى العالمية التى طورها مفكرو وسياسيو محيط التبعية تعتمد إلى حد كبير على ما يسمى بالمعلومات العلمية التى يزودون بها والتى استمدت من رؤية مختلفة تماما.

وهناك المزيد: فإذا تمحصنا فى الديناميكية الواقعية للحركات الوطنية داخل محيط التبعية فإنه سوف يكون واضحا أن الثورات الاجتماعية والوطنية فى هذه الدول عادة ما تتجه إلى اتباع أحد طريقين، إما طريق الصيغ العديدة للخط العام الذى يستمد إلهامه من بؤرة ثورية قوية (الاتحاد السوفيتى - الصين)، وإما من جهة أخرى طريق التطوير القومى الذاتى للخط العام. وفى الحالة الأولى سوف تتأثر رؤية علاقات القوى العالمية بقوة بالبؤرة الثورية الأساسية كما يتم التعبير عنها من خلال الحزب وجهاز الدولة إلى الحد الذى تعزز فيه هذه الرؤية لعلاقات القوى العالمية منظور وإرادة وسياسية الدولة.. أى دولة محتملة فى علاقاتها بأى نظام اجتماعى أو أيديولوجى تؤيده.

وبعد ذلك سوف يكون التقييم الزائد عن الحد أو التقييم الضعيف الذى يشكل طبيعيا جزءا من الرؤية العامة له صداه على المستوى الوطنى أيضا.

ومع ذلك فإنه يمكن البدء فى مشروع قد يبدو غير قابل للتحقيق فى إطار توازن القوى العالمى (قبتام على سبيل المثال) وتنفيذه اعتمادا على إرادة القيادة

الثورية الوطنية لفيتنام. وفي نفس الوقت اعتمادا على التأييد والمؤازرة المشتركة والأساسية لكل من الصين والاتحاد السوفيتي. ومن جهة أخرى فإنه ما قد يبدو غير قابل للتساؤل بمعنى الحقيقة السياسية - مثل حرب العصابات التي تزعمها جيفارا في أمريكا اللاتينية - ربما يجد نفسه أيضا مدفوعا إلى النمو داخل حدود رشيدة عقلانية: على سبيل المثال داخل حدود عامة للجبهة الشعبية والوطنية كما حدث في ظروف مختلفة وبأساليب مختلفة مع كل من فيدل كاسترو وسلفادور الليندي.

ويتبع ذلك مبدأ أساسي هو: أنه لا يمكن معرفة معايير كل من هذين العاملين: الخصوصية وتوازن القوة العالمي معرفة موضوعية وقياسها بصورة فعالة في العملية الواقعية لجذلية الإمبريالية إلا فقط عندما تكون قيادة النضال الثوري وقيادة حركات التحرر الوطني في أيدي قيادة وطنية شعبية مستقلة.

٢ - ٤ (ب)

خلال عملية حصر التطور التاريخي للتكوينات الاجتماعية في أنحاء العالم فإن لحظة تقسيم العمل في المجتمعات البدائية.. تلك اللحظة التي تتكون فيها الطبقات الاجتماعية وبالتالي جهاز سلطة الدولة تكون مصحوبة على المستوى الاجتماعي الداخلي (ثم بعد ذلك على المستوى الدولي) بظهور ظاهرة الصراع من أجل الهيمنة بين وحدات اجتماعية سياسية متعددة. لذلك فإن المحيط المهيمن لا يوجد إلا فقط بعد وجود المجتمعات القومية ولكنه يتبعها بارتباط وثيق، لأنها هي ذاتها الحالة التي ترتبط فيها بنائيا ظواهر التنافس والتوسع والسيطرة والهيمنة بوجود الدولة.

وعلى مر تاريخنا المعاصر كشفت الهيمنة عن نفسها بأسلوب كلاسيكي كظاهرة سياسية وثقافية وأيديولوجية إلى جانب شكلها الإمبريالي الذي حلله لينين.

وسوف نتطرق في الجزء القادم (جزء ٢ - ٥) إلى طبيعة الإمبريالية في الوقت الحالي بعد أن أصبحت ظاهرة لها سيطرة عالمية وليست فقط مجرد تغلغل مالى واقتصادي وسياسي. أما الآن فإنه يجدر التطرق إلى العوامل الداخلية والخارجية التي تحكم محيط الإمبريالية المهيمنة.

وفيما يتعلق بدراسة عامل الخصوصية فإن الاتجاه العام سوف يكون التقليل من أهمية هذا العامل، حيث أن دولة المنطقة الإمبريالية المهيمنة التي ولدت عن طريق التوسع الأوروبي سوف تستمر في العمل في مناخ "العالمية"، وهو أنسب مناخ لإخفاء طبيعة نظامهم المهيمن على باقي أنحاء العالم. إن تغلغلهم في محيط التبعية سوف يفسر على أنه تغلغل أملاء ذلك العبء الواقع على كاهل هؤلاء الرجال البيض الذين كرسوا أنفسهم من أجل مدنية وتحضر آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية من خلال الاستعباد. غير أن الأهم من ذلك هو أن الإصرار على خصوصية كل دولة من الدول المهيمنة في وقت الأزمة العامة سوف يكون من شأنه إضعاف الحالة بتفتيت المشكلة. وفيما عدا هذه الكليشيات فإننا نعرف هذه الصراعات الدامية التي أدت إلى المواجهة فيما بين دول الغرب الرأسمالي والإمبريالي في هاتين الحربين الممتدتين وللتين روى أنه من المناسب وصفها بالحروب العالمية تمشيا مع الفكرة (العالمية) التي تقول بأن ما يخص أوروبا يخص بالضرورة العالم أجمع. وتبدو الحالة أوضح بالنسبة لحرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ عندما اتخذ الصراع بعدا جديدا بسبب اتساع نطاق العمليات وبسبب الطابع العالمي للصراع ضد الفاشستية وفشل محاولة عزل الاتحاد السوفيتي.

وأخيرا كان المحرك أو الدافع الثالث الذي تأسس مباشرة على المعادلة العالمية التي تم الاتفاق عليها في يالطا عام ١٩٤٥ والتي كانت نتيجتها، وهو أمر واقع سمح للغرب بالاستمرار في إملاء المسار العام للتطور التاريخي، إننا نعرف كيف عدل انتصار الثورة الصينية وتأسيس جمهورية الصين الشعبية في أول أكتوبر عام ١٩٤٩ هذه الخطة بشكل جذري، لكنها في نفس الوقت لم تؤد إلى التخلي عنها. وإذا نظرنا إلى تجربتنا الخاصة المعاصرة فإننا سوف نعرف أنه توجد فوارق جذرية بين السياسات الاستعمارية لدول مثل بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا وهولندا وبين تصرفات ألمانيا هتلر أو يابان تروجو. وهي الإمبرياليات الكلاسيكية، وسوف نعرف أيضا التطور العام للإمبريالية الأمريكية الذي يجعلها متميزة عن كل ما عرف من إمبرياليات.

إن هذا يمثل جرعة لا بأس بها من الخصوصية (ولنتذكر أننا نتحدث عن أكثر الدول القومية الغنية في عالمنا المعاصر) حتى لو كانت تختفى وراء قناع الرغبة في عدم الاستعراض، وأن تظل على هذا الجانب من الخط في الوقت الذي يكون فيه التحرر والثورة التي تنتجر في موجهتها على نفس القوة من العمق والجزرية. وينطبق الحال على العامل الخارجى - توازن القوة العالمى.

وفيما عدا الولايات المتحدة - "أمة جديدة" - عادة ما تتجه الدول الإمبريالية المهيمنة إلى إخفاء تفوقها الواضح تماما. وهذا يتطلب منا أن ننظر إلى مجموعة كاملة من العوامل التي سوف تكشف توازن القوى الحالى فى العالم. وهى مستوى النمو الاقتصادى والثقافة والأيدولوجية والمعتقدات الفكرية والتاريخ وأسطورة التراث... الخ.

إن الإمبريالية المهيمنة سوف ترغب فى أن تكون مقبولة كوريث شرعى للتفوق التاريخى لأوروبا والغرب وليس كجهاز قوة يحارب من أجل الحفاظ على سيطرته من خلال الاستخدام المحسوب للفاتر لأقوى وسائل العنف التى عرفها الإنسان فى تاريخه.

إنه لمن الواضح أننا أبعد ما نكون عن المزايا التى يكشف عنها التحليل البنائى الذى تم فى إطار المجال الإمبريالى. هذا المحيط للمهيمن أو هذه الإمبريالية المهيمنة تقدم من جهتها صورة قاصرة تماما عن مواقعها وإمكاناتها الفعلية وعن أعمالها وسلطانها. وهكذا فإن الطريق يكون مفتوحا أمامنا لنلقى بعض الضوء على الديناميكية الملموسة لجدلية الإمبريالية.

٢ - ٥ المجال المهيمن: الإمبريالية المهيمنة

إن الدراسة الصحيحة لجدلية الإمبريالية فى عصرنا ينبغي أن تعكس الترتيب فى عرف كل من العاملين المكونين للجدلية، حيث أنه من الواضح أن الحركات الوطنية المعاصرة تستمد فعاليتها - بالتحديد من أخذ الإمبريالية المهيمنة فى الاعتبار (على الرغم من أن ذلك ليس سبب وجودها كما أكدنا فيما سبق فى قسم ٢ - ٤ (أ)).

وبعد التأكيد على ذلك وحتى نستطيع أن نحافظ على ذات الإطار المقارن للحظتي التحليل فإننا سوف ندرس كلا من هذين العاملين بنفس الترتيب الذى عرضا به من قبل:

٢ - ٥ (أ)

أولا وقبل كل شئ: الحركات الوطنية فى مجال التبعية (العامل الداخلى). وسوف نحتاج هنا لأن نقرر كيف كان لنا أن نميز بينها وبين غيرها من العوامل الأخرى للجدلية الاجتماعية، وهو ما أشار إليه كل من كونت Conte وسبنسر ودير كايم Durkheim على أنه الديناميكية الاجتماعية.

إن باستطاعتنا أن نميز عدة أنواع مختلفة من الديناميكية، وبالتالى عدة أنواع مختلفة من الحركة الاجتماعية: حركات الجماعات أو الطبقات فى المجتمع والحركات السياسية بمعناها المجرى والحركات الثقافية والفلسفية والدينية والأيدولوجية، وحركات الجماعات الاجتماعية من غير الطبقات الاقتصادية، الاجتماعية. وهى الجماعات التى تتشكل على أساس معايير ديموجرافية وعرقية وجنسية على سبيل المثال.

إن كلا من هذه الأنماط المختلفة للحركات يظهر بصورة أو بأخرى محدودا فى فعاليته وقوته واستمراريته فيما يتعلق بعمقه وتأثيره، أو بمعنى آخر فيما يتعلق بمدى كفايته الاجتماعية.

وأحيانا - وإن كان ذلك لا يحدث إلا نادرا - تعترضنا ظواهر تتميز بمستوى عال غير معتاد من التركيز والتماسك التنظيمى، وذلك على الرغم من خصائصها القطاعية الأخرى التى تحد من اتساع وإمكانيات نموها. وكوميون باريس مثل على ذلك، حيث نرى هنا بوضوح عند أية نقطة تستطيع الحدود التاريخية الموضوعية كحركة مثيرة كثيرة خلاقة كهذه سواء، فيما يتعلق بالقطاعات المشتركة فيها أو فيما يتعلق باستمرارية وكثافة الحركة بمعنى اجتماعى أوسع (إطار التكوين الاجتماعى القومى. الأمة ككل) أن تتنقص بشكل مباشر من فعالية الحركة ككل، لذلك فهى تمثل النقطة الأمثل للحركات الاجتماعية غير القومية^(١٩).

ولا فائدة من الغضب. فالمشكلة الأساسية للجدلية الاجتماعية في الواقع يمكن تحديدها في أنها مشكلة التوصل إلى خليط يجمع بين المدى والكثافة الاستمرارية. أي أنها مشكلة البحث عن تحالف يضم أوسع مدى ممكن من القوى بهدف أن يأخذ هذا التحالف على عاتقه القيام بأعلى مستوى ممكن من النشاط إلى الحد الذي تستطيع فيه هذه القوى أن تتوحد حول أهداف قادرة على إثارة كثافة عمل معنوي. وهذه بالمعنى الدقيق المحدد هي الطابع والدور المميز للحركات الوطنية في أي مكان وفي أي وقت تنشأ فيه، وسواء كانت حركات تحرر وطنية أو جبهات عسكرية وسياسية وطنية حيث يكون هدفها بناء دولة قومية وإعادة بناء الجماعة القومية والمقاومة الوطنية والثورة الوطنية بالارتباط مع ثورة اجتماعية... الخ.

هنا... وهنا فقط يكون لنا إطار من الإنجازات التاريخية الضخمة التي أمكن تحقيقها نتيجة تكوين أوسع جبهة ممكنة من كافة أشكال الحركات الاجتماعية غير القومية: من الأتاتورية في تركيا إلى الماوية في الصين إلى الناصرية في مصر إلى الكاستروية في كوبا.. في كل أشكال المقاومة الوطنية أو النضال من أجل التحرر الوطني في أوروبا النازية أو في الجزائر أو في فيتنام والهند الصينية وشيلي عبر النطاق الكامل للتكوينات الاقتصادية الاجتماعية والنظم الأيديولوجية والسياسية.

وهكذا نأتى إلى جوهر الموضوع: إن الحركات الوطنية هي المنبت الأساسي الذي تتكشف من خلاله الجدلية الاجتماعية في أوقات الإمبريالية المهيمنة والثورات. وهكذا فإنه يمكن النظر إلى العامل الداخلي للحركات الوطنية على أنه نتيجة الاندفاع الأقصى إلى الاستقلال الوطني الذي يشكل في حد ذاته أعلى درجة من التعبير عن هذا الخليط من المدى والكثافة والاستمرارية الذي يمكن لأي حركة اجتماعية أن تكتسبه في تاريخنا المعاصر.

٢ - ٥ (ب)

وعلى المحور الآخر فإن الإمبريالية المهيمنة - العامل الخارجي - تبدو شيئا مختلفا للغاية عن سابقتها أي عن الاستعمار والإمبريالية التقليدية^(٢٠).

ومصدر الاختلاف هنا هو التطور التكنولوجى الذى يدعم سلطة الدولة ككسل فى قلب العملية الاقتصادية. وهناك عامل واحد حيوى هو أنه لأول مرة فى تاريخ الإنسان اتحد العالم منذ منتصف القرن التاسع عشر وإلى ما بعد. فقبل مائة عام من هذا التاريخ - ولناخذ نقاط حدودنا من البيان الشيوعى لعام ١٨٤٨ وتأسيس جمهورية الصين الشعبية فى عام ١٩٤٩ - كان العالم يتشكل من أوروبا وأمريكا الشمالية والممتلكات الأوروبية فى أفريقيا وآسيا. وكان أكثر من نصف البشرية ونصف شعوب أراضى العالم يعيش فى الظل (لم تدخل أمريكا اللاتينية الوعى السياسى العالمى إلا فى سنوات ما بعد الصين). وخلال الجبلين الماضيين سمح التقدم فى الصناعات الكيميائية والمعدنية والطبيعة النووية والتقدم فى الاتصالات والإلكترونيات.. سمح للتكامل العالمى أن يقطع مسافة طويلة، فاكشفت مناطق هامشية وأقيمت علاقات اتصالية بنائية بين الشعوب والأمم والدول والثقافات. وأنشئت قطاعات على نطاق واسع داخل السوق الدولية (القطاع الرأسمالى، والقطاع الاشتراكى الأوروبى والقطاع الصينى، حتى أصبح من المألوف أن نشير إلى التكامل فى السوق العالمية، أى فى سوق واحدة تسيطر عليها الولايات المتحدة وحلفائها الرأسماليين فى أوروبا وأمريكا) إلى جانب أشكال التطور والنمو الاقتصادى فى فترة ما بعد الاستقلال الخ... هذا التطور وهذا التحول العميق فى آلية العلم والتكنولوجيا يشكل بالقطع ثورة... ثورة علمية وتكنولوجية تعد بدورها أساس ثورة صناعية ثانية فى الدول المتقدمة صناعيا.

ولكن ماذا كانت انعكاسات كل ذلك على الظواهر الإمبريالية؟ كانت النتيجة الأساسية هى: تحريك مركز الحركة الإمبريالية بعيدا عن "البناء التحتى" الاقتصادى الاجتماعى ومن اتجاه "البناء الفوقى" السياسى العسكرى والأيدىولوجى.

وفى الحقبة التاريخية التى حلها لينين كانت القوة الدافعة بوضوح هى الاحتكار ورأس المال، أعلى مراحل الرأسمالية فى ذلك - ومن هنا كانت التجليات الكلاسيكية (من تصدير رأس المال إلى الحروب بين الدول الإمبريالية خصوصا حرب ١٩١٤ - ١٩١٨).

أما الثورة التكنولوجية (التي تحدثت فقط في دول المجال المهيمن وفي الاتحاد السوفيتي والصين بعد إنشاء نظام الدول الاشتراكية) فإنها سوف توفر في نهاية الأمر أدوات تحقيق حلم الهيمنة... حلم كل الدول المهيمنة المحتملة وهو اندماج الصورة الكاملة للجدلية الاجتماعية في المجال المهيمن ككل على أساس نظرة عالمية مشتركة وإرادة سياسية وجهاز سلطوي للنظام المركزي المهيمن. وما لم تستطيع إنجلترا فيكتوريا أن تتصوره إلا بشكل غير كامل في عصر سيد البحار والحكومة غير المباشرة وأسلوب الحياة الإنجليزي أمكن تحقيقه في فترة ما بعد حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ بواسطة الولايات المتحدة.. مستودع القوة الموروثة للتاريخ الغربي، ولقد أصبح ذلك العمل الحديث المهم الذي أصدره جابريل كولكو وهاري ماجدوف ولجنة الباحثين الآسيويين الموجودة في The Bay area Institute في بيركلي. ومن وجهة نظر أخرى بواسطة ج ماكنمارا وغيره.

وبمعنى آخر فإن الثورة العلمية والتكنولوجية أدت إلى وجود أداة جديدة - المؤسسة الصناعية العسكرية - لممارسة سلطة الهيمنة السياسية ولتحل محل طبقة الاحتكار الفردية التي سادت في الفترة السابقة. ذلك لأن الجهاز العسكري يبدو هو الوحيد القادر على تقليل التعدد وتوحيد الكيان وفرض الاتجاه السياسي العام بسبب استعداده التكنيكي (السلاح والتكنولوجيا)، وأهدافه التقليدية وامتداده في المساحة (جيوبوليتيكا)، ودرجة عقلانية التنظيم العليا. وقد كان ظهور مؤسسة القوة هذه في المرحلة الأولى داعيا لتدعيمها عن طريق تقسيم العالم بعد يالنا والثورة الصينية إلى نظامين اقتصاديين اجتماعيين ضخمين، وأكثر من ذلك فإن ممولى وقائدى الصناعة كانوا فى حاجة إلى درع جديد تام يعزز هيمنتهم فى وجه تحالف الدول الاشتراكية والحركات الوطنية المعادية للإمبريالية.

إن هذا التحليل الأولي يؤدي إلى مباشرة إلى البحث عن الدوافع. والتحليل الإحصائي المقارن يكشف عن أنه إذا كان حجم الفوائد التي تراكمت بواسطة الإمبريالية فى مجال التبعية قد زاد بصورة ملحوظة (كنتيجة فى جزء منها لفتح مناطق كانت هامشية للتغلغل الاستعماري)، فإن نسبة هذه الفوائد العائدة على الناتج

القومى للدول الرأسمالية الأساسية فى انخفاض. وبمعنى آخر فإن الدافع لم يعد دافعا ماليا وإقتصاديا فحسب - وفى حالة الولايات المتحدة لم يعد هذا الدافع دافعا أساسيا، رغم أنه لا يزال دافعا مسيطرا بالنسبة لبعض الدول الإمبريالية الأقل أهمية من الولايات المتحدة. إن الإمبريالية المهيمنة لم تعد تحشد كل قوتها من أجل ضمان سيطرتها على السوق القيتامية ولا لضمان تدفق البترول من جنوب شرقى آسيا أو الشرق الأوسط. فالقضية أصبحت على ما يبدو قضية من نوع مختلف تماما. أى أنها قضية التحكم فى توجيه وتنظيم عملية التنمية العالمية، وحتى قرارها، على أساس احتكار القطاع المتقدم للمعرفة العلمية ولالإبداع الفكرى.

وإذا كانت الثورة فى وسائل الإعلام قد جعلت من الممكن الوصول إلى أبعد الأماكن عن الأرض فإن محتوى ما ينتقل من مدى المجال المهيمن يستطيع أن ينفذ إلى أعماق الشعوب والأمم والثقافات. وبذلك يكون باستطاعتها أن تفرض الحدود على فكرها وعلى مداركها وأحاسيسها العاطفية إلى جانب طرح حلول وصيغ وأساليب ليست مناسبة لها. ومن هنا تبدو أهمية عامل البناء القومى، وفيما عدا حساب مستويات فائض القيمة فإنه لا ينبغي علينا أن نغفل عن رؤية الدور الأساسى الذى تلعبه الإمبريالية فى التحكم فى عملية التوجيه والقرار والتنظيم للتطور العالمى.

إن الإمبريالية المعاصرة فى معناها الحقيقى ما هى إلا إمبريالية مهيمنة تمارس أقصى درجات العنف المرشد فى أعلى مستوى له منذ أى وقت مضى، ومن خلال القوة والسيف، ولكن أيضا من خلال محاولة السيطرة على القلوب والعقول. ذلك لأن محتواها يتحدد بواسطة العمل المشترك بين المؤسسة الصناعية العسكرية والمراكز الثقافية المهيمنة فى الغرب، وجميعها قام على أساس مستويات متطورة من التقدم الذى حققه رأس المال الاحتكارى ودعمته كلاً من مزايا الثورة التكنولوجية والعلمية والثورة الصناعية الثانية ذاتها.

ولأول مرة فى التاريخ أدى هذا الافتحام إلى وجود وسائل السيطرة بقاعدتها فى التحكم فى الفضاء. ومن هنا جاء انبعاث الجغرافيا السياسية.

٢ - ٦ تقدم النظرية

وعندما يأتي قطبا الحركة الواقعية للتاريخ فى العالم المعاصر (على عكس الترتيب المنهجي للعناصر فى المجال النظرى الذى يستجيب للاحتياجات الأيديولوجية المجردة) وجها لوجه فإن نتائج مهمة لا بد أن تظهر على المستوى النظرى. فقد وصلت التناقضات الاجتماعية - الجدليات الاجتماعية إلى مستوى من الكثافة والمدى والعمق هنا لم يكن معروفا فى أى وقت مضى من تاريخ الإنسانية. ومعنى ذلك أنه عند هذا المحور بالتحديد للجدليات الاجتماعية يحتاج البحث أن يمتد إلى أكثر الظواهر الاجتماعية وضوحا فى مغزاها، وإلى أكثر التناقضات ثراء فى المشكلات والمنظورات. هذا هو المجال الذى يعد أكثر خصوصية فى الاستكشافات الجديدة والذى يعد أيضا أكثر المجالات الصالحة كأساس لوضع نظرية عامة للمجتمعات تجمع بين أعلى درجات التعارض فى إطار أكبر مساحة اجتماعية عيانية.

يكن إذن مستقبل النظرية السياسية والاجتماعية فى الدراسة العلمية لعلاقات القوى الدولية - علم اجتماع العلاقات السياسية الدولية - والتى يعد جوهرها الأساسى سوسيولوجا جدليات الإمبريالية والحركات الوطنية.

إننا لم نعد نتناول "المناطق التخصصية"، ولكن ينبغى أن تكون كافة محاولات التنظير القائمة حاليا أو التى ستحدث فى المستقبل مرتكزة على هذا المجال الجدلى الذى يعد فى نفس الوقت أوسع إطار عام للجدليات الاجتماعية ومحتواها الحاسم. وهكذا فإنه ما من شئ له قيمة، ومن ثم ما من عمل نظرى يمكن أن يتم خارج إطار العالم الواقعى.

إن فى استطاعتنا أن نقيس إلى أى مدى وصلنا خلال القرن الماضى، ولكن تقدم النظرية يسير مع خطوات العالم.

٣ - إطار القوة: ملاحظات نحو المستقبل

٣ - ١ إدراج النظرية فى العالم الواقعى

سوف يكون واضحا أن محتوى العمل الذى لا بد من إتمامه من أجل إيجاد تفهم فعال ودقيق لسوسولوجيا الإمبريالية، أى حتى نضع نظرية سوسولوجية تعتمد بشكل صارم من الناحية البنائية على ديناميكية إطار العلاقات الجدلية للقوة فى العالم. وكما هو الحال فى كافة مجالات علم الاجتماع السياسى (وهنا أكثر من أى مجال آخر) يعد العمل النظرى عملا عضويا ومكملا للمعرفة بالسياسة.

إن الصعوبات تنشأ مباشرة من هذا الارتباط العضوى: من جهة نتيجة ظهور الشرق والقارات الثلاث المنسية فى العالم المعاصر، ومن جهة أخرى من الثورة العلمية والتكنولوجية فى المحيط المسيطر. وهما اللتان أدیتا إلى اضطراب ميزان القوة العالمى. بالإضافة إلى ذلك فإن هذه العملية قد اكتسبت فى جيل واحد سرعة متزايدة.

لقد تغير كل شئ تقريبا فى العالم. غير أن هذا التغير فى حد ذاته ليس عملية ثابتة أو ظاهرة تحدث لأول مرة، ولكنها ظاهرة مستمرة فى التفوق على نفسها. كيف إذن نستطيع أن نبني نظرية للإمبريالية على مثل هذه الأرضية المتحركة؟ يحدث ذلك فقط بالوصول إلى تفهم نظرى للطابع الجدلى العميق للنشاط النظرى نفسه كما يحدده تطور العالم الواقع، أى بإدراك أن العمل النظرى إذا كان له أن يتحول إلى مثالية ميتافيزيقية لا يستطيع أن يشمل بناء وظيفة بنائية جديدة أيا كان مظهرها الأيديولوجى. كما أنه لا يستطيع عكسيا أن يظل عند مستوى الانطباعية المرنة، حتى لو ارتدى الألوان الظواهرية.

إن نقد المحور النظرى لمجال علمى معطى بواسطة إدماج حركية العالم بالمعرفة التى اكتسبناها عنه لا بد أن يضمن مستوى أعلى أو تركيبا جدليا من المعرفة النظرية أكثر تطورا، والذى يعد فى نفس الوقت شكلا من أشكال المعرفة المتكاملة تاريخيا لظاهرة معطاة فى وقت محدد من التاريخ وفرضية علمية يمكن

الانطلاق منها إلى تحقيق مستقبلي لما في عملية الحدوث ولم يأخذ بعد شكله المحدد. هذا هو الأسلوب العلمي في العلوم الطبيعية. غير أن تبني هذا الأسلوب في العلوم الاجتماعية لا يزال يتراجع في يومنا هذا. أو يخضع للأيديولوجية السائدة التي ذهبت تبحث عن عقيدة جديدة في نفس اللحظة التي يبدأ فيها الغطاء الخاص الضامن للعالمية المتمركزة في الغرب في التصدع.

ومن خلال دراسة الخطوط النشطة للقوة في قلب جدلية الهيمنة الإمبريالية والمحيط الوطني يمكننا أن نحدد بعض قضايا البحث. وتبدأ في تطوير منظور خاص بإطار القوة في عام ٢٠٠٠ وفيما بعد.

٣ - ٢ نحو تعايش سلمى ثلاثي ذات متغيرات متعددة

منذ مؤتمر فيينا في عام ١٨١٥ وحتى مؤتمر يالطا في عام ١٩٤٥ اهتمت أوروبا أولا ثم الغرب ككل برسم خطوط النفوذ للدول الكبرى. وإذا كان مركز القرار السياسي قد اقتصر على أوروبا وبعد معاهدة فرساي (١٩١٩) انتقل إلى أمريكا الشمالية. فقد ظلت مناطق النفوذ نفسها محددة للغاية: أوروبا وأمريكا الشمالية والمستعمرات الأوروبية ومناطق التبعية أساسا في أفريقيا وآسيا الجنوبية، ولكن أيضا هنا وهناك في أقاليم أخرى نشأت في أعقاب التجارة ومواقع الحدود والقواعد العسكرية في الحاميات.

وفي يالطا كان المنظور هو ذاته إلى حد كبير، فهناك كانت المهمة الأساسية هي تقسيم أوروبا إلى نظامين أيديولوجيين وسياسيين اجتماعيين على أساس خط تقسيم، سواء كان خطا رسميا أو ضمنيا اعتمادا على القوة العسكرية لكل من المعسكرين (الأطلنطي ووارسو). وفي هذه المناسبة أصبح البحر المتوسط - وقبل ذلك المحيطان الهادي والأطلنطي - تشكل جزءا من المنطقة الغربية. فيما عدا ذلك فقد كان الموقف أقل وضوحا. فلم ينظر حتى بعين الاعتبار إلى الصين (كان ذلك في عام ١٩٤٥) بينما استمرت آسيا كما كان الحال من قبل أرض الصيد الخاصة بالإمبرياليات الكلاسيكية، تماما مثل أفريقيا والعالم العربي، حيث لم يكن مسموحا

تحت أية ظروف أن يخرجوا عن مجال النفوذ الغربى. أما أمريكا اللاتينية فلم يأت حتى ذكرها ولا أية منطقة وراء المحيط الهندى، سواء نصف الكرة الجنوبى أو المناطق القطبية.

إن حجم المساحة التى تم توزيعها فيما بين عامى ١٨١٥ - ١٩٤٥ تعكس مباشرة حجم التوسع الغربى. ومع ذلك فقد كانت وجهة النظر السائدة فى يالتا هى أنه ما لا يخضع للسيطرة الغربية لا يمكن أن يشكل موضوعا مستقلا فى التاريخ السياسى، وهكذا بالتالى لا يمكن أن يصبح مركزا للقرار على المستوى الدولى.

إن انتصار الثورة الصينية فى عام ١٩٤٩ كان خليقا به أن يصبح نقطة تحول فى التاريخ العالمى، وبالتحديد لأنه وضع الشرق الثورى المنبعث من جديد (مجال التبعية) فى قلب العلمية السياسية الدولية.

ومنذ عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٧٠ - أى جيل بالكاد - تغير التوازن فى أعقاب فشل كل من الثورات والثورات المضادة. وبدا أنه تم الوصول إلى حد أو إلى بداية لما ظهر بعد ذلك على أنه ميزان قوة دولى جديد وبما يحدد علاقات القوة فى هذا النصف الأخير من القرن العشرين: إقامة السلطة الشيوعية فى الصين، ودعم فيتنام، والوجود الثقافى للنظامين الأيديولوجيين والسياسيين فى أوروبا واستمرارية الحركة القومية المعادية للإمبريالية وترسيخها فى آسيا والعالم العربى وأفريقيا. ثم وصول أمريكا اللاتينية إلى المسرح وانتهاء عملية تهيمش تلك الدول التى اختفت فى يالتا (ألمانيا، اليابان، إيطاليا) واستقلالية فرنسا ديجول وظهور أهمية العامل الثقافى (فى الثورة الصينية، ولكن أيضا فى البحث عن الذات الأوروبية... الخ).

إن الخطوط الأساسية لتوازن القوة العالمى الجديد يمكن تحديدها ببساطة فى الآتى:

٣ - ٢ (أ)

بإستطاعتنا أن نحدد دائرة القوة الأولى فى أوروبا حول الاتحاد السوفيتى. وتضم هذه الدائرة محورين أساسيين للتناقض، وبالتالى للتعايش مع محور

فرنسا- الاتحاد السوفيتي التقليدي في أعقاب إنشاء "المقاومة الديجولية"، ولكن قبل ذلك محور ألمانيا - الاتحاد السوفيتي الذي جاء نتيجة قرار جماعي اتخذته الطبقة السياسية في الاتحاد السوفيتي بضرورة إعطاء قوة دفع للنمو الصناعي والعلمي والتكنولوجي. وهو النمو الذي لا تستطيع أن تساهم فيه سوى ألمانيا الاتحادية في إطار سياسة الأوستوبوليتيك وتحت حماية المظلة النووية السوفيتية.

إن هذه الدائرة سوف يكون من شأنها ممارسة نفوذ مباشر على المناطق التالية: البحر المتوسط، الشرق الأوسط والأدنى، شبه الصحراء الأفريقية والمحيط الهندي وشبه القارة الهندية في آسيا. ثم تأثير أكثر محدودة على أجزاء من الأطلنطي الشمالي والأوسط، وجزء من أمريكا اللاتينية وجزء لا بأس به من المنطقتين القطبيتين.

٣ - ٢ (ب)

دائرة القوة الثانية يمكن أن تتشكل من آسيا في تجمعها حول الصين لتضم محورا أساسيا واحدا للتناقض وبالتالي للتعايش: المحور الياباني - الصيني. فبعد انتصار الثورة الثقافية فتحت الصين أبوابها للعالم، وواجهت ضرورة إعطاء حافز قوى للتنمية الداخلية في المجالات الصناعية والعلمية والتكنولوجية. ولقد كان هذا هو دور اليابان بمجرد أن يستطيع رأس المال الياباني الضخم أن يؤكد استقلاليتته عن الولايات المتحدة. إن هذه الدائرة سوف يكون من شأنها ممارسة سيطرة مباشرة على آسيا والمحيط الهادي بالإضافة إلى شرق أفريقيا وعلى مدى مساحة القارات الثلاث بصفة عامة.

٣ - ٢ (ج)

أما أمريكا فسوف تشكل حول الولايات المتحدة الدائرة الثالثة للقوة، وسوف ينشأ التناقض ولكن ليس بالضرورة الحاجة إلى التعايش بين الولايات المتحدة من جهة وكندا والدول الاشتراكية وأخيرا البرازيل من جهة أخرى. وهنا سوف تمارس الولايات المتحدة نفوذها مباشرة. ومن هذا المنطلق يصبح من المهم أن نشير إلى التوزيع الجديد للقوة داخل محيط الهيمنة في شكل "مثلث مقلوب". فقد استبدل مثلث

يالتا، الذى كانت أوربا والولايات المتحدة تشكلان قطبيه الشماليين، بينما تعد أفريقيا نقطة التقائه الجنوبية بمثلث آخر، والولايات المتحدة هى نقطة التقائه الشمالية. فى حين تتكون زلويتاه الجنوبيتان من منطقة الهادى وأفريقيا شبه الصحراوية؛ أى نصف العالم. وفى واقع الأمر فإن قاعدة هذا المثلث تتسع لتضم كل المحيط الجنوبي (جنوب الهادى استراليا، إندونيسيا، أفريقيا الجنوبية، جنوب الأطلنطى وأمريكا الجنوبية) إلى جانب جزء لا يستهان به من المنطقتين القطبيتين الشماليين.

٣ - ٢ (د)

وداخل إطار القوة هذا بأقطابه الثلاثة الرئيسية (الصين، الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتى) لابد من إيجاد نمط آخر من التعايش، فبدلاً من التعايش الثنائى السلمى سوف نجد من جهة تعايشاً سلمياً ثلاثياً. ومن جهة أخرى شكل أو عدة أشكال من التعايش السلمى الجزئى داخل كل محيط للقوة على حدة. ومما لا شك فيه أن التحرك من تعايش سلمى ثنائى ثابت أساساً إلى هذا التعايش السلمى الثلاثى ذى التتوعات العديدة سوف يسمح بالضرورة بتفاعل دقيق ومتنوع للتبديلات والتكوينات الجديدة: بمعنى أن التوازن العالمى المستقر الذى نشأ فى يالتا سوف يتضمن وسوف يدخل العالم بسرعة حقبة تاريخية من الحركة العظمى التى سوف يفتح فيها نمو القوة للكامنة الذى عرفلته الدول السياسية الطريق إلى جدليات أكثر تهذيباً للحداية والاستمرارية. وهى جدليات سوف تتمكن الحركات الثورية والوطنية فى عالم التبعية من أن تستمد منها بعض المميزات بمجرد أن تستطيع فهمها، وذلك من خلال تكوين التحالفات الدولية والجهات التى تكون فى وضع أمثل يمكنها من دعم الانتفاعية الأصلية القوية تجاه الثورة والتحرر.

إن الدراسة الدقيقة لكل من المحيطات السياسية الجغرافية الكبرى الثلاثة سوف تمكننا من تحديد مكان منطقتين أساسيتين يشكلان أعلى درجة من درجات التداخل الجدلى، وهما الشرق الأوسط والبحر المتوسط من جهة، ومنطقة الهادى الوسطى والغربية من جهة أخرى، حيث تتقابل بموضوعية مراكز القوة الأساسية الثلاثة. ومن ثم فينبغى أن تحدث علاقات أكثر دقة للتعايش الاقترانى فى مناطق

تتسم بتناقضات داخلية حادة حيث تتحرك الكوامن العسكرية والثقافية والاقتصادية القوية، والتي تغد على نفس المستوى من الأهمية باعتبارها مفترق الطرق الذى يتقابل عنده محيطا الحضارة العظيمان.. الشرق والغرب.

٣ - ٢ (هـ)

إن من المهم جدا عند تقييم علاقات القوة على مستوى المراكز الثلاثة الرئيسية للقرار السياسى أن نتجنب إغراء اللجوء إلى التفسيرات الميكانيكية المتطرفة. صحيح أن دائرتين من بين الدوائر الثلاث يقعان حول قطب من قيادة اشتراكية. وهو ما يعنى بوضوح أن قوة ونفوذ اثنتين من هذه الدوائر سوف يكون فى صالح القوة الاشتراكية والسياسية التقدمية، ومع ذلك فإن الأمر لا ينطوى على أن قوة الإمبريالية المهيمنة سوف تتلاشى نتيجة ذلك، ولكن ما يمثله ذلك بالفعل هو درجة أعلى من التناقض ودرجة أقوى من الخصومة والعداء: لقد تزايدت القوى الاشتراكية التقدمية والإيجابية سياسيا بشكل ملحوظ، وخصوصا منذ تلك اللحظة الحاسمة التى لم يكن هناك مفر منها. عندما بدأ البحث عن أشكال جديدة للتحالف داخل جبهة العالم الاشتراكي، ومع ذلك فإن قوى الإمبريالية المهيمنة الملتفة حول الولايات المتحدة لا تضعف نتيجة لذلك، لأن انتهاء المواجهات العسكرية الاستراتيجية الضخمة قد أدى إلى توزيع القوة على مختلف المستويات، وعلى نطاق عالمى بدلا من تركيزها. ومع ذلك فإنه يظهر أن نمو إمكانيات النظامين الأيديولوجيين والاقتصاديين الاجتماعيين سوف يترد لصالح الجبهة التى تضم المركزين اللذين يضمنان دولة ذات قيادة اشتراكية. إن إيقاع هذا التطور الخطى سوف يتحدد بواسطة الجدليات الواقعية التى تعمل داخل الأنماط الجديدة للتعايش السلمى.

٣ - ٣ تحول الحركة الوطنية إلى الراديكالية الثورية:

إن حركات التحرر والثورات فى عالم التبعية سوف تكشف عن التغييرات الجذرية التى حدثت. تلك التغييرات التى يعد ملمحها الأساسى هو التحرك على مستوى حركة الاستقلال الوطنى التى تصل إلى أوجها وذروتها التاريخية فى فترة

أزمة ١٩٢٩ - ١٩٣٢ و ١٩٣٩ - ١٩٤٥ التى تدفقت منها إلى مستوى حركات وطنية راديكالية أخذت على عاتقها مهمة البحث عن حل للمشاكل الأساسية سواء كانت داخلية أو خارجية وسوف تكون نتيجة ذلك الالتقاء بين الحركات الوطنية والثورات الاجتماعية ذات التوجه الاشتراكي.

٣ - ٣ (أ)

أما داخليا فهناك تناقض مدهش بين المرحلة الكلاسيكية (ابتداء من الأزمة الاقتصادية الضخمة حتى يالتا) وبين اللحظة التاريخية الراهنة وعلى طول القارات الثلاث إلى جانب القطاعات التابعة الخلفية من الغرب (المتوسط فى أوروبا، وكوبيك فى أمريكا الشمالية) كانت هناك مطالب قومية، ويبدو أنها تتحرك فى اتجاهين رئيسيين كلاهما مختلف جذريا وأكثر فعالية من الفترة السابقة.

فقد كانت هناك جماعة حساسة سواء فى البناء التحتى (المساحة الأرضية السكان، الموارد، والإمكانات الاقتصادية) أو فى العقيدة السياسية، وهى الجماعة التى اختارت طريق الاشتراكية تحت قيادة الأحزاب القوية والدول الشيوعية القومية (الصين، أمريكا الشمالية، فيتنام وكوبا).

وجماعة أخرى على وعى بالدور التاريخى المحدود للبرجوازية الأصلية التى تسمى بالبورجوازية الوطنية^(٢١). وهى تلك الجماعة التى قررت الانطلاق فى كفاح مستمر ضد الإمبريالية والطبقات الحليفة لها داخل الدول التابعة، وذلك بالسعى إلى التحالف مع القوى العاملة فى المدن وفى الريف وبين المفكرين الثوريين وتلك الجيوش التى نشأت بتقاليد استقلالية، إننا نستطيع الآن أن تقدم تقييما للمحاولات الأولى فى هذا الاتجاه، خصوصا تلك التى بذلها أتاتورك ابتداء من عام ١٩١٩ ومحاولات جمال عبد الناصر؛ أى ابتداء من حرب الاستقلال فى تركيا حتى الثورة الوطنية المصرية التى تبلورت فى عمليات السويس والسد العالى تلك العمليات التى ألهمت بدورها فارجاس وبيرون والليندى فى أمريكا اللاتينية، وبن بركة وبومدين فى المغرب العربى، ونكروما ونيريرى وباتريس لوموميا وسيكونتورى فى أفريقيا، ونهرو وسوكارنو وسيهانوك وغيرهم كثيرون فى آسيا.

إن ما تمخض عن هذه المحاولات فكان بمثابة جبهة استقلال وطنى معادية للاستعمار ينبغى الآن وبالضرورة أن تمتد لتشمل الجماهير الشعبية (جنباً إلى جنب مع جزء من الطبقة الوسطى والجهاز العسكرى ذات التقاليد الموالية للاستقلال) بدلاً من تقليصها وحصرها فى دور جيش المرحلة stage army إن هذا التطور يجعل من الممكن أن نطرح مباشرة مشكلة الربط بين الاستقلال والاشتراكية ويسمح من جهة أخرى للطبقة العاملة وطبقة الفلاحين والمتقنين الثوريين أن ترتفع إلى مستوى القيادة السياسية الوطنية، وبالتالي يصبح من الممكن بموضوعية رسم مسار الثورة.

إن تصرفات الإمبريالية فى الفترة ما بين ١٩٤٧ و ١٩٧١ لا بد من توضيحها، انطلاقاً من خلفية التحدى الناشئ: المذابح فى اليونان، الجبهة الشعبية الوطنية فى إيران وإندونيسيا، الحروب الثلاث فى الشرق الأوسط: ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧ وتدمير جبهة وليدة فى الكونغو كان خليفاً بها أن تصبح أرضية الانطلاق لأفريقيا السوداء التى لا تزال تزرع تحت نير الدول العنصرية فى الجنوب، المقاومة السودانية والفلسطينية فى عامى ١٩٧٠ و ١٩٧١ والهجمات المتكررة على كوبا. وقبل كل ذلك فيتنام.. هذا الخط الجبهوى لحرب بشعة أبدية جرت إليها كل الصين الهندية.

٣ - ٣ (ب)

أما خارجياً فقد قبلت هذه الجبهات الوطنية الراديكالية التى تشكلت لمجابهة الإمبريالية المهيمنة الحاجة إلى إنشاء تحالف استراتيجى أكثر من تحالف مؤقت أو تكتيكى من جبهة الدول الشيوعية والأحزاب والحركات على المستوى الدولى. وبهذه الطريقة ساهمت الجبهات الوطنية الراديكالية بقوة فى إمكان التغلب على الاختلافات الخطيرة بين المعسكرين الشيوعيين المعادين للإمبريالية - الصين والاتحاد السوفيتى على أساس الضرورات الخارجية الموضوعية للكفاح ضد الإمبريالية، ونموذج فيتنام الذى كشف عن إرادته السياسية فى بيان هوشى منه الرائع . كذلك فقد تمكنا من إقامة رابط عضوى بنائى غير قابل للتخلل بين محيط

القارات الثلاث من جهة والمحيطين الآخرين، اللذين تحركهما الدول الاشتراكية المسيطرة وبين مجموع الجبهات المعادية للاستعمار والجبهة الداخلية المعادية للاستعمار وأخيرا داخل الولايات المتحدة من جهة أخرى.

٣ - ٣ (ج)

وهكذا بمعنى أدق استطاع الشرق في فترة انبعائه وثورته أن يأخذ زمام المبادرة التاريخية على نطاق العالم، وليس فقط داخل القارات الثلاث... تلك المبادرة التي استحوذ عليها الغرب بعد النهضة... فترة الاكتشاف العظيمة والتتوير وإنشاء الدول القومية الأوروبية. وقد كان ذلك هو المغزى الحقيقي لمأثرة ماوتسى تونج التى قال فيها: "إن رياح الشرق سوف تتفوق على رياح الغرب".

٤ - حول الحاجة إلى استراتيجية علمية

إن العلوم الاجتماعية ليست على استعداد بعد للاعتراف بحقيقة وأهمية وانعكاسات هذا الجيـشان وهذا الدور الجديد للشرق. فلازلنا على مسافة بعيدة جدا من علم اجتماع الحضارات الذى يشكل فى رأينا الأساس الضرورى للفهم العلمى للعالم القادـم^(٢٢).

فالتنبؤ بالتطورات القادمة لا يزال يتحدد داخل الأطر العلمية التقليدية التى أضيفت إليها فصول حتى تواكب التحولات فى العالم المعاصر وخاصة التحولات داخل المجتمعات الصناعية الغربية التقدمية. غير أن التطور نحو فهم شامل: أو علم الجدليات والحضارات والمحيطات الثقافية والمجتمعات القومية أوشك على البداية، وذلك لأنه لا يزال ينظر إليه على أنه يقع خارج حدود علم الاجتماع (فلسفة التاريخ ونظرية العلاقات الدولية... إلخ).

وهكذا فإن المشكلة التى نواجهها هى مشكلة تحديد سياسية علمية.. سياسية وليس تكتيكيا علميا: كيف يمكن تطوير علم الاجتماع بحيث يتجاوز بمهامه التاريخية حدود الاهتمامات المؤقتة والايجابية والتأويلية؟

كيف يمكن استخدام هذا الخيال الاجتماعى الذى بدونه سوف يكون كل ما نستطيع أن نقدمه ينحصر فى مجرد مرشد لكل حقبة تاريخية كما حدثت وبسبب

وصفها وحالتها العلمية كما حددناها سلفا فإن جدلية الإمبريالية (سوسيولوجيا الإمبريالية والحركات الوطنية) تمثل حقلا غنيا يساهم في إيضاح التناقضات. فهو أكثر الأدوات تنوعا، وحقل العلم الذى يعنى مباشرة بالحركات الاجتماعية العينية للحاضر كتاريخ. أى بتاريخ هذه المجتمعات الإنسانية التى تتكون الآن.

إن الحقل الأساسى الذى تتكشف فيه الصراعات الضخمة فى عصرنا هذا هو أيضا الحقل الذى لا بد أن تنشأ فيه جذور النظرية الاجتماعية المعاصرة.. نراع النقد تجد سندها فى نقد العسكرية؟ هذا هو بالتحديد الاتجاه الذى لابد من اتخاذه إذا كان لنا أن نقدم فهما حقيقيا علميا للعالم الواقعى، بالإضافة إلى نظرية اجتماعية وسياسية للفترة القادمة.

(١) إن التحليلات التروتسكية والكمبوريجية والماركسية البنائية تقتصر على منافسة الدروس المستخلصة من (الأدبيات الكلاسيكية) وتعرض للينين من زاوية كتاباته أكثر مما تناقش حركته السياسية، كنتيجة (لإعادة قراءة) النصوص. انظر كتابات Christian Palloix خاصة في إطار مركز الدراسات والأبحاث الماركسية CERM مثل Les theories de A'imperialisme au debut du XX emesie ele lenine, Rosa Lusembourg (Paris ١٩٧٠) mimo. الجزائر ٢١ - ٢٤ مارس ١٩٦٩ (الجزائر ١٩٧٠). انظر من ضمن الأعمال العديدة التي تعرضت للقراءات الجديدة كل من A. Gunder Frank و S.Amin الذي يهتم بشكل أكبر بالاحصائيات، وكتابات مجلة New Left Review في لندن وأعمال المؤتمر الإسكندنافي في الخ .. يمكن الرجوع إلى بيلوجرافيا مركز الدراسات والأبحاث الماركسية CERM ومعهد (جرامشي) ومعهد كارل ماركس بلاتينبرج ونصوص ندوة الجزائر ونصوص مؤتمر فارنا وكذلك K.Nkrumah كتاب

Neo-clonialism, the Last Stage of Imperialism (New York, ١٩٦٥)

(٢) انظر ضمن الكتابات حول هذا الموضوع A. P. Thomson

Doctrines of Imperialism (New York, ١٩٦٥), R. Koebner and H.D.

Schmidt, The Story and Significance of Imperialism: a political Word ١٨٤٠-
(Cambridge; ١٩٦٤): ١٨٦٠.

ومقال Hans Daadler حول (الإمبريالية) في :

International Encyclopedia of the Social Sciences, vol. VII (New York, ١٩٦٨) pp. ١٠١-٩, Horace B.Banis, Nationalism and Socialism-Marxist and Labour Teories of nationalism to ١٩١٧ (New York ١٩٦٧)

الذي يعد من الأعمال المكملّة الهامة

Joseph Schumpeter, (Zur Sogiologie der Imperialismen) in Archiv für (٣)
Sozialwissenschaft and Sozialpolitik, Vol xlvi (Dec ١٩١٨) pp. ١-٣٩.

والمصدر السابق ٢٧٥-٣١٠ (June ١٩١٩)

Imperialism and Social Classes (New York, ١٩٥١, ١٩٥١, ١٩٥٥)

الذى ورد فى

Aziz S.Atiy, Crusades, Commerce and Culture (Bloomington ١٩٦٢); (٤) انظر

Norman Daniel, Islam, Europe and Empire (Edinburgh, ١٩٦٦)

وعن الشرق بمعنى أوسع انظر V.G. Kiernan

The lords of Human Kind (London, ١٩٦٩) and Jacques Decornoy, Peril
jaune peur blanche (Paris ١٩٧١)

(٥) من المفارقات أن الطبعة الأمريكية الحالية من Imperialism: a Study (Ann Arbor,

١٩٦٥) قد خففت من حدة اللهجة حيث لا نجد فى المقدمة التى كتبها Philip Siegelman ولا
فى الفهرس أية إشارة إلى للجماعات.

قائمة الدول والأجناس وأسماء الأعلام . وفى المقابل نجد طرحا دقيقا فى Koeber &
Schmiort Story and Significance of Imperialism

(٦) (انظر الهامش ١) Actes du colloque du CERM وخاصة عرض Yvon Bourdet

حول Bauer وانتقادات كل من G.Labica, G Badia, R. Gallisot. I. Petit.

(٧) (إن القرية لا يمكن أن تتساوى مع المدينة فى السياق التاريخى الحالى. فالمدينة تقود القرية،
والقرية تتبع المدينة بالضرورة، لكن السؤال هو : من هى الطبقة الحضرية القادرة على جذب
القرية؟) . هذا النص الذى كتب عام ١٩٢٨ يندرج فى إطار الأفكار التى طرحها برنامج الدولية
الثالثة للعام نفسه والذى جاء فيه : (إن أهمية المستعمرات وشبه المستعمرات فى فترة للتحويل
ترجع إلى أنها تمثل قرية العالم فى مقابل الدول الصناعية التى تلعب دور المدينة)

Theses and Resolutions of the Sixth Congress, ١٩٢٨.

وهي ذات الرؤيا التى حاول Michel Grusenberg المعروف باسم Borodin ومبعوث

الكومنترن إلى الصين فرضها على الحزب الشيوى الصينى عشية مذابح شنغهاى فى ١٩٢٧ .

وفى المقابل قال المارشال لين بيايو تعليقا على قرار ماوتسى تونج ربط مسار الثورة بالعناصر الأساسية للمسيرة الكبرى : (إن العالم ينقسم إلى مدن وقرى . وفى اعتداءاتهم على بلدان آسيا بدأ المستعمرون فى السيطرة على المدن الكبرى والطرق الرئيسية . لكنهم فشلوا فى إحكام قبضتهم على الريف) . (٢٥ سبتمبر ١٩٦٥) .

(٨) قام بتجميع الوثائق الأولية فى

Arsarani and Gabidullin Ocerki, Panislamizmai panturkizma u Rossii (Moscow ١٩٣١). H. Carrere d'Encausse and S.Schramm, Le Marxisme et L'Asie ١٨٥٣-١٩٦٤ (Paris, ١٩٦٥)

Martin Ebon, The life and Writings of China's New Ruler Lin Pao (New York ١٩٧٠) Kai-Yu Hsu, Chou en lai: China's Grey Eminence (New York, ١٩٦٨).

J.P. Haitbcox, Communism and Nationalism in India M.N.Roy and Comintern Policy ١٩٢٠-١٩٣٩ (Priceon ١٩٧١); Ho Chi Minh. De la revolution ١٩٢٠-١٩٦٦ (Paris, ١٩٦٨); Sac-Sook Suh, Documents of korean communism ١٩١٨-١٩٤٨ (Princeton, ١٩٧٠); Jacques Leclerc Le concept d'indonesiation du marxisme-leninsme a travers les textes d'Aidit ١٩٦٢-١٩٦٥ (Paris ١٩٧٠)

رسالة دكتوراه :

وفى المصادر العربية تفسير أفكار Eneausse and Schramm فى إلياس مرقص ، الماركسية والشرق العربى ١٨٥٠ - ١٩١٨ (بيروت ١٩٦٨).

أما الرؤية المتمركزة حول الذات الأوروبية فيعبر عنها نصان هما :

Charles Bettelheim (La revolution cubaine sur la voie sovietique) والبيان الذى وقعه عدد من المثقفين (١٢ Mai ١٩٧١) Le monde

وكان رد المتقنين الكوبيين كالتالى : (لقد حان الوقت لكى يكف مهرجانو البرجوازية عن القيام بدور القضاء إزاء ثورات لم وإن يقوموا بها ، لما تمثله من مخاطر بالنسبة لهم) le monde (٣٠-٣١ Mai ١٩٧١)

Harry Magdoff. The Age of imperialism – the Economies of our foreign (٩) Policy (New York, ١٩٦٦).

(١٠) تسعى مجموعة أولى من الدراسات النظرية إلى فقد آفاق جديدة لدراسة جدلية الثورة والحضارة .

(١١) انظر بشكل خاص Henri Lefebvre

(La re-production des rapports de production), L'Homme et la Societe, no, ٢٢-٢٣ Au-dela du structuralisme (Paris, ١٩٧١) و٢٢ أيضا لنفس الكاتب

(١٢) انظر دراستا (L'avenir Cahiers Internationaux de Sociologie (Juin ١٩٧٠) و Social Dialectice, vol. I pp ٤٢-٤٤ أيضا

(١٣) أحد الأمثلة الجيدة على ذلك الخط المتميز الذى اتبعه كل من Salvador Allende و Regis Debray والذى عبر عنه وبرى فى Conversation with Allende (Harmondsworth, ١٩٧٢).

(١٤) انظر أنور عبد الملك Le phenomene nationalitaire ورقة مقدمة إلى الجمعية الفرنسية لعلم الاجتماع فى ٢٠ فبراير ١٩٧١ .

(١٥) انظر (l'avenir de la theorie social و (Le moment historique de travail theorigue) أوراق مقدمة إلى المؤتمر الثامن للجمعية الدولية الاجتماع الناطقة بالفرنسية . حمامات تونس ٢٧ سبتمبر إلى ٣ أكتوبر ١٩٧١ . انظر - ٣ Social Dialectics. Vol ١, pp ٢٤

(١٦) أنور عبد الملك

(La notion de profondeur due champ historique en sociologie), in G. Baland (ed.) Sociologie des mutations (Paris ١٩٧٠) pp-s١٦١

Social dialectics, vol. ١, pp. ١٥١-٩. انظر أيضا.

(١٧) أنور عبدالمك

(Geopolitics and National movements: an Essay on the Dialectics of Imperialism)

ورقة مقدمة إلى ندوة

(On Imperialism and its Place in Social Science Today). Elsinore (April ١٩٧١)

(١٨) أنور عبدالمك

(Esquisse d'une typologie des formations nationales dans les trois continents) cahiers internationaux de sociologie, vol. xlii (١٩٦٧), pp. ٤٩-٥٧.

والمصدر السابق ١٠-٣. pp.

(١٩) وهو المجال الذي تتعرض له أعمال آلان توران الحالية .

Gobriel Kolko: The Roots of American Foreign Policy (Boston ١٩٦٩): (٢٠)

The Limits of Power the World and V, Foreign Policy ١٩٤٥-٨٤ (Ney York ١٩٧٢)

انظر أيضا :

K.T.Fann and D.C. Hodges. Readings in U.S. imperialism (Boston, ١٩٧١)

Egypte Societe militiaire أنور عبدالمك (٢١)

ومقدمة الطبعة الأمريكية التالية Egypt, Military Society

(New York ١٩٦٨) pp. Vii – xl, (Nasserism and Socialism), Socialist Register

١٩٦٤ (London ١٩٥٤). pp. ٣٨-٥٥.

(Sociologie du developpement national – problemes de conceptualisation),
Revue de l'Institut de Sociologie, nos ٢-٣ (١٩٦٧) pp. ٢٤٩-٢٤.

والمصدر السابق ١١-٣٣ pp.

(٢٢) اعتمادا على الورقة التي قدمناها في الندوة حول ماركس في لينينسكو مايو ١٩٦٨ .

(Marxisme et sociologie des civilisations) Diogene, N ٦٤ (١٩٦٨). pp. ١٠٥-
٥٣.

Social Dialectics vol I pp. ٩٧-١١٧ ايضا

Ideologie et Renaissance nationale l'Egypte moderne (Paris وأطروحتنا للدكتوراه
١٩٦٩)

والتي تم تلخيصها في :

(Un itineraire sociologique, le concept de renaissance nationale), L'homme et
la societe, no. ١٢ (١٩٦٩) pp. ٣-١٦.

الجيوسياسية والحركات الوطنية التحررية

"إن الحرب ذات أهمية حيوية للدولة، وهى مسألة حياة أو موت، كما أنها الطريق للنجاة أو الدمار، ومن ثم فيلزم دراستها بتدقيق. إن أول عناصرها الأساسية هو التأثير المعنوي، والثاني المناخ، والثالث التضاريس، والرابع القيادة، والخامس العقيدة... إن إحراز النصر فى مائة معركة ليس ذروة المهارة. ولكن إخضاع العدو بدون قتال هو منتهى البراعة. ولهذا فإنه من الأهمية العظمى فى الحروب أن تقال من استراتيجية العدو. ومن ثم فإن البارعين فى الحرب هم الذين يقهرون جيش العدو بدون خوض أية معركة. فهم يستولون على مدنه بدون أن يضطروا إلى مهاجمتها، ويطيحون بدولته بدون خوض أية معارك منهكة".

(صن تزو: "فن الحرب" عام ٤٠٠ ق.م)

١ - طريقتان لدراسة الإمبريالية^(١)

١ - ١ يبدو أن دراسة الإمبريالية كانت، منذ جيل مضى، قد ارتبطت وتلاصقت ببساطة مع الطريقة الاقتصادية - السياسية، وتمثل هذا فى كتابات ن. بوخارين، وبصفة خاصة ف. أى. لينين وأتباعه داخل الحركات الاشتراكية والمعادية للإمبريالية فى العالم كله، كما فعل ذلك أيضا تلاميذه وأعداؤه على حد سواء فى العالم الأكاديمي. ولقد حاولت فى بحث آخر^(٢)، أن أدلل على وجهة نظرى ومفادها أن هذه الطريقة اللينينية هى فى الأساس سوسيولوجية، وهذا يعنى أن طريقة التصدى للمشكلة تنصب أساسا على دراسة الأنظمة الرأسمالية فى مستهل القرن العشرين من حيث أدائها الوظيفي فى إطار توازن القوى الدولى السائد (عشية حرب ١٩١٤ - ١٩١٨، وهى أول حرب عامة بين دول أوروبا)^(٣) وهى أبعد من أن تكون مجرد تمرين فى استخدام علم المعرفة وعلم المناهج بهدف "إرهاق مفهوم" الإمبريالية، وهو المجال المحبب لأعمال التهريج الثقافى الأنيق فى أيامنا، للوضعيين الجدد المتعاليين أصحاب التأويلات للكتب المقدسة "الماركسية".

١ - ٢ إن جوهر طريقة لينين - كما واصل السير عليها، ولكن بأسلوب متميز إلى حد بعيد، كل من ج. ف ستالين، وب. تولياتي، وماوتسى تونج، وهوشى - منه، وفيدل كاسترو، يتمثل بالتحديد فى الربط، بشكل تركيبى دياكتيكى، بين العنصرين الأساسيين المكونين للنضال العالمى ضد الإمبريالية: الجبهة العالمية المتحدة التى تضم الطبقة العاملة وحركات التحرر، فى مواجهة تجمع القوى المتناحرة الكولونيالية.

كان هذا هو الخط الاستراتيجى العام للكونترن، كما استمر الخط أيضا فى أعقاب حل الكونترن، ولكن بعد أن طرأ عليه اختلاف مهم يتمثل فى وجهات نظر الاتحاد السوفيتى، كما عبرت عنها قرارات المؤتمرين الدوليين للأحزاب الشيوعية والعمالية (الذين عقدا فى موسكو عامى ١٩٦٦، ١٩٦٩) فقد أكدت هذه القرارات الدور الرئيسى لمنظومة الدول الاشتراكية، بالتحالف مع الطبقة العاملة، والحركات الاشتراكية فى العالم، إلا أنها هبطت بمنزلة دور حركات التحرر الوطنى للمرتبة الثالثة، رغم الجهود المضنية التى بذلها الحزبان المغربى والسودانى.

ومن ناحية أخرى، أكدت الصين نظرياتها بشأن وحدة القوى الثورية للقارات الخمس (وليس الثلاث) وقرنت هذا بتأكيد مماثل على النظرية القائلة بأن "رياح الشرق لها السيادة على رياح الغرب" أى أن الشرق، وهو يتألف الآن من الدول "المتخلفة" التابعة، هو الذى يمسك بزمام القيادة فى القيام بالمبادرات الثورية التاريخية، مثلما كان يفعل الغرب تماما فى فترة الاكتشافات البحرية الكبرى حتى قيام عصر النهضة.

١ - ٣ وهكذا فموقفنا متباعد جدا عن الاتجاه السائد فيما يجرى من دراسات حول النظرية الإمبريالية فى بعض الدول الغربية.

إن انحدار الغرب كما يتمثل فى تدهور الإمبراطوريات القديمة وتحول المركز العالمى الجديد للإمبريالية من أوروبا إلى أمريكا، قد اقترن به نشوء أزمة خانقة شملت القيم والنواحى الثقافية والحضارية. وأدت هذه الأزمة بدورها إلى تلمس لبحث معتقدات جديدة قد توفر قدرا أكبر من الطمأنينة. وكان باستطاعته الديالكتيك

المحدد لمجتمعات محددة فى العالم المحدد أن يدفع للأمام عملا عمليا أكثر دقة وأصالة، من أجل التحليل والدراسات المقارنة والتطويرات النظرية فى ارتباط عضوى بالعمل السياسى الجماهيرى ذى الطابع الفعال والمضنى، وقد تحقق هذا بالفعل، ولكن ليس بالقدر الكافى فى مجال العلوم الاجتماعىة التى لم تزل خاضعة إلى حد كبير للاحتياجات السياسىة - الثقافىة للغرب المأزوم ولأمزجته وأنماطه ومتطلباته.

وهكذا فقد أصبح الاتجاه الغالب فى الدراسات الخاصة بالنظرية الإمبريالية هو النموذج الثانى من المعالجة، أى إيديولوجية الهيمنة التكوينية الوظيفية، ولكن مع صبغها بنبرة "ثورية" "ماركسية". وينتهج روادها الأصغر سنا حاليا نفس المسار، وهو اختزال دياكتيكات المجتمعات المعاصرة إلى مركب من وحدات جرى تعريفها بعناية، مع مزيد من الألفاظ والمفردات المعقدة لعلم المعرفة، ومع علم المنهج (وليس المنهج) الذى جرى تنقيقه، وإضفاء سحر على طابع العالمية وهو ما ينتمى حقيقة إلى رسالة المخلص الموعود التى ترجع إلى عصر النفاخر بـ "عبء الرجل الأبيض". ومن الواضح أن الملهمين الرئيسيين هنا هم ل. تروتسكى وخلفاؤه. وفى هذا الصدد قد نجد د. لوكسبورج قبولا أفضل لدى الرأى العام المتخصص، حيث أنها قامت بالفعل بأعمال سياسىة على قدر من الشجاعة. على أن المفاهيم الرئيسىة هنا تنتمى إلى "العالمية" المختزلة: "المركز المهيمن" و "الحافة" و "التراكم" و "أشكال الإنتاج". على أن الاتجاه الذى يتخلل كل هذا هو الضرورة التاريخية المقررة سلفا (القدرية؟).

كما لو أن الثورة تتبقق من مبحث المعرفة المعقد، وكان لم يزل فى استطاعة السادة، وقد ارتدوا الأردية الحمراء، أن يحددوا مسار التاريخ!! وكانت هذه أساسا دعاوى وأهداف الاتجاه السائد لرواد هذه الطريقة حتى اليوم^(٥).

ولكن مع كل غطرستهم المنمقة هذه، فإنها لا تستطيع أن تخفى عداؤهم الشديد لمبادرات الشرق الثورية المتعاضمة، على نحو خاص الصين التى تنتهج مسارا شيوعيا، ومصر فى الشرق الأوسط، وأفريقيا، الذين ينتهجون مسارا وطنيا

راديكاليا حيث أنهم ينطلقون من إدراك مفاده أن الإمبريالية ليست إلا نظاما عالميا للتراكم الاقتصادي - المالى والذي لا يمكن حصره إلا بوحدة شعوب العالم بقيادة متقفيها بطبيعة الحال.

١ - ٤ إن الآراء القائلة بأن الإمبريالية قد تكون نظاما سياسيا عالميا يتركز حول المؤسسة العسكرية - الصناعية ويستهدف ضمان هيمنته على العالم بفرض رؤياه الخاصة ومفهومه عن الإنسان، وقيمه وحضارته التى تعتمد على الإنتاج وتبديد الموارد، مستخدما فى ذلك سفك الدماء والخراب، ومن ثم فإنه من أجل مواجهة هذه الإمبريالية ينبغي على حركات التحرر الوطنى اللجوء إلى كافة السبل الممكنة المتاحة فى عالمنا كما هو كائن اليوم، وكما كان على مدى التاريخ، وهى وسائل تستطيع بها الدول القومية أن تلعب، بطرق عديدة متنوعة، أدوارا تكون أساسية فى بعض الأحيان، من أجل كبح التغلغل الإمبريالى، وتمهيد الطريق لشن الهجوم وفتح الطريق أمام غارات عنيفة ضد الإمبريالية. إلا أن مثل هذه الحقائق والبيانات بعيدة تماما عن التفكير السائد الآن وسط تلك الدوائر القليلة العدد والمعزولة عن الجماهير العريضة لشعوب القارات الخمس وهى تشكل بالفعل "جيتو" العجز الروحى.

وإنى لأرى أن الطريقة الأولى (الاقتصادية - السياسية) هى طريقة علمية وسوسيولوجية أصيلة، وفى مقدور هذه الطريقة وحدها أن تقدم لنا فهما لديالكتيك الإمبريالية فى عصرنا الراهن، بدلا من تقديم وجهة نظر مصقولة لعالم مانوى يلعب فيه مفهوم الإمبريالية دور الشيطان الذى تتبثق عنه الآثام فى مواجهة مفهوم الثورة.

٢ - جدلية الإمبريالية

٢ - ١ إن الحديث عن الإمبريالية، يتطلب بالضرورة التعرض لعنصرين متميزين: وهما متميزان من حيث أصولهما ووضعهما التاريخى، ولكنهما مرتبطا حديثا برباط وثيق عن طريق ديالكتيك السيطرة والخضوع. فمن جهة هناك الشعوب، والتكوينات الاجتماعية والأمم، والدول، والأقطار المحتلة أو تلك المعتمدة

كلية أو جزئياً على عواصم الاستعمار (الميتروبولي) الأوروبية والأمريكية خلال عصور الاستعمار والإمبريالية. ومن جهة أخرى، هناك مراكز قوى الهيمنة الاستعمارية والإمبريالية في الغرب.

٢ - ٢ إن هذا العرض للواقع الفعلي يشير إلى أن أحد العنصرين، وهو المجتمعات الوطنية التابعة، هو الذي يشكل العنصر الذي له أولوية الوجود بالنسبة إلى العنصر الآخر. فقد وجدت هذه المجتمعات منذ أجيال وقرون، بل وأحياناً منذ ألوف السنين قبل ظهور الاستعمار الحديث والإمبريالية. كما أن هذا الواقع يشير كذلك إلى أن السيطرة الغربية لم تنشأ إلا منذ عصر الاكتشافات البحرية، وقيام الدول القومية الأوروبية الحديثة الخاضعة لسيطرة البورجوازية، ومنذ عصر النهضة والثورات الصناعية الكبرى ذات الطابع البورجوازي الديمقراطي، وكل ذلك منذ القرن الخامس عشر حتى الآن.

٢ - ٣ وبسبب مسارات الحياة المتميزة والمنفصلة تاريخياً، فإن كلا من هذين العنصرين، أي كل وحدة اجتماعية - قومية في إطار كل من هاتين المجموعتين، قد عمدت إلى تطوير معالجتها الخاصة بها فيما يتعلق بالتبعية أو الهيمنة في داخل الإطار العام لعالم محكوم بالتناقض الرئيسي بين الإمبريالية والثورات الوطنية والاجتماعية. وفي كلمات أخرى، فإن "النسق" يعمل ليس باعتباره نظاماً وظيفياً - تركيبياً لوحدات تتبادل فيما بينها عشوائياً الهيمنة والتبعية، ولكن كنسق دياكتيكي لتجمعات مجتمعة معينة (تحدد تاريخياً) أي مجتمعات قومية تبلورت حول جهاز السلطة فيها وهو الدولة، في ظل ظروف مختلفة كثيراً وبأساليب وأنماط بالغة التنوع، وبطرق جد مختلفة، ومن أجل تحقيق إنجازات وأهداف ومكاسب تتباين تبايناً كبيراً. إن كلا من هذه القوى سواء دول الهيمنة الإمبريالية أو الأقطار التابعة الخاضعة في مقدورها أن تحقق رؤيتها الخاصة (المحددة تاريخياً) لمصيرها. ورؤيتها الخاصة لصورة الإنسان التي تزعم أنها تصونها، وتكافح من أجلها، وعاقدة العزم على تحقيقها.

٢ - ٤ وإذا ما قيل إن مثل هذا الديالكتيك الشامل لا يتأتى إلا فى إطار الدول القومية الضخمة، فإن الإجابة هى بكل بساطة أن هذا هو الوضع للأغلبية العظمى من البشر كما هو الحال الآن.

فعلى كل حال، فإن نصف سكان العالم يعيشون ضمن الدول الأربع، هى (الصين، والهند، واتحاد الجمهوريات الاشتراكية، والولايات المتحدة الأمريكية) فى الهند ذاتها، يتحدث ٩٠ فى المائة من سكانها ١٤ لغة رئيسية. وفى أفريقيا يستخدم نصف السكان ما بين ٤ لغات إلى ٦ لغات^(٦)، وإن النظرية الاجتماعية لا تتشأ إلا عن تركيز الاهتمام على التجمعات المجتمعة الكبرى، بينما تدخل الحالات الصغيرة باعتبارها تنويعات، أو أنماط فرعية.. الخ (مثلاً هو الحال فى جزر المالديف بالمقارنة مع الصين فى أية دراسة للأمة).

٢ - ٥ إن نموذج الترابط والتداخل بين هذين العنصرين المتميزين لا تكشف عنه الثنائية الطوقسية السائدة الآن بين الإمبريالية (الشريرة) "والحركات الوطنية" (الطيبة) ولكن ما يكشف عنه بالأحرى هو نموذج الديالكتيك الأصيل، والذى تتكشف فيه عوامل الترابط بين الإمبريالية المهيمنة وحركات التحرر الوطنية بأشكال بالغة التنوع والكثرة، كما هى محددة بتفاعل بعدى الخصوصية (خصوصية كل من الجانبين، أى خصوصية الأنظمة الإمبريالية المختلفة، وخصوصية المجتمعات القومية المتنوعة) وكذلك نسق القوة العالمى (كما تطبقه الأنظمة الإمبريالية على المجتمعات القومية المتنوعة).

ومن الممكن، للأغراض التحليلية، أن نضيف البعد الخاص بالخصوصية بالعوامل الداخلية، والبعد المتعلق بنسق القوة العالمى، أو الجيوسياسية، بأنه بعد العوامل الخارجية، ويقوم كلا البعدين بأداء دورهما فى إطار كل من العنصرين، وهما بذلك متداخلان فى نطاق ديالكتيك بالغ التعقيد.

٢ - ٦ إننى لا أهدف فى هذه الورقة إلى تحليل بعد العوامل الداخلية، أى مفهوم الخصوصية^(٧)، وأقترح لأسباب عملية، أن أتقدم بالتعريف التالى:

"إن الخصوصية، أى السمة الخاصة لمجتمع ما، لن تفهم قط إلا بالدراسة النقدية للتطور التاريخي المحدد لتكوين قومي اجتماعي اقتصادي معين، وهو الذي يحدد نمط الاستمرارية الاجتماعية الخاصة بهذا المجتمع".

وهذا النمط المميز من الاستمرارية الاجتماعية ليس إلا نمط التفصل (أو الترابط) والتفاعل للعوامل التكوينية الأساسية لأية استمرارية اجتماعية عبر المسار التاريخي لوجودها:

إنتاج الوسائل المادية للحياة فى الإطار الجغرافى والإيكولوجى المعين (طريقة الإنتاج)، وإنتاج وسائل الحياة الطبيعية - الفيزيائية (الحياة الجنسية)، والنظام الاجتماعى (السلطة والدولة) الحقل الزمنى (محدودية حياة الإنسان) الديانات، الفلسفات، وفى هذه المجموعة، يحتل إنتاج الوسائل المادية للحياة الفيزيائية مكانة حاسمة فى تركيب نمط الاستمرارية الاجتماعية ككل، ولكن لا يتم هذا بطريقة ميكانيكية، لكنه يحدث فقط فى التحليل الأخير.

وانطلاقاً من هذا المنظور، فإن مفهوم الخصوصية المرتكز على التحليل النقدى للعملية التاريخية يستطيع أن يساعدنا فى التوصل إلى تفهم عميق لمختلف المجتمعات القومية، وأكثر جداً مما تستطيعه المحاولات الأولية الرامية إلى تقديم تصنيفات من خلال المعيار الاجتماعى - الاقتصادى فقط.

٢ - ٧ إن بعد العوامل الخارجية، أى نسق القوة العالمى، أكثر وضوحاً إلى حد كبير، إلا أن تأثيره، وكذلك نمطه المتغير بشكل سريع يكاد يستعصى على الفهم. فهنا تتدخل مشاعر قوية لتعتيم إدراكنا هذا البعد، فالمتقنون وعلماء الاجتماع فى دول الهيمنة ميالون إلى حجب طريقهم المتمحورة حول الغرب، وذلك عن طريق الإصرار على إخفاء طابع العالمية، والقيم الإنسانية، والطريقة الليبرالية، أو المعيارية الراديكالية - الليبرالية، فى معالجة مشاكل سلطة سياسية معينة، أو صراع قوة معين. وقد يعمدون إلى تطبيق نفس الأسلوب ذى الطابع العالمى بطريقة وظيفية، فى دراسة الإمبريالية من منظور أنها تشكل نظاماً عالمياً موحداً للهيمنة يتخلق حول مركز واحد، ومن المحتم أن ينفرط عقده كنسق والنظر إلى

حركات التحرر الوطنية والثورات بوصفها أعمالاً مقررة سلفاً ومتزامنة سلفاً تحدث على مستوى العالم كله متخطية الحدود والأمم الكريهة والدول المقيتة (على منوال الطريقة التروتسكية واللوكسمبورجية) وهى طريقة تتطوى على احتقار للشرق ورياح الشرق السائدة.

٢ - ٨ كيف تجرى صياغة الديالكتيك المحدد تاريخياً على نحو معين لبعدي العوامل الداخلية والعوامل الخارجية؟

من أجل هذا، ينبغي فى الدرجة الأولى بذل محاولة لتحديد الأهمية النسبية لكل بعد فى كل من عنصرى الإمبريالية والحركات الوطنية.

٢ - ٨ (أ) من الواضح بجلاء أن نضال الحركات الوطنية من أجل الاستقلال، والتحرر الوطنى والثورات الاجتماعية إنما يطرح نفسه باعتباره نضالاً من أجل إنقاذ واستعادة الهوية الوطنية، والسيادة، وسلطة القرار فى مواجهة هيمنة الإمبريالية. ومن ثم يتبع ذلك ضرورة أن تبدى الحركات الوطنية تركيزاً أقوى على مضمون خصوصيتها المميزة، يفوق حديثها عن الإمبريالية المهيمنة، حيث أن هذه الخصوصية بالتحديد هى فى قلب نضالها التحررى وثوراتها. وفى الحقيقة، فإنه ما من دراسة جادة لأدبيات العلوم السياسية والاجتماعية منذ ١٨٤٠ - ١٩٠٠، إلا وتظهر صحة ذلك فيما يتعلق بتطور الآراء والتفكير على اتساع القارات التابعة الثلاث: آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وقد أصبح مفهوم الخصوصية الآن أكثر من أى وقت مضى هو المفهوم المركزى للفلسفات الاجتماعية والسياسية لحركات التحرر الوطنى فى القارات الثلاث. ويرجع هذا إلى أن الثورة العلمية والتكنولوجية الثانية قد زودت دول الهيمنة الإمبريالية بقدرات هائلة على الاختراق المدمر لروح الإنسان وعقله، بفضل السيطرة على وسائل الإعلام والثقافة الجماهيرية.

ومن الناحية الأخرى، تعنى دولة الهيمنة الإمبريالية لستر ادعاءاتها العميقة الجذور بشأن خصوصية الغرب، ومؤداها أنه خلق لى يقود ويحكم، ولكى يدخل الحضارة للأراضى غير المعروفة والمناطق النائية (آسيا، وأفريقيا، وأمريكا

اللاتينية) فى العالم، أى 'عبء الرجل الأبيض' الكامن تحت ادعاءات "العالمية". وعلى كل حال، فإن الوضع الراهن، أى عدم مواجهة الهيمنة الغربية بأى تحد من جانب الشرق المناهض، لا يمكن أن يؤدى إلا إلى استمرار توازن القوى والذى يمثل فيه النظام الإمبريالى (موقع القلب) فى التعايش السلمى الذى نشأ فى يالتا (١٩٤٥). وفى كلمات أخرى، فبينما تعتمد قوى الهيمنة الإمبريالية إلى التقليل من خصوصيتها، إلا أنها تتصرف فعليا بطريقة تركز أساسا عل رؤيتها الذاتية لخصوصيتها التى تحددت تاريخيا.. ولكن مع التأكيد على شئ.

٢ - ٨ (ب) وينشأ الموقف الموازى، ولو أنه أكثر تشوشا، وذلك عندما نبحث فى الأهمية النسبية لبعد العوامل الخارجية، أى توازن القوى العالمى. وقد يميل المرء إلى توقع أن تظهر قوى الهيمنة الإمبريالية إدراكا صريحا لوضعها المميز. إلا أنه فيما عدا الولايات المتحدة، فلا يوجد إلا فرق حقيقى للتقليل من أهمية هذه الميزة، وذلك فى محاولة لإخفاء حقيقة الصراعات السياسية فى عصرنا الراهن. فالإمبريالية المهيمنة تفضل أن تجد القبول باعتبارها الوريث الشرعى للتفوق التاريخى لأوروبا والغرب، وليس باعتبارها القوى الساعية للاحتفاظ بالسيطرة عن طريق استخدام بلا رحمة لأقصى أنواع العنف فى التاريخ البشرى.

وعلى الجانب الآخر، أى المجتمعات الوطنية التابعة، يبدو أنها بطبيعة الحال أكثر إدراكا لهيكل القوة، وعلى كل حال، فإن أقوى قوتين ضاربتين للإمبريالية الأمريكية مرابطتان فى مواجهة المنطقتين الرئيسيتين للتحالف الاستراتيجى الفعال بين الدول الاشتراكية والحركات الوطنية: فالأسطول السابع يواجه الصين ومنطقة الباسفيك فى آسيا، بينما يواجه الأسطول السادس مصر، والعالم العربى، والبحر الأبيض المتوسط والجناح الجنوبى لنسق الدول الاشتراكية الأوروبية. وليس ثمة شكوك بصدد هذا فى عقول الجماهير العريضة للسكان المعنيين. إلا أنه من الواضح أيضا وبالقدر نفسه، أن قيادة حركة التحرر الوطنى، فى نطاق "الطبقة السياسية" فى غالبية الدول التابعة، كثيرا ما تواجه صعوبات حقيقية فى التوصل إلى تفهم المعلومات الحقيقية لديالكتيك الإمبريالية كما توجد حاليا وكما تتعرض للتغييرات السريعة.

٢ - ٨ (ج) وثمة سببان لهذه الصعوبات من ناحية، تنزع الآليات المحددة لحركات التحرر الوطني والثورات الوطنية الاجتماعية في الأقطار التابعة إلى الوقوع في إطار أحد النمطين: إما الخضوع للمضاعفات الناجمة عن وجود خط عام يوحى به مركز ثوري قوى، وأعنى الاتحاد السوفيتي أو الصين، أو تطوير خط عام ذي طابع وطني مستقل ذاتيا. وفي الحالة الأولى، ينظر إلى التوازن المحدد للقوى العالمية من وجهة نظر مركز الثورة الرئيسي ودولته وحزبه، وسوف يعتمد بطبيعة الحال إلى أن يعكس على المستوى القومي، التأكيد المبالغ فيه أو التهوين من توازن القوى العالمي القائم، بقدر ما يكون هذا المجال في قلب الرؤية والإرادة السياسية للدولة، أية دولة في أي نظام اجتماعي وأيديولوجي. وبمعنى آخر فإن ما قد يبدو غير معقول أو غير ممكن عمليا نتيجة لتوازن القوى العالمي القائم، يمكن محاولة القيام به بل وتحقيقه بدرجة ما، وكمثال على هذا فيتنام، في مواجهة تباين هائل في القوة (وترجع أساسا إلى قرار القيادة الفيتنامية الثورية الوطنية، إلا أنه أمكن بطريقة بالغة الأهمية الحصول على الدعم المشترك الواسع النطاق من كل الاتحاد السوفيتي والصين)، وفي الواقع فإن في الوسع تحويل ما هو قابل للمحاولة ولتحقيق العمل إلى مسارات تحقق أهدافا جد متنوعة، وكمثال على هذا سيادة الجبهوى العام الذى طوره كاسترو والليندى بالمقارنة مع دعوى جيفارا لحرب العصابات.. والأمثلة لا حصر لها.

والنقطة المهمة في كل هذا هي كالتالى: طالما كان نضال حركات التحرر الوطنى فى أيدي القيادة الوطنية المستقلة، عندئذ فقط يكون فى الإمكان تقييم معلمات توازن القوى الدولى بصورة واقعية، وحساب ما يتكشف فعليا من دياكتيك للإمبريالية، أو من دياكتيك مع الإمبريالية.

٢ - ٨ (د) إن الصعوبة الثانية تنشأ نتيجة للتأثير المبالغ فيه والمصطنع للعمل النظرى والأيدىولوجى والعلمى الذى تجربته المراكز الراديكالية والثورية فى الغرب حول أفكار ومشاريع أقسام صغيرة من الأنثلجنتسيا والطبقة السياسية فى البلاد التابعة. وهنا نجد مرة أخرى إما التهويل أو التهوين من الإمكانيات التحررية للبلاد

التابعة، أو - وهكذا يتكرر بصورة أكثر شيوعا - إضفاء الطابع الرومانتيكى المثالى على الخضوع الذى يؤدى، كما حدث فى الماضى، إلى أخطاء فادحة.

٢ - ٨ (هـ) نلخص مما سبق فنقول: إن قوى الهيمنة الإمبريالية فى الغرب تنزع إلى التهوين أو ستر استخدامها الخاص لبعدى العوامل الداخلية (الخصوصية) والعوامل الخارجية (توازن القوى العالمى)، فى الموقف الذى تضع فيه الحركات الوطنية للشرق الناهض الخصوصية فى مركز الصدارة من نضالها، وتبدى إدراكا مرهفا لوضع توازن القوى العالمى، حتى ولو كان هذا الإدراك يتعرض مرارا للتشويش بفضل الأكليسيهات الأيديولوجية.

٢ - ٩ والآن بعد أن تم تحديد الأهمية النسبية لكل من البعدين فى كل من العنصرين المكونين لديالكتيك الإمبريالية، نستطيع أن نمضى قدما لتقييم الديناميكية الفعلية لهذه العلمية الديالكتيكية.

٢ - ٩ - ١ ودعونا نبحث أولا بعد العوامل الداخلية، أى الحركات الوطنية ويمكن تناولها عن طريق عقد المقارنة مع أنماط الحركات الأخرى داخل نطاق مجتمعاتها: وهى حركات المجموعات والطبقات، والحركات السياسية، والثقافية، والحركات الأيديولوجية. وكل من هذه الأنماط والأنماط الفرعية لهذه الحركات محدودة بقدر كبير أو صغير فى مداها، وشدتها، واستمراريتها، أى فى امتدادها الاجتماعى وفعاليتها، وعمق تأثيرها. وقد يشهد المرء فى أحوال نادرة تركزا أو تنظيميا غير عادى، ولو فى قطاعات معينة - وعلى سبيل المثال، كميونة باريس، ومع ذلك فإن المحدودية الشديدة لمدى وقوة هذه الحركات داخل الدائرة المجتمعية - القومية المتسعة، تجعلها دوما ضعيفة.

ومع ذلك، فإن هذا هو أقصى ما تستطيع أن تصل إليه مثل هذه الحركات.

إن المشكلة الرئيسية فى الديالكتيك الاجتماعى تتمثل فى إشكالية الجمع بين المدى والكثافة والاستمرارية، أى مشكلة تكوين أوسع جبهة ممكنة من القوى المتحالفة الهادفة إلى القيام بأقصى عمل ممكن ومركز من أجل الموضوعات

الأكثر قدرة على تحقيق الحد الأعلى من العمل الفعال. وهذا هو، على وجه التحديد، الدور المميز للحركات الوطنية خلال مختلف مراحل ظهورها. هنا، هنا فقط، نشاهد أعظم قدر ممكن من تركز مختلف التجمعات الاجتماعية، والطبقات، والقوى، والاتجاهات التي توحدت أساسا لتحقيق المهام الرئيسية للتحرر والقيام بالتحويلات الاجتماعية - الاقتصادية. وهذا هو ما حدث في أمثلة الكمالية في تركيا، والماوية في الصين، والناصرية في مصر، والكاستروية في أمريكا اللاتينية، وكذلك جميع حركات المقاومة في أوروبا خلال الاحتلال النازي. وهذا هو المنشأ الأساسي للديالكتيك الاجتماعي في فترة الإمبريالية والثورات.

٢ - ٩ - ٢ وفي مواجهة هذا العامل، الذي وصف بأنه أقصى تجمع من حيث المدى والقوة والاستمرارية، يمكن أن تصل إليه أية حركة اجتماعية في المجتمعات الحديثة، أي أقصى تحرك وطني تحرري.. في مواجهة هذا يقف بعد العوامل الخارجية، أي الإمبريالية، التي يمكن تحديد أهم مظاهرها بالجيوسياسية.

وهنا مرة أخرى، ينبغي التمييز بين عدد من العناصر المكونة للنسق العالمي للقوة الإمبريالية: الاحتكارات على المستوى القومي، والمتعددة الجنسية، ودول الهيمنة على المستوى القومي، والسيطرة الدولية على وسائل التقدم العلمي والتكنولوجي، وعلى الاتجاهات الرئيسية الثقافية والأيدولوجية ووسائل الإعلام الجماهيرية التي تظل بواسطة الدول التابعة في حالة "اتصال" دائم مع دول الهيمنة الإمبريالية. وهنا مرة أخرى، يستطیع المرء أن يميز بين هذه العناصر المكونة، وذلك فيما يتعلق بمدى قوتها واستمراريتها دوما. وقد انعكس هذا في التحول الدقيق غير الملحوظ من تفسير الإمبريالية وفق بنيتها التحتية الاقتصادية - المالية، إلى تفسيرها بالمنظور المعاصر الأكثر إرهافا، باعتبارها محاولة لفرض نسق الهيمنة يشمل العالم بأسره، عن طريق الاستخدام الكفء للمجتمع العسكري - الصناعي. وهذا المجمع العسكري - الصناعي قد كشف عن نفسه، في القرن الحالي، وعلى نحو أكثر سفورا خلال الثورة الثانية في المجالات العلمية والتكنولوجية، والصناعية في الدول المتقدمة، عن طريق السيطرة المباشرة على القضاء كإطار وتمهيد لعمليات التغلغل العميق والإخضاع.

وبمعنى آخر، فإن المجمع العسكرى - الصناعى الذى يمتلك سلطة الإقرار فى الدول الأكثر تقدما، قد حشد لتحقيق هدمه جميع المصادر والطاقات للإمبريالية المهيمنة فى أكمل توليفة من حيث المدى والقوة والاستمرارية، وذلك عن طريق الاستخدامات السياسية للقضاء، أى الجيوسياسية.

٢ - ١٠ ومن ثم، يترتب على ذلك، أنه باقتران هذين الطرفين: الحركات الوطنية والثورات من جانب، واستخدامات الإمبريالية للجيوسياسية من الجانب الآخر، نصل إلى أن أحد مجالات الممارسة السياسية المعاصرة يوجد حيث يصل دياكتيك الصراع من أجل القوة العالمية إلى أعلى مستوى له. وهنا يتوافر أيضا المجال العلمى الذى يبشر بأضخم الآمال فى تجديد النظرية الاجتماعية والسياسية، من حيث أن النظرية العامة تستمد محتواها الأساسى من المجموعات الجمعية الكبرى، وهنا فيما نحن بصدد، فإنها تستمد من ظاهرتى المجتمعين الكبيرين الرئيسيين فى عصرنا الراهن.

٣ - أهمية الجيوسياسية^(٨)

إن أية دراسة نقدية لدور الجيوسياسية يتعين عليها أن تعنى بالأسئلة الثلاثة التالية: كيف تطورت الجيوسياسية، وكيف جرى استخدامها بواسطة دياكتيك القوى الدولية؟ ما هى الحدود المفروضة على الجيوسياسية؟ ومن ثم، ما هى استخدامات الجيوسياسية فى دراسة أهم دياكتيك اجتماعى يشهده عصرنا الراهن، وأعنى به الديالكتيك بين الإمبريالية والحركات الوطنية؟

٣ - ١ قبل وقت طويل من صياغة اصطلاح "جيوسياسية"، أوضحت التقاليد العريقة فى دراسة الجغرافيا (سواء الجغرافيا السياسية أو الطبيعة على حد سواء) "إن دراسة الظاهرة السياسية فى بيئتها المساحية" (و. أ. د جاكسون) يفضى مباشرة إلى توازن بين مفهوم النسق فى النظرية السياسية، ومفهوم المنطقة فى الجغرافيا (جسبراوت). وقد تجمع الكثير من المؤلفات العلمية منذ صدور دراسة فردريك راتزل "بوليشى جيوجرا" (الجغرافية السياسية) (١٨٩٧) وتناولت: المناطق السياسية، الإمكانات السياسية، مفهوم السلطة، الأدوار الخاصة بكل من عوامل قوة

الجذب والطرد، للسياسة والاقتصاد والثقافة فيما يتعلق بمشكلات السلطة، الجوانب الديناميكية لهذه المشكلات.. إلى آخره وقد أفضى ذلك إلى بذل محاولات للتوصل إلى تنظيم وظيفي للجغرافيا السياسية، كما تعبر عن ذلك بنوع خاص دراسة س. ب. جونز "مظهرية المجال الموحد للجغرافيا السياسية" (١٩٥٤) وكان نموذجه مؤلفا من خمسة مقالات متداخلة "الفكرة السياسية - القرار - الحركة - المجال - المساحة السياسية" قد حمل النموذج بشكل كبير وبصورة واضحة بافتراضات سلوكية، بل حتى بتجاهل شديد للدور الجوهرى الذى تلعبه البنية التحتية الاقتصادية. ولا يسمح المجال هنا بتقديم مسح للموضوع. إلا أنه يتعين على المرء أن يدرك حقيقة أن الجيوسياسية كانت لها أهمية طاغية فى ميدان الجغرافيا السياسية قبل الثلاثينيات من القرن الحالى.

إن الحرب (العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨) التى نشبت بين الدول الإمبريالية قد وضعت نهاية - لبعض الوقت - للسياسات التوسعية لألمانيا لصالح النظامين الإمبرياليين لبريطانيا وفرنسا، بينما أوضحت ثورة أكتوبر الأزمة العامة لهيمنة الرأسمالية فى أوروبا ذاتها. وكانت هذه هى بداية ظهور الجيوسياسية بالمعنى المعاصر: فقد بدأت بكتاب "ستين سوم ليفسفورم" (الدولة بوصفها المنظم) بقلم رودلف كلين عالم السياسة فى أوبسالا الذى صدر فى ١٩١٦، وأوحت ترجمته بالألمانية فى ١٩١٧ مباشرة بنشأة فكر كارل هوسوفر، الذى كان يحاضر حول الجيوسياسية فى ميونخ اعتبارا من عام ١٩١٩، وأصدر مجلة *Zeitschrift fur Geopolink* ذات النفوذ الواسع فى عام ١٩٢٤، وأصبح أستاذا متفرغا للجيوسياسية فى ميونخ ومدير المعهد الجيوسياسية بها بعد عام ١٩٣٣ بمساعدة الحكم النازى.

وفى غضون ذلك، اتخذ نجاح الجيوسياسية فى سائر أنحاء العالم نمطا ثانيا: فالجغرافيون فى دول الهيمنة الغربية العريقة كانوا ينزعون إلى اتخاذ موقف نقدى منها، وأحيانا موقفا سلبيا (مثلما حدث فى فرنسا، حيث أقر كل من ب. فيدال دى لا بلاش، و ج. برونيه، وسى. فالو بمساهمات راتزال، إلا أنهم رفضوا النظر إلى

الجيوسياسية بوصفها حتمية بيئية، وهكذا انضموا إلى أ. ديمانجيون، وج أنسيل وغيرهما، وفي إنجلترا، سار موقف التحفظ الملحوظ حول الموضوع بأسره حتى الحرب العالمية الثانية) ومن ناحية أخرى، فقد أبدى الجغرافيون والعلماء الاجتماعيون في الدول الناهضة في الشرق، التي كانت حتى ذلك الحين دولا تابعة، وكذلك علماء من الولايات المتحدة الأمريكية، اهتماما متزايدا بالجيوسياسية، أما اليابان، هذا البلد المثالي، فقد كان له فضل الريادة (أشار ف. أي. ليفين بنوع خاص إلى كتاب هاشيدا Hashida "دور اليابان في المحيط الهادئ" عام ١٩٠٥، وكتب هوشوفيرست كتباً عن اليابان وحدها فيما بين ١٩١٣، ١٩٣٨).

وقد أضافت الدراسات المصرية تأكيداً قوياً على الجانب الثقافي (ابتداء من مؤلف طه حسين "مستقبل الثقافة في مصر"، ١٩٣٦ إلى جمال حمدان "شخصية مصر، دراسة في عبقرية الزمان والمكان" القاهرة ١٩٦٧ - ١٩٧٠، عبورا بجمال عبد الناصر "فلسفة الثورة" ١٩٥٤، وحسين فوزي "سندباد مصرى" ١٩٦١ ومساهمات أنور عبد الملك "المجتمع المصرى والجيش" العسكرية فى مصر" ١٩٦٢، و"الأيدولوجية والنهضة الوطنية فى مصر الحديثة" باريس ١٩٦٩ ثم "نهضة مصر" القاهرة ١٩٥٢... إلخ، وربما كانت البرازيل أكثر صراحة من أى قطر آخر (كما ظهر فى مؤلفات جوزيه دى كاسترو "جيوبوليتيك المجاعة" ١٩٥٢ والجنرال جولبيرى دى كوتو أوسيلفا "جيوبوليتيك دى برازيل" ١٩٦٧ وغيرها). أما إيطاليا فلم تبد أى اهتمام خاص، حتى خلال دروة حكم موسوليني.

كانت الحرب العالمية بالفعل نقطة تحول، فقد صاحب الولايات المتحدة الأمريكية إلى مرتبة الدولة العالمية العظمى ازدهارا فى الدراسات الجيوبوليتيكية، التى أطلق عليها فى حذر شديد اصطلاح "الجغرافيا السياسية" كما لو كان القصد تبديد شبح النازية: وبدأ بذلك التقليد العظيم الذى وضع لبنته المؤلف الرائد للأدميرال أ. ت. ما هان "Mahan" "دور القوة البحرية فى التاريخ" (بوسطن ١٨٩٠)، وهو الذى سار على منواله بنوع خاص فى بريطانيا العظمى هالفورد ماكيندو، فى الولايات المتحدة كل من م. ج سبيكمان، د. ويتلسلى، أى. بومان، أ.

ب دى سفيريسكى، ج كولكو، وفى فرنسا، جان چوكممان. وهنا ينبغى أن نشير إلى أن الموقف التقليدى المعادى للجيوسياسية من جانب الكومنترن استبدل فى حذق وهذوء بموقف أكثر عمقا من جانب الأحزاب الشيوعية الكبرى المعنية، وبخاصة أحزاب الاتحاد السوفيتى، والصين، وفيتنام وإيطاليا: ومن المفهوم أنه كان يجرى تدريس مادة الجيوسياسية فى مدارس تخريج القيادات (الكادرات)، وكانت كتب ماوتسى تونج "كتابات عسكرية" والجنرال فونجوين جياب "الفن العسكرى لحرب الشعب" (نشر عام ١٩٧٠ فقط) وأخيرا الكتاب الرائد للأدميرال سرجى جورشكوف "العالم المحيط" (١٩٧٠) بمثابة المراجع المدرسية.

وكان اهتمام الحزب الشيوعى الإيطالى منصبا أساسا على الأبيض المتوسط باعتباره "بحر الحسم".

٣ - ٢ كيف يمكننا أن نقيم أهمية وحدود الجيوسياسية؟ أن الإهمال والاحتقار، كما رأينا، يرجعان إلى دوائر النخبة المثقفة، وخاصة دوائر العواصم الاستعمارية المعادية للحركات الوطنية ذات الطابع اليسارى. إلا أن الكوادر السياسية والمثقفين العضويين لم يشتركوا على الإطلاق فى مثل هذا التمييز الأيديولوجى، ومع ذلك، فعندما يتأكد دور الجيوسياسية فى الديالكتيك الاجتماعى للعصرين ينبغى علينا الاعتراف به كعامل أساسى، ولكن ليس باعتباره عاملا حاسما.

إنه حاسم بقدر تشكيله للإطار الخارجى الذى يمارس تأثيرا كبيرا على إظهار الديالكتيك الاجتماعى فى كل حالة على حدة، وفى كل منطقة.. إنه لا يمكن أن نتغافل عن دور الثورة الصناعية الثانية من حيث أنها دعمت بشكل كبير من مغالبة إطار القوة سواء بواسطة الاستخدام العنيف لعامل القضاء، أو بالتغلغل العميق فى إرادة الإنسان وعقله وروحه. ومع كل ذلك، فقد عجزت الجيوسياسية بكل ما لديها من قوة عن أن تظهر بصورة مقنعة باعتبارها العامل الحاسم فى صراعات العالم المعاصر - كما تكشف عن ذلك دراسة قريبة لجوزيف مكنمارا بعنوان "جوهر الأمن" (١٩٦٨).

لم يسبق من قبل أن كشفت قوة الآلة بمثل هذا الوضوح، وبفضل اعتمادها على القذائف الصاروخية العابرة للقارات، والترسانات النووية، عن محدودية الجيوسياسية، وذلك أنه يبقى في النهاية عامل خفي - تتمثل هويته في الحركة الوطنية أو الوجود القومي، أو الإرادة الشعبية - ينبثق باعتباره العامل الحاسم حقا (كما حدث في فيتنام) ولكن حتى هنا لم يحدث هذا العامل فعله الحاسم بغير دعم عسكري، واقتصادي وامدادات متواصلة وضخمة من جانب الصين والاتحاد السوفيتي لدولة تقع على الحدود الجنوبية للصين الشعبية.

إنني أعني بهذا العامل الحاسم - وهو الإرادة الوطنية للجماهير الشعبية، التي مكنته أن يعمل كعامل حاسم في صراعات القوى في العالم بين الإمبريالية والحركات الوطنية، وذلك عندما يؤدي دوره كجزء مكون متكامل للإستراتيجية الشاملة، ومستفيدا بالكامل من الجوانب الإيجابية والسلبية، ومن النواحي المساندة والمعوقة للجيوسياسية. ويتضح هذا بجلاء بإيراد عدد من الحالات ذات الدلالة البالغة: فيتنام - الصين... بالمقارنة مع المقاومة الفلسطينية - مصر، المكسيك - كوبا بالمقارنة مع بيرو - شيلي.... الخ.

ويبقى الافتراض السياسي صحيحا من حيث المبدأ، وهو أن الجيوسياسية تمثل عاملا أساسيا، ولكن ليس العامل الحاسم في نهاية المطاف، في الديالكتيكات الإمبريالية والتحرر الوطني. وما ينبغي أن نرعى إليه يتعلق أساسا بتقييم الأبعاد المحددة، الدنيا والقصوى، لأهمية العامل الجيوسياسي في صراعات القوة العالمية في عصرنا الراهن.

٣ - ٣ وهذا يفرض بنا إلى التفكير المباشر في الاستخدامات الممكنة للجيوسياسية بصدد تشكيل عالم الغد. على ألا يكون دافعنا "النموذج النظري" لمثل هذه الاستخدامات المحتملة، ولكن الإمكانيات المحددة لميزان القوى المتغير في العالم.

٣ - ١ - ٣ ومن ثم تكون نقطة البداية على النحو التالي: إن توازن القوى العالمي، كما تشكل في نهاية الحرب العالمية الثانية في مؤتمر يالتا، قد بدأ الآن

يدخل مرحلته الأخيرة، ولا ينبغي علينا أن نفهم من هذا أن الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي كفا عن أن يكونا القوتين العظميين، إنهما كذلك وسيظلان هكذا حتى نهاية القرن الحالي على الأقل، ولكنهما لم يصبحا يشكلان المركزين الوحيدين للقوى العالمية، وإن اتفاقيات يالطا، والتي تختص بالعالم الغربي تبدو الآن وقد تلاشت في مواجهة نهضة الشرق. وهذا ينطبق أساسا على آسيا، ولكن أيضا على أفريقيا والشرق الأوسط بدرجات مختلفة، وكذلك على أمريكا اللاتينية النائية، والمهملة حتى الآن.

٣ - ٣ - ٢ إن الشكل الذي سيكون عليه ميزان القوى العالمي الجديد في نحو عام ٢٠٠٠ يمكن رسم خطوطه الرئيسية على النحو التالي:

أ - كتلة قوة أوروبية غربية بقيادة الاتحاد السوفيتي، مع نسق مزدوج من التحالفات بين دول أوروبا بعضها البعض: فألمانيا (التي ترتبط سياسة قيادتها الاشتراكية الديمقراطية للتقارب مع الشرق (سياسة أوستبوليتك)، مع جميع الخبرات التكنولوجية والصناعية الأكثر تقدما للدول الرأسمالية الأوروبية)، والإمكانات الهائلة للاتحاد السوفيتي الملتمزم حاليا بتسريع إيقاع التحديث الاقتصادي لمواجهة كل من الإمبريالية الأمريكية والنفوذ السياسي الصيني (وهي سياسة قد تؤدي إلى تكوين شكل ما من توحيد ألمانيا في هيئة اتحاد فيدرالي بين دولتي ألمانيا) ونمط التحالف الكلاسيكي بين الاتحاد السوفيتي وأوروبا الغربية مع قيام فرنسا بدور الشريك الكبير على المستوى الثقافي والسياسي، وإيطاليا التي تتقدم حثيثا الآن في اتجاه أن تشكل نوعا ما من المهادنة التاريخية مع الإسهام المباشر للحزب الشيوعي الإيطالي أقوى الأحزاب الشيوعية غير الحاكمة وأقواها نفوذا في الغرب، وفي الأبيض المتوسط، والقارات الثلاث.

ب - كتلة قوة آسيوية - شرقية بقيادة الصين، بالتحالف مع العالم العربي بزعامة مصر، ودول منطقتي الأبيض المتوسط وشرق أفريقيا، بالتعاون الوثيق مع اليابان لمواجهة مشكلات التحديث الاقتصادي في أعقاب الثورة الثقافية الكبرى.

ج - كتلة قوة غربية - أمريكية تتألف أساسا من الولايات المتحدة وبزعامتها بالتحالف مع عدد من الشركاء الصغار.

إن العوامل المركزية فى تحالفات القوى الجديدة هذه تتمثل فى بندي (أ)، و(ب): أى المبادرات السياسية للدولتين الاشتراكيين الكبيرتين فى تحالف مع الحركات الوطنية على المستوى السياسى، وفى تحالف على المستوى الاقتصادى والتكنولوجى مع الدولتين الرأسماليتين الكبيرتين غير المهيمنتين (ألمانيا الغربية واليابان) تحت حماية المظلة النووية لكل من الاتحاد السوفيتى والصين.

أما دور دور بند (ج) الخاص بالإمبريالية الأمريكية فهو يبدو كأنه محكوم بمدى التقدم عبر المسارين المتقاربين لقوى الاشتراكية والتحرر الوطنى، وهو دور الدفاع الاستراتيجى، كما كان الوضع فى السابق، مثلته فيتنام.

٣ - ٣ - ٣ بالإضافة إلى إعادة التنظيم هذه لتوازن القوى العالمى، فيمكن إعطائه تصور واضح للمناطق التالية:

أ - إن منطقة أوروبا الغربية بقيادة الاتحاد السوفيتى سوف تمتد إلى أوروبا كلها، وآسيا غربها ووسطها، والأبيض المتوسط، والشرق الأوسط، وشمال أفريقيا، وأجزاء من الأطلنطى (الشمال والوسط)، والباسفيكى (الشمال والجنوب مرارا بالمحيط الهندى) والمحيطات الهندية.

وهى بهذا سوف توفر مظلة على جانب كبير من التنوع وغالبا ما تكون ملائمة للحركات الوطنية فى هذه المناطق، بشرط أن تبرهن هذه الحركات على قوتها وأن تدرك بوضوح معلمات التورط السوفيتى الممكن.

(إن الأبيض المتوسط والشرق يقعان مباشرة فى نطاق البعد الجيوسياسى المباشر للعمل السوفيتى، ولا ينطبق هذا على شيلي أو الهند).

ب - ستغطى منطقة كتلة القوة الآسيوية - الشرقية بقيادة الصين جميع الأراضى الداخلية لآسيا وكذلك شرق أفريقيا، وأجزاء من الشرق الأوسط والمحيط الباسفيكى. وفى وسع هذه الكتلة أن تكون عاملا حاسما لمعظم حركات

التحرر الوطنى والثورات فى هذا الجزء من العالم، حيث يعيش أكثر من نصف الجنس البشرى.

ج - المنطقة الغربية - الأمريكية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، ستغطى شمال أمريكا، وأغلبية منطقة المحيطين والباسفيكى، وأمريكا الجنوبية، وأفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، والقارة الجنوبية. وداخل هذه المنطقة يمكن توقع استخدام أقصى أنواع العنف للحفاظ على هذه الأجزاء المتبقية، وشعوبها وإمكانياتها وثرواتها فى أيدى الإمبريالية الأمريكية. وهذا يعنى أن حركات التحرر معرضة لأن تثبت أنها الأقوى فى هذه المناطق، بسبب الضغوط الأمريكية المكثفة، ولكنها معرضة أيضا لأقصى أنواع القمع.

٣ - ٣ - ٤ وعلى المستوى العالمى، سيتمثل التناقض الكبير بين الكتلتين بزعامة الدولتين الاشتراكيتين العظميين من جانب، والكتلة التى تقودها الولايات المتحدة من جانب آخر، وسيكون هناك داخل كل من هذه الكتل تناقضات صغرى، بين الدول ذات الأنماط المختلفة اجتماعيا واقتصاديا، وبين كل هذه الدول وشركائها الاشتراكيين القياديين. وهذا الديالكتيك الاجتماعى المكثف والممتد الذى سنشاهده الأجيال القادمة فى العالم سوف يتطور من خلال نموذج من الصراعات المعقدة والمكثفة. وما من أحد يستطيع الآن تقييم فرض أية حرب عالمية ثالثة، وخاصة أن القوى الفعالة التى تصنع القرارات الإمبريالية تشعر أنها أخذت تفقد قدرتها التاريخية على المبادرة.

ومن ثم نجى الأهمية الحيوية لإدخال الجيوسياسية باعتبارها عاملا أساسيا، ولكن ليس حاسما فى تقييمنا لمستقبل الإمبريالية والحركات الوطنية فى عصرنا الراهن وما بعده...

(١) قدم هذا الجزء بطريقة أكثر تبسيطاً للنقود التي استمرت يوماً واحداً وكان موضوعها "تظريعات الإمبريالية" ورأسها بوب سوثكليف وروجر أوين في جامعة سانت أنطوني، أوكسفورد ١٩٧٠.

(٢) أنور عبد الملك Pour une sociologie de l'imperialisme

(٣) منذ عام ١٩٤٥، أطلق المزيد من النيران وقتل المزيد من البشر في المعارك، ومع هذا فالعالم رسمياً في سلام الآن، أي ما بين دولة غربية كبرى تحارب أخرى غربية. وفي الحقيقة فإن الحرب العالمية الأولى كانت حرباً داخلية بين دول أوروبا بعضها البعض، ولكن لا ينطبق هذا على الحرب العالمية الثانية، وهي صدقاً الحرب العالمية الأولى.

(٤) انظر النص الجزئي الذي قدمه على يعطا نيابة عن حزب التحرر والاشتراكية (المغرب) للجنة التحضيرية للمؤتمر الدولي (الثاني) حول الأحزاب الشيوعية والعمالية (موسكو ١٨ - ٢٢ مارس ١٩٦٩) وفي مؤلف أنور عبد الملك:

La Pensee Politique arabe cont emporaline Le Seuil, Paris, ١٩٧٠, ١٩٧٥, ١٩٨٢. والطبعة المجددة الإنجليزية:

Contemporary Arab Political Thought, Zed Press, London ١٩٨٤.

وقد أثار هذا غضب أحدهم (القوميين و العنصريين. إلخ) انظر:

Nathan Weinstock: La Gauche Arabe, Maspero, Paris, ١٩٧٠.

(٥) أحب أن أحيل القارئ إلى هذا البيان الرائع الذي قدمه سلفادور الليندي رئيس شيلي في مقابلة صحفية مع ريجس دوبريه:

Allende: the polling booth revolutionary, the Sunday times, ١٤ March ١٩٧١, p. ١٣.

(٧) أنظر:

Russett, Bruce, ed.: world handbook of poitical and social indications, Yale U.P. ١٩٦٤. P. ١٨ - ٢١. Friedrich, Xarl J: Some Genera thevitical reflections of the problems of political data, in Merritt, R.L. and Rlkkar, S: Comparing Nations, Yale U.P. ١٩٦٦. P ٥٧ - ٧٩.

(٧) أنور عبد الملك:

(٨) انظر العرض التقليدي لأشكال الجيوسياسة بقلم:

D. Whittlesey and H.W Weigert, Geopolitics, in the 1963 edition of encyclopaedia Briannica vol. 10, p. 182 E – 182 J: Political Geograpy – a sing of the time – by H. Sprout, in the international encyclopaedia of the social sciences, vol. 6, pp. 116 – 23.

Harm j. de blij (ed) systematic political geography, john wiley new york – london 1967, Charles A. Fisher (ed) Essays in politicl Geography, Methune, London, 1968 Jean Gottman, La Politique des Etats et la geographie, Paris, 1961.

ثم الهوامش لمشروع كتاب لينين:

Imperialism, in V. I. Lenin, Complete works, vol. 39 foreinglanguages de .
(french text) Moscow.

الماركسية والتحرر الوطني

فى هذا الفصل^(١)، فضلت أن أقصر على طرح بيان بالإشكالية النظرية على أن أقدم عرضاً نظرياً كاملاً، ذلك لأن الإشكالية موضع البحث هي قبل أى شئ آخر إشكالية ديناميكية فى حركة مستمرة، فهى ليست مذهباً يتعين علينا تحليله ولكنها حركة يتشكل أحد دوافعها الرئيسية من هذا العمل المنهجى والفلسفى والأيدىولوجى والسوسيولوجى الذى يعرف بالماركسية.

لذلك فإنه يستحيل من وجهة نظرى أن نقدم أية أطروحة thesis على المستوى المنهجى. فضلاً عن ذلك وفيما يتعلق بشخصى فإننى لست مؤهلاً لتقديم أية أطروحات، أما ثالثاً وفيما يختص بوجود أطروحات إقليمية فإنه قد تم تجميع هذه الأطروحات فى نص قد تعرفونه جيداً؛ وهو النص الكامل للقرارات والمقترحات التى أقرها المؤتمر الأول للتضامن بين شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية والذى انعقد فى هافانا فى يناير عام ١٩٦٦. ولكن فيما عدا ذلك فإنه ليست هناك أية نظريات تجمع فى أى شكل بين القارات الثلاث. ولذلك فما ينبغى عمله هو محاولة تعيين موضوعهم وصياغة الإشكالية.

يتكون هذا العرض من خمسة أجزاء تسبقها مقدمة أحاول فيها أن أحدد وجهة النظر الغربية فى "الماركسية بين البدائيين Aborigines أو الماركسية فى العالم المتخلف.

أما الفصول الأخرى فسوف تعنى على هذا الأساس بعرض تاريخ الإشكالية من خلال الإجابة على أسئلة مثل: فى أية مرحلة تصبح مشكلة الماركسية أمراً مثيراً للقلق فى القارات الثلاث؟ وما هى جذور وطبيعة المشكلة التى تنشأ من العلاقات بين الماركسية وحركات التحرر الوطنى؟ ما هى وظيفة الماركسية داخل حركات التحرر الوطنى فى دول القارات الثلاث؟ وإلى أى مدى ينعكس التداخل

فيما بينها على مفهوم الماركسية وطبيعتها ومظهرها كما هي اليوم فى القارات الثلاث خاصة فى أوروبا؟ ذلك لأنها ليست شيئا واحدا على الإطلاق. وسوف نتبين فيما بين بعد ضخامة التباين فيما بينهما.

وأخيرا فسوف أطرح فى خلاصة قصيرة سؤالا عما ينبغى عمله: ما الذى يستطيع الماركسيون من جهة والمنظرون الماركسيون marxologists من جهة أخرى أن يفعلوه إزاء كل ذلك.

إن السؤال الذى يطرح نفسه عندما يقدم المرء على دراسة موضوع من هذا النمط هو: إلى أين يتجه مصير الماركسية؟ وكيف تم تحويلها؟ ما هى الآن فى أوروبا التى أفرزتها وكيف أصبحت فى القارات الثلاث التى تنظر إليها فى يومنا هذا على أنها أيديولوجية ثورية رئيسية؟ ذلك لأنه لا يوجد فى الوقت الحاضر حتى احتمال الحوار، ناهيك عن المحصلة التركيبية.

وكما سنرى فيما بعد فإن الماركسية فى الغرب تعتبر من وجهة نظر القارات الثلاث وكأنها فى أزمة. فقد انعدم تقريبا التجديد النظرى. وما فعله العمل النظرى لن يكن له سوى علاقة طفيفة جدا بالثورة. فالقارات الثلاث ترى ماركسية الغرب منقسمة، وقعت فريسة للانقسام بين التطور والدوجماتية، وهناك خلل يثير الدهشة فى الاستمرارية بين النظرية القائمة وبين ما يطلب من الماركسية أن تفعله، ذلك لأن مهمتها الحقيقية هى تغيير العالم مهما كانت براعة المفكرين الماركسيين والنجاح الذى حققوه.

ومن جهة أخرى وإن كان ذلك على المستوى الظاهرى فقط فإن الماركسية فى القارات الثلاث تبدو للأوروبيين شكلا من أشكال القومية الراديكالية يختلف تماما عن الماركسية فى شكلها الذى طوره ونظمه مفكرو الغرب على الأقل حتى تفجرت أزمة الكومينترن Comintern.

وهناك رجلان مختلفان تماما هما جورج لوكاس ورايت ميلز، أكد الاثنان - الأول فى كتابه "مغزى الواقعية المعاصرة"، والثانى فى "الخيال الاجتماعى" - على

أنه في القارات الثلاث فقط أو فيما تصفه أوروبا بالعالم الثالث تستطيع الإشكالية الماركسية أن تواجه المشكلات التي يكون من شأنها أن تساهم في إثرائها. غير أن نداءاتهما ذهبت أدراج الرياح، لأن الغرب بعيد في فكره كل البعد عن الرغبة الصادقة في استخلاص دروسه والبحث عن مصادر أفكاره خارج نطاق ذاته. ولذلك فإن هذا المجال قد خلا تماما من أي عمل بحثي. وفي استطاعتنا أن نقول إن العقبتين الرئيسيتين اللتين وقفنا حجر عثرة في طريق المعالجة الغربية لإشكالية القارات الثلاث كانتا عقبتين سيكولوجيتين. فمن ناحية يسيطر على الماركسيين اعتقاد بأنهم هم الذين يملكون الهيمنة السياسية والاقتصادية على حركات الاشتراكية والشيوعية الدولية (وحتى أزمة الكومينترن، أو بالأحرى حتى بعد ذلك إلى أن نشأت الكومينفورم كانت أوروبا هي مصدر الصيغ النظرية والخطوط العامة والأطروحات المنهجية للحركات الماركسية) ولذلك فإنه من الصعب أن تجد نفسها مضطرة للاعتراف بوجود "الآخر"، خاصة إذا كان هذا الآخر له مكانة الصين أو الشرق.

وإذا نحينا السياسية جانبا فإننا نستطيع أن نقول إن هناك في الغرب تقليدا ملحا لأن يفكر للآخرين في مشكلاتهم.

أما بالنسبة للغربيين من غير الماركسيين فهم مؤمنون بالحقيقة القديمة جدا التي تقول بهيمنة الغرب وأوروبا هيمنة شاملة ثقافيا وطبيعيا على العالم الآخر. ولا شك في أن هذا التساؤل الذي طرحه مونتسكيو منذ زمن بعيد "كيف يكون أي شخص فارسا؟.. لا يزال هذا التساؤل تساؤلا عصريا، حيث أن العديد من أصدقائنا في الغرب لا بد وأنهم يتساءلون حتى الآن: "كيف يكون أي شخص صيني أو فيتنامي أو كوبي أو أفريقي أو عربي أو كولومبي... إلخ؟". لأن هؤلاء بالنسبة إليهم يبدون كأنات أخرى مختلفة، ولأنها كذلك فإن لها رؤيتها الخاصة. ومع ذلك وحتى لو كانت هذه الرؤية الخاصة تنسم بالصفة العالمية فإن الغرب يفضل أن يتعامل معها إما بالسخرية (الوسيلة السهلة) أو من خلال محاولات مستمرة دعوبة لتهميشها والتقليل من أهميتها بما يؤكد إيمانه الراسخ بأن القضايا

الحقيقية تتقرر بالفعل فى قطاعات معينة فى عدد صغير من دول العالم الغربى، ذلك رغم أن الواقع يؤكد أن اللعبة الحقيقية تمارس على الجانب الآخر من العالم.

١ - تاريخ الإشكالية

صحيح أن هناك مشكلة ببليوجرافيا. ولذلك فإنه يصبح من المفيد أن نستعرض المراحل المتتابعة فى العلاقات الإشكالية بين الماركسية والتحرر الوطنى طالما كانت هناك محاولات للدراسة المتعمقة لهذه المشكلات⁽²⁾.

وعلىنا فى البداية أن نعترف بالاختلاف فى الطبيعة بين المراحل المختلفة للمشكلات.

أولا: مرحلة التجميع الأولى للمواد الخام. وثانيا: مرحلة الانتاج الحربى.

وثالثا: مرحلة المعالجات النظرية الأولى فى فترة ما بعد ١٩٤٥، مع التركيز على فترة ما بعد ١٩٤٩ وحتى الوقت الراهن.

وفما يتعلق بالمرحلة الأولى فإننا ليس لدينا سوى القليل جدا من المادة المتاحة. وبفضل المؤسسة الوطنية للعلوم السياسية استطاع س. شرام S. Schramn. وكارير دان كوس أن يقارنا لأول مرة فى "الماركسية وآسيا" بين مجموعة كبيرة من الوثائق المهمة. ورغم العديد من السلبات وأوجه القصور إلا أن هذا العمل يتميز بأنه جمع النصوص مع دراسة نقدية لها مما أتاح اكتشاف الصيغ الأصلية التى كانت عادة ما تقتبس من مطبوعات تحكمت فيها الضرورات الجيوبوليتيكية (الجغرافية السياسية) طوال فترة الكومينترن. وهذا يعد فى حد ذاته إنجازا له قيمته. فنحن نعتبر هذا العمل عملا أساسيا لدراسة هذه المشكلة، ونأمل أن يزودنا المختصون فى أسرع وقت ممكن بأعمال مماثلة حول الماركسية وأمريكا اللاتينية والماركسية وأفريقيا.

هناك أيضا بعض الأعمال المتفرقة حول ما ينظر إليه عادة على أنه قضية هامشية (وأشير هنا بالتحديد إلى الإسلام) ولكنها فى حقيقة الأمر أعمال نظرية عامة تركز بشكل مباشر على علم اجتماع الأيديولوجية المقارن. ومنها على سبيل

المثال كتاب حول سلطان على Sultan Galiev وضعه أ. بينينجس A..
Benningsen.

وأخيرا فقد أعدت الجامعات الأمريكية مجموعة غير عادية من رسائل
الدكتوراه التي تتناول بصورة أكبر الماركسية في تلك الدول الواقعة في نطاق
السيطرة الأمريكية وخصوصا على طول محور الباسفيك في أمريكا اللاتينية
وآسيا. لأن ذلك هو المحور الاستراتيجي الأساسي في القرن العشرين وليس محور
الأطلنطي التي تعيش أوروبا في نطاقه.

كل هذه المواد تجمع بين ميزة واحدة إلى جانب عيب واحد وإن كان أقل
أهمية. فميزتها الأساسية هي أنها تلقى ضوئا ليس على النظرية الماركسية، ولكن
على الأيديولوجية والبرامج الشيوعية. ولذلك فإن هؤلاء الذين يهتمون بالسياسة
سوف يجدون فيها مادة وفيرة. أما بالنسبة للذين يهتمون بالنظرية فإنهم لن يجدوا
فيها سوى القليل. ولسنا نقصد أن الفاصل واضح إلى هذا الحد ولكن ما نعنيه هو
أن هذه المواد اهتمت بالسياسة أكثر مما اهتمت بالنظرية.

١ - ١

ونبدأ بالمستوى الأول لهذه المادة: لدينا حاليا عدة أعمال تعنى بالمفهوم
الماركسي للواقع الوطني، وهذه المادة تقدم لنا تاريخا دقيقا لتطور هذا المفهوم
وبالتالي لتطور حركة التحرر الوطني، ولما يسمى أحيانا بماركسية الجهاز أو
ماركسية الدولة (وتوصف أيضا بالماركسية الأوروبية) من ماركس إلى ستالين.
إنني لا أعتزم هنا أن أكرر تفسيراتهم. ولكنني سوف أكتفى بعرض بعض الأمثلة
الصارخة التي توضح كيف كانت الماركسية الأوروبية الكلاسيكية تمثل مشكلة
للتحرر الوطني.

ففي كتاب نشره المؤرخ الأرجنتيني جوستاف بيهوت حول المشكلة العرقية
في أمريكا اللاتينية. نجد على سبيل المثال عددا من الإشارات المثيرة إلى إنجلز
وغیره.

وفى مقال نشر فى ٢٣ يناير ١٨٤٨ فى Deutsche Zeitung وآخر نشر فى فبراير ١٨٤٩ فى Neue Zeitung يناقش إنجلز حرب ١٨٤٧ بين الولايات المتحدة والمكسيك، فيشير بوضوح لا لبس فيه إلى الطابع الإيجابى للتوسع الأمريكى فى المكسيك على أنه يمثل امتدادا للحضارة الرأسمالية المتقدمة. وهو ما يمكن أن ينسحب على حرب فيتنام مثلا بعد قرن كامل.

ومن هنا تبدو القضية واضحة: نحن ناشرو الحضارة.

لقد فاق إنجلز ماركس فى نظريته إلى الحرب المكسيكية وغيرها من الحروب على أنها عمليات حضارية، وهو ما عبر عنه فى نص نشر عام ١٨٢٢ وأشار إليه لينين فى مجموعته عن "حركة التحرر الوطنى لشعوب الشرق" قائلا:

"فى رأى أن المستعمرات نفسها، أى تلك الأراضى التى تقطنها شعوب أوروبية مثل كندا والكاب وإستاليا، سوف تحصل على استقلالها. أما بالنسبة لتلك الدول التى استبعدت ببساطة والتى تقطنها شعوبها الأصلية مثل الجزائر والهند وهولندا والبرتغال وإسبانيا فإنه يتعين على طبقة البروليتاريا أن تتحمل مسئولية مؤقتة فى توجيهها بأسرع وقت ممكن إلى طريق الاستقلال".

ولسنا بحاجة إلى القول هنا إن إنجلز يشير إلى البروليتاريا الأوروبية حيث أن لم تكن هناك فى ذلك الوقت طبقة بروليتاريا فى الدول التى أشار إليها.

وهكذا أيضا تطرح مسألة التحرر الوطنى بنفس الطريقة: فسوف تقوم بالثورة نيابة عن الآخرين. وسوف نجد هذه السيكلوجية السياسية ذاتها فى نهايات الحرب الجزائرية تتحكم فى عمل بعض الجماعات المنتمية إلى اليسار المتطرف (Piedsrouges) الذين اعتقدوا أنهم بمجرد تحقيق الاستقلال بعد تضحيات ضخمة سوف يستطيعون تدريب هذه الثورة على تحقيق ما لم يكن بالإمكان تحقيقه فى ظل الظروف الطبيعية فى أوروبا.

ولذلك فقد كانوا يقولون بطريقة أو بأخرى: "إنكم أنتم الذين دفعتم ثمن الثورة ولكننا نحن الذين ينبغي علينا أن نصيغ إشكالياتها".

ولم يمر وقت طويل حتى وقع حدث غير مجرى الأمور. ففي عام ١٩٠٥ استطاعت دولة شرقية مثل اليابان التي أعيد اكتشافها، خصوصية وفردية تطورها أن تنتصر لأول مرة في تاريخ الحرب النظامية على دولة أوروبية وهي روسيا.

هذا الحدث كان من شأنه إثارة تحولات ملموسة نحو الجزرية في كافة الحركات الوطنية في أرجاء العالم الاستعماري. ولذلك يعتبر عام ١٩٠٥ بحق تاريخا حيويا في عملية التطور الأيديولوجي لكافة الحركات الوطنية دون استثناء. فقد كان النصر الياباني هو العامل الشرقي الأول في ظهور الأفروآسيوية على سبيل المثال. وعلى هذا الأساس يمكن للمرء أن يفهم هذه الظاهرة الغربية والحقيقية في نفس الوقت.. أي ظاهرة النهضة السياسية للشرق، لأن المسألة بالتحديد هي مسألة سيكولوجية سياسية أكثر منها مسألة عرضية تكتيكية.

وبعد ذلك جاءت أعمال لينين الوسيط الأساسي بين الماركسية الكلاسيكية الأوروبية والشرق، والذي رحل في وقت مبكر فلم يتمكن من تبني القضية وتطويرها إلى ما كان يرغب فيه حقا. لقد ساهم لينين بمجهود عظيم وخاصة خلال المؤتمرين الأول والثاني للكومينترن في محاولة فهم وجهة نظر الشعوب المتخلفة التي عارضته بعنف ووضوح لا لبس فيه.

ثم ظهر الصراع الأيديولوجي الحقيقي بين الماركسيين الأوروبيين والماركسيين الوطنيين في الدول المتخلفة إبان المؤتمرات الثانية والثالثة والرابعة للدولية الاشتراكية. وبعد ذلك حول برنامج الكومينترن في عام ١٩٢٨. على أن أهم ما ينبغي الإشارة إليه هنا هو أنه في تلك اللحظة تشكلت مجموعة من "الأخرين" التي اضطلعت بمهمة تحقيق التزاوج بين الاحتياجات السياسية لحركات التحرر الوطني والحاجة إلى صياغة ما بدا بعد ذلك على أنه أكثر النظريات السياسية والاجتماعية المتطورة في الغرب (الماركسية). وسوف أقتبس هنا دون ترتيب محدد سلسلة من النصوص التي تتراوح في انتمائها بين اليمين واليسار. واليمينيون هنا يمثلهم تان ملاكا والحزب الشيوعي الإندونيسي الذي تطرف في هذا المنظور (كما فعل العديد من الأحزاب الشيوعية الأخرى وخاصة في مصر) إلى

الحد الذى انتهى فى إندونيسيا بكارثة فعلية مثلما انتهى فى أماكن أخرى بهزائم فادحة.

أما اليسار فيمثله م. ن روى الهندى. ويمثل الوسط سلطان جالبيف الذى لم يكن فى "القارات الثلاث" ملهما بقدر ما كان عاملا معجلا للتفاعل فى الفكر الماركسى الوطنى رغم أنه نسى تماما اليوم.

قال نان ملاكا مؤسس الحزب الشيوعى الإندونيسى فى المؤتمر الرابع للكونمينترن عام ١٩٢٢ عندما كان يتحدث عن الوحدة الإسلامية:

"أولا: ما معنى حركة الوحدة الإسلامية؟ لقد كانت الوحدة الإسلامية فى الماضى معنى تاريخيا، بمعنى أن الإسلام كان خليقا به أن ينتصر على العالم أجمع بقوة السيف. أما اليوم فإن الوحدة الإسلامية لها معنى مختلف تماما. إنها الكفاح من أجل التحرر الوطنى طالما أن الإسلام يمثل كل شئ لكافة المسلمين. إن الإسلام ليس دينا فقط ولكنه دولة اقتصاد وزراعة وغيرها. هكذا فإن الوحدة الإسلامية اليوم تعنى الرخاء لجميع الشعوب الإسلامية أو الكفاح من أجل تحرير ليس فقط الشعوب الإسلامية وإنما أيضا الهندوسية واليابانية وغيرها من الشعوب الإسلامية المقهورة".

ورغم أنه ملاكا لم يقلها صراحة، إلا أن غيره من الحاضرين فى المؤتمر أشاروا إلى أن هذا المفهوم ينطبق أيضا على شعوب آسيا السوفيتية وآسيا الصينية. وقد انتهى ملاكا نفسه بالتأكيد على "الحاجة لمساندة حرب التحرير الوطنى التى يخوضها ٢٥٠ مليون مسلم ضد قوى الإمبريالية".

هذه ببساطة هى أكثر النظريات تطرفا فى اليمينية أو أكثر تعبير قومى عن محاولة الوساطة بين الماركسية وحركات التحرر الوطنى.

أما بالنسبة لنظرية الجناح اليسارى فهى - وإن كانت أكثر صقلا - إلا أنها كانت مختلفة أيضا تام الاختلاف عن الصيغ الماركسية الأوروبية. وقد طرح رؤى الهندى هذه النظرية على المؤتمر الثانى والثالث والرابع للدولة الشيوعية.

وسوف أستعرض هنا على سبيل المثال نصا أعيد اكتشافه مؤخرا، وتمت مراجعته بواسطة الكومينترن وهو يتضمن الفرضيات الأساسية التي طرحتها رؤى ونقد لينين، لها واقتراح حل الوسط الذي اتفق عليه.

الفرضية الأولى: الرأسمالية الأوروبية تستمد قوتها في المقام الأول ليس من الدول الصناعية الأوروبية بقدر ما تستمدّها من ممتلكاتها في المستعمرات.

النقد والتعديل: إن واحدا من أهم المصادر التي تستمد منها الرأسمالية قوتها هي التبعيات والممتلكات في المستعمرات.

الفرضية الثانية: لن تتجح طبقة العمال الأوروبيين في الإطاحة بالرأسمالية الأوروبية حتى يتم استئصال هذا المصدر (أي عائدات المستعمرات).

النقد والتعديل: إن الفائض الناتج عن استغلال المستعمرات هو الدعم الأساسي للرأسمالية الأوروبية. وطالما لم يكن بالإمكان حرمانها من مصدر هذا الفائض فلن يكون من اليسير على الطبقة العاملة الأوروبية أن تسقط النظام الرأسمالي.

هذه هي الفرضية الرئيسية، فهنا وضعت كافة الأوراق على المائدة. وهنا يتمثل - إذا أردت أن تعرف - المنبع الأيديولوجي للخط الصيني.

الفرضية الثالثة: إن الاستعمار الأجنبي الذي فرض بالقوة على شعوب الشرق قد حرم هذه الشعوب من النمو اجتماعيا واقتصاديا بنفس القدر الذي نمت به وتطورت الشعوب الأخرى في أوروبا وأمريكا.

ولننظر الآن إلى سلطان جاليف الذي - كما اعتقد - وضع أساس ما أصبح بعد ذلك يسمى "بماركسية القارات الثلاث". فخلال فترة عمله كمساعد مفوض للقوميات في عهد ستالين عام ١٩١٩ وبعد عزله من الكومينترن في عام ١٩٢٣ لم يتغير الرجل رغم ما طرأ على صياغاته من تغيرات جعلتها أكثر جذرية.

ولنسمع أولا من الرجل وهو يتحمل المسؤولية السياسية: ففي تقريره حول الثورة الاجتماعية في الشرق الذي نشر في عام ١٩١٩ بواسطة جهاز المفوضية للقوميات يستعيد سلطان جاليف الرؤية الأوروبية لثورة أكتوبر قائلا:

"إن تحويل ثورة أكتوبر هذه إلى ثورة اشتراكية عالمية ينظر إليه فقط على أنه انتقال الطاقة الثورية الروسية إلى الغرب. أى إلى هذا الجزء من العالم حيث تكون المتناقضات بين المصالح الطبقيّة للبروليتاريا من جانب وللبرجوازية من جانب آخر فى أكثر أشكالها حدة، وحيث تبدو بالتالى الأرض أكثر خصوبة لنمو الثورة. أما الشرق بسكانه الذى يصل تعدادهم إلى مئات الملايين من البشر المقهورين بواسطة البرجوازية الأوروبية الغربية فقد كان منسيا تماما".

لقد تجنب جاليف مسار الصراع الطبقي فى الشرق (هذا ما وصفته بنهميش العالم الثالث). ولم تكن مشكلة الثورة فى الشرق موجودة إلا فى عقول أفراد معزولين مثل م. ن. روى وسلطان وتان ملاكا.. كانت مفقودة مثل قطرات الماء فى بحر الثورة الهائج. فقد أدى الجهل بالشرق والخوف الذى أثاره دائما إلى رفض الاعتراف بقدرته على المشاركة فى الثورة العالمية. وهكذا يضيف جاليف قائلا: "إن التوجه المنفرد للثورة تجاه الغرب كان خطأ" ثم بعد ذلك فى عام ١٩٢٣ يعبر هذا الرجل عن نفسه فى عبارات أكثر راديكالية قائلا:

"إن الشعوب الإسلامية^(٣) هى أمم بروليتارية. فهناك فارق ضخم بين الوضع الاقتصادي للبروليتاريا الفرنسية أو الإنجليزية ومثل هذا الوضع للبروليتاريا فى المغرب أو أفغانستان.. إننا نستطيع أن نؤكد أن الحركة الوطنية فى الدول الإسلامية لها خاصية الثورة الاشتراكية".

إن هذه الصياغات التى وضعها جاليف فى عام ١٩٢٣ والتى يمكن وصفها بأنها صياغات وقتية أو شخصية قد تكررت مرة أخرى فى نص معروف ألا وهو "بيان جيفارا" حيث نقرا:

"ماذا تبقى لنا من دور نحن المستغلين فى هذا العالم؟.. لقد راقبت شعوب القارات الثلاث فثيتام وتعلمت من دروسها.. وطالما ابتزت الإمبريالية الإنسانية بالتهديد بالحرب، فإن الرد الصحيح هو ألا نخاف الحرب.. أن نهجم بقوة ودائما فى كل مكان.. وعندما ينتهك هذا السلام اللعين فماذا تكون مهمتنا إذن؟ أن نحرر أنفسنا مهما كان الثمن".

على أن أهم ما فى هذه الصيغة هنا قوله: "نحن المستغلين فى هذا العالم" وليس "نحن شيوعيو القارات الثلاث". أى نحن الذين يمكن اعتبارنا طبقة البروليتاريا فى الدول الغربية المتخلفة.

ورغم أن هذا النص قد صيغ فى عبارات مختلفة اختلافا طفيفا، إلا أنه يعبر فى جذوره عن نفس الفرضيات التى طرحها سلطان جاليف، ألا وهى أن الشعوب الإسلامية فى الشرق هى أمم بروليتارية. غير أن سلطان جاليف الذى يهتم أكثر من جيفارا بوجود الأمة قد أصر على صياغة أطروحاته فى عبارات وطنية. فكلمة "الأمة" كلمة تحظى باهتمام بالغ لدى الماركسيين المنتمين إلى الحركة الوطنية والذين اتجهوا إلى اليسار. ولكنها فى الوقت نفسه تعد أقل أهمية بالنسبة لهؤلاء الماركسيين مثل جيفارا الذين أخذوا الصيغ الثورية كنقطة انطلاق لهم فاندمجوا تدريجيا فى هذه الحركة الشعبية أو تلك. إنه اختلاف فقط فى المعالجة والتناول ولكن الجوهر يظل واحدا. إن جيفارا ليس سلطان جاليف، كما أن الماركسيين فى القارات الثلاث مثل الصينيين وغيرهم لا يتحدثون "بلغة جيفارا". ومع ذلك فما يقولونه لا يختلف فى أساسه. وباستطاعة المرء أن يشير إلى نصوص أخرى فى هذا الصدد. منها على سبيل المثال بيانات هوشى منه عندما كان يقود حركة الاحتجاج العنيفة ضد محاولة تجاهل المشكلة الاستعمارية وخصوصا فى عام ١٩٢٤ فى المؤتمر الخامس.

"إننى هنا لأوجه انتباه الشيوعية الدولية سواء أرادت أو لم ترد إلى حقيقة مهمة: هى أن المستعمرات موجودة، وأن على الثورة أن تجد حلا لمشكلة مستقبل المستعمرات إلى جانب الخطر الذى تمثله هذه المستعمرات.. رفاقى ولتغفروا لى جراتى.. لماذا لا تنظمون تكتيكاتكم وقواكم بلغة ثورة المستعمرات؟.. إننى أستحثكم بكل قوة أن تأخذوا حذركم".

لقد قدم هوشى منه حديثا على أساس أنه تلقى تعليمه فقط داخل مدرسة الحزب الشيوعى الفرنسى. ومع ذلك ففى هذا النقاش فى المؤتمر الخامس الذى حذف منه دائما النص السابق لم يكن هوشى منه مهتما بشرح الفرضيات بقدر ما كان مهتما

بقوله: "نحن موجودون.. وإن تستطيعوا أبدا أن تتجاهلوا هذه الحقيقة حتى تنتظروا في مشكلاتنا.. وإذا لم تفعلوا فسوف نستمر في طريقنا.. وهو لم يقل: نختار طريقنا نحن. ولكنه كان يعنى بالتحديد: عليكم أن تفعلوا شيئا معنا يختلف عما كان يمكن أن تفعلوه وحدكم دوننا".

وأخيرا تنتهى هذه القصة الطويلة بتلك الأطروحة التى تضمنها برامج الكومينترن فى عام ١٩٢٨:

"إن تحقيق تحالف أخوى مناضل مع القوى العاملة من المستعمرات هو واحد من الأهداف الأساسية للبروليتاريا الصناعية فى عالم يتولى قيادة النضال ضد الإمبريالية".

وعندما ننظر إلى هذا النص الذى صيغ فى عام ١٩٢٨ ونقارنه بواقع اليوم فسوف نستطيع أن نتبين كيف اختلفت الأمور فى تطورها عما عرضه الكومينترن على المستوى النظرى بعد سبع سنوات من المناقشات والجدل المحتكم.

كذلك فإنه من المدهش حقا أن يتضح من خلال النقاش أن أقرب الرجال إلى رؤية سلطان جاليف كان ستالين، رغم أنه كان هو نفسه الذى أزاح فيما بعد أقرب الرجال إلى التصور الوطنى فى استخدامات الماركسية. ففى كافة نصوص المعاصرة.. وفى كل مناقشاته مع روى وسلطان جاليف الذى كان عدوه الأساسى يبدو الخلاف على المستوى التكتيكى أكثر منه على المستوى النظرى. وفى النهاية يتحدث ستالين باللغة نفسها، لكنه يتحدثها باسم أمته هو فى حين يتحدث الآخرون باسم ثورة قادمة فى أمم أخرى. وإذا عدنا للنظر فى هذه النصوص فسوف يتضح لنا كيف اقترب ستالين فى ذلك الوقت من التصور الوطنى للماركسية فى شكل يتعارض مع الفرضيات التى تبناها الكومينترن. ومما لا شك فيه أن هذا يرجع إلى حقيقة أنه كان قد بدأ يتحرك فى اتجاه الاشتراكية فى دولة واحدة أو الاشتراكية الوطنية.

١ - ٢ أما فيما يتعلق بالمرحلة الثانية للتطور الوطنى فيما بين الحربين فليس هناك سوى القليل جدا من المواد المتاحة. ويبدو أن الكومينترن كان قد دخل فى

سبات عميق فيما يتعلق بهذه المسألة. فقد أدت استراتيجيته المتذبذبة بين خطين رئيسيين - الطبقة فى مواجهة الطبقة والجبهة الوطنية - طبقا لمقتضيات النضال السياسى للبروليتاريا الأوروبية والدولة السوفيتية إلى وجود ماركس القارات الثلاث فى موقف تعذر الدفاع عنه.

الطبقة ضد الطبقة؟ هذا يعنى أن على المرء أن يضع نفسه فى صف البروليتاريا، سواء كانت موجودة أو شكلية، أو حقيقية، وأن يضع المرء البروليتاريا فى مواجهة السواد الأعظم من الشعب الذى يتشكل أساسا من سكان مرتبطين بالاقتصاد الزراعى.. بالفلاحة. وهو ما يعنى أيضا أن على المرء أن يفصل عن هذه الجماعات أو هذه القطاعات من الطبقة أو الطبقات من البورجوازية الأصلية (أو كما يطلق عليها "البورجوازية الوطنية") التى لها مصلحة فى العمل ضد الإمبريالية. وهذا لن يؤدى فى النهاية سوى إلى مذابح الجيتو تماما كما حدث فى إندونيسيا وفى غيرها من دول القارات الثلاث.

الواقع إذن إن نتيجة هذا الخط الأول كانت حجب كل نشاط ماركسى له علاقة بحركات التحرر الوطنى.

الخط الثانى: الجبهة الوطنية - العالمية:

من الذى ينبغى عليه أن ينضم إلى الجبهة الوطنية؟ لقد حددت أحزاب الكومينترن قبل حلها تصورين يبدوان من على بعد خاضعين للنقد الجذرى:

التصور الأول: هو تصور "البورجوازية الوطنية". ولكن أين توجد هذه البورجوازية الوطنية؟ إنها فى الواقع كما أوضحت ليست فئة علمية ولكنها فئة جيوبوليتيكية عاملة، كان هدفها فى فترة ما يسمى بإستراتيجية الجبهة الوطنية حشد البورجوازية ككل (باستثناء قطاعات صغيرة جدا ارتبطت بالإمبريالية بصورة لم يكن بالإمكان إصلاحها) فى رباط مع الدولة الاشتراكية. وذلك فى إطار إستراتيجية عالمية عامة للنضال ضد الهجمة الإمبريالية. أو على الأقل، ومن الناحية التاريخية كان لهذين التكتيكيين أثر فى إثارة أزمة أساسية داخل كافة الحركات الوطنية فى القارات الثلاث.

أما الصيغة النظرية الثانية فهي تلك المتعلقة "بالدولة الديمقراطية القومية" وقد تشكلت هذه الصيغة في المؤتمر الأول للأحزاب الشيوعية والعمالية في موسكو لتلبية لاحتياجات الهند وإندونيسيا. وهي تعنى الدولة التى لا يتعرض فيها الشيوعيون للاضطهاد بحيث يستطيعون العودة للاندماج فى الإطار القومى بما يعزز ويقوى إمكانية الدولة القومية المستقلة تحسبا لما يحمله المستقبل. وكما سنرى فيما بعد؛ فقد أدى الجمود الذى وصل إليه الطريق الثالث، أو الانهيار الذى أصاب نظم الدول القومية المستقلة التى لم تفسح مجالا فى هذه المرحلة للثورة الاجتماعية إلى حرمان هذه التصورات العاملة من خاصيتها كتصورات، ولم يعد لها صلاحية عالمية.

ومع ذلك فإن أسباب إهمال هذه الفترة لا ترجع فقط للكومينترن، ولكنها ترجع أيضا لحركات التحرر الوطنى. فلم يحدث أن حققت ثورة ذات مضمون اشتراكى فى أى من دول المستعمرات نجاحا. ورغم أنه من الممكن أن نقول إن الخطأ كان خطأ الكومينترن، إلا أن الحذر واجب هنا. فمنذ عام ١٩٢٧ وإلى ما بعد ذلك كان الانفصال الحاد بين الثورة الصينية وبين الكومينترن قد اكتمل وتأكد على مستوى النظريات الأساسية. ومع ذلك فإن علاقات القوى فى ذلك الوقت لم تكن تسمح بنشوء دولة اشتراكية فى القارات الثلاث، وكان من الطبيعى إذن أن يتمخض ذلك عن استمرار ريادة أوروبا من الناحية السياسية والاقتصادية إلى جانب الناحيتين الثقافية والنظرية.

ومن جهة أخرى كانت دول القارات الثلاث تقدم أشكالا اجتماعية اقتصادية على قدر هائل من التباين والاختلاف فيما بينها. فلم يكن هناك شئ مشترك بين دول مثل الصين وبوليفيا. أو بين كوبا فى ذلك الوقت ومصر، أو بين جنوب أفريقيا والهند.. فهذه الوحدة لم تكن قد تعرفت على ذاتها بعد.. كانت لا تزال متفرقة تماما علميا وسياسيا وعاطفيا. ولم يكن هناك إلا القليل من الروابط أو الجسور بينهم. لقد عاشت ثورات هذه الفترة داخل إطار ما يوصف بشكل عام بالحوار مع العالم الغربى، ومع اليسار داخل هذا العالم الغربى بدأ الحوار.. فهى لم تستطع أن ترى

أبعد من ذلك إلا عندما تتدخل دولة مجاورة فتسمح بالتحالف بين الدول وحركات التحرر.

هكذا كانت هذه العوامل الرئيسية - فى فترة ما بين الحربين التى ضمنت استمرار الهيمنة الأوروبية وانهزام أو انعدام الثورات الاشتراكية والفرقة وعدم التواصل فى التضامن بين شعوب عالم المستعمرات التابع.. ثلاثة عوامل إذن هى التى أدت إلى ضعف النشاط النظرى فى فترة ما بين الحربين. وسوف يكون عملا هائلا أن نسعى إلى معرفة ماذا حدث بالنش فى النصوص والبحث عن بيليجرافيا العديد من الأشخاص الذين وضعوا تجاربهم حتى نستطيع أن نكتشف كيف كانت الشعوب غير الأوروبية وغير الغربية تفكر. وما الذى دعاها إلى المزج بين كلمات مثل الحرية والتحرر الوطنى بشئ لم يكن له علاقة بهذه الكلمات أو بفلسفة اقتبست من العالم الغربى. وفى غياب مثل هذه النصوص سوف يكون من العسير للغاية أن نقدم شرحا دقيقا متعمقا للمعالجات النظرية لهذه المشكلات التى تطورت فى فترة ما بين الحربين. وفى النهاية فإن المادة كلها موجودة فى أيدي أجهزة الهيمنة والقمع للدول القومية والمستعمرة فى ذلك الوقت.

٣ - ١

المرحلة الثالثة: وتتعلق بالمعالجات الأولى لمسألة العلاقة بين الماركسية وحركة التحرر الوطنى بعد عام ١٩٤٥، وخصوصا بعد انتصاره الثورة الصينية التى كانت ولا شك أكثر ضمانا ومدعاة ثقة ماركسيى القارات الثلاث ولحركات التحرر الوطنى من الانتصار اليابانى فى عام ١٩٠٥.

فقد حدث فى هذا البلد المهم أن شيئين تأثر بهما جناحا الحركة الوطنية بطرق مختلفة قد امتزجا: التحرر الوطنى والثورة الاشتراكية، فقد كانت الصين أول نموذج ضحى ونتيجة حرب طويلة وصعبة فى بلد عظيم اتسمت بالشعارات والصيغ النظرية وخطوطها بالتلقائية بقدر ما اتسمت بالخصوصية والحديد. ولذلك فقد كانت ضربة جبرية إلى السيكلوجية السياسية لشعوب الشرق. ولذلك أثرت هذه الظاهرة

على كل القوى على نطاقها الواسع. وحيثما درست تأثيراتها كان واضحا أن الصين كان لها نفوذ وتأثير حاسم وأنها أدت سواء بصورة سلبية أو بصورة إيجابية إلى تحول فكرى جذرى. إذ أنها دفعت الأحزاب البورجوازية المهمة فى هذه الدول إلى البحث عن بديل للبرالية التقليدية. كما دفعت الماركسيين إلى البحث عن شئ آخر عزل الماركسية المرتكزة على فكرة "الطبقة ضد الطبقة" أو الجبهة الوطنية، ولذلك فإنه من المفيد للغاية دراسة الماركسية الصينية والنظريات التى تمخضت عنها.

وفى استطاعتنا أن نحدد ثلاثة اتجاهات مختلفة فى فترة ما بعد ١٩٤٥ - ١٩٤٩ داخل إطار مرحلة التطور النظرى:

١ - ٣ (أ): اتجاه الماركسية الأوروبية للماركسية الكلاسيكية المؤسسة، وهو الاتجاه الذى أعقب فرضية الكومينترن بأن "الثورة الأوروبية تحمل معها العالم" كما اتضح تماما فى العلاقات بين الأحزاب الشيوعية الإنجليزية والهندية وداخل حركات التحرر الوطنى فى شمال أفريقيا... إلخ. وفى الواقع فإنه كان من المتوقع أن تأتى الثورة من الغرب، بينما ينمو الكفاح المسلح فى الشرق. ورغم أن هذه النظرة تتطوى على تناقض إلا أنها لم تكن تمثل مشكلة أساسية بالنسبة للماركسية الكلاسيكية.

١ - ٣ (ب) : أما الاتجاه الثانى الذى حدده بالميرو توجلياتي Balmiro Togliatti فقد أثار ما يسمى بـ Polycentrism. أى التعرف على الواقع القومى والاجتماعى والسياسى المختلف فى كل دولة، وبالتالى التعرف على الخطوط السياسية التى سوف تختلف تباعا فى كل دولة. ومع أن هذه المعالجة كانت معالجة واقعية عميقة، إلا إنها لا تزال معالجة سياسية استراتيجيّة كانت نتيجة عدم التعمق بشكل كاف فى الجوانب النظرية. وقد نتساعل: هل كان توجلياتي مستعدا للذهاب إلى أبعد من ذلك لو لم يتعلق بدولة واقعية، حيث قيّدته ألوان السياسية الإيطالية المتعددة حتى وفاته؟

على أى الأحوال فإن فكر توجليأتى يمثل أحداث التعبيرات وأكثرها تطورا عما يمكن تسميته بالصيغة النظرية القومية للعلاقة بين الماركسية والمسألة القومية فى أوروبا. فقد كان اهتمامه الأساسى يتركز على العلاقة بين الماركسية المؤسسة من جهة والحركات الاشتراكية الراديكالية ذات التوجه الاشتراكى الكلاسيكى أو الديموقراطى المسيحى.. أى تلك التيارات المختلفة المتباينة التى من خلالها يتم التعبير عن تجدد الفكر الاشتراكى والأيدىولوجى الاشتراكية للعالم الأوروبى والغربى.. أى الفكر المسيحى والعمل الفلسفى فى العالم المعاصر.

لقد وصلت الصياغة النظرية إلى أبعد ما يمكن حتى كل من إيطاليا وبولندا حيث دخلت إلى المجابهة بين الماركسية والفكر المسيحى المتجدد إطار التطبيق العملى، رغم أنها لا تزال غير كافية.

١ - ٣ (ج) : المعالجة القائمة على أساس تصور "العناصر المكونة".

ولقد أمكن التمييز بين نوعين من المكونات داخل إطار كل حركة من حركات التحرر الوطنى: المكونات الداخلية Endogenous التى تحدد أكثر من غيرها خصوصية الصيغ التى تمخضت عن وحدة قومية كاملة أو ارتبطت بها. أما النوع الآخر فهو المكونات الخارجية أو الإسهام الخارجى للماركسية الأوروبية على المستوى النظرى، ولسنا نملك فى الوقت الحالى أية دراسة متعمقة حول العلاقة بين الخصوصى والعالمى، رغم أن هناك العديد من المشروعات التى لا تزال خاضعة للبحث.

١ - ٤

١ - ٤ (أ) : إن تطوير هذا الاتجاه الثالث يحدث فى مناخ مشحون تسيطر عليه ثورات التحرر الوطنى. وأود أن أعود إلى مشاكل السيكلوجية السياسية التى فى تحدد رأى الإطار الذى يتكشف داخله التطور النظرى.

فالقراءة فى بيان جيفارا خليفة بأن تثير الدهشة لتركيبية النص ذاته. فهو يبدأ بالعودة إلى السنوات الإحدى والعشرين التى مضت منذ نهاية الحرب العالمية

الأخيرة، وبينما يقول المؤرخ الكلاسيكي على سبيل المثال: "إن الحرب قد انتهت في عام ١٩٤٥ بهزيمة اليابان" فإننا نجد عند جيفارا منظورا آخر ورؤية مختلفة للتاريخ من الضفة الأخرى للنهر (ادجارسنو). فبالنسبة لشعوب القارات الثلاث لم يكن هناك سلام عام. وبينما لم تكن الحرب بالنسبة للمجتمعات الصناعية - فيما عدا اليابان - سوى حدث جاء وانتهى، إلا أن الحرب قد استمرت في كل مكان. فهي مشتعلة في فيتنام. كما كانت مشتعلة في كوريا منذ سنوات قليلة مضت وفي اتجاه آسيا والشرق الأوسط وأفريقيا والكونجو وأنجولا وموزمبيق وأرجاء أمريكا اللاتينية منذ انتصار الثورة الكوبية. الأمر الذي يفسر: لماذا يبدو مفهوم "السلام العالمي" بعد عام ١٩٤٥ بعيدا أو حتى غريبا بالنسبة لشعوب القارات الثلاث. فالسلام مع من؟ أو السلام إلى أى مدى؟ أو السلام بأى هدف؟

لقد استمرت وتصاعدت الهيمنة الإمبريالية في مناخ من العنف الشامل الذى ساد العالم من أوله إلى آخره.

١ - ٤ (ب) : هناك عنصر ثان من عناصر هذا المناخ أو هذه السيكلولوجية السياسية التى أعود إليها وهو يتعلق بالإحساس المتزايد بالخصوصية. ومن الطبيعى أن يكون هذا الشعور مؤكدا بين الجماعات القومية الراديكالية غير الماركسية أكثر منه بين الجماعات القومية الماركسية. غير أنه من الممكن الإشارة أيضا إلى أن معامل الخصوصية يكون أضعف في التكوينات القومية الصغيرة أو المتوسطة الحجم، فجيفارا وكاسترو يفكران على مستوى أمريكا اللاتينية وأحيانا على مستوى قارى ثلاثى. ولكن من جهة أخرى عندما تكون الدولة التى تتدخل فيها الثورة تتمتع بإمكانية عميقة في المجال التاريخى الثقافى القومى، وخصوصا في دولة مثل صين ماوتسى تونج، أو فيتنام فإننا نجد أنفسنا أمام تركيبة من الإحساس العميق بالخصوصية والإحساس الذى لا يقل عمقا بالحاجة إلى التحول الثورى الراديكالى، فهنا لم تعد الخصوصية القومية تحال إلى مرتبة ثانية، بل على العكس يتم التأكيد عليها باستمرار كما يتضح من خلال هذا النص لليوتشاوتش فى عام ١٩٤٥، أى قبل ١١ عاما من الثورة الثقافية والذى يقول فيه:

"إن النضال الفعلى للشعب الصينى مضافا إليه التجربة التى اكتسبها الشعب فى هذا النضال، سوف تؤدى حتما إلى تكوين نظريات عظيمة خاصة بنا تجعل من الأمة الصينية ليس فقط أمة قادرة على الاستمرار فى الحرب، ولكن أيضا أمة لها نظريتها الثورية العالمية الحديثة. إن فكر ماوتسى تونج هو النظرية التى تجمع بين الفكر الماركسى اللينينى العملى للثورة الصينية وبين الشيوعية أو الماركسية الصينية. أن فكر ماوتسى تونج ما هو إلا تطور جديد، أو نموذج لقومية الماركسية يثير الإعجاب. فهو صينى ولكنه فى نفس الوقت ماركسى تماما، إنه أقوى تعبير وأعلى مستوى نظرى للحكمة الصينية".

إننى أود بالفعل أن أؤكد على هذه النقاط وذلك بسبب اللبس الذى يعتل فى عقول الكثيرين حول مكونات الماركسية الصينية. فهى ليست عالمية Cosmopolitanism وليست قومية، ولكنها تعد تحولا فى فرضيات الماركسية الكلاسيكية على أساس الإطار القومى الخصوصى لأمة الصين الشاسعة بهدف التوجه إلى المزيج المناسب بين التحرر الوطنى والاشتراكية. وليس خافيا على أحد أن الماركسية التى نشأت فى الصين لم تظل محبوسة داخل الحدود الصينية، ولكنها انتشرت واكتسبت تأثيرا ونفوزا من العديد من الدول، وخاصة فى القارات الثلاث. وهذا هو السبب فى أننا نجد فى الأمم الاشتراكية الصغيرة والمتوسطة مثل (كوريا وفيتنام وكوبا الخ) إصرارا أساسيا دائما على الحاجة على الاحتفاظ بذاتية وخصوصية الخط السياسى والقيادة الثورية وعملية التطور التاريخى ككل. ولا يتعلق الأمر هنا باستبدال هيمنة بأخرى، ولكنه على العكس من ذلك يتعلق بكفاح لا يتوقف مهما كانت العوائق من أجل الوحدة والتعاون ضد الانقسام لتوحيد القوى الاشتراكية على مستوى العالم. وفى الوقت الذى كان فيه العديد من "العالميين" يتخذون موقفا عنيفا يستهدف تعميق الانقسام الصينى السوفيتى كان يبدو أن هناك فى فيتنام عددا متزايدا من القوى الاشتراكية التى عملت بشكل ملموس من أجل تحقيق وحدة هذه القوى الاشتراكية.

٢ - جذور المشكلات وطبيعتها

إن جذور المشكلات الخطيرة جدا التى تنشأ عند دراسة العلاقات بين الماركسية وحركات التحرر الوطنى فى الغرب وفى القارات الثلاث لا يمكن اكتشفها إلا من خلال تحليل عاملين: أولا: الظروف التاريخية والبيئة الاجتماعية التى نشأت فيها الماركسية فى دول القارات الثلاث. وهاتان المجموعتان من الظواهر متباينتان تماما من الناحية التاريخية.

٢ - ١ الظروف التاريخية والبيئة الاجتماعية التى ظهرت فيها الماركسية فى أوروبا

٢ - ١ (أ) كانت نقطة البداية هى ظهور "الدول القومية المستقلة" ذات التاريخ الطويل وراءها من الاكتفاء الذاتى (شارل ديغول). تلك الدول التى كانت "طبقتهما السياسية" الخاصة كما قال جرامش Gramsci مؤسس وفيلسوف الحزب الشيوعى الإيطالى قادرة على التقدم والتراجع أو التوقف. وفى ذلك الوقت كانت فرنسا وإنجلترا وإسبانيا والبرتغال هى تلك الدول. غير أنه فيما بعد وفى ظروف تاريخية مختلفة أنضمت كل من ألمانيا وإيطاليا والسويد إلى قائمة تلك الدول، وأخيرا انضمت الإمبراطوريات الروسية والنمساوية والمجرية.

٢ - ١ (ب)

أما على المستوى الاقتصادى الاجتماعى: فقد حدث هناك هذا التحول من الإقطاع إلى الرأسمالية قبل تأسيس الرأسمالية من خلال الثورة الصناعية وفيما بعدها وقبل الهيمنة المتزايدة للجناح الصناعى للرأسمالية على الاقتصاد ككل، وقد أدت هذه العملية إلى ظهور المعارضة الأساسية فورا أو الإشكالية الرئيسية أمام الماركسية الكلاسيكية - أى البورجوازية فى مواجهة الطبقة العاملة، والرأسمالية فى مواجهة البروليتارية، هذا هو ما يمكن أن نسميه بالماركسية الكلاسيكية فى القرن التاسع عشر.

أما على المستوى الأيديولوجى فقد كانت الماركسية تمثل تركيبة من الاقتصاد السياسى الإنجليزى والفلسفة الماركسية الألمانية والفلسفة الإنسانية اليوتوبية

الفرنسية (لينين) أى أنها كانت تركيبة دقيقة ضمت أكثر الأفكار ديناميكية وراдикаلية فى الفكر الأوروبى الحديث. وبهذا المعنى أيضا تبدو الماركسية بالنسبة لغير الأوروبيين حركة توفيقية بين أكثر الأفكار تقدما وإيجابية وراдикаلية فى فترة التوسع الأوروبى التى كانت أيضا فترة الاستعمار.

لذا فقد كانت المهمة التاريخية المنوطة بالماركسيين الأوروبيين والتى تتضح من خلال هذا العرض للإشكالية هى إزاحة الهيمنة التى تمارسها طبقة على طبقة أخرى أو هيمنة جبهة طبقية على جبهة أخرى، وإن كان ذلك يحدث دائما داخل التكوين القومى الواحد. وبمعنى أدق لم تكن مشكلة التحرر الوطنى موجودة عندما كان ماركس يطور نظرية الاشتراكية العلمية: فقد كان ماركس يعنى أساسا بالصراع الطبقي داخل الدول القومية، سواء تلك التى كانت وحدة الدولة قد اكتمل بناؤها معا فيها أو تلك التى كانت لا تزال فى طور البناء.

٢ - ٢ الظروف التاريخية والبيئة الاجتماعية لظهور الماركسية فى القارات الثلاث:

على الضفة الأخرى من النهر يختلف الموقف تماما.

٢ - ٢ (أ) موقف التبعية: نشأت الماركسية وتطورت هنا ليس من خلال فترة الرأسمالية الكلاسيكية، ولكن فى فترة الرأسمالية الاستعمارية والإمبريالية - وهى ليست شيئا واحدا على الإطلاق. فلم يكن الإطار الذى نشأت فيه الماركسية إطارا لنظام رأسمالى يعمل داخل حدود قومية موجودة، ولكنها نشأت فى عالم تسيطر عليه الرأسمالية وهى فى أوج انتشارها وتحركها تجاه إخضاع بقية العالم أو عالم المتخلفين للنموذج الغربى.

هكذا يمكن عرض الإشكالية الأساسية بوضوح تام. فكيف لهذه المناطق أن تتسلخ عن السيطرة الأجنبية، أن تحرر نفسها كامة، وأن تعتبر نفسها دولة قومية مستقلة، ثم تناضل داخل حدود هذه الدولة من أجل وجود توجه شعبى ديمقراطى يكون هدفه فى النهاية الثورة الاشتراكية؟

لقد كان البيان الشيوعي لعام ١٨٤٨ موجها إلى جمهور معين، وهنا لابد من القول إن مسألة الجمهور مسألة أساسية بصورة مطلقة لفهم أى نص نظري، وفى هذه الحالة كان الجمهور هو الطبقة العاملة الأوروبية التى لم تكن تملك شيئا تفقده غير سلاسل قيودها وعالم تفوز به". (مانيفستو جيفارا).

هذه وثيقة على جانب كبير من الأهمية رغم أنها خلت من آثار وثيقة ماركس إذ أنها تتحدث عن "نحن" المستغلين فى هذا العالم وليس "نحن" الطبقة العاملة فى القارات الثلاث. فهذا النص قد وجه إليه الجماهير العامة ككل وليس فقط إلى الطبقة العاملة. وهناك البعض ممن يعتقد أن هذا التوجه غريب على الماركسية. ولكن المسألة فى واقع الأمر هى ليست مسألة التاريخ المختلف اختلافا بالمعنى المؤقت رغم أنه ليس اختلافا بالمعنى التاريخي الطويل.

إن موقف التبعية ومستلزمات التحرر القومى من الهيمنة الإمبريالية على المستوى السياسى والاقتصادى والعسكرى والثقافى يتم التعبير عنه من خلال مستلزمات العمل الشعبى أحيانا أو النضال الثورى المسلح الذى يشكل فيه الفلاحون الجماهير الفعالة، بينما تتولى القيادة الطبقة العاملة وطبقة المثقفين الثوريين.

٢ - ٢ (ب) أما على المستوى الاقتصادى الاجتماعى فنحن نتعامل مع تكوينات اقتصادية اجتماعية غير كلاسيكية.

١ - البناءات التحتية: كانت عبارة عن نظم رأسمالية ونظم مشوهة سابقة على الرأسمالية، وهو هذا القطاع المتطور الذى اضطرته حقبة الاستعمار إلى التعامل مع العالم، ولكنه تعامل أيضا مع الدول القديمة التى كانت تسيطر على الريف وجماهير الفلاحين وأنواع أيديولوجياتهم الظاهرية والباطنية.

ولقد كانت هناك إشارة إلى "نماذج آسيوية من الإنتاج" وإلى "مجتمعات هيدروليكية" أو إلى ما يطلق عليه سلطان جاليف اسم "البيروقراطية الإقطاعية" و "الإقطاع الشرقى" ... كانت تلك تكوينات اجتماعية مبهرة أعطاهها علم الاجتماع المعاصر اهتماما كبيرا.

ومع ذلك فإن هناك شيئا وحيدا يبدو مؤكدا: فخلال القرنين التاسع عشر والعشرين لم تكن هناك دولة من دول القارات الثلاث تتمتع بنظام رأسمالي متجانس مثل هذا النظام في أوروبا.

ومن جهة أخرى كانت هناك عدة دول تتمتع بنظام اقتصادي اجتماعي رأسمالي، رغم أنه اختلف تماما عن الرأسمالية الغربية. فقد كان يتكون في معظم الحالات من قطاعين: الموانئ والمدن الحدودية المعرضة للتأثير الغربي المباشر والمناطق النائية التي تأوى جموع الفلاحين، أما في غير ذلك فقد نشأ ما يسمى باقتصاد المقاطعات وسط الشعوب الأصلية أو المهاجرة حديثا، وفي حقيقة الأمر فإنه لا يمكن القول أن هذه الدول كان لها بناء إقطاعي، ولكنها كانت دول ذات بناء ما قبل رأسمالي. أو بمعنى أكثر دقة فإنها بناءات رأسمالية مختلفة من النمط الاستعماري ويسيطر عليها القطاع الزراعي. وأنا أشير هنا بالطبع إلى وحدات كلية مهمة مثل الصين ومصر والهند وتركيا والمكسيك وإيران. فهي دول ذات كثافة ديموجرافية عالية ولها تميزاتها الاجتماعية. أما في تلك الدول التي أجدها الاستعمار فقد سمحت الكثافة الديموجرافية المنخفضة بالانتشار السريع جدا للتجانس. ولم تكن هناك سوى منافذ قليلة للمقاومة حتى على المستوى الاقتصادي.

٢ - البناءات الفوقية: لقد تحدثنا عن العناصر المكونة للماركسية. غير أننا في دول القارات الثلاث نواجه تجمعا متباينا للغاية من العناصر والمكونات الأيديولوجية التي يلعب فيها الدين دورا مهما للغاية. وخصوصا عندما يكون المعنى ديانا سياسية أكثر منها ديانا تتعدى الزمان *in temporal* مثل الإسلام.

وهنا ينبغي علينا أن نقول إن هذا هو السبب في أن الدراسات النقدية لأيديولوجية الدول المستقلة عادة ما ترجع إلى إمكانيات الإسلام وقدراته، وليس إلى البوذية أو الكونفوشية أو اليابانية.. الأيديولوجيات الظاهرة سياسية ودينية في ذات الوقت والأيديولوجيات الضمنية، أي العادات والتقاليد التي تدفع جموع الفلاحين إلى التعلق بجوهرها العميق ورفض كافة البدائل.

وباستطاعتنا أن نسميها الأيديولوجيات القومية التي يركز تأثيرها في أنها تجعل مجموعة معينة من الشعوب تتعلق بهويتها ووجودها فتحقق الدوام لنفسها وتشكل ذاتها ككتكوين قومي مستقل، غير أن القضية هنا بالطبع هي قضية تلك الإشكالية التي لا تزال موضع جدل ساخن بين الماركسيين، أو هذا الشك العظيم تجاه كل ما يشتمل فيه رائحة "القومية".

لقد اتسعت أصداء فكر ماوتسى تونج إلى الحد الذي أظهرت فيه بوضوح أن الماركسية في القارات الثلاث تستلزم إحساسا عميقا بالقومية التي تكون قادرة، ولهذا السبب بالتحديد، على إحداث التحول المجموع الذي ينتهي إليه هذا الماركسي.

وهناك نصان من مصدرين مختلفين يوضحان هذا الأسلوب في رؤية الأشياء. أولهما: ماوتسى تونج حيث يقول:

"إن أي فرد يريد أن يعرف شيئا لن يكون باستطاعته أن يعرفه دون الاتصال بهذا الشيء، أي دون أن يعيش ويعرض نفسه للممارسة العملية في البيئة الفعلية للظاهرة، وعندما يستطيع المرء أن يكتسب المعرفة النظرية من خلال الممارسة فعليه أن يعود مرة أخرى إلى الممارسة.. فليس هناك في العالم أكثر راحة من هذا الموقف المثالي أو الميتافيزيقي الذي يسمح لك بكتابة أية فكرة تطرأ على ذهنك دون الاطلاع على الواقع الموضوعي ودون إخضاع نفسك لضرورات هذا الواقع".

ثانيهما: فيدل كاسترو يتحدث عن لينين في جامعة هافانا: يقول:

"وماذا عن لينين؟ فلنفترض مثلا أن لينين كان قد ولد في أواخر القرن الثامن عشر.. حسنا. كان من الممكن ألا يكون في استطاعته وقتئذ أن يطور النظريات التي توصل إليها وهو يقود البروليتاريا الروسية ويقوم بدور المترجم الروسي للماركسية، وذلك لأن الماركسية ذاتها لم تكن موجودة في ذلك الوقت، وبالتالي إذا افترضنا أن ماركس ولد في منتصف القرن الثامن عشر، فربما كان قد فعل ما فعله فولتير وديديروت وجميع المثقفين الآخرين لأنه لم يكن باستطاعته أن يكون مفكرا

لطبقة ليس لها وجود ولا مختزعا لمذهب ثورة ليس بالإمكان تحقيقها. وهكذا فإن الثورات لا تخلق فى أرواح البشر...

هذان النصان ليسا متشابهين بأى حال، ومع ذلك فإن نقطة اختلافهما هى ذات الإشكالية، كما أنهما يتحركان فى الاتجاه نفسه.

إننا نعيش الآن فى مرحلة وصلت فيها الظروف التاريخية والأيدولوجية فى القارات الثلاث إلى مستوى الخطر. إنها مرحلة الأزمة الثورية، ولقد كان العديد من ماركسيى القارات الثلاث يعتقدون حتى اتخاذ قرار تدمير فيتنام منذ ثلاث سنوات بالقصف الشامل أن "القومية التقدمية" (إذا جاز تسميتها كذلك) - أى إنشاء الدولة المستقلة وتحولها نحو الجذرية وانعطافها فى الاتجاه الشعبى واستعادة هويتها - هو احتمال حقيقى. ومع ذلك فقد رأوا دائما أن الوضع الأمثل هو ذلك الذى تنغمس فيه الثورات الوطنية فى الاشتراكية كما حدث فى الصين وفيتنام ومنغوليا وكوبا. ولقد اتخذت هذه النظرية القومية للمستقبل الاشتراكى من المبدأ الماركسى الخاص بالخصوصية التاريخية أساسا لها.

لقد تغير كل شئ منذ أن أصبحت الولايات المتحدة القوة المهيمنة الأساسية فى العالم. ولسنا بحاجة إلى الإسهاب فى تفاصيل هذه النقطة. ولكننا نقول إنه فى مواجهة هذا التطور لم يكن باستطاعة جناح الاحتمالية فى ماركسية القارات الثلاث ببساطة أن يتمسك بمواقف قومية راديكالية بعد ذلك خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار ظاهرة تصعيد العنف.

وسواء أردنا أو لم نرد فإن القوى تتجمع وتحتشد حول نضال المقاومة والثورة الشعبية... حول الفكر الاشتراكى والعمل الاشتراكى.

ومع ذلك فلن يحدث فى وقت من الأوقات أن تركت المبادرة أو القيادة للثورات الرومانسيين وذلك لأنه عندما يكون الأمر متعلقا بالثورة تكون الأولوية دائما للبعد السياسى. وإذا كان باستطاعتنا أن نرفض النهاية التاريخية للاحتتمالية فى القارات الثلاث... تلك الاحتمالية التى كلن لديها من الوقت ما مكنها من التبلور فى نظريات إلا أنه فات أوان العودة بحياتنا إلى الوراء.

٢ - ٣ جدلية الإشكاليتين وانعكاساتهما المنظورة:

بإمكاننا أن نلاحظ على المستوى السياسى صعود "الدولية الذاتية internationalism subjective" ولكننا نستطيع أيضا أن نلاحظ نشوء دولية ذاتية شرقية جديدة ذات توجه صينى، وذلك رغم أنه من الحقيقى أيضا أن الدوافع القومية تعد من العناصر العميقة المستمرة فى تكوين ماركسية القارات الثلاث. وهناك رفض مبدئى بقبول أى اتجاه جديد يمكنه أن يحل محل الاتجاه التاريخى الذى كان دائما اتجاها أوروبا - أوروبا وسطيا. وفيما يتعلق بمستقبل الثورة فإن الفرضية الاستراتيجية قريبة جدا من بعضها البعض، إن لم تكن متشابهة تماما. ومع ذلك فإن تطوير هذه الفرضيات الاستراتيجية العظيمة وتوجهاتها وتطبيقاتها المتكاثرة فى الجماعات القومية الإقليمية المقاربة لا يزال متباينا أشد التباين. حيث أن مستلزمات الوحدة السياسية فى مواجهة الإمبريالية تعد عاملا رئيسيا يدفع الزعماء السياسيين الماركسيين فى هذه الدول إلى رفع شعار النضال الثورى القومى. إن الخط الاستراتيجى المركزى لماركسية القارات الثلاث ليس على المستوى النظرى هو نفسه فى كل حالة.. فهو يتحول على مستوى العمل السياسى وعلى مستوى النضال ضد الإمبريالية... هذه هى الحقيقة الأساسية اليوم.

٢ - ٣ (ب) : أما على المستوى النظرى فإنه إذا كانت الماركسية توفر الإطار العام للأيدولوجية السياسية والفكر الاشتراكى للحركات الراديكالية فى القارات الثلاث فإن الماركسيين فى هذه الدول كانوا يدركون تماما عدم كفاية الجهاز المفاهيمى الذى طورته الماركسية فى القرن التاسع عشر بشكل جوهرى وجذرى، فقد فضل العديد منهم أن ينظروا إلى الماركسية على ما هى عليه... أى على أنها منهج التطور التاريخى والتحولات التاريخية أو على أنها فرضية علمية تمثل نقطة تحول. Appoint of departure. أما المشكلات والحقائق فهى شئ آخر.

وهكذا فإن المنظرين الماركسيين للقارات الثلاث لا يستطيعون الاعتراف بالفرضيات النظرية العلمية التى أقرها الماركسيون الغربيون. فهم مدينون لأنفسهم أولا : خبراتهم فى تطبيق أسلوب ومنهج الماركسية على واقع دولهم الخاصة.

٣ - وظيفة الماركسية فى القارات الثلاث

٣ - ١ متطلبات أيديولوجية معينة

قام العديد من المفكرين فى الآونة الأخيرة بمحاولات لتحديد وظائف الماركسية. وطبقا لهذه المحاولات فإن الماركسية بالنسبة للحركات الوطنية فى القارات الثلاث يمكنها أن تنصدى لثلاث مهام:

١ - الأهمية الحاسمة للصراع من أجل السلطة.

٢ - الطابع الأساسى للبناء الاقتصادى (وبقدر ما تعد كل من "التنمية" و "النمو" مفهومين مختلفين تماما، فإن بناء موقف سيارات فى دولة متخلفة ليس له علاقة بالتنمية فى هذه الدولة... الخ).

٣ - إظهار حقيقة أن مصالح وآمال الطبقات والمجموعات الاجتماعية الموجودة فعلا هى التى تشكل الأفكار.

الماركسية إذن فى القارات الثلاث تنصدى لهذه القضايا الثلاث وتقدم الصياغات لها.

وفى رأى أن هذا التحليل يفتقد للبعد القومى، وهو ما يعنى مساهمة مصالح وآمال الأمم والدول القومية فى تشكيل الأفكار القومية، وأعتقد أن هذا الأمر له أهميته الخاصة جدا. ففى العديد من دول القارات الثلاث يلحظ المرء اهتماما بالطابع القومى للماركسية، فهو دائما يكون أول ما يؤخذ فى الاعتبار على الأقل بين المفكرين الماركسيين فى هذه الدول، وليس بوسع المرء أن يجده على الإطلاق محالا إلى المرتبة الثانية.

وهناك نقطة ثانية تزيد من طمأنة ماركسى الغرب. فمن خلال نفس العملية التى يصل من خلالها زملاؤهم من ماركسى القارات الثلاث إلى إدراك عدم كفاية الجهاز المفاهيمى للماركسية الكلاسيكية، يصلون أيضا إلى نتيجة مؤداها أن الماركسية الكلاسيكية هى فى الوقت ذاته حجر الزاوية فى الفكر الغربى، أو

الوسيط الوحيد الممكن الذى يستطيع أن يفتح الطريق إلى ما يعتبرونه مشروعاً طويلاً الأمد وهو مشروع إعادة صياغة الفكر الاشتراكى بلغة علمية حقيقية، وهكذا فهم ينظرون إلى الماركسية على أنها نقطة البداية الوحيدة للعالمية الإنسانية والعلمية. لماذا هذا إذن؟

٣ - ٢ أوجه قصور الأيديولوجيات غير الماركسية وعدم كفايتها

٣ - ٢ (أ)

إن الفلسفات الذاتية والروحانية (بما فى ذلك كافة الأديان وخصوصاً أديان دول القارات الثلاث) هى فى حقيقة الأمر أيديولوجيات جامدة غير دينوية (غير زمنية) لا تتضمن حلولاً لمشكلات البناء الاقتصادى والسلطوى ولا توحى بتأثير البناء التحتى على تشكيل الأيديولوجية.

٣ - ٢ (ب) الفلسفات والأيديولوجيات التى تتمخض عما اقترح تسميته بالفكر الديموقراطى الليبرالى المحافظ (فى الدول الأنجلوساكسونية وألمانيا والدول الإسكندنافية الخ) على عكس الدول الراديكالية الليبرالية (أساساً فرنسا فى عهد الموسوعيين والدول الدائرة فى فلكها). ولا يبدو محتملاً على الإطلاق إلا فى القليل النادر أن تكون الإيجابية والإمبريقية قادرة على حل المشكلات الرئيسية للحركات الثورية القومية فى دول القارات الثلاث، ثم ألم يكن قبول التجربة المعطاة دون نظرية سببا فى هزائم لا تحصى؟ !

٣ - ٢ (ج) وأخيراً الفلسفات التى سوف أطلق عليها اسم السينكريتية الحديثة وخصوصاً البنائية والدوجماتية الماركسية... إلخ، هذه النظريات أصبحت "موضة" بين بعض الطبقات الراقية فى القارات الثلاث. ولكنها ليست أكثر من موضة... فالماركسيون فى هذه الدول يدركون بوضوح أن مشكلة الصراع من أجل السلطة وهى مشكلة حركة أولاً وقبل كل شئ ليست لها علاقة بأى من تلك الأشياء التى تقلل من شأن الديناميكية الاشتراكية وتسعى إلى تجميد الواقع فى قالب بنائية هى - إذا جاز القول - غير زمانية temporal وتاريخية.

هذه الأنماط الثلاثة من الفلسفة والأيدولوجية تشترك فى طابعها الجامد. فالبعد التاريخى أو هذا العمل الهادف فى التاريخ - ولا نقصد الإرادية العاطفية، بل نقصد تلك الإرادية القائمة على تحليل موضوعى للأوضاع الأولية (المبدئية) وإطار التحرك التاريخى ليست موجودة، فنحن لا نجد دائما سوى تحليل مفصل، ولكنه تحليل لا يؤدى مطلقا إلى العمل الفعال، ولهذا السبب الذى يعد سببا أساسيا تظل الماركسية الكلاسيكية هى الأداة المفضلة كوسيط نظرى بين ضفتى النهر.

٣ - ٣ قوة تأثير الماركسية

تبدو الماركسية بالنسبة للماركسيين فى دول القارات الثلاث، ومن خلال تنوعها الطيفى الواسع على أنها الأداة المميزة المؤهلة للوساطة، فضلا عن فعاليتها المؤثرة لأسباب عديدة.

٣ - ٣ (أ) فهى قبل أى شئ منهج تحليلى ثاقب له القدرة على كشف التكيف المتبادل بين البناءات التحتية والبناءات الفوقية، وهى كذلك منهج مرن؛ بمعنى أن الماركسيين لا يشعرون بأنهم مقيدون بفرضيات هذا الحزب أو الدولة أو ذاك.

ولقد مكن هذا المنهج ماركسى هذه الدول من الدخول فى علاقة قوية جدا مع التراث الثقافى التقليدى. ولذلك فهم يجدون فى الماركسية إمكانيات للمناورة الفعالة والاستجابة المفيدة لمقتضيات العمل من جهة قدرة الإمبريالية المهيمنة على الحركة والاختراق.

٣ - ٣ (ب) وثانيا: إن الماركسية تزودهم بأغنى وأوفر بداية نظرية ممكنة عن طريق البنائية الوراثية، التى وصفها لوسيان جولدمان بصورة مفصلة لدراسة الواقع الخصوصى للوحدة القومية كبناء. ولكن فى إطار منظور ديناميكي يعتمد على المبدأ الماركسى للخصوصية التاريخية، ولقد تم تطوير كل ذلك بصورة نموذجية فى الخيال الاجتماعى لرايت ميل.

٣ - ٣ (ج): كذلك فإن الماركسية توفر ما سوف أطلق عليه اسم الفلسفة الإنسانية الإيجابية، وليست تلك الإنسانية المتحررة، فالعديد من النصوص التى

كتب في ظل التأثير المادى الملموس نتحدث عن اشتراكية الذرة والفقر، ومن خلال هذه النصوص نستطيع أن نرى بوضوح أخلاقيات الماركسيين في دول مختلفة ومتباينة مثل الصين وكوبا وفيتنام وأفريقيا... إلخ إنها هنا أسلوب لمعالجة عملية التحول الاجتماعى ليس من خلال الإنتاجية وأخلاقيات المجتمع الاستهلاكى (اشتراكية الفريدير) ولكن من خلال الإنسان الذى يعد هنا أئمن وأعلى رأسمال (نقطة التحول). إن مانيفستو القارات الثلاث الذى نشر فى هافانا فى عام ١٩٦٦ بالإضافة إلى العديد من النصوص المهمة من فيتنام وتزانيا وغيرهما) يعطى لنا البرهان الذى يؤيد وجهة النظر هذه.

٣ - ٣ (د) وأخيرا فإن الماركسية لا تبدو فى هذا المجال على أنها المذاهب أو اللاهوت الأسمى للماركسيين الأوروبيين والتي تعرضت فيما بعد للنقد. ولكن على العكس من ذلك تبدو على أنها إسهام يثرى ميدانا من التجربة المتنوعة العميقة الثرية المثيرة للجدل. أو كمجموعة من الأفكار التى يتعين نقدها دائما من خلال المنهج الماركسى. إنها توفر إمكانية الحركة الذاتية الاستقلالية والمرونة العاملة التى تعد أعظم بكثير مما تستطيع أن تقدمه أية فلسفة صورية.

ولكن ماذا تصبح الماركسية من خلال كل ذلك؟

٤ - تطور مفهوم الماركسية

يستطيع المرء أن ينظر على الماركسية من زاويتين: إما على أنها مذهب كلى متجانس ولذلك فهي مذهب موحد. أو على أنها أسلوب يمكن أن نجد فيه عناصر علم الاجتماع والعقيدة والفلسفة، وأضيف أيضا علم المنهج.

٤ - ١ نقد مكونات الماركسية

٤ - ١ (i) علم الاجتماع وعلم المنهج

إن أهم ما يتضح أمام ماركسيى القارات الثلاث هو علم الاجتماع وعلم المنهج. فهم يدركون أن ماركس لم يضع نظرية لأساليب الإنتاج ولا هو قدم صورة عالمية، ولكنه درس تكوينا اقتصاديا اجتماعيا واحدا (الرأسمالية الأوروبية)

إلى جانب التحول من الإقطاعية إلى الرأسمالية بأسلوب نموذجي. وفي دراسة هذا العمل يستطيع المرء أن يجد مبادئ علم المنهج بتطبيقاته العالمية. إننا ننظر إلى هؤلاء المفكرين والمنظرين الذين قدموا عملا نموذجيا حول نقطة معينة سمحت لهؤلاء الذين يعيشون مشكلات أخرى أن يستمدوا منها طريقة ومنهجاً للعمل، أو أن يضعوها وجهاً لوجه أمام واقع آخر.

ولذلك فإن إسهام الماركسيين الكلاسيكيين لا غنى عنه على مستوى علم الاجتماع والمنهج بالنسبة للماركسيين في دول القارات الثلاث. وذلك رغم أن المشكلة بالنسبة إليهم تختلف تماماً في طبيعتها. وبهذا المعنى لا تكون الماركسية (آخر) إنها هي ذاتها طالما أنها لا ينظر إليها أساساً على أنها مذهب ولكن كأداة للتحقيق أو كعقل مستكشف باحث.

ولننظر بدقة إلى بعض المشكلات، مشكلة تصور "البرجوازية الوطنية". على سبيل المثال التي أدى نقدها إلى تخطي هذا التصور بتصوير الطبقة وجهاز الدولة... دور ووظيفة طبقة الفلاحين الذين يختلف تماماً دورهم في القارات الثلاث عنه في أوروبا ماركس. نقد دور طبقة البروليتاريا كقوة اجتماعية في علاقتها بالجماهير الشعبية المعتمدة تماماً. ثم المحاولة الأكثر عمقا وتفصيلا للتمييز بين أساليب الإنتاج من تلك التي قدمت إلينا على أنها جاءت من عند ماركس. وهو تصور طبقة المتعلمين. وإنه لمن المدهش حقا أن نرى التأثير الضمني لفكر جرامش على نظرية الحزب. فلم تعد طبقة الطبقة العاملة وحدها هي التي يقدر لها أن تفتش في هذا الواقع وتبحث في تحولاته.. ولكن كانت هناك أيضا العقليّة الجماعية لجبهة القوى الشعبية تحت قيادة الطبقة العاملة.

٤ - ١ (ب) الأيديولوجية

ليست هناك أيديولوجية لا تكون ملكا لجهاز أو دولة. رغم أن وظيفتها في الوقت نفسه هي حشد الجماهير حول هذه القوى. والماركسيون في دول القارات الثلاث يمتلكون على المستوى الأيديولوجي ما اعتبره اتجاهها صحيحا للغاية للإفراط في الاهتمام بعامل الثقافة والتقاليد القومية وليس فقط بالعامل الأيديولوجي.

أما بالنسبة للتيارات اليمينية فإن البورجوازيين الأصليين يؤكدون على العامل الثقافي من وجهة نظر التقاليد الثقافية المحافظة. في حين يرفض الماركسيون من جانبهم التركيز على الجانب الأيديولوجي في الخصوصية الثقافية القومية مثلما يفعل "الثقافيون" عندما يعطون الأولوية للعوامل الجامدة.

ولكنهم يركزون على الخصوصية التاريخية لكل أمة كوحدة اجتماعية. فمصر مثلا على المستوى التاريخي الاجتماعي ليست ثابتة. وبالتالي فإن احتمالات التطور والثورة وإيقاعها سوف يكون مختلفا تماما.

٤ - ١ (ج) الفلسفة

هنا نواجه مصاعب جادة. فالمشكلة هي أن المادية الفلسفية الأوروبية التي استمدت منها الماركسية إلهامها الفلسفي لا تتفق مع التقاليد الفلسفية لكافة الوحدات الثقافية في القارات الثلاث. ورغم أن هناك بكل تأكيد تقاليد مادية في الصين وفي البوذية وأيضا إلى حد ما في الفلسفة الإسلامية إلا أننا نجد هنا وحدات ذات أيديولوجية وطابع ديني يختلف عن المادية الصارمة. وفي حين أن الأيديولوجية الكامنة لجماهير الفلاحين لا تزال أيديولوجية دينية، إلا أن العامل الإمبريالي هنا لا يزال عاملا مسيطرا في أوقات الأزمات.

وأعود إلى تان مالاكا وتعليقه على الوحدة الإسلامية حيث يقول: "إن العديد من قادة الماركسيين في دول القارات الثلاث قد اعتبروا أن أحد العوامل الرئيسية لهزيمتهم يكمن في حقيقة أنهم لن يستطيعوا تكوين أحزاب اشتراكية ثورية تكون قادرة على الجمع بين الجذور الثقافية القومية والبعد الديني في صيغة وإطار عام وأسلوب عمل ومنهج ماركسي. ولا تزال هذه القضية مثارة بكل جديد، في إندونيسيا إلى جانب العالم الإسلامي والعربي بأكمله، وفي أفريقيا والهند وأمريكا اللاتينية.

متناقضات ومشكلات:

٤ - ٢ (أ) الوسطية الأوروبية

لقد ناقشنا هذه القضية بالفعل وبصورة مفصلة في مكان آخر. وعندما سأل بعض الزعماء الماركسيين أنفسهم في عام ١٩٦٠ عما تبقى من المبادئ العالمية

اللينينية الماركسية بعد نقرغها إلى نصوص صينية وفرنسية وروسية كان عليهم أن يعكسوا السؤال ليكون: ماذا كان سيبقى من الماركسية لو أنها فرضت كنموذج على واقع لا تتصل به؟.

إن الإجابة على هذا السؤال سوف تكون شهادة للفشل، غير أن هذا الخطر قد أصبح اليوم خطرا ثانويا بالنظر إلى الثورات على مدى القارات الثلاث التى إما أنها ثورات اشتراكية أو أن الأيديولوجية الاشتراكية هى القوة المحركة والفعالة لها.

٤ - ٢ (ب) الانحراف القومى

إن النظرة القومية هى بكل تأكيد نظرة أساسية حيوية لطرح بيان الإشكالية وتحقيق الكفاية التطبيقية، ولقد أوضحت كيف أن النظرة القومية يمكن أن تتقلب إلى اتجاه رجعى محافظ (تركيا - إندونيسيا). والواقع أنه لا يمكن اللجوء إلى العامل القومى إلا فى لحظتين فقط: لحظة القوة على التأثير، ولحظة التظهير الإستراتيجى طويل المدى.

إن الكتابات الأمريكية عن الدول التابعة دائما ما تشير إلى العامل الدينى القومى على أنه المنظور الوحيد للتنمية إلى جانب القروض الأمريكية وأسلوب الحياة الأمريكية، وهنا تكمن احتمالات عرقلة هذه العملية، خاصة فى تلك الدول التى يكون للدين منها تدخلاته فى السياسة كما هو الحال مثلا مع الإسلام، أو فى المناطق التى يوجد بها هرم من طبقة رجال الدين كما هو الحال فى أمريكا اللاتينية، ولهذا السبب أيضا يحلم العديد من الماركسيين فى هذه الدول ربما أكثر من أى مكان آخر بالمزج بين هذين المكونين الرئيسيين ووضعهما تحت قيادة الماركسيين لأنهم هم القادرون على طرح إشكالية القاعدة وتقديم وسائل العمل للضرورة.

٤ - ٢ (ج) والعملية الراهنة

كيف إذن نستطيع أن نحقق العالمية التى يتمناها كل الماركسيين؟

يمكن القول إن التعايش السلمى بين أمم الغرب كما تحدد فى يالنا عام ١٩٤٤ فى ضوء أزمة التوازن الكلاسيكى للقوة قد أثار بدوره ظاهرة مقلقة وهى ظاهرة الاتجاه المتسرع نحو الجذرية للماركسية فى دول القارات الثلاث التى ظلت حتى عام ١٩٤٩ تعيش داخل حدود واقعية أكثر منها تطرفية.

ولا بد من القول إن هذا الاتجاه نحو الجذرية قد فرض نتيجة التغير السياسى الذى سعى لأن يفرض على العالم الضرورات والمشكلات التى نشأت عن الأوضاع التاريخية الملموسة للدول الأوروبية المتقدمة.. هذا التحول نحو الجذرية حدث بنفس القدر بين التكوينات الماركسية وغير الماركسية فى دول القارات الثلاث. وقد كان من شأنه أن أدى إلى انهيار ما يسمى بالدول الديموقراطية القومية التى اتبعت الطريق الثالث. بل كان من شأنه أيضا أن أدى إلى إعادة ظهور خطر الدوجماتية من جديد، ومع ذلك فإن الأوضاع كانت على قدر من الاختلاف والتباين إلى الحد الذى كانت الدوجماتية فيه ولحسن الحظ خاضعة لعمليات خلاقة أو للتطوعية الواقعية التى نشأت جذورها مع جمهور الأفراد والطبقات الوسطى وانتهت إلى نقطة لم يجربها الغرب مطلقا وهى تدمير جزء أساسى من جهاز الحزب والتدمير الكامل لجهاز الدولة القادر على عرقلة الانتفاخ الثورى للجماهير الشعبية، إنها تلك التطوعية التى يمكن رؤيتها فى ثوب مختلف فى الثورة الكوبية والتى وصلت إلى ذروتها فى الثورة الفيتنامية العظيمة حيث تكمن مثاليتها فى قدرتها على رؤية العملية التاريخية ككل فى الحاضر وفى المستقبل. ولذلك فإننا نستطيع أن نتبين التحول من الدولية (العالمية) الذاتية، أى من طابعها العالمى الذى ينطوى على رغبة ذاتية للماركسية الأوروبية إلى العالمية الموضوعية.. هذه الأخيرة التى بدأت من الماركسية كفرضية عاملة تمزج بين العناصر الواقعية والإسهامات النظرية التى تدخل حاليا فى عملية تطوير فى نضال القارات الثلاث.. تمزج كل ذلك فى الهيكل العام للاشتراكية العلمية كما كانت وكما يمكن أن تصبح. ولكن لا يحدث ذلك إلا بشرط ألا تقصر نفسها على مناقشة "ماركس الشاب" أو أى ماركسى آخر، بل تأخذ ماركس كنقطة تحول فى التاريخ العالمى (عندما بدأت كتابة التاريخ) كما قال ف. بروديل.

والشيء المدهش حقا أن هذه الإمكانيات الثورية الضخمة لم تتمخض إلا عن القليل جدا على مستوى النظرية. والسبب الأول في ذلك كما أعتقد هو أن القارات الثلاث تعيش في حركة، فالماركسية في النهاية لم تتطور خلال فترة الإصلاحات والثورة في فرنسا ولكنها تطورت من داخل دول كان لها تاريخ من الوجود القومي يمتد إلى أربعة أو خمسة قرون.

أما على الجانب الآخر من النهر فإن ضعف الطبقة العاملة في هذه الدول قد أدى بالفعل إلى محاصرة طبقة المثقفين ودفعهم إلى أن يتحولوا إلى مساعد على التقارب بين العمال والفلاحين. ومع ذلك فقد كان دور الوسيط الذي قام به المثقفون بصفة عامة يمنع المثقفين من تكريس أنفسهم للقيام بنشاط أكثر عمقا على المستوى النظري، إلا إذا حافظوا على إبقاء أنفسهم على مسافة تاريخية وجغرافية معينة.

هل كان ذلك طريقا مسدودا أو مأزقا؟ لقد كان يمثل أزمة نمو كما كان الحال في كل من إسبانيا واليونان خلال فترة الحرب الأهلية. فقد لاحت الفرصة أمام عدد قليل من المثقفين البارزين لتطوير أفكارهم، أما الآخرون فقد اختفوا. وقليل جدا منهم هم الذين يعاودون الظهور لأن اهتمامهم الأساسي كان ينحصر في إعداد تجهيز الميدان حتى تستطيع الأجيال اللاحقة أن تضطلع بمهمة العمل التطويري. وعندما يتعلق الأمر بالحياة أو الموت فلا يوجد دائما سوى اختيار واحد ممكن هو أن يحيا الإنسان ليعيش بين شعب حر.

إنني أدرك هنا أنه ينبغي على أن أصل إلى خلاصات واضحة. ولكن الخلاصات النظرية سوف تطرح من خلال التطبيقات العملية المتنامية في القارات الثلاث ككل، وبواسطة الاستجابة إلى المطالب الحيوية العديدة لمعرفة ماذا يمكن عمله. وهو ما سوف يرتفع من الأرض المكبوتة إلى سماء الأيديولوجية.

٥ - ملاحظات للمناقشة

لقد أوضحت في نهاية العرض الذي قدمته أنه ليس بالإمكان تحقيق العالمية أو التفاهمية العلمية في المرحلة الحالية. ولذلك فإنني لم أطرح فرضيات، ولذلك أيضا

فقد كان عنوان هذا الفصل الذى أختير بدقة يحمل عنوانا فرعيا هو "بيان بالإشكالية - النظرية".

ومن خلال المناقشة وجدت بعض الفرضيات التى يمكن الدفاع عنها، والبعض الآخر ليس كذلك، وعندما ننظر إلى الماركسية على أنها هيكل مذهبى ونكتشف أنها ليست مطبقة فى دول القارات الثلاث فإننى أعنى هنا أن أتحدى علاقاتها بكفاح التحرر الوطنى الذى يعد الملمح الأساسى لهذا القرن والذى يعد هدفى الوحيد من الدراسة.

واليوم يؤكد المراقبون غير الماركسيين وأحيانا هؤلاء الذين يعادون الماركسية ولكنهم على دراية بالدول الواقعة فى المجال التابع باستمرار كما فعلنا نحن، أن للماركسية وجودا فعالا فى تلك الدول لا تتمتع به فى غيرها. لماذا؟ هذه هى المشكلة برمتها. وهى مشكلة لن تجد حلا إذا نظرنا إلى عمل ماركس على أنه مشروع جامد لا بد من تطبيقه بشكل مباشر على كل حالة أو وضع. ومع ذلك فلم أجد فى كل ما قرأته أن ماركس أو لينين قد أوحيا بمثل هذا الأمر.

لقد تحدث ب كيند P. Kende عن إمكانية نقد التصور الماركسى للأمة، وهو لا شك على حق. ذلك لأن العديد من الماركسيين فى القارات الثلاث يرون أن هذه التصورات لا تتجاوب مع الواقع، وفى دراستى حول تصور الأمة قدمت تصورا للتكوين الاقتصادى الاجتماعى القومى بكل عناصر مكوناته المختلفة، ولا يزال هذا التصور مجرد شكل تمهيدى موجز... مجرد محاولة للخروج من الطريق المسدود الذى أوصلنا إليه التصور الماركسى للأمة. فالطريق لا يزال مفتوحا، وهناك بالفعل بعض الصيغ النظرية التى يتم وضعها الآن، وهى ليست صيغا يوتوبية بأى حال.

هناك سؤال آخر يتعلق بعناد الطريق الذى يقودنا عبر الأعراف الغربية. وإننى أعتقد أن مسار الأحداث ليس حتميا. ولكننى لا أستطيع أن أكون متأكدا، غير أننا إذا نظرنا إلى ما يحدث فى الصين (التي لم تكن موضع بحث فى أوروبا إلا

نادرا - وكان أهم الأعمال حولها هو ذلك العمل الذى نشره بيركلى فى الولايات المتحدة) فإننا سنرى أن الثورة الثقافية قد هدبت هذه المجموعة التى سلمت نظريا وسياسيا بأن طريق التنمية يتطلب حتما الاتفاق مع الاتحاد السوفيتى. وأنه من الضروري بشكل عام أن يتم تبنى وتكييف نفس العملية التى نجحت فى الاتحاد السوفيتى مع الواقع الصينى، وبما يضمن بناء الترسانة النووية ثم تحويل الاهتمام إلى فيتنام. والواقع أن ما حدث هو أن هذه المجموعة قد دمرت. فهل كان المؤيدون للثورة الثقافية على صواب أم خطأ؟

فيما يتعلق بى.. أعتقد أنهم سوف ينجحون، وذلك لأسباب ترجع إلى حقيقة أن الشعوب لم تعد ترغب نظرا لسيكولوجيتها السياسية العميقة فى تقليد نماذج الآخرين. إن النسخة الصينية من الماركسية ليست صيغة خاوية مفرغة، بل إنها تتجارب مع آمال شعب يعيش فى أطر سياسية معينة. وعلى عكس ما يعتقد جوديلير Godelier فإننى لا أؤمن بأن الثورة عليها حتما أن تمر من خلال إطار الإنتاج الغربى على الرغم من أنها سوف تضطر إلى المرور عبر مطهرات ومعذبات أخرى كما حدث فى فيتنام.

الدين.. اغتراب الإنسان؟ هل باستطاعة المرء أن يرتبط بأيدولوجية دينية عالمية إذا كان ماركسيا؟ ليست هذه هى القضية. فقد أوضحت انه فى مقابل أوروبا الرأسمالية الليبرالية أو البورجوازية أو العلمانية أو حتى الملحدة هناك واقع آخر يتحكم فيه جهازان ضخمان: الكنيسة الكاثوليكية فى أمريكا الجنوبية والإسلام فى جزء ليس صغيرا فى آسيا التى يوجد بها مساحة كافية للمناورة، حيث لا يوجد مثل هذا الجهاز وخاصة فى الدول البوذية. هذا واقع وليس افتراضا.. واقع لا يرضى الماركسى ولكن لا بد من الاعتراف به. غير أنه من الممكن بكل تأكيد إضعاف مكانة الجهاز الدينى للإسلام الذى يعد أضعف بكثير من الكنيسة الكاثوليكية. وفى بعض الدول المعنية يمكن دون معارضة مباشرة لديانة الدولة تقليص دور هذا الجهاز ليصبح مجرد عنصر آخر من عناصر اللعبة السياسية. وبذلك يمكن إبعاده عن العملية. وهناك دائما فى كل الحالات طريقان للمعالجة..

كذلك هناك طريق ثالث يتنامى الآن فى أمريكا اللاتينية فى اتجاه أعتقد أنه ينطوى على أهمية قصوى: فهو لا يسعى إلى محاربة الكنيسة، ولا إلى التقليل من أهميتها ولكنه يعمل على دمجها فى جبهة سياسية تحركها ضرورات اجتماعية وقومية. والواقع أن طبقة رجال الدين السفلى والفقراء الذين يتبعونهم يشتركون فى تزايد مستمر فى حرب الفلاحين الثورية كل بطريقته (البعض بالسلاح والآخرين بالصلاة، وغيرهم بتوفير المأوى). أما طبقة رجال الدين العليا والمرتبطة لدواع طبقية بالدولة القومية أيا كانت طبيعتها فإنها تتعاطف مع حركات التحرر الوطنى البورجوازية إلى الحد الذى يجعلنا نقول إنه بقدر ما تعاني هذه الدولة من النفوذ الأمريكى بقدر ما نعتزم ألا تتحمل هذه المعاناة بعد ذلك.

هناك إذن هامش واسع للمناورة. ومع ذلك فإننى لا أدرى ماذا ستكون النتيجة. ولكن علينا على الأقل أن نطرح التساؤل، حتى لو لم يكن التساؤل نفسه الذى طرحه ماركس فى عام ١٨٤٨. فالأمر لا يتعلق بالبحث عن نموذج بقدر ما يتعلق بتحليل الواقع الديناميكى.

وعلى حد علمى فإن الأبحاث الفيتنامية لم تنتشر شيئا عن النموذج الماركسى ولكنها تفضل الدراسات التى تتناول وسائل حشد البوذيين حول القضية الثورية... إلخ.

لقد استشهد أ. روبينيه A.. Robinet بجواريه Jaures. ولكننى أعتقد أن جواريه وإن كان يتمتع بكثير من الاحترام كمؤرخ ومفكر تقدمى ليبرالى إنسانى، إلا أنه كمنظر ثورى لا يقدم إلا القليل جدا إذا قرن ببلينين أو حتى بسانت جوست Saint Just.

ما هى الماركسية الصينية؟ هل هى قراءة ماركس أو ماو من خلال الشبكة الثقافية للحضارة الصينية؟ أم أنها انبعاث لما يسمى بالتروتسكية؟

وبعبدا عن التشبيهات السطحية ليس هناك شئ مشترك بين رجال السياسة الذين يتولون القيادة فى الصين أيا كانت مواقعهم بالنسبة لبعضهم البعض. وبين عمل مفكر عالمى مثل تروتسكى.

ومن جهة أخرى فإن ماو يبدو لى قريبا جدا من ستالين فى فترة ما قبل ١٩٢٧.

- دور النقابات والماركسية؟

ربما أكون قد عبرت عن نفسى هنا بأسلوب مختصر. ولكن كما قال ك. بابايونو K. Papaionnou فإن الماركسية لا يمكن فصلها عن ثلاثة مفاهيم: الثورة الاشتراكية، البروليتاريا، والبورجوازية.

ومع ذلك فإنه فى الوقت الذى احتشد فيه بعض زعماء البورجوازية حول الموقف الطبقي للبروليتاريا بالمعنى الماركسى وربطوا أنفسهم بالثورة إلا إنهم كانوا عليهم أن يعترفوا بوجود بعد إضافى آخر وهو بعد التحرر الوطنى فى ضمير الشعب كان إذا لم يكن موجودا فى ضمير المتقنين الذين يتشدقون بالماركسية. كذلك كان عليهم أن يعترفوا من خلال العمل مع النقابات بأن الإستراتيجية التى يكون محورها التحول الجذرى للبروليتاريا وحدها تعزل الماركسيين عن الجماهير العريضة ككل وتفقدهم القدرة على تعبئة هذه القطاعات. ومن هنا فقد اضطروا إلى إعادة النظر بأسلوب نقدى فى الدور الثورى للبروليتاريا رغم أنهم يحيلونه إلى دور ثانوى. ومن ثم فقد استبدلت فكرة أن البروليتاريا الصناعية هى الطبقة الطبيعية، الوحيدة بفكرة أن الجماهير العاملة هى الطبقة أو هى الجبهة الطبقة ذات الأغلبية الزراعية.

وأود أن أضيف هنا أنه على العكس مما يعتقد الكثيرون فإنه ليس أكثر الفلاحين جهلا وتخلفا هم الذين يتزعمون الكفاح المسلح. ولكن الذى يقود هذا الكفاح هم فئة الملاك الصغار والعمال الزراعيون باعتبارهم ينتمون إلى الثقافة الريفية، والآخرين باعتبارهم ينتمون إلى ثقافة الحضر. هذا هو القطاع الأكثر تطورا من الفلاحين، الذى يرتبط بالبروليتاريا الصناعية والذى يشكل جوهر النضال الاشتراكى فى دول القارات الثلاث.

أما فيما يتعلق بروح باندونج ومصيره أو بواقع القارات الثلاث فهناك تصوران متداخلان. وهنا أيضا يسهل علينا أن نأخذ موقفا سلبيا فى ضوء التنوع

والاختلاف الضخم الذى أكدت عليه مرارا فى كل ما كتبت. غير أن الشئ المشترك بين كافة دول القارات الثلاث ليس فقط حقيقة أن هذه الدول ليست دولا مهيمنة اقتصاديا وسياسيا وثقافيا. ولكنها فوق ذلك عرضة للاستقلال من جانب الدول العظمى المهيمنة التى بدأت عملية تحويل الدول العظمى السابقة بدورها إلى حالة شبه المستعمرات.

لقد كان باندونج على المستوى السياسى أول مشروع للتضامن بين الدول المستعمرة وفيما بين باندونج وهافانا حدث تحول واضح. ففى عام ١٩٥٥ كان هذا المشروع مجرد برنامج للتحرر الوطنى قدمته الديموقراطيات البورجوازية الأكثر جذرية. أما فى هافانا فقد اقترب المشروع من نظريات كاسترو، رغم أن روح باندونج ظلت حية على أنها أوضح صيغة للتضامن بين شعوب ارتبطت مع بعضها البعض بواقع الهيمنة الاقتصادية الذى قصد به تحويلها جميعا إلى مستعمرات أمريكية.

وهناك مستويات متشابهة من النمو تجعل من الممكن لنا أن نتصور العمل المشترك، وسوف يكشف لنا المستقبل ما إذا كان هذا المصير المشترك سوف يتحول بسرعة إلى بناء، وإننى أعتقد أنه سيصل إلى ذلك ولكن على المدى الطويل جدا على أساس الاعتبارات الجغرافية. والسوسيولوجية أكثر منه على أساس اعتبارات سياسية وتكتيكية مجردة.

لقد أثّرت حالة اليابان فى الاعتراض على هذا التصور. ولكن الأمر الأكيد أنها ستكون مشكلة بالفعل لو وجدت اليابان نفسها فى وقت من الأوقات فى وضع المستعمرات الإنجليزية والفرنسية السابقة، أى تحت السيطرة المباشرة لهيمنة الغرب خلال القرن التاسع عشر، فقد كانت الفرصة سانحة أمام اليابان لتعيش مستقلة فترة طويلة من الزمن، مغلقة على نفسها، ولكنها كانت تنمو إلى حد الأسنان إلى أن استطاعت أن تهزم روسيا القيصرية ثم تبدأ فى مرحلة التصنيع.

أما فيما يتعلق بمشكلة الأمم الصغيرة "والطريق الثالث" فإننى أعتقد فى الواقع أن الانعكاسات القومية تلعب دورا مهما فى دول القارات الثلاث. وأن ما من

دولة مهما كانت قريبة من الصين مثلاً (أنا أفكر هنا فى فيتنام) ترغب بالفعل فى أن تسقط تحت سيطرة ونفوذ جار عظيم. ومن هنا نجد ضرورة تميز هذه الأمم الصغيرة بين نفسها عن طريق التنوع السياسى على مستويات عديدة حتى تستطيع أن تحتفظ بقدر من القدرة على المناورة. إن خط جيفارا ليس مختلفاً إلى حد كبير عن الخط الفيتنامى، فهو يركز أساساً على توحيد كافة القوى الاجتماعية. ورغم أن بعد الدولة يلعب دوراً كما تلعب العناصر الأخرى أدوارها، إلا أن الأساس هنا هو المفهوم العام للمشروع الثورى. وهو مشروع متشابه فى كل الحالات إذا لم يكن متطابقاً تماماً، وفى كوبا ذاتها تلعب الفكرة القومية دوراً مهماً يتضح من خلال شعار الجمهورية: "الوطن أو الموت".

وحول هذا النموذج الأساسى كان من الممكن حشد وتعبئة الوطنيين الذين لم يفكروا فى الاشتراكية. وليس هناك أوضح من هذا الكشف عن التكيف القومى للوعى الماركسى فى الدول التى تبدو أقرب إلى النظرية الصينية.

لقد سئلت مرات عديدة عن الاغتراب الدينى. وفى الواقع ليس عندى إجابة محددة أقدمها، حيث أننى فى الوقت الحالى لا أرى سوى معالجة سياسية وليس نظرية للمشكلة. إذ أنه يبدو لى أن الدين فى القارات الثلاث لا يمارس على أنه اغتراب بنفس الدرجة. فهو يعد بكل تأكيد آلة كابحة، ولكنها آلة يمكن تسييسها.

الوسطية الأوروبية: لن أستطيع أن أتجاهل حتمية الإنجازات العقائدية والفلسفية والثقافية فى الغرب. بل علينا أن نستفيد منها أكبر استفادة ذكية ونقدية. ولكن إذا ارتضينا ببساطة أن نستعير من هنا ومن هناك كما فعل العديد من دول القارات الثلاث فلن نصل إلى شئ. ومع ذلك فلا يحلم أحد بتحدى هذه الإنجازات التى سوف تستمر على مر الزمن لأنها نتاج تراكم ثقافى طويل: أما الخطر الحقيقى فيمكن فى أن نحاول أن نفرض فى كل مكان نماذج للتحويل الثورى والاشتراكى التى رغم كونها صالحة لواقع معين لا يمكن أن تطبق فيه بأسلوب آخر، إلا أنها لا تكون كذلك فى مكان آخر.

لماذا يرغب ماركسيو القارات الثلاث فى أن يكونوا ماركسيين؟ .. لسبب سبق أن شرحت به قدر من السذاجة: فقد اقتربوا من النظرية الثورية بأسلوب علمى

واجروا عليها اختبارهم، واكتشفوا أن ما فعله ماركس من الناحية المنهجية لأوروبا كان أفضل من غيره من النماذج المنهجية التي طبقت على واقع مماثل. وذلك لأنه كان أكثر قابلية لمزيد من التطبيقات. ولكن هناك طبعاً أسباب عاطفية وأيديولوجية وسياسية أيضاً إلى جانب البعد الدولي (ولا أعنى هنا العالمى) حتى بين أكثر الماركسيين قومية.

إنهم يعتقدون أن هذا المنهج سوف يسمح لهم بالدعوة للقيام بعملية يكون بمقدورها أن تؤدي إلى بناء اشتراكي مرتبط بالتحرك الوطني بدلاً من أن تتعثر عند الحواجز التي أنشأتها الماركسية الأوروبية. هذا هو السبب في أنهم يعتبرون ماركسيين، إذا لم يكن من قبل ماركسي أوروبا المعادين للشيوعية فعلى الأقل من قبل الإمبريالية الغربية التي تعرف كيف تعترف بعدوها الحقيقي. فهي عندما تواجه الجبهات القومية تعرف من هم الذين يسهل قمعهم، ومن هم الذين سيقاومون الاستعباد، أو الاشتراكيين الثوريين (الماركسيين).

وإذا اعترض البعض على ما أقوله وأصروا على أن الماركسية ليست منفصلة عن البروليتاريا أو البورجوازية أو الرأسمالية أو الثورة الاشتراكية، فإن ردى هنا سوف يتلخص في أن هذه هي رؤية ماركسي القارات الثلاث أيضاً. غير أن هذه الصيغة تحمل بالنسبة لهم معنى جديداً تماماً. ففي بعض دول القارات الثلاث المتقدمة توجد رأسمالية مختلفة تماماً عن رأسمالية الغرب. وهي نوع من الرأسمالية الذي قد يسمح باختراع عملية تدميرية أكثر جذرية - رغم ما ينطوى عليه ذلك من تناقض - من تلك التي وجدت في الغرب بعد أكتوبر رغم فشلها.

أما بالنسبة لبرنامج هافانا فإن الاشتراكية تعنى أولاً وأخيراً التخلص من مجموعات الرأسمالية الخاصة المرتبطة بالإمبريالية والتي تسيطر على موارد البلاد والتي تعمل بالتالي على تهديد الاستقلال القومي. وهي كذلك تعنى أن القوى الشعبية من عمال وفلاحين ومتقنين ثوريين لا بد أن يسيطروا على هذه الثورة من خلال أكثر الوسائل الشعبية والجماعية المختلفة للاشتراكية السوفيتية في الوقت نفسه الذي يتم فيه إنشاء جهاز مركزي للتخطيط يكون قادراً على التحكم في

الاقتصاد ككل. وبدون مثل هذا الجهاز لن تكون هناك دولة حديثة. وليس أمامنا خيار آخر سوى الدولة الحديثة. إلى جانب ذلك لا بد من إضافة شئ يبدو أن الغرب لا يتحمس للاحتفاظ به؛ ألا وهو المضمون الأخلاقي للاشتراكية. إننى أعرف جيدا أنه لم يعد من الموضة فى باريس أن نتحدث عن مبادئ إنسانية الاشتراكية. ومع ذلك فقد وجدت هذه المدينة بيان جيفارا جميلا جدا رغم أن خلاصاته أخلاقية واضحة تاما.

أما فيما يتعلق "بالاحتمالية" Possibilism التى يلام عليها ماركسيو القارات ثلاث فإنها ترجع إلى إدراكهم بأنهم لا يزالون بعيدين للغاية عن الوصول إلى الظروف والأوضاع التى تتطلبها الماركسية كما حددها ماركس.

وفى الوقت نفسه فعلى المرء أن يستمر فى العمل، لذلك فهم يبدأون بتحديد وضعهم فى إطار الحركة الوطنية على أنهم جناحها الراديكالى، محاولين دائما إعادة توجيهها وجعلها قادرة على تحقيق تصنيع حقيقى بمعنى التنمية وليس النمو. إنهم يناضلون مهما كلفهم ذلك من أجل التعددية السياسية. وعندما يجدون أنفسهم محاصرين فى إطار الحزب الواحد يحاولون تضخيمه وتحويله إلى جبهة. ولكنهم يفشلون فى معظم الحالات، لأن القوى الولية فى عصرنا هى قوى خارجية أقل منها قوى داخلية، فالولايات المتحدة تتحكم فى اللعبة كلها، وهامش الخطأ هامش صغير، وكلما تعاظم التأثير الأمريكى كلما تعاظم الاتجاه نحو التطرف، وهو - إذا جاز لى أن أقول - "الاحتمال" الوحيد المتاح فى محيط القارات الثلاث. ففى الصين مثلا كان جناح ماو هو أقوى الاحتمالات حتى عام ١٩٤٥. أما اليوم فإن تكوينات هذا الجناح ذاته قد أصبحت تكوينات متطرفة. ونفس الشئ ينطبق على كاسترو فى كوبا، فقد أصبحت الماركسية بالنسبة للجناح الراديكالى للحركات الوطنية أداة لا غنى عنها.

وطالما أنه لم يحدث أن صنعت البروليتاريا الغربية ثورة، فمن كان يتصور منذ عشر سنوات أن بلدا مثل فيتنام فى فقرها الصناعى وفى موقعها الجغرافى السئ تستطيع من خلال هذه الإرادة الخارقة أن تقوم بعمل جعل اليوم ثلاثة أرباع

آلة الحرب فى أعظم دولة فى التاريخ تتخبط؟ من كان يستطيع أن يتخيل ذلك غير نخبة صغيرة جدا من المثاليين فى قيادة الحزب الشيوعى الفيتنامى الذين تلقوا تعليمهم السياسى فى أوروبا، ثم استطاعوا أن يجدوا هذا التعليم بنظرة نقدية، ومع ذلك فقد وجدوا طريقا لتطبيق المنهج الماركسى بأسلوب جعل منه أداة للعمل فى بلادهم؟

ربما لا يكون هناك فى تاريخ الإنسانية ككل مثل يحتذى به لهذه الدولة التى بدأت اليوم عملية تغيير ليس فى التوازن الإستراتيجى العالمى فحسب، ولكن فى إدراك ووعى العالم كله.

وبعيدا عن الخطأ، فلا بد من القول أن نجاح فيتنام لا علاقة له بهويتها الآسيوية، ولكن يرجع إلى القدرة تكييف الماركسية للظروف القومية، مما مكن قادتها من حشد الجماهير العريضة حولها من فلاحين وعمال وغيرهم.

وهكذا وجدت القارات الثلاث أمامها نموذجا لكل الثورات فى المستقبل. ولذلك فإن الماركسية أصبحت اليوم فى دول القارات الثلاث التى تنصدر جبهة النضال، أبعد ما تكون عن مواجهة التحدى ومحاولات التفوق، بل تجد أقوى تأكيد وضمأن لها.

لقد حاولت أن أوضح رؤية الماركسيين فى حركات التحرر الوطنى للعلاقات بين الاشتراكية والتحرر الوطنى. وعندما وضعت لهذا الغرض عنوانا فرعيا ساخرا "الماركسية بين الأهالى الأصليين" كنت موقنا أن الانتقادات سوف تنهال على رأسى. وأن هذه الماركسية سوف ينظر إليها على أنها تنوع راديكالى على لحن قومى. ومع ذلك فإننى أقول إن التاريخ سوف تكون له كلمته.

إننى أمل أن يجد الماركسيون الغربيون فى تجربة القارات الثلاث عوناً على فهم أفضل لمبررات ترددهم، فالمواجهة بين التجريبتين على المستوى التاريخى ينبغى أن تحقق فهما عالميا وعلميا حقيقيا لفئات الماركسية الثورية، ولكن الطريق لا يزال طويلا.

أما بالنسبة للصراعات القومية التى تنشأ داخل حركات التحرير فهى بلا جدال صراعات حتمية طالما كانت هناك دول قومية مستقلة تشكلت أو أعيد تشكيلها فى إطار النضال ضد الإمبريالية، أى طالما وجدت دول راديكالية متشددة يحدها اهتمام عميق بسيادتها. إنه لأمر حتمى أن تحدث صراعات عنيفة أو خفيفة تكون قابلة للحل بشكل أو بآخر. وهذه الصراعات تظل صراعات ثانوية قابلة للتسوية بين دول أوروبا الشرقية. ولكنها أكثر حدة بين الصين والاتحاد السوفيتى حول منطقة سيبيريا الخلفية. ورغم أنه قد يكون بإمكان تكتل من الدول الصغيرة أو المتوسطة فى القارات الثلاث أن تنجح فى القيام بدور الوسيط إلا أن القوة والقرار فى الوقت الحالى لا يزالان فى أيدي الدول العظمى. ولا أستطيع أن أجد وسيلة يمكن من خلالها تحقيق التحول الجذرى الحاسم للطبقة السياسية فى الدول الاشتراكية التى تظل متمسكة بمفهوم جامد عن التعايش قد يكون الطريق الوحيد لإعادة إنشاء جبهة الدول الاشتراكية التى تطلع إليها هوشى منه. وإذا استمرت الأمور كما هى عليه الآن فإن صراعات ما بعد الرأسمالية بين الدول سوف تتمو لتصبح أكثر حدة.

أما فيما يتعلق بالصراعات القومية وبالقمع الذى يمارسه شعب ضد آخر وهو واقع عالمى كما يشير ك. بابا يوانو K. Papaioannou فإن الإجابة الوحيدة الممكنة هى إجابة من ذلك النوع الترجيحي. وبإستطاعتنا أن نتصور أنه حتى إذا انتهى شكل من أشكال الاستغلال داخل دولة معينة فإن التوترات الداخلية سوف تستمر طالما وجدت دولة قومية، فسوف تمر بمراحل انتقالية يصعب التنبؤ بأشكالها ولكن اختفاء الدولة يبدو هنا إشكالية أصعب من أى وقت سابق، فأننا لا نستطيع أن نرى كيف يمكن قيادة بلد مثل الصين من خلال اقتصاد الفلاحين السوفيت.

وهنا ربما يكون للأيديولوجية الماركسية دور تلعبه إلى الحد الذى يمكنها من أن تستعيد فى طريقها الروح العالمية لغيرها من الأيديولوجيات القومية سواء كانت من النمط الدينى أو من النمط المشابه.

أما فيما يتعلق بالعلاقات بين الإسلام والعالم العربى فهى لا تثير من المشكلات ما يختلف كثيرا عما تثيره العلاقة بين المسيحية وأوروبا.

إن الأيديولوجية المسيطرة فى إطار الثقافة العربية هى أيديولوجية دينية، حتى أن المنتمين لديانات أخرى يشتركون فى ذات النوع من الحضارة.

هل تقولون إن أوروبا تتمتع بوحدة ثقافية حقيقية؟ ربما كان ذلك فى أيام كنيسة العصور الوسطى عندما كانت اللاتينية، لغة مشتركة، ولكن اليوم يعطى العالم العربى انطبعا أقوى بالوحدة.

سوف تقولون لى إن أوروبا موحدة على مستوى التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وأن ذلك يمكن أن يصبح أساسا للوحدة السياسية الحقيقية. ولكن المهم هو تطوير مشروع ثقافى قومى أوروبى يتجاوز فكرة "السوق" البسيطة. ونفس الشئ ينطبق علينا، على الرغم من الإسلام والثقافة العربية.

صدقنى إذا كانت هناك مصاعب أمام تحقيق الوحدة الأوروبية فى المستقبل القريب فإننى لا أشك مطلقا فى أنها مرغوبة، بل على العكس إننى أمل فى أن تتحقق.

بل سوف أقول أيضا إنها ضرورية، وأكثر ضرورة وإلحاحا من إشكالية العلاقة بين الماركسية والتحرر الوطنى بالنسبة للقارات الثلاث أكثر منها للاستراكيين الأوروبيين. أما فيما يتعلق بنا فسوف يكون من الأهم أن تتشكل أوروبا فى وحدة واحدة بحيث تعيش فى تحالف مع الاتحاد السوفيتى فى مواجهة أمريكا.

لقد كان لينين ومن قبله ستالين يهتمان أشد الاهتمام بالمسألة القومية. وقد أثبت التاريخ دائما أنهما كانا على حق. وفى أوروبا ظهرت أهمية هذا العامل فى فترة تشكيل الدول القومية المستقلة بعد الإصلاح وفى أوقات الثورات البورجوازية الأولى وفى فترة النضال من أجل الوحدة الألمانية والإيطالية. وفى القارات الثلاث فإن هذه المشكلة تعد مشكلة عصرية.. مشكلة اليوم وهى مرتبطة بالنضال

ضد الإمبريالية ومن أجل تحقيق التحرر الوطنى. وهى موجودة على مستوى ٢ مليار شخص.

إن الأيديولوجية القومية تعيش دائما فى خطر اكتساب هوية محافظة قديمة، ولذلك فإنه بمجرد أن تثبت هذه الدول الصغيرة جذورها يصبح من الضرورى أن تتجاوز العامل القومى. ولكن علينا ألا ننسى الواقع الذى تعيشه هذه القضية.. فليست هناك دول قومية قادرة اليوم على مساندة نفسها، سواء انتمت إلى الأمم المتحدة أم لا. ولذلك فإن العنصر القومى الذى يعد فى رأينا النسيج الذى ستنمو حوله إشكالية الطبقة يفرض نفسه دائما على الماركسيين بسبب الهيمنة الأمريكية التى تجعل من غير الممكن الفصل بين هذين العنصرين فى أية ثورة ممكنة فى القارات الثلاث.. العنصر الاجتماعى والعنصر القومى.

أما فيما يتعلق بـجيفارا فإننى أقول إنه من خلال دراستى لحالة أمريكا اللاتينية وحدها كما دفعنى اهتمامى بالقارات الثلاث فقد استطعت أن أميز بين ثلاث مجموعات من الدول: أمريكا اللاتينية الأطلنطية؛ وهى الأرجنتين وأرجواى، وأمريكا اللاتينية الإنديانية، وأمريكا اللاتينية الأفروبرزيلية.

هذا التقسيم يتجاوز ليس فقط مع التباينات الثقافية القومية، ولكن أيضا مع المستويات المختلفة لاستعداد للتنمية الاقتصادية والاجتماعية. لذلك فإن جيفارا ليس له تأثير فى الأرجنتين أو فى شيلي حيث لا توجد أية فرصة للنجاح سوى أمام استراتيجية جبهة قومية احتمالية، وعلى شرط أن تثن جميع الدول الإنديانية حربا ثورية.

هذا هو تصور العديد من أصدقائنا فى أمريكا اللاتينية الذين يعتقدون فى الواقع أن دور شيلي وأرجواى والأرجنتين ينحصر فى توفير الاحتياطات الاستراتيجية للثورة الحقيقية التى سوف تتفجر فى الأنديز. ومع ذلك فإن جيفارا يرى الأمور بشكل مختلف تماما. وبنفس الأسلوب فإننى مع اعترافى بالمضمون الحيوى الديناميكى والخلاق للماركسية لا أتمسك بأسلوب عقائدى جامد بأية عقيدة معينة، إننى أؤمن أيضا بأن الحالة الفيتنامية تجمع أفضل عناصر البحث فى العلاقة بين الماركسية والتحرر الوطنى.

(١) ورقة مقدمة إلى الاجتماع الذي عقد في المركز الثقافي الدولي د (ميريزي لاسال) بمناسبة (مائة عام على صدور رأس المال) (يوليو ١٩٦٧).

(٢) وخاصة Solomon F. Bloom the world of nations: a study of the national implication of the work of kart marx (New York ١٩٤١)

والأحدث نسيا :

Horad B. Davis, Nationalism and socialism marxist theories of nationalism to ١٩١٧ (New York London ١٩٦٧).

والبيبلوجرافيا ٢٣٧. pp-٤٣

(٣) إن كلمة (مسلم) هنا لا أهمية لها، فالكاتب يشير إلى كافة الشعوب غير الأوروبية.

الجزء الخامس

الشـرق
في قلب جدلية الحضارات

الاستشراق فى أزمة

لا غنى عن أن نرى أوروبا من الخارج.. عن أن نرى تاريخ أوروبا ونرى إخفاقها مثلما نرى نجاحها بعيون ذلك الجزء من الإنسانية الذى تكونه شعوب آسيا وأفريقيا.

جوزيف نيدهام

إذا كان لنا أن نسترجع ما أسماه كلود روى "بالستار الحديدى من الأحاجى الزائفة" فإننا يجب على الفور أن نشرع فى مراجعة نقدية، وفى عملية إعادة تقويم للمفهوم العام وللمناهج والأدوات التى أعطت الغرب معرفته بالشرق على كل المستويات وفى كل الميادين.. وتلك عملية بدأت فى السنوات الأولى من القرن المنصرم.

وينبغى لأى علم مدقق ويطمح إلى الفهم أن يكون هو نفسه موضوعا لمثل هذه المراجعة، ومع ذلك فإن انبعاث أمم وشعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية من جديد فى الجيلين الأخيرين هو الذى خلق تلك الأزمة المتأخرة كثيرا عن وقتها والتى لاتزال تتململ فى الضمائر، وقد أصبحت الضرورة العملية التى لا يمكن تجنبها مطلبا مستتدا إلى المبادئ نتيجة للتأثير الحاسم للعامل السياسى الذى هو انتصارات حركات التحرير القومى المتنوعة على النطاق العالمى.

ولقد كان الاستشراق - حتى تلك اللحظة - هو الذى مارس أعظم الأثر، ولكن منذ عام ١٩٤٥ لم يكن "حقل الدراسة" وحده هو الذى سقط من أيدى الاستشراق، ولكن "الرجال" أيضا سقطوا من يديه، أولئك الرجال الذين ظلوا حتى الأمس "موضوع - الدراسة" والذين أصبحوا اليوم هم "الذات" صاحبة السيادة فى تلك الدراسة.

كذلك بدأت العلوم الإنسانية والاجتماعية تعترف بالحاجة إلى إعادة صياغة نفسها وإلى توسيع نطاقها وإحداث تحول بها، فهى لم تعد فحسب تعترف بالحاجة

إلى إعادة صياغة وتوسيع ميدان تطبيقها وإحداث تحول فيه، ومع ذلك فلا توجد أزمة من هذا القبيل، والذي حدث هو أن عوامل متباينة ولاسيما الأهمية المتزايدة لعالمية (شمولية) وتاريخية المنهجية الماركسية إلى جانب مناهج العلم الحديث والعقلانية الحديثة التى تتصل بالمنهجية الماركسية فى نقاط معينة جعلت التوصل إلى قدر أكبر من المرونة والتوفيقية ليسا كافيين إلى حد كبير.

ولدراسة المشكلة بتفصيل أكثر فمن الطبيعى أن تتركز دراستنا على العالم العربى وعلى مصر بصفة خاصة، وذلك برغم أن الصين وجنوب شرق آسيا سوف يكونان أيضا موضع دراسة فى هذا الشأن.

ولسوف يجد الباحثون على صعيد تاريخ الاستشراق التقليدى بدءا من قرار مجلس فيينا عام ١٢٤٥ بإنشاء "الكراسى الأولى" للغات الشرقية فى Universitas magiotum et scalaium parisiensim. وحتى حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ عددا من الأعمال المتوفرة، ولكن هذه الأعمال عبارة عن تجميعات متفرقة ذات فائدة، ولكنها نادرا ما تكون ذات منهج مدقق^(١)، ومن المفيد أن نلاحظ أن الدراسات الشرقية فى القطاعين الرئيسيين - العالم العربى والشرق الأقصى - نشطت - مع ذلك - وبفاعلية فى فترة التدخل الاستعماري، وعلى الأخص فى اللحظة التى بدأت فيها الإمبرياليات الأوروبية فى بسط سيرتها على القارات المنسية (من منتصف القرن التاسع حتى الثلث الأخير منه، وتميزت الموجة الأولى بتأسيس جمعيات المستشرقين (بتافيا فى سنة ١٨٧١، والجمعية الآسيوية الملكية فى لندن ١٨٣٤، والجمعية الآسيوية فى باريس ١٨٢٢، والجمعية الشرقية الأمريكية فى سنة ١٨٤٢... الخ). وشهدت المرحلة الثانية تنظيم مؤتمرات المستشرقين التى عقد أولها فى باريس فى سنة ١٨٧٣، وقد انعقد ستة عشر مؤتمرا فيما قبل الحرب العالمية الأولى (كان آخرها فى فيينا وعقد عام ١٩١٢، ومنذ ذلك الحين لم تتعقد إلا أربعة مؤتمرات.

ولكن أى نوع من الدراسة ذلك الذى نناقشه؟ وأى نوع من الرجال والدراسين ذلك المستشرق "أى الباحث الضليع فى شئون الشرق لغاته وأدابه... الخ؟ ما هى دوافعه وما هى اهتماماته؟ وما هى الأهداف التى يعمل من أجل تحقيقها؟

يقف ميشيلينجلو جويدى (١٨٨٦ - ١٩٤٦) داخل منظور من تاريخ الفلسفة متعارضا مع التمرکز حول الهلينية "Helleno Centrism" لفارنر جامر بوجه خاص^(٣) إذ يقول:

إننى أفهم المستشرقين على أنهم أولئك المهتمون بالشرق الأدنى، وذلك لأن الفكرين الهندى والصينى بالرغم من أنهما بالقطع ذاتا أهمية عظمى فى فهم أساليب الروح، إلا أنهما لا يملكان اتصالا حيويا بنا... فنحن الآخرون.. نحن المستشرقون ننظر فى الواقع إلى تلك الثقافات التى يظهر العنصر الشرقى فيها فى أكمل صورة، أى الثقافات القومية الخالصة مثل الإسلام على سبيل المثال، ومأربنا هنا ليس فقط خلق عالم غريب (رغم أن هذا العالم يمثل ثقافة عظمى جذيرة بالاهتمام العلمى) ولكن أيضا لأن هذه هى الطريقة الوحيدة التى نستطيع بها التوصل إلى الفهم الكامل لطبيعة عناصر ذلك الانصهار المثمر والجدير بالإعجاب الذى حدث فى المحيط الثقافى للهلينية^(٤). إن المستشرق الكامل يجب أن يبدأ بالعالم الكلاسيكى، ولكن سوف يكون أمرا مضادا للتاريخ أن يحول هذا المستشرق نظريته بعيدا عن كل الفترة الواقعة بيننا وبين تلك الفترة الكلاسيكية، فلقد أصبح الإنسان الكلاسيكى والإنسان الإسلامى فى نقطة معينة بالنسبة لنا ليسا أكثر من ذكرى أو تجريد مطلق.

(إن إنسان الهلينية الجديد هو وحده المنتج الحى للحركات الحية بدلا من أن يكون منتج للحركات المخلوقة اصطناعيا من جانب الدارسين.. وعلى أية حال فلقد خلق الجميع قوة تاريخية أصلية)، وهكذا:

"فنحن لا ندرس هذه العوامل لكى نرسم سلاسل جديدة من الظواهر توضع فى متحف للإنسانية لإلقاء نظرة عليها، ولا لوصف صور عجيبة ودخيلة على عالمنا ولا لمعرفة lavtasan Soyia، ولكننا بالأحرى ندرس تلك العوامل من أجل إحياء أحقاب الاتحاد الوثيق بين الثقافات المتباعدة فى أكمل وجوهه، وللبحث عن تمييز لأشكال ووظائف كل واحدة من هذه الثقافات، لقد أصبحت رؤيتنا أكثر حدة وتقيفا نتيجة لدراسة تجليات الثقافة الشرقية فى أكثر تعبيراتها كمالا. ومن الممكن أننا بذلك قد نقدم تقويما أكثر دقة ومن ثم نصبح أكثر حساسية^(٥).

أليست المبالغة هنا أن نتحدث عن الرومانسية المتمركزة حول أوروبا^(٦) متذكّرين أن ريمون شواب يتحدث بمفردات مماثلة^(٧) وأن الصور الإقليمية السبع الأخيرة لـ أ. ج. آربيري عن المستشرقين الإنجليز^(٨) (س. أوكل، و. جونز، أ. هـ. بالمر، أ. ج. بيراون، ر. أ. ينكولسون، وآربيري نفسه... الخ) تسير في نفس الاتجاه؟ ومع ذلك فمن المهم أن نعترف أننا - مع ملاحظة أننا نتحدث بلغة تاريخية - في عصر الهيمنة الأوروبية، ومن ثم فأى نقد بالنظر إلى الخلف يجب أن يأخذ ذلك في حسابه.

إن الأعمال الكبرى للمدارس الرئيسية في الاستشراق في الغرب (فرنسا - بريطانيا العظمى - هولندا - إسبانيا - إيطاليا - روسيا - الولايات المتحدة الأمريكية) تقف داخل هذا التيار من الفكر وهذه الرؤية للاستشراق، وقد كان إسهام هذه المدارس مثمرا ومتباينا، ويميز يوسف أسعد داغر واضع الفهارس اللبناي كثيرا من العناصر الإيجابية في الدراسات العربية والإسلامية هي دراسة الحضارات القديمة وتجميع المخطوطات العربية في المكتبات الأوروبية وتصنيف فهارس للمخطوطات، ونشر عدد من الأعمال المهمة، ودروس المنهج التي تلقى على دارس الشرق وتحقيق الدراسات، ولكن هذا التحقيق غالبا ما يكون ناقصا ويحتوى على أخطاء من الوجهة اللغوية، ومع ذلك فسبب صلابته ودقة المنهج "أسهمت هذه الحركات في النهاية في إيقاظ الوعي القومي في دول متعددة في الشرق معطية إياها قوة دفع إلى التحرك نحو النهضة العلمية واكتشاف المثل"^(٩) وسوف نعود إلى هذه النقطة فيما بعد.

وعلى أية حال فلم تكن هذه الرؤية المسيطرة في الاستشراق التقليدي، كما أنها لا تمثل الاتجاه الجوهرى للعمل الذي تم في الجامعات والجمعيات العلمية، رغم أنها لا تغطي السلم النغمي الكامل للعمل الذي نفذ هنا وهناك، ومن ناحية أخرى فقد اصطبغ هذا العمل نفسه بعمق بالمسلمات والعادات المنهجية والمفاهيم التاريخية الفلسفية التي غالبا ما تعرض نتائج العمل الشاق وقيمه العلمية للشبهة، ولقد قادت المسلمات والعادات والمفاهيم عددا من المستشرقين الموثوق في أمانتهم

نحو المواقع السياسية الفلسفية للمجموعة الأخرى من الدارسين العاملين فى الميدان.

وتألفت المجموعة الثانية من مزيج من الأكاديميين ورجال الأعمال والعسكريين، وكذلك من الموظفين والمبعوثين والخبراء والمغامرين الاستعماريين، وكان هدفهم الوحيد هو اكتشاف وزيارة الأراضى التى سيحتلونها، واختراق وعى الشعوب، وكذلك ضمان أفضل وسيلة لإخضاعهم بواسطة القوى الأوروبية، فكما أشار چاك بيرك بحق، فقد تضمنت رؤية المكتب العربى أن دراسات جمعيات شمال أفريقيا التى سوندت وازدهرت ولكن حدد نطاق عملها - قد تحركت فى اتجاه بعينه^(١٠)، وليس من العسير تخمين هذا الاتجاه وهذه الظاهرة عامة، فهى عنصر تكوين فى كل العلوم الاجتماعية فى الدول الأوروبية فى فترة الاختراق الإمبريالى والاستعمار مثل الاستشراق الإيطالى فى عهد موسولبنى والاختراق النفسى السياسى الذى مثله لورنس ومدرسته، وقبل ذلك كانت العلاقات الوثيقة قائمة بين دوائر الإرساليات التبشيرية ورجال المؤسسات العسكرية من ناحية، وبين المستشرقين من ناحية أخرى (وخصوصا وقت انعقاد المؤتمر الإقليمى الثالث للمستشرقين فى ليون سنة ١٨٧٨.. الخ، وقد تزايدت الأمثلة وكررت نفسها لأننا كنا لا نزال فى حقبة الاحتتار والاحتلال.. أى كان ذلك قبل الثورات التحريرية الكبرى^(١١) ولكن هل لا يزال من الممكن - رغم تلك الاختلافات الحقيقية - أن نتحدث عن وجه تشابه معين فى المفهوم العام وفى المناهج والأدوات التى شاع استخدامها لدى هاتين المجموعتين فى الاستشراق التقليدى؟

إجابتنا هى أن بوسع المرء أن يفعل ذلك: إن وحدة المصالح (والوحدة هنا ليست فقط وحدة مصالح) شئ جوهرى فى مواجهة هذا العالم الآخر الذى سوف يعرف فيما بعد بالعالم "الثالث" فى علاقته بالتاريخ فى طور الصنع.

١ - الاستشراق التقليدى:

ونعنى رؤية الاستشراق التقليدى للشرق والشرقيين:-

(أ) على مستوى موقع المشكلة أى الإشكالية

تدرس المجموعتان الشرق والشرقيين بوصفهما "موضوعا" للدراسة يتميز "بأخريته" أى بكونه شيئا آخر (مثل كل شئ يعتبر شيئا آخر، سواء أكان ذاتيا أو موضوعا ولكن الأخيرة هنا هى أخرى تكوينية وجوهرية كما سنرى تـوا، فهنا يعتبر "موضوع الدراسة" (أو ينبغي أن يعتبر) سلبيا وغير مشارك وأنه قد منح ذاتية "تاريخية" هى فوق أى اعتبار آخر ذاتية غير نشطة وغير مستقلة ليست لها أية سيادة على نفسها فالشرق الوحيد أو الشرقى (الموضوع) الذى يمكن الاعتراف به وحده وبطريقة هامشية هو الكائن التابع فلسفيا، فهو آخر فى علاقته بنفسه، والذى يعرفه ويحركه للعمل شخص غيره.

(ب) على مستوى الفكرة الرئيسية (على مستوى الأبحاث المكتوبة):

تتبنى كلا المجموعتين مفهوما جوهريا لدول وأمم وشعوب الشرق يترجم نفسه إلى سلم أنماط عرقى ذى خصائص مميزة، وسوف تحول المجموعة الثانية هذا المفهوم حالا إلى العنصرية.

وطبقا للمستشرقين التقليديين فهنا يوجد الجوهر الذى يكون الجذر (الأصل) الشائع وغير القابل للتحويل لكل الكائنات التى توضع تحت الدراسة، وفى بعض الأحيان يوصف هذا الجوهر بمصطلحات ميتافيزيقية مباشرة، وقد كان الجوهر تاريخيا ذات مرة مادام يرجع إلى أعماق التاريخ، كما أنه تاريخي بشكل أصولي مادام أنه يثبت الكائن أو الشئ موضع الدراسة فى إطار خصوصيته غير القابلة للتحويل وغير التطورية بدلا من جعله مثل كل الكائنات الأخرى سواء أكانت دولا أم أمما أم شعوبا أم ثقافات.. منتجا ونتيجة لمزيج من القوى التى تعمل طوال التطور التاريخي.

إننا بهذا نصل إلى سلم للأنماط قائم على خصوصية حقيقية، ولكنه منفك الصلة بالتاريخ، ولذلك يتصور هذا النمط على أنه غير ملموس وجوهرى، فهو يحول الشئ المدروس إلى شئ آخر بالارتباط بذلك الذى تصعد إليه الذات الدراسة،

وهكذا فبينما يكون الإنسان العادى هو الإنسان الأوروبى فى الحقبة البائدة منذ العصور الإغريقية القديمة سوف نسمع عن الإنسان الصينى والإنسان الأفريقى والإنسان العربى (ولماذا لا يكون هناك إنسان مصرى أيضا^(١٢)). هكذا إذن نستطيع أن نرى بوضوح كيف أن هيمنة الأقليات المالكة التى عراها ماركس وإنجلز، وكيف أن نظرية مركزية الكون حول الإنسان التى وصفها فرويد - وذلك فى الفترة من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين - قد سارتا يدا فى يد مع المركزية الأوروبية فى العلوم الإنسانية والاجتماعية، لا سيما تلك العلوم التى كان لها علاقة مباشرة مع الشعوب غير الأوروبية.

ولم يطور هذه المقولة بين كبار رجال الاستشراق التقليدى أحد بأفضل مما طورها به الباحث العظيم لويس ماسينيون (١٨٨٣ - ١٩٦٢) عندما كان يتحدث عن العرب الذين كانوا قريبين للغاية من وجدانه الصوفى، فى أحد مقالاته الأخيرة التى كتبت قبل وفاته مباشرة كتب يقول: "إننى أعتقد أنه يتعين ربط مشكلة مستقبل العرب بمسألة السامية، وذلك أن عند جذور الصعوبات التى يواجهها العرب تكمن المشكلة الدرامية الخاصة بالكراهية الأخوية بين إسرائيل وإسماعيل، وأعتقد أن هذه المشكلة يجب أن تقهر، ولكن هل يمكن ذلك؟ إنه لا يتعين حل المسألة على مستوى الظهور الميكانيكى للتكنولوجيا المعاصرة حيث تتفوق إسرائيل على كل هذا العالم العربى، ولكن على مستوى سيادة إسرائيل فى الفكر وفى طريقة عرض (وضع المشكلات) فإسرائيل لم تتوقف قط عن وضع المشكلات لنفسها، وهذه هى قوتها.. قوة الأمل... أو المراهنة الذهنية (المضاربة) فى أنقى صورها، وبهذا وجد العرب أنفسهم وقد سرقت منهم دعواهم فى النقاء السامى.. أى فى كونهم هم الساميون بالحق والامتنياز، وعلى النقيض تماما فقد أصبحوا هم المحرومون من هذا الحق بل والمنبوذون، ولأسباب عديدة أثبت العرب أنهم أنبياء بالنسبة للمهمة التى تعرف إسرائيل كيف تواجهها، ولكن يبدو لى أنه لا بد من وجود مصلحة بين الأخوين، لأن إسرائيل مثلها فى ذلك مثل العرب تستطيع أن تقدم دليلا داخليا.. هو دليل لغتها التى هى لغة مقدسة كما أنها أداة للبحث العلمى المجرد، فلقد فكرت النخبة

اليهودية وكتبت بالعربية طوال العصور الوسطى وتلك هي المشكلة الجوهرية^(١٣). إلا أن سخاء الأحاسيس لا يستطيع أن يلغى الطبيعة المضللة لهذا المنهج في التفكير المفتوح على اتساعه للأفكار التاريخية الضارة (الخبیثة)، وسوف يكون ذلك المنهج متشابهًا سواء قل التشابه به أو كثر للنظر إلى تاريخ أوروبا من منشور الأريّة المشوه.

١ - ٢: مناهج الدراسة والبحث:

من المحتم أن المفاهيم العامة المستترة هي التي سوف تقرر هذه المناهج:

(أ) من الطبيعي أن ماضى الأمم الشرقية سوف يكون هو الميدان الخصب للدراسة^(١٤)، فالمرء باعترافه ضمناً أن الفترات الأكثر تألقاً للدول الشرقية تنتمي إلى الماضى يعترف وفقاً لنفس الأمانة بأن تدهورها كان حتمياً، ولقد أشار جين تشينو بحق إلى أن مسار الدراسات الإغريقية الرومانية اعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر فصاعداً، وعودة ظهور هذه الدراسات بوصفها دراسات لحضارات ميتة ومنفصلة كلية عن ورثتها المعاصرين قد زود المستشرقين بنموذج بارز.^(١٥)

(ب) سوف يدرس الماضى فى جوانبه الثقافية اللغوية والدينية منفصلاً عن قضايا التطور الاجتماعى والذى يفسر التشديد على دراسة الظواهر الدينية وأقسامها الباراسيكولوجية والغامضة هو هجوم اللاعقلانية فى أوروبا قبل هيجل وبعده، وب نفس الطريقة فإن إحياء الدراسات الكلاسيكية فى ضوء المنهج التاريخى وبدقة أكثر فى ضوء فقه اللغة التاريخى المقارن فى نهاية القرن الماضى هو ما يفسر الأولوية التى أعطاه المستشرقون التقليديون للدراسات اللغوية ولدراسات فقه اللغة التاريخية المقارنة، إلا أن دراسة اللغات الشرقية الحية مثل العربية كما لو كانت لغات ميتة قد أنتجت بالضرورة عدداً كبيراً من الأخطاء والتعارضات والتناقضات، فالأمر هنا يشبه شخصاً يشرع فى كتابة تعليق عن اللغة الفرنسية (لغة مارتين دى جار وسارتر (أراجون) على أساس من قراءته

للـ (chansens de gestte) أو عن إنجليزية برنارد شو وراسل بالرجوع إلى الأنجلوساكسون، أو عن إيطالية جروشي وجرامشي أو مورافيا عن طريق قراءة اللاتينية الكنسية.^(١٦)

ج) إن دراسة التاريخ "كبنية" سوف تلقى - في أفضل الأحوال - ضوئا على الماضي القريب، إذ أن التاريخ الذي سوف يبعث سيظهر كاستمرار لتاريخ عظيم ولكنه محدود، ومن ثم فسوف يتوقف التاريخ عن أن يكون تاريخيا ويصبح شيئا دخيلا.

د) أما العمل العلمي الذي قام به الباحثون في الدول الشرقية المختلفة فسوف يستقبل في صمت، بل وسيكون موضع تجاهل كلى أكثر الوقت باستثناء تلك الأعمال النادرة التى تشارك الاستشراق (الرسمى) نفس التوجه، أما بقية الأعمال فسوف يحكم عليها بأنها عديمة القيمة، وسوف تشوه سمعتها كما أن التخلف المنسوب إلى الظروف التاريخية - ولا سيما إلى الاستعمار - سوف يحول إلى خصيصة تكوينية مميزة للعقلية الشرقية.

١ - ٣: أدوات الدراسة والبحث:

هذه الأدوات مؤلفة من ثروة من المواد القادمة من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية تراكمت وتركزت في المدن الأوروبية الكبرى: إذ يسير تاريخ متحفى جوميه وسيرنوشنى في باريس وكذلك تاريخ المجموعات الكبرى فى المتحف البريطانى فى نفس الطريق الذى سارت فيه هجرة الكنوز والعقول العلمية (طوعا أو كرها) من أوروبا إلى الولايات المتحدة بعد عام ١٩١٩، ولكن بما أن الدراسات العربية هى موضع الاهتمام فإن الموقف يصبح خطيرا بصورة خاصة، إذ توجد عشرات الآلاف من المخطوطات حاليا خارج العالم العربى (اقتبس رقم ١٤٠,٠٠٠) وهذا العدد خارج تناول الباحثين العرب من الناحية العلمية، ولهذا السبب فإن الجزء الأكبر من هؤلاء الباحثين مضطر للاقتراب من قلب تاريخه القومى والثقافى مستخدما مصادر غير مباشرة فقط، وقد بدأت الجامعة العربية

وعدد من الدول كل على حدة - ومن بينها مصر - فى وضع عدد من المشروعات والأنظمة - وبناء دور النشر بهدف إعادة هذه المصادر التى لا يمكن إيجاد بديل لها^(١٧) إلى العالم العربى.

(ب) طالما أن التاريخ الحديث والمعاصر هو موضع الاهتمام، فإن الجزء الأكبر والأهم من المواد المعنية بالدول المستعمرة والتابعة خصوصا الهند، ومصر والشرق العربى الأندى والمغرب وأفريقيا السوداء.. الخ.. قد جمعت فى دور المحفوظات الرسمية للقوى الاستعمارية الكبيرة السابقة، وغالبا ما يكون من الصعب الحصول على هذه المصادر، إذ أنها مطوقة بموانع من هذا النوع أو ذلك، وهى موانع أقلها قاعدة الخمسين عاما الشهيرة (أى عدم إذاعة الوثائق قبل انقضاء خمسين عاما) وهكذا تصبح معرفة الماضى عن قرب بمثابة بحث عن الذات وهو مطلب حافل بمآزق خطيرة.

(ج) أما المصادر الثانوية التى استخدمها المستشرقون التقليديون فى الغرب^(١٨) مثل تقارير المديرين الاستعماريين وتقارير الإرساليات الدينية^(١٩) سواء كانت كاثوليكية أو بروتستانتية، وكذلك شروح وتقارير مجلس إدارات الجمعيات وكتب الرحلات... الخ فقد صبغت بدرجة عميقة بالعرقية والعنصرية بكل تنويعاتها التى تعد فكرة الشىء الغريب (الدخيل) وفكرة الوصاية الأبوية أقلها تطرفا، وإنه يتضح جليا أن مثل هذه المصادر الثانوية تلغى العديد من العناصر البحثية ولا تستطيع على أى حال من الأحوال أن تدعم بحثا علميا سليما رغم أنها يمكن أن تمد ببعض عناصر البحث.

تلك هى الخصائص الرئيسية للجزء الأعظم من الاستشراق التقليدى الذى مثل الاستشراق ككل حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، والذى لا يزال يحتل حتى اليوم مكانا مهما بصورة غير عادلة، ومع ذلك فقد هزت نهضة شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية منذ نهاية القرن التاسع عشر وتسارع هذه العملية نتيجة لانتصارات حركات التحرر الوطنى فى العالم الذى كان مستعمرا، وكذلك هز ظهور مجموعة من الدول الاشتراكية مع ما تبع ذلك من انقسام أوروبا إلى

”أوروبتين“^(٢٠).. كل ذلك هز صرح الاستشراق التقليدي من أساسه، وأصبح المتخصصون والعامّة على السواء وبصورة مفاجئة واعين بالهوة الواسعة بين العلم الاستشراقى وبين موضوع بحث، بل وأصبحوا واعين - وهذا أمر حاسم - بالهوة الواسعة بين مفاهيم وأدوات ومناهج العمل فى العلوم الاجتماعية وبين مفاهيم وأدوات ومناهج الاستشراق، وهكذا فقد وجد الاستشراق التقليدي المرفوض من التاريخ ومن النهضة القومية للشرق نفسه خارج المرحلة مع التقدم فى البحث العلمى، ومن ثم فمن الواضح أن الجسد الكلى للفكر الاستشراقى فى حاجة إلى إعادة النظر فيه.

٢ - وجهها الاستشراق الجديد:

تقوم الأوروبتان حالياً بإعادة النظر فى جسد الفكر، وأوروبا الأولى هنا هى أوروبا القوى الاستعمارية بما فيها أمريكا الأوروبية، وأوروبا الثانية هى أوروبا الدول والحركات الاشتراكية التى سرعان ما انضمت إليها ثورات ”القارات الثلاث المنسية“ (الصين الشعبية وكوبا)، والفجوة بين هاتين الأوروبتين فجوة سحيقة لاسيما إذا كانت المفاهيم العامة هى موضع الاهتمام.

٣ - الاستشراق الجديد فى أوروبا الغربية:

توجد وثيقتان أساسيتان هما المقرر الدراسى الافتتاحى الذى ألقاه جاك بيرك فى الكوليج دى فرانس فى ديسمبر ١٩٥٦ وتقرير هاينر فى عام ١٩٦١ إلى جانب عدد من الأعمال المنهجية سوف يسمحان لنا بتحليل هذا التجديد فى الاستشراق التقليدي داخل القوى الاستعمارية الغربية.

(أ) المفهوم العام:

يلاحظ بيرك:

تبدو شخصية عالم الإسلام شخصية قابلة للشرح والنقل بوضوح، فهى تَوقُظ لدى أى شخص يقترب منها الصورة الخالصة للكيف والـ daealus. إنها تدافع عن نفسها ضد الخارج.. ضد العالم الضال، ولكونها مراوغة ومهددة وساحرة فهى

تكشف عن نفسها شيئا فشيئا من خلال الغموض والازدراء أو الغواية، وهذه الشخصية تقاوم من أجل إخفاء نقطة دخولها الحقيقية، إنها تخفى حقيقتها، ولذا يترجع كثيرون أمام هذه العقبة الأولى سواء أغواهم المنظر الخلاب، أو أسرتهم - أوردتهم على أعقابهم - الروح القتالية، إلا أنه يتعين أنه يواصل البحث تقدمه، وينبغي أن نغدو أكثر فأكثر حساسية نحو الغير.. أى نحو الوجه العربى للأشياء".

لقد أفضى العمل الذى تعهد به بيرك والذى يقوم لنا عرضه الأول هنا به إلى الاعتقاد فى أن الدول العربية ولدت فى تاريخها الحديث بعد الحرب العالمية الأولى وبعد الحرب العالمية الثانية بوجه خاص، وكانت النتيجة من وجهة نظره هى "سنوات من المراجعة المأسوية". وبالرغم من ذلك يقول بيرك "يجب أن نتعلم أن نعترف بأن الدليل (إذا استخدمنا المصطلح العزيز لدى لويس ماسينيون) يقع تحت المظهر" أنه يوجد خلط واضطراب فى كل مكان. إن التوتر يشوه هذه الدول، وقد أصبحت "أبنيته" تسير بسرعة كبيرة، كما أرادت غامشة، فالشيء الملموس بالنسبة لهم يغمره المؤثر العاطفى دائما، هذا المؤثر الذى هو فعل الرمز، وكل الظواهر عندهم تتحطم منكسرة إلى مراحل متعددة، وكل سلوك يتعين فهمه بأكثر من طريقة one negster وهنا توجد الصعوبات البالغة التى تواجه التعبير الذى خبروه كما تواجه مشكلات التفسير الذى تؤثر علينا.

ومن الطبيعى أن تكون الأبنية محاطة بالطلاسم إذا عزلت عن سياقها التاريخى وعن علم النفس الاجتماعى ككل، ولكن هذا رأى ليس أقل حسما،^(٢١) وقد رابطت عملية المد والجزر الواسعة فى الأفكار، والتى بدأت حينذاك بين البنية والوجود وبين السببية (صادقة كانت أو زائفة) واحتياجات القلب وانتشار الاندفاع الملحمى (البطولى) لتلك الدول، وإن كل هذه المحاولات تبدو لى استجابة للبحث عن الدقة فوق كل اعتبار، وغالبا ما يكون البحث غير واف بالغرض وملخصا ومشوها، بل وفى أحيان أخرى غير أمين وغير خبير ومتسرا إذا جاز لصديق أن يقول ذلك من مسافة بعيدة، فتحليله (تحليل بيرك) للأشكال السياسية الحالية فى الشرق لا يذهب إلى بعيد does not go very far either وفى كثير من الجوانب يستعيد هذا التحليل ما قاله رينان^(٢٢)... إذ يمضى بيرك قائلا:

"إن هذا التاريخ ليس مستقلاً بذاته، فحتى الآن ترفض هذه الإنسانية ما يسمى "بمساوى الأشياء" pejedice gthings لأن التاريخ يأخذ من هذه المساوى مذاقه كما يأخذ منها قوام الأشياء ذاتها، وهذه الدول سوف تقع تحت إغراء البحث عن الإثبات خارج الاستمرارية والمنطق، وربما خارج التاريخ متأثرة فى ذلك بما وصفه كاتب مصرى "بالتاريخ شديد الوطأة" ولكن هل يستطيع المرء محاربة الحقائق بالشعارات حتى لو كانت الشعارات جليلة مثل الحرية؟"

ويمضى بيرك بعد أن أرسى حقيقة عدم الاستقلال وعجز الشعوب العربية والإسلامية على النحو الذى رأيناه عن التفكير فى شئونهم وتكوين أدوات المعرفة التى يمكنها وحدها إرساء الأساس العميق للعمل والتقدم... يمضى ليملأ هذا الفراغ خصوصاً فى كتابه les nales d'heis é de main (العرب بين الأمس واليوم) المنشور سنة ١٩٦٠ قائلا:

"ويحتفظ العرب اليوم أو اليوم أنهم يستعيدون الرجوع إلى ذاتهم.. بمعنى الاستقلال فى الشعور والتعبير الذى ينبغى إيعاد أى نظام خارجى عنه مهما كان سيئرى هذا الاستقلال.. فالأبعد ذلك دافعا كافيا لأى باحث أجنبى لكى يمتنع عن جعل نظريته تتقدم إلى الأمام لأنه أولا موضع شك، ولأنه ثانيا مشدود إلى الخلف بآلاف من المحاذير خوفا من أن يجرح الأحاسيس الحية لآخرين؟ ولكن الأمر على النقيض من ذلك، لأن إسهام الباحث الأجنبى سوف ينمى تلقائية العرب، إذا أنه إذ جروا على أن يقدم لهم نظاما لتفسير تاريخهم المعاصر فسوف يكون ذلك على أمل أنهم سوف يحكمون على هذا التاريخ، وكلما استثار قدرا أكبر من النقد من الداخل كلما ساعدهم هذا النظام أكثر على السير نحو التقدم الذى يسعى نظام تفسير التاريخ" إلى الإسهام به، ومن الطبيعى أن ذلك النظام سيكون فى وضع غير مناسب لأنه ببساطة يأتى من أجنبى ولكن يحتمل أن يكون له ميزة ثانوية من ناحية أخرى، لأن - نجاحه أو فشله سيكون فشلا أو نجاحا للاستشراق الجديد بنوعيه النزيه والملتزم." (٢٣)

وقد أدت ردود الفعل التى استثارتها هذه الرؤية للعمل الذى يجب عمله إلى تحريك بيرك بعد ذلك بعامين إلى تحديث أفكاره، فكتب يقول: "ارتأى كاتب

مصرى بالنسبة لكتاى الأخر أننى أوجه نفسى إلى القارئ الشرقى مثلما أوجه نفسى للقارئ الغربى، أى كما لو كان هناك شئ جديد، أليس هذا طموحا مبالغا فيه؟ إن أية دراسة تتصور بهذه الطريقة تتطلب من موضوعها أن يصبح ناقدا ومحاورا ومشاركاً،^(٢٤) ولكن أداة - هذا التمهيد سوف تكون هى الثقافة الفرنسية، لأننى أستطيع أن أؤكد بجرأة أن الفرنسيين أخذوا الهلنستية من الشعوب العربية.^(٢٥)

لقد وضع كتابا المؤلف - وأحدهما عن العرب والآخر عن المغرب - إطار هذا السلم الجديد للأنماط، ونحن هنا مهتمون بالمنهجية، لذا فلن نبحث مسلمات هذا السلم ولا مقولاته ولا نتائجها، ومع ذلك فينبغى أن نلاحظ أن سلم الأنماط الجديد يتبنى "فروقا" جديدة بأخذ العامل الاقتصادى فى الحسبان رغم أنه يبقى "جوهرى" فى قلبه.^(٢٦)

أما فى العالم الأنجلوساكسونى فإن أسلوب تناول المشكلة مختلف... ففى سنة ١٩٤٦ أنشئ معهد الشرق الأوسط فى واشنطن، وتبعه فى عام ١٩٤٩ إنشاء مجلس شئون الشرق الأوسط فى نيويورك، وفى بريطانيا العظمى بدأت لجنة سكاربورد سنة ١٩٤٧ - وبمشورة من أ. ج. آربرى تجديد الاستشراق، إذ تطلبت نهاية الحرب "منا أن نضطلع بالمسؤوليات التى لا نزال نلتزم بها فى المستعمرات، وأن نعالج علاقاتنا بدول الدومين وجيراننا الأقربين من شعوب آسيا وأفريقيا وكذلك علاقاتنا الجديدة بالهند وبورما وسيلان"، وقد صاغ هذا التقرير نقدا علنيا للمركزية الأوروبية، وأشار إلى تخلف الدراسات الشرقية فى بريطانيا العظمى إذ ما قورنت بمثيلتها فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وهولندا والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة، وفى هذا السياق فإن هذا الداء (التخلف) لا يليق بموقفنا كقوة عظمى ويخفق فى مجازاة مسئوليات الإمبريالية، "إن الشئ المطلوب هو تنظيم الدراسات الحديثة لكى تساعد على نحو متخصص العلماء والأطباء والمهندسين والاقتصاديين الذين يرغبون فى احتراف الدراسة والعمل فى الشرق ولتمكينهم من إيجاد مكان ثابت هناك."^(٢٧)

وبعد سنوات أربع استجابت لجنة هايتر بلغة سياسية قوية لموقف ظل ضعيفا، فقد تحرك مركز الجاذبية العالمية بعيدا عن أوروبا، ولم يكن الوقت وقت علماء اللغة، ولكنه كان وقت "الفائض من المؤرخين وفقهاء القانون والاقتصاديين وسائر المتخصصين فى العلوم الاجتماعية". وكانت الأهداف المتصورة هناك كما يلى: تزويد الدولة باحتياطي كبير وأكثر توازنا من البحوث والمواد المنشورة عن تلك الدول "والمساهمة فى تكوين كتلة من الرأى عنها" وتنشيط الاهتمام باللغات الشرقية بطريقة غير مباشرة، وأخيرا زيادة نسبة الدراسات الحديثة ودراسة اللغات الحديثة إلى الدراسات الكلاسيكية^(٢٨) وقد حلت اللجنة جهود الولايات المتحدة وإن يكن ذلك قد تم بطريقة أفضل بعد ظهور نتائج لجنة سكاربورو، ولاحظت اللجنة التأثير القوى على هذه النتائج من الجهود المبذولة ومن نمط المنظمات التى أنشئت وكذلك من جراء الاهتمام المعطى للدراسات الحديثة". وقد استرعت اللجنة انتباه الحكومة البريطانية إلى النقاط التالية:

المساندة القوية من جانب حكومة الولايات المتحدة للدراسات الشرقية والسلافية بالنظر إلى أهميتها القومية، والاهتمام المعطى من خلال مراكز دراسات المناطق لتحطيم الحواجز بين الفروع الدراسية المختلفة بغية ترويج ودعم الدراسة المتوازنة لتلك المناطق والأثر المنشط للتأكيد على الدراسات الحديثة، ودور المنح المخصصة للخريجين بهدف توجيههم نحو مجالات جديدة للعمل، وقيمة البرامج المكثفة لدراسة اللغات وتنمية المساعدات الآلية المصممة للتغلب على مشكلة تعلم اللغات التى لا يمكن تعلمها فى المدارس ولتخفيض فترة التعلم.

هل يعنى ذلك إذن أن على المرء أن يتبع نموذج الولايات المتحدة؟ إن تقاليد الدراسة الهيلينية والشرقية الكلاسيكية أقل عمقا فى التربة الأمريكية منها فى أوروبا، ولذا فإن البحوث البريطانية فى هذا الميدان وبصفة خاصة فى الدراسات الشرقية تقع داخل التقاليد الكلاسيكية واللغوية الجامدة لأوروبا الغربية، بينما تحدث معظم التطورات الحديثة - مع التركيز على العلوم الاجتماعية فى أمريكا،^(٢٩) إنه يجب ضمان الحوار ومصالح الدولة عن طريق مد نطاق وتحديث مثل هذه الدراسات على الحال التى تتم عليها وعن طريق تحسين مؤهلات الباحثين.

بدلاً من "اختراق الاستشراق الأوروبي للشئ" الذى سيدرس.. ذلك الشئ الذى لا يتمتع باستقلال ذاتى.

ولن يكون بوسع أحد أن ينكر أن هذه المسلمة الأساسية التى توجد فى القلب من كل مدارس الاستشراق الأوروبى سواء أكان تقليدياً أم مجدداً مستمرة فى الكمون تحت أعمال كل الدراسين الغربيين غير الاشتراكيين، وعلى هذا النحو اتخذ السير هاميلتون أ. جيب لدى مراجعته لتاريخ الإسلام من أصوله الأولى حتى عصرنا من مؤلفى القرن التاسع عشر قاعدة انطلاقه، ولا يقف بين هؤلاء سوى مؤلف شرقى واحد هو أ. ف. عفيفى،^(٣٠) وقد استمعت الحلقة الدراسية الأخيرة حول علم اجتماع المسلمين والتى انعقدت فى بروكسل فى الفترة الأخيرة من ١١ إلى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٦١، إلى عشرين متحدثاً لم يكن بينهم شخص واحد من الشرق، وكان ذلك بالضبط هنا ما استنكره چاك بيرك،^(٣١) وكانت المسألة الجوهرية فى الحلقة هى تطور المجتمعات العربية الإسلامية فى القرن العشرين، ويحتل المؤرخ المصرى حسين مؤنس مكانة مناسبة نتيج له أن يظهر كيف أن الكثير من الكتابات التى قدمت فى حلقة بروكسل بعيدة بعداً سحيقاً عن الطور التاريخى الذى هو تحت الصنع،^(٣٢) وتشارك كتابات ج. أ ثون جرونيوم الأخيرة فى هذا المنطق، وأكثر من ذلك فإن الخلفية الفلسفية الجادة لوضع هذه الكتابات سمحت له بتقديم تحليل بنيوى يكشف عن جهد يتجاوز العادات القديمة،^(٣٣) وأما مقولة فينسنيت مونثيل الأخيرة عن العرب المحدثون فهى حافلة بالأخطاء - على عكس كتاب هانز فيهر - وهذه الأخطاء نتيجة لرغبة فى التتظير دون معرفة حقلى الدراسة من داخله.^(٣٤)

ب - مناهج الدراسة والبحث:

يواصل الماضى احتلال الخط الأمامى للدراسات الشرقية ولكن لم يعد هناك وحده، فقد أسهمت متطلبات السياسة وانتقال مركز الجاذبية إلى ما وراء الشواطئ الأوروبية، والعواطف التى استثارتها الظهور القوى لشعوب الشرق التى كانت حتى عهد قريب خاضعة ولينة العريكة، وكذلك أسهمت الحاجة إلى جعل العادات القديمة

صالحة للعمل في الوقت الحاضر أو حاجة هذه العادات إلى محاذاة العلوم الاجتماعية الأخرى.. نقول أسهمت كل تلك العوامل وبطريقة حاسمة في دفع الاستشراق الجديد إلى الحقيقة الحديثة المعاصرة.

فالحاضر الذي اعترف به أخيرا كموضوع للدراسة (ولكن بتكلفة باهظة غالبا) لا يستطيع التهرب من مطلب الحاجة إلى سلاسل أنماط مناسبة لشعوب الشرق المختلفة عن شعوب الغرب، وسوف تكون الفلسفة الشرقية المختلفة هي الوسيط بين الطلب الاجتماعي والسياسي على هذه الأنماط وبين النزعة التحديثية، وهذه الفلسفة ترى أن مهمتها كما نعرف هي دراسة أجزاء (قطاعات) الواقع بوصفها أبنية، ليس كنتاج أو مجموع أو نقطة التقاء لعملية تطور تاريخي، وبتصور الأمور بهذه الطريقة تظهر البنائية في العلوم الاجتماعية بوصفها التعبير الأكثر مقبولية والأكثر موضوعية عن الفينومينولوجيا (الشكل المهيمن من الفلسفة اللاعقلية في عصرنا). فالمنهج البنائي يتحرك في ميدان الاستشراق على أرض مشابهة ولكن مع التسليم، وإذا جاز التعبير، أنه يتخذ من الدراسات اللغوية لوسير في كتابة (والمكتوب خلال الفترة من ١٩٠٦ إلى ١٩١١) نقطة بداية وقد تعود المستشرقون التقليديون - وغالبيتهم إما لغويون وإما متخصصون في الأديان - على البنائية، وهم على وفاق مع زملائهم المحدثين (المستشرقين الجدد) الذين عددهم المنهج البنائي بأكثر الوسائل قطعية وحداته لتنمية سلاسل أنماطهم في سياق التجديد.

ولسوف يستمر الوضع على أن ينتقض من قيمة العمل العلمي الذي يتم في الدول الشرقية، سواء من خلال التجاهل إلا أنه سوف يصبح من الصعب وأكثر فأكثر إن لم يكن سيصبح مستحيلا وضع نظرية عن قطاع بأكمله سواء أكان عربيا أم صينيا أسوييا أم أمريكيا لاتينيا أو إسلاميا على قاعدة من محدودية الوثائق والبيانات، بينما ينمو الإنتاج المحلي فيها كل يوم، أو من أجل الاحتفاظ بالأولوية (النظرية) للمعرفة.^(٣٥)

ويظهر المنهج المرتكز على المشاركة والاختيار الذي اقترحه وبدأ العمل به جاك بيرك على أنه أكثر المناهج استحقاقا للاهتمام، في موضوع حي ومستمر

وملئ بالمعاناة مثل "الشرق" لا تعد الأدوات المعتادة للعلوم كافية بالرغم من أنها في ذاتها قيمة ضخمة، ومن ثم يجب على المرء أن يحيا متصلا بالناس وأن يلاحظ حياتهم اليومية، بل وأن يشاركهم حياتهم، ولكن هل الممكن عمل ذلك بطريقة خالية من العاطفة؟ كتب بيرك وهو محق تماما لدى إشارته إلى هذا "البحث القائم على المشاركة بتزايد يقول إن التأثيرية ليست هي موطن قومي، قدرنا هو أن نفهم، ولكن إذا كان من شأن التحليل أن يكون مؤثرا وأن يتعمق بالقدر الكافي فيجب ألا يفك الارتباط الحقائق بسياقها العاطفي، ولا بالمعنى الذي تعطيه التجربة والمعيشة لهذه الحقائق.^(٣٦)

وتعتمد قيمة تلك المشاركة عند و. كانتويل سميث - ذي الخلفية الكندية غير الإمبريالية - على رأى الناس المحليين. فاعمل سوف يخفق إذا كان المثقفون والمسلمون المخلصون غير قادرين على الاعتراف بأن الملاحظات التي بدأ منها العمل دقيقة أو على إدراك أن في تفسيرات هذا العمل وتحليلاته إسهام رغم حقيقة في التوضيح.^(٣٧)

ج - أدوات الدراسة والبحث:

تطمح القوى الغربية - لاسيما الولايات المتحدة - إلى إضافة مراكز جديدة لتراكم الثروة الثقافية والمادة والبحث إلى مخزونها الموجود بالفعل، ووسائل هذه القوى أعظم بصورة غير منصفة من أية أدوات يملكها الشرق بمؤسساته الدراسية، وبأحاثه في حوزته.^(٣٨)

ولقد اعترف بأن التعاون فيما بين الدارسين والباحثين في دول الشرق هو ضرورة موضوعية، ومع ذلك فسوف نلاحظ أن الولايات المتحدة لديها كراس جامعية ووسائل نشر كافية تماما،^(٣٩) بينما ينظر إلى هذا التعاون في أوروبا بوصفه أمرا قانونيا.^(٤٠)

ومع ذلك فقد أدت الواقعية بـ هـ. أ. ر. جيب إلى أن يدافع في نهاية عرضه لإخفاقات الدراسات التاريخية للشرق الحديث عن تقسيم العمل على النحو التالي:

المهمة الأولى للأكاديميين الأوروبيين هي بحث وتنسيق وتقويم المصادر الغربية بطريقة نقدية، أما الميدان الخاص للأكاديميين المحليين فسوف يكون بحث وتنظيم ودور المحفوظات المحلية وإعداد الوثائقين لديهم، وسوف نلاحظ أنه لا يوجد في حالة الأخيرة تقويم نقدي للمواد المجمعة، وفي الوقت نفسه "فلا بد أن يستقر في الأذهان وبلا مجال لأي سوء فهم أن الأكاديمي الغربي سوف لا يقوم بأي عمل على المستوى الأكاديمي في ميدانه الخاص ما لم تكن لديه معرفة كافية بالعربية أو الفارسية أو التركية حسب الحالة المدروسة، وبالخلفية التاريخية والثقافية ويعنى ذلك - بالطبع - أن الدارس الناضج لتاريخ الشرق الأوسط يجب أن يكون مستشرقاً بمعنى من المعاني، ولكن ذلك لن يكون إلا إذا حصل المؤرخ على مؤهلات فنية في ميدان أكثر اتساعاً من مجرد احتياجه ببساطة إلى أن يكون مؤرخاً جيداً للشرق الأوسط.^(٤١) ولهذا السبب يتعين أن تكون الأولوية هي التعليم العلمي المتخصص يضاف إليه إعداد لغوي نقافي.

تأملنا حتى الآن وبشكل مناسب تماماً في المدرسة الاستشراقية الجديدة في الغرب... ومع ذلك وفي الوقت نفسه كان استمرار تعاون المركزية الأوروبية في (تجليات) ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى جانب بروز الصراع المباشر بين الدول المستعمرة (الشرق) والقوى الاستعمارية (الغرب) وقد جند تكوين مجموعة فرعية جديدة من الناشرين والصحفيين المتخصصين في الشؤون الآسيوية والإفريقية، وفي مناسبات معينة يصل هذا إلى الجامعات، ولكن الجهل بلغات الشعوب الشرقية عادة ما يكون مقروناً بالتعليم العلمي المهلهل، إلا أن المهارات البلاغية والأسلوبية بالإضافة إلى موهبة الصحفي الكبير يمكن أن تحترم كضمانة ككتابات عقلانية ومقبولة، وهي كتابات تقدم نفسها كمصادر للمعلومات المباشرة "والمتخصصة" لمتقفي الشرق وللعمامة في الغرب.^(٤٢)

٢ - ٢ - الاستشراق الجديد في القطاع الاشتراكي من العالم:

نحن هنا مهتمون بصفة مبدئية بالقطاع الاشتراكي من أوروبا (الحركات والدول)، ذلك أن الأعمال الصادرة عن الصين تبدو أكثر ألفة مع مفاهيم الدول

المستقلة غير الاشتراكية والحركات الاشتراكية فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية على الرغم من المحيط المشترك فيما بين الصين وهذه الدول والحركات.

وقد بدأ البحث فى القطاع الاشتراكي بشكل نفسه بالدراسة المتعمقة لدول الشرق فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وقد أشرنا بالفعل إلى الدور الرائد لأعمال چاك بيرك فى المحيطين العربى والإسلامى، وقد بسط بيرك نظريته الشاملة فى كتابه ١٩٦٤ "ومصر بين الإمبريالية إلى الثورة" ١٩٦٧ و"الشرق الثانى" ١٩٧٠ إلى جانب الدراسات المساندة لهذه الكتب وهذه الدراسات متداخلة التخصصات المعرفية، كما مكسيم رودينسون تفكيره فى الاستشراق التقليدى من ١٩٥٠ فصاعدا استجابة للظهور القوى لحركات التحرر القوى فى الدول العربية والإسلامية،^(٤٣) وبالتزامية مع رودينسون بدأ حين شيسنو تطوير أفكاره فى كتابه وفى سنة ١٩٤٥ بدأ جوزيف نيدهام عالم البيولوجيا البارز فى جامعة (كمبردج) وذلك بعد ٢٥ عام من الإعداد نشر كتابه الموسوعى الضخم "العلوم والحضارة فى الصين" بقصد أن يستعيد لحضارة وثقافة عصرنا بعدها الصينى الذى سقط فى غياهب النسيان ابتداء من القرن الثامن عشر الأوروبى فصاعدا، وهذا الكتاب نموذج للمعرفة الموسوعية والدقة العلمية والعمق النظرى، فهو كما وصف بحق أعظم عمل فى التركيب التاريخى والاتصال فيما بين القطاعات يمكن لأى كائن بشرى أن يضطلع به (ل. بيكن).^(٤٤) وفى الدول الاشتراكية كانت المسألة هى اختيار التقليد القديم مرة أخرى: هذا التقليد الذى اضطرب الآن مع الاهتمامات الجديدة للمنهجية الماركسية والظهور السياسى للشرق.^(٤٥)

ولقد أعطى مؤثر باندونج لتضامن الشعوب الأفروآسيوية (أبريل ١٩٥٥) قوة دفع حاسمة للتجديد الثقافى، ولاسيما فى ميادين التاريخ والعلوم الاجتماعية والأدب فى القارتين، وسرعان ما أعقب مؤتمر باندونج المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى (١٩٥٦) وقد عالج المؤتمر الأول للمستشرقين السوفيتى والذى عقد فى طشقند سنة ١٩٥٧ الأفكار العامة التالية:

١ - إعادة فتح ملف النظام الإمبريالى.

٢ - مهام الاستشراق السوفيتي بعد المؤتمر العشرين.

٣ - الأهمية العالمية لباندونج، وقد أعطى المؤتمر الحادى والعشرون للحزب الشيوعى السوفيتى قدرا أكبر لهذا التوجه، الذى سيصل إلى مرحلة الإثمار مع المؤتمر الدولى الخامس والعشرين للمستشرقين الذى عقد فى موسكو فى أغسطس سنة ١٩٦٠.

ولسوف تسمح لنا هذه المقدمة التاريخية الوجيزة بتقديم تحليل للاستشراق الجديد فى القطاع الاشتراكى.

أ - المفهوم العام: على مستوى الإشكالية: يجب أن يرافق نهاية الهيمنة الأوروبية السياسية التى شهدت مؤتمر باندونج وقيام اليونسكو وتقريرها المواقع الأيديولوجية للزعماء الصينيين بنقد أصولى "للمركزية الأوروبية" ورفضها النهائى الحاسم بعبارات تصبح بمثابة مبادئ، إذ أن الحضارة الغربية مستمرة فى المعاناة من تفاخر ثقافى ليس له ما يبرره بزيغ اتصالاتها بشعوب العالم الأخرى، ويمكن وصف هذا التفاخر الثقافى باطمئنان إلى سلامة هذا الوصف بأنه ازدراء روحى من أعلى أو أنه أيضا أمر روح الشر فى المسائل المقدسة". أو كما يقول نيدهام فى استنكاره "الأيديولوجية السيطرة على الحاضر الدائم". إن إدراك حقيقة أن شعوب آسيا تستطيع أيضا أن تشارك فى كل فوائد العلم الحديث، وأنها تستطيع أن تكتب وتقرأ وتدرس وتستوعب من الداخل (مجلة الطبيعة الحيوية) على سبيل المثال، وأن تستعيد احترامها لذاتها لتصل إلى مستوى من الحياة عاليا وسامقا مثل أى جزء آخر من العالم، مدركة أن كل ذلك هو الأفضل فى معتقداتها الدينية وتقاليدها الثقافية إن هذا الإدراك يحدث ببطء شديد.^(٤٧)

والخطأ الأصلى فى المركزية الأوروبية هو المسلمة الضخمة بأن العلم والتكنولوجيا الحديثين اللذين ترجع جذورهما إلى النهضة الأوروبية عالميان، وأن يستتبع ذلك أن كل ما هو أوروبى هو عالمى بنفس الدرجة "وبوضوح نيدهام أن ذلك خطأ فى العلم والتاريخ معا، ويشدد على دور الدين كأداة للاختراق والتكامل مع أوروبا.^(٤٨)

ولقد كانت نعمة مختلفة كل الاختلاف تلك التى تنبأها أنستاس ميكويان النائب الأول لرئيس مجلس وزراء اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية فى خطابه المهم إلى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الخامس والعشرين للمستشرقين "غنى عن القول أن الانتفاضة الثورية فى حياة شعوب آسيا وإفريقيا قد بذلت بصورة جذرية لطابع يحتوى الاستشراق، وبوسعنا أن نقول إن الجانب النظرى الخاص الجديد والمبندى فى الاستشراق هو أن شعوب الشرق تخلق بنفسها ولنفسها الآن علمها الخاص وتصور تاريخها وثقافتها واقتصادها، وهكذا فقد ارتقت شعوب الشرق من كونها مجرد موضوع للثقافة إلى مصاف الخالقين، وهذا هو ما يميز هذا المؤتمر عن كل ما سبقه من مؤتمرات".

ولهذا الإعلان بالمبادئ الذى يرتبط بالجواهر الأصلية لفكر شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ومتقى القارات الثلاث رؤية سياسية مطابقة - الجبهة العمالية للنضال ضد الإمبريالية: فيمضى ميكويان قائلا:

"إن واجب المستشرقين أن يعملوا فى أعمالهم وبطريقة فعالة (التفاعلات) العمليات الأكثر أهمية فى دول آسيا وأفريقيا، وأن ينقسموا بطريقة خلاقة فى صياغة المشكلات الرئيسية للشعوب الشرقية فى نضالها من أجل التحرر القومى والاجتماعى ووضع نهاية لتخلفها الاقتصادى، إن لنا الحق فى أن نقول إن الاستشراق حينئذ، وحينئذ فقط، سيكون جديرا بأن يؤخذ بجديّة وأن يعد ناجحا من اللحظة التى يخدم فيها مصالح شعوب الشرق".^(٤٩)

وكانت هذه هى الأفكار التى عبر عنها الأكاديمى ب. ج. جانورث مدير معهد موسكو للدراسات الشرقية فى خطابه الختامى للمؤتمر:

"نحن الآخرون.. أى المستشرقون السوفيت نعتبر أن واجبنا العلمى وواجبنا الذى يمليه ضميرنا هو مساعدة شعوب الشرق بلا توقف فى نضالها من أجل مستقبل أفضل، ونحن مقتنعون بأن اكتشافاتنا ونتائجنا العلمية وإن منهجنا العلمى العميق المنهج الماركسى وكذلك التجربة المرتكزة على النظرية العلمية التقدمية..

أقول نحن مقتنعون بأن كل ذلك سوف يساعد شعوب آسيا وإفريقيا على حياة أفضل و إيجاد أكثر الطرق فعالية لتحقيق التقدم".^(٥٠)

وسوف نلاحظ هنا أن تقويم الاستشراق علمياً يتم على أساس موضوعيته والإسهام الذى يمكن أن يقدمه لأعمال التحرير والبناء والقوميين، وبالمعنى أن - يشارك مع "الذات أى الخالقين".

ومع ذلك فعلى مستوى الفكرة الرئيسية فإن العديد من المستشرقين الأوروبيين الاشتراكيين مثل شينو مستمرون فى الاعتقاد أن:

وضع الدراسة العلمية لدول آسيا وإفريقيا ببساطة وبصورة خالصة على قاعدة عمومية علوم اللغة والتاريخ سوف يؤدي عند المستوى الحالى بين التنمية العالمية إلى الارتداء خلفا إلى المركزية الأوروبية، وليس الحاجز اللغوى وحده هو ما يبرر التنظيم الخاص للعمل، ولكننا لا نستطيع تجاهل الملامح الكثيرة التى لا تزال شائعة ومشتركة حتى اليوم بين كل تلك الدول الآسيوية والأفريقية وهى الملامح التى تميزهم بموضوع عن أوروبا، إن الاستشراق مفهوم قديم ولكن الدراسات الآسيوية والإفريقية هى التى تواصل اللحاق بمشاكلهم الخاصة مثل التخلف وتاريخ التوسع الاستعماري والحركات القومية وتقاليدهم الخاصة الباقية من العصور الوسطى... الخ.^(٥١)

ويشير المؤلف وهو على صواب تام فى ذلك إلى "إثراء النظرية الماركسية العامة فى تاريخ العالم" بعناصر نالية برزت من خلال دراسات الخصوصيات القومية المتميزة لآسيا وإفريقيا: أهمية "النمط الشرقى فى الإنتاج" فى الإطار للعام للتقسيم الدورى للتاريخ الإنسانى إلى خمسة أنماط أصولية للإنتاج^(٥٢) وشرح الإمبريالية الاستعمارية الذى يصف تناقضاتها الداخلية والتى تعد السيطرة الوحشية والقمع والجمود اللذين يصاحبان هذه السيطرة هم ملمحها الأول الرئيسى وذلك دون تجاهل ملمحها الثانوى الذى يعد فى الوقت نفسه ملتصحا واقعيا بنفس الدرجة، وهو بالتحديد ظهور عناصر جديدة فى المجتمع وهذه العناصر هى ما أشار إليه ماركس عندما يحدث عن الشخصية المزدوجة للإمبريالية البريطانية فى الهند^(٥٣)

ثم ظهور حركات التحرر القومي في المستعمرات بوصفها حركات أكثر تقدما، من حركات العمال في أوروبا - ونحن هنا نتكلم بموضوعية - ثم أهمية ما يسمى بالروح القومية،^(٥٤) وكذلك ظهور نمط ثالث للأمة (بعد النمطين اللذين حددهما ستالين، فأدخل المجموعة الأفروآسيوية طبقا لدرجة تماسكها عبر التاريخ وعالمية الفكر الماركسي)^(٥٥) والدور المختلف لعنصر العمالية الذي يميل إلى أن يصبح عنصرا مركزيا للقوى الشعبية والشعب وليس فقط مركزيا لطبقة مهيمنة.^(٥٦)

ولكن الصيغة السوفيتية الرسمية بعد المؤتمر الحادى والعشرين للحزب الشيوعى كانت أكثر تقليدية، وقد برزت مجموعة المشكلات والظواهر الكثيرة عندما أخذت الدول الكبيرة فى الشرق تضرب فى طريق التنمية السيادية وخاصة كفاح الطبقة العمالية لرفع مستويات معيشتها، ودور هذه الطبقة فى عملية التصنيع فى الدول المتخلفة من وجهة النظر الاقتصادية ومشاركتها فى الحياة الاجتماعية والدولة ككل، ودراسة المشكلات المرتبطة بالتمييز الطبقي بين الفلاحين وبالتطور الرأسمالى المتسارع وللزراعة ونتائجه، ومشكلات صراع الطبقة العمالية من أجل الهيمنة فى قلب الجركات الفلاحية، وكل هذه العناصر مثيرة ومهمة بصفة خاصة ولسوف يسدد البحث الجاد فى ميدان خلق وتنمية الآداب القومية لدول أفريقيا وآسيا ضربة مميتة لنظريات المركزية الأوروبية، ومن أجل هذه الغاية تعتبر دراسة مشكلات التفاعل بين كتابات الشرق وكتابات الغرب ذات أهمية فائقة.^(٥٧)

ب - مناهج الدراسة والبحث:

ينبغى قبل كل شئ أن نحدد "اتجاها جديدا نحو مشكلة العلاقات بين الاستشراق وكل علم من علوم الإنسانية، على أن يتم تصور كل منها داخل طابعه العالمى الشامل لكوكبنا الأرضى، وسواء كان هذا العلم هو التاريخ أو الاقتصاد أو علم الاجتماع أو الآداب أو علوم اللغة، فإن المنظور يجب أن يكون هو الدراسات لاسيما وذلك توجه هذه الدراسات نحو ما يمكن أن نسميه (القانون العام) فى كل فرع من فروع المعرفة. ويستمر شينو قائلا:

إننا لا نستطيع التهرب من عقبة اللغة، ولا من الميراث الاجتماعى من العادات والتقاليد، ولكن بمجرد أن تنزل هاتان الصعوبتان يجب أن نكون قادرين

على الاقتراب لمنهج واحد وبإشكالية مشتركة من البورجوازية الإيطالية أو البورجوازية الإندونيسية أو من تحليل الـ (أو نهضة الأدب الصيني سنة ١٩٢٠) ومن دراسة الاقتصاد البريطاني في سياقه القارى أو الاقتصاد الهندى منذ الاستقلال، ولن يفيد هذا التوجه الدراسات الآسيوية فحسب، ولكن سوف يسمح أيضا بوضع أساس عالمى حقيقى لكل علم من علومنا الإنسانية التى اشتق جهازها المفاهيمى وعناصرها الأساسية فيما سبق، وبصورة خالصة من دراسة أوروبا الغربية مع استثناءات نادرة للغاية.

ومع ذلك فإن فكرة وجود خصوصية عامة معينة نسبتها إلى كل المحيط الأفر وآسيوى لا تزال تقاوم.

وعلى أية حال فإن منظور العالمية وتطبيع الدراسات الآسيوية تستبعد حاليا إمكانية أن هناك مقاومة اليوم للعلاقات الفعلية الوثيقة والصلات الموضوعية بين دول آسيا.^(٥٨) ويكفى اسم باندونج لتأكيد هذه النقطة، ولكننا يجب أن نذكر دائما وبعناية أوجه التشابه التى لا تزال حتى اليوم فى التطور المعاصر لدول آسيا (وأفريقيا) وهى أوجه تشابه لا تزال حتى اليوم تميز هذه الدول بوضوح عن أوروبا، ومع ذلك فهذا شئ يختلف تماما من وجهة النظر المنهجية عن منظور الأفكار والمصطلحات التقليدية للاستشراق، لأن هذا شئ يتناسب تماما مع الوحدة المنهجية فى دراسة مجتمعات الشرق والغرب.^(٥٩)

ولقد كان تجاهل الشرق موضع استنكار مفكرين لاسيما من جانب نيدهام واتيايل،^(٦٠) فالفلسفة التى تدرس فى الجامعات الأوروبية حتى مستوى التخرج والدكتوراه هى فلسفة أوروبية بصفة جوهرية، ومع أن الفلسفة الصينية تمثل ما يقرب من ثلاثة آلاف من التطور المستمر،^(٦١) ورغم أن الفلسفة الدينية والأساطير المصرية هى التى مهدت وبعمق للفلسفة اليونانية، فإن الفلسفة الشرقية فى العصور الوسطى كانت مختلفة للغاية عن مجرد "الانتقال البسيط للتراث اليونانى".^(٦٢) وقد أثمرت مثالية الفكر الهندى حضارة واسعة متعددة الأبعاد والألوان، وبوسع المرء أن يقول نقل ذلك عن تاريخ العلوم لاسيما الرياضيات والبيولوجيا والطب والفلك،

ولقد بدأت أوروبا الآن فقط تكتشف الأدب التقليدي لآسيا وإفريقيا وذلك بفضل أعمال اللجان القومية المختلفة لليونسكو بوجه خاص، ومع ذلك فإن آداب الفترة الحديثة لا تزال في الغالب مجهولة كلية.

وإن فسوف يوضع التركيز على أولوية دراسة الحاضر، أى على عملية تطور المجتمعات الشرقية فى الحقيقة الحديثة والمعاصرة^(٦٣) ويجب أن تصبح الدراسة الأكثر تعمقا للمشكلات الجارية للفترة المعاصرة ودراسة مركزية وأصلية ويضيف المؤلف السوفيتى على الفور قائلا: "إن هذا سوف يساعد على إيجاد حلول خلاقة فى المستقبل لمشكلات السياسة الخارجية السوفيتية بالنسبة إلى دول الشرق وهى ما يجب أن يكون مسألة شرف بالنسبة للمستشرقين^(٦٤) ويوضح المؤتمر الخامس والعشرون للمستشرقين فى موسكو النحو النمو السريع للدراسات الحديثة بين المستشرقين التقليديين كما أن ازدهار الأجزاء القومية، كان دليلا لا يمكن حظه على الظهور أمم ودول لم يعد فى المقدور تصفيفها تحت عناوين "تمطية".^(٦٥)

وعلى أية حال فلا يتأتى إحداث هذا التغير الحاسم والمصمم فى الوزن النسبى لكل من القطاعين "الكلاسيكى" و"الحديث" فى الدراسات الشرقية على حساب الماضى.

إن نيدهام كتب يقول إننى لا أنوى مطلقا التقليل على أى وجه من الوحدة من التحسن غير العادى الذى أحدثته الحكومة الصينية الحالية تحت قيادة الحزب الشيوعى فى أصول الصينيين، ومن ناحية أخرى فسوف يكون من الصعب على الغرب فهم هذا العمل إذ فقد الغربيون رؤيتهم لبعض الخصائص السلفية للحضارة الصينية التى يقفون إزاءها فى حالة جهل مؤسف، وفى الواقع فإن الكتاب المعاصرين أنفسهم يميلون أحيانا فى سياق رغبتهم فى إبراز التجديد العميق والنهضة اللذين تمر بهما بلادهم إلى فصل واستبعاد ماضيهم إما بالتشديد على أكثر جوانبه اعتبارا مثل خضوع المرأة أو جشع كبار ملاك الأرض أو بالمبالغة فى تقدير فلسفة الفن فى الفترات الماضية، ويشبه ذلك قطع فرع الشجرة الذى يجلسون فوقه.

إن بقية العالم فى حاجة - وهذه حقيقة - إلى أن تعلم وبكل تواضع عن الصين فى كل عصورها - وليس عن الصين المعاصرة فحسب، لأن العالم سوف يجد فى الحكمة والتجربة الصينيين أطباء للعديد من أمراض الروح، كما سيجد عناصر لا يمكن الاستغناء عنها لصالح مستقبل فلسفة البشرية كلها.^(٦٦)

وبطبيعة الحال فإن المفهوم الماركسى للتاريخ والمنهجية المصاحبة لهذا المفهوم هما اللذان ألهما الجزء الكبير من تلك الأعمال، ومع ذلك فمن الواضح أن باحثى الجزء (القطاع) الاشتراكى قد تفهموا أيضا البارزين من الماركسيين مثل نيدهام - الذى يقف ضمن التيار المعارض للعقلانية الفلسفية.

وعلى أية حال فقد استدعت متطلبات العمل الإجرائى - ولاسيما إعادة التجميع من المستشرقين الجدد فى الجزء (القطاع) الاشتراكى وخصوصا فى أوروبا الغربية - أن يكيفوا أنفسهم مع مناهج غير عقلانية إذ أنهم يسترجون بصفة خاصة نحو نوع من الفلسفة الظاهرية (الفينومينولوجيا) التى تقصح عن نفسها من خلال التركيز على سلم الأنماط القريب مباشرة من البنائية الذائعة حاليا، ولقد شوه ذلك الدقة العلمية والاتجاه العام للعمل الأصولى، التى يجب أن ننقب عند بير منقفى دول الشرق فى سياق نضالها من أجل حريتها وتقدمها.^(٦٧)

ج - أدوات الدراسة والبحث:

لا تمتلك الدول الاشتراكية والاتحاد السوفيتى بصفة رئيسية فى حوزتها ما تملكه القوى الاستعمارية من مصادر المادة البحثية سواء كانت هذه المصادر مباشرة أم وسيطة، ولكن العلاقات التى توثق بازدياد بين الاتحاد السوفيتى والحركات والدول الأفروآسيوية بعد مؤتمر باندونج بصفة خاصة أدت به - من ناحية أخرى - إلى مباشرة جهد هائل وصادق فى ميدان الاستشراق الحديث، ويعد معهد الشعوب الآسيوية هو أكبر معهد من نوعه فى العالم بعد أكاديمية العلوم، كما أن كل الجامعات تدخل الدراسات الآسيوية والإفريقية والأمريكية اللاتينية فى برامجها الدراسية، كذلك أسست صحف ومجلات علمية مهمة جديدة،^(٦٨) وتضم كل أكاديميات العلوم فى كل جمهوريات الاتحاد السوفيتى كل على حده أقسام لو

مجموعات مخصصة لهذه الدراسات، ويتراوح عدد الأفراد العاملين في هذا الميدان اليوم (١٩٦٢) بين ١٨ ألف و ٢٠ ألف شخص بينهم المحاضرون والباحثون والمساعدون الفنيون والمترجمون وأمناء المكتبات الخ. كما تصدر واحدة من دور النشر المتخصصة في الدراسات الشرقية كتابا كل يومين أو كل ثلاثة أيام وتسير الدراسات الحديثة بالتوازي مع الاستشراق الكلاسيكي الذي أوفى به في روسيا الأمس، وفي ١٩٥٩ تأسس المعهد الأفريقي في نهاية المطاف تحت إشراف الأكاديمي أ. بوتيكن.^(١٩) لقد تغيرت الوضعية العلمية للدراسات المعنية بالشرق الحديث والمعاصر في غضون بضع سنوات، وقد تحقق التغير بسرعة، وهكذا لم يعد من الممكن أن يصبح المرء منغمسا في هذه الدراسات دون معرفة باللغة الروسية واللغات الأوروبية التقليدية وواحدة من اللغات الشرقية العديدة.

إن ما على الباحثين الدارسين العلمي في دول الشرق المختلفة ليس فقط معروفا ولا مقدرا ولا أخلاقيا في المقررات الدراسية - وهي كلها أمور لا تحتاج إلى الإشارة إليها - ولكن أيضا اكتساب مكانة ممتازة كما يجب أن نكون، ويشير شيسنوبين آخرين إلى مشكلة أهلية الأجنبي لدراسة الوقائع الاجتماعية المعاصرة بنفس فرص النجاح المتاحة للوطنيين، ثم يمضي قائلاً إنه من الواضح أن الوطنيين في الواقع لديهم ميزة بسبب معرفتهم باللغة وألفتهم لكل عادات وتراث الشعوب الآسيوية، وإذا ما أخذ هذه الحجة إلى نهايتها يجرى تساؤل حول ما إذا كان من المعقول أن تعتبر دراسة المشكلات المعاصرة وبحق دائرة اختصاص الوطنيين ومن أنه كلما كان موضوع الدراسة راجعا أكثر فأكثر إلى الماضي كلما سهل على غير الآسيويين أن يقدموا إسهامهم، ويبدو شيسنو في هذه الغنيمة ملتقيا مع وجهة نظر هـ. أ. ر. جيب التي أوردناها آنفا: يقول جيب:

"إذا كان بوسع المرء هنا أن يتحدث عن ميزة وطنية لا يستطيع الحديث عن احتكار وطني ما دام الاهتمام منصبا على دراسات العالم المعاصر إذ يستطيع الغرباء القادمون من بعيد من خلفية اجتماعية وثقافية مغايرة غالبا أن يدلفوا وبسرعة وبوضوح فكر أصيل إلى حياة الشعوب الأخرى، وعلى سبيل المثال فإن

الدراسات الأنجلو ساكسون تعد من أفضل الأعمال عن الحياة السياسية في السنوات الخمس الأخيرة.^(٧٠)

ولكن السياسة الثقافية لصين اليوم أقل انفتاحا أمام الباحثين الأجانب، وأول شئ يتعين ملاحظته هو أن البحث الأكاديمي بواسطة الأجانب بالغ الندرة، والسبب هو أنه من الصعب تمييزه عن التجسس، والفكرة المركزية هي أن الأجانب ليسوا قادرين على فهمي، فالدراسات الصينية تخص الصينيين، مع ذلك فإذا كان من الممكن أن تجرى الدراسات من خلال استخدام مواد بحثية ووثائق رسمية وبمساعدة الفحص عن كتب فإنه ربما يكون من الممكن إذن تناول موضوعات أكثر حساسية، ولكن إذا تضمنت الدراسة الملاحظة المباشرة في الميدان دون خطر واضح وإذا تطلبت وصولا مفتوحا إلى الناس وتطلبت عملا مستقلا فإن العقبات حينذاك سوف تنشأ في مواجهة أى باحث خلال الأجانب الأكثر ضمانا من الناحية الأمنية.

ولربما يظهر للوهلة الأولى أن علم الآثار على سبيل المثال ليس ميدانا سياسيا دقيقا، ومع ذلك يراجع على ص كجزء من دراسة كنوزهم القومية ومتضمننا كما هو حادث فعلا التفسير المأذون به رسميا لتاريخهم الخاص... وهنا سوف يستعيد المتخصص الياباني الطبيعة الرقيقة للغاية لعلم الآثار في يابان ما قبل الحرب.

على أية حال يشير مؤلف هذه الدراسة الأمريكي^(٧١) إلى المساعدة الكبيرة والذكية التي قدمت لنيدهام، وقد حظى كل من ج. شيسنو و ر. داموننت وجينز وك. ب. فيتزجيرالد (من نيوزيلندا) وس. شاندراسيكار (من الهند) بفروض اتصال مفتوح ولكن مع درجة رفض أكبر نوعا من حالة نيدهام. وقد كان اتجاه الزعماء الشيوعيين وجمهورية الصين الشعبية هنا أكثر اقترابا من اتجاهات الدول القومية المستقلة في آسيا وأفريقيا منه إلى اتجاهات الدول والحركات الاشتراكية في أوروبا.

كذلك يجب أن تتغير طبيعة الباحث العلمي نفسها تغيرا جذريا، إذا أن دراسة الغرب الكلاسيكيين في العصور الوسطى أو دراسة أسرار الإسلام لا تنهض عادة لمواجهة قضية الاختلافات فيما بين قطاعات البرجوازية في هذه الدولة العربية أو

تلك، ولا لمواجهة مشكلات الأدب الواقعي العربي منذ ١٩٤٥ أو أيديولوجيا الحركات القومية أو الديموقراطية، ذات المكونات المختلفة.^(٧٢)

وقد دفع تطبيع الدراسات الشرقية الحديثة قضية تماسك وعمق التعليم التخصصي في قطاع وآخر من العلوم الاجتماعية: الاقتصاد - القانون - التاريخ - علم الاجتماع - علم السياسة، الفلسفة، علم الجمال... الخ. إلى الخط الأول، على أن ذلك يجب أن يكون مقرونا بدراسة سريعة، ولكن كافية بدرجة معقولة، للغة الدولة أو القطاع كل الدراسة، ويجب دراسة اللغة كما هي في الحقيقة الحديثة في شكلها الذي تكتب به والذي يحدث به الناطقون بها في حياتهم اليومية، ولهذه الدراسة اللغوية هدفان؛ فمن ناحية هي تستهدف جعل الحصول المباشر على المادة البحثية الأولية ممكنا، ومن ناحية أخرى تستهدف تسهيل المنهج النفسى والاجتماعى للحياة اليومية في تلك الدولة، وقد استغرق هذا التكوين المزدوج في الاتحاد السوفيتي ثمانى سنوات، بينما يتم التزويد بتدريب لغوى مكثف في الولايات المتحدة عندما تكتمل الدراسات التخصصية،^(٧٣) وفي هذه النقطة تماثل الاهتمامات الأنجلو ساكسونية اهتمامات القطاع الاشتراكي الأوروبي، كما أنها في جوهر الأمر تماثل رؤية دول الشرق نفسها واقعيا.

لقد حان الوقت إذن لإحداث عملية إعادة القومية الضرورية، وفي وسعنا أن نرى وبموضوعية أن القطاعات العديدة في الاستشراق المعاصر قد بدأت هي نفسها في السنوات الأخيرة تعترف بهذه الحقيقة الحتمية.

(١) حول التاريخ العام الاستشراق التقليدي حتى عام ١٩٦٢، وحول العالم العربي والإسلامي خاصة، هناك مصادر كثيرة، انظر منها

V.V. Barthold, la de'couverte de l'Asie hisroire de l'Orientalisme en Europe et en Rusie (Paris, 1947)
ولا نجد أية إشارات في كل من :

Enaydopedia de l'Islam:

Enaydopedia dia Britannica: "Drientalistika" encyclopidic sovietique vol (Moscow, 1951) pp. 193 – 202:

G. Vacca. "Drientalismo", Enciclope dia italiana di scienze lettere ed arti (Rome, 1935) XXV p. 537; G. Levi della Vida, per gli studi arabi in Italia, Nuova Antologia (Dec. 1912) pp. 1.10; A. BAUSANI Islamic studies in Italy in the XIX – XX tc. Centuries' East and west, vol, VIII (1957) pp 145-155.

Z.M. Holt The origin of Arab studies in England, Al-Kulliyya (Khartoum, 1952) no1, pp. 20-27.; A.J. Arberry, Driental essays (London, 1960); M. Horten, Die probleme des Orientalistik; Bratage sur kenntnis des orient, vol XIII (1916) pp. 143-61. G. German us, "Hungarian Orientalism- past and present, in do – Asian culture, ol VI (1957) pp. 291-288; L. Bouuar, les hongrois et les etudes musulmanes resue du monde musulman, vol I (1807) no 3 pp. 350-324.

نجيب العفيفي. "المستشرقون" (القاهرة ١٩٤٧) أ. داغر. دليل الأعراب إلى المكتوب وفن المكاتب" (بيروت ١٩٤٧) فهرس المكتبة العربية في الخافقين (بيروت ١٩٤٧) ص ١٠٥ – ١١٢.

مصادر الدراسة الأدبية الجزء ٢ ١٨٠٠ – ١٩٥٥ (بيروت ١٩٥٥) ص ٧٧١ – ١١٨

Y. Fueck, Die arabischen Studien in Europa (leipseig, 1955)

وغيرها من المصادر

"Drientalist" in Grand Larousse ency dopedigue (٢)

(Paris 1963) Vu 1003-1004.

(٣) نشير هنا إلى العمل الشير الذي تم الاحتفاء به .

Paideia, Die formung des gries chischen mens chen, val

والذى لخصه H, Guidi على النحو التالى :

(Berlin , leipzig, 1934),

إن أى توسيع للألف التاريخى، لا يغير فى حقيقة أن تاريخنا يبدأ مع اليونان .. ومثل هذا التاريخ لا يمكن بالضرورة أن يتخذ من كوكبنا بأكمله مجالاً له، ولكنه يقتصر على الشعوب المتمركزة حول الهيلينية طالما أن تلك الشعوب هى التى ورثت عن اليونان، مبدأ الثقافة الحق .. وليس من الصعب أن نستخلص النتائج العلمية لهذه الصيغة النظرية : وهى القمة المطلقة والمركزية للحضارة اليونانية كمصدر أبدي ووحيد لعوامل تشكيل ثقافتنا وللتشنة والتربية ... أى أنها هيومانية شاملة

Guidi, trois conferences sur quelques problemes generaux de l'orientalisme in Annuaire de l'institut de philologie et d'histoire orientales – volume offert a Jean capart (Brussels, 1933) pp. 171 – 172

(٤) التشديد لنا .. والمقصود بالإحالة التى الذات، أى الذات الأوروبية

M. Guidi Trais conferences pp 131-180 (٥)

فى عام ١٩٥٤ عرف الاستشراق على النحو التالى . ليس المستشرق هو ذلك الباحث الذى يقصر مهمته على إجادة بعض اللغات غير المعروفة، أو وصف العادات الغربية لبعض الشعوب : لكنه القادر على الجمع بين معرفة بعض جوانب الشرق، ومعرفة القوى الروحية والأخلاقية التى أثرت فى تكوين الثقافة البشرية، إنه الشخص الذى استفاد بتعاليم الحضارات القديمة ، والقادر على تقييم دور العوامل المختلفة التى أسهمت فى تشكيل حضارة القرون الوسطى أو النهضة (علم الشرق وتاريخ العمران) الزهراء ربيع أول ١٣٤٧ هجرية (أغسطس / سبتمبر ميلادية ١٩٢٨) أورده داغر فى المصادر م.س ذ ص ٧٧١.

(٦) حول تعريف التمرکز حول الذات الأوروبية انظر على سبيل المثال

J. Needham le dialogue entre l'europe et l'asie: comprendre no 12 (1954) pp1-8

ومقدمة مؤلفنا

Egypte societe mipiraire (Paris 1962) pp. 9-13.

R. Schwab, l'Drientalisme dans la cuprure et les litteratures de l'ocuident (٧)
moderne, Driente moderno, vol XXXII, no 1-2 (1952) p 136.

A. J. Arberry Driental Essays. (٨)

Dagher ٧٨٠ - ٧٧٩ م س ذ مصادر ص (٩)

J. Bersue, "Cent vingt - cing ans de sociolosie meghrcbine" Annales, (١٠)
Vol XI, no 3 (1956) pp 299-321.

(١١) أو ليست الدراسات العليا والاستشرافية والفيلولوجية والتاريخية هي من أثنى المساهمات في
سياسة إيطاليا للتوسع الاستعماري ؟

(A. Caboton, l'Drien talisme musulman et l'Italie moderne, Revue du monde
musulman, vol. no 27 "1914" p. 24)

لا شك أننا نذكر جميعا المقدمة التي أوردها لورنس في أعمد الحكمة السبعة والتي كشف بها عن
كشف فيها عن لعبته حينما كتب يقول " إن دمشق لم تكن جرابا لسيفي حينما حلت في الجزيرة
العربية : ولكن أخذها كشف عن تبدد الدوافع الرئيسية لعملي . كان الدافع الأساسي شخصيا، وإن
لم اكشف عنه هنا، إلا أنه كان واضحا أمامي طوال هاتين السنتين .. قد تتصاعد الأحزان
والمسرات ولكن الحاجة الضرورية سرعان مما تتجد وتفرض نفسها وتبقى هي العامل الأساس
في الحياة حتى النهاية . وقد ماتت قبل أن تصل إلى دمشق " وقد زاد على هذا ما قامت به الإدارة
الفرنسية . فمن القناصل المغامرين، إلى القيادات الطوبوية التي أقامت السكك الحديدية، مروراً
بالرحالة الرومانسيين لامارتين وبارس، أقامت فرنسا في الشرق صرحاً، على أساس المعارف
العلمية لكل من شامبليون وسامى ورينان . وقد تجاهل العرب في هذا الوقت ماضيهم، وتكبروا
للغتهم الراقية وولد الاستشراق المعاصر من قلب هذا الفراغ .. كان من الممكن أن يؤدي كشف
وإحياء هذه الثروة الروحية إلى إثراء موارد المسيحية وخزائنها الخاوية . انظر مثلاً إلى القبائل
العربية وإلى البدو عموماً فقد أدخلهم الاستشراق قسراً تحت ثلاثة أشكال من السيطرة السياسية
مرحلة (المكتب العربي) في الجزائر حتى حوالي ١٨٧٠ وهي مرحلة فرنسية، ومرحلة (ثورة
الصحراء) التي شهدت انتصار علماء بريطانيا في الشرق الأدنى، ثم التوسع الحالي المرتبط
بالنفط .

(Y. Bergue, "Perspectires de l'Drientalisme contemporain". Lbla, vol. xx
(1957) pp. 220 - 221.)

فى عام ١٨٢٢ اقترح مؤسسو "الجمعية الآسيوية" الفرنسية أن تتاح للمؤرخين الفرصة لشرح حضارات شعوب الشرق القديمة وجمع الوثائق الثمينة حول العمليات الدبلوماسية فى الشرق والتجارة عبر آسيا . وقد طرحت على المستشرقين أسئلة من بينها هل للأوروبيين مصلحة فى أن تنص اتفاقاتهم على إعطاءهم الحق فى الإقامة بداخل الصين، بغية الشراء مباشرة من منتجى الحرير، وإقامة الفروع والتجارة ؟ وما هى مصالح ومضارب جلب الحرير الصينى إلى بلدان أجنبية ؟

نص أورده J. Chesnau فى

"La recherche marxiste et le rereil contemporain de l' Asie et L' Afrigue"

La pensee no. 95 (jon – feb. 1961) pp. 4-5.

(١٢) حول للتصنيف العرقى انظر

M. Rodinson "L' Egypte naserienne au miroir de marxiste." Le temps modernes, no. 203 (april 1963) p. 1828-65.

J. Belgue a L. massignon, dilaogue sur les Arabes" Esprit vol XXVIII no (٢) 280 (1960) p.106.

وحو للعلاقات بين الاستشراق والاستعمار انظر لوى ماسينيون لقد كنت أنا نفسى من المستعمرين للمتحمسين فى ذلك الوقت، وقد كتبت إليه معبرا عن أملى فى فتح مسلح سريع للمغرب، وقد رد بالإيجاب (خطاب رقم ١ من أن صلاح ٢٠ أكتوبر ١٩٠٦) صحيح أن المغرب فى ذلك الوقت كان فى حالة بالغة للصعوبة . ولكن خمسين عاما من الاحتلال بدون ليونيه ومثله الفرنسية / المسلمة العليا ، لم تكن لتترك الكثير الذى يستحق الذكر .

L. Mossignon. "Foucaulat au desert, deront le Dieu d'abraham, Agar et Iesma' "Les mardis de Dar- es – salam (1929) p. 58

(١٤) وردت انتقادات محددة فى

UGC Report of the sub – committee on Driental, Sleronic, East European and Atrican studies (London, 1961) تحت رئاسة سير William Haytcr إن

دراسات الشرق الأقصى الحديث هى كتاب مغلوق فى معظم كليات التاريخ أو العلوم الاجتماعية (٢٨) وقد أدى انغلاق أقسام اللغات وعدم اهتمامها بالدراسات واللغات الحديثة إلى نتائج غير موفقة .. وفى كتاب حديث هو

Etudes d'Dnentalisme didiees a la memoire de l'evi-provensal

(Paris, 1962, 2 rels)

يضم ٦١ مقالا، تعرض ثمانية منها فقط للفترة الحديثة، فضلا عن ثلاث مقالات ذات طابع بيبليوجرافى .

Chesnaux la recherche p5.

(١٥)

(١٦) عمر الدسوقي (فى الأدب الحديث) للطبعة الثالثة القاهرة ١٩٥٤ ص ٣٢٥ - ٣٢٦ داغر، مصادر .. ص ٧٧٩ ، ن. العفيفى المستشرقون ص ٢٠٧ - ٢٠٩، محمد حسين هيكل، حياة محمد مقدمة الطبعة الثانية، والطبعة السادسة القاهرة، ٦٠-٦١، أنور الجندى. (الأدب العربى الحديث فى حركة المقاومة والتجمع من المحيط إلى الخليج) (القاهرة ١٩٥٩ ص ١٠٦ - ٤٠٦) والفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب والتبعية الثقافية) (القاهرة ١٩٦٢) ص ٢٧١ - ٢٨٥ :

(١٧) وخاصة معهد المخطوطات العربية الذى أسسه الأستاذ صلاح الدين المنجد فى الجامعة العربية، ومجلة المخطوطات العربية التى صدرت فى القاهرة منذ عام ١٩٥٥، وتأسيس معهد البحوث الإسلامية فى جامعة الأزهر الذى يرأسه الأستاذ عبد الله العربى (الأهرام ٢٣ نوفمبر ١٩٦١) كما يشار أيضا إلى جهود الترقيم فى وزارة الثقافة والإرشاد القومى وخاصة على يد فتحى رضوان وحسين فوزى و ثروت عكاشة وقد بذلت جهود مماثلة فى سوريا والعراق خاصة . وفى مصر، بذل الفيلسوف الوجودى عبد الرحمن بدوى جهدا خارقا فى تجديد ودفع العديد من الأعمال حول الفكر الإسلامى، فى حين انصبت جهود باحث الفيلولوجيا مراد كامل على تمحيص المجالات القبطية والآثيوبية والسامية .

(١٨) تبلورت على يد J. Berpue رؤية نقدية شاملة فى كل من

Le meghreb entre les deuxguerres

وفى محاضراته بالكوليج دى فرانس . انظر أيضا

J. P. Alaish "The connection of Driental studies with commerce art and litrature during the XVIII th and XIXI centuries, jovrnal of the manchester Egypt and Drient society, vol XV (1930) pp. 33-39, J. Chesneaux, "French Historiosraphy and the cvolution of colonial victnam in D.G.E. Hell, Historical Writing or the peoples of Asia - Historians of South East Asia (Oxford - London, 1961) pp. 235-244.

(١٩) انظر م. خالدى وع. فاروق (التبشير والاستعمار فى البلاد العربية) (بيروت ١٩٥٣)

(٢٠) حول هذا المفهوم فنظر

R. Malarious le jeunesse intellectuelle d' Egypte au lendemain de la
deuxieme guerre mondiale (Paris 1960) la risien du prableme colonial par le
monde afro- asiatique

(٢١) جاك بيدك في أصدقاء النهضة العربية، وقد لعب دور الوسيط بين الثقافتين وأنشاد بكثير
من متقينا. وإنى لأشكره لإشارته إلى أعمال عدة مرات (خاصة المؤلف المشترك مع محمود
أمين العالم) كما أشد بكتاب مدرسة الواقعية المصرية في كل من محاضراته في كولييج دى
فرانس ومقاله.

"L'inguietude arabe des temps modernes," Revue des etudes islomigues vol
XXVI no 1 (1958) pp 87-107

les Arabes p 102 إضافة إلى كتابة

(٢٢) على الرغم فى من E. Renan هو الذى نظر فى فرنسا للاختلاف بين السامية والآرية، إلا
أن اللغة الأولى لنى من الثانية على كافة المستويات

Histoire generale et systeme compare des langues semitigues pt. 1 (Paris
1855)

وقد استمد D. Kimson آراء رنيان فى كتابة :

Pothologie de l' Islam et les moyens de le detruire (Paris 1897)

وقد واصل الكتاب العرب لحتاجهم على هذه النظرية

(٢٣) للصفحات ١٠-١١ وليس هدفنا هنا هو تقديم تحليل نقدي لهذا الكتاب

Le meghred p. 8. (٢٤)

Perspectires p. 237 (٢٥)

(٢٦) عرض النتائج النظرية فى 'L' "Expression et signifie lion dans lane orabe"
homme, vol 1 no 1 (1961) pp 50-67.

Report of the interdepartmental commission of enguiry on drienal, (٢٧)
slavonic, east european and African Studies (London, 1947), commentary
by A. J. Arbetry, Drienal Essays, pp. 240-24 P. analysis in Hayter Report
p.6-40.

Hayter pp. 45-52(٢٨)

(٢٩) المصدر السابق ص ٥٢-٦٢ . وقد تعرض الجزرال P. Rondot لموقف الولايات المتحدة من الشرق المعاصر في 31-80 p 18-52 x n3 p 18-52 (orient no 1967) مشيراً إلى الدور الذى لعبه تأسيس ، المؤسسات ومدارس اللغات والمدارس الدينية فى الشرق الأدنى ، فى السفارة الأمريكية ببيروت والجامعة الأمريكية بكل من بيروت والقاهرة (والأخيرة هى المؤسسة التعليمية الأجنبية الوحيدة فى مصر) وتقدم جامعة ميتشجان أن لرب الهنك من وراء نشر برامجها للبحثية حول الشرق الأوسط على النحو التالى (١) تعريف أكبر قدر ممكن من الأمريكيين بالشرق الأدنى (٢) لترويج فكرة أن الولايات المتحدة مصالح وثيقة الارتباط بـماضى ومستقبل المنطقة (٣) تشكيل جماعة متميزة من الخبراء الأمريكيين حول الشرق الأوسط على أن الكتب يرفض استكمال جوانب الصورة . انظر

R. Beyly windsor, Arobic and Islamic studies in the U.S. Middle East forum,
no 31 (June 1856) pp. 19-22

An Interpretation of Islamic history, cahiers d'hisreire morrdiele vel (٣٠)
(1951) pp. 39-52.

(٣١)

bur l'etude des societes orienteles contemporaines" collopie sur la
sociologie musulmane, actes. 11-14. Sept 1961 brussels, 1962)

من غير الطبيعى أن نجتمع للبحث فى أمر مجتمعات الشرق فى غياب زملائنا الشرقيين . وهذا الأمر يستوجب وقته .. إذ أن التفسير يتجاوز الظروف السياسية، ويرتبط بمناهج وأهداف دراستنا (٨٥) أن غياب زملائنا الذى يؤسف له، لا يعود إلى اللظرف السياسى كما قد يظن البعض ، ولكنه مرتبط بالضيق والجرح فى طبيعة العلاقات بين المجتمعات التى ندرسها حالياً ومجتمعاتنا، إلا أننا لا نخطئ بوصف أنفسنا كذلك .

le probleme des echanges culturels etudes levi – تشير بشكل خاص إلى
provençar vol I pp 41-151

والذى يقدم ملخصاً لأعمال للكتب خاصة

unity and veriety in moslem linilisation (chicago, 1955) W. Hartner.
Klassizismus und kulturverfell (frenkfurt, 1960); An analysis of Islamic
ciriliation and cultural onthropology, in actes, op cit pp. 21-27.

(٢٤) ويكتب المؤلف في هذا الصدد أن الفوضى السيميائية أمر غير حقيقي والهروب من الحقائق للالتجاء إلى الألفاظ هو الأمر المتكرر . ويمكن عد الأخطاء التالية بعد ١٩٥٩ لستخدام لفظ (عدم الانحياز) بدلا من (الحياد الإيجابي) ولم يكن ذلك تعبيراً عن أن أحد الألفاظ عفا عليه الزمن أو أن الآخر أكثر ملائمة، وإنما لتوجهات السياسة المصرية عقب باندونج وفي فترة القمع في ١٩٥١ . (انظر مؤلفنا (مصر مجتمع عسكري) ص ٢١٩ - ٢٤٢) وعلى حين يقال (إطارات) في شمال أفريقيا، يقال في الشرق (كوادر) وتترجم structure إلى تركيب في الدراسات الفلسفية ولا تترجم أبداً إلى هيكل أو جهاز أو نظام . ومن المستغرب أن يدعو السيد عبد الله إبراهيم في خطاب له في أبريل ١٩٥٩ (إلى فتح الطريق أمام لغة عربية عصرية تعبر فيها الألفاظ عن الحقائق) (فكيف كان الأمر من قبل؟) فقد استخدم لفظ النقابات في القاهرة منذ ١٩٠٨ و (الجهاز الأساسي) والتركيب الأساسي في حيث أن (التركيب الأولى) تستخدم للإشارة إلى البنية العلوية، وقد تم إدخال هذه المصطلحات في فترة (١٩٣٩-١٩٤٩)، انتشرت بين الماركسيين المصريين إبان فترة التحرر الوطن وإعادة البناء .

L'Arabe moderne (Paris 1860 p 360).

انظر أيضا

M. Rodinsen (ahiels de l'drient contemporain (1950, 1962)

(٣٥) يقول بيرك إن تلك الأمم التي تسعى إلى التاريخ وإلى الحق في ضعة، غالبا ما لا تكون لديها أساما للتاريخ في جامعاتها (Dialogue p. 1508) ويمكن الإشارة في هذا الصدر إلى الجهود التي بذلت في العقود الماضية في جامعات القاهرة ودمشق وبغداد والإسكندرية . ففي عدد واحد من

proceedings of he royal socidy of historical studies

خصصت ٧٧ صفحة من ١٩٢ صفحة لدراسات (published 1952) Vol, I. Cairo Art
تاريخية بقلم م. صفوت، وجمال الدين الشبال .

كما يوجد كرسى للتاريخ الحديث والمعاصر في كليات الآداب والعلوم السياسية . صحيح أن هذا ليس بكاف. انظر نقد التاريخ العرب في

The uses of history by modern Arab writers Middle East journal vol XIV,
No 4 (1960) pp. 382-386.

ونشير هنا إلى أن ثمة محاولات كبيرة للفهم، في البلدان التي لم يكن لها ماضى استعماري تقليدي مباشر، حول ألمانيا انظر

L. Rothman, zur widerspieg lung des antiimperia listischon befreigungs be
wegung des arabischen volker in der burgerlichen deutschen historiographie,
Zeitschrift fur Geschi chtswissen scheft berlin, vol. x no 3 (1962) pp. 564-
74.

وحول أسبانيا

F. Cantera Burgos, los estudios orientales en la espana actual, in Oriente
moderno, vol XXXV no 1 (1955) pp 236-247.

Perspectives de l'Orientalisme p 218-232. (٣٦)

وقد طرحت الفكرة نفسها في ندوة بروكسل أن علم الاجتماع الاستشراقي ، يجب أن يسعى إلى
الاندماج مع المجتمعات الشرقية ، ليس من خلال المعرفة المرتبطة بالتوسع الاستعماري ، وإنما
بالمساهمة بالتحليل، ومن ثم في البناء الداخلي .

Actes, pp 458-459, H. Jraus – Eblbes hausen, Lslamic studies in post. War
Germony. Lslami culture, vol XXXVI, no 1 (1952) pp 51-56

وفي إسبانيا

Cantera burgos, los estudios orientales.

وفي بلجيكا

G. Ryckmans, L'Orientalime en Belgipue Revue generale belge no 23 (1947)
pp. 724-738

وفي إيطاليا

E. Rossi. "Near Eastern Studies In Italy" Meddle Eastern Affairs, vol VIII no
(1957) pp 57-60.

وفي فنلندا

P. Aelto, "Les etudes orientales en Finlande" Archir orientalny. No 19
(1951) pp. 79 – 84. Aable. Approches critigues d'une etude sociologipue du
monde musulmen contemporein Etudes, Brussels, vol I, no 1-2 (1962) pp 3-
10.

Lslam and modern hitory (princeton 1860)

(٣٧) وفى الاتجاه نفسه وسوف يسعد كثير من المسيحيين، إضافة إلى الكاتب، إذا ما أقدم كاتب مسلم على إجراء دراسة مشابهة حول المسيحية المعاصرة ويضم هذا الكتاب تحليلات بالغة الأهمية، ويعطى فكرة عامة عن الواقع الإسلامى فى أفريقيا وآسيا .

(٣٨) أن ميزانية مؤسسة أمريكية واحدة - مركز الشرق الأدنى بجامعة كاليفورنيا - لوس أنجلوس - تبلغ ستة أضعاف الميزانية السنوية لدولة أوروبية صغيرة .

(٣٩) يقوم عدد من الأساتذة العرب بالتدريس فى عدة جامعات أمريكية ويدير بعضهم الأقسام البحثية .

(٤٠) إن تحليل (المقالات والدراسات) الخاصة بالمقالات فى السنوات ١٩٥٢-١٩٦٢ فى مجلة Drient الحديثة، بالغ الدلالة، حيث لا يتجاوز عدد الكتاب من الشرق، أربعة من ٧٥ اسمها ويتعلق قسم كبير بنصوص حول الآداب والفكر والدين والسياسة فى بلدان . لكنها مجرد مواد للبحث" ويفترض أنها تتجاوز الانتماءات .

(٤١) Problems of middle eastern history (washington, 1956) in studies on the cirilisation of islem (London, 1962) pp. 342-343

وقد اختار الكاتب، تجاهل الدراسات التاريخية والسوسيولوجية فى الشرق الأوسط خلافا لـ

V. Heyworth - Dune introduction to the History of Educahon in Modern Egypt (London 1938)

W. Hontgomery watt Islam and the integration of society (London, 1861)

الذى استقبل بالصمت فى العالم العربى، رغم تطبيقه لمفاهيم منهاجهم

M. Rodinson Bilon des etudes mohomodiennes.

Revue historipue fesc. 461 (janmorch 1963) pp 169 -220.

(٤٢) على المستوى الأكاديمى مؤلفان لـ J. Austruy الذى بنى الطريقة عن جوهر المسلم على

أساس من الجهل التام باللغة والثقافة العربية Structure economipue et cirilisation

(1961) l'Islem face ou dereloppement economipue (Paris 1960)

وعلى المستوى الصحفى يصدر J. s. lasouture أحكامهما على الثقافة والدين: "هل يغمر للكاتب

تناوله للموضوع مع جهله بقراءة العربية ؟ وفى إشارة أخرى إلى بعض النواقص أنها لا تتعلق)

بالثقافة القومية (L'egypte en movvement (Paris, 1969 pp. 306-4) والكتاب يحفل

بالعثرات . وقد نشرت S. Lacauture فى ذات الوقت، وتقدم فيه أحكاما قاطعة حول الأدب

والفكر (Egypte (Paris, 1962) والجماليات، وتعطى الصدارة لأراء الكتاب الأجانب المقيمين

فى مصر والمجهولين تماما من الجمهور .. وهناك عدة أمثلة على ذلك (ولنتناول مثلا قضية الألب: إن غير الأوروبي الذى يجد نفسه فى قاعة للقراءة بالمتحف البريطانى أو بالمكتبة الوطنية الفرنسية والذى يسأل فى النهاية عن قيمة كل هذه الكتب، سوف ينظر إليه كمتوحش : ولكن هناك عوالم كاملة من الألب كالألب أيضا على سبيل المثال - لا يعرف عنها المتعلم الأوروبي العادى أى شئ . ألا يصبح هو الآخر متوحشا؟

وفى دراسة قصيرة عن

(Needhom. Le dialogue)

الاتصال فى الدولة النامية أدوات

C. Bremend. (communications vol (1962) pp. 56-67)

يعتمد الكاتب على تقارير الخبراء الأوروبيين، دون أى إشارة إلى أى أعمال من هذه البلدان

(٤٣) وقد صدرت المرحلة الأولى من هذا العمل فى

Islam et capitelisme (Paris 1966)

(٤٤) عندما قررت فى ذلك الوقت (١٩٥٠) أن أوجه أبحاثى إلى تاريخ البروليتاريا الصينية والطبقة العاملة بعد ثورة أكتوبر، والحرب العالمية الثانية، كان ذلك بمثابة رهان، وتعبير عن قناعتي بأنه من الممكن - ومن الضروري - دراسة تاريخ الصين المعاصرة إذا ما أردنا وضع الأسس لمنهجية علمية حقيقية .

Recherches sur l'histoire du mouvement ouvrier chinois mouvement social,

no 41. (oct 1962) p 1-12.

ويعكس موضوع الدراسة - الحركة العمالية - وليس الحركة القومية، استجابة لإشكالية الماركسية الأوروبية.

(٤٥) يمتلك الكاتب مكتبة فريدة من المؤلفات والكتب المرتبطة بالعلم والتكنولوجيا كما يتعاون مع

عدد من المتخصصين فى الموضوع فى caius college وهم Wane ching - ning, lu

gwei - djen. Ho ping - yu, kenneth robinson, rslao taien chin.

(٤٦) يشير W.Z. lagueur إلى أن مجلة الاستشراق السوفيتية sovetskae vostokevdena

قد ظهرت فى أبريل ١٩٥٥ إبان عقد مؤتمر باندونج . ويشير إلى الدور المحورى الذى لعبه كل

من B. G. Gafurov, A.I. Mikoyan (وكلاهما عضو فى أكاديمية العلوم واللجنة المركزية

للحزب الشيوعى و N.A.Mukhtidinov و A.F. Sultanov وهم من القادة ذوى الأصول غير

الأوروبية . كما يشير إلى بعض الكتابات ذات الأهمية، وخاصة كتاب

- E. A. Lebedev عن الأردن Contemporary perisa, contempo
 Rary syria (1956) A.N. Kotlov (1958)
 L.P. Belqev, American imperialism in saudi Arabia (1957)
 M. F. Gatarlin, Agrerian Relations in syria (1917) and the soviet vnion and
 the middle east (London 1989) pp. 168-186.
 ويتمثل أهم للكتابات عن الاستشراق الجديد فى الدول الاشتراكية (فى ١٩٦٢) فى
 M. Perrmen: The study of the Islamic middle east in the soriet vnion 1945 –
 1956, Report on current reasearkh (1947) p.p. 17-28, B.g. Gafurov
 Immediate tasks of soviet oriental studies, vestnik akademit neuke, vol, 9
 (1957):
 N.A. Mukhtidinor, Knorym uspekham sovetskogo vostokvedenea (moscou
 1957); M. Guboglu "lio ans d'erudes orientelesen uess 1917 – 1967 studia et
 acta Drientalire vol (1958) pp 281-316
 والذي يتحدث فيه عن انهيار (المقولة التروتسكية) حول نمط الإنتاج الآسيوى فى ١٩٣٤
 (ص ٢٩٥)
 La prima conferenza ponsovietica degli Drientalist, Teashent, 1- 11 juin
 1957, Driente moderno, vol, 38 (Feb. 1958) p 202.
 W.Z. Kagueur the shifthing line in soriet orientolgy, Problems of communis,
 vol. 5 (1956) pp. 20-16.
 R. Lowental, Russian meterials on islem and Islamic institutions selectire
 bibliography, Der islam, vol XXXII no 1-2 (1958) pp. 208-309, and
 "Russian marerials on arabs and Arab countries, a select bibl, Der Islam, vol.
 XXXIV (1959) p 174- 87; Dix and d'etudes orientales en pologne, Roesnik
 orjectal Istucziny, vol, 20 (1956) pp 7-14; Dix annees d'orientalime hongrois
 journal Asiehpu: vol 239 (1971) pp 211 – 27 les actes des journees
 scientifiques d'drientalime (prahe – Dobris) (20-15 June 1948); J. Reyhman
 les etudes orientales (islamigues) en pologne Studia et acta Drientalia. II
 1959 pp. 161 – 87 J. Kabrde, les etudes orientales en yougoslarive" Archir

Dorientalny, vol 25 (1957) pp 146-555, J Blaskovici les buts, l'organisabon et l'actinte de l'ecole orientalistipue tcheos lovapuie", Studia et acta, vo II (1978) pp. 61-9. K. Petracek. Les etudes arabes er is lemipues et le semirologie en tchecolreque Archir Drientalny vol 19 (1951) pp 98 – 107, J. Rypka, L'Dorientalis me en tchecos love quie ibid, pp 15 – 26; M. Guboglu, contributions romaines aux etudes orienteles: ibid, vol, 24 (1956) pp 459 –

75 D. 2 baritel Die orientalistik in der tchehoslowakei (pregue, 1979)

Christianity and the Asian cultures Theology vol lxxv (1862) pp. 1-8. (٤٧)

(٤٨) لقد مضت عدة قرون من الاستعداد، تعرفت أوروبا خلالها على التربية العربية، والفكر الهندي والتكنولوجيا للصينية: وأوروبا لا تهتم بالاختراعات التي سمحت بالاستكشاف، فالبرجل و الطاحونة الحلفية من الصينى والشراعات المتعددة من الهند وإندونيسيا، والشرع المتحرك من الملاحين العرب، كثيرا ما نسمع أن الأوروبيين قد اكتشفوا سائر أنحاء العالم . وهذه الرؤية محدودة وليست صحيحة تماما حتى بداية عصر النهضة . فالليونان لم يكتشفوا الصين، ولكن العكس هو الذى حدث على يد تشابنج تشين فى ١٢٥ قبل الميلاد وبعدها بقرنين، بلغ كان ينج الخليج الفارسى وتوغل بهذا غربا أكثر مما توغل أى رومانى فى الشرق ومع نهاية سلالة المينج ، رفرفت الأعلام الصينية فى بقاع شتى فى المحيط الهادى والهندي من زنبار إلى بورنيو ومنها إلى شمتكا . والقول بأن معنى التاريخ هو نتيجة للحضارة الأوروبية وحدها خاطئ تماما . بل يعود هذا الشرف بالأحرى للحضارة الصينية، التى تتابع عليها تاريخ ٢٤ أسره منذ ٩٠ قبل الميلاد وكان لديها فى ذلك الوقت كتابات تاريخية، حتى وإن كانت لا تحمل عبارة (بقلم كذا) وحتى إذا اعتبر البعض أن (مضى التاريخ) هو مرادف لفلسفة التاريخ فإن أوروبا لم تكن لها أول المساهمات فى هذا المجال، فقد عاش ابن خلدون قبل فيكو بقرون ثلاثة. كما أننا لا يمكن أن نقبل فكرة أن أوروبا كانت سباقه فى طرح فكرة مجتمع بشرى موحد. فالمقولة الكونفوشية التى تقول بأن (كل البشر إخوة عبر البحار السبعة) تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد. وفى الهند كان كبير واحدا ضمن مجموعة كبيرة من الشعراء والأنبياء الذين يدعون إلى التضامن البشرى. ويرى بعض الأكاديميين الأوروبيين أن مسيره للتقدم العلمى والتكنولوجى عبر العالم، قد صاحبا انتقال الحضارة الأوروبية بشكل جزئى . وهم يعلمون جيدا بكل الأسف أن نظام القيم الأوروبى، ثم رفضه من قبل كافة حركات التحرر فى آسيا وأفريقيا . ويرى هؤلاء المفكرون أن المسيحية لا تنفصل عن روح العلم الحديث وأنها كانت السياق الثقافى لتطور هذا العلم . وقبول مثل هذه

النظريات يعنى أننا بصدد حروب صليبية جديدة تهدف إلى فرض المعتقدات الدينية الأوروبية على سائر الشعوب، وهى أن حملت شارة الصليب إلا أنها قد تحمل معها الرأسمالية والإمبريالية . ولم يستطع أحدا بعد أن يحدد ما هى الشروط الثقافية الضرورية للعلم والتكنولوجيا (le dialogue) وقد أظهرت فيما بعد وثيقة البابا جون الثالث والعشرين ذات البعد الإنسانى العميق أن ينبغي أن تضع هذا المثل هذه الأفكار .

A. I. Mikoyan, Speech to the 25th congress of Orientalists problemi (٤٩)
Vostokvedenca. No 5 (1950) pp 3-6

إن الهدف (غير المفروض) للاستشراق يماثل هدف المهندسين العسكريين عند فحصهم لاستعدادات الخصم الدفاعية والهجومية : وقد تحدث Goguyer عن (التدمير) فى تقديمه لترجمة ألفيه بن مالك (أورده L. massignon vol IX 1978 p 79.2 les mardis

K. Mueller, "Des Ostblock und die Entwicklungslander" Das parlament (٥٠)
(12 July 1961) pp. 397-411

collogue sur les recherches des instituts franais de sciences فى (٥١)
humaines en asie, singer – polignec foundation. (23 – 31 October 1979)
(Paris 1960) pp. 39-41

(٥٢) وجه نقد مرير للأراء التى وردت فى كتاب (الاستبداد الشرقى) انظر

E.E. leach "Hydraulic society in ceylon", past and present no 15 (1959) pp .
2-29. J. Needham, "The past in chine present", Centennial Riview vol 17 no
2. (1960) pp. 164 – 165

J. Chesneaux, les recherches, vol 12 no 5:

بالإضافة إلى محاضرة ألقاها الباحث المجرى F. Tokei حول نمط الإنتاج الأسيرى CERM.
Paris 1862, June واعتمد فيها على نص ماركس

Formen die der kapitalistischen produktion vohergehen
ويفتح مؤلف ماركس Grundrisse أفقا جديدا للأبحاث الماركسية حول الموضوع.

(٥٣) Marx. Enels. The first indian war of independence

. (mosrow 1960) مؤخرا أنطولوجيا مفيدة حول S. avineri وقد أصدر

Korl Mork on (colonialism and modernisation (new York 969

(٥٤) تم عرض آراءنا حول هذا الموضوع تفصيلا فى

Ideologie er renaissance (Paris 1969)

(٥٥) إن الأساس (النظري) للخلاف الصيني السوفيتي، يرجع في رأينا إلى رفض القادة الصينيين لاستمرار التمرکز حول الذات الأوروبية في النظرية الماركسية حول الإستراتيجية الثورية . وكان لوکاش قد کتب في عام ١٩٥٥ : أن بلدانا مثل الهند في سعيها نحو الحضارة الحديثة ونحو تجاوز مواريث عصورها الوسطى، تتبع مسارا يحل محل الاشتراكية، جزئيا على الأقل . ومن الواضح تماما أن الطبيعة المتميزة لهذه للتغيرات الاجتماعية سوف تعبر عن نفسها من خلال لشكال جديدة يصعب اختزالها في مخططات مجردة

Die gegenwart bedeutung des kritischen Realismus (Itamburg, 1955).

Chesneaux. Le recherche .. p 11-16 (٥٦)

"The slst congress of the CPSU and the task of orientology" problem (٥٧)
vosto kredenea, pp 18 – 25.

M. Mancall, the slst party congress and soviet orientology, journal of Asian studies, Vol, XIX, n' 2 (1960) pp. 16-25.

Enrica (lollotti- pischell, China, Indiaed egipto e la tese. Di transizione (٥٩)
cproblemi del socialismo, vol vi n. 2 (1963) pp. 193 – 213

تشير المؤلفه على حق إلى الصلات التاريخية والجغرافية بين الباحثين العرب والمسلمين وأقرانهم الأوروبيين، وإلى أنه بالنسبة للصين، فإن الهوة لا تزال سحيقة. ويعد كتابها
le rioluzione interrota (turin 1962)

في أفضل الاجتهادات الماركسية في مجال فهم الرؤية الصينية للتاريخ
(٥٩) انظر رقم ٥١

colloque

وفي عام ١٩٦٦ أضيف إلى خاتمة

l'asie orientals aux XIX et XX sicles (Paris 1966)

ما يلي: إن خصوصية تاريخ آسيا الحديث لا معنى بأى حال سقوط إمكانية المقارنة التاريخية بين المجتمعات البشرية، بل العكس هو الصحيح . إن تاريخ آسيا ليس منعزلا ولكن له ليقاعه الخاص، وهذا لا معنى أنه لا يرقى إلى التاريخ الأوروبي، من حيث المفردات النظرية . إن دراسة تاريخ آسيا المتحررة من أوروبا، هي الأساس الصلب الذى يمكن أن تتبنى عليه مقوله الوحدة الأساسية للتاريخ البشرى .

(٦٠) جاء ذلك في محاضراته القيمة في السوربون حول

L'Drient philosophique (Paris 1960-2)

Fung yeou lon, history of chinese philosophy (peking, 1937 and (٦١)
princeton, 1952-3) 2 vols, and.

J. Needham science and cinilisation vol 2.

(٦٢) تجدد تاريخ الفلسفة الإسلامية على يد الشيخ مصطفى عبد الرازق (١٨٨٢ - ١٩٤٧)
خاصة في كتابه (تمهيد إلى تاريخ الفلسفة الإسلامية) (القاهرة ١٩٤٤) انظر أعمال كل من عبد
الرحمن بدوي، عباس العقاد، عثمان أمين، محمد يوسف موسى، إبراهيم مدكور، إسماعيل مظهر،
محمد عبد الهادي أبو الرضا، عمر فاروق، صادق جلال العظم، حسن صعب. انظر الفكر
الفلسفي في مائة عام (بيروت ١٩٦٢) الأعداد ٩ - ٧٠، ١٠٢ - ٢٤١، ٢٩٨ - ٣٩٢ رعرضنا
لـ How breeds science passed to the arabs by deley D'leary (London 1951)
in Al-Hejellah. Voll n 4 (1957) pp. 125 - 7.

P. Sweezy the present asttstory (N. 4 1953 (٦٣)

(٦٤) تقرير ندوة Probleme des neorolonialesmus und die politik des betide
deuts chen staten gegenuber dem rationales befreiungs rampt der volker (s-
8 April 1861 leipzig) 2 rols. H.

M. Mancall وقد وردت العبارة في نص

(٦٥) يقدم chesneaux في Recherches هذا الجدول التقريبي للمؤتمر العشرين للمستشرقين
(باريس ١٩٤٨) مقارنة بمؤتمر موسكو الخامس والعشرين .

عدد الأوراق	المجموع	الموضوعات الحديثة	باحثون من آسيا وأفريقيا
باريس	٢٩٩	٢٣	٣٧
استنبول	١٨٥	١٧	٥١
كامبريدج	٤٠٤	٥٥	٦٢
ميونخ	٤٣٨	٨٠	٨٦
موسكو	٧٦٧	٥٨٧	١٩٧

The past in China'spresent Centennial Rewiew. Vol, iv, no 3 (1960) . p (٦٦)

- Revue d'histoire economique et sociale de l'Orient (٦٧)
 التي يصدرها C. Cahen، تهتم أساساً (.. 1957 Leiden) بالفترات الكلاسيكية. ومن بين
 المجالات التاريخية الماركسية والماركسية الجديدة في أوروبا الغربية
 Past and present (Oxford)
 Recherches internationales (Paris) studi storici (Rome).
 ولا يشغل الشرق إلا مكانة ثانوية محدودة. وهو يحظى باهتمام أكبر بين الماركسيين الإنجليز،
 خاصة الناشرون Lawrence & Wishart
 R. Dutt. The crisis of Britain and the British empire (London, 1957) إضافة إلى
 problems of contemporary history (1963)
 إضافة إلى كتاب J. Waddis عن أفريقيا ..
 (٦٨) تشير إليه عدة مرات
 (٦٩) حول هذا المعهد، انظر
 Problemi di storia n.6 (1960) p. 221 ff.
 Colloque.. (٧٠) انظر ٥١
 H. Passin, China's cultural Diplomacy (London 1962) pp. 107-115. (٧١)
 (٧٢) يشار ضمن الأعمال الحديثة للاستشراق العالمي إلى Andre Hupel l'Islam
 civilisation (Paris 1968)، خاصة الكتاب الرابع ص 401 - 315، والذي يتبع هذا الاتجاه،
 D. x j SOURDEL. La civilisation de l' Islam classique, (Paris 1968) لما
 فهو يواصل الاتجاه ما قبل السوسيولوجي
 (٧٣) تجدر الإشارة إلى أنه في الولايات المتحدة، يتم التشديد على ٦ لغات حساسة هي العربية،
 الصينية، الهندية، اليابانية، البرتغالية والروسية وفق لـ Hayter Reports الذي يستخلص
 النتائج أيضاً بالنسبة لبريطانيا، فقد تم في الولايات المتحدة (رفع الدعم) عن ١٨ لغة سلافية
 وآسيوية.

[illegible]

the 1990s, the number of people in the world who are undernourished has declined from 1.1 billion to 800 million. The number of people who are malnourished has declined from 1.5 billion to 1 billion. The number of people who are obese has increased from 100 million to 300 million. The number of people who are overweight has increased from 100 million to 300 million. The number of people who are obese and overweight has increased from 100 million to 300 million. The number of people who are obese and overweight has increased from 100 million to 300 million.

Figure 1. The effect of the concentration of the *Agrobacterium* suspension on the transformation efficiency of *Agrobacterium* strains. The concentration of the *Agrobacterium* suspension was 10⁶ cells/ml (A), 10⁷ cells/ml (B), 10⁸ cells/ml (C), and 10⁹ cells/ml (D). The concentration of the *Agrobacterium* suspension was 10⁶ cells/ml (A), 10⁷ cells/ml (B), 10⁸ cells/ml (C), and 10⁹ cells/ml (D). The concentration of the *Agrobacterium* suspension was 10⁶ cells/ml (A), 10⁷ cells/ml (B), 10⁸ cells/ml (C), and 10⁹ cells/ml (D). The concentration of the *Agrobacterium* suspension was 10⁶ cells/ml (A), 10⁷ cells/ml (B), 10⁸ cells/ml (C), and 10⁹ cells/ml (D).

الماركسية وعلم اجتماع الحضارات

١ - حول الرحلة الطويلة لمفهوم "الحضارة" الاجتماعي *marginalized*

جاءت الذكرى الـ ١٥٠ لمولد كارل ماركس وسط خلفية مختلفة اختلافا أصليا من الخلفية التي طورت وسطها أفكاره النقدية، فلقد غيرت هذه الأفكار مصير العالم، ابتداء من أعماله "الشابة" إلى كتابة رأس المال (الذي احتفل بذكره المئوية) وإلى جانب تأسيس "الدولية" فهذه الأعمال غيرت مصير شعوب العالم ودولة وأمم، ومن الواضح أننا واعون بالتعديلات التي حدثت في الشروط التاريخية والاقتصادية والميدانية تحت وطأة هجوم الثورات والمجاهبات، ومع ذلك فإن المتخصصين سواء في النظرية أو في التطبيق لا يأخذون في حسابهم الأبعاد الأخرى للاختلاف إلا بصعوبة، وهو اختلاف نعتبره نحن من جانبنا أساسى وتكونى في صياغة المشكلة النظرية التي هي هدف هذه المقالة، وبرغم ذلك فالظاهرة القومية تؤكد نفسها بتزايد مع كل يوم يمر بوصفها وبموضوعية - العامل المركزى في الجدل متعددة الوجوه للثورة والتطور والثورة المضادة والركود المائل للعيان، ولقد أضيف بعد جغرافى إلى البعد التاريخى، ولكن ليس كما قد يفهم البعض مسألة طبوغرافيا، وليس هدف هذا البعد الجغرافى - أو بالأحرى هذه الجغرافيا التاريخية - هو "تكييف" التحليل الجيوسياسى للعالم المعاصر، ولكن الهدف هو بالرغم من ذلك هو للتزويد بإطار للظهور للمستوى الاجتماعى للعامل الرئيسى فى الحضارة والمفهوم الرئيسى للخصوصية، ويبدو لنا هذا المفهوم مفهوما لا يمكن الاستغناء عنه فى تقرير النسق النظرى العام للعملية التطورية للمجتمعات الإنسانية فى هذا النصف الثانى من القرن العشرين.

وإذا ما نظر إلى الماركسية من "المحيط"، أى من القارات الثلاث التى تضم اليوم أكثر من ثلاثة أرباع الجنس البشرى، فإنها تبدو وجهة نظر عالمية أو تبدو

نظرية فلسفية أيديولوجية ومنهجية فى آن واحد، تمثل أو تقدم أكثر التركيبات النقدية للحضارة والثقافات الغربية تقدما، بل إنها وبصفة خاصة تقدم أكثر التركيبات النقدية لأوروبا عصر التنوير والثورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الكبرى تقدما، وتضع رؤية الماركسية - التى هى رؤية ماركس وإنجلز ولينين - "نقدها" بلغة (بمصطلحات) الحضارة، كما أنها تسمح لنا بتحديد خصائصها وعلاقاتها مع جسد المشكلات المفاهيمية والتطبيقية التى تنشأ فى العالم غير الأوروبى وغير الغربى.

ما هى المشكلة المركزية التى كانت تواجه الحضارة الأوروبية والغربية فى منتصف القرن التاسع عشر؟ لقد كان يوجد فى ذلك الوقت تركيب معقد من الدول القومية التى كانت كل منها تختلف عن الأخرى اختلافا كبيرا والتى كانت قد "تأكدت" بالفعل بمر قرون عديدة، والتى كانت أيضا إذ ذاك داخلية فى مرحلة حاسمة إنها مرحلة الوحدة القومية والنظم الاقتصادية المرتكزة على الثورة الصناعية وعلى تكنولوجيا العلم الحديث، ومرحلة النظم الاجتماعية المنبثقة عن التقاليد الطويلة للإقطاع الذى فككت أوصاله البرجوازيات، والتى كانت فى ذلك الوقت حاملة رسالة الحرية والعقلانية الاجتماعية، وكانت تلك المرحلة كذلك مرحلة النطاق الكامل للثقافات القومية والمخزون المشترك للثقافة المتراكمة والجهاز المفاهيمى المتجانس ومرحلة الهيمنة السياسية على العالم الواقع فى نطاق المحيط الخارجى - أى مرحلة الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى - نتيجة لذلك التركيز الفريد لوسائل القوة والتى تدعمها شبكة من نظم التمويل مثل السيادة على البحار وإعمال الوسائل الحربية القومية المنتشرة طبقا للإستراتيجية التى صاغها نابليون وكلاويفتيز فى حقبة الثورة الصناعية، وقد كان يبدو أنه لا شئ فى ذلك الحين أوفى المستقبل المنظور يستطيع تحدى الحضارات المهيمنة، أو على الأقل كانت تلك هى الكيفية التى تظهر بها هذه الحضارة من الخارج.

وبرغم ذلك فقد كثرت التناقضات والصراعات وأسباب عدم التماسك فى قلب النظام، وألهبت هذه الأشياء الصراعات الطبقة بين الأثرياء وبين المعدين وبصفة

رئيسية البروليتاريا التي كانت حاملة لواء المستقبل، وقد أدت هذه الصراعات فى تحولاتها من (حروب الفلاحين مروراً بكميونة باريس وحتى مارس ١٩١٧) إلى العصيان المسلح والثورات المسلحة ضد هيمنة البرجوازية فى الجبهة الداخلية، لقد تحدث شعوب الغرب نفسها "عقلانية" نظام يدعى أنه عقلانى وإنسانى من خلال نفس "Citique e jams" الذى يحدث الآن فى أنحاء القارات الثلاث.

لقد أصبحت المراجعة الأليمة التى لم تكن من قبل قابلة للتفكير فيها شيئاً قديماً، هل كان أحد يجرو على أن يتساءل حول الإنجازات الضخمة الباهرة لتلك المنسوبة لنابليون أو هيجل أو أوروبا العصر الفيكتورى؟ وباسم أى شئ يحدث ذلك؟ ولحساب ولمصلحة من؟ ولأية غاية؟ إن الجدارة التى لا يمكن حفضها ولا يمكن إلغائها لكارل ماركس وفريدريك إنجلز فى ميدان المشروعات "ptene" النظرية والتاريخية هى أنهما أو كما يوضح ضرورة هذا النقد على أساس أكثر عناصر حضارة وثقافة أوروبا تقدماً (الفلسفة الألمانية والاقتصاد السياسى الإنجليزى والاشتراكية الفرنسية)، وكان ماركس وإنجلز هما اللذان فهما وحددا الدور المركزى للتطبيق، وهما اللذان فهما الدور الثورى لتلك المجموعة الاجتماعية التى كانت فى ذلك الوقت الأفضل استعداداً أو الأكثر تعرضاً للإفقار والبؤس.. وقد كانت هذه المجموعة هى الأفضل بالمقارنة مع الفلاحين والبرجوازية الصغيرة فى أوروبا، وقد أعلنوا أن رسالة وهدف الاشتراكية والمجتمع الشيوعى اللاتبقى هو إعادة الإنسان إلى نفسه وقهر اغترابه لكى يصبح سيد مصيره ليس بالمصطلحات اليوتوبية - وهو ما يجب تذكره - ولكن على أسس دافئة وإنسانية محددة، إن الطريقة الوحيدة لحل أزمة حضارة متميزة أو حضارة هى كما كانت فى ذلك الحين هو تسديد الضربات إلى قلب النظام الاجتماعى الاقتصادى الذى يجرد الإنسان من إنسانيته، وكانت تلك خصائص المشكلة النظرية المركزية لماركسية ماركس، بمعنى أن تلك كانت فى الواقع هى أصل طبيعتها، وبعبارة أخرى كان ذلك هو النقد المستتر المتشدد النظرى المرتكز على الزعامة الأيديولوجية والسياسية للتفاعل المستتر بالدرجة نفسها فى الصراع فيما بين الطبقات الاجتماعية.

ومع ذلك فبالرغم من أن المشكلة النظرية الأصلية في الماركسية مستترة حقا فإننا سوف نرى أنه لا يمكن وصفها بأنها ذات قوة جذب مركزي، ذلك أن النزعة الإنسانية الماركسية التي اكتشفناها وأعجبت بها أوروبا التي تمسكت طويلا بالعالمية وحدها كانت دائما هي الهدف الأصيل للثورات الاشتراكية كما وصفها ماركس وإنجلز، ولم يخفق هذا الهدف أبدا في أن يسطع وسط تحطيل اجتماعي اقتصادي دافئ ومتوهج في دول آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، تلك الدول التي عرف الناس فيها الحاجة إلى البقاء على قيد الحياة بالشروط للمادية، بأكثر الوسائل سرعة، وهذا النمو من التفكير لا يسعى الآن يتصور إشباع حاجة تمسه بشروط إنسانية إذا جاز لنا التعبير،^(١) إن الخبز هناك يصطبغ بلون الاستقلال والحرية والكرامة والإخاء والسعادة.. وهذه فكرة جديدة تماما..

وقد توافقت بدايات علم الاجتماع وعلم السلالات البشرية (الأثروبولوجيا) فيما بعد زمنيا مع أعمال مؤسس الاشتراكية العلمية، وكانت التقنية في المرحلة الأولى هي كيفية وصف للشعوب غير المتحضرة، فالـ *exaticism* تسعى لأن تكون قليلة للقياس، بمعنى التوصل إلى ابتكار وصفى يعود إليه المناخ الإنساني. إن المقولة التهامية اللاذعة لمونتسكيو حول كيف يمكن لأي شخص أن يكون فارسيا^٢ تقود بصورة طبيعية إلى البحث عن الاختلافات، وإلى تقسيم أشكال وأنواع الواقع وتصنيفها في فئات، ولكن طبقا لأي معيار سوف يتم ذلك؟

أولا للتطور التاريخ^(٣)، ثم التاريخية مع ظهور كل من إ. ب. تيلور (١٨٧١) ول. هـ. مورجان (١٨٧٧) وقد تبنى الأثروبولوجيون للماركسيون الأصوليون أعمال الأخير واستبقاها المعاصرون (إنجلز ون. جوردون تشايلد ول. مكاريوس،^(٤) والنموذج هنا هو الحضارة التي هي أوروبا وأمريكا الشمالية في عصر الإمبراطورية والإمبريالية، ونحن نجد في أعمال تيلور تبشيرا حضريا لازال ممثدا إلى إسبانيا الحالية في شكل الأينولوجية الاجتماعية الأمريكية، على أن هذا المنهج ظل في محطه منهجا أخلاقيا، وقد انتهى مع إدخال مفهوم التماسك والفاعلية الداخلية وخصوصا في أعمال جوردون تشايلد ١٩٥١ الذي حدد الخصائص المحددة للحضارة بلغة هي في وقت واحد اجتماعية علمية وماركسية:

كتب تشايلد يقول:

"إن تجميع أعداد كبيرة من السكان في المدن: المنتجون عند المصدر (الصيادون، والمزارعون... الخ) والحرفيون العاملون وقسا كمالا والتجار والموظفون ورجال الدين والعلم وكذلك التركيز المؤثر للقوة الاقتصادية والسياسية واستخدام الرموز التقليديون في تكوين ونقل المعلومات (للكتاب) وأيضا وبالدرجة نفسها استخدام المعايير التقليدية في الموزين والمقاييس للمكان والزمن.. كل ذلك يؤدي إلى علم رياضي وبياني معين".^(٤)

ويسيطر البعد الأخلاقي والأبوي المعنوي إذا تكلمنا على نحو مناسب على أعمال أ. كروير (١٩٤٩) ور. رينفيلد (١٩٥٣) بوجه خاص، وقد اخص بالمنهج الكلاسيكي بطريقة مؤثرة ج. هـ روينسون في مادة الحضارة في الإنسكلوبيديا البريطانية في ١٩٢٨^(٥) ، وبلغت عملية التمايز أوجها على المستوى المفاهيمي مع تمييز ألفريد ثير المشهور بين "البنية الاجتماعية" والحضارة "والثقافة".

فالحضارة تمثل الجهد الإنساني لفتح عالم للطبيعة بوسائل النقاء الذهني في مجالات العلوم والتكنولوجيا والتخطيط أما للثقافة كشيء متميز من الحضارة تركز على إدراك العقل والذات الفلسفية والعاطفية.^(٦)

ومن الطبيعي أن الذي بذل هذا الجهد تجمع حيوى "تجمع أوروى وغربى".

ولم تشخص نقطة التحول في هذا القرن من وجهة نظر للعلاقات فيما بين أوروبا والغرب وبين للعالم للمستعمر بوصفها أزمة أو أنها لم تشخص بعد بوصفها أزمة، فقد بقيت أوروبا وأمريكا اللاتينية الشمالية متفويتين ومهيمنتين، ولكن للعالم الآخر دخل إلى اللعبة، وقد تأثرت الثورات والحروب ضد الاستعمار (فى الهند ومصر والجزائر والصين وإيران بصفة خاصة) والإمبرياليين زلزالا مفاجئا بفتتصار اليابان على روسيا القيصرية سنة ١٩٠٥^(٧) ، إن للعالم "الآخر" يؤكد نفسه، وفى الحالة الأخيرة يثبت نفسه بقوة للسلاح. ولهذا فهو موجود.

وكان ميدان الدراسة الاجتماعية المهمة بصفة جوهرية بعلم اجتماع المعرفة وعلم الاجتماع التاريخي والظنفة الاجتماعية في ذلك الوقت فرعا من فروع

المعرفة فى مراحلها التكوينية وكان فرعاً دراسياً ينظر - وهذا طبيعى تماماً - إلى الظواهر غير التقليدية فى ضوء جديد بينما ظل المؤرخ الرسمى وضعياً فى أفضل أحواله، ولكن الصلة كانت من خلال دراسة المجتمعات الأدنى مرتبة (إ. دوركايم، وم. موسى بصفة خاصة) بالاتصال مع الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية التى ظهرت حوالى ذلك الوقت، وإذا شئنا الدقة فقد ظهر عام ١٩٢٢، قطاع جديد فى علم الاجتماع تحت اسم "علم الاجتماع الاستعماري" (ر. مونبير).

فهل يستطيع المرء لذلك أن يتحدث عن إسهام نظرى جديد أو عن إشكالية جديدة ؟ إن الأعمال الكبرى فى تلك الفترة والتى ليست ماركسية، بل ولم تلمها الماركسية فقيرة للغاية فى المحتوى النظرى، ومع ذلك فقد ظهر سنة ١٨٨٠ مفهوم جديد فى الولايات المتحدة هو النثقاف^(٨) ، وقد حظى هذا المفهوم بشئ من النجاح مادام أنه كان يعبر عن نواة الفكر الغربى العميق، وهى نواة كانت ظاهرة بصرامة فى ذلك الوقت وهى الآن مضمرة دائماً كما يبين نقد مالىنوسكى للمفهوم وعلى الرغم من أن هذا النقد لم يقدم فى الواقع إلا فى سنة ١٩٤٠: فى ذلك العام كتب مالىنوسكى يقول:

"إن مصطلح النثقاف مصطلح متمركز حول العرقية وله مغزى معنوى.. إنه يتضمن بسبب حرف الجر al الذى يبدأ به مفهوم الـ terminus ad Quem، والرجل غير المنقف لا بد إذن أن يحصل على فوائد ثقافتنا.. وهو الذى يجب أن يتغير ويحول نفسه إلى واحد منا".^(٩)

ولا يمكن وضع هذا المفهوم بطريقة أفضل من ذلك.

ولا يوجد هنا أثر للماركسية، ففى أعمال لينين عن الإمبريالية والمسألة القومية يبقى البعد الفوق بنائى بعداً، ولكن الماركسية النمساوية تعطى هذا البعد اهتماماً أكثر على أساس التقاليد الألمانية الخاصة بالتاريخ الثقافى للفلسفة، ومع ذلك فإن مشكلة القوميات فى أوروبا هى ما يهتم هذا البعد دائماً،^(١٠) وقد ذهبت إنسانية جبر الاشتراكية السخية دون أن تترك، ولكن المسألة الجنوبية فى إيطاليا الموحدة "حديثاً" وفرت أسباب الظهور لعملية صياغة نظرية مكثفة ولكن غير كاملة من

جانب جرامنتشي،^(١١) بل إن الماركسية الأوروبية أدركت مشكلة جدلية الحضارات من خلال وسطية الازدواجية الثقافية الإيطالية لأنها رأت عدم إنسانية الشمال الصناعي الزراعى مع الجنوب الذى تمتد جذوره إلى الصدارة الإنسانية لحوض البحر المتوسط الأوروبى، ومع ذلك فإن المفكرين المنظرين وعلماء الاجتماع فى الدول الإمبريالية هم وحدهم المهتمون مباشرة بالاعتراف بوجود المشكلة، وإن كان هذا الاعتراف بالمعنى المقيد الذى ذكرناه آنفا. لقد أصبح "الآخر" مدركا بالقطع ولكن بوصفه "بربريا" "وغير متحضر"، والغرض هو تقليل شأن هؤلاء الآخرين على المستويين الواقعى والنظرى.

وتزدنا الإشكالية المركزية للماركسية بأنوات التحليل وبالوسائل المناسبة للعمل التى يمكن بواسطتها مواجهة وحل ما حددناه بأنه المشكلة المركزية - الأزمة - فى الحضارة الغربية فى هذه المرحلة من تطورها التاريخى، وسيكون المفتاح هو تنمية الماركسية داخل "جسد" العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع، وذلك فى الوقت الذى هزت فيه الدولة التى ولدتها ثورة أكتوبر ١٩١٧ العالم كله وليس العالم المتمدين (المتحضر) فحسب.

٢ - حقبة الثورات العالمية: علم الاجتماع والحضارات:

لقد أخذ تاريخ العالم - سواء كان العالم "المتحضر" أو العالم البعيد عن مركز الحضارة - ينمو فى الفترة التى أعقبت أكتوبر عام ١٩١٧ فى رعاية الظاهرة الثورية، وكانت هناك ثورات اشتراكية وثورات لحركات التحرير الوطنية، (وهنا لا نستطيع أن نعرض نموذجا لسلم أنماط) إذ كان هناك أيضا بطبيعة الحال الثورات المضادة وحروب الاستتصال والإبادة، إن العالم أخذ فى إعادة اكتشاف وحدته، وفى الوقت نفسه إعادة اكتشاف تنوعه أيضا، ومن الممكن بالطبع أن يقال إن كل عصر من عصور التاريخ عرف العنف، إلا أن العنف فى القرن العشرين يقدم نفسه بوصفه أداة يتحقق عن طريقها هدف إنسانى "سار" يوتوبى - إرادى - ثورى - رومانتيكى.. أو فلنقل إنه هدف حتمى من الوجهة التاريخية وبصورة أكثر تحديدا وبساطة بالنظر إلى الواقع القائم، والصياغة الدقيقة لهذا الهدف

ولاشكائيه الجوهرية مثلها في ذلك مثل صياغة الهدف المضاد الشامل للإمبريالية والرجعية تتخذ نقطة بدليتها من أيديولوجية هي الماركسية تسعى إما للتحقق أو لكبح جماح الهيمنة الإمبريالية، وبطبيعة الأمور ينبغي أن يفهم أننا لسنا مشغولين هنا فقط بتأثير الثورة الاشتراكية الكبرى الأولى ولكننا مشغولون أيضا بتأثير كل تلك الثورات الاجتماعية والوطنية التي حركتها وألهمتها الماركسية ابتداء من كومونة باريس وحتى هيتلر.

ويوجد على مستوى مضمون علم الاجتماع نفسه وعلاقات جدلية الحضارات - أي على المستوى الذي يهمننا هنا - عدد من عوامل التغير التي تستحق الاهتمام.

وأول هذه العوامل قاطبة هو أن انقسام علم الاجتماع إلى قطاعات يؤثر في كل من البحوث والنظرية كما يؤثر في برامج التدريس، وهكذا فالصدع الحالي بين علم الاجتماع النظرى وعلم الاجتماع التطبيقي (الإجرائي) ليس فحسب نتيجة، لأن كليهما يستخدم أدوات منهجية مختلفة من تلك التي يستخدمها الآخر (مثل الرياضيات، للتاريخ، للبحوث الميدانية، المسلمات الأيديولوجية.. الخ) ولكن هذا الصدع هو نتيجة للأهداف المتباينة التي يضعها كل من هذين الاتجاهين الرئيسيين في علم الاجتماع للحديث لنفسه، إذ توجد اختلافات كبيرة في الطريقة التي تتحدد بها طبيعة العمل، كما أن الـ EQIGANES الخاصة بكل جانب هي التي تشرح الأهداف الاجتماعية له، وفي رأينا أنه يمكن إرجاع هذا الصدع إلى سنوات الأزمة الاقتصادية العالمية العظمى من ١٩٢٩ إلى ١٩٣٢.

ففي ذلك الوقت كانت للوضع الأوروبية قد انتهت من أداء دورها في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية، كما كانت البراجماتية والتجريبية بوصفهما أيديولوجية عميقة للجنور للنولة والثقافة - لاسيما في الولايات المتحدة - قد بدأت تتخل طور التلهل، وكان إذن من المتعين اختيار شكلين أساسيين، فمن ناحية كرس علماء الاجتماع للذين تعلموا لدخل المدارس الأوروبية في الفلسفة والتاريخ ومصطلحاتها البنائية التاريخية أو المضادة للبنائية التاريخية كرسوا أنفسهم لسرد "نماذج" و"خطط" و"هياكل"، كما كرسوا أنفسهم لتفكيك العلاقات التي

نسجت وتداخلت بطريقة لا يمكن فكها، ولتتقح شروح وتحليلات سوف توظف بعد ذلك لتعزيز معيار صلب يتم تبريره بمصطلحات مقتضيات "المنهج"، والسبب فى ذلك هو أن هذا "المنهج" مكرس لوصف وقياس ما هو كائن تحت الإحساس بصدق مقولة إن التاريخية يمكن أن تقضى فقط إلى التفسيرات العلمية والتطبيق العلمى، وبالطبع يوجد تفسير هذا الاتجاه فى أعمال نالكون بارسونز، أما مناقضوه ومحاكوه العديدون فينقصهم الإلهام الذى وجه بارسونز.

والشكل الثانى من الناحية الأخرى يتألف من علم اجتماعى اثبتق من "العلمية" الدارجة فى أواخر القرن التاسع عشر، والذى لم يمكن ليشووه علم الاجتماع الآخر.. (علم الاجتماع البنائى). إننا هنا ندخل الحقل الخصيب للمسوح الاجتماعية والتجميعات الإحصائية بكل أنواعها، وهى مسوح وتجميعات تعطى طبيعتها المضادة للتاريخية والنظرية فرصة الظهور لجداول وسلام أنماط وإحصاءات قيمتها التأويلية تساوى صفرا من الناحية العلمية، وإن علماء الاجتماع المحترفون هؤلاء هم الذين ندين لهم بالتقويم التجارى^(١٢) لاتجاه علمى من علم الاجتماع اليوم، كما ندين لهم برفض تبنى هذا الاتجاه.

حقا لقد أرسلت الأزمة عددا من علماء الاجتماع الناشئين فى الطريق الخطأ، ويلوح أن الوصول إلى نقطة الذروة فى هذا الاتجاه قد تم فى الفترة بين عامى ١٩٣٠، ١٩٥٢ عندما بدا أن الحرب العالمية الثانية ثم الحرب الكورية بعدها يثبتان أن مركز الهيمنة الغربية قد قهر التهديد النابع من داخله: "المجتمع العظيم"^(١٣) الذى تأسس أثناء الحرب الباردة قد أكد سطوته، فيما ظهر أن الاختلافات الإنتاجية والطريقة الإنتاجية فى الحياة قد أصبحتا هما للنموذج الذى يستهديه كل فرد فى العالم، ولكن علم الاجتماع النظرى سار فى طريقه الخاص فى ظلال مؤسسيه العظام الذين يحتل ماركس وقاتير بينهم مكانة بارزة، إن نوعية تلاميذ قاتير وعدد الأعمال التى وضعت بإلهامه من الأشياء المعروفة للكافة على الرغم من كتاباته هو شخصيا تتعرض الآن وبقوة للتحديات، فريمون آرون يصفه "بمعاصرنا" ذلك المفكر الذى جعل من رفض "الدوجماتية" مذهبا دوجماتيا هو

نفسه، والذي يضيف صفة الصدق المطلق على تعارض القيم والذي يعترف فى نهاية المطاف بعلم جزئى وإلى جانبه اختيار تحكمى جامد، إنه مفكر معذب أكثر من كونه فيلسوف المجتمع الصناعى، أما إ. فيلشمان فيصف فايبير بأنه ماركس البورجوازية،^(١٤) لقد أفضت فلسفة فايبير المثالية فى التاريخ به إلى تحويل الثقافة دورا مركزيا فى الجدلية التى تعمل فى إطار مؤسسة الدولة، كما أن منهجه تميز بصورية عصره.. أى صورية التعبيريين الألمان، ومن ثم جاء على علم الاجتماع البنائى الأمريكى.

وتميز فايبير من ماركس نقطة انطلاقه تماما مثلما تفعل كل الاتجاهات الفكرية والعلوم الإنسانية والاجتماعية فى القرن العشرين، وتأثير ماركس يعبر عن نفسه بعدة أشكال وطرق، فيعبر هذا التأثير عن نفسه مباشرة فى فكر وبحوث علماء الاجتماع الماركسيين المعتنقين للماركسية والذين ينغمس بعضهم مباشرة فى النشاط السياسى الثورى، كما يعبر تأثير ماركس عن نفسه بصورة غير مباشرة فى أعمال أولئك الذين يعترفون صراحة بإسهام مقولات وأفكار ماركس دون أن يصفوا أنفسهم بأنهم ماركسيون، كذلك فإن تأثير ماركس الضمنى موجود فى أعمال الغالبية العظمى من علماء الاجتماع، لاسيما النظريون، بل وفى أعمال عدد مهم من علماء الاجتماع التطبيقيين (الإجرائيين) وسبب ذلك يعزى إلى أن المقولات المركزية للماركسية تؤخذ كأمر مسلم به - إذا شئنا استخدام هذا التعبير - فى كل مكان، ويستوى فى ذلك الأعمال المعنية بأهمية البنية التحتية: الاجتماعية الاقتصادية وأساليب الاقتراب النظرية من العلاقات بين البنية التحتية والبنية الفوقية، وكذلك - ولكن بطريقة أكثر تعقيدا - الأعمال التى تتناول جدلية الطبقات والمجموعات الاجتماعية أو التطور التاريخى للمجتمعات، وعلى أية حال فإن دور التطبيق فى كل هذه الأعمال وضع فى مرتبة ثانوية.

عند هذه النقطة ينبغى أن نلفت الانتباه إلى مجموعة رابعة من علماء الاجتماع فى القارات الثلاث، إذ إن نظرة غالبية علماء الاجتماع هناك ماركسية بصورة صريحة، كما أن الماركسية هى التى تلهم البحوث النظرية والتجريبية فى عدد من

بلدان تلك القارات (البرازيل، المكسيك، مصر، تونس، الهند.. الخ) ولقد أدت تلك البحوث في المقابل إلى وضع صياغات نظرية جديدة تتميز بدرجة عليا من الأصالة.

إن هذه الاعتبارات ينبغي أن تلقى الضوء على المشكلات الناشئة عن تقسيم علم الاجتماع إلى قطاعات مختلفة، كما ينبغي أن تلقى الضوء على الصعوبات المرتبطة بعلم اجتماع الحضارات، فقد بقيت بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية أربعة أنماط من التصنيف جديدة بالاهتمام، أولها هو مدرسة دوركايم في تطويرها النقدي الاشتراكي الذي أحدثه جورثيتش، وثانيها التصنيفات الأنجلو أمريكية التي تم تحديثها مؤخرا في رعاية اليونسكو، ثم التصنيف الذي قدمه ت. ب بوتومور عالم الاجتماع الماركسي الذي ينتمي لمجموعة علماء الاجتماع الماركسيين الجدد، وأخيرا قائمة البحوث التي أصدرتها الرابطة الدولية لعلماء الاجتماع في ختام مؤتمرها السابع في إيفيان عام ١٩٦٦^(١٦) ، ويلفت الانتباه هنا عاملان، الأول هو أن عدد التخصصات والفروع المهمة بعلم اجتماع البنية الفوقية كان أكبر وبشكل ملحوظ في الفئات ١، ٢، ٤ منه فيه التصنيفات الأنجلو أمريكية، والعامل الثاني هو أنه على الرغم من الأهمية المتزايدة لعلم اجتماع البنية الفوقية فإنه يوجد عدم ارتياح ملحوظ - على مستوى الصياغة - حول إمكانية وجود علم اجتماع الحضارات، ولقد كان أمكن بالفعل في ١٩٥٠ لكتيب اجتماعي مختصر لكنه مفيد وكان اتجاه دوركايم هو مصدر إلهامه.. أمكن لهذا الكتيب أن يعزل "علم اجتماع الحضارات" في إطار تخصصي عرف باسم علم الاجتماع السياسي (الدولة والأمة والحضارة)، وفي هذا التخصص كانت المشكلات تدرس في ضوء جدلية الحضارات غير الغربية "مع الحضارة" داخل منظور إنساني في حالة تحرك للأمام.^(١٧)

ولكن نشر مجلد (Tnaite de Sociologie) سنة ١٩٦٠ بتوجيه من ج. جورثيتش هو الذي يميز بداية تكريس المفهوم الاجتماعي للحضارة (وقد استأثر هذا المفهوم بجزئين من الأجزاء العشرة التي تؤولف المجلدين)، ومع ذلك فقد كان

الانشغال الحقيقي لهذا المؤلف بالمشكلات المتعددة التى طرحها "علم اجتماع عمل الحضارات" .. (الأديان، المعرفة، الأخلاق، القانون، الجريمة والإجرام، الطفولة، اللغة، للفنون، الموسيقى، الأدب)، كما تضمن الكتاب دراسة لباستيد عن "مشكلة العلاقات الداخلية بين الحضارات وأعمالها"،^(١٨) ويوجد المنهج المقارن فى الجزء العاشر من الكتاب، وهو الجزء الذى يتناول "مشكلات العلاقة بين ما يسمى بالمجتمعات القديمة البائدة" والمجتمعات التاريخية (٣ فصول)، كما يوجد هذا المنهج فى الفصل الذى يتناول "علم لاجتماع الأقاليم المتخلفة، ولكن الحضارة موضع للدراسة الرئيسية هنا هى حضارة أوروبا وأمريكا الشمالية الحديثة، أما الآخرون فتطلق عليهم صفات مثل "المجتمعات والأقاليم" وهم - أى هؤلاء الآخرون - يكونون موضوعات لعلم الأنثروبولوجيا السياسية الوليد، لقد طرحت مشكلة جدلية للحضارات على هذا النحو، وكانت ثمانية تخصصات (بالإضافة إلى علم الاجتماع السياسى) من أصل ثلاثة عشر تخصصا أساسيا اعترفت بها رسميا للربطة الاجتماعية الدولية تنتمى إلى علم اجتماع البنية الفوقية وبصفة خاصة للتخصصات الجديدة مثل الاتصال الجماهيرى، والتعليم والـ leisme والثقافة الشعبية وعلم لاجتماع الطب والطب النفسى وعلم اجتماع العلوم، وبعد ذلك بقليل أنشئت لجنة بحوث لعلم لاجتماع الأمم الجديدة سوف تركز أعمالها فى بحوث للتكوينات القومية (بينها بعض التكوينات الأقدم فى العالم) وبحوث المجتمعات للمتخلفة للمعاصرة، وهكذا يبقى علم اجتماع الحضارات دون اعتراف دولى.

ويدفعنا كتيب ت. ب بوتومور إلى قلب المشكلة، لأنه الكتيب الأول والوحيد حتى الآن الذى يدرس كل جانب من التخصص بشروط الإشكالية المزدوجة لعلم الاجتماع الغربى (علم لاجتماع الدول ذات النظم الاجتماعية الاقتصادية الرأسمالية والاشتراكية) وعلم لاجتماع العالم المتخلف ممثلا فى هذه الحالة فى الهند،^(١٩) إن هذا العمل لا يتضمن فصلا عن "الأبنية الاجتماعية والمجتمعات والحضارات" (فصل ٣ ص ٧) ولكن ينظر أيضا فى المشكلة الكلاسيكية على أساس من الإشكالية الجدلية فى علم الاجتماع، وعلى هذا النحو يقدم العالم الذى

كان مستعمرا فيما سبق كحالة للدراسة، أى كمؤثر يمكن بالرجوع إليه قياس درجة الصديق العلمى (أو العالمى بعبارة أخرى) للاتجاهين للكبيرين فى علم الاجتماع التقليدى، ومما له مغزى أن المؤلف هو أحد رعايا واحدة من القوى الاستعمارية السابقة (بريطانيا العظمى) ومدافعا عن الماركسية التى سوف تأتى وتحتضن مشكلات القارات الثلاث.

إن هذه المشكلات ليست مشكلات التنمية ولكنها مشكلات الحضارة بصورة جوهرية، ولكن قبل التطرق إلى لب هذا المقال قد يكون من المناسب دراسة تاريخ عملية وضع المفهوم أو المفاهيم، فقد صاغ أرنولد توينبى لسترشادا بوجهات نظر دوركايم وموسى الناقبة^(٢٠) ابتداء من سنة ١٩٣٤ فصاعدا سلم أنماط للحضارات، (عدد توينبى ٢١ حضارة ولكن بطريقة غامضة يصفها بأنها مجتمعات)، واستبقى توينبى أحد "آرائه" الرئيسية وهو أن المجتمعات المختلفة تحتفظ بعلاقات بعضها بالآخر إلى حد أنها تتشارك فى ثقافة وتقاليد ثقافية مشتركة^(٢١) وبهذه الطريقة تصبح البنية الفوقية عند المؤرخ وعالم الاجتماع على السواء هى مفتاح الفهم لعالم مختلف، أى لحضارات أخرى نظر إليها فيما سلف بوصفها بعيدة عن مركز الحضارة وبوصفها بربرية أو مستعمرة، ومع ذلك تظل هناك حاجة لشيء أكثر من الفرض المنهجى، ولنقل مرة أخرى إن دراسة الحالة بعمق يجب أن تسفر عن تجديد نظرى، إن هدف موسوعة جوزيف نيدهام المهمة "العلم والحضارة فى الصين" التى بدأت فى الظهور عام ١٩٥٤^(٢٢) كان هو على وجه الدقة استكشاف الآخر.. استكشاف الحضارة الرئيسية فى الشرق المعاصر بتقاليدها العريقة.. أى حضارة الصين، وإذا كان هدف موسوعة نيدهام هو حقا إقامة "عالمية" جديدة من أجل "تبيد الظلال وتخطيم التجاهل والجمع فيما بين الروافد المتباعدة للتجربة الإنسانية ومن أجل اكتشاف أن هذه الروافد ربما لا تكون متباعدة على النحو الذى كان يعتقد فيه، فإن منهج هذه الموسوعة كان لاجتماعيا وكان ماركسيا، "إن تطويل الأبنية الاجتماعية والاقتصادية للثقافات الشرقية والغربية هو فقط - ومع عدم نسيان الدور الكبير لنظام الأفكار - الذى سيقدم فى النهاية تفسير الشيئين".

إنه لم يسبق أن قدم عمل عن العالم غير الغربي بهذا الحجم ويمزج، كما تفعل موسوعة نيدهام، بين الدقة العالمية الصارمة ونفاذ البصيرة، وبين صوت العقل والمشاعر، فهذا العالم الآخر يظهر في الموسوعة مجلدا بعد مجلد بكل جلاله وشموخته، كما يظهر هذا الآخر بوصفه عالما ذا خصائص مميزة وذا طبيعة عالمية، إنه حضارة تتطور وفقا لمفهومها الخاص للإنسان ولنظام القيم وطبقا لفلسفتها وأيديولوجيتها الخاصة، وقد فسر كل ذلك على أساس التاريخ ذى الخصائص المميزة لهذه الدولة التى تؤيد التحليل فيها أبنيتها الاجتماعية والاقتصادية، وعلى هذا النحو فإن كلا من التحليل والبناء الاجتماعى والاقتصادى تجعل من الظاهرة الصينية ظاهرة مفهومة وظاهرة تفسر المناظرة العظمى الجارية فى هذا العصر، إن ذلك العمل - موسوعة نيدهام - هو عمل ذو أهمية مركزية، ومع ذلك فهناك حضارة أخرى - هى الإسلام - كانت موضوعا لدراسات مستفيضة ومنعمقة قام بها كل من س. كاهن وم. رودينسون فى إطار ماركسى^(٢٣) كما ألقت أعمال أخرى تتميز بالأصالة فى أغلب الأحوال (مثل أعمال چاك بيرك ون. بركيز.. الخ) أضواء جديدة على جوانب من هذه الحضارة وعلى مسألة العلاقة بين التراث الكلاسيكى والعالمين العربى والإسلامى المعاصرين،^(٢٤) وذلك على الرغم من أن هذه الأعمال لم تؤد بأصحابها إلى وضع تفسير لهذا العالم أو هذين العالمين داخل الإطار العام لعلم آخر فى الهند واليابان وفيتنام وإيران، كما استكشفت جزئيا كذلك العلاقة بين الحضارات الكبرى لأمريكا الهنود الحمر وأمريكا اللاتينية الحديثة، والعلاقات المماثلة فى أفريقيا السوداء، ولكن ليس لدينا رغم ذلك تفسيراً شاملاً وذى مغزى لكل هذه الحالات.

إلا أن تلك الأعمال - سواء كانت تاريخية أو كتبت من وجهة نظر علم الاجتماع - قد ساعدتنا فى التوصل إلى تعريفات سوف تكون ذات قيمة وكبيرة فى المستقبل، فبواسطة "الثقافة" فهنا الجوانب المثالية فى الحياة الاجتماعية بوصفها شيئا مغايرا ومتميزا عن علاقات وأشكال الارتباط القائم فى الواقع بين الأفراد، كما أننا بواسطة "ثقافة ما" فهنا الجوانب المثالية لمجتمع بعينه، وبهذا المعنى تنتمى

الثقافات إلى حقل علم اجتماع المعرفة وعلم اجتماع الثقافة في أوسع معانيه، أى تنتمى إلى علم اجتماع الأبنية الفوقية.

كيف إذن ندرس "ثقافة ما" فى هذه الحالة؟ وبأية مبادئ أو بأى معيار سوف نميز بين ثقافة وأخرى، إن الكاتب نفسه يزودنا فى تعريفه للحضارة بنموذج الإجابة، فيقول "إننا نعى" "حضارة ما" المركب الثقافى المكون من الخصائص الرئيسية المتطابقة لعدد من المجتمعات، الذى يشكل كل مجتمع منها مجتمعا قائما بذاته،^(٢٥) ولكن المؤلف ينبذ عن عمد هذا المنهج "الثقافى" ويتمسك بالعلاقة العضوية داخل كل مجتمع بين العناصر المادية والعناصر غير المادية للثقافة".

هذه إذن هى نقطة التحول، وإذا أخذنا التاريخ فى الاعتبار فإن هذه الأعمال ظهرت كلها بعد عام ١٩٥٠، أى بعد انتصار الثورة الاشتراكية فى الصين (أكبر دولة فى القارات الثلاث وأكبر دولة فى الشرق بصفة خاصة) وفى غمرة حركات التحرر الوطنى القومية والثورات الوطنية والاجتماعية التى حطمت هيمنة الإمبرياليات التقليدية وتحدثت الإمبريالية الجديدة للولايات المتحدة تحديا منتصرا، وإذا تكلمنا من وجهة نظر تاريخية فسوف يكون علم الاجتماع هو آخر علم ولد فى أسرة العلوم الإنسانية والاجتماعية، وهذا العلم ينسب لنفسه بطريقة ضمنية عادة دور التخصص الوسيط بين العلوم المختلفة، ولذا فإنه منظريه يكافحون فى مواجهة مشكلات غير تقليدية، ولهذا السبب لا يستطيع هذا العلم أن يتهرب من المشكلات العميقة التى تطرحها الممارسات الملموسة للمجتمعات الإنسانية، والممارسات ليست مهتمة "بالتنمية" بالمعنى التكنولوجى أو بالتخلف الثقافى (المتبقى من مذهب الأبوية)، ولا هى مهتمة "بالتحديث" (الذى هو التعبير عن الأيديولوجية التكنوقراطية فى الحقل "الاستعماري"). ولكن اهتمام الممارسات هو جدلية الحضارات المختلفة التى تتصادم الآن على المستوى السياسى، والتى تطرح جميعها مع ذلك وعند الجذور مشكلة الإنسان.. مشكلة الوجه الجديد للإنسان والقيم التى ينبغى إدخالها على الحياة فى الوقت الحاضر، القيم التى يرغب الإنسان فى الحياة والموت من أجلها.. أى مشكلة السعادة على نطاق كوكبنا الأرضى من أقصاه إلى أقصاه.

لقد أشرنا إلى ضرورة علم اجتماع الحضارات هذا، فما هي إذن إشكاليته الأساسية؟ وكيف يرى الماركسيون دورهم وإسهامهم في صياغته؟

٣ - جدلية الخاص والعالم (العلمي).

ليس هناك توضيحا أفضل للمنهج العالمي الزائف في تناول ظاهرة الحضارة التي هي حقا ظاهرة عالمية ومهيمنة، أفضل من انهيار نظرية والت روستو التي ولدت مينة عما يسمى "مرحلة التنمية"،^(٢٦) لقد اندفع كبير مستشاري البيت الأبيض لشئون سياسة الشرق الأقصى بمنطق الفكر الاجتماعي الذي يعبر هو عنه إلى المألوق المأساوي الذي تتخبط فيه الآن أكبر قوة عرفها التاريخ، ذلك أن النزعة الإمبريالية الاستيعابية للآخرين، والأبنية التي يجب أن يتتبع معها فوق بعض بصورة حتمية (أي للتنمية) وجدت نفسها وجها لوجه مع الشعوب والظاهرة القومية والأيديولوجية الماركسية.. أي مع الحضارة في كلمة ولحده.

٣ - ١ موقع للمشكلة النظرية:

أسس المنهج الذي يمكن للمرء أن يصفه بأنه نكثني أو تنموي على مسلمة مركزية هي: أنه لا توجد حضارة غير الحضارة الغربية التي هي أوروبية بالأسلس، على الرغم من أن محور قوتها قد اتجه الآن إلى أمريكا الشمالية، ومن ثم فعلى الشعوب والدول والأقاليم والثقافات التي ليست جزءا من هذه الحضارة أن تتكيف "مع الحضارة" إذا كان ذلك في مقدورها، أي أن تتكيف مع طريقة الحياة الغربية في شكلها الأمريكي، وقد يكون من الممكن في أفضل الأحوال وعند التعامل مع الاستواءات الأكثر تمسكا - وبالتالي الأكثر استعصاء - الاعتراف بوجود "مناطق ثقافية"، ولكن شبح وجود حضارات مختلفة يجب أن ينحى جانبا بأي ثمن لأن هنا يوجد التحدي المركزي في التاريخ، أي عندما تسلم للثورات الوطنية والاجتماعية نفسها بالفكر العلمي والتكنولوجيا الحديثة.

ب - سمحت النزعة التحديثية بعمق التحلل التاريخي أي للعامل الحضاري أن يدرك قوته الكامنة، سواء كانت هذه القوة مستترة أو خامدة، وسواء كانت

قوة متحركة.. لم جدت من طبيعتها أثناء حقبة انحطاط الحضارات غير الغربية فيما بين النهضة (الأوروبية) ومنتصف القرن التاسع عشر.

إنه من المستحيل إيمان تعيش حضارات مختلفة في زمن واحد، وعودة ظهور أو انبعاث هذه الحضارات بالشروط المعاصرة هو عملية تخفى المخاطر والصعوبات قوتها التي لا تقاوم في اللحظة الحالية، ففي اللحظة التي يتحقق فيها الاستقلال يصبح واضحاً أن الهدف التاريخي للظاهرة القومية هو جعل خلق وتوطيد تفاعل جلي مع الحضارة المهيمنة أمراً ممكناً للأمم والوحدات القومية [الثقافات والحضارات] وكذلك تمكين هذه الأمم والوحدات القومية من تقديم إسهامها للخاص والمميز في تلك الحضارة المهيمنة، ولن تكون أداة تحقيق هذه المهمة الجماعية المتعلقة بمصير الإنسان سوى للدولة القومية المستقلة التي تعتمد فاعلية عملها ورؤيتها للمستقبل على محتواها السياسي الشعبي، إن هذه العوامل هي التي تميز الظهور الكامل للحضارات "الهامشية" في الحياة المعاصرة، وليس ما يميز هذه الحضارات هو حالتها كأعضاء في عالم "ثالث" نرى في عدد أعضائه، ولكنه عقيم في العمل والحركة وليس له تأثيراً في مجال الحضارة.

ج - وبسبب ما تقدم فإن المشكلة المبدئية هي الجدل بين الخاص (العناصر القومية والثقافية المستقبلية والحضارية) وبين العالمي أو "العالم" (الحضارة التوفيقية المستقبلية التي سوف تحتضن كل الناس عن طريق وساطة العلم والتكنولوجيا).

ولا يقع الخطر في المثال الأول في التأكيد المتكرر على لظاهرة القومية ولكن في فرض القوالب المهيمنة للمساءة "عالمية"، لأن فرض هذه القوالب سوف يؤكد الآن أكثر من أي وقت مضى مسخ حضارة العالم غير الغربي وحصرها في وضع المنتجات الثقوية (الغربية) للزراعة التقنية والزراعة الإنتاجية لجيوش الاحتياطي الاقتصادية والديموجرافية (السكانية) والعرقية (الإثنولوجية) في ظل عالم تابع.

تلك هي نقطة التلاقى بين ثورات (التحرر الوطنى والاجتماعى) وعملية إعادة توضيح دور الحضارة الغربية بالشروط الديالكتيكية، وهذه عملية لا يمكن التهرب منها، وسيكون الهدف هو خلق حضارة إنسانية أصيلة تعمل من خلالها الوحدات الثقافية القومية والحضارات الرئيسية على رد الكمال لناس وعلى رد سيادتهم على حيواتهم إليهم من خلال المواجهة والزمن التاريخى.

د- ويعتبر ذلك التصنيفات (الفئات) الرئيسية، وسيكون الطابع العام لعلم اجتماع الحضارات ديناميكيا وجدليا: "الثورة و"التغير" و"التقلب" و"التحول" و"الانتقال المفاجئ" و"التحرر" و"التصنيع" و"الثقافة القومية" وإعادة اكتساب الهوية" والبعث القومى" و"التحديث" .. الخ. إن الدخل القومى الاجمالى أو الصافى والإنتاجية ومعونات التنمية (ثنائية أو جماعية... على أية صورة كانت) وتكوين الفنين كلها عناصر مهمة، ولكنها ليست ولن تكون حاسمة، إن المرء يجب أن يبحث عن الأساس داخله وداخل الجماعة القومية الشعبية حيث توجد المصادر الجوهرية للنهضة والبعث.

إن الصياغة التاريخية المحددة للمشكلة تسمح لنا الآن بالانتقال إلى المستوى النقدى.

٣ - ٢ : نقد المناهج غير الماركسية المختلفة:

يمكن تقسيم هذه المناهج إلى مجموعتين رئيسيتين، على الرغم من أنه يمكن تصنيفها بطريقة أكثر مفاضلة:

(أ) الفلسفيات والمنهجيات المثالية متضمنة فى تحولاتها المجموعات الفرعية التالية:

١ - فلسفات التاريخ: فقد ظلت الهيجيلية تلهم الكثير من الأعمال، لاسيما تلك الأعمال التى تسعى إلى اعتماد العوامل الفوق بنويوية التى اختفت بعض الوقت بسبب التفسير المخطئ للماركسية على أنها مادية اقتصادية، إن مصطلح الدائرة الجدلية (الديالكتيكية)، أى دائرة التحليل والتركيب ليست منبئة الصلة بمشروع

توينبى الطموح، وقد تكررت نفس الأفكار فى الأعمال المذهبية التى تتحدث عن "الرسالة القومية" أو الظهور القومى موضوعين داخل إطار روحانى فى الشرق والغرب على السواء.

ولهذه الرواية للمشكلة قيمتها: فلقد أشرت بالفعل إلى الإلهام الإيجابى لعمل توينبى فى بعض الميادين، ويستطيع آخرون - وإن كانوا أقل امتيازاً - أن يقدموا رؤى ثاقبة لعناصر علم النفس الاجتماعى والقومى التى يمكنها خلق دراسة فى العمق، ومع ذلك تبقى القيمة التفسيرية لمثل هذه الأعمال محدودة، إن فلسفات التاريخ تقتضى فى واقع الأمر وكمعنى عام، وإن كان متبايناً جداً، أن التاريخ المحدد للمجتمعات التى تدرسها قائم على أساس المبادئ الواقعية (الحقيقية) مقدمة كما لو كانت كيانات متميزة، وتقرب الاستثنائية الناتجة عن ذلك من سلم الأنماط العرقى العنصرى والجمود البنائى، إنه يعترف بأن التاريخ يتطور، ولكنه يتطور فقط داخل هذا البناء الضارب بجذوره بعمق فى التجريد.

٢ - الفلسفات الروحية التى هى وثيقة الجوهر فى إلهامها:

ومصدر هذه الفلسفات مختلف ولكن خصائصها تشبه النمط السابق، فالرسالة التمدينية للمسيحية تشير إلى مفهوم مشابه فى الإسلام الأصولى واليهودية الكفاحية، ومع ذلك فإن الإطار الفلسفى هنا هو إطار عالمى بصورة قديمة وربما كانت العالمية فى الإسلام أكبر منها فى الديانتين التوحيديتين الكبيرتين الآخرين، نظراً للظروف الخاصة بظهور كل من هذه الديانات الثلاث، ويتخذ تفسير كل واحدة من هذه الديانات للحضارة، كما يتخذ تطور كل منها جذوره من البيئة التى نشأت الديانة فيها، ويتضمن الطموح العالمى للفلسفات الروحية إدماج العناصر والبيئات والثقافات والمجتمعات - التى يعد كل منها قابلاً للحصر إلى حد أنها تنتمى لنفس الحضارات أو لحضارات متشابهة - فى نموذج ينظر إليه على أنه هو السائد أو أنه هو النموذج الأصيل فى تمثيله لقيم الدين، سواء كان هذا النموذج هو مسيحية الغرب (على الرغم من محاولات تحديثها) أو كان هذا النموذج هو الإسلام العربى (على الرغم من المجال الأفروآسيوى).^(٢٧) كذلك لا يمكن تحليل الوساطة

فى اتجاه التحديث ونمو تطور الحضارات بمصطلحات الفلسفات الدينية إذا أنها فى أفضل الأحوال تقدم مناسب.

٢ - المنهج البنائى الذى بدأ يسرق الضوء من الماركسية:

ليست لدى أية نية لتقديم نقد عام لهذه المدرسة فى هذه المناسبة، فالأعمال الأخيرة لكل من هـ. ليفنغر، و إ. هوبسيوم، و لـ. جولدمان بين أعمال أخرى تزودنا بأساس علمى كاف لهذا النقد، وما أرغب فيه هنا هو تحديد وتعريف المنهج البنائى فى تناول علم اجتماع الحضارات وتقويم إسهامه.

إن الهدف الأساسى لهذا المنهج يبدو أنه هو ححض التاريخة نفسها بأى ثمن لأجل نزع صفة التاريخة عن العالم، وهكذا فقد تمت أبحاثه فى المجتمعات الهامشية، أى المجتمعات "التي ليس لها تاريخ"، وقد عمم منهجه صراحة أو ضمناً فى كل مجالات علم الاجتماع، ويبقى أن نرى ما إذا كان هناك العديد من المجتمعات البشرية دون تاريخ، إن المؤكد هو أن وضع مجموعات إنسانية على هامش التاريخ وكذلك إبعاد مجتمعات معينة من التيار المتدفق للتغيير والحركة فى العالم هو فى ذاته ظاهرة تاريخية، لأن التاريخ هو وحده الذى يمكننا من فهم أسباب ذلك، وقد قدمت "خلاصات" توينبى المنشورة حديثاً^(٢٩) والتي تردد صدى خلاصات رايت ويلز وإ. جيلز وج بالانديير^(٣٠) بطريقة تبدو حاسمة.. يقول توينبى إن مجرد اختيار مجموعات ومجتمعات تسمى تاريخية هو فى ذاته اختيار أيديولوجى أملتة الرغبة فى تثبيت "اللحظة الحاضرة للكائن" بوصفها بنية، وبالطبع فإن البنائيين أنفسهم سوف يحضون هذا التوصيف لهم، ولكن حقيقة أنهم يعطون اهتماماً خالصاً للمجتمعات المشهورة بأنها بدون تاريخ (الهامشية).. هذه الحقيقة وحدها تعنى أنهم لا يستطيعون تقديم منهجية تستخدم فى ميدان الحركة الجدلية للتاريخ، إن البنائية تضع نفسها على هامش "الاندفاع العظيم للتاريخ" بحصر نفسها عن قصد فى دراسة المجموعات البشرية الهامشية.

٣ - ٣: نقد المنهج الماركسى:

المفهوم الماركسى المركزى لأغراضنا هو مفهوم "الخصوصية التاريخية" وهو مفهوم اختاره عدد من المؤلفين بينهم رايت كيلز، وف. برويل وآخرين، ولكن

غالبية علماء الاجتماع والمنظرين في القارات الثلاث يتبنون هذا المفهوم اليوم، ولنبدأ بتطوير ميلز لمفهوم الخصوصية التاريخية:

"إن ما أسماه ماركس "بمبدأ الخصوصية التاريخية" يشير أولاً إلى خط إرشادي: إذ ينبغي فهم مجتمع بعينه في ضوء شروط الفترة الخاصة التي يوجد فيها، أما فيما يختص بدراسة مجتمع معاصر فإنني أعتقد أن القاعدة الصالحة في أغلب الأحوال هي محاولة تفسير الملامح المعاصرة لهذا المجتمع وفقاً لوظيفتها المعاصرة، وهذا يعني وضع تلك الملامح ورؤيتها بوصفها أجزاء، بل وبوصفها راجعة إلى ملامح أخرى لإطارها المعاصر، فإذا كان الغرض هو أن نعرف تلك الملامح ونحددها بوضوح فحسب، وأن نجعل مكوناتها أكثر تخصصاً فمن الأفضل أن نبدأ بمسألة تاريخية أكثر أو أقل ضيقاً، ولكنها تبقى بالطبع مسافة تاريخية.^(٣١)

ب) هذا المبدأ يعني في المرتبة الثانية أن الميكانيزمات المختلفة للتغير تتقاطع بطريقة خاصة في إطار هذا النمط التاريخي، ولكن لماذا نستخدم لفظ خاصة إذا كانت كل العلوم عامة؟

ج) بادئ ذي بدء لماذا يكون النمط تاريخياً "بالضرورة" ؟ لأن التاريخ هو المركز العصبي للعلوم الاجتماعية، ولأن كل علم اجتماعي أو كل دراسة اجتماعية فكر فيها جيداً بتعبير أفضل تقتضي بعداً تاريخياً للمفهوم، واستخدام كامل للمواد التاريخية، والقضية هنا في الحقيقة هي أن الدراسات التاريخية تميل عادة لأن تكون استاتيكية أو لأن تكون دراسات قصيرة الأجل لبيانات محدودة، وعلى أية حال فإنه يجب توقع ذلك، لأننا أصبحنا جاهزين أكثر من ذي قبل للوعي بالأبنية الكبرى عندما تأخذ في التغير، ومن المحتمل أن نصبح واعين بمثل هذه التغيرات عندما نوسع فقط رؤيتنا لتتضمن مسافة تاريخية مناسبة.

حقاً إن مشكلات المجتمعات الغربية في عصرنا هي في معظمها وحتماً مشكلات العالم، ولكن البعد التاريخي يصير عاملاً مهماً في تفسير العالم غير الغربي، إن هذه المعرفة لتاريخ مجتمع ما هي غالباً أمر لاغنى عنه لكي يصبح فهمه واضحاً بما فيه الكفاية لأي اقتصادي أو لأي عالم سياسة أو عالم اجتماع في

اللحظة التي يغادر فيها مجتمعه الصناعي لدراسة المؤسسات في بنية اجتماعية مختلفة في الشرق الأوسط، في آسيا، في أفريقيا، لأن معامل القيمة التفسيرية العلمية للعامل التاريخي ليست هي نفسها دائما وليست هي نفسها في كل مكان.

إنني أعتقد أن الفترات والمجتمعات تتباين فيما يتعلق بكون فهمها يقتضى أو لا يقتضى الإشارة المباشرة إلى "العوامل التاريخية"، وبطبيعة الحال فمن الواضح تماما أن فهم مجتمع بطي الحركة واقع عبر القرون في أحبولة دائرة الفقر والتقاليد والمرض والجهل يتطلب منا دراسة الأرضية التاريخية والميكانيزمات التاريخية الصلبة لعلمية وقوعه الرهيبة في أحبولة تاريخه الخاص، ويستلزم تغير تلك الدائرة وتفسير آلياتها في كل حقبة من أحقابها تحليلا حضاريا بعمق في أغوار التاريخ.^(٣١)

إنه يبدو واضحا على هذا النحو كيف يقود العامل التاريخي إلى الخصوصية في المقام الأول، كما أن المبدأ الاجتماعي الخاص بالخصوصية التاريخية مبدأ صالح لدراسة أمريكا مثلما هو صالح لدراسة المجتمعات غير الغربية.

"فنحن نصبح واعين بغياب مرحلة تاريخية معينة في مجتمع عن طريق الدراسات المقارنة فحسب"، ولكن لأية ظاهرة تكون هذه الدراسات المقارنة؟

إن الدولة القومية الديناميكية بوصفها وحدة صنع التاريخ هي أيضا الوحدة التي في داخلها يتم اختيار جمع متنوع من الرجال والنساء وتشكيلهم كما يتم في داخلها، إما تحرير هؤلاء أو كبتهم.. إنها وحدة صنع الإنسان. وهذا هو أحد الأسباب التي من أجلها تكون الصراعات فيما بين الأمم أو فيما بين الكتل الدولية هي أيضا صراعات حول أنماط الكائنات الإنسانية التي سوف تسود في النهاية في الشرق الأوسط والهند والصين والولايات المتحدة، وهذا أيضا هو السبب في الارتباط الحميم الحالي بين الثقافة والسياسة، وهو أيضا سبب الحاجة إلى الخيال الاجتماعي والطلب عليه".^(٣٢)

إن استخدام مبدأ الخصوصية التاريخية يقود مباشرة إلى مفهوم "الحضارة" كما هو محدد فيما يلي:

(د) هل من الممكن أن نفكر إذن في جدلية الخاص والعام؟ إنه لن يتأتى وجود "عام" أو "عالمي" في إطار المركزية الأوروبية، ونحن نحتاج فيما يتعلق بتوضيحنا لما ينبغي تفسيره إلى أن نأخذ نطاق دراسي، وهذا النطاق الدراسي الأشمل لن تزودنا به إلا معرفة التقسيمات التاريخية للمجتمع الإنساني، وعلى هذا النحو يصبح الاقتصادى أو عالم السياسة أو عالم الاجتماع أكثر وعياً بالتاريخ بوصفه جزءاً عضوياً مما يريد فهمه، وليس فقط بوصفه "خلفية عامة" وذلك عندما يختار النطاق الأشمل للدراسة وعندما يقارن، وهذا هو السبب في أن أفضل الدراسات الاجتماعية التي نمت هذه الأيام هي الدراسات التي أجريت في مناطق وأقاليم "عالمية"، وينبثق عن هذه الرؤية المبدأ الأولي للمنهج، فالدراسة المقارنة والدراسة التاريخية متشابكتان معاً بعمق، والعقل لا يستطيع أن يصوغ مشكلات هذا البناء الاجتماعي المفرد (القومي) دون أن يفهمها في إطار تناقض هذا المجتمع ومقارنته بالمجتمعات الأخرى". (٣٤)

هنا تكمن أهمية التاريخ طويل المدى وهو تاريخ غير بنيوي، ولكن بنائي (بروديل) "فالرؤية طويلة المدى هي دائما رؤية ضرورية، حتى لو كانت فحسب من أجل قهر الإقليمية التاريخية وقهر الافتراض القائل بأن الحاضر هو نوع من الخلق الذاتي"، وذلك لأن التغير التاريخي هو تغير في الأبنية الاجتماعية، وفي العلاقات المتغيرة بين أجزائها التكوينية، ثم يضيف بروديل "إنه لمجرد أن هناك تنوعاً في الأبنية الاجتماعية فإنه لذلك يوجد تنوع في مبادئ التغير التاريخي"، ولكن ألا يدعو ذلك إلى التساؤل حول عمومين (عالمية) المعايير العلمية ذاتها؟.

(هـ) يستحق هذا السؤال دراسة أكثر عمقا، فإذا أخذنا العبارة بحرفيتها فإننا نستطيع العثور هناك على أصداء نمط ماركس فايير المثالي، لأن كما يبين أسابريجز يشجع القالب القومي لتواصل التاريخ استخدام الـ stereotypes بما فيها تلك التي تتعامل مع طابع الشخصية القومي. (٣٥)

٣ - ٤: عناصر التفسير:

يجب على المرء أن يميز بين مجموعتين من عناصر التفسير داخل هذا الميدان:

١) العناصر التقليدية، وخصوصا ثنائية "البنية التحتية - البنية الفوقية" التى لا تزال غالبية البحوث المعاصرة توظفها، فهذان العنصران يصبحان بوضوح أكثر أهمية فى فترات الثورة والتغيرات العميقة، وكذلك فى سياق الفترات (الأبنية) التى تكون من نوع منتظم أو "عادى".

٢) يوجد فى إطار الديالكتيك الاجتماعى العام والديالكتيك التاريخى (الذى اعتبره الجوهري المركزى للمادية التاريخية) مكان الاهتمام أوسع مدى يمكن إعطاؤه إلى كل العناصر الفوق بنوية وإلى الجدليات الجديدة موضوعة فى قلب الثنائية التقليدية، وهو اهتمام يقود إلى المحصلة التركيبية التى تسمى "مبدأ الخصوصية التاريخية"، والإطار الحضارى الذى ظهرت فيه الماركسية وتطورت فى الفترة من (١٩٣٠) إلى (١٩٤٩) هو الذى يفرض عملية إعادة النظر هذه.

إن العناصر الفوق بنوية التى يظهر أنها "الفاصلة" over detemining أو "الحاسمة" (طبقا لانتوسير) هى الأيديولوجيات القومية سواء كانت "صريحة أو ضمنية" (م. رودنسون، ف. لانتيرنارى) وعلم النفس الاجتماعى خصوصا فى إطار الأمم أو التكوينات القومية القديمة (مصر والصين وإيران والمكسيك.. الخ)^(٣٦) وهى عناصر فاصلة لأنها تكون غالبا أقوى من العناصر تحت - بنوية الاقتصادية أو الاجتماعية. (ومع ذلك فإننا يجب أن نعترف - وهذا هو الجزء الثانى من إجابتنا - بأن الطبيعة الفاعلة لتلك العناصر وقوتها إنما هما نتيجة لعمق الحقل التاريخى للاستمرارية القومية ذاتها)، من هنا وكما أوضحنا يأتى هذا التكامل المدهش الذى هيمن على تاريخ مصر عبر ٧ آلاف سنة بين الاقتصاد (السيادة أو السيطرة على الماء والأرض)، والسياسة (السلطة الأوتوقراطية ذات الدرجة العليا من التمركز بقيادة الجيش) والأيديولوجية (سواء كانت سياسية أم دينية)، ومبدأ الخصوصية التاريخية هذا هو مصرى بمصطلحات سياقه الخاص، ولكنه أيضا عالمى (وبذلك يمكن فهمه باللغة الماركسية) أى بلغة الجدلية التى تفسره.. إنه بعبارة أخرى سوسيوغرافية مصر، أى أنه التوليفة الدائنة للمجتمعات المائية (ويتوفوجيل) التى تقع - كما هو حادث - فى مفترق الطرق بين

الشرق والغرب والمحاطة بالصحراوات وأسراب المهاجرين وشبكات التجارة والحضارة التى تتنازع وتتنافس فيما بينها.

لقد أصبح ممكنا الآن "دراسة التاريخ بغية التخلص منه" .. أى بهدف تعديل عمل العناصر الخاصة وتعديل جدلياتها بصورة رشيدة وصبورة ومقصودة، على الرغم من أن ذلك يتم دائما داخل الإطار العام لهذه الخصوصية التاريخية نفسها، ففي حالة مصر مثلا يجب أن نضع العناصر الأيديولوجية والسياسية - بشكل انتقائي - وهى فى حالة ترابط جدلى فى إطار جماعية منسقة، وسيكون الهدف هو الجمع بين عامل التحول الأكثر راديكالية، وإن كان مهملا وهو العمل الجماهيرى (بالمعنى الحرفى) للشعب فى الدولة وفى المدينة وبين النطاق الشامل (الجماعى) الموجود أو الكامن من العناصر من العناصر الأيديولوجية والسياسية، وبهذا وحده سوف يمكن تحطيم لعنة المركزية (أو التمرکز) بوطأة إستراتيجيتها وبيروقراطيتها الرجعية. وعلى أية حال فإن هذا العمل ذاته مستحيل إذا افتقدنا رؤية الإطار العام وإذا أنكرنا دور الدولة و"التوليفة" الاجتماعية فى مصر.

إن جعل الخصوصية التاريخية جدلية ليس هو أن يعطيها المرء ظهره، بل إنه على النقيض من ذلك هنا، كما كانت فى كل مكان آخر "فإن الحرية هى الاعتراف بالضرورة" .. إنها ضرورة قاسية ومذهب صعب، ولكن هذا هو المستقبل.

ولكن هل هى صدفة أن الإنتيليجنسيا فى القارات الثلاث قد وجدت سندها النظرى الرئيسى فى الماركسية التى أنكرت المركزية الأوروبية فى العمق وفى المبدأ؟

وهل تخلق الكتابات الاجتماعية والأنشطة السياسية التى تلهمها الماركسية أنظار المراقب بحذقها وأصالتها بالصدفة؟^(٣٧)

إن الماركسية التى نتحدث عنها هى مفهوم اجتماعى عام ومنهج اجتماعى عام.. المادية التاريخية، ولكن تطبيق هذا المنهج على المجتمعات الصناعية المتقدمة سوف لا ينتج أى إسهام دائم يفيد المجتمعات غير الغربية فى لحظة

انبعاثها، ومع ذلك فإن الرؤية والمنهج الصادقين في علميتهما إذا ما طبقا على العناصر الأخرى على أساس الخصوصية التاريخية يجعل الماركسية فى أيامنا الحالية هى أكثر أدوات البحث التحليلي فى الحضارات تبصرا وإدراكا كما يجعلها الوسيط الممتاز بين هذه الحضارات، لأنه من المفهوم أن الإنسان يجب أن يثبت الحقيقة التى هى الواقع والقوة (السلطة).. أى الـ His - Sidnes فى تفكيره فى طور الممارسة.^(٢٨)

ولا شك أنه بالنسبة لماركس سنة ١٨٤٥ الذى نحى أثره الإنسانى العظيم اليوم من أقصى كوكبنا الأرضى إلى أقصاه فإن الـ His - Sidnes الذى نتحدث عنه لم يكن فى القارات الثلاث ولكن فى كل مكان، ومع ذلك ففى هذه اللحظة وبعد ١٥٠ سنة فإن الأفكار والروح التى ألهمت الماركسية هى العناصر الجوهرية التى تجعل الثورة هى الأداة الممتازة لإعادة بعث الحضارات، وهذا أكثر من أى شئ آخر هو ما يشهد للحقيقة الفاعلة والنظرية للعمل الذى يجرى الآن فقط فى سياقه التاريخى العام أو العالمى.

(١) وهو ما يفسر ازدهار عدد كبير من الكتابات غير المعروفة أو المفهومة، حول الاشتراكية الإنسانية وخاصة للهيومانية الماركسية، في عدة بلدان (المكسيك، الأرجنتين، الهند، إندونيسيا) وقد أدرج واحد منهم فقط هو ليوبولد سنجور، في بين ٢٥ كاتباً تم رصدتهم في الكتاب الهام Eric Fromm Socialist Humanism (London 1967) وحول الصلات بين الحرب والحضارة، انظر المقارنة الهامة التي طرحها B.H. Liddell-HART بين صن تزو (في القرن الرابع قبل الميلاد) وكولوز يوتز، والتي كانت في صالح الأول.

Strategy, the indireer opproeck (London 1963),

Sun tsu the art of war, trans. S.B Griggith (London, 1963):

الأمر البالغ الأهمية في الحرب هو مهاجمة إستراتيجية العدو. ومن ثم كان المتمكنين في فن الحرب، بوسعهم إخضاع جيش العدو دون معركة . واخذ منه دون حصار وقلب دولته دون عمليات مطولة.

(٢) انظر "الأبواب" إثنولوجي (G. Beettie) وأنثروبولوجيا اجتماعية

(J. L. Fisher) في Gould and kolb (eds), A Dictionary of the social sciences (londn 1956) p 245-7 / 644-646

Paul Mercier, Historie de l'anthropologie (Paris 1963) وانظر أيضا

(٣) حول هذه الكتابات انظر

Les origines de l'exogamie et du totemisme (Paris 1963)

والتي تشكل تجديدا في الإثنولوجيا الماركسية المعاصرة .

Social Fvolution (London, 1951) p161 (٤)

(٥) أحتفظ بها في الطبعة الأخيرة (١٩٦٢) الجزء ٥ ص ٨٢٤-٨٣١

Kulturgeschichte als kultursoziologie munich, 1950 انظر (٦)

(٧) هذا البعد الذي لا يتوقع ظهوره بالنسبة للنظرة الأوروبية يتضح بجلاء في الأعمال الحديثة حول تاريخ الحركات الوطنية وثقافة البلدان الأفروآسيوية الرئيسية

(٨) قد له J. W. Powell مدير مكتب الإثنولوجيا الأمريكية في

Introduction to the study of indian lenugeues (Washington 1880) p.80

(٩) في مقدمته لـ

F. Drtiz, con trapun to cubano del tabecoy del a zucur (Havana 1940).

(١٠) حول الماركسية والقضية النظرية للأمة، انظر آراء كل من

S. F. Bloom, the world of Netions (New York, 1960)

Horace B. Daris Netiolism and socielism (New York, 1967).

وقد تناولت إحدى دورات مركز الدراسات والأبحاث الماركسية في باريس ١٩٦٥ مدرك الحضارة وكانت نقطة البداية هي أن فكرة الحضارة لم تتبلور في الأعمال الكلاسيكية للفكر الماركسي .. وقد حل محلها مفهوم الأمة (Jean Bovier Fraissinet) ولم يتم الربط بين هذا النقص وبين الإطار الحضاري الذي ظهرت فيه الماركسية .

(١١) خاصة في

A. Glamsci, letteratura evita nozionole (turin, 1954)

وفي الإصدار الهام من

Critice Merxista, puaderho N 3.

(Rome, 1967) (Prassi rioluzionaria e storicismonin qramsci)

(١٢) كما أشار إلى أمثلتها كل من Paul H. Lazarsfeld

William H. Sewell, Harold I. Wilensky (eds), the Uses of socioloy (New York, 1967)

(١٣) بالإضافة إلى (النظرية الكبرى) لتالكوت بارسونز

R. Aron, les etopes de la pensee sociologique (Paris, 1967) pp. 497 – (١٤)
583, E. Fleischmann (De Weber a Nietzsche) Archives europ eennes de
sociologie. Vol 5 n.o. 2 (1964) pp. 190-238

(١٥) بالنسبة لحالة البرازيل ، نشير بشكل الخاص الإصدار المتميز من

les temps modernes, vol XXIII no 257 (octobre 1967) pp. 577-760, ed. Celso Furtado

G. Gurvitch, traite de sociologie (Paris, PUF, 1960) svols. T. (١٦)
Bottomore, sociology a suide to to prohlems and litereture (London, 1964);
L.S.A annual report 1966 (geneve, 1967) Gould and Kelb, A discriptionnery of
the social sciences (London, 1966)

Armand Curillicr, Manuel de sociolosie, I. ed. (١٧)

(Pearis, (1960) pp 666-86

(١٨) تؤكد دارسه هامة فى 30 - 3/5 Traire vol II,

وهى تربط بين كافة مكونات عمل Bastide كشكل ، انظر انها

contributiens a la sociologie de le connaissance (Paris 1963)

المنشور تحت إشرافه

(١٩) الهند هي الدولة الوحيدة فى العالم المستعمر التى أشار إليها ماركس ثم فبير فى إشارات
متفرقة . وقد صدر كتاب واحد فى الولايات المتحدة لتحديد إشكالياتها السوسولوجية .

H. T. Huzumdar, the grammar of sociology, man in sociery (London, 1966).

Note sur la notion de cirilisation, L'Annee sociologipue, vol. 12 (909 - (٢٠)
12) pp 46-50

A study of history, 12 vols (condon, 1934-1956) (٢١)

وفى مؤلفه الحديث

Chenge and habit, the challenge of our time (London, 1966)

يسرد المؤلف ما يتراوح بين ١٥ و ٣٠ حضارة ، وفقا للمحددات المستخدمة (ص ٦٩)

(٢٢) يوضح الكاتب الأسس النظرية لبحثه في

(The Past in china's present(, The Centeniel review, vol 5 no s (1960) pp. 145-78

انظر أيضا

Ragharan Iyer (ed.), the Gless Curtain between Asia and Europe (London, 1965)

كذلك المقال الرائد

Chang Jung – sun “A chinese philosophers theory of Knowledge”, yen ching journal of social studies, vol I no. 2 (1939)

إن ميل اليمين نحو الاندماج ، قد تم التعبير عنه صراحة، على يد الجنرال Golberti de couto o silve أحد المنظرين الرئيسية لمعهد البرازيل العسكري، الذي يستند إلى مقولة ت. إس. إليوت (إذا تحولت آسيا غدا إلى المسيحية، فإن ذلك لا يعنى أنها سوف تصبح قطعة من أوروبا) ويعتمد أيضا على إيديولوجية كويمبرا (الغرب كمثال وكهدف وكبرنامج، هذا التيار من الأفكار الذى يدفعه التاريخ ، منبع للطاقة الخلافة ، العلم كأداة للحركة والديمقراطية كضحية للتنظيم السياسى والمسيحية كأسمى النماذج الأخلاقية للحياة الاجتماعية) .

بعد ظهور الإسلام، ثم عرب الأندلس، ثم الأتراك ثم ستاليني فى روسيا، وها هى الصين فى ظل ماو، تعتمد من جانب أول على درجة مفاجئة من التكنولوجيا والتقدم العلمى ، ومن جانب ثان على ثقل ديوموجرافى مهم ، وترتبط بينهما فى ظل نظام شمولى وقد جعل منها ماو سلاحا فى مواجهه الغرب، الذى اهتمت فيه المعتقدات الأساسية للماركسية .

Geopolirica do brasil ed. Jose olympio (Rio de janeiro, 1967) pp. 226-34

ويصعب أن نجد مثالا أكثر تعبيراً عن الفكر الأوروبى فى عمقه ، من يمينه إلى يساره .

(٢٣) انظر بشكل خاص مقالات C. CAHEN فى

Wiltfred cantweel simth, Islam in the modern world.

التي تضم بعض الجوانب الماركسية (Hontreal, 1960)

وانظر أيضا

Rodinson, islam er capitalisme (Paris, 1967).

(٢٤) وخاصة كتابات

Niazi berkes, the development of secularism in turkey (Hontreal, 1963):

Jecpues Berpue paul charnay er al (Paris, 1867);

محي الدين صابر (التغير الحضري وتنمية المجتمع) سرس الليان (١٩٦٢)

Abdallah laraoui, l'idelolgie arabe ontemporaine (Paris, 1967)

وقد أنت حرب يونيو ١٩٦٧ إلى صدور عدة أعمال نقدية جديدة

T.B. Bottomore, Sociology pp. 125-16 (٢٥)

بالإضافة إلى أعمال أخرى وخاصة

H. Hauss le mot et.

Semaine du centre de la synthe'se (Paris, 1930) pp. 31-106.

A.L. Kroeber and C. Kluckholn (culture: a critical review of concepts and definitins (popers of the peabody museum of American archeology and ethnology, rol 47 (952, 1952)

(٢٦) يقترح W.W Rostow في بيانه (غير الشيوعي)

The sreges of growth, (1960)

خمس مراحل ليست إلا النقيض الموضوعي للمراحل الماركسية، وهي خلافا للمراحل الماركسية تعتمد على عملية انتقالية واحدة .

(E. Gellner, Though and change (London, 1964) pp. 179-130)

M. Rodinson, Mahomet, and ed. (Paris, 1968). (٢٧)

A. Lelande. Vocabulaire technique et critique de la philosophie, 8th ean. (٢٨)
(Paris 1960) pp. 768-30.

(٢٩) (إن الاقتراب من دراسة الأحوال البشرية في بعدها الزمني، هو بالضرورة اقتراب توليدي، ويكون نمط التعبير السائد فيه سردي بالضرورة . إن عملية تحليل ومقارنه عدد من المسارات

الحياة المتوازنة، يجب أن تعنى بالحفاظ على عامل الحركة . إذا افترضنا ذهنياً، أن ثمة سكون، فسوف يؤدي ذلك إلى تشويه موضوع البحث ووجهه نظر الباحث . إذا ينبغي أن تتم الدراسة في إطار الحركة)

كلمات عميقة المعنى ترتبط بتصميم الماركسية

(change and habit, pp 88-89)

(٢٠) في كتابه الحديث. Anthropologie politique (Paris, 1968).

إن كافة المجتمعات البشرية تنتج السياسة وتعرض لتأثيرات مجرى التاريخ، (ص ٢٣٠)

C.W.Mills, the sociological Imagination (harmonds worth, 1931) pp. (٢١)
166-171.

(٢٢) المصدر السابق ص ١٧٢ . وانظر حول المثال الأفريقي .

G. Balandier, sociologie actuelle de l'Afrique noire (Paris 1977)

M. J. Herskovits, The human factor in changing Africa (London, 1962)

C. W. Mills, The sociological Imagination P. 175 (٢٣)

(٢٤) المصدر السابق ص ١٦٣ - ١٦٧ - ١٦٨

"History and society" in C. Meckenzie (ed.) A Guide to the social sciences (London, 1966) p49

(٢٦) انظر مؤلفنا

"National formations .." Social dialectics, vol II (London, 1981)

M. Rodinson "L'egypte nosserienne au miroir marxiste", les temps modernes no 203 (April 1963) pp. 1859-87

وتظهر الملاحظة نفسها على المستوى النظري في كتابات

georges lukacs, C.W. hills, Maurice de Gandillac ...

Theses on Feuerbach in Marx Engels the German Ideology (London, (٢٨)
1965) p 652.

يشير هذا (الانحياز) إلى جذور الفكر وارتباطه بمحددات الزمان والمكان . ويشار في هذا العدد
إلى المقال المهم:

J.J. Goblot pour une approche theorique des faits de civilisations. La pensee,
no. 133 (June 1967) p 3-24; no 134 – p 3-34; no 136 No 136 (Dec. 1967) pp.
65-88.

الجزء السادس

التوجه الحضارى
فى صياغة العالم البديل



جوزيف نيدهام - عالم الحضارات الموسوعي

لقد حان أخيرا الوقت الذي ينبغي فيه على الغرب أن يدرك أن الشرق الذي تحدث عنه المستشرقون لم يكن له وجود، كما حان الوقت الذي ينبغي على الغرب فيه أن يتغلب عن تحفظه وتحامله على الشرق ويتغلب أيضا على الجهل الذي أورثه عدم الاعتراف بالشرق، إن على الغرب اليوم أن يستمع إلى الأصوات وأن يعترف بالأساليب الجديدة الناشئة في ذلك القوس الأعظم من الحضارات والثقافات أي الشرق المنبعث بدءا من المغرب وحتى الصين، والواقع أنه كانت هناك مقاومة ورفض طويلين لاتخاذ هذه الخطوة، ولكن تطور الأفكار فتح الطريق هذه المرة، مستبقا أي تمهيدات سياسية، وقد بدأ هذا التطور يفعل فعله بظهور كتابات آرنولد توينبي وچاك بيرك وفوقهما جوزيف نيدهام العالم الموسوعي البارز بجدليات الحضارات في أيامنا.

إن سيرة الرجل وأعماله سيرة غريبة وعجيبة، كما أن الاعتراف الكامل بالإسهام العلمي والثقافي الذي قدمه بحثه العظيم المعنون "العلم والحضارة في الصين" وما صاحبه من مجلدات تحتوي على العديد من المقالات قد اتخذ مسارا غريبا بنفس الدرجة، لقد ولد نيدهام في بداية هذا القرن، وكان والده طبيبا، وكانت أمه موسيقية، ودرس نيدهام الطب في كلية كايوس بكمبردج، لكنه أصبح مهتما بشغف بالنزعة التاريخية من خلال دراسته لتاريخ العلوم والفلسفة والدراسات المقارنة للأديان والتصوف، وكانت الكتب التي ساعدته هي أعمال الأنسولوت أندروز، وجيريمي تايلور، وأنجليوس سيليسيوس وهربرت أوف كمبردج وبجويل دي مولينوس والـ Fiaretti للقديس فرانسيس أوف آسيس، كما أنه تأثر بعمق بشرح إدوارد براون للطب العربي الفارسي وبتناول س. بروكيت للعقيدة المانوية في رمال صحراء جوبي، "لقد كان هؤلاء الباحثين" طبقا لما قاله صديق عمره هنري لورنشاو "الذين ألهموه معنى الإثارة والرومانسية في الدراسة الإنسانية خصوصا عندما تمتاز بتاريخ العلوم الطبيعية.

لقد كانت تلك هي مصادر موهبته الموسوعية، وهي موهبة لم تكن مقصورة على الإحصاء ولا على تقديم ابتكارات أو تحليل صوري، ولكنها موهبة ملتزمة بمنهج عالمي توفيقى، أى برؤية يتشابه فيها العقل والعاطفة معا تشابهك النسيج المحكم، وبعد أن أتم نيدهام دراساته الطبية عام ١٩٢١ بدأ يباشر البحث فى الكيمياء الحيوية فى جامعة كمبردج، وبعد أن حصل على الدكتوراه عام ١٩٢٤ أصبح زميلا فى الكلية التى تخرج فيها (وانتخب عميدا لها عام ١٩٦٦) وقد تزوج نيدهام من دوروثى ماى مويل وهى بدورها متخصصة موهوبة فى الكيمياء الحيوية ولكنها درست على حسابها الخاص، وفيما بعد انتخبت هى وزوجها لدرجة الزمالة فى الأكاديمية الملكية، وكانت تلك الفترة هى فترة بداية التحرر الفكرى الواسع، وهى الفترة التى ظهرت فيها أعمال ر. ج. كولينجود وثاياهانيمر وفوقها رودولف أوتو الذى قرب كتابه "فكرة المقدس" نيدهام إلى فهم القيمة الجمالية الإيجازية للرمزية فى الطقوس الدينية، أما كتابات ويليام بلاك ود. هـ. لورانس، وإدوارد كارينتر وهافيلوك إيليس فكانت تشير إلى الطريق إلى التحرر الجنىسى، وقد جمع عدد من مقالات نيدهام جنبا إلى جنب فى بعض الأحيان مع مقالات زملائه المرموقين مثل دين إنج، ومالينوسكى وإيدىنجتون فى عدة مجلدات، هى "العلم"، "الدين والواقع"، البيولوجى المتشكك"، "البرمائى العظيم" وفوق كل ذلك، "الزمان... ذلك النهر المتجدد العذوبة" بمقدمته المحتوية على ترجمات الكتاب، وبتشجيع نت ف. ج. هوبكينز والد عالم الكيمياء الحيوية البريطانى المعروف بهذا الاسم انضم نيدهام إلى معمل جامعة كمبردج للكيمياء الحيوية، وخلال السنوات من ١٩٢٩ إلى ١٩٤٢ قدم الدليل الدماغ على كفاءته فى الميدان العلمى، وكان هذا الدليل هو: ثلاثة أسفار أولها بعنوان "علم الأرض الكيماوى" وثانيها بعنوان "الكيمياء الحيوية والتكون الشكلى" أما الثالث بعنوان "تاريخ علم الأجنة" ثم محاضراته فى جامعة بيل تحت عنوان "النظام والحياة" وهى المحاضرات التى طرح فيها مفهوما رائدا عن دور "الأينية الجزئية" داخل الخلية الحية قبل عصر الميكروسكوب الإلكتروني، وعمل نيدهام أستاذا زائرا فى جامعات بيل وستانفورد وكورنيل ولندن وأكسفورد ووارسو وكراكا وليون وكويتو، كما قام بعدد من

الرحلات الدراسية وجولات لإلقاء محاضرات، وتوجت كل هذه الأعمال بإهدائه عددا من الأوسمة بينها ميدالية جورج سارتون الذهبية التي حصل عليها من مؤتمر باريس الدولي للتاريخ العلمى فى سنة ١٩٦٨.

ولسوف تتجمع الخيوط كلها فى كنيسة ناكستيد بمقاطعة إيكس، حيث امتزجت الاشتراكية ذات الإسهام المسيحى بالتقاليد الموسيقية العظيمة وبالبحث عن جمال الطقوس الدينية تحت رعاية كاهن هذه الكنيسة كونراد نويل.

لقد كان لهذا المذهب.. مذهب [مملكة الله] أهمية خاصة.. هكذا كتب هولورينشاو، وفى ذلك الوقت كون نيدهام قناعته التى لم يتخل عنها قط فيما بعد وهذه القناعة هى أنه ينبغى النظر إلى مملكة الله بوصفها ساحة العدالة والرفقة على الأرض.. إنها مملكة يجب أن تتحقق بجهود بنى الإنسان عبر القرون، وليست كيانا غامضا موجودا بالفعل أو دولة روحانية يتوقع وجودها فى وقت ما فى المستقبل، ولقد أصبح هذا "التصور" مرتبطا بالتدريج فى عقل نيدهام باعتقاده فى الوحدة الجوهرية للتطور الكونى والعضوى والاجتماعى، هذا التطور الذى تجد فكرة التقدم الإنسانى - بكل التحفظات الواردة حولها - مكانها فيه، ويوازى ذلك فى فكر نيدهام افتتاعه بأن المسيحية ينبغى أن تأخذ الماركسية مأخذاً بالغ الجد، فمبادئ مثل المادية التاريخية وصراع الطبقات يمكن أن تكون تعرفا إلى الطرق التى "يعمل بها الله" أثناء تطور المجتمع.

وهكذا أعطى نيدهام كتابه (التاريخ من جانبنا) الصادر سنة ١٩٤٥ عنوانا فرعيا هو "مقالات فى الدين السياسى والإيمان العلمى" وكان هذا الكتاب هو ثمرة لقائه بعد الحرب مع تيلهارد دى شادين، وذلك فى الفترة التى كان فيها نيدهام يمر فيها بالمرحلة الثانية، أى المرحلة الصينية من عمله، وكان يمثل إلى حد ما تنويعا بالتطور نحو "المثل" الذى عمل نيدهام من أجله مع شارلز رافين وجون لويس فى ١٩٣٥ وهو "المسيحية والتطور الاجتماعى" وفى ١٩٢٥ وفى محطة مارين للأبحاث البيولوجية قادة لويس رابكين إلى أعمال سبينوزا أو إلى النظرية الماركسية، وهكذا فى عشية الحرب العالمية الثانية كانت حياة جوزيف نيدهام كلها تتجه إلى تنمية رؤية موسوعية.

ثم جاءت الصين، لقد جاء دارسون صينيون كثيرون إلى كمبريدج قبل عام ١٩٣٨، كان منهم وانج وينج - لى الذى أصبح مدير معهد شنغهاى الوطنى للكيمياء والبيولوجيا وشين شيه - تشانج، ثم، وبصفة خاصة لوجى دجى، الذى أخذ بيد نيدهام إلى لغة وحضارة الصين وأصبح صديقا حميما لنيدهام وزوجته "المعلق.. الفكرة - الحضارة - البرهان - تأكيد العلاقة التى لا يمكن لأى انفصال أن يقوضها". وفى سنة (١٩٣٨) وضع نيدهام خطة لكتابة رسالة منهجية وموضوعية عن تاريخ العلم والتفكير العلمى والتكنولوجيا فى المحيط الثقافى الصينى، ولكن الحرب فرقت بين الرفاق، ومع ذلك فإنها قدمت لنيدهام "حجر الارتكاز للوثوب إلى أعلى" الذى مكن لهذا المشروع التاريخى أن يظهر إلى الوجود، وقد غادر جوزيف نيدهام بريطانيا إلى الصين عام (١٩٤٢) ليعمل فى البداية مديرا للبعثة العلمية البريطانية، ثم مستشارا علميا للسفارة البريطانية فى شونج كينج فيما بعد، وقد تولى نيدهام إدارة مكتب التعاون العلمى البريطانى الصينى وكان الهدف المقرر لهذا المكتب هو إقامة روابط بين العلماء الصينيين والغربيين، ثم أصبح فيما بعد مستشارا للإدارة الطبية فى الجيش الصينى ومستشارا للجنة القومية الصينية للموارد الطبيعية، وقد ساهم نيدهام فى كل أنحاء الصين دون كلل إما على ظهر الجمال والخيول وإما راجلا "الطوف" النهري البدائي، وبذلك اكتسب معرفة دقيقة بأعماق الريف الصينى وبالناس العاديين والعلماء والتاريخ المتداول بالرواية الشفهية وكذلك بالأقاليم والبيئة، وهى معرفة ليس لها نظير حتى يومنا هذا، وأعاد نيدهام تدوين يومياته وملاحظاته التى تشمل تلك الفترة فى كتابيه "العلم الصينى" (١٩٤٥) "والقاعدة العلمية الأمامية" Science ontpest (١٩٤٧)، واختير الرجل عضوا فى الأكاديمية القومية الصينية - وهى الآن الأكاديمية الصينية - ثم منح وسام النجم اللامع، وقام نيدهام سنة ١٩٥٨ بمهمة مماثلة لحكومة سيلان (سريلانكا حاليا)، وكان نيدهام قد بدأ فى سنة ١٩٤٤ يدعو إلى إقامة وكالة دولية للتعاون العلمى، ونتيجة للحملة التى تزعمها أضافت اليونسكو العلوم إلى ميادين اهتمامنا التى كانت التعليم والثقافة، وأصبحت اليونسكو بدلا من اليونكو، وقد أدار نيدهام قسمها المتخصص فى العلوم الطبيعية فيما بين عامى (١٩٤٦)، (١٩٤٨).

وفى الوقت نفسه بدأ مشروعه الذى كان قد وضعه عام (١٩٣٨) يأخذ شكله ويكشف من ثم عن أبعاد لم تكن متوقعة، فقد أوضح المجلد الأول من "العلم والحضارة فى الصين" الذى نشر عام (١٩٤٩) أن المشروع لا يمكن أن يوضع داخل حدود معينة، وتكلفت مجموعة ضخمة من الدارسين والباحثين يزيد عددهم على ١٢ دارسا وباحثا بإشراف لوجى - ديغن، ووانج لونج، وهونج يو، ولوجانج بانج وك. روبنسون، ود. دى سولابرايس وج. هـ. كمبردج ون. سيفين بنشر أربعة أجزاء فى ستة مجلدات هى كل ما نشر حتى الآن، ويتألف كل مجلد من عدد من الصفحات يتراوح بين ٢٠٠٠، ٣٠٠٠ صفحة، وقد اتخذ العمل شكل وبنية الموسوعة، وسيبلغ العمل كاملا سبعة أجزاء تسع أحد عشر مجلدا بالإضافة إلى فهرس تجميعى، واضطلع نيدهام نفسه بمسئولية عرض المادة العلمية وتركيبها وصياغة الأفكار والإشكالية فى كل مجلد وفى كل مادة من المواد التى يحتوى عليها المجلد الواحد، كما قام بنشر سلسلة من المواد التى يحتوى عليها المجلد الواحد، كما قام بنشر سلسلة من المجلدات بالتزامن مع مجلدات الموسوعة، وترقى سلسلة المجلدات الجديدة هذه إلى مستوى الفكر وتحتوى على دراسات أكثر استفادة للميادين المشار إليها فى العمل الموسوعى نفسه، ومن بين هذه الميادين "Healy clocknak"، وتطور تكنولوجيا الحديد والصلب فى الصين، وتغطى المجلدات الثلاثة الصادرة عام ١٩٧٠ بوجه خاص ميادين الكتبة والحرفيين فى الصين والغرب، والـ Grand titatian "والعلم والمجتمع فى الشرق والغرب"، أما آخر الأعمال المنشورة فكان "التقاليد العلمية الصينية" وصدر بالفرنسية.

ويظهر الإسهام العلمى المميز لهذا العمل الموسوعى فى ميدانين كبيرين من ميادين الإنجاز، فهو قد جعل خصمه الأساسى المستوى الثقافى والحضارى للبعث الصينى للنهضة الصينية، تحت قيادة ماوتسى تونج والحزب الشيوعى ممكنا، كما أنه أقنع مؤرخى العلوم وكذلك مؤرخى الثقافات والحضارات - وإن كان إقناع هؤلاء تم مؤخرا مع تحفظات أكثر - بأنه لم يعد من الممكن تناول تاريخ العالم فى أى ميدان من ميادين بالشروط والمصطلحات التى طبقت من قبل، أى على أساس

المسلمات الحصرية المتمركزة حول الغرب، المصطبغة بالعنصرية الثقافية، وبطبيعة الحال فإنه صحيح أن الأعمال التقليدية استمرت في افتراض "العالمية" أو التسليم بها على أساس تقاليد الغرب، وباعتبار أن هذه العالمية هي وظيفة للغرب الذى كانت هيمنته فيما بين القرن السادس عشر وتوقيع اتفاقية يالطا. ونحن بلا شك لا نزال بعيدين عن الوقت الذى سوف تندمج فيه المعرفة العلمية النموذجية المجمعة فى عمل نيدهام الموسوعى بالكامل فى الجسد العام للمعرفة الإنسانية، ولكن ألم يصدق الشئ نفسه على موسوعة ديدرو ودالبير ورفاقهما وهى الموسوعة التى صاحبت الثورة الفرنسية وانتصار البرجوازيات الأوروبية؟

على أية حال إن الأمر يستحق تكوين مخزون من خبرات ودروس عمل نيدهام الذى قد يكون قد اكتمل، أو أنه ما يزال يتوالى صدوره وخاصة عن طريق تفحص مجلدات المقالات التى صاحبت الموسوعة نفسها.

وينبغى أن يبدأ المرء بمصدر هذه الموهبة وتلك المهمة الجليلة التى قام بها نيدهام، أى بتوجيه حياة بأكملها لهدف مختار، فإصرار نيدهام على اندماجه الكامل فى تقاليده الخاصة وفى العقيدة الدينية لحضارته - أى المسيحية - جعلته حاسما بصورة خاصة فى محاولته لفهم الكونفوشيوسية والبوذية والتاوية والإسلام، وقد لخص هوليتشاو تأثير كنيسة ثاكستيد الذى سبق أن أشرنا إليه على نيدهام فى العبارة التالية التى أصابت هدفها: "إن العنصر الأساسى الأول هنا هو إدراك وجوب الفصل بين "الروح المقدس" وبين "نظرية الإله الخالق"، ومن هنا يأتى الاعتراف بـتعاليمهم الحكيم (الساج) كونفوشيوس (٥٥٢ - ٤٧٩ قبل الميلاد) معلم المائة ألف من الأجيال بوصفه النموذج المعنوى الأعلى للحضارة الصينية والإمبراطور غير المتوج الذى لا يزال نفوذه حيا فى منازل سنغافورة، مثلما هو حى فى كوميونات شانج دونج، إنه الأساس الصلب للروح الصينية سواء كانت تقليدية أو تكنيكية أو ماركسية. وقد كانت حياة كونفوشيوس حياة تاريخية، مثلها فى ذلك مثل حياة المسيح على الأقل، ومع أنه مبادئ للفضيلة التى دعا إليها الساج لم توضع موضع التطبيق فى الحقبة التى عاش فيها، إلا أنه أكد أن الرجال والنساء

يمكن أن يعيشوا فى سلام، وانسجام حيثما طبقوا هذه المبادئ وفى أى زمان يطبقونها فيه، وقد ارتبطت معتقدات فضيلة كونفوشيوس التى كانت أقل اهتماما بالأجزاء الأخرى من العالم من المسيحية بالأفكار الثورية المتضمنة فى جذور الطاوية، وبالأحلام الرؤيوية لكل من دانونج وتاينجج.. وهى أحلام ناضل الناس وحاربوا من أجلها، وبدأت تمارس تأثيرا مهما.

وقد اتجه إدراك نيدهام داخل نطاق اللاهوت المسيحى نفسه ناحية الأرثوذكسية.

ويرجع ذلك بالمرء إذا كان مهتما بالأساليب المسيحية ليس فقط إلى ما وراء مبالغات وإفراط الجانبين أثناء فترة الإصلاح الدينى، ولكن أيضا ما قبل فترة الفلاسفة السكولائيين أنفسهم الذين شعر نيدهام أنهم كانوا يسировن إلى حد كبير فى الطريق الخاطئ فى محاولة إلbasهم العقيدة الدينية "الروحية" ثوب الفلسفة الأرسطية الضيق، وكانت الأعمال السياسية بالنسبة لنيدهام شيئا مفعم بالرمزية، أى بالدراسات الخاصة بالطقوس الدينية التى تحمل هى نفسها المعانى والصلوات مثلها مثل أى شئ يعد عقليا تماما، ومن الواضح أن ذلك يصدق بنفس الدرجة على العبادة فى كل الديانات الكبرى فى آسيا والصين.

وإذا ما اعترفنا بالآخر - وهو فى هذه الحالة الحضارات والثقافات الأخرى فى الشرق الفسيح - فإن ذلك يجب أن يقود بالضرورة إلى التطبيق، ويتمثل هذا التطبيق فى دفع حركة الزمن فى وقت تعصف فيه ربح الشرق، وليس بالتالى فى عمليات الوعظ باسم المشروعات الأيديولوجية العميقة، وقد أشرنا إلى موقف نيدهام من الثورة الروسية ومن الماركسية (ابتداء من عام ١٩٣٨ فى قلب عملية النهضة العظمى التى تمت بقوة دفع الثورة الصينية، وقد أصبح نيدهام فى سنة ١٩٥٢ بوصفه عضوا فى اللجنة الدولية التى كانت تحقق فى تهم استخدام الأسلحة البكتريولوجية فى غرب الصين وفى كوريا مقتنعا بأن المعتدين الإمبراليين مذنبون، وبهذا المعنى فقد ظل الرجل مخلصا لروح جماعة علماء كمبردج المناهضين للحرب (والتي تأسست عام ١٩٣٥ بفضل جهود ج. د. برنال وج. ب.

س. هالدان و. و. أ. ووستر ونيدهام وآخرين، وكانت هذه الجماعة هي القوة المحركة خلف دراسة "العلم والمجتمع" في العالم.

أما الدرس الثالث فيتعلق بالمنهج، وهو منهج لا يمكن إلا أن يكون مقارنا بشرط أن لا يكون هناك عالم واحد متميز، إن هذا المنهج المقارن سوف يقلب الترتيب القائم حاليا للمشكلات رأسا على عقب، وتفضي بنا "مسألة التعرف إلى الأسباب التي جعلت العلم الحديث ينمو في العالم الغربي فحسب إلى تساؤل ثان هو: لماذا أثبتت الحضارة الصينية خلال الفترة بين القرنين الأول والخامس عشر من حقبتنا التاريخية أنها أكثر فاعلية من الحضارة الغربية ما دام الاهتمام ينصب على تطبيق المعرفة بالطبيعة في تلبية الاحتياجات العلمية للإنسان؟ هل يتعين على المرء أن يتطلع إلى نمط فاير المئالي عن الصين والهند ومصر وبلاد الرافدين؟ إنني أعتقد أن الإجابة عن هذين السؤالين يمكن العثور عليها في الأبنية الاجتماعية والفكرية والاقتصادية للحضارات المختلفة، وأعتقد أن الاختلافات التاريخية العظمى بين الثقافات إنما يمكن تفسيرها على أحسن وجه من خلال الدراسات الاجتماعية. وأعتقد أن هذا سوف يحدث يوما ما، ثم يضيف نيدهام: "إن هذا هو السبب في أنني لم أشعر قط بانجذابي إلى التيار الماركسي الذي يسعى إلى اكتشاف صيغ جامدة موحدة لمراحل التطور الاجتماعي ينبغي أن تمر بها كل الحضارات".

إن الدراسة المقارنة المتزامنة للظاهرة "المعينة" في كل الحضارات والثقافات في العالم هي التي تجعل صياغة التفسيرات النظرية الشاملة في كل ميدان باطراد أمرا ممكنا، وقد انبثقت نماذج لهذا المنهج "الدولة" عن أعمال نيدهام، خصوصا عن أعماله التي درس فيها "الزمن" وعن مقارنتين بين دور وتكوين الطبقة السياسية في الشرق ومثيلاتها في الغرب حيث أظهر الشرق قدرته على إعداد "متفقيه العضويين" بصبر ودأب" وذلك قبل عدة قرون من تطوير جرامشي لنظريته فيما بين عامي (١٩٢٠)، (١٩٣٠).

إننا هنا شهود لرسالة حياة انطوت بروعة بالغة على التجرد لخدمة عمل عظيم جعل من نيدهام أبرز عالم موسوعي في عصرنا، وأوقفه حيث يقف الآن في

نقطة التقاء العلاقات بين الثقافات والحضارات، "فأوروبا بفشلها ونجاحها يجب النظر إليها بأعين ذلك الجزء الكبير من البشرية الذى تكونه شعوب آسيا وإفريقيا"، وفى الوقت نفسه يتعين علينا أن ندرس إسهام الشرق، "وربما ترجع القضية كلها إلى الممارسة النشطة للتواضع والحب الأخوى، فنحن فى حاجة إلى اقتناع صادق تؤكد عناصره أن كل صور العنصرية وكل المعتقدات المزهوة بنفسها فى التفوق الثقافى إنما تشكل نغيا للجماعة العالمية".

هذا هو الطريق الذى سار فيه ذلك المعلم الأكبر الذى وصف نفسه بأنه "تاوى أمين" فقد وجد نيدهام لدى كونفوشيوس توضيحا لقول أناكليتييس المأثور:

"تصرف مع كل إنسان كما لو كنت تستقبل ضيفا كبيرا، فإن الذى يحترم كرامة الإنسان ويمارس الحب والمودة واللياقة سوف يجعل من كل إنسان أخا له".

ديجول وجدلية الحضارات

رغم أنه يتعذر على من تناول سيرة شخص غير عادى مثل شارل ديغول، أن يتجنب كيل المديح له والانغماس فى جدال عنيف حول شخصه، فقد أن الأوان لدراسة فكره وأعماله دراسة انتقادية. إن علينا أن نحاول تقييم حدود تلك الشخصية وإمكاناتها، وليس الاقتصاد على النتائج المباشرة المترتبة على مواقفه أو الاكتفاء بالوقوف عند صلاحيتها التكتيكية.

علينا أن نبدأ بحقيقة ثابتة هى أنه رجل ينتمى إلى طبقة اجتماعية، إلى أسرة روحية، إلى وسط درج على خدمة البرجوازية. إنه كاثوليكي، من القوات المسلحة، تلك الهيئة التى حافظت على الأمة الفرنسية طوال الحقبة التالية للثورة. وسبق لتلك الطبقة أن أدارت ظهرها ثلاث مرات لمصالح الأمة - بالقضاء على ناپليون، وإطلاق الرصاص على رجال الكوميون، والاستسلام لهتلر - ونحن نعلم أنه فى المناسبتين الأخريين على الأقل كان الباعث على موقفها هو الخوف من الشعب الكادح وكراهيتها له. وإذا شئنا إجراء تقييم فإننا نلاحظ أن تواصل هذا السلوك المبني على أولوية المصالح الطبقيّة المطلقة لا مثيل له لدى سائر البرجوازيات الحاكمة، فلو أن القيادة السياسية للمحافظين وأنصار الملكية لم تفضل خوض معركة لندن وترك مدينة كوفنترى تحترق على اتباع نمط إنجليزى من سياسة بيتان، لانهارت إرادة المحافظة على الاستقلال والديموقراطية فى مواجهة الفاشية الهتلرية قبل سنالينجراد بعشر سنوات.

لقد رفض شارل ديغول، ابن تلك الطبقة وتلك الأوساط، أن يسير على درب تقاليدهم. فوضع الولاء للأمة وحب البلد والتصميم على الحفاظ على الشرف الوطنى فوق وقبل مركزه الطبقي.

وكل ما عدا ذلك جاء نتيجة لهذا الموقف السياسى، وبصفة خاصة ذلك الجانب من البعد الجدلى للعلاقات الدولية التى كان لديجول البصيرة والفضل والشجاعة لتحديد معالمها وبنيتها.

إننا لا ننوى هنا النظر فى توجه تلك السياسة فى الداخل، أو جوانبها الدولية المعروفة بصورة أفضل - مثل موقفه من الاستقطاب العالمى الذى تمخض عنه مؤتمر يالطا، أو من الأسلحة الذرية، وهى موضوعات سيناقشها غيرى ولا ريب. إن مقصدنا هنا هو إبراز حقيقة مبنية على مواقف الأساسية كما تجلت بكثير من التتميق يوم ١٨ يونيو ١٩٤٠ - وهذه الحقيقة تفهم ديجول لجذلية المشرق والمغرب، أو بالأحرى جدلية العلاقات بين ضروب شتى من دول الشرق وأنماط مختلفة عنها من دول الغرب.

وواقع الأمر أنه لم يكن هناك شئ هيا رجل الثامن عشر من يونيو لتجاوز ميثاق برازافيل. لقد كان هذا الميثاق، فى وقته، خطوة كبيرة إلى الأمام، إذا ما قورن بالمواقف الاستعمارية التقليدية. ومع ذلك كان مضمون أطروحات برازافيل محدود جدا، إلا وهو تشجيع التنمية الذاتية للأقاليم المستعمرة فى إفريقيا، والتطور حسب الاستقلال الذاتى فى إطار الاتحاد مع الدولة الاستعمارية السابقة، المحفوظة بهيمنتها؛ ولكن إيلاء الغلبة للخيارات الكبرى التى يحددها المركز، مع التصميم على أن تكون ثقافة المركز هى السائدة لدى الجميع. لقد كان ذلك إعادة لترتيب أمور الإمبراطورية الاستعمارية، وليس تخركا حقيقيا صوب "الحكم الذاتى". ومع ذلك كان التاريخ الذى وقع فيه ذلك ذا دلالة ويرر اهتمامنا بهذا التصدى الأول للمشكلة.

ومن ميثاق برازافيل إلى خطاب بنوم - بنه لم يكد يمر أكثر من ربع قرن، ومع ذلك فإن هذه الفترة تمثل تحولا كبيرا عن النزعة الأبوية الليبرالية صوب إدانة الإمبريالية ودعم نضال التحرر الوطنى الثورية الكبرى فى الشرق. فكيف ولماذا حدث ذلك؟

فيما بين ١٩٤٠ و١٩٦٨، رغم وجود النازية، ورغم إقامة توازن قوى عالمى اتفق عليه فى يالطا، كانت هناك حقيقة أساسية فرضت نفسها، وهى أن الحركات الاجتماعية والسياسية الكبرى التى شهدتها عصرنا تتجلى عبر منظومة من الأمم. ويصدق هذا على جبهات المقاومة الوطنية ضد الاحتلال النازى، وعلى جبهات

التحرر الوطنى ضد الإمبريالية. وانطبق هذا على القوى الجديدة التى تشكلت، سواء فى إطار الشكل الرأسمالى أو كجزء من الكيان الاشتراكى حامل لواء الماركسية، والذى نما بصورة ملحوظة بعد حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥. وهذا الواقع الذى أنكره بعناد قطاع مهم من المثقفين فى الغرب (وإن لم تنكره طبقة رجال السياسة التى كانت على اتصال بعالم الواقع). قدمت دليلا ساطعا - لو كان ثمة حاجة إليه - على حماقة وقصور وفساد الحسابات والتطلعات التى راودت مراكز الهيمنة دون غيرها. وكان مآل انقسام العالم بين القوتين العظميين أن يواجه صعابا متزايدة وغير متوقعة فى كل أنحاء العالم. وقد رأى شارل ديغول فى ذلك حليفا قويا، كان قد توقع أن يلعب دوره - من وجهة نظر فرنسا - فيما يتعلق بأوروبا المحتلة. وفى الوقت ذاته، بدأ غيره يدركون الدور الذى لا مناص من أن يؤديه ما كان يطلق عليه آنذاك "إزالة الاستعمار" (بدلا من التحرر الوطنى، أو الاستقلال، أو استعادة الهوية، الخ).

ولكن كان مآل ظاهرة التشيع للوطن أن تصيب - هذه المرة - أوروبا فى الصميم. وبدأت المشكلة تتخذ أبعاد الثورة فى الصين ومصر والهند وإندونيسيا وماليزيا وإيران وكوبا وفيتنام والجزائر والمغرب، والعالم العربى بأسره.

وبمنتهى العنف كشفت هذه الحركات النقاب - بحكم تنوعها - عن لب المشكلة، وهو وجود أمم، تشكل أجزاء من ثقافات مختلفة تتنظم بدورها فى حضارتين كبيرتين تشكل وترسم صراعاتهما وصداماتهما إطار جدلية الثقافات والحضارات التى كان يظن أنها انقسمت، أنها اختفت تحت التأثير المشترك للثورة الصناعية والنزعة العالمية التى انطوت عليها عقلانية الفكر الذى تبناه أصحاب الإنسكلوبيديا فى الغرب المهيمن.

ورأى شارل ديغول أن قد حان بالنسبة له وقت الابتعاد عن الساحة. فلم تكن القضية المطروحة هى تولى سلطة الدولة، بل الموقف من طرح مشكلة سلطة الدولة، من مشكلة سلطة الدولة فى أى شكل يمكن أن تبتدى فى زماننا هذا، مشكلة الهدف الذى يسعى الشخص من أجله إلى تولى السلطة. هل تكون مهمة تلك الدولة هى الحفاظ على أمة لديها ما يكفى من العمق التاريخى وإعادة تشكيل تلك الأمة؟

فى ذلك الوقت (١٩٤٠ - ١٩٦٨) لم يكن هناك سوى رد واحد ممكن، ذى صور مختلفة: إن هدف الدولة هو الحفاظ على نظام اجتماعى معين فى خدمة مشروع سياسى محدد. ومن ثم تكون الأولوية - فى هذا المستوى - لـ "العلاقات الدولية"، لـ "الشئون الخارجية"، ومن هنا جاء ميثاق برازافيل.

ومع ذلك فإن ديجول، بحكم جذوره وتربيته وخبرته كزعيم مرموق للأمم الفرنسية، استطاع أن يذهب إلى مدى أبعد. ذلك أن الأزمة التى كان واحدا من أهم رءوسها كانت أزمة الغرب، أزمة كل دول الغرب. لقد أصابت الاستعمار الأوروبى التقليدى والإمبريالية الأوروبية المعهودة (بريطانيا العظمى وفرنسا وهولندا وبلجيكا.. الخ)، كما أصابت الإمبريالية الأمريكية والإمبريالية الجديدة من هيروشىما إلى فيتنام، وكان مضمون هذه الأزمة هو المواجهة بين دول الغرب المهيمنة حتى ذلك الحين، وشتى الدول الشرقية؛ ذلك أن الشرق فى مجموعه بلغ فى وقتنا هذا مستوى النهوض الوطنى والثورة الاجتماعية عبر نضالات واسعة ومتشابكة ضد الإمبريالية.

ولو أن هذه النضالات تركت شأنها لعمقت بالتأكيد الهوة الفاصلة بين الأمم المتقدمة النمو والأمم الفقيرة، بين دول الهيمنة والأمم المناضلة - من أجل تحريرها - بين الشرق والغرب. هذا بالطبع ما لم يظهر وسيط، أو أداة للوساطة؛ وقد ظهر ديجول على الساحة، انطلاقا من كونه غربيا وأوروبيا بالتحديد، كأول رجل تميز بالذكاء والتعقل. فتوجه أولا إلى الدائرتين الكبيرتين الحبلتين بالحركة: وهما الصين ودائرة آسيا، ومصر والعالم العربى.

لماذا اتخذ هذا القرار؟ لأن ديجول، رجل الدولة، كان يستطيع أيضا أن يستدعى ديجول المؤرخ وديجول المفكر السياسى. لقد ساعدته ثقافته التاريخية والسياسية والعسكرية الواسعة، وتفهمه لحقائق الأديان والأيدولوجيات، وإدراكه غير العادى للعلاقات بين السياسة والثقافة على أن يفهم أن الشرق يتمحور فى الواقع حول دائرتين كبيرتين للتحرك (وليس مجرد دائرتين "ثقافيتين") على هدى الحضارة الصينية وثقافة عربية تقتدى بوحى الإسلام. ومن ثم فإن السبيل الوحيد

الممكن للتوصل إلى تسوية هو بالضرورة مخاطبة قطبي الجذب الرئيسيين الكامنين في قلب كل من تينك الدائرتين. وقاده وعيه بحركة التاريخ إلى فهم اتجاه الحركة السياسية في زمننا وفي المستقبل، دون الاكتفاء بمجرد واقعية سياسية.

ذلك هو مصدر الانفتاحين الرئيسيين. فكانت أول وفادة بمعنى الكلمة أوفدتها أوروبا الغربية إلى الصين آتية من فرنسا. وكانت أول دولة من دول أوروبا الغربية على استعداد لبذل جهد للتغلب على الحركة الفكرية والنفسية الثقيلة التي خلفتها الحروب الصليبية في النفوس في العالمين العربي والإسلامي - هذه الدولة كانت أيضا فرنسا، بموافقتها على استقلال الجزائر، وباعترافها بالطابع الإيجابي لمصر عبد الناصر. والنصوص الناطقة بذلك وفيرة، وإن قل من يعرفها. ويشير پول بلطة مثلا إلى نص منها يعلق فيه ديجول على السياسة الفرنسية تجاه العرب كما يلي:

"إن التجارة والاقتصاد والثقافة كلها ذات أهمية كبيرة. وعلينا أن ننظر إلى ما يجرى، فهناك يجرى صنع المستقبل، وعلينا أن نتطلع جيدا إلى المستقبل. على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط توجد بلدان نامية. ولكنها هي أيضا لها حضارة وثقافة ونزعة إنسانية خاصة بها، إن لديها إحساسا بالعلاقات الإنسانية نميل إلى فقدانه في مجتمعاتنا الصناعية، وسوف نسعد في يوم من الأيام بإعادة اكتشافه من خلالهم. إننا وإياهم، كل بوتيرته الخاصة، وتبعاً لإمكانياتنا وقدراتنا، نسير قدماً صوب الحضارة الصناعية. ومع ذلك، إذا أردنا أن نشيد حضارة صناعية حول البحر المتوسط، الذي ولد على ضفافه حضارات عظيمة، حضارة لا تقوم على النسق الأمريكي ويكون الإنسان فيها غاية وليس وسيلة، فإن ثقافتنا يجب أن تكون أكثر انفتاحاً على بعضها البعض. ("العالم العربي وفرنسا" في صحيفة "لوموند" بتاريخ ٢٠ يوليو ١٩٧٢، ص ١ إلى ص ٤).

وكان يلزم حدوث الإبادة الجماعية في فيتنام كما يدرك البعض حق الإدراك (بعد قوات الأوان) مغزى خطاب ديجول عام ١٩٦٦ في بنوم - پنه. فكم من الوقت ومن الأدلة الكثيرة سيحتاج الرأي العام الغربي حتى يعي الأخطاء الأخذ

فى التنامى فى العالمين العربى والإسلامى - من المغرب إلى آسيا الوسطى والجنوبية - وهى أخطار سوف تصيبهم مباشرة إذا مضوا سويا فى محاربة نهضتهم؟

فى الشرق، فى حقبة نهضته وثوراته، على خطى ماو وعبد الناصر، كانت الجماهير الشعبية - هى التى تبينت أكثر مخاطبة السياسيين - أن ديجول وسيطا مرموقا بين الشرق والغرب على غرار الإسكندر الأكبر ونابليون بونابرت. وأملها الجيش أن يفتح مثاله عيون الغرب وأن يشق طريق مستقبلنا المشترك.

المشروع الحضارى

١ - ١ يمكن أن نبدأ بطرح تاريخية مفهوم الاستقلال الوطنى. ثم يأتى بعد ذلك التساؤل حول الظواهر الجديدة وما تسعى إليه وما تطرحه من علامات الاستفهام. والملاحظ أن معظم نزعات الاستقلال القومى تنبثق من البلدان والدول الليبرالية الرأسمالية فى الغرب وخاصة فى أوروبا، وذلك خلافا للتوقعات السائدة والتي كانت تعتبر أن هذه المجتمعات بعزلة عن قضية الاستقلال الوطنى.

وقد تمثل الطرح الكلاسيكى لإشكالية الاستقلال الوطنى فى صياغتين متتاليتين.

أ - وأولاهما هى الصياغة التقليدية والتي يمكن أيضا اعتبارها ليبرالية محافظة، وهى تشدد على مفهوم "الاستقلال" بذاته معتمدة على المعايير القانونية والسياسية. وهنا فإن الاستقلال ينظر إليه كأحد الأشكال المتقدمة للنزعات التى تصاعدت داخل المراكز المهيمنة الرئيسية أو الإمبراطوريات، والتي واكبت صعود البرجوازيات الغربية. وفحوى هذه الحركات هو التوصل إلى المساواة القانونية فى الحلبة الدبلوماسية حتى يتسنى "للحاق بركب القوى العظمى".

ذلك هو بشكل عام منظور أهم الحركات فى تاريخ الغرب الحديث من الحرب الأهلية الأمريكية إلى تفسخ الإمبراطوريات النمساوية المجرية والعثمانية.

ب - وقد تلت ذلك صياغة ثورية راديكالية ظهرت بشكل أساسى فى المناطق التى تأثرت بصعود الهيمنة الأوروبية. وتشدد هذه الصياغة على عملية "التحرر الوطنى" وليس الاستقلال فحسب، وهو ما يعكس طرحها جذليا للإشكالية، يستند على الصراع ويستهدف تأسيس كيان قومى مستقل وذو سيادة فى مواجهة الهيمنة السياسية لكيان أوسع. ذلك هو تاريخ الحركات الوطنية فى

الشرق خاصة فى آسيا والعالم العربى والذى لحقته إفريقيا ثم تبعته أمريكا اللاتينية مؤخرا. ومن الواضح أن هذه الحركات المستندة على القطيعة والتمايز أكثر حدة من التى سبقتها سواء سلبا أو إيجابا، حتى وإن كانت بينهما ملامح مشتركة.

٢ - ٢ كيف يمكن بناء على هذه المقدمات أن نتناول مسألة التساؤلات الجديدة الصاعدة من داخل القطاعات الأكثر ديناميكية فى الغرب ذاته؟

إن الظاهرة التى نحن بصددنا ظاهرة حديثة. ففى أثناء الحرب العالمية وبعد أعوام ١٩٣٠ - ١٩٤٥، وفى إطار صراع الأمم الأوروبية مع المحور الهتلرى الفاشى ظهرت حركات المقاومة الوطنية بهدف تحرير الأوطان من خلال المقاومة الوطنية فهدف تحرير الأوطان من خلال الكفاح المسلح. وانتهت مرحلة الكفاح المسلح بحلول عام ١٩٤٥ ومؤتمر يالطا، ضمن سلسلة محاولات الهيمنة العسكرية من مختلف الدول الأوروبية على مجمل الغرب. إن تراجع الإمبرياليات التقليدية فى مواجهة الإمبريالية الاقتصادية الأمريكية، تكون كتلة من الدول الاشتراكية الملتفة حول الاتحاد السوفيتى ثم ظهور موجه ثورات التحرر الوطنى فى الشرق - من حول الصين وتحت أعلام الاشتراكية، كل هذه الظواهر قد قللت من أهمية الاقتراب التقليدى.

أما على الجانب الآخر وفى كل من آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، فإن عملية التحرر الوطنى لم تعد مطروحة كمشكلة محتملة وإنما كحقيقة واقعة مقبولة أو مرفوضة ولا سبيل إلى الرجوع عنها، وإلا كان معنى ذلك مقبول الخضوع والتنازل عن المستقبل، ولكن ماذا عن أوروبا؟

إن ظهور مفهوم الاستقلال - وليس التحرر الوطنى - غداة عام ١٩٤٥ هو برنامج عمل يتم السعى بمقتضاه نحو الاستقلال الضرورى إزاء الهيمنة الأمريكية وإزاء التوازن بين القوتين العظميين وذلك فى ذات الوقت الذى تحولت فيه "الحرب الباردة" إلى "انفراج" بمرحلة "التعايش السلمى".

تلك هى ملامح اللحظة التاريخية التى شهدت انبثاق الظاهرة.

ومن ثم فإنه يتعين على قطاعات العالم الغربى المعنية بقضية الاستقلال أن تأخذ فى الاعتبار بخبرة البحث فى الشرق.

٢ - ١ هناك أولا على المستوى المباشر تلك الصلة العضوية - المتفاوتة الأهمية حسب الحالات - بين الاستقلال القومى أو التحرر القومى بوصفه كذلك وبين الثورة الاجتماعية وتلازم البعدين. والجديد فى هذا الصدد هو أن هذه العلاقة قد أصبحت علامة "عضوية" لا تقتصر على التكتيك المؤقت. وقد أوضحت التجربة بما لا يدع مجالا للشك أن الجبهات الوطنية الواسعة التى كونتها بشكل أساسى البرجوازيات المحلية المسماة "بالوطنية" تواجه مشكلات متزايدة فى بناء وتثبيت هذه الجبهات والحفاظ على خطها السياسى، نظرا لأن هذه التيارات البرجوازية تبدو أكثر تمسكا بمصالحها الطبقية عنها بمقتضيات حركة التحرر الوطنى ذاتها. وعلى الرغم من ذلك فإن مرحلة الراديكالية تفرض نفسها حيث تقرر الجماعات البرجوازية الحاكمة المبدأ فى عملية تغيير اقتصادى واجتماعى عميق التوجه إلى الشعب للحفاظ على الأمة فى مواجهة المحتل وهو ما انعكسه خبرات مصر الناصرية والجزائر فى ظل جبهة التحرير وسوكرانو والهند وبيرو وتنزانيا وسريلانكا ومعظم الأنظمة الجمهورية فى العالم العربى. أما فى بعض المناطق الأخرى وخاصة فى آسيا فى كل من الصين وفيتنام وكامبوشيا وكوريا ولاوس، فقد سمحت المحددات الجغرافية التاريخية بظروف أفضل، حيث واكبت الثورة الاشتراكية حركة التحرر القومى وكرستها. إن ما يترتب على ذلك هو نتائج بالنسبة للقطاعات الأوروبية المعنية بالاستقلال بالغ الأهمية. ذلك أنه من الواضح أن هناك استحالة طالما أن القطاعات الأكثر أهمية فى الشعب لا ترضى عن القيادات السياسية التى لا تعبر عنها، وذلك باستثناء اللحظات النادرة التى عبرت فيها عن إجماع الأمة شخصيات مثل تشرشل وديجول وروزفلت. وإذا لم تقدم القطاعات البرجوازية الأوروبية المعنية بالاستقلال الوطنى على إعادة النظر فى توجهاتها الاجتماعية الاقتصادية، فإنها تصطدم بالجدلية الاجتماعية التى تعطى الأولوية للصراعات الاجتماعية الداخلية، بحيث يتغلب الصراع الطبقي على الوحدة الوطنية التى تفقد الكثير من مبرراتها النظرية والعملية.

٢ - ٢ إن حركات التحرر الوطنى قد تحركت دوما - أو فرض عليها التحرك بمعنى أدق - فى الإطار الحديدى لتوازن القوى العالمى الذى يفرض محددات الحركة المحلية. إن الخبرة الأساسية التى يمكن استخلاصها من تجربة جناحى الشرق اللذان خفقا فيما مضى للسيطرة تتمثل فيما يلى: إذا كانت حركة التحرر فى آسيا قد ذهبت إلى حد بعيد - والصين خير دليل على ذلك - فإن العالم الإسلامى، وفى القلب منه المركز العربى، قد واجه دوما وبشكل مباشر جبهات الدول الغربية المهيمنة بداية بالحروب الصليبية وانتهاء بالدولة الصهيونية. وبشكل عام فإن معطيات اليوم لا تختلف كثيرا عن معطيات الأمس من زاويتين:

أ - وجود ثلاثة أقطاب رئيسية للقوة فى العالم: الغرب حول الولايات المتحدة، والاستراكيات الأوروبية حول الاتحاد السوفيتى، ثم آسيا ملتفة حول الصين. وإذا كانت ملامح الأقطاب الجديدة قد بدأت تتضح، إلا أن المستبعد أن تسعى للتساوى مع هذه المراكز الرئيسية الثلاث التى تدور حولها الديناميكية التاريخية المعاصرة. والمقصود بالأقطاب الجديدة: أوروبا والعالم العربى واليابان وفيتنام والبرازيل على وجه الخصوص.

ب - وجود إمكانيات للديناميكية فى طور الكمون، لم تلق حتى الآن التقدير الكافى وخاصة البعث فى مختلف المناطق القومية الثقافية فى الشرق من جانب أول، ثم التنافس فى إطار التشاور بين كل من المركزين الرأسمالى والاستراكى من جانب ثان.

٢ - ٣ على أن هناك صعوبة مزدوجة تطرح نفسها إذا ما شرعنا فى مقارنة إمكانيات الديناميكية فى مختلف القطاعات المهمة بالاستقلال الوطنى فى كل من الشرق وفى القطاعات الغربية المعنية، خاصة فى أوروبا الغربية. ففى الحالة الأولى، ينظر إلى الاستقلال بوصفه هدف تاريخى لمعركة التحرر الوطنى ومرتبطة عضويا بالثورات الاجتماعية فى مختلف أشكالها. ومن ثم فإن الاستقلال يعد فى هذا الإطار شرط البقاء بكل ما تحمله الكلمة من معان.. ولنا عودة إلى هذه الفكرة، أما فى القطاعات الأخرى فإن الأمر يختلف حيث أن ما يبدو ممكنا ومطلوبا هو

مجرد الحفاظ على السيادة فى مواجهة إمبريالية الهيمنة الأمريكية، وعلى الوفاق فى إطار الاسترخاء بين القوميين. ذلك هو المقصود بالاستقلال فى القطاعات الغربية. أما فى الشرق فإن أعلام الاستقلال الوطنى ترتفع كل يوم إلى أعلى، ليس بدافع أيديولوجى وإنما استجابة للظروف الخاصة المحيطة التى تحكم الحياة اليومية للبشر والمجتمعات.

وإذا ما واصلنا التفكير فى هذا الموضوع يتضح لنا الآتى:

٣ - ١ إن عملية "رفض التبعية" المطلوبة فى كل من القطاعين - كل بأساليبه المتميزة - لا تصل إلى مرحلة "التأثير التبعوى" إلا إذا ذهبت إلى ما هو أبعد من مجرد حماية السوق الوطنى، بحيث تتبنى مسألة الحفاظ على الهوية القومية كاملة. صحيح أن صراعات النفوذ قد ظهرت فى أوضح صورها فى مجال السوق أى الاقتصاد القومى. على أن الصراعات فى المجال الاقتصادى فى دول الشرق هى عملية مستمرة، وأحد المعطيات المكونة لاقتصاد هذه البلدان. أما فى بلدان الغرب الرأسمالى فهى تعكس تراجعاً فى الآراء أو اختناق عسير مؤقت فى عملية النمو الاقتصادى للرأسمالية الغربية.

٣ - ٢ إن مسألة الحفاظ على الهوية القومية لا تطرح نفسها كمسألة إلا فى مجتمعات القطاع التابع حيث يمتد تأثير الإمبريالية إلى ما هو أبعد من المجال الاقتصادى والسوق المحدود الاندماج المفروض فرضاً فى السوق الرأسمالى العالمى. إن التأثير الإمبريالى يمتد إلى كافة المجالات من تشويه العملية التعليمية إلى محاولة تحريف الثقافة الوطنية مروراً بخلق الهوية بين النخبة المستغربة والجماهير الشعبية، مروراً بإبقاء هذه البلدان فى حالة التخلف التقنى والعلمى وإضعاف السلطة الوطنية... بالمؤامرات الداخلية والاعتداءات الخارجية المتكررة.

٣ - ٣ وفى مواجهة كل ذلك، فما هى العناصر التى تسمح بالحفاظ على تماسك الجبهة التى تهدف إلى الحفاظ على الهوية الوطنية فى مواجهة الإمبريالية

والهيمنة، وبحيث تستمر هذه الجبهة لأطول فترة ممكنة؟ هنا فإن مفهوم الحضارة يطرح نفسه على تناولنا للقضية.

أ - إن طرح المشكلة باستخدام المفردات السياسية، أو باستخدام مفردات الحركة السياسية بمعنى أدق، أمر ضروري في المدى القصير والمتوسط. وسواء تعلق الأمر بمستوى التكتيك أو بالمستوى الإستراتيجي فإن هناك من العديد من المتغيرات ما يسمح للتشكيلات السياسية المختلفة، بشكل مختلف القطاعات السياسية والأيدولوجية للحياة السياسية.

ب - وعلى مستوى أكثر عمقا تبقى ضرورة إبراز أولوية الإرادة أو بمعنى آخر أولوية العمل والبعد السياسي. والمقصود بذلك هو أن تتحول أولوية السياسي في ذاتها إلى مشروع، يتجاوز برامج الحد الأدنى والإستراتيجية والتقنية رغم ما لهذه المستويات من أهمية وفعالية، وهنا فإن المشروع يصبح قويا ثقافيا بحق. ومثل هذا المشروع هو وحده القادر على ضمان استمرارية المجتمعات القومية المختلفة والأمم والحضارات التي تكون عالمنا المعاصر.

٤ - إن المشروع الحضاري للغرب - بكافة مجتمعاته - هو ذاته ذلك المشروع الذي كان محورا لصعود أوروبا إلى مستوى الهيمنة على العالم في القرن الخامس عشر وحتى القرن الثامن عشر. وتتمثل مقوماته في أيدولوجية إنتاجية تستهدف التوسع دون حد، ورفع مستوى المعيشة بشكل مستمر وزيادة استهلاك الخدمات الاجتماعية وإخضاع مختلف قطاعات الشرق لتأكيد الهيمنة الغربية، وذلك باستخدام الحديد والنار تارة وأساليب الإمبريالية الثقافية والفكرية تارة أخرى. وقد كانت الفلسفة المصاحبة لهذا المشروع في البدايات هي العقلانية الكلاسيكية ثم تتويعاتها الليبرالية أو المادية أو المثالية ثم تلتها فلسفات الاشتراكية والهيومانية الاشتراكية.. وقد نظر إلى العالم كله باعتبارها أوروبا - أو الغرب بمصطلحات اليوم، وانتقل مركز الثقل فيما بعد إلى أمريكا الشمالية. إن النموذج العام ومقاييس القيم والتصور السائد عن صورة الإنسان لا تختلف كثيرا باختلاف النماذج الغربية. إذ ينحصر

الخلاف الأساسى بين النظامين الاقتصاديين الاجتماعيين اللذان يقتسمان الغرب على تعيين ذلك القطاع من السكان الأحق بالاستفادة من الرؤية الغربية للعالم ومن فائض القيمة الاستراتيجية الأساسى الناتج عن إخضاع مجتمعات مجتمعات وأمم وشعوب القارات الثلاث - وفى القلب منها الشرق - من قبل مراكز الهيمنة فى الغرب.

٤ - ٢ وهنا تتضح ملامح الأزمة: ذلك أن محاولة تدعيم الاستقلال الوطنى فى مواجهة المركز المهيمن الذى تمثله الولايات المتحدة اليوم، لا تتجاوز إلا ضمان هامش أوسع للاستقلالية الإقليمية. إن الكيانات القومية الغربية، لم تقدم حتى اليوم على طرح أى مشروع حضارى، يختلف عن ذلك المشروع المطروح على العالم كله بصورة واضحة، بل وفجة، والمتمثل فى نمط الحياة الأمريكى.

٤ - ٣ أن المقاومة العنيفة والدعوبة تظهر إذا ما تناول مشكلة المشروعات الحضارة البديلة.. فقد اعتبرت أوروبا طول عدة قرون أن "الحضارة" هى نتاج أوروبى صرف. وإن هذا الناتج الأوروبى يصلح بالضرورة للعالم كله، والواقع أن كل ما يصدر عن الغرب حاليا يترك أثاره على المناطق الهامشية. والواقع أن هذا لا يرجع إلى محدودية نظرة المراكز المهيمنة والإمبريالية فحسب، ولكنه يعود أيضا بالطريقة نفسها، بل وبدرجة أكبر، إلى مواقف المنظرين لصالح الثورة العالمية المعارضة للقوميات والذين أبرزوا على التوالى مناهج المركز والهامش، ثم الشمال والجنوب والى كانت تعكس الانتقال من "الأنوار" الأوروبية بالأمس إلى الحركة الدولية الاشتراكية إزاء عوالم وصفت بأنها الثالثة. إن التمحور حول الذات الغربية والذى يحل محل التمحور الكلاسيكى حول الذات الأوروبية، يمثل اليوم العائق الأساسى الذى يواجه الغرب فى محاولة طرح مشكلة المشروع الحضارى البديل، والواقع أنه رغم الإحجام عن طرح هذه المشكلة بشكل عام، فإن ثمة محاولات ومبادرات جزئية تنتج إمكانية للتفكير فيها. ومنها إحياء الأيديولوجيات الدينية وتأكيد الطابع القومى، سواء على مستوى الطبقة السياسية القومية الحاكمة أو من قبل البديل الشيوعى، كما يشار أيضا إلى وعى الشباب وإدراكهم للأزمة،

والذى يؤثر مباشرة على النخب السياسية والثقافية الحضرية وإلى التحديات الموجهة ضد النموذج الغربى والصادرة عن الهوامش. على أن أحدا لم ينظر إلى هذه العوامل، باعتبارها مصدرا محتملا للتجديد. ذلك أن قدرة النموذج الغربى للحياة - أى الأمريكى - على النفاذ والتكيف قد تغلغلت فى أعماق الجسد الاجتماعى والفكر والحساسيات فى مجمل المجتمعات الغربية.. إن الوقت قد حان، كى تقدم الطلائع الغربية الراغبة فى صنع مستقبل الغرب، على طرح قضية إمكانية الاستقلال الوطنى، وذلك باستخدام مفردات الثورة الثقافية.. وبغير القطيعة وإعادة الهيكلة فإن المستقبل سوف يكون بالضرورة، ذلك الذى يقرره المركز الأمريكى على أطراف إمبراطوريته، حتى وإن كان ذلك مصحوبا بهامش متسع وليبرالى الطابع للاستقلال.

٤ - ٤ وهنا فإنه يمكن طرح مفهوم "مرحلات المبادرة التاريخية"، تلك المبادرة التى امتلكتها أوروبا من القرن الخامس عشر وحتى يالآ والتي يبدو أنها فى سبيلها للانتقال إلى أيدى الشرق والذى يتأثر مباشرة بالتغيرات التى أسفر عنها الحكم الاشتراكى فى الغرب. إن طرح قضية "الثورة الثقافية" كجوهر للأولوية السياسى قد انبثق من آسيا. ومن المنطقة الإسلامية العربية ظهرت الدول القومية الراديكالية حيث اجتمع الجيش والشعب حول البترول. وفى هذه المجموعة المتسعة التى تشكلها القارات الثلاث فإن ثمة مقتضيات للتوفيق تفرض نفسها: بين الثقافات الوطنية التقليدية التى كثيرا ما تأخذ صورة الولاءات الدينية، وبين اتجاه الحركات الوطنية والثورية بحيث يمكن أن يتم عن قريب تجاوز تلك التناقضات بين العقل والإيمان، وبين العالمية والأمة، وبين السلطة والفلسفة، إلا إن ذلك هو بعد آخر لن نتعرض له تفصيلا.

٤ - ٥ وهنا فإنه يتضح أن إقامة علاقات جدلية - أى علاقات مواجهة ليست بالضرورة ذات طابع صراعى - بين القطاعات الغربية الساعية نحو الاستقلال وبين جبهة القارات الثلاث الملتفة نحو الشرق، هو السبيل الوحيد لخلق إمكانية التجديد وطرح التساؤلات المفضية إلى بلورة المشروعات الحضارية الكبرى فى عالمنا المعاصر.

وقد آن الأوان أيضا لرد اعتبار الفلسفة ومكانتها فى تسيير شئون المدنية، إلا إذا أصر البعض على مواصلة السير بلا مشروع.

وقد يرى البعض أننا نعيش فترة عجيبة تشهد عودة "الأشباح": الأمة والفكر الفلسفى و الظاهرة الحضارية. على أنه يبدو أن الوقت قد حان لكى تَتمكن المجتمعات البشرية من التشاور والنضال من أجل صياغة وإعمال أنماط حياتية قائمة على التفاعل الخلاق إما على مستوى العناصر الذاتية أو على مستوى العالمية.. وانطلاقا من دور الفلسفة فى خدمة المشروعات الحضارية المختلفة. فإن أدوات التحرك باتجاه هذا المشروع هى القالب الذى يسمح بصهر الحقيقة القومية.

فى جدلية الزمان

إلى أستاذنا الأجل جوزيف نيدهام

"لا يبدأ الفكر إلا عندما ندرك أن هذا الشئ الذى هو العقل المؤله خلال القرون هو العدو الأكثر شراسة للفكر".

مارتن هيدجر

(الطريق المسدود الذى لا يقود إلى أى مكان)

هل يمكن للفكر الغربى بما له من تأثير عالمى أن يوفر إمكانية حوار حقيقى بين الحضارات؟

١ - يقول الافتراض للمشكلة التى ندرسها بشكل مشترك إن جميع اتجاهات التطور الاجتماعى وسلبنا ومفاهيمنا للدخول فى مشكلة هذا التطور فى العالم يعتورها الخلل أساسا، أو أنها الآن على الأقل موضع تساؤل من قبل الأغلبية الواسعة من المفكرين فى العالم وخاصة فى الشرق.

باختصار وكما سيظهر فيما أن السؤال المطروح أمامنا هو:

كيف تطرح مسألة التطور الاجتماعى ضمن إطار التحول فى العالم فى هذا العصر؟ نقصد بذلك أن التركيبية والإطار التقليديين للافتراضات الاقتصادية الاجتماعية لمشكلة التطور والعلاقات المتبادلة بين الحضارات والثقافات والأمم فى عالمنا هذا ينظر إليهما كإطار مقيد ومدان بالتهميش، ويقود إلى مزالق مجهولة وغير ملائمة لمستقبل الجنس البشرى، وهناك اقتراح آخر وفى نفس الوقت يقول بإمكانية اعتماد بديل آخر لطرح المشكلة قد يقود إلى إيجاد سبل أفضل للعلاقات المتبادلة بين الحضارات والثقافات، وتسمى هذه الطريقة بالعملية الجدلية.

الحصر النمطي: البحث عن البديل

يمكن تلخيص الطرح التقليدي للمشكلة بما يلي:

(أ) اعتبار التطور وسيلة اقتراب للمجتمعات الهامشية وخاصة في الشرق (آسيا وأفريقيا) كما في أمريكا اللاتينية فيما بعد، ولكن بطريقة مختلفة من أجل اللحاق بالمجتمعات المتطورة في الغرب، وقد تعادلت اليابان مع الأخيرة بحكم الحالة نفسها من أجل حاجات ومتطلبات تلك المجتمعات.

الآن ما الذي نريد التوصل إليه؟ بكلمة واحدة يبدو أن الهدف المنظور الذي نسعى لتحقيقه يتكون من اتحاد حي لنمو الناتج الوطني الإجمالي مع مستوى من الحريات المدنية والشخصية من خلال تحقيق ازدهار الثقافة ونمو تبادل الأفكار، وفوق ذلك كله تحقيق متع الحياة في مجتمع تقدمي بتحول اجتماعي مترابط.

إن النموذج المقترح هو ما يمكن ملاحظته في الأمم المتقدمة في العالم الغربي (أوروبا وأمريكا الشمالية) حيث بلغت متع الحياة والسعادة الاجتماعية والفردية قمتها في التاريخ البشري.

ومن المناسب هنا الإشارة إلى أن المحللين الشرقيين والغربيين على حد سواء أكدوا القوة الجبارة الهائلة والتأثير المتماهي للأسس العلمية والتقنية والاقتصادية على الفكر الغربي العالمي والمؤسسات الاجتماعية، هذا التأثير العالمي لم يعد ناتجا فوق - عدمي لتفوق المفروض أن يكون عليه الفكر الغربي وحسب بل، وأكثر من ذلك في لغة مجموعة التقدم المادي والإبداع الثقافي.

هذه الرؤية العالمية لمشكلة تفوق الغرب فيما يتعلق بتأثيره العالمي بحد ذاتها تعبير عن الاتجاه الجديد السائد في علوم الإنسان والمجتمع هذه الأيام في الشرق والغرب على حد سواء وكما أشير إليه في معرض بحثنا هذا.

(ب) وبما أن هذا التفوق جلي وغير قابل للمناقشة، فماذا سيكون الغرض؟ وما هي السبل لتحقيق شيء آخر له صفاته الثقافية الوطنية والحضارية؟ وباسم ماذا؟ إنه

بالتأكيد حقل الخصوصية وعالمه، ولكن لوجود حضارات مختلفة ومجالات ثقافية وطنية متعددة، كيف يمكن تحقيق إدامة اجتماعية واستمرارية تاريخية؟ ولأى غرض؟ كيف السبيل للتخلص من الهامشية؟

ج) الجواب التقليدي هو أن التحول الاجتماعي الاقتصادي، أى الثورة الاجتماعية، سبيل لتحقيق هذا الإصرار على الخصوصية، والحفاظ على الهوية الحضارية والثقافية وهو بكلمة واحدة ما يعرف تاريخيا بخصوصية المجتمعات المختلفة التى تكون حضارات اليوم وثقافته كما نعرفها نحن، ويمكن القول أيضا بأنك إذا أردت تحقيق ذاك وتجنب طريق الغرب والتخلص من التهميش، فالطريق الوحيد لذلك هو تحويل مجتمعك الوطنى.

ويمكن رؤية هذه العملية على أنها تحوى جانبين متضاربين:

أولاً: من الجانب الإيجابى فإنه مما لا شك فيه، أن التحول الاجتماعى لأى مجتمع وطنى وأية أمة يقود عادة إلى زيادة الناتج الوطنى الإجمالى وإلى توزيع عادل لمنافع التطور فى المجتمع، وفى أفضل الحالات يقود إلى إصلاح اجتماعى متقدم كما نعرفه فى أكثر من دولة.

ثانياً: ولكن إلى أين يقود فيما بعد؟ يطرح السؤال نفسه من ارتباط اتجاهين رئيسيين فى التطور:

- فى الغرب توصف مشكلة الإيمان بالمنافع الحضارية لمظاهر التطور على أنها أزمة الشباب والفوارق بين الأجيال ومرحلة اليوطوبية الجديدة (Neo-Utopianism) وإلخ.

- أما فى الشرق فيبرز اتجاه التطور فى نهوض الشرق، والانفتاح على العصرية وبروز القارات الثلاث (آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية)، وانتهاء الإمبراطوريات التقليدية، وفشل الهيمنة الإمبريالية فى تثبيت طرقها المسدود، وحرب أكتوبر الأول ١٩٧٣ وما يسمى (بأزمة الطاقة).... إلخ.

إن هذين الاتجاهين يمثلان تناقضاً على صعيد عال، ومع هذا ففي ١٦ سبتمبر ١٩٧٧ نشرت اللجنة الأمريكية للصحة العقلية برئاسة الدكتور توماس براينت

تقريرها المذهل والذي جاء فيه: "إن حوالى ٢٠ - ٣٢ مليون أمريكي يحتاجون إلى نوع من الرعاية العقلية". بينما تذكر الأرقام الحقيقية بموجب تقديرات أكثرية اللجنة بأن الرقم بلغ الأربعين مليوناً.

(د) من المناسب هنا أن نتأمل الإطار السياسى الشامل الذى تحقق من خلاله هذا التجانس الدولى تحت تأثير تعميم قيم الثقافة والحضارة الغربيين.

منذ عام ١٩٤٥، والعالم الذى انتقل من الحرب الباردة باتجاه التعايش السلمى الذى يسير الآن إلى الانفراج السياسى، يعيش فى الوقت الحاضر أزمة حقيقية. فالانفراج السياسى هو أكثر من تدبير دولى عابر، واستراتيجية ملائمة متفق عليها جماعياً. وقد قصد فى الحقيقة بكلمة التعايش من قبل نظامى الغرب "الغرب الليبرالى إلى الرأسمالى الاحتكارى. والنظام الاشتراكى الأوتوقراطى". أنه لا مفر من أن يرى ويقبل الجميع بأن هيمنة الغرب وأسبقية التاريخ هما نقطة البداية والأساس الحقيقى نحو التحول الاجتماعى والإنسانى فى جميع المجتمعات فى عصرنا. وأنه لا يمكن قبول أية أزمة قد تقود إلى تمزق أو تفجير الوضع الدولى إلا بمقدار ما تناسب متطلبات تلك القوى العظمى. إنه طريق مسدود من غير ريب بالنسبة للقارات الثلاث، وفوق كل ذلك للطراز الحضارى الشرقى للمواصلة بالتكيف، والتكيف بغرض البقاء. والإخفاقات والأزمات والطرق المسدودة التى لا مفر للشرق من مواجهتها، والتى عاشت ضمن مجتمعاته لحين النهاية المضادة المحتومة، هى نتيجة لقلّة الموارد الأساسية فى الشرق وفى القارات الثلاث بشكل عام.

٣ - من هنا نلتصّل الحلول البديلة. كيف نواجه هذا الأمر؟ وأين نبحث عن البدائل؟

(أ) لقد جرى البحث على مجال واسع النطاق وبمستوى نظرى ضمن مفهوم التصور الحضارى واستراتيجية الحضارية المرافقة له، فالتصور الحضارى وليس فقط التصور الاجتماعى هو اقتصادى واجتماعى جوهرياً، برداء شعبى ظاهرى هنا وهناك، وقد تناولنا فى مكان آخر هذا المفهوم وسنعود إليه لاحقاً.

(ب) على المستوى الجزئى أو على المستوى الأدائى النبوى فإن البحث يجرى عن أداة وموقع للأبعاد الضرورية، وعن الموقع الأساسى لتطوير وتشكيل وبدء عملية تنفيذ النماذج البديلة للتنمية الحضارية، وفى الوقت نفسه وبسبب الضرورات التاريخية فالبحت لم يتخل دقيقة واحدة عن العمل من أجل التنمية الوطنية بكل ما تعنى هذه الكلمة من مفهوم تقليدى.

- ٢ -

الزمن: "النهر الذى لا ينتهى"

إن مفتاح الحل لهذه المشكلة يجب أن ينظر إليه بمقياس الزمن. حيث نتعامل هنا فى عمق المجال التاريخى وفى البقاء والاستمرارية الاجتماعية عبر التاريخ مع ما تواجهه الحضارات والثقافات وبالذات مسألة هويتها واستمراريتها وتطورها. وبكلمة أخرى جدليات الخصوصية ضمن الإطار الشامل للجنس البشرى.

الزمن هو حقل التقدم الإنسانى، النهر المتجدد الجارى، إنه محتوى ومضمون التطور نفسه.

نحن بالطبع نستطيع أن نختار عوامل شكلية ذات مغزى فى جدليات الحضارات والثقافات كالقوة السياسية ونوعية وقدرة مقاومة البنى الاجتماعية الاقتصادية وتطورها. أو قدرة مختلف الحضارات والثقافات على مواجهة التأثيرات الخارجية الأجنبية، أو قدرة الحضارات والثقافات وبالذات مسألة هويتها واستمراريتها وتطورها. وبكلمة أخرى مسألة جدليات الخصوصية ضمن الإطار الشامل للجنس البشرى.

الزمن: هل هو رؤية موحدة؟

إنه يبدو كذلك، فكانت الموسوعتين البريطانية والفرنسية العالمية Encyclopaedia Britannica & Encyclopaedia Universalis لا تختلفان فى ذلك. حيث تتحدث كل واحدة تحت عنوان "الزمن" عن هذا الموضوع بنفس غربى كامل موحد فلسفيا وفيزيائيا، مع التأكيد على التقاليد الأرسطوطاليسية

الكننتية. ولم نجد في المصادر الغربية ما يوحي بأن هناك اهتماما قد يكون مكرسا للبنية التاريخية لمفهوم "الزمن"، مع إهمال المفاهيم والرؤى المختلفة له في عدد من الثقافات الرفيعة والحضارات البشرية.

هنا أيضا نواجه الفرضية التعميمية باعتبارها مدخلا يمثل أمرا واقعا للفلسفة والنظريات ومجموع حقائق الأعمال الفكرية. إننا مدركون للرؤية الغربية للزمن. إنها فوق كل شيء رؤية تنمو لبلوغ الحالة العلمانية، أى للتحديد والإشارة، وللتمكن من التحليل والعمل الذي يكشف من خلال البرمجة مع التهيؤ لاتخاذ إجراء ما، وفي الواقع، فإن أرسطو طاليس هو الذي قام بتوجيه دفة الفلسفة والمنطق في الغرب ولعب الدور الرئيسي في ذلك، ولسنا هنا في معرض تفسير الخلفية التاريخية للذوابع الأرسطوطاليسية، ولعله من الضروري أن نشير إلى أن بروز المنطق الشكلي وتكون مجمل نظامه المرتبط بالأرسطوطاليسية، وهيمنة التفكير التحليلي كان يقصد منها مرافقة التوحيد المؤقت لدويلات المدن اليونانية المتهاوية حين ذاك في دولة واحدة تحت حكم مقدونيا والإسكندر.

إن العملياتية والكفاءة والعمل كانت كلها من متطلبات الفكر في ذلك الزمن، ولتحقيق هذه المتطلبات جاءت النظرة الأوروبية للزمن بشكل أداة عمل، وليس بمحتوى مكانة الإنسان ضمن المسيرة التاريخية، أو بمحتوى المظهر البشري في الكون ومكان وجوده في منطقة واحدة موحدة "الكرة الأرضية" في هذا الكون المجهول. ومنذ ذلك الوقت، تقدمت الرؤية الغربية للزمن عبر هذه الخطوط التحليلية العملية التاريخية لتحدى الغرب، وذلك خلال الفترة بين الإسكندر والفتح الإسلامي كما حدث ابتداء من القرن التاسع. وليس عروضا أن التفكير النقدي حول الزمن بدأ بالتحديد بعد موجه الفتوحات الإسلامية حوالى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، مع جاليليو والموقف النقدي من النهضة الأوروبية، وتصاعد السيطرة الغربية ونهوض الغرب إلى المواقع المركزية في المبادرات التاريخية في تاريخ العالم ذلك الوقت وفرا استمرارية تقاليد التحليل العملياتية الأرسطوطاليسية. كما تمثلت في كل اتجاه الفلسفة الأوروبية منذ القرن الثامن عشر وإلى يومنا هذا، من كنت وحتى أينشتين.

هنا ثانية، لم تقدم العمليات الملموسة الفاعلة في التاريخ تحديات قادرة على تنمية رؤية بديلة للزمن. بهذا أصبح الزمن واحدا من أمثلة المفاهيم التحليلية العملية التي تتضمن التقليد الرئيسى للفلسفة الغربية منذ أرسطو وحتى اليوم، ومع هذا فالزمن لا يكن إلا مثالا واحدا للوجود في العالم الملموس. وقد اعتبر الإنسان، أو بالأحرى اعتبر نفسه، سلطة حاسمة وسيد الكون وخالقه، مواجهها لما كان يسمى باغتراب أيديولوجيات الأديان ومؤسساتها عبر طرق العقلانية والتفكير العلمى، الإنسان كسلطة حاسمة يمكن أن يكون إنسانا فقط بصفته سيدا ومستخدما للزمن. وهكذا بالتدريج وبلغة كل يوم أخذ الإنسان يبدو وكأنه "يحصل" على الزمن و"يحتاج" الزمن و"لا يحصل" على الزمن وكفايته منه كأنما هو مثل للممتلكات الخاصة، عربة أو ورق كتابة، أو ماكينة غسل ملابس أو لحم بقر أو كأنه شئ ملموس.

Man appeared to "Lack" time "Not to Have" ime or Enough)
(time كيف تستخدم الزمن وليس كيف استخدم الإنسان من قبل البعد الزمنى. كيف تستخدم الزمن للمنجزات بدلا من تأمل مغزى العمل والمنجزات خلال الزمن. وبالطبع يمكن المناقشة بالحجة بأننا نعرف جميعا أن الأفضل أن نفعل ما بوسعنا للاستفادة من الزمن، وهذا هو المناخ الأساسى للسيكولوجيا الثقافية والتي تكونت منها تاريخيا بالتدريج للمفاهيم الوصفية للعلم والعقلانية وقوة الزمن فى العالم الغربى.

إن المنجزات والقوة الدافعة كانت هناك لغرض المواجهة والتأكد وكانت تبدو غير قليلة للتوقف. لاشئ كان بإمكانه أن يحتل الرؤية السائدة لحين بدء التاريخ بالتحول.

٦ - على الجانب الثانى من النهر كانت الرؤية والمفاهيم الشرقية قد تكونت عبر عمليات مختلفة تجرى فى مجتمع كلى.

(أ) عند الاهتمام بدراسة التركيبية الجغرافية التاريخية للأمم والمجتمعات فى الشرق، فى آسيا وحول الصين. فى المنطقة الإسلامية، فى الدول الأفراسيوية،

سنرى حالا أننا نواجه أقدم المجتمعات المستوطنة والمستقرة وأقدم التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية فى تاريخ الجنس البشرى، وهى مجموعة من المجتمعات قامت بالاستيطان حول الأنهار الرئيسية وأمام مداخل المحيطات والبحار، وبذلك تمكنت المجموعات الرعوية من التطور نحو نمط للإنتاج والوجود الاجتماعى الزراعى المستوطن والأكثر ثباتا.

إن المقدمات الموضوعية لتكون أقدم الأمم فى عالمنا أعيد تجميعها بالتدرج فى المناطق الحضارية من خلال إطارين حضاريين للشرق.

حدث هذا الاستقرار عبر خليط مصدر وافر للمياه، ينظم عادة من قبل المجتمعات المائية معتدلة المناخ، وبين منافذ واسعة نحو المحيطات. من الأهمية بمكان أن نستوحى الصلة بين متانة الديمومة الاجتماعية عبر القرون وآلاف السنين وبين هذه المقاسات لنلا نسقط فى التفاسير الروحانية المثالية من النوع الذى أتى به "ماكس فيبر" فى تقديم للنمط المثالى "Cdealtypus".

(ب) وجاء العامل الثانى ذو الأهمية الكبيرة ليؤكد وبعمق أبعاد هذه الاستمرارية فى الديمومة الاجتماعية والتماسك الاجتماعى لنقطة اللقاء المركزية فى الشرق. وهنا يجب علينا أن نضمن التاريخ الجغرافى السياسى فى تحليلاتنا، إن شعوب الشرق عامة كانت تقيم فى تقاطع الطرق بين القارات وتملك مفاتيح شبكة الانتقال التجارى والاقتصادى والبشرى، مواجهة دوائر كبيرة تقطنها مجاميع وثنية غير مستوطنة، رعوية وذات طبيعة قبلية على الأغلب، وبطبيعة الحال فإن هذه المناطق أخذت تتسحب نحو الأقاليم المتميزة الموسرة، حيث عاشت شعوب الشرق وانتعشت.

وهنا بدأ تاريخ الموجات المبكرة للغزو والنهب والاحتلال، من العصور القديمة إلى الاستعمار والإمبريالية. وحتى عصرنا هذا، تركز بشكل رئيسى على مناطق البحر الأبيض المتوسط وغرب آسيا والتى وصفت من قبل رجال الجيوبوليتيك فى الفترة بين ١٩١٤ - ١٩١٨ بأنها منطقة الشرق الأوسط. وبالطبع فهذا التسلسل الطويل للصراعات التاريخية له تأثير واحد فقط كونه يشكل تهديدا

لوجود الشعوب الغنية فى الشرق، وبكلمة أخرى يعنى أنه أخذ يقوى ويعمق للنزوع نحو الاستمرارية والديمومة الاجتماعية والاتحاد المركزى والوحدة الشعبية لتلك الأمم.

(ج) من هنا جاء أن النسيج التاريخى الموضوعى للشرق نفسه يعظم إلى أقصى الدرجات الزمن، من حيث كونه إطارا أعرض للوجود الوطنى ذاته، ولهذا فإن الزمن بالتدريج أصبح مدخلا لرؤية العالم "Weltanschauung" للشرق.

الزمن، هذا البعد الشامل، صانع التاريخ البشرى نفسه، الجو الذى كان عليه أن يقيم نهضة ثلاثة أديان إضافة إلى التقاليد الفلسفية والصوفية فى آسيا وأفريقيا. وهكذا، فرؤية الزمن كسيد تسمح للقول بتطور الزمن ضمن رؤيا غير تحليلية وكمفهوم متكامل متواصل موحد موحد.. وعليه لن يمكن للمرء فيما بعد أن "يحصل" على الزمن أو لا "يحصل" عليه.. إلخ.

بالواقع.. لا يمكن فهم الزمن بصفته صانع الحياة والوجود وكأنه سلعة.. وعلى العكس من ذلك، فالإنسان قد أخضع وحدد من قبل الزمن. إن وجوده وفهمه لوجوده فى العالم كانا يمران عبر الزمن بتصور توفيقى بين المعتقدات، أو تميمى للمفاهيم والمعتقدات. وقد أصبح الزمن فى وقت قصير رؤية موحدة من وجهة نظر الشرق، وهكذا يبدو أكثر من أى وقت آخر كنسيج رقيق للفروق الحضارية بين نماذج الأفكار والأعمال عبر العالم على جانبى نهرينا الاعتيادى.. ولكن أين نذهب من هنا؟!

- ٤ -

عناصر من أجل تحديد الإستراتيجية

إن الرؤية والتصور الشرقيين للزمن يقودان مباشرة نحو جدلية الزمن.

(أ) ما إن وجدت أولوية الزمن حتى تبين أنه لا بد من التفكير باحتمال وجود طريق آخر للإنسان لمعالجة البعد الزمنى ما عدا قبوله بهيمنة الزمن المطلقة والتي تعتبر إطارا تشكليا حاسما للحياة والعمل الإنسانى. وقد استتبع ذلك أنه

ليس هناك من سبيل لرفض منح الزمن الموضوعي. الزمن ذى الأمد التاريخي، الأولوية على الزمن الذاتي، الزمن ذى الحس الفردى أو زمن الإنسان. ولهذا فمن الممكن جعل الزمن عاملا إيجابيا فى حالة ممارسة لعبة الزمن أى "بتحرير الزمن". وبكلمة أخرى أن تصبح الحرية ضرورة مفهومة، ويمكن اعتبار ذلك لحظة سلبية وعنصرا أساسيا فى جدلية الزمن.

(ب) وتتمثل الإيجابية ونفى النفى فى إمكانية أمم الشرق فى عبور الزمن اعتمادا على إمكانياتها ومصادر ثروتها. كما تم شرحه سابقا لتجد قدرتها على التمايز الذى بدوره لا يكون لها أى أمل فى النجاة لمدة طويلة من التهميش والهيمنة الغربية.

لقد وصلنا الآن إلى مستوى الفعل ووسائل وسبل العمل. بكلمة أخرى إلى عالم السياسة.

يهدف التصور الذى نريد أن نقدمه هنا باختصار إلى تمكين أمم الشرق من البدء بالفعل بعد عملية التمايز الضرورية، ذلك إذا كانوا يريدون أن يخاطبوا أنفسهم لأجل تطوير مشروع حضارتهم الخاصة، وللتعاون بطريقة هادفة مع الشعوب الأخرى وحضاراتها وثقافتها فى العالم المقبل.

تعنى أولوية السياسى: primacy of the Political هنا وجوب دراسة المشاكل التالية:

(أ) هناك أولا مستويان من العمل الوطنى هما:

(١) القطاع المكيف خارجيا من المؤسسة الوطنية. ونؤكد هنا أننا لا نعنى "بالجزء الخارجى المكيف" تلك المجاميع والقطاعات التى لها اتصال عضوى بالعالم الغربى المتواجد فى الأمم الشرقية أو تمثل مصالحه ومراكز قواه "الكومبورادور". ما نعنيه هنا هو تلك المجموعات والقطاعات فى المؤسسة الوطنية والتى تكون عرقيا أو بحكم المهنة والظروف مشبعة الأفكار بالمساهمات والإشكاليات الداخلية والمواصفات التاريخية وحدود المشاكل والمنجزات والطرق المسدودة للتقاليد الثقافية والرئيسية فى الغرب.

(٢) المؤسسة الوطنية المكيفة داخليا. هذا هو الجزء المهم على مستوى اتخاذ القرارات بمقدار ما يمثل من العوائل والمجموعات الروحية المثابرة فى الشعب.

ومن المهم هنا أيضا أن نذكر أن هذا الجزء لا يمثل القطاع القديم ذا النظرة الرجعية فى الواقع وكما ظهر مكررا عبر القرنين الماضيين وأكثر وبطريقة معاصرة لأهمية إعادة بناء الوجود الوطنى وصولا إلى مجابهة التحديات المتصاعدة والصراعات والتوتر الموجه مباشرة من قبل هيمنة العالم الغربى.

(ب) المجال الرئيسى الثانى هو الدولة بصفتها عامل توحيد وتكيف. ونعنى بهذا أهمية تقويم تغير الدولة فى وقتنا هذا والتي تلعب أكثر فأكثر دور المنظمة والهيكل المنظم للسلطة لأى مجتمع حديث. إن يكن ذلك الدور يمثل هيمنة الجبهة السياسية من ناحية القوة بطبيعة الحال وهذا متماثل فى جميع أنواع الدول، ولكنه قد يكون أكثر وضوحا فى الدول الآسيوية والأفريقية وأمريكا اللاتينية.

ولهذا يقترح أهمية إجراء إعادة نظر لغرض التمكن من الاستفادة من القوى الكامنة والتي تتبثق إلى الأمام فى طريقة جدلية معقدة.

(ج) ما هو وما يمكن أن يكون دور كل قطاع من هذه القطاعات فى المؤسسة الوطنية؟

١ - دور القطاع المكيف خارجيا فى المؤسسة الوطنية هو العمل قبل كل شئ كجسر بين أمم الشرق والغرب. ويقدر ما يجب أن يكون هذا الجسر قادرا على تزويد المؤسسة الوطنية ككل برؤية متنوعة لوقع تأثير "impact" العالم الخارجى يجب أن يعمل كوسيط يوصل بين المؤسسات المكيفة داخليا من جهة والعالم الغربى من جهة أخرى فى الوقت نفسه. ومع هذا فهذا القطاع ليس ولا يمكن أن يكون القطاع التكرينى فى اتخاذ القرارات على المستوى الوطنى.

إن الدور للمركزي سيكون هو دور القطاع المكيف داخليا في المؤسسة الوطنية. ويمكن معرفة دوره التاريخي بأنه الانتفاع من جدلية الزمن لأجل تطوير المشروع الحضارى.

وتعريف الإستراتيجية الحضارية من وجهة نظر فصلها عن معالجة مشكلة المستقبل، ومن الموقف الغربى من المشكلة، مع الأخذ بنظر الاعتبار الطرق المسدودة وللوضع المتأزم من جهة وإمكانيات ودلائل المستقبل فى الشرق من جهة ثانية.

٢ - لذلك سوف يركز القطاع المتكيف داخليا فى المؤسسة الوطنية على ما يلى من الحقول:

السلطة والثقافة.

شكل الإنتاج والاستهلاك.

الحفاظ على الطاقات والقدرات الوطنية.

إن هذه النواة ستأخذ بالاعتبار التعريف العلمى لخصوصية الثقافة الوطنية كما حددت خلال مجرى تطور وتكون الأمة موضوع البحث. وبعد ذلك فقط سيمكن لهذه المجموعة المشكلة أن تجابه مشكلة القوة والثقافة والاستهلاك والإنتاج والانتفاع بالإمكانيات.. إلخ، ومن الانتفاع من الماضى لأجل المستقبل بحيث لا يكون هامشيا بشكل قاطع، والذي سيدفع إلى المقدمة صفوفا عريضة من الإبداع الفكرى للأغلبية الكبيرة من سكان الأمة الموحدة كما يظهر فى الحالات المثلى فى الجبهة الوطنية المتحدة للتححرر والديمقراطية والتقدم الاجتماعى. إن دور المركز فى القوة السياسية - أى الدولة - سيكون هنا حاسما. ولكن الدولة لى تلعب هذا الدور الحاسم يجب أن تكون بالتحديد شيئا مختلفا عن الاستعمالات العقلانية للإكراه من أجل الحفاظ على أى نظام اجتماعى معين. على الدولة أن تؤكد أولوية السياسة والفكر. أى أهمية التفكير والعمل للصالح العام لعموم المجتمع من أجل صنع المستقبل فى مفهوم الإيجابية التاريخية.

هذا هو بالضبط موقع ودور الفلسفة فى المدينة. فمنذ عصر النهضة الأوروبية، ومنذ نهاية الإمبراطورية الإسلامية وأقول الصين فى نهاية القرن الرابع عشر إلى بداية القرن السادس عشر، أن للفلسفة أن تلعب دورها المركزى فى صقل العقول وبث الحماس وتنظيم عمل كل من النخبة القائدة والجمهير الواسعة من السكان فى كل واحد ووقت واحد. إن الأمر الذى يحتمل النقاش ليس العلم السياسى ولكنه أهمية الفلسفة السياسية فى المدينة وفى مجالى الدولة المركزية والمستويات الشعبية. وهكذا فإن الرؤية الشرقية للزمن المحددة هنا يمكن أن تبرهن على كونها الأداة المركزية التى يستطيع بها الشرق مواجهة مشاكله فى التنمية مستقبلا فى مفهوم الرياضة ومفهوم التطور الهادف. ويجب أن يتحقق ذلك فى الوقت الملائم أى قبل تأثيرات التهديدات المضادة المحتومة للعالم الغربى والخطط الشاملة للهجوم المضاد التى هى الآن فى أوج انتشارها بعد عام ١٩٧٣، والتى أصبحت فى الوقت الحاضر أكثر حدة وتسلا باتجاه تصفية النهضة فى الشرق.

فى الخلاصة يمكن للمرء أن يتساءل: لماذا يكون ذلك تطورا سياسيا فى تاريخ العالم؟

يجب علينا هنا أن نعزو الشعور بالأزمة فى الحضارة الغربية كما فى الآمال المتصاعدة فى الشرق لأجل أن نعرف لماذا وكيف يجب أن تكون آمال مستقبل الجنس البشرى فى عالمنا هذا، وكيف يمكن أن يعالج من خلال التأثيرات المتبادلة الهادفة بين الحضارات والثقافات الشرقية والغربية. ومع ذلك فمن المهم رؤية كون هذا التأثير المتبادل الهادف لا يعمل فى الفراغ أو فى عالم أسطورى، ولكن فى عالمنا الحقيقى، فى عالم الصراعات والتوتر والتنافس. فى عصر إعادة تشكيل أنماط القوى فى العالم منذ عام ١٩٧٣. هذا هو السبب فى ضرورة دراسة هذا التأثير المتبادل بصفة عملية جدلية كما فى المفهوم الجدلى للحضارة بدلا من الحوار. وتفهم هذه الجدليات على أن هدفها وتسقها هما الأمل فى تحقيق تأثير متبادل هادف متصارع عدائى بين جانبى نهرنا المشترك.

إذا رغب الشرق في أن يكون سيد مصيره، كان لزاما عليه أن يتمثل المثل
القائل في مجال الفنون العسكرية في اليابان:
"لا نتس أن الذي يعرف الجديد والقديم من الأمور هو الذي يمكن أن يكون
قائدا بحق".

اتجاهات فى المراجع

هذا البحث المقتضب وضع فى ١٩٧٧ - لكنه خلاصة لتاريخ. ذلك أنه بدأ على صورة مخطوط لكتاب فى فلسفة التاريخ وضعناه بالعربية أصلاً، فى القاهرة، فى أوائل عام ١٩٥٥ تحت عنوان "جدلية الزمان" فى نحو ٢٣٠ صفحة مخطوطة.

جاءت أيام الظلام، فى أبى زعل، من أبريل ١٩٥٥ إلى مايو ١٩٥٦، بين باندونج والسويس، وكانت استقرايات لها تاريخ آخر - وفى إطارها ومن خلالها تم تدمير المخطوط، وضباع الكتاب الأعز نهائياً.

ومرت السنوات ومعانيه فى القلب والعقل والوجدان تتعمق وتتأكد وتصلقها التجارب.

من هذه المسيرة إذن لكتاب مفقود - فيه رؤية الشباب، قيام الثورة، نبرات النصوص الفلسفى نبعث هذه الصفحات القلائل، بها خلاصة لبعض معانى كتابنا الأول، والأعز.

ربما لنا إليه عودة، بإذن الله

وجهة حرك الفكر الاشتراكي

رغم أن المفكرين السياسيين قد بدأوا يدركون الآن فقط كيف تحول العالم بعد يالتا، إلا أن التحول قد أصاب جوهر صراع السلطة الفعلى على المستويات العالمية والإقليمية والوطنية. ومن هنا كانت هذه المحاولة التمهيدية للنفاز من خلال الستار الدخانى الأيديولوجى للوصول إلى طبيعة العلاقة بين السلطة والثقافة، بين الفكر والعمل فى العملية التاريخية التى تتكشف اليوم.

١ -

إن ملحمة القرن الأول من الفكر الاشتراكي المعاصر.. هذا الفكر الاشتراكي الذى تطور فى القرن التاسع عشر، ثم فى أوائل القرن العشرين فى أوروبا يكشف عن النمط التالى:

١ - ١

لقد كانت أعمال ماركس وإنجلز وخصوصا جميع كتابات ماركس والتى تعد أهم إضافة أساسية للفكر الاشتراكي، تعنى أساسا بتحليل الجدليات الاجتماعية للرأسمالية المعاصرة فى مراحلها الأولى الصناعية.

ولقد كان أهم إنجاز حققته هذه الأعمال الرئيسية هو النفاز إلى أعماق عالم النظرية السياسية والاجتماعية التى عرفت فيما بعد باسم "الاشتراكية العلمية". ومع ذلك فقد حققت هذه الأعمال هذا الإنجاز استنادا إلى منهج التحليل المقارن والنقدى لمجموعة محدودة من التكوينات الاقتصادية الاجتماعية التى كانت تقع معظمها فى أوروبا الغربية ذاتها (خصوصا ألمانيا وإنجلترا وفرنسا).

ولقد روى أن فهم أهم مجموعة من الدول المتقدمة اقتصاديا والتى تحكمت فى دفة الهيمنة الغربية فيما بين مؤتمر فينا (١٨١٥) ومؤتمر يالتا (١٩٤٥) سوف

يكون الخطوة الأولى على طريق فهم غيرها من المجتمعات، وذلك طالما اعتمد تحليل الجدليات الاجتماعية على أسس مادية وموضوعية مما يجعله يكتسب وضع العلوم الصالحة للتطبيق عالميا.

وفى استطاعتنا أن نتبين الخصائص التالية فى إطار هذا الاتجاه الأولى والأساسى:

١ - ١ (أ)

أولا وأساسا نجد أن مفهوم التطوير النظرى على أساس تحليل قطاعى محدود قد تم تجميعه فى إطار العلوم العامة الخاصة بالتحول الاشتراكى للإنسانية. وفى هذا المضمار فإن حاملى إرث الماركسية كانوا يحملون معهم مشعل الإنسانية والعالمية للبرجوازية إلى مرحلة جديدة أعلى فى تاريخ البشرية. وباختصار فإن فقدته كان حريا بالطبقة العاملة فى أوروبا والغرب أن تتجز هذه المهمة التى لم تكتمل والتى كانت البرجوازية الوطنية فى أوروبا قد تصدت لها بالفعل خلال عصر الثورات الديمقراطية البرجوازية.. عصر التنوير Aufklärung والموسوعية. لقد كان العالم فى ذلك الوقت عالما واحدا ينظر إليه من خلال المعايير التى حددها المركز المهيمن. بحيث أن ما كان مفيدا للمركز كان مفيدا بالضرورة للأطراف. ومن هنا تعد الاشتراكية مرحلة أكثر تطورا من مراحل الحصر فى إطار المركز الغربى.

لقد كان ذلك هو روح العصر. ولم يكن فى استطاعة أى مفكر أيا كان مستوى نبوغه أن يتجنب هذا الموقع الذى فرض على الإشكالية.

١ - ١ (ب)

وفى خلال مرحلة الانتقال من المثالية الفلسفية إلى المادية اتجه الاهتمام الأكبر إلى مستوى الإنتاج الاقتصادى والتطور التكنولوجى المصاحب له أكثر من اتجاهه إلى مستوى السلطة السياسية الرسمية ومفاهيمها الأخلاقية. وهذا هو مغزى التحول مما يسمى الآن "بكتابات ماركس الصغير" (المعالجة الإنسانية الأخلاقية)

إلى المعالجة الاقتصادية فى رأس المال Das Kapital. وفى الوقت نفسه فقد اهتمت كتابات ماركس السياسية التى اختصت أساسا بفرنسا ما بعد نابليون بالارتباط بين العوامل الاقتصادية الاجتماعية وصراع السلطة السياسى. وفى الواقع فقد كان ذلك أمرا لا مفر منه أيضا، ذلك لأن مشكلة السلطة الاجتماعية لم تكن قد طرحت مطلقا فى أوروبا حتى ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ فى روسيا. ولذلك كان من الطبيعى أن يركز انتشار الفكر الاشتراكى على العمل على انعكاس التوازن والتحول من المفهوم المثالى إلى المفهوم المادى.

١ - ١ (ج)

هذا العامل الأخير يفسر لماذا استمر جو الشعبية اليوتوبية كما فى الطروحات التى تناولت ما يسمى "ذبول الدولة" والدور التاريخى للبروليتاريا الغربية، والدعوة إلى الوحدة الحتمية للعملاء الأجراء فى وجه الرأسمالية العالمية والرؤية "المسيحية" للمجتمع الإنسانى الذى يحقق المساواة، والذى سوف ينشأ بعد الاستيلاء على السلطة وتغيير النظام الاجتماعى الاقتصادى.

وفى حقيقة الأمر فإنه لم يكن من الممكن أن تسير الأمور عكس ذلك. ولا بد لنا أن نعى جيدا التأثيرات الملحة للأيدىولوجيات الاشتراكية غير الماركسية وخصوصا يوتوبيا فوريير Fourier والتأثير القوى للاتجاه الفوضوى الذى تزعّمه باكونين Bakunin إلى جانب التأثير الأكثر واقعية المتعدد الجوانب لسانت سيمون.

ويمثل هذا الاتجاه الأساس الأول لكل من النظرية السياسية والاجتماعية للتحول العظيم وفلسفته المثالية إلى المادية قبل عصر الثورة الاجتماعية والتغلب على سلطة الدولة.

ومع ذلك علينا أن نتوقف هنا لننظر إلى جذور فكر فريدريك إنجلز التى لم تأخذ حقاها فى التقويم حتى الآن وذلك لأنها تحتوى على بذور المرحلة اللينينية الثانية للنظرية الاشتراكية: الاهتمام بسلطة الدولة وأهمية العلم والتكنولوجيا

والقوات المسلحة والانتباه إلى البعد الثقافي القومي للتكوين الاقتصادي والاجتماعي ككل، وأخيرا الأهمية الحيوية للنشاط الجنسي.

١ - ٢

تدور المرحلة الثانية لهذه الفترة التاريخية الأولى حول الانتقال من الفكر إلى العمل ومن النظرية إلى الممارسة ومن الاشتراكية العملية إلى الاستحواذ على السلطة وخلق أول دولة اشتراكية في التاريخ.

كانت هذه إذن الفترة العظيمة للينينية ولبلورة الأيديولوجية الشيوعية في الوقت نفسه.

وفي غضون ذلك، أي فيما بين إصدار البيان الشيوعي وكتابات أكتوبر، طرأت على العالم المادى تغييرات هائلة شاملة. ورغم أن أوروبا كانت لا تزال تستحوذ على أكبر قسط من الاهتمام إلا أن القطاع الآخر من العالم الغربى.. الولايات المتحدة الأمريكية.. كان قد بدأ يصبح مركز السلطة العالمية كما برهن تدخله في حرب ١٩١٧ والثورة البلشفية. وكانت الأراضي المستعمرة التابعة حتى ذلك الوقت تشتعل بحركات الاستقلال والتحرر القومي والوحدة الوطنية والمقاومة الثقافية والثورة الراديكالية، خصوصا في الإطار الحضارى للشرق (آسيا حول الصين، العالم الإسلامى حول قلبه العربى).

وفى قلب الرأسمالية الأوروبية كانت قطاعات ضخمة من الطبقة العاملة قد بدأت تحتشد حول الديمقراطية الاشتراكية، فى الوقت نفسه الذى بدأت فيه شرائح اجتماعية أساسية من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة تظهر بشكل أكثر وضوحا نزعتها لتأييد ومساندة الديكتاتورية المسلحة لرأس المال الاحتكارى الذى تخفى تحت عباءة الفاشية والنازية.

وباختصار فإن استيلاء البلشفية على السلطة فيما كان يعتبر آنذاك أضعف حلقة فى السلسلة الرأسمالية الغربية كان واحدا من سلسلة تحولات طرأت على المسرح السياسى العالمى فى إطار اختلف تماما عن ذلك الإطار الذى عاش فيه

مؤسسو الاشتراكية الأوائل. ومن هنا يمكن تمييز الملامح الرئيسية للفكر الاشتراكي كما صاغه لينين ومعاصروه:

١ - ٢ (أ)

هناك تحول واضح من المعالجة الاقتصادية التي ركزت عليها طروحات لينين الأولية إلى المعالجة السياسية السلطوية المباشرة التي اتسم بها فكره بمجرد أن واجهته المشكلة الحقيقية وهي مشكلة الاستحواذ على السلطة في الدولة الاشتراكية الأولى، والتي كان يعد لينين فيها شخصية خلاقة بارزة.

ورغم أن العناصر البيوتوبية والشعبية ظلت باقية، إلا أن الانتباه تحول إلى مجال آخر.. مجال تحليل دور العنف في التاريخ على أساس نظرية الدولة والحزب والسلطة.

١ - ٢ (ب)

كانت حقيقة السلطة تعنى الاستمرار على تأكيد أولوية السياسة. وبما أن "السياسة هي فن الممكن" فقد أصبح واضحاً على الفور أن الاشتراكية إذا قدر لها أن تستمر وتحيا فلا بد أن تعنى بالدولة التي استحوذت فيها على السلطة أولاً.

لقد كان شعار الأساسى للدولة البلشفية "الاشتراكية في دولة واحدة" يعنى أن الوقت قد حان لتأكيد على أولوية المشكلات المتعلقة بالجدليات الاجتماعية داخل إطار كل دولة - أمة. ومنذ طرح هذه الإشكالية وحتى عودة ظهور القضية القومية كان الطريق مفتوحاً أمام تطورات حاسمة ذلك لأن القضية القومية لم تكن تخص فقط جوهر وجود الاتحاد السوفيتي - رغم أن ذلك بالطبع كان أمراً حيويًا - بل كان لها أيضاً تأثيراتها المباشرة على السياسة الدولية التي ستتبعها أول دولة اشتراكية إزاء موجة الحركات الوطنية التي هبت بقوة ضد الإمبريالية والرأسمالية على نطاق العالم أجمع.

ومن هنا تأتي أهمية النظرية الاشتراكية بالنسبة للقضايا الوطنية والاستعمارية كما بلورها لينين ومن بعده ستالين إلى حد كبير.

ولم يكن الأمر يتعلق "بقضية القوميات" (أى مشكلة الأقليات العرقية فى جنوبى وجنوب شرقى أوروبا) ولكنه كان يتعلق بالمسألة القومية والاستعمارية التى كانت تعد الإطار العالمى الملموس الذى تتشكل فيه مشكلات الفكر والعمل الاشتراكى.

١ - ٢ (ج)

أما مسألة أولوية السياسة فقد كانت تعنى أن الفكر الاشتراكى ينبغى أن يعنى "بفن الممكن" أكثر من أى وقت مضى. وأنه لما له مغزى فعلا أن كافة كتابات لينين السياسية والإستراتيجية اهتمت باستئصال نفوذ الفوضوية والعالمية (الكوزموبوليتانية) التى تتكرر فى ثوب الدولية من فكر وممارسات الحزب البلشفى والدولية الثالثة التى كانت قد تكونت حديثا.

ولذلك فقد رفضت الشيوعية اليسارية على أنها فوضى طفولية وسحقت محاولات التمرد ضد الدولة الاشتراكية على أنها ثورة مضادة (الثورة هى النظام) وتم التخلّى مؤقتا عن الأراضى الواقعة عند أطراف الاتحاد السوفيتى من أجل حماية قلب منظمة الاشتراكية.

١ - ٢ (د)

وكان على الدولة الاشتراكية الأولى أن تواجه أكثر من أى وقت مضى العالم الواقعى.. مشكلات العلاقات الدولية وتوازن القوة بين الدول والتحالفات المتصارعة والحفاظ على القاعدة والعمل على انتشارها.. كانت تلك هى التحديات التى تواجه أول دولة اشتراكية وليدة.

ولذلك فإن النظرية اللينينية حول الإمبريالية وتحديد السياسة الدولية السوفيتية وإستراتيجية وتكتيك الكومينترن وعلاقته بحركات التحرر الوطنى فى الشرق وأخيرا تحديد الجبهة الوطنية فى مواجهة الفاشية وتشكيل الجبهة الوطنية المتحدة فى مواجهة الإمبريالية.. كانت كلها مراحل مهمة فى الانتقال من النصوص الأيديولوجية للفكر الاشتراكى إلى العرض السياسى لهذا الفكر والذى يعد القضية الأساسية فى هذا الفصل.

بدأ التصادم بين التوجهات الأساسية في الفكر الاشتراكي من ناحية وبين الاتجاهات الفوضوية والكوزموبوليتانية العنيفة من ناحية أخرى حول مسألة كرونستادت Kronstadt وبريست لينوفسك Brest-Litovsk في عام ١٩١٨ ثم في مؤتمر شعوب الشرق في باكو عام ١٩٢٠.

وكان ميدان المعركة هو مجال "الاشتراكية في دولة واحدة" وكانت النتيجة المباشرة لهذه المعركة هي حل الجناح التروتسكي سواء في الحزب الشيوعي السوفيتي أو في الكومينترن، وهو الجناح الذي عرف بعد ذلك بأنه حامل لواء الصهيونية اليسارية في حركة الدولية الاشتراكية.

وهكذا شهدت الفترة ما بين ١٩١٧ - ١٩٢٧ تلك السنوات العشر القصيرة القلقة - الانتقال المتبلور تماما من الاشتراكية العلمية إلى الفكر الاشتراكي في ممارسته كما أوضحنا هنا باختصار. غير أن التطورات اللاحقة أثبتت أنها أكثر ضخامة.

٢ -

لقد تحدثت المساحة المختارة لإحداث التحول في الفكر الاشتراكي من خلال التحول في العالم الواقعي ذاته.. أي بواسطة الجدل بين الطرق القومية المؤدية إلى الاشتراكية من جهة والتداخل بين الوحدات المختلفة للحركات الدولية من جهة أخرى، ذلك لأن كليهما قد تحركتا للاستجابة لمتغيرات التوازن في القوة العالمية التي كانت نتاج الإمبريالية.

وفي استطاعتنا تحديد المراحل الجدلية للموقف القومي حول مسألة الاشتراكية في إطار صراع السلطة العالمي كالآتي:

طالب التيار الأول والأساسي بالدولية. فأدى أولا إلى تعزيز وتقوية الدولة الثالثة، ثم أدى بعد ذلك إلى تحجرها في وقت تصاعد الصراعات القومية المتنوعة التي بدأت تدريجيا تطرح أطيافا متباينة ومتنوعة من الخصوصيات القومية. وقد

كانت هذه الفترة هي التى أدت إلى المطالبة "بالدولية الذاتية".. وقت أن كان بورودان Boradin يسعى إلى احتواء الثورة الصينية، فى حين كان زملاؤه الصهاينة فى فلسطين يسعون إلى التأكيد على سيادة رؤيتهم وهيمنتها على الأحزاب الشيوعية فى الدول العربية خصوصا فى مصر.

وهكذا استبدلت بهدوء مبادئ صراع الطبقات بأطروحة الجبهة الوحشية فى مواجهة الفاشية، مما أضاف وزنا للاستراتيجية العظيمة للجبهة القومية داخل كل دولة كجزء من الصراع العالمى ضد الفاشية.

٢ - ٢

عند هذه النقطة بدأت تسمع رؤيتان أقل شيوعا وإن كانتا أكثر أهمية. ومنذ البدايات الأولى كانت شعوب الشرق قد بدأت تشعر بالقلق وهى فى رعى الكومنترن المنحصر والمتمركز غربيا، خصوصا قبل حل الجهاز التروتسكى الصهيونى.

ولقد كان مؤتمر شعوب الشرق الذى عقد فى باكو فى عام ١٩٢٠ مثلا واضحا على هذا الموقف إزاء الحصر النمطى Reductionism والعالمية "الكومبوليتانية". وأظهر رواد الشيوعية الوطنية فى الشرق.. سلطان جاليف، وتان ملاكا، م. ب. روى، وهوشى منه والذين لحقهم بعد ذلك ماوتسى تونج و. س. بى. إيديت.. أظهروا بوضوح فى طروحاتهم انعكاس التحول العالمى.. حيث كانت الأداة الأساسية للثورة الاشتراكية العالمية هى ممارسات شعوب الشرق التى تتاضل ضد الإمبريالية. ولذلك فقد أعطت طروحاتهم الأولوية لحركات التحرر الوطنى لشعوب الشرق، والتى اعتقدوا أنها تتطوى على أهمية أكثر من تلك التى تتمتع بها حركة الطبقة العاملة العالمية. وفى هذه المحرمات التى ظهرت فى العشرينيات يجد المرء الجذور الأيديولوجية والسياسية لفكر ماوتسى تونج وأسباب اتساقها ومبررات المعالجة الشيوعية القومية المتزايدة للفكر والممارسة الاشتراكية فى آسيا والعالم العربى وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

ومع ذلك فقد ذهبَت هذه الأصوات أدراج الرياح ورفض الرواد الأساسيون وتعرضوا للقمع ومحاولات التهميش والتسطيح. وكان المناخ لا يزال ملبداً بالمسلّات الغربية التي أضافت إلى قوتها قوة الدور الذي اضطلعت به الفاشية الأوروبية في ذلك الوقت.

٢ - ٣

ومع ذلك فقد بدأت طروحات الوسطية التعددية الاشتراكية تدريجياً وتحت تأثير مجموعة مختارة من القادة الأوروبيين النفوا حول توجهياتي تلقى اهتماماً إن لم تكن قد وجدت قبولا.

وقد احتاج الأمر حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥، وخصوصاً الحرب اليوجوسلافية البطولية التي تزعمها تيتو من أجل التحرير حتى تكتسب التعددية الاشتراكية مصداقية في الدوائر الاشتراكية الغربية وذلك على الرغم من ضراوة المعارضة من جانب الحرس القديم.

٢ - ٤

وفي الوقت نفسه فإنه لم يعد في الإمكان تجاهل الأثر الثوري لحركات التحرر الوطني لشعوب الشرق. ولقد برهن تأسيس جمهورية الصين الشعبية في أول أكتوبر ١٩٤٩ بعد ثورة ممتدة وبعد المسيرة الطويلة على أنه كان نقطة تحول بالنسبة للعالم أجمع. حيث اتحدت حركة التحرر الوطني أكثر من أي وقت مضى مع الثورة الاشتراكية خصوصاً في آسيا، في حين بدأ طريق ثالث وطني راديكالي يتبلور في مصر الناصرية وفي الجزائر وفي كوبا المنشقة، ليرسم بذلك طريق الرومانسية الثورية في العالم الغربي.

وفي واقع الأمر فسرعان ما اعترف ستالين نفسه بهذا التحول عندما حل الدولية الثالثة في عام ١٩٤٣ الذي استبدل بالكومينفورم. ومع ذلك فقد كان الوقت قد حان لأن تفهم هذه المشكلة بأسلوب جديد تماماً، ذلك لأنه لم يكن أمام القوى الاشتراكية التقدمية من وسيلة لأداء دورها المنوط بها في عملية التحول التاريخية

الشاملة في المسرح الدولي، سوى إحداث التحول في مجتمعاتها كل في إطاره الوطني الخاص وبأسلوب جذري له مغزى.

ولذلك فإن القوى الشعبية كان في استطاعتها بوضوح أن تؤدي وظيفتها الدولية على أحسن وجه في إطار فريد من الوطنية الراديكالية. هذا هو مغزى ومضمون ما نقترح تسميته بـ "الدولية الموضوعية" في الستينيات. وإنه لمن المثير للاهتمام حقا أن نرى كيف أن العديد من الأحزاب الشيوعية الأوروبية الغربية الرائدة (خصوصا في إسبانيا وإيطاليا) بدأت تتحرك الآن تجاه هذه الرؤية إلى جانب الأحزاب الشيوعية القومية في كل من الهند واليابان وغيرهما.

إن هذا العرض التاريخي الموجز لا يتفق إلا في القليل جدا مع الصورة التي تقدمها عادة المراكز الرئيسية لنشر الثقافة الاشتراكية والجدلية في الغرب.

وهذا يقودنا بالتالي إلى ما يمكن أن يكون بداية فريدة لدراسة انتشار الفكر الاشتراكي.

— ٣ —

١ - ٣

إذا سلمنا بأن الحركة الواقعية للتاريخ تؤيد هذه المقدمات، فإنه سوف يكون من الحكمة أن نتوقع تطورا موازيا في مجال الفكر الاشتراكي. أي التبلور الوطني للفكر الاشتراكي النقدي التاريخي والجدلي التاريخي المرتبط مباشرة بالتحويلات في المجتمعات العقلية في العالم الواقعي وفي وقتنا المعاصر.

إن ما يطرح الآن على أنه نظرية "ماركسية" يسير في جزء كبير منه في اتجاه مختلف. ولذلك فإنه من الممكن وصف طابعه الحقيقي بأنه انتشار مضاد وهجوم أيديولوجي مضاد يستهدف وقف تقدم اندماج الفكر والعمل، النظرية والتطبيق في عالمنا الواقعي كما يمكن إدراكه من خلال سرد سريع لاتجاهاته الرئيسية.

٣ - ١ (أ)

كان الاتجاه الرئيسى أو التوجه الشامل لهذا الانتشار المضاد يتمثل فى إنكار الهجوم ضد الموقع القومى لإشكالية الاشتراكية. وباتخاذ هذا الموقف كان فى استطاعة رواد اليسار الجديد أن يعتمدوا على تقاليد المرحلة الأولية للفكر الشعبى الإنسانى الماركسى، وخصوصا على ترسانة التروتسكية العالمية التى حلت واستؤصلت جذورها بواسطة تضامن لينين وستالين فى الهجوم عليها خلال الدولة الثالثة وبواسطة التأثير القوى للثورة الصينية التى توافقت فى انتشار الشيوعية القومية فى الدول الاشتراكية الجديدة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

وفى كل ما نشر حول هذه النقطة المهمة نستطيع أن نجد الاهتمام بكافة الطروحات التى ارتبطت باسم روزا لوكسمبرج وتروتسكى.

٣ - ١ (ب)

أما الاتجاه الرئيسى الثانى فهو يتمثل فى رفضه الموقف السياسى حول السلطة الاشتراكية. ولم يكن ينظر إلى الدولة فقط باعتبارها أداة مؤقتة لا مفر منها وعائقا فى الوقت نفسه، ولكن على أنها العدو الأساسى للتقدم الاشتراكى. وكان عليها أن تتحمل وطأة الهجوم الذى شاع ضد "البيروقراطية"، و"الجهاز" و"القمع" و"المركزية" ... الخ.

وهنا كان التأثير العالمى الأساسى للتروتسكية مصاحبا للتقليد الفوضوى لكل من باكونين ونارودنيكس.

٣ - ١ (ج)

يؤدى التأثير المشترك للاتجاهين السابق ذكرهما إلى تجريد الاشتراكية بشكل شامل من أهليتها عدا بعض الاستثناءات القليلة والمؤقتة. وبالتالي فقد أدين الاتحاد السوفيتى على أنه بيروقراطى ومحافظ، وأدين الصين بسبب النزعة السوفيتية التى تحركها نغمتا عنصرية، وأدين الدول الاشتراكية الأوروبية على أنها دول بيروقراطية تابعة. فى حين اعتبرت يوجوسلافيا ورومانيا دولا انتهازية يمينية أو

يسارية، وكوريا دولة عقائدية، وكمبوديا على أنها شاذة غريبة، وفيتنام بعد الانتصار على أنها محافظة، وكوبا على أنها تابع بيروقراطى فى مرحلة الانهيار الرومانسى. وتصبح هذه القائمة أكثر حقدا عندما تتناول الدول التى فضلت طريق الاشتراكية، وهى لا تزال بعد فى فترة الانتقال الصعبة مثل أنجولا ومصر الناصرية وموزمبيق وبيرو والهند وسيرلانكا ولاوس.

ولنسأل أنفسنا بعد ذلك.. ماذا تبقى من الاشتراكية؟!

إذا تعرضت كل دولة لهذه المعاملة فإنه لا يتبقى سوى ملاذ وحيد هو "اليسار الجديد" المدافعين عن المنهج الماركسى الجديد وحاملى لواءه والرد المنطقى الاشتراكى الذى يمثل طهارة دوجماتية أخلاقية.

٣ - ٢

أما السؤال الوحيد الذى أثير والذى وجد إجابة واضحة هو:

كيف حدث أن أصبح مثل هذا الموقف يسيطر على النتاج الأيديولوجى الذى يستعرض عضلاته فى الدول الرأسمالية الغربية تحت لواء "الماركسية"؟

لقد حدث تطور أساسى ذو أهمية حيوية، ومع ذلك فقد مر دون انتباه كاف له، وهو ذلك الانتقاد الصحيح لعبادة الشخصية فى الاتحاد السوفيتى وجوانب النظام السياسى بصفة عامة فى أول دولة اشتراكية فى التاريخ.. تلك الجوانب التى ظهرت فى المرحلة الأخيرة من نشاطات ستالين. ولقد كان هذا الانتقاد الذى لم يتطرق إلى موقف الهيمنة الذى اتخذه الحزب الشيوعى السوفيتى تجاه الأحزاب الشيوعية والاشتراكية الأخرى حتى ظهور الماوية فى الصين تطورا مهما فى فترة ما بعد يالطا. لقد مكن الخط الستالينى الجهاز الصهيونى التروتسكى العالمى من نشر سمومه واستغلال الاستياء العام فى الحركة الشيوعية العالمية فى العديد من الدول التى أغلق فيها الطريق نحو الاشتراكية نتيجة الاستقطاب العالمى ابتداء من الحرب الباردة إلى الوفاق من خلال التعايش السلمى.

وفى الوقت الذى كان يتم فيه تحديد بناء النظرية الاشتراكية، نفسها (انظر الجزء الرابع) كان الحقل الأيديولوجى قد ترك مفتوحا أمام انبعاث العالمية. وفى

الوقت نفسه تعرضت المساهمة الجدلية للمفكرين فى الدول الاشتراكية بالإضافة إلى زملاتهم فى الأحزاب الاشتراكية الرئيسية إلى الرفض والتشهير والظلم المنظم، أو باختصار إلى الإهمال والانحدار إلى زوايا النسيان. وأصبحت "الماركسية" حرفة، تماماً كما حدث "للثورة". وفى الوقت نفسه أدت أيديولوجية الثورة إلى العديد من المهن اللامعة ذات العائد الوفير. وهنا وهناك ساعدت روح المغامرة على زعزعة استقرار النظم الشعبية ثم تدميرها. لقد كانت هى ذات العملية ولكن فى ثوب جديد.

ومع ذلك فلم يكن هناك إلا القليل الذى يمكن عمله عند هذه النقطة بكبح انطلاقا الفكر الاشتراكى.

٤ -

إننا نعتزم هنا أن نؤكد على ضرورة سد الفجوة بين التحولات العالمية - الهائلة فى مداها وفى نوعيتها - من جهة، وبين النظرية السياسية الاشتراكية والنظرية الاشتراكية من جهة أخرى. ولهذا السبب فإننا سوف نتحول الآن إلى محاولة حصر التوجهات الأساسية لهذه الانطلاقة المتزايدة التى هى فى النهاية تعد اهتمامنا والتزامنا الأساسى.

٤ - ١

عند هذه النقطة لابد أن يتطور الفكر الاشتراكى من خلال وضع جذور إشكاليته فى ذات الأرضية التى تبنى عليها الاشتراكية اليوم أو التى ينظر إليها من خلالها وليس فى عالم اليوتوبيا الأثيرى. (سوف نعود إلى هذه النقطة فيما بعد). وهذا يعنى أن الفكر الاشتراكى يمكنه أن يتطور فقط على أساس موقف قومى بالنسبة للإشكالية وليس على أساس أى رؤية عالمية مسبقة تتخذ قناع الدولية.

إن ذلك لا يعد فى الواقع موقفا أيديولوجيا، ولكنه موقف سياسى حول إشكالية التبلىر التطيرى. إن الفارق بين القوتين الاشتراكيتين العظميين فى عصرنا هذا لم يكن نتاج الاختلاف فى أشكال الإنتاج. كما أنه لم يكن نتاج أى اختلاف له معنى

على مستوى البناء الاقتصادى. ولكنه يبدو أنه جاء أساسا نتيجة المزج بين عاملين أساسيين: بين الخصوصية التاريخية والقومية لكل من الصين والاتحاد السوفيتى من جهة والإستراتيجية السياسية فى دائرتى الجدليات الاجتماعية - الداخلية والخارجية - من جهة أخرى. هذا المثال الوحيد يمكن زيادته من خلال الدراسة المتمحصة للعالم الواقعى من حولنا: كان الوعى الأساسى للثورة الفيتنامية هو لقول هوشى منه المأثور "من أجل الخلاص الوطنى". أما فى كوبا فقد رسم القول بـ "الوطن أو الموت" المسار نفسه، وقد صدق ذلك حتما - ولا يزال يصدق - على كل دولة اشتراكية. وتأكدت مرارا أولوية فرض الموقف الوطنى على مشكلة الاشتراكية بأساليب وطرق عديدة، حتى لو لم تكن واضحة بالقدر نفسه فى معظم الدول الاشتراكية فى أوروبا الشرقية باستثناء يوجوسلافيا.

ماذا نعنى تحديدا بالموقف الوطنى من إشكالية الفكر والعمل الاشتراكى؟

٤ - ١ (أ)

يعنى هذا الموقف الوطنى من إشكالية الاشتراكية فى المقام الأول أنه من الناحيتين السياسية والفكرية ينبغى أن تكون حقول التطوير الأساسى فى مجموعتين مؤلفتين من التحليل: تحليل دقيق موضوعى ومفصل للمجتمع القومى المعنى على أساس التعريف الموضوعى لنمط خصوصيته المميز. ودراسة نقدية مقارنة لمجموعة مختارة من المجتمعات على أساس ثلاثة عوامل رئيسية: القوالب الحضارية، المجالات الثقافية، والأمم وهى العوامل التى يتشكل منها إطار أية دراسة مقارنة حقيقية.

٤ - ١ (ب)

ويتبع ذلك بشكل موضوعى ألا تعتبر بعد ذلك تفسيرات النصوص الكلاسيكية للاشتراكية القاعدة الأساسية لتكوين الفكر الاشتراكى. فأية دراسة نقدية لهذه النصوص ينبغى أن تتم بالفروح الآتية: (أ) الكتابات المقبولة سواء كانت كتابات تقليدية أو غير تقليدية والتى ينبغى تناولها على أنها نتاج فكرى لمجموعة معينة فى

لإطار مجتمعات حقيقية وفي فترة زمنية محددة في تاريخ البشرية وليس على أنها نصوص مباحة قابلة للتعليق. (أ) لا يزال من الأمور الأكثر أهمية أن نسعى لفهم الإطار المرجعي الثقافي القومي. فكتابات صن تزو Sun Tsu ليست أقل أهمية بالنسبة لفكر ماوتسى تونج والثورة الصينية من كتابات الموسوعيين من أجل فهم فكر سانت سيمون وبرودون وأتباعهم. كذلك فإن كتابات نجوين تراى Nguyen Trai تنطوي على ذات القدر من الأهمية في محاولة فهم صناعة الاشتراكية الفيتنامية في ظل قيادة هوشى منه، تماما كما كانت المبادئ الفلسفية الألمانية تمثل بالنسبة للفكر الفلسفى لكل من ماركس وإنجلز. ونفس الشيء يمكن قوله - وإن كان بمزيد من التأكيد - بالنسبة لتلك الأمم والمساحات الثقافية التي ورثت تقاليد تاريخية ممتدة، خصوصا في دول الشرق. وإنه لمن العيب فعلا أن نحاول أن نفهم الماوية دون دراسة عميقة لتاريخ الفلسفة والحضارة الصينية، وطبيعة الشيوعية القومية والناصرية في مصر دون دراسة تكوين الدولة والتماسك القومي في مصر على مدى أكثر من ٧٠ قرنا. وبالتالي فإن أية دراسة مماثلة لفارس والهند وتركيا وكمبوديا والقارة الأفريقية وأمريكا اللاتينية سوف تكشف عن ثراء ضخم في الموارد الداخلية القادرة على إثارة الإبداع الفكرى لدى المفكرين الاشتراكيين.

والنقطة الأساسية هنا هي أن هذا الثراء من الأفكار والفكر والتجربة لا ينبغي النظر إليه من زاوية استشراقية أو على أنه العامل المكون الخارجى للاشتراكية العلمية العالمية. ذلك لأنه باستطاعته أن يوفر (وإن كان ليس وحده) فكرا وعملا اشتراكيا ذات مؤهلات قومية وشرعية تاريخية - وكلاهما لا غنى عنه إذا اهتمما بقضية السلطة في دولهم.

هذه هي الرؤية التي تبناها رواد المفكرين الاشتراكيين في الشرق، ومع ذلك فإنه حتى اليوم يعاني هؤلاء المفكرين من التجاهل والإهمال من جانب الخط الأساسى للفكر الاشتراكى العالمى.

٤ - ١ (ب)

أما الجانب الآخر فهو الحاجة إلى أن نتذكر أن أية قيادة اشتراكية تعمل فى بيئة ثقافية قومية مختلفة تكون عرضة لقيود وحدود يفرضها الشكل الجغرافى..

والسياسة الخارجية لا تتشكل أساسا وفقا للأيديولوجية ولكن وفقا لمصالح الدولة فى كل أمة أو مجموعة من الأمم.

إن الواقعية السياسية Real politik ليست شرا يختص به العدو ولكن هناك ومن الممكن أن توجد أنواع عديدة من الواقعية السياسية الاشتراكية.

٤ - ٢

وكما أن الفكر الاشتراكي يضرب بجذوره فى التربة القومية المتنوعة للجدليات الاشتراكية، فإنه خليف به أن يلبي احتياجات البناء العميق للتكوينات القومية والخصوصية التاريخية لكل مجتمع.

وهكذا فإن مشكلة الثقافة كما تطورت على مر التاريخ لابد أن تطرح نفسها فورا وتلقائيا.

ومع ذلك فسوف نترك الآن المشكلات المتعلقة بالخصوصية ذلك لأن الشئ المهم هنا واليوم هم أن نسعى إلى فهم ما نعنيه بالتحديد بالبعد الثقافى للفكر الاشتراكي فى مرحلة صياغته.

٤ - ٢ (أ)

عندما نقول الثقافة فإننا لا نعنى "التوجه الثقافى" Culturalism. كما أن الموقف الأساسى حول إشكالية الجدليات يظل قائما حيث لا يوجد أى مجال فى أى وقت من أجل معالجة على النمط المثالى العالمى.

٤ - ٢ (ب)

إن التحولات التى طرأت على عالمنا الواقعى - خصوصا انبعاث الشرق والقارات الثلاث بشكل أشمل - كانت تعنى أن العمليات المتباينة العاملة فى المجتمعات غير الغربية قد كشفت. ولا يرجع ذلك فقط إلى وجود شخصيات واعدة تتمتع بتفكير محلى، ولكن أكثر من ذلك وأساسا لأن هذه الشخصيات قد اتبعت أساليب تاريخية متباينة للتطور الإنسانى والاجتماعى والفكرى. لقد تركزت

الاختلافات والتباينات الرئيسية حول الجوهر الذى تلتقى عنده السلطة والثقافة سعيا من أجل الاستمرارية الاجتماعية وإحداث التغيير والتحول والثورة الاشتراكية. إن الاشتراكية الأوروبية، أى الماركسية بوصفها الوريث الشرعى للفكر الاشتراكي والبرجوازية المنتصرة افترضت على سبيل المثال أن الماوية الفلسفية يمكن الأخذ بها على أنها الموقف العلمى الصالح عالميا إلى حد أنها ساهمت فى إزالة الموقف الأيديولوجى حول الإقطاعية أو الأيديولوجية الفلسفية الروحانية المثالية للمسيحية. وقد كان مفترضا أيضا أن الثورة الصناعية والتقدم على طريق الاشتراكية سوف يعنى "نهاية الفلسفة". ولكن عند صياغة هذا الموقف يعترض وجود أحداث التاريخ الأخرى ببساطة تامة ولمرة ثانية للنسيان والحزب والإهمال. وفى الصين وأجزاء كبيرة من آسيا لم يكن الدين على سبيل المثال عاملا أساسيا إلا فى شكله كأيديولوجية قومية. (الصينية على سبيل المثال).

أما فى أراضى الإسلام من جهة أخرى فقد اتخذ الدين شكل الإطار العام للتقاليد الثقافية القومية يحمى بانتصار الهوية القومية ضد هيمنة الغرب وغزوات الإمبريالية، وفى الوقت نفسه كان الدين بالطبع أيديولوجية خصوصية مثل غيره من الديانات. وهناك مشكلات أخرى أكثر تعقيدا فى شبه الصحراء الإفريقية وفى أمريكا اللاتينية حيث شاهدنا الشعبية المسيحية. ولذلك فإنه يبدو أن التحليل النقدي المقارن لدور الفلسفة والدين من مختلف الحضارات والثقافات أمر لا مفر منه بهدف إدراك أن الموقف الذى اتخذ من هذه المشكلة فى الثقافة التاريخية الأوروبية الغربية لم يكن هو نفسه الذى اتخذ فى أجزاء أخرى من العالم. مما يؤدي بالتالى إلى وضع نهاية للتحريمات والتبسيطات وعدم القدرة السخيفة على الفهم وإنارة الطريق تجاه "حل التاريخى" بين التراث الفكرى والثقافى القومى والروحانى الحقيقى فى الأمم والمناطق فى مختلف أنحاء العالم. وهو الحل الوسط الذى لا يزال حتى اليوم غريبا تماما عن عادات الفكر الماركسي الغربى.

٤ - ٢ (ج)

ويبدو من الملائم عند هذه النقطة أن ننظر إلى الصلة بين الخطوط المختلفة للفكر الاشتراكي فى كل من الشرق والغرب. ولقد أشرنا بالفعل إلى سلطان على

(جاليف) ورفاقه، وليس هناك من يحتاج أن نذكره بالأهمية التاريخية لفكر ماونسي تونج. ومع ذلك فقليل جدا من الاشتراكيين هم الذين لاحظوا التشابه بين فكر جرامشي وفكر ماو.

فقد كانت الإشكالية الأساسية عند جرامشي متعلقة بالأسلوب الذي يمكن من خلاله تحقيق الاشتراكية في إيطاليا ما بعد ريزوريجمنتو وهو ما كان يعنى أساسا الاعتراف بأن الاشتراكية ليس في وسعها أن تستحوذ على الأولوية من خلال حمل ومواصلة المهمة التي لم تكتمل للتوحيد الثقافي القومي في إيطاليا. ومن هنا جاء ظهور الماركسية الإيطالية في إطار ثقافي ودورها الرائد في الحركة الإقليمية وانتقالها من التعددية المركزية إلى "الحل الوسط التاريخي". ولم يعد من الممكن بعد ذلك النظر إلى كتلة السلطة التاريخية بلغة الحرب الأهلية الثانوية لأن المستقبل لا يمكن رسمه وتحديده إلا من خلال توحيد المفكرين العضويين في التراث الثقافي القومي الأساس في هذا البلد. ومنذ عام ١٩٤٠ كان هذا هو الطريق المرسوم أمام الحركة الشيوعية المصرية تحت قيادة زعيمها المؤسس شهدى عطية الشافعي مما أدى إلى ظهور مفهوم الجبهة الوطنية المتحدة وإلى الإستراتيجية الأساسية - للحركة التقدمية العربية تحت زعامة جمال عبد الناصر.

٣ - ٤

وهنا نعود مرة أخرى إلى المنطقة الأساسية للسلطة السياسية. وليس من الضروري أن نستطرد الحديث عن التعزيزات الشاملة لسلطة الدولة ودور الجيش في السياسة المعاصرة. وعلى عكس ما تقدمه اليوتوبيا الشعبية فإن الثورة الهائلة في العلوم والتكنولوجيا وتطبيقاتها في الصناعة والتسليح وقدم الإلكترونيات والعلوم الذرية إلى جانب وسائل الإعلام.. كل ذلك عهد إلى الدولة بوظيفة مختلفة تماما في استخدام القوة اليوم. ومع ذلك فإن الجوهر لا يزال هو الاستخدام الرشيد للعنف من أجل الحفاظ على النظام الاجتماعي. وإن كانت العلاقة الميكانيكية بين أشكال الإنتاج والتمثيلات الطبقيّة وسلطة الدولة قد أفضت إلى مجموعات أكثر تعقيدا من العلاقات. إن الدولة مستمرة في القيام بدورها التقليدي في كل مكان،

فى الوقت الذى تتحمل فىه وظائف ثقافية واقتصادية متزايدة. وهو ما يعنى فى واقع الأمر أن الدولة قد أصبحت أكثر من أى وقت مضى طبقة سياسية تؤدى وظائفها بدرجة أوسع من الاستقلال الذاتى فىما يتعلق بقاعدتها الاقتصادية والاجتماعية.

وفى الوقت نفسه فقد نما دور الجيش بصورة ضخمة على المستويين الداخلى والخارجى كما سوف يتضح للجميع (انظر الجزء ٤ - ٤). ويتبع ذلك أن الفكر الاشتراكى إذا كان له أن يفهم التحولات الحقيقية فى العالم الواقعى فإن عليه أن يعود إلى إشكالية السلطة السياسية من زوايتها الفلسفية والتنظيمية الموضوعية. أما المقالات الأيديولوجية والأخلاقية المطولة حول شرور السلطة - الدولة، والبيروقراطية، والعسكرية، فإنه لابد من النظر إليها باعتبارها نوعا من الملاحظات الصبغانية. فالشر لا يمكن ترويضه إلا من خلال الواقعية الموضوعية. وفى محيط السلطة تتضمن هذه الواقعية الموضوعية إعادة بناء السلطة على أساس فلسفة سياسية أكثر أهلية وأكثر تنوعا.

٤ - ٤

لقد أدت المرحلة الثانية من الثورة الصناعية - التى أطلق عليها خطأ الثورة التكنولوجية والعلمية - جنبا إلى جنب مع انبعاث الشرق فى قلب القارات الثلاث - إلى ظهور صراعات القوة العالمية فى شكل لم يعرف من قبل فى أى مرحلة من مراحل التاريخ الإنسانى. ولذلك أصبحت الظواهر الأساسية للممارسة السياسية فى عصرنا هذا تتحصر فى السيطرة على المحيطات وغزو الكواكب الأخرى واستخدام الطاقة والمواد الخام والغذاء كأسلحة إلى جانب الردع النووى والجيوبوليتيكى. وهو ما يعنى أن دور القوات المسلحة فى الدائرة العالمية الخارجية للجدليات الاجتماعية قد أصبح ينطوى على أهمية قصوى اليوم. إن حقلا مهما وحيويا وجديدا تاما يفتح اليوم أمام جهود الفكر الاشتراكى ليقدم مجموعة من البدائل صالحة لإنتاج مراكز الأبحاث العسكرية السياسية فى الغرب. وعندما يبدأ المفكرون الاشتراكيون فى ذلك فيسوف يكون عليهم أن ينظروا باهتمام

إلى النظريات الجديدة الخاصة بالحروب الشعبية وحروب التحرر الوطنى والدفاع الشعبى العام الخ.. باعتبارها مكونات أساسية فى عملية إعادة التقييم الشاملة للبعد العسكرى فى السياسية من وجهة النظر الاشتراكية.

٤ - ٥

وقبل كل ذلك ينبغى تضمين بعد البحث الفلسفى. إن الإحساس المتزايد بالأزمة فى المجتمعات الغربية ينظر إليه دائما على أنه أزمة حضارة - السلوكيات والقيم وصورة الإنسان كمشروع حضارى - أكثر منها أزمة فى وظيفية النظام الاقتصادى الرأسمالى الذى أثبت أنه أكثر مرونة فى مواجهة المصاعب مما كان يعتقد. إن التحديات القادمة من الشرق لا تأخذ شكل "مزيد من الإنتاج فى مقابل مزيد من الاستهلاك" على طول الخط الذى حددته الاشتراكية الغربية. بل على العكس فقد ركزت على مفاهيم الثورة الثقافية والنهضة القومية والثقافية. وعلى العموم فإن أفضل طريقة لبحث القضايا المطروحة الآن هى أن يتم ذلك تحت حماية ما سميناه بالمشروع الحضارى وذلك من خلال بلورة إستراتيجية حضارية تتحدد وفقا لخصوصيات ثقافية تاريخية مختلفة ومتباينة.

وفى النهاية فإن القضايا المهمة فى الفكر الاشتراكى ليست الستافانوفيزم أو التنمية، كما أنها ليست التطبيقات الفنية للعلم فى الإنتاج أو اللامركزية الاقتصادية أو ترويض سلطة الدولة والعودة إلى الجذور.

وفيما عدا صراعات السلطة التى تتكشف الآن فى مختلف أرجاء العالم فإن الشئ الأساسى المهدد بالخطر هو المفهوم الجوهرى لملممتنا الإنسانية، صورة الإنسان، نماذج العلاقات الاجتماعية والإنسانية، العلاقة بين الإنسان وبعد الزمن. باختصار الأشكال المختلفة للحياة الطيبة التى يمكن تطويرها فى عالم يتكون من حضارات وثقافات مختلفة. ولا نعى بذلك الوسطية التعددية وحدها، ولكننا نعى التعددية القومية الثقافية التى تعمل من خلال النطاق الواسع للتباينات القومية والفلسفية والسياسية الموجودة فى إطار عملية سياسية ونظرية سوف تتمخض كما نأمل عن مستقبل أكثر إنسانية.

ولذلك ينبغي الآن - إلا إذا كنا مستعدين للمصادرة على رسالتنا - إعادة توجيه الفكر الاشتراكي إلى هذه الغايات والأهداف تاركين الاقتصاد إلى أهله والعالمية لتودع في زوايا النسيان. وهذا هو الطريق إلى تأكيد أولوية السياسة في عالم الفكر والممارسة الاشتراكية.

١ - "الواقعية السياسية الاشتراكية"

في عملية صياغة العالم الجديد"

١٩٨٥ - عام الذكريات السنوية. وبهذه المناسبة التي تشهد الذكرى العاشرة لاستهلال مائدتنا المستديرة حول "الاشتراكية في العالم" في كافتات، يمكن وينبغي إثارة ذكرى مناسبات مهمة مثل الذكرى الأربعين للحرب العالمية، الذكرى الأربعين لإطلاق وأول استخدام للقنبلة الذرية ضد سكان هيروشيما ونجازاكي، والذكرى الثلاثين لأول مؤتمر آسيوي - أفريقي في "باندونج" (نيسان/ أبريل ١٩٥٥)، والذي أدى إلى انبعاث الشرق من جديد وتشكيل حركة "القارات الثلاث"، وانطلاق حركة عدم الانحياز (بجزراد ١٩٦١).

السلم والحرب - زيارة جديدة، أم بالأحرى بناء هيكل عالم جديد؟ إن هذا السؤال المتعلق بوضع المشكلة لا علاقة له حقا بالمنهجية. بل إنه متأصل في رؤيتنا لميزان القوى في العالم، وكذلك في تحول العالم في أيامنا هذه. ومن الأهمية بمكان أن القوى الرئيسية التي شاركت في تحالف الدول الذي أفضى إلى النصر عام ١٩٤٥ - ذلك الحلف الذي ضم مجموعة من الدول والقوى المركبة وغير المتكافئة لأقصى حد - قد اختارت التركيز على الاحتفال بالذكرى الأربعين للانتصار على ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية والنظام العسكري الياباني.

ونكتشف الدراسة المقارنة الدقيقة للاحتفالات التي أقيمت والخطب التي أُلقيت بهذه المناسبة، مدى عمق التناقضات القائمة في صلب مجموعة الدول المنتصرة. ولقد أثار المعلقون، وهم على صواب في ذلك، التصوير غير المقبول والكاريكاتيري في الواقع، لانتصار القوى المتحالفة عام ١٩٤٥، باعتباره إسهاما

أساسيا للمعدات العسكرية للولايات المتحدة ولإستخدامها الإجرامى ولأول مرة القنبلة الذرية ضد اليابان. كما تبين هذه الدراسة افتقار القيادات السياسية لأوروبا الغربية الأساس لفهم الدور الحيوى، بالمعنى الحرفى، الذى لعبه اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية إبان "الحرب الوطنية العظمى" - وكأن العشرين مليون قتيلًا وقرابة الستة والثلاثين مليون جريحًا، والتدمير الذى أصاب كل المدن الكبرى والمتوسطة فى الجزء الأوروبى من اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، والذى لحق بصناعته ووسائل اتصالاته، وعمليات السلب والنهب التى تعرضت لها موارده وإمكاناته البشرية - والتى لا يوازيها إلا المقاومة البطولية لبوغسلافيا ومعاناتها فى حرب التحرير الوطنى التى خاضتها فى القارة الأوروبية - كانت مجرد مادة للإحصائيات، هل من الممكن لاحقًا أن تكون الطبقة السياسية - بما فى ذلك الأغلبية الساحقة لليسار فى أوروبا الغربية - قد فشلت فعلا فى فهم أن الواجهات البراقة لعواصمهم ومدنهم الرئيسية التى أعيد بناؤها، وموجة الاستهلاك والمذاذات التى يتمتعون بها اليوم وبصورة لم يسبق لها مثيل، رغم ما يسمى، الأزمة المزعومة، إنما يرجع الفضل فيها فى المقام الأول إلى الثمن الذى دفعته الدولة الاشتراكية الأولى، فى مواجهتها للخطر المشترك الذى داهم الديمقراطية واجتاح القارة الأوروبية - بعد معاهدة فرساي الجائرة وأن النتائج الاقتصادية التى ترتبت على السلام (الإسهام الأساسى لجون مينارد كينز) أدت إلى خلق الأرضية لانبعاث الفاشية والنازية فى البلدان الرأسمالية التى وقع تهميشها، الأمر الذى أفضى مباشرة إلى الحرب العالمية ١٩٣٩ / ١٩٤٥؟

وكان.....

وكان الأمر برمته يكمن حقا فى تصفية الحسابات، مرة أخرى ومجددا، بين البلدان الرئيسية القارية فى العالم الغربى - أوروبا وأمريكا الشمالية - والمقسمة حاليا إلى أنظمة اجتماعية رئيسية، والتى سرعان ما انقسمت فيما بعد إلى التحالفين العسكريين - السياسيين لمنظمة معاهدة شمال الأطلسي (١٩٤٩)، التى لم يكن هنالك مفر من أن يوجهها حلف وارسو (١٩٥٥).

وحيثما كانت عبارة "وكان....." أكثر وضوحا كان لها فى الحقيقة اليد العليا فى تفسير ما حدث إبان نصف القرن الأخير. من هم المنتصرون الحقيقيون؟ هنا يصبح المشهد أكثر تشوشا، ومع ذلك يبقى من الواضح بحيث لا يمكن تجاهله. فى العالم الغربى، نجد أن القوة المهزومة، جمهورية ألمانيا الاتحادية، هى التى تبرز الآن كقوة اقتصادية وصناعية وتكنولوجية كبرى، بازة كل منافسيها، خاصة منذ أن وفرت سياسة الاتجاه نحو الشرق لإمكاناتها الصناعية الكامنة المتضخمة، الأسواق الهائلة الحجم فى كل من الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية رغم كل الصعوبات والمواجهات وما إلى ذلك، وفى آسيا أصبحت القوة الرئيسية الثانية المهزومة رغم ضرب هيروشيما ونجازاكي بالقنابل الذرية، والقصف العنيف بالقنابل المحرقة الذى لا هوادة فيه، والذى أدى إلى ما يقرب من الاستئصال الكلى لمنطقة طوكيو وأوزاكا - اليوم ثالث أكبر قوة اقتصادية عالمية. والواقع أنها، بفضل الفاعلية الصارمة للتنظيم المجتمعى بها والمرونة الفريدة للإبداعية الصناعية والتقنيات التسويقية الخاصة بها، أصبحت هى القوة الاقتصادية الأكثر فاعلية فى العالم - والعامل الأهم فى "تعصير" الصين التى تمثل ربع البشرية - وغدت شريكا للدول السريعة التطور فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية فى الغد، وربما تتحول بعد إعادة توحيد كوريا إلى عامل مهم فى فتح سيبيريا.

ولا حجة بنا هنا للتمتع فى الوضع الاجتماعى - الاقتصادى للدول الأوروبية المنتصرة. والواقع، أن أحد الأبعاد المهمة كان يتمثل فى بروز كل من إيطاليا وإسبانيا كعاملين اقتصاديين رئيسيين، رغم أن كلا منهما كان ينتمى، كما حدث ذلك حاصلا فعلا، إلى الجانب المهزوم إبان الحرب العالمية، وهذا سؤال آخر ينبغى على المؤرخين فى وقتنا الحاضر أن يواجهوه.

وفى الآن نفسه، فإن طابع الضخامة الفريد الذى اتسم به الدمار الذى لحق بالاتحاد السوفيتى إبان الحرب، لم يضعف عزمه على أن يصبح كما هو الآن، القوة العسكرية الإستراتيجية الأولى والقوة الاقتصادية الثانية فى العالم، فى حين أن كل الدول الاشتراكية الأوروبية، باستثناء بولندا إلى حين، تعكس صورة من التقدم

الاجتماعى والاقتصادى والثقافى الدينامى الكبير التى لم تشهد هذه الدول مثيلا له فى تاريخها السابق قبل الاشتراكية.

ومع ذلك فإن التحولات الرئيسية تحققت، أولا وقبل كل شئ خارج العالم الغربى، فى القارات الثلاث، آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وفى آسيا بصورة أساسية حيث يعيش أكثر من ٦٠% من البشر، وفى الصين يعيش ربع سكان الأرض، أدت خمسون عاما فى ثورة التحرر الوطنى التى قادها على التوالى كل من الكومنتانج، ثم وبشكل حاسم الحزب الشيوعى الصينى بقيادة ماوتسى تونج وشو تيه، وشو إن لاي ورفاقهم، إلى وضع نهاية لأربعة قرون من الانحلال منذ أقول أسرة "منج" وقصمت ظهر القوة العسكرية الكلاسيكية لليابان، ونجحت فى وضع حد للفيضانات والأوبئة القاتلة التى كانت تحدث سنويا، ووضع حد لتعاسة فلاحى الصين، مطلقة فى الآن نفسه عملية تصنيع صبورة واسعة النطاق مرتكزة على زراعة تزداد ازدهارا باستمرار، رغم الضرر الكبير الذى أحدثته "الثورة الثقافية" التى تمكن وجهها المعادى للبيروقراطية إلى حين، من حجب طبيعتها الخطرة الموجهة إلى الاستيلاء العنيف على السلطة من أيدى القيادة الشرعية للثورة الصينية، وممتلى الجماهير المسحوقة عبر المسيرة الطويلة للتاريخ الصينى.

فى عام ١٩٨٤، وهنا أقتبس الأرقام والتحليلات الرسمية كما أوردها البروفسور دونج فورين، بلغ نمو الناتج القومى الإجمالى ١٢% فى حين ارتفعت الإنتاجية الزراعية بمعدل ١٤,٢% - وتجدر مقارنة هذه الأرقام بتلك التى تم تحقيقها فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية مثلا، وهذا مع الأخذ فى الاعتبار أن هذه الأرقام تحققت على نطاق يشمل ربع سكان الأرض. وفى الوقت نفسه، نجحت الهند رغم طبيعتها الشديدة التعقيد ومجموعة المشاكل التى تشكل تحديا لها، فى الحفاظ على وحدتها وديمقراطيتها وبناء اقتصاد قوى وعصرى، وكان هذا بدوره، يستند أيضا إلى فهم واضح للأهمية الحيوية للزراعة، جنبا إلى جنب مع العلم والتكنولوجيا والصناعة المتقدمة مما، يؤمن فى الوقت الحاضر حاجة سكان الهند فى الغذاء لمدة ٥ أو ٦ سنوات قادمة. وسيأتى ذكر أمثلة أخرى

خلال هذا البحث وتكفى هنا كما أعتقد، الإشارة إلى أهم العمليات التى تكشف سترها أمام أعيننا، لتقديم وضع المشكلة، كما نراها، فى مكان ومحل الموقف الفيكترى الذى ظهر فى بعض الخطب السياسية لبعض منتصرى الأمم.

فى عام ١٩٨٥ عام الاحتفال بالذكرىات هذا، فإن وضع المشكلة بالنسبة على الفكر والممارسة الاشتراكيين لا بد أن يرى بوضوح على أنه يتعلق بتغيير العالم، وفى نطاق هذا التحول، تحديد خصوصية ومكان المبادرة التاريخية، وفى وقتنا الحاضر وبالنسبة للمستقبل على المدى المتوسط، مما يؤدي إلى فهم الخصوصية الدقيقة لعملية صياغة العالم الجديد، الذى تلعب فيه الاشتراكية - وسوف تلعب - الدور الحاسم، بالأساليب والنماذج التى يجب أن تدرس بواقعية إذا أردنا تقليل الخسائر واختصار المسافة الطويلة وزيادة القدرة على تحقيق أهدافها الحضارية.

٢ - السلطة الاجتماعية: الدولة، الجبهة، والشعب العامل

تتركز مجموعة أولى من المشاكل حول مجال "السلطة الاجتماعية" فى وقتنا الحاضر، فى وقت تحول العالم، وبالأخص فى وقت صياغة العالم الجديد، وهنا تبدو المفاهيم والصيغ الكلاسيكية فى حاجة حقيقية وملحة لإعادة النظر فيها، وهى التى يعود تاريخها إلى قرابة قرن ونصف قرن مضى من الزمن، سواء فى ذلك تلك التى توجد فى شكل اقتصاد سياسى ونظرية سياسية كلاسيكية أم نقدهما الماركسى.

٢ - ١: إن الفحص الدقيق للأنظمة الاجتماعية والعمليات المجتمعية فى كل أنماط البلدان السائدة فى الوقت الحاضر، يكشف عن اتجاه لم يكن ملحوظا فى الواقع حتى الآن، ألا وهو انبعاث الدولة واعتبارها أهم وأكفأ أداة للسلطة الاجتماعية.

أ) هذا هو الحال فيما يسمى أمم العالم الثالث الجديدة التى تضم إلى جانب بلدان أخرى، أقدم ثلاثة تشكيلات قومية مستمرة عرفتها البشرية - مصر والصين وفارس - جنبا إلى جنب مع مجموعة كبيرة من أقدم الأمم، والتى تبدو أوروبا

إذا ما قورنت بها واقدا جديدا: كوريا واليابان وفيتنام وأثيوبيا والهند وتركيا والمكسيك وبيرو من بين أمم عديدة أخرى. إن مقولة اتباع مدرسة "الاستثنائية" أى مدرسة المنظرين أنصار الاختزال وعلماء المناهج الذين لا يستطيعون إلا أن يروا كل شئ يتعلق بالبلدان المهيمنة، والتي ليست فى المركز إلا بمثابة "استثناء للقاعدة" (قاعدة من؟ ومنذ متى؟ ونحو أى أغراض؟ وإلى متى؟ وحسب معايير من؟ وأى معايير؟ الخ).

وطرح هؤلاء المنظرون - وهم فى غالبيتهم من القطاعات الليبرالية واليسارية من العلوم الاجتماعية بعد الثلاثينيات وخاصة منذ ١٩٤٥ - مقولة أن الدولة كانت بارزة بشكل حتمى فى البلدان حديثة الاستقلال، والتي صنفوها بأسلوبهم الاختزالى المتصف بالازدراء "كأمم جديدة" بقدر ما كانت السلطة المركزية ضرورية للتعامل مع تعقيد التحول من مجتمعات تابعة إلى مجتمعات مستقلة، والذي كان غالبا ما يوصف بأنه عملية تحول من "التقليدية" إلى "العصرية" ويدعى بعملية "التحديث". وعند هذه النقطة ليس هنالك سوى القليل يمكن قوله لحض هذه المقولة. ومع ذلك قد يكفى ذكر أن الحاجة الحقيقية لدولة قومية مستقلة، جاءت نتيجة مباشرة للتفكيك أو الضعف الذى أصاب فى العمق البؤرة المركزية للسلطة الاجتماعية، وتآكل الإدارة والمشاريع الثقافية - الاجتماعية القومية، والذي طالما رافقه زوال ما كان يمثل من قبل مجموعة ديموغرافية، شكلت قلب الأمم فى القارات الثلاث، وبدء عملية تفاعل فيها معا خليط من الحركات السياسية وعناصر الدولة بطريقة عضوية متداخلة جعلت من عملية الفصل التحليلى فى أيامنا هذه شيئا أقرب من المستحيل. فالعمليات التى تنطلق من حروب النابيه واليوكرز والأفيون إلى تشكيل جمهورية الصين الشعبية، حركات العصيات المسلح التى قادها العلماء والمماليك فى مصر القرن الثامن عشر والتى أفضت مباشرة إلى ميلاد أول دولة قومية حديثة فى الشرق تحت قيادة محمد على فى عام ١٨٠٥ وفيما بعد إلى الدور البارز للجيش فى الحركة الوطنية والثورات اللاحقة، وانتفاضات جنود السيماى الهنود فى الجيش الإنجليزى بالهند والبناء

التدرجى "المؤتمر القومى الهندى" الذى أدى إلى بروز مجموعة الدول الموجودة حاليا فى الهند والباكستان وبنجلاديش، والثورات المسلحة التى دامت عقودا من الزمن فى المغرب والجزائر بقيادة عبد الكريم وعبد القادر والتى أدت إلى عودة الملكية الأصلية فى المغرب وانتصار "جبهة التحرير الوطنية" فى الجزائر بعد حرب التحرير المأساوية والبطولية (١٩٥٤ - ١٩٦٢) هى تلك العمليات التى نجد صداها يتردد بدرجات متفاوتة فى الحدة، على المسار نفسه المشار إليه هنا أعلاه فى فيتنام والمكسيك وغانا وأثيوبيا والبرازيل وبيرو وإيران - ولا نذكر هنا إلا أكثر الأمثلة وضوحا على ما هو عملية عامة حقا.

(ب) هل ينبغى لنا إذن أن نقبل نظرية "الاستثنائية"؟ خاصة عندما تكون متعلقة ببروز القوات المسلحة بصفتها عنصرا أو العنصر المكون الرئيسى المركزى، فى الحركات الوطنية والدول القومية المنبعثة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

إن إلقاء نظرة على حالة الأوضاع فى أوروبا تكفى لإظهار أننا جميعا فى قارب واحد بالتأكد. وكما مر ذكره وبيانه تفصيليا، لعبت الجيوش القومية دورا مركزيا فى كل من بناء الهيكل القومى، وبناء هيكل الدولة فى أوروبا، وفى الثورات الديمقراطية والبرجوازية فى هذه القارة.

أما بالنسبة إلى الدور المتنامى للدولة فى أوروبا، فلا يستطيع المرء إلا أن يلاحظ أن معاهدة فرساي أدت مباشرة إلى الأزمة الاقتصادية العالمية فى ١٩٢٩ - ١٩٣٢، ونمو الكينزية بما تتضمنه من تركيز على القطاع العام، ومشروعات الدولة، مما أفضى لفكرة العبقورية للشعوب الخاصة بالأمن الجماعى لفترة بفردج فيما بعد ١٩٤٥، الأمر الذى نجد صداه فى سياسة الإصلاح الاجتماعى التى تشكل اليوم علاقة لكل الدول الأوروبية أيا كان ولاؤها السياسى أو أيديولوجيتها، ومع ذلك فإنه من الصحيح أن دور القوات المسلحة أصبح أقل وضوحا - ونورد المزيد عنه فيما بعد.

ج) فى القطاع الآخر من العالم الغربى، أى فى الولايات المتحدة الأمريكية، نجد أن الانتقال السريع فى مفهوم الاتحاد الفيدرالى للمستوطنين إلى الدولة الاتحادية منذ فترة "روزفلت" حتى فترة رئاسة ريجان المشرفة على الأفول هو حقيقة رئيسية من حقائق المواجهات والتوترات السياسية فى وقتنا الحاضر، ولولا المجمع الصناعى - العسكرى وهيمنة هذه الثورة المركزية للسلطة الاجتماعية على الشؤون الأمريكية، لما كان لدينا الآن هذا التكرس النووى العدوانى، الذى بدأته واشنطن وقادته منذ هيروشيما ثم ١٩٤٧ - وهى عملية لم تجعل بأى شكل من الأشكال علماء الاجتماع الأمريكيين يعدلون عن اعتبار قيام الدولة فى مناطق أخرى من العالم "ظاهرة استثنائية"، بوليسية التوجه..

د) فى عالم الاشتراكية، عالم الأنظمة والمجتمعات الاشتراكية الحقيقية، نجد أن التحرك نحو الأهمية المتزايدة للدولة، باعتبارها البؤرة الرئيسية للسلطة الاجتماعية، وصيانتها وتحولها هو الأمر الأكثر وضوحا والذى يستحق الانتباه له، إنها حقيقة أن المجتمعات الاشتراكية قد بدأتها وأوجدتها وقادتها أساسا مجموعة من الكوادر انبعثت من حزب الطبقة العاملة، والشعب العامل، والشعب بما كان عليه، وبدرجات متفاوتة من التمثيل الاجتماعى، واتخذ هذا فى كل حالة وفى جميع الحالات شكل حزب، الحزب الشيوعى أو حزب العمال القائم على النظرية الاشتراكية، أو الماركسية أو الماركسية - اللينينية، أو الماوية أو الإصلاح الأوسع استخداما وهو الاشتراكية العلمية. وإنها لحقيقة أيضا أن هذه الأحزاب لا تمثل "وحدات تحليل وعمل" متطابقة: فالحزب باعتباره "وحدة تحليل" هو حزب، أما الحزب باعتباره "وحدة عمل" فإن له صفة مختلفة جدا للتصرف، ليس فقط حسب قدراته الذاتية، وإنما أيضا، وحتى ربما بدرجة أكثر من ذلك، حسب موقعه النسبى فى المجتمع الأعرض، وقدرة هذا المجتمع على القيام بعمل مجد معتمدا فى ذلك أساسا على كونه أمة أو خليطا من التجمعات السكانية تعيش ضمن حدود دولة قومية.

وعندما نتمعن فى الفاعلية النسبية لهذه الأحزاب الثورية فى مجتمعاتها الاشتراكية عبر مساراتها التاريخية المختلفة، فإننا نرى أن هذه الأحزاب تصل إلى

أقصى مستوى لها من الفاعلية فى الأوقات التى تشهد ذروة الأزمات القومية والحرية الوطنية وحروب التحرير كما كان الحال مثلا فى الاتحاد السوفيتى ما بين (١٩١٧) و (١٩٢٧)، ثم من (١٩٤١ - ١٩٤٥)، وفى الصين ما بين ١٩١٩ إلى (١٩٤٩)، وفى يوغوسلافيا ما بين (١٩٤١ - ١٩٤٥)، وفى فيتنام، وكوبا وكوريا إبان حروب التحرير فيها. وفى تلك الأوقات، ظهر أن الأحزاب الاشتراكية قادرة على التصرف حقا باعتبارها البؤرة المركزية للسلطة الاجتماعية، واتخاذ القرارات التى كان لها فاعلية سياسية على المستوى القومى، وتمكنت من أن تصبح مقبولة باعتبارها التعبير الشرعى والحرفى للضرورات الحيوية لوجود وبقاء مجموعات كبيرة من السكان، للغالبية العظمى للسكان بالتأكيد، فى الدول المعنية.

وعندما تم تحقيق السلام بعد تضحيات جسام، فإن أداة السلطة نفسها - أى أحزاب الاشتراكية، ووجهت بدرجات أقل من التوتر والحاجات، رغم أن عملية التعمير وعمليات التحول الاجتماعى التى أصبحت أمرا مفروضا بسبب الخسائر الجسيمة التى نزلت بها خلال فترات التوتر الأقصى، قد تطلبت درجة عالية جدا من القدرة التنظيمية. وعلى كل فإنه خلال هذه الفترات أظهرت أحزاب الاشتراكية تراجعا فى قدرتها على الالتزام الجماهيرى المطلوب: والأمثلة الرئيسية على هذا الازدياد فى عدم قدرة أحزاب الاشتراكية على لعب الدور الحاسم مركزيا المطلوب فى السلطة الاجتماعية تتمثل فى مصاعب الظاهرة التى أطلق عليها بصورة واسعة اسم "البيروقراطية" بسبب عدم وجود كلمات أفضل؛ والمشاكل المستعصية بصورة واضحة للتخطيط المركزى من خلال الحاجة إلى الاقتصاد المتعدد القطاعات والمركزة، والجدلية بين المركزية والمشاركة الشعبية المركزية، على فهم المسارات المختلفة إلى حد كبير، وخصائص قوى الاشتراكية فى بلدان تختلف عن بعضها البعض اختلافا هائلا من حيث الخلفية الحضارية والثقافية والتاريخية.

ولقد تم رد ذلك لبعض الوقت، إلى عوامل ذاتية مثل نوعية القادة فرادى، والمسلك التأمرى لمجموعات مختارة داخل القيادات الوطنية، لذلك جاء الحشد المتسرع للأحزاب الشعبية حول الحزب الشيوعى الرئيسى الحاكم، فى العديد من

البلدان الاشتراكية، لسد أوجه النقص التى أصبحت واضحة أكثر من أى وقت مضى فى الحزب الحاكم للاشتراكية.

ومع ذلك، هنالك حدود تفرضها الحقائق الموضوعية للعمليات المجتمعية فى أيامنا الحاضرة، وبشكل خاص تلك التى مر وصفها أعلاه. فرغم كل شئ، كانت الأحزاب الاشتراكية مهياة أساسا لتولى السلطة من الأحزاب السياسية للطبقات الحاكمة المعارضة، معطية بذلك الأولوية لأساليب التعبئة الجماهيرية، والإثارة والدعاية والفاعلية التنظيمية فى عمليات جماهيرية، وكذلك سرية، فى عالم يراد استبداله، ووضع حد للحيف التاريخى وللظروف غير المتكافئة التى كان مفروضا على أغلبية السكان فى المجتمعات الصناعية، خاصة فى الغرب، أن يعيشوا فى ظلها منذ أيام الثورة الصناعية.

هـ) ماذا بعد ذلك؟

ما بعد ذلك يقف عالم تنظيم تشكيل مجتمعى بأكمله، مجتمع بأكمله، أى أمة، وليس طبقة فحسب من أجل البقاء والتطور، نحو تحقيق تقدم مادي وثقافى وروحى، فى عالم أصبحت تحكمه أكثر من أى وقت مضى أبعاد يكاد يكون الآباء المؤسسون للنظرية الاشتراكية قد أهملوها، ربما أكثر مما تحكمه الرموز الأساسية فى صنع النظرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية: البعد القومى، الثقافة والحضارة، علاقات القوة الدولية وعلم السياسة الطبيعية.

وسرعان ما أصبح واضحا أن هيئات سلطة المجتمع الأكثر استقرارا فى المجتمعات الاشتراكية أيضا كانت من نوع جهاز الدولة: الجيش، الخارجية، الأمن الداخلى، التخطيط الاقتصادى، التعليم والثقافة. واتخذ ذلك تدريجيا شكل "لجان حكومية" تجمع بين مختلف الوزارات أطلق عليها اسم "لجنة الدولة" للاقتصاد، والتخطيط، والثقافة، والتعليم، والعلم والتكنولوجيا.. الخ. ومن خلال هذا الانحراف أصبح واضحا أكثر فأكثر أن الدول الاشتراكية الحالية التى تواجه مشاكل شديدة التعقيد فى إدارة المجتمعات الحديثة، وتتنافس مع منافسيها الرأسماليين، وتتعاون مع الدول والقوى المعادية للإمبريالية، مضطرة إلى الاعتماد على الهيئات ذات

الكفاءات العالية، من الأخصائيين العلميين والتكنولوجيين والثقافيين، وتكنوقراطى الإدارة، وإن كان ذلك فى نطاق إطار الخط العام الذى يحدده التوجه السياسى للحزب القائد.

ومعنى هذا التطور لمركز جاذبية السلطة الاجتماعية، من الحزب إلى الدولة هو: أنه ليس علميا أن يتم توجيه العمليات الاجتماعية لمجتمع ما فى شكله العام، أى كدولة متعددة القوميات، من خلال القيادة السياسية لطبقة واحدة فقط من طبقاته، حتى ولو كانت تشكل فرضا الجزء الرئيسى من السكان - علما بأن الطبقة العاملة فى وقتنا هذا أصبحت أقل اتصافا بهذه الصفة عما كانت عليه منذ قرن مضى بكلمات أخرى: فإنه فقط بقبول تآلف الطبقات والمجموعات الاجتماعية المختلفة، ناهيك عن مدارس الفكر والعمل التكوينية البديلة الرئيسية، والاتجاهات التكوينية التاريخية، للوحدات الأكبر، والذى هو فى الحقيقة "الوحدة الأساسية للتحليل والعمل" - أى الأمة - يصبح ممكنا عند ذلك فقط توجيه مثل هذه التوليفة الكبيرة نحو تنفيذ سياسة المشاريع الاشتراكية التقدمية - الديمقراطية، الاستقلالية، القومية فى تنوعها الهائل من حيث النماذج والقوالب والأشكال.

٢ - ٢: وقد أدى ذلك التطور الكبير - وهو فى الحقيقة التطور الرئيسى فى هذه السلطة الاجتماعية فى هذا القرن - وهو كذلك بشكل خاص منذ تكوين مجموعة الدول الاشتراكية، مباشرة، إلى نتيجة ثانية لا تقل أهمية.

أ) خلال عملية الإدارة الفعلية للمجتمعات المعقدة الحديثة لم تعد مقولة "الطبقة" التى لازالت تحتفظ بأهميتها للتحليل والعمل، تعتبر الشكل الأساسى، أو الأداة الأساسية للسلطة الاجتماعية. ويمكن رؤية ذلك بوضوح فى الانتقال من مفهوم "البروليتاريا"، إلى المفهوم الأوسع، "الطبقة العاملة"، التى تشمل كلا من الطبقة العاملة الصناعية (التي توصف تحديدا بكلمة بروليتاريا) والمجموعات العاملة الأعراض التى تنتمى إلى الفلاحين والقطاع الثالث، وكذلك الإدارات والمصالح الإدارية والعسكرية والجيش، وهى عملية قادت فى النهاية إلى توسيع مفهوم "الشعب العامل" الذى قدمناه فى "كافكات" فى ١٩٧٨ - ١٩٨٠، والذى أخذ يحتل

مكانه تدريجيا بين المفردات المشتركة بين كل من العلماء الاشتراكيين والاجتماعيين المهتمين بالمجتمعات المعقدة الحديثة وبإشكالية السلطة الاجتماعية على حد سواء.

(ب) وحتى بهذا، فإن الشعب العامل لا يكفي وحده، كما هو ظاهر بوضوح بالممارسة الفعلية، على إدارة العملية بكلّيتها. وهذا هو السبب وراء تآمل أهمية مفهوم "الجبهة"، مفهوم الجبهوية التي تشمل مجموعة من التشكيلات الاجتماعية أعرض من الطبقة المحددة التي يفترض أن تقوم بمهمة تاريخية. هذا هو معنى ظهور هذه العمليات المهمة مثل "الجبهة المتحدة" ضد الفاشية والنازية في أوروبا، و"الجبهة الوطنية المتحدة" ضد قوى الإمبريالية والرجعية المحلية والكمبرادور في مناطق شاسعة في آسيا وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، كما الحال في المثال الساطع الذي ضربته في الصين، وفي حالة مختلفة كلياً مثل مصر في عام ١٩٤٦ وتأثيرها على الثورات والحركات التحريرية في الجزائر، والعالم العربي، بأكمله وأجزاء كبيرة من أفريقيا. وهذا هو أيضاً في أوروبا في المحل. معنى ودلالة الحل الوسط التاريخي أو "المهادنة التاريخية" الذي طرحه أنريكو بيرلنجوير ورفاقه في إيطاليا. لأنه فقط بجمع مدارس الفكر والعمل التكوينية البديلة الرئيسية في أمة ما، والممثلين الحقيقيين لمصالحها الأساسية الطويلة الأمد، تستطيع قيادة ما مهمة بالرشد وتجنب نشوب حرب أهلية، وفي وقت تتصاعد فيه التوترات الدولية في ظل التهديد النووي، أن تأمل في اختصار الطريق نحو دولة ديمقراطية تستطيع فيها جماهير الشعب العامل أن تعمل بالتعاون مع الطبقات الوسطى والعناصر الوطنية المكونة للنسيج الاجتماعي، على تحقيق مشروع قومي يضم مكوناً إصلاحياً اجتماعياً متقدماً، والذي سوف يدعم موضوعياً أساس الاشتراكية الآن - دون أن ينفي في الآن نفسه بأي شكل من الأشكال وأى وقت من الأوقات، المصالح المشروعة والمشاركة البناءة للقوى الاجتماعية الأخرى. إن عملية جدلية في منتهى الدهاء تتم في صميم الجدلية الاجتماعية تهدف إلى نقل مركز جاذبية السلطة

الاجتماعية بصورة متواصلة من قوى عين المركز المحافظة إلى القوى الشعبية الأكثر راديكالية النشطة في جناحه التقدمي. ولا يتم هذا بحكم أنها "تقدمية"، ولكن لما تتمتع به أساسا من مقدرة على تشكيل السياسات القومية الطويلة الأمد التي تبدو على نحو واضح مجدية وعقلانية لغالبية السكان.

وهنا مرة أخرى، مرة أخرى فقط، تحل السياسة الواقعية بصور تدريجية وحاسمة محل مذهب الأيديولوجية الذاتية.

٢ - ٣ وهناك تطور رئيسي ثالث في ميدان السلطة الاجتماعية يتعلق بميدان الديمقراطية.

أ) حتى جيل مضى كان من المؤلف تصنيف الديمقراطية باعتبارها وهما مزعوما، بالتفريق أساسا بين نوعي الديمقراطية وهما "الديمقراطية الشكلية" كنقيض "لليبرالية الشعبية". وهذا التفرقة يظل مفيدا ولا شك ويكتسب درجة مهمة من الصحة. ولقد قام هذا على الافتراض الأيديولوجي بأن الديمقراطية في البلدان الرأسمالية قد فهمت، وما كان لها إلا أن تفهم في الحقيقة، على أنها الليبرالية. وبدلا من فهم الديمقراطية حرفيا على أنها سلطة الشعب، فقد تخيل المنظرون والمحللون التقدميون أن الطبيعة المقيدة للديمقراطية في البلدان الرأسمالية لا يمكن أن تعني إلا التعددية السياسية، واللعبة الانتخابية، في حين يتم الاحتفاظ بالسلطة الاجتماعية من قبل جهاز دولة يكون بصورة كلية في يد الطبقة أو مجموعة الطبقات الحاكمة، باعتبارها الأداة المباشرة لتحقيق مصالحهم وهيمنتهم.

ومن خلال بروز الإصلاحية الاجتماعية بعد الأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى وحرب (١٩٣٩ - ١٩٤٥) - والتي لعبت فيها أول دولة اشتراكية وهي الاتحاد السوفيتي دورا حاسما، تبين تدريجيا أن هناك في الديمقراطية الموجودة في العديد من البلدان الرأسمالية المتقدمة وذات الثقافة العالية، ما هو أكثر من مجرد اللعبة الانتخابية لليبرالية.

ب) سرعان ما احتل عنصر السلطة فى الديمقراطية موقع الصدارة، وخاصة بعد عودة الجنرال ديغول للسلطة، وإقامة الجمهورية الخامسة، والتى سرعان ما أصبحت نموذجا لأنظمة رأسمالية أكثر أوتوقراطية، تم فيها توسيع المتغربين الأساسيين للإصلاحية الاجتماعية والحريات العامة، مقابل تضاول متزايد فى دور الأحزاب السياسية والمؤسسات البرلمانية النيابية. وقدم نهوض اليابان فى مركز السياسة العالمية، نموذجا رئيسيا لم يكن معروفا حتى الآن لدى الفكر الاجتماعى الغربى، استطاع به تنظيم "مجتمعى" أقرب إلى الإقطاعية العسكرية منه إلى الشكل الحديث للرأسمالية الليبرالية، أن يقدم أعلى درجة معروفة من التماسك الاجتماعى والقومى، ويضع فكر الدولة ومبادئها فى صميم نهوضها الشديد الأهمية، ويعطى القطاع الخاص هامشا للنشاط والمبادرة الخلاقة والديناميات الخارجية التى لم يعرفها تاريخ الرأسمالية، دون أن يكون فى ذلك اعتداء بأى شكل من الأشكال على المظاهر الرسمية للديمقراطية، بل إنه فى الحقيقة يوسع، بشكل لم يعرف من قبل فى التاريخ اليابانى، الحريات الفردية والعامة، بطريقة توفر أساسا مؤسسيا ودستوريا للإجماع اليابانى الشهير فى الرأى.

ج) وهكذا لم يعد ممكنا بعد تصور الديمقراطية على أنها "شكلية" بطريقة أحادية الجانب. إذ يمكن أن تكون كذلك، بل هى كذلك، فى غالبية الحالات السائدة فى الدول الرأسمالية. ومع ذلك، فإن تحليل خصوصية الأنظمة الديمقراطية السائدة فى الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة الرئيسية، والسائدة أيضا فى الدول المتوسطة والإقليمية الرئيسية، يمكن أن يبين بل هو يبين بالتأكيد أننا ندخل الآن مرحلة يبرز فيها العديد من الأشكال الانتقالية، ومرة أخرى تحت شعار جبهات، يمكن أن تفتح الطريق نحو نمط من الديمقراطية يتصف بقدر أكبر من مشاركة، فى حالات محددة مختارة، الشعب فى السلطة وسط الطبقات المعرضة التى تلتف حول البرامج التى وضعت للمستقبل من خلال الحل الوسط التاريخى.

لقد أكدنا على الدائرة الداخلية للجدلية الاجتماعية، أى السلطة الاجتماعية فى المجتمعات الحديثة، الموجهة نحو السياسات التقدمية التى تقضى إلى الاشتراكية،

كما تبدو على أنها المكان المركزي حيث يجب أن تحتل السياسة الواقعية الأسبقية في التفكير وصياغة السياسة على حد سواء، على الذاتية والنزعة الأيديولوجية وأحلام اليقظة.

٣ - اتبعات السياسات الجغرافية الطبيعية

عرفت الدائرة الخارجية للجدلية الاجتماعية، دائرة العلاقات الدولية، وعلاقات الدولة الدولية، والسياسة العالمية، عملية إحياء كانت محل ترحيب، ويرجع ذلك أساسا إلى الحاجة إلى وضع نقد جذري لما يسمى بـ "العلم السياسي" كما يقول المتخصصون الأمريكيون، ومحاولة اختزال مشاكل السلطة الاجتماعية إلى مجرد سياسات انتخابية، وتعددية، ومفهوم فرداني للفلسفة القانونية، وفي الحقيقة الاستقراء الدولي للفردانية الاستثنائية المصحوبة في أغلب الأحيان بنهج ازدراى تجاه "باقي أنحاء العالم" والبشر الذين لا ينتمون إلى أرض الميعاد.

ومع ذلك، بقى الموقع المركزي للسياسة العالمية على حاله ولم تمسه هذه الخطوة المتجددة، وكان المفهوم من عبارة السياسة الجغرافية الطبيعية أن تصبح عبارة قذرة، وكثيرا ما كان الاشتراكيون يقدمون على مساواتها بشروط الإمبريالية، ناهيك عن الفاشية والنازية. ألم يكن كل المتنافسين الرئيسيين على السلطة والتفوق العالمى طلابا حاذقين فى دراسة السياسة الجغرافية؟ ألم تكن السياسة الجغرافية ميدان الدراسة المفضل لقوى العدوان؟

ومن ثم، استبعدت السياسة الجغرافية من جانب أناس مثل ريتشارد واجنر والأفغانى، ومؤخرا بوكيو ميشيما.

وتسود فى داخل الدول والمجتمعات الاشتراكية الحقيقية، أوضاع مختلفة، بقدر ما كان يتحتم على القيادات الاشتراكية أن تتصارع مع حقائق الحياة الدولية. وأخذ المتفكرون الماركسيون فى المحيط الخارجى للسلطة الاشتراكية الحقيقية فى التراجع إلى الخلف تدريجيا: ففي فيتنام قيل إن الجنرال "قو نجوينى جياب" كان الاستراتيجى العسكرى الرئيسى فى الحرب الفيتنامية، ولم يكن أمام المؤرخين

العسكريين في العالم إلا أن يمجّدوا، بإجماع متزايد، مواهب قادة هم على جانب كبير من الاختلاف مثل ستالين. وتنبؤ، وقبل كل هؤلاء ماوتسى تونج. بل وكان هنالك ما هو أكثر من ذلك والذي جاء كصدمة: إذ ظهر أمر أثار الرعب في نفوس العديد من المثقفين، وهو أن ذرى أكثر العقول تعقيدا في قيادات السلطة في البلدان الاشتراكية قد تشكّلت داخل إطار الأكاديميات العسكرية العليا. وبدأت تبرز الأسماء، وكذلك مطبوعات: فقد تم اكتشاف أن "صن تزو" كان هو ملهم ماوتسى تونج ورفاقه في قيادة المسيرة الطويلة، وأن الأدميرال جورشكوف الذي جعل من الأسطول الأحمر السوفيتي أقوى أداة عسكرية بحرية في وقتنا هذا منذ أن تولى قيادته بعد ١٩٤٥، كان في الوقت ذاته عقلا موسوعيا من مستوى شخصيات كان الناس يعتقدون أنها اختفت منذ زمن مثل كارنو وكلوزفيس وروميل، ولكن كان أكثر فاعلية إلى حد كبير بمقدار ما استطاع الجمع بين المعطيات المشتركة للتغيرات التكنولوجية العلمية والسياسية المتطورة في رؤية خلاقة فريدة للقوة العالمية. وجرى تجميع كتابات أخرى، أساسا من القارات الثلاث بأسلوب غير مألوف، وفي الأغلب من القطاعات المحافظة التقليدية للأكاديميات العسكرية والحياة العامة، ولكنها أصبحت مقبولة تماما وبشكل مثير للدهشة في الكثير من الأوساط التقدمية في هذه القارات. لقد قبلها جولييري البرازيلي، وكذلك فيديل كاسترو ورفاقه، وعبد الناصر، وبومدين والكتابات الآخذة في الظهور بغزارة الآن للسياسيين والجغرافيين والإستراتيجيين الجغرافيين من المنطقة المسماة منطقة "المحيط الخارجي".

وأكثر اكتشاف إثارة للذهول هو ما أصاب التفكير السياسي الجغرافي من شبه انهيار في منطقة المركز. فالدراسات التي قام بها مؤخرا الخبراء الرسميون، قد أظهرت بوضوح مثلا أن الأسطول السابع الأمريكي العامل في المحيط الهادى، غير قادر في الحقيقة على العمل الإستراتيجي نظرا لانتشاره الواسع والتدنى الهائل في درجة كفاءته بالمقارنة مع الأسطول السوفيتي في المحيط الهادى. ومن جملة الأمور التي ينبغي أخذها في الاعتبار الانبعاث السريع للأسطول الصيني الذي تم

تحديثه، والفعالية الخالية من الخطأ للبحرية اليابانية، والخبرة المشتركة الملفقة للنظر التي تتمتع بها القوات المسلحة الهندية، والتخطيط والتفويض الإستراتيجي المذهل لحرب أكتوبر تشرين الأول ١٩٧٣ قبل الهجوم المضاد الأمريكي الصهيوني المشترك، وطبيعة كوبا المنيع، والقدرات الدفاعية القوية، التي تتمتع بها البلدان الصغيرة مثل نيكاراغوا، ماذا لو كانت نظرية "صن نزو" الأساسية صحيحة، بدلا من النهج الذي وضعه كلوزيفتس. ماذا لو أن "إحراز مائة انتصار في مائة معركة ليس قمة المهارة، وإنما إخضاع العدو دون قتال هو منتهى المهارة". وبالتالي، فإن ماله أسمى في الحرب هو مهاجمة "إستراتيجية العدو" باختصار: ماذا لو طبق مبدأ أولوية السياسة على فن الحرب أيضا؟

وسرعان ما أدى هذا الكشف "المفاجئ" بعدد من العقول الجادة المؤهلة في الماركسية والعلوم الاجتماعية، إلى إعطاء السياسة الجغرافية والإستراتيجية الجغرافية موقعها المركزي في تحليل السياسة العالمية. وسرعان ما برزت على نحو مفاجئ مراكز لدراسات السياسة الجغرافية والإستراتيجية الجغرافية، وكثرت الصحف والدوريات والكتب والأطالس وكان لها تأثير مدهش ملفت للانتباه لا يمكن إغفاله. وفي غضون بضع سنين، ومع نهاية ١٩٨٠ لم تعد السياسة الجغرافية كلمة قذرة - بل أصبحت بالأحرى بمثابة المركز للدائرة الخارجية للجدلية الاجتماعية، للصراع على السلطة في العالم. وجرى في الوقت الذي بدا فيه ما يسمى بالتفوق النووي للإمبريالية الأمريكية عاجزا، من زاوية العمليات الحربية، عن وقف التدهور الحاصل بعد فيتنام، كما تجلّى ذلك بشكل حاسم في الهزيمة اللبنانية الكاملة التي واجهتها بيروت، والعجز عن السيطرة على البحر المتوسط، وأكثر من ذلك، في الأخطار المتصاعدة في وجه الولايات المتحدة إذا حاولت السيطرة على أمريكا الوسطى وكبح مد التحرر والثورة فيها.

إن التقييم الميكانيكي لما يسمى بالنصر العسكري في جزر الفوكلاند والذي شن أساسا لحماية قواعد الناتو في سيمونزتاون في جنوب أفريقيا واستعراض قوة حلف الأطلسي قبالة القارة القطبية المتجمدة الجنوبية، سرعان ما أدى إلى نتيجة

عكسية: فقدان المصادقية في أمريكا اللاتينية الذي دفع بها خطوة بعد خطوة، نحو عدم الانحياز بعد مرحلة كاملة من شبه غياب.

وهناك العديد من الأمثلة التي تظهر على نحو مضطرب درجة عجز الإمبريالية عن استخدام قوتها النووية لتحقيق نتائج سياسية، في حين أنها محرومة من الناحية الفعلية من استخدامها في حرب هجومية إستراتيجية مباشرة بسبب التوازن، بل وفي الحقيقة بسبب التفوق السياسي الإستراتيجي للقوى الاشتراكية على المستوى العالمي.

كما برزت إلى المقدمة أبعاد أخرى: النفط كسلاح، والبعد الخاص بالطعام والمجاعة، والتحكم بالموارد المعدنية، إن كل المتغيرات تقع في إطار المعالم (الخصائص) الراسخة ومع ذلك فإن المعالم (الخصائص) المتحركة للسياسة الجغرافية، تتعرض للأمر نفسه إذا وعندما، تفهم بصورة جديدة.

دعونا نبحث حالة ما يسمى "بسلح الغذاء" فمن المعروف جيدا أن الاتحاد السوفيتي يستورد سنويا، في جملة أمور كميات ضخمة من الحبوب والمواد الغذائية من البلدان الرأسمالية الغربية، ولقد اعتبر أن ذلك يشكل حتى الآن نقطة ضعف رئيسية للاتحاد السوفيتي في حين أنه يثبت تفوق الرأسمالية الغربية. إلا أن الدراسات التي أجريت مؤخرا أظهرت أن جبال الفائض من المنتجات الزراعية في البلدان الغربية الرأسمالية تفرض خفضا في الأسعار وبلطف، بحيث يستطيع الاتحاد السوفيتي أن يشتري في الوقت الذي اختاره هو وبأفضل الأسعار جزءا من الفوائض التي واصلت الضغط على منتجاتها - وفي هذه الأثناء، تستطيع المناطق التي تجتاحها المجاعة، كمنطقة الساحل ومنطقة القارات الثلاث أن تشهد كيف أن الأفعال لا تجاري الأقوال، وكيف أن الهيمنة السياسية قد بقيت في الحقيقة في يد الحكام السابقين، لقد ارتد سلاح الغذاء إلى نحر أصحابه كما حدث، في حين يبقى الاكتفاء الذاتي في الإنتاج الغذائي بالطبع هو الهدف الأعلى لأي اقتصاد رئيسي، وهو هدف تبقى إمكانية تحقيقه مرتبطة في المقام الأول بالخصائص البيئية - المناخية السائدة في المجتمعات المختلفة.

وهنا ومرة أخرى يبقى نهج السياسة الواقعية لمواجهة المشاكل الحقيقية المستعصية، أداة للتحليل والعمل الاشتراكي، ولقوى التحرر الوطني، والقوى الديمقراطية التقدمية في العالم.

٤ - الواقعية الاقتصادية: نهج تعدد القطاعات

إن البعد الخاص بالإنتاج، الاقتصاد في المجتمع، أكثر طواعية للنهج الواقعية المحددة، لذا فإن مجموعة المقترحات التالية ربما تبدو أقل عرضة للرفض بقدر ما تتبدى أمام أعيننا بنجاح ظاهر.

٤ - ١ وهناك أولا وقبل كل شيء مشكلة المعالم "الخصائص" الموضوعية، فليس هناك معنى لدراسة التطور نحو الاشتراكية، ومشكلات التطور الاجتماعي الاقتصادي بمقاييس متطابقة، لنقل مثلا في الصين وسيرى لانكا، في الاتحاد السوفيتي وباراجواي، في ألمانيا وتوجو. فتباين هذه السماء يتعدى التناقض الظاهر في الحجم والإمكانات الكامنة، بل يرتبط بالطبقة الأعمق المتعلقة بالمعالم "الخصائص" الأيكولوجية والجغرافية التي تشكلت عبر التاريخ في المجتمعات المختلفة، كما تشكلت في عملية تطور طويلة متواصلة معروفة.

بعبارة أخرى إن البعد الجغرافي التاريخي يصبح ضروريا لفهم هذه الظروف الأيكولوجية المحدودة، والتي في ظلها لا بد أن تعيش وتتطور مجتمعات مختلفة. إن ما يسمى "المجتمعات الهيدروليكية" في الشرق، ليس هناك إلا القليل الذي يربطها بالأقاليم الصحراوية الجرداء حيث تنتشر المجاعة. لقد استفادت مجموعة المجتمعات الصناعية المتقدمة في وقتنا الحاضر والموجودة بصورة أساسية في أوروبا وأمريكا الشمالية، من عدة قرون من الطقس المعتدل الذي يسمح بنمو أسهل كثيرا في الإنتاج الزراعي، والتطور الحضري تجاه التوسع البحري، والذي قاد بدوره إلى الغزو والاستعمار والإمبريالية - وهو الذي شكل الأساس التاريخي الجغرافي لتكوين فائض القيمة التاريخي.

ليس من قبيل المصادفة أن تقرير وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية المعنونة "تقرير عن حالة الطقس" الذي حظى باهتمام قليل، قد ركز على الخطر

المتزايد الذى يتهدد العالم الغربى، والمئاتى من التغيرات الحاضرة فى مناخ العالم، إذا كان ما تحتويه هذه التقارير من تقديرات مستقبلية صحيحا، فقد يشهد العالم فترة جديدة من الطقس البارد تمتد إلى الأطراف الشمالية من أمريكا وأوروبا، فى حين أن المنطقة المعتدلة التى يسقط بها المطر وتحقق فوائد ضخمة فى المنتجات الزراعية سوف تنتقل تدريجيا نحو المناطق شبه المدارية ومنطقة التقاء القارات الثلاث. إن ما تعرضه تلك التقارير من تقديرات مستقبلية لم يلق حتى الآن الاهتمام الكافى من قبل المحللين الاشتراكيين - فى حين أنه معروف جدا لصانعى السياسة فى البلدان الاشتراكية. أما باقى الدول المتخلفة - فإن مثل هذا البعد يبدو وكأنه طوباوى، ولا يلقى منها اهتماما يذكر، باستثناء الهند والبرازيل. ومع ذلك، لابد من إجراء تقييم مدقّق لها، من أجل تخطى حدود المدخل الأخلاقى النفسى للجماعة، والذى يجب أن يحل محله تقدير سليم لمنحنىات وتقديرات مستقبلية موضوعية موجهة نحو المستقبل، للاستفادة منها كأساس لقرارات سياسية نافعة تركز على التشقق والتعبئة الجماهيرية مع رؤية للتاريخ.

٤ - ٢ فى هذا الإطار، تبقى أولوية العمل السياسى أمراً مركزياً. والعمل السياسى يفهم بالتحديد على أنه فهم للخصوصية الثقافية القومية التى تشكلت خلال التطور التاريخى. إن حالة اليابان تظهر بوضوح كيف أن الغياب الكامل للموارد الطبيعية لم يكن بأى شكل من الأشكال عائقاً للتعبئة الجماهيرية، من عصر الميجى التى جعلت من اليابان قوة التطوير والتحديث التكنولوجى والاقتصادى الحاسمة فى وقتنا الحاضر، وتبعها فى ذلك كوريا. ومن ناحية أخرى، وفرة الأزمات الحيوية الداخلية والافتقار إليها قد جعل عدة بلدان صناعية، خاصة فى أمريكا الشمالية تبدو أكثر فأكثر على أنها الحلقة الضعيفة فى سلسلة التقدم الاقتصادى، رغم الإحصائيات والاحتياطات التى لازالت هائلة الحجم.

٤ - ٣ إن إعطاء الأولوية للعمل السياسي - وهو ما يفهم على أنه الاستخدام الهادف للخصوصية - يجب أن يجعل القوى التقدمية تدرس دراسة جديّة مشكلة الوزن والوسيلة الضروريين لخلق كتلة حاسمة من الفكر الخلاق والعمل التحويلى

فى المجتمعات المعنية. وهنا مرة أخرى، تشير السياسة الواقعية إلى الطريق: لأنه فقط بقبول منطق الجبهة العريضة - المرتكزة على الحل الوسط التاريخى - حول المشروع القومى المعروف بوضوح وبشكل واسع، وليس مجرد مشروع "اجتماعى"، يصبح من الممكن خلق مثلاً هذه الكتلة الحاسمة. وعندها فقط سوف تتوقف هجرة الأدمغة. وعند ذلك فقط تصبح القيادة الوطنية فى وضع يسمح لها بالاستفادة من العقول المفكرة حيث الحاجة إليها ماسة فى عدد كبير من دول أفريقيا، والعالم العربى، وأمريكا اللاتينية، وبدرجة أقل فى آسيا.

٤ - ٤ بالعمل على هذا النحو، سرعان ما يظهر أن الوضع الأيديولوجى لمشكلات الاقتصاد فى المجتمع لا يمكن إلا أن يفضى إلى التفوق المطلق لكتاب كتب النصوص المحترفين، النشطين عادة فى الأوساط الاشتراكية.

وتؤدى السياسة الواقعية الحقيقية الملموسة القائمة على أساس "التعلم من الحقائق" مباشرة لفهم أن إدارة مجتمع حديث على درجة عالية من التعقيد لا يمكن بأى شكل من الأشكال أن تتم بأسلوب أحادى الخط، أحادى الجانب.

بعبارة أخرى، أن النظم "الاقتصادية المتعددة القطاعات" هى وحدها القادرة اليوم على تحقيق التعبئة الواسعة لأوسع مدى من القوى الاجتماعية فى المجتمعات الاشتراكية الحديثة، مما يمكن قيادتها من اختصار الطريق إلى التحديث الوطنى المستقل، وتحقيق الزيادة السريعة فى قدرة على هذه القيادة على الفعل على المستويين الإقليمى والعالمى على حد سواء. وفى هذا السياق، تستحق العمليات الحاسمة الجارية الآن فى الصين، الفحص المتأنى الدقيق والتحليل النقدى الأخرى الصافى التفكير: فهناك اقتصاد مخطط مركزى، تخضع قطاعاته الأساسية بصورة حازمة لسيطرة الدول الاشتراكية؛ ومجموعة من الوحدات الإنتاجية فى الزراعة والتجارة الداخلية، من الطراز المجتمعى والمستندة إلى الأسر، وسلسلة محدودة من المناطق الحرة تخضع باستمرار للإشراف والرقابة المشددة للدول والحزب على حد سواء؛ وسياسة انفتاح على العالم بغية جعل "كل ما هو دولى يخدم كل ما هو صينى" مع ما يرافق ذلك بالطبع من صعوبات وتباينات فى نمو القطاعات

الاقتصادية المختلفة، والتناقض فى نسق النشاط بين المدينة والريف - ومصاعب ومشكلات المناطق المختلفة، والتي تتم معالجتها بطريقة جماعية حازمة، مما يجعل الصين فى الوقت الحاضر تضم أسرع اقتصاد فى النمو، ليس فى نطاق مجتمعات المنظومة الاشتراكية، بل فى العالم قاطبة. إن الصين هو المختبر الاجتماعى - الاقتصادى المركزى فى عصرنا، ولها تأثير حاسم على ما سيصبح عليه عالم الغد، بقدر ما يمثل هذا المختبر ربع الإنسانية، ويرتبط بعمق بكل القوى والدول الاشتراكية، كما هو الشأن أيضا بالنسبة لحركة عدم الانحياز الواسعة، دون أن توصل بابها بأى شكل من الأشكال فى وجه التفاعل النافع مع كل أنماط المجتمعات (فى الحقيقة ما زال الشركاء الرئيسيون هم اليابان، والولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا الغربية).

يسعى أخصائيو نظرية الأزمة العارمة" أو "يوم القيامة" إلى تأكيد حقيقة أن الاتحاد السوفيتى لا يمكنه أن يتبع طريق الصين. فخطأهم الحاسم هو أنهم يفسرون وضع الأمر الواقع هذا على أنه خيار أيديولوجى. وفى الحقيقة فإن التصرف بمثل هذا الأسلوب المنفتح، لا يمكن أن تقوم به أمة متلاحمة بدرجة عالية ومندمجة بصورة محكمة - وهذا بالضبط هو حال الصين، فى حين أن دولة ذات قوميات متعددة وتوزع أراضيها على قارتين، كالاتحاد السوفيتى، يتخذ بل ويجب أن تكون له نهج مختلفة تماما، معنية بالحفاظ على وحدة نسيجه القومى القومى والاجتماعى وهو نسيج فى غاية التعقيد، الأمر الذى يحد إلى حد كبير من قدرته على إعادة تشكيل النظام الاقتصادى الداخلى بسرعة. ومع ذلك، فمع كل ما قيل وعمل، فإن كلا من الدول الاشتراكية يتحرك فى وقتنا الحاضر نحو نمطه الخاص من الإصلاح الاقتصادى، وسياسة اقتصادية جديدة، ليس لأسباب تكتيكية وإنما انطلاقا من تجربتها التاريخية الواقعية الطويلة.

وهنا أيضا، ومرة أخرى، تتقدم السياسة الواقعية على حساب النزعة الذاتية والنزعة الأيديولوجية.

٥ - نحو حضارة اشتراكية روحية جديدة

إن كون الإنسان لا يعيش بالخبز وحده، وكونه بحاجة إلى ما هو أكثر من ذلك لكي يغذى عقله وروحه، هو حقيقة حياة، وليس مجرد عنوان كتاب.

ولكن إن لم يكن بالخبز وحده، فبماذا يعيش الإنسان إذن؟

أبمزيد من الخبز؟

أبمزيد من الانحراف، سواء كان ذلك بالكحول، أم بالمخدرات أم باحتراف المتعة؟

أبقتل الإنسان أخيه الإنسان في المواجهات فيما بين المدن أو فيما بين الأمم؟ ومن هنا، جاء انبعاث التسامى في وقتنا الحاضر، والذي يمكن تلخيصه بما أنه نتيجة عمل جماعي تم الاضطلاع به من (١٩٧٨) إلى (١٩٨٢) على النحو التالي:

١ - بعد أربعين عاما على يالنا وهيروشيما، حقبة الموجات العظيمة في الثورات والتحولات الاجتماعية والوطنية في وقتنا هذا، بما في ذلك عقدى التنمية، فإننا نساق إلى الاعتقاد بأن المشاكل باقية دون حل، وأن جذورها وحلولها التي توفقت باستفاضة من قبل مدارس الفكر والعمل الثقافية الرئيسية لازالت غامضة. إنه وقت للقلق والياس - ذات النغمة الصادرة من عقلية سلبية تعمل في أعماق نسيج قطاعات عريضة من الثقافات المهيمنة ووسائل الإعلام، هل يتجدد "سفر الرؤيا الآن".

وإزاء هذا السياق، الضارب بجذوره عميقا في إنجازات طرق وأساليب مختلفة للسلوك السياسى والمجتمعى، وفي قدرة المجتمعات البشرية على التحديد الأفضل لإمكاناتها الكامنة وثرواتها المحلية، وفي مزاج الشعب وروحه أيضا، وفي الإحساس المتنامى بضرورة البحث عن مسارات إنسانية مختلفة للتطور الاجتماعى، وفي العلامات والرموز، ينبثق الموقف المبدئى لقطاعات عريضة،

ترداد لتساعا باضطراد، من المتقنين باعتبارهم مواطنين فى بلادهم، وثقافتهم، وحضاراتهم والعالم - فى الآن نفسه - للبحث عن الجذور، والعلّة الخفية، للأخطار المتصاعدة أو للمأزق على أفضل تقدير.

وبديهى طبعا أن تكون نقطة انطلاق مثل هذا الاندفاع - والمتعلقة تحديدا بعملية تغيير العالم - متجهة فقط نحو ما هو متغير، كنفويض لمجرد تكرار المعرفة المكتسبة والأفكار المسلم بها. وفى سياق هذا البحث، لا بد من التمييز بوضوح ما هو جديد وما هو تجديدى، بين الجدة كعامل تأثير تكوينى فى النمط السائد وبين التجديد، بين الريادة الطليعية والإبداع، إنه تقسيم دقيق ولاشك، إن العيار المألوف للكفاءة الاجتماعية، وهو معيار هو ذاته مكيف مع المزاج العام المتعلق بالإنتاجية والاستهلاكية، أو بشكل أعم مع الأساس المنطقى للنزعة العلمية وأولوية التكنولوجيا، يمكن أن يكون مجرد نقطة البدء. ومن الأهمية بمكان الذهاب إلى ما بعد ذلك بحثا عن الأسباب الكامنة وراء كون الإمكانيات الكامنة لمجتمع ما أو كيان ثقافى، توجد فى حالة سبات، أو أنها جعلت هكذا، أو لتبدو كذلك، وانطلاقا من تلك النقطة، يمكن لبحثنا النقدي المتقدم أن يمضى لاختيار أنماط الاستمرار المجتمعية - أو الاجتماعية الثقافية - من خلال التحول، الذى يبدو أنه وحده الكفيل بتعزيز الهوية القومية / الثقافية والتي تعتبر الآن وبحق شرطا حيويا لنمط مقبول لعالم إنسانى جديد.

ويمكن "لنزعة العصرية" و"المعاصرة"، أن تقدم مساعدة حقيقية فى هذا الميدان، فالنزعة العصرية باعتبارها قمة مذهب الاختزال، التى يتسم بها نهج المركز والمحيط الخارجى، قد أصبحت جزءا من ذات المحيطات الخارجية الطبيعية التى قبلتها، فى حين أن المعاصرة، تسعى تحديدا لضمان الحفاظ على الخصوصية أثناء التحول، بل وأكثر من ذلك تسعى إلى تحديد وتسخير الإمكانيات الكامنة الخاصة بهذا التحول بالذات.

ويتطلب مثل هذا الموقف منا التركيز على أمثلة مختارة حيث تسود المعاصرة - جامعة للخصوصية الثقافية القومية والتحول الجذرى - بغية تحقيق فهم أفضل

للعناصر المشتركة والفاعلة فى مجتمعات عرفت تاريخيا بكونها مختلفة كلية. ومع ذلك كانت قادرة على أن تتشابه - إن لم تتطابق - فى درجات من الفعالية والتحقيق الكفاء. وعند ذلك يمكن لهذه الدراسة المقارنة أن تعكس من أجل إزالة أفضل للحواجز التى تعترض هذه العملية، مقدمة بذلك العون لكل من يهتم الأمر لتحديد السياسات القادرة على التغلب على التحولات المستترة التى تشوه وتحبط.

وعندما نضع فى أذهاننا الفوارق الهائلة بين المناطق الجغرافية / الثقافية، وكذلك النظم الاجتماعية / الاقتصادية والسياسية / الأيديولوجية المختلفة، لكل من تلك المناطق، بما فى ذلك نسق وإيقاع التسارع والمقاومة، يمكن الشروع فى المزيد من الدراسة الفاحصة للعمليات والاتجاهات "الجديدة"، بمعايير لا تعتمد على الثنائية. لذا فإن النزعة الأيكولوجية والنهج الجماهيرى، وإضفاء طابع أخضر على المجتمعات الغربية المتقدمة المصنعة، يمكن النظر إليها كمحاولة سخية للتغلب على عمليات الإفساد الناتج عن الإقراط فى التصنيع، وكأسلوب حياة أريب ومصقول متجنز بعمق فى الموقع الموضوعى المسيطر لتلك المجتمعات فى السوق العالمية والموقف الجغرافى / الإستراتيجى العالمى. ولكن، وقد قبل كل شئ، وعمل كل شئ، هل نعجز عن ربط المظاهر الإيجابية العديدة لهذا الموقف الجديد تجاه فائض القيمة التاريخى بالانبعاث القوى لهذا البحث الحضارى الذى غالباً ما يجمع الأصولية والراييكالية من خلال مسارات الجدلية الاجتماعية الثورية التى لم تتبع من قبل فى المجتمعات غير الغربية، والتى يطلق عليها أسم المجتمعات المتخلفة، والموجودة أساساً فى الشرق وأيضاً على نطاق عالمى فى كل أرجاء المنطقة المهمشة حتى وقتنا هذا فى القارات الثلاث؟

وعلى الضفة الأخرى من النهر، يجب أن يسود نفس المنهج النقدى فى بحث هذا البعث الروحى فى الثقافات والمجتمعات غير الغربية على وجه التحديد، أليس من الممكن أن يشير ذلك إلى تردد قطاعات معينة فى مواجهة الحقائق القاسية للسياسة الواقعية وتراجعها من مذهب الواقعية إلى مذهب الجوهرية؟

باختصار، كيف يمكن للعصرية أن تنجو من مأزق النزعة الهروبية؟ وكيف يمكن لها أن تواجه الضغوط الحديدية للتحديات العصرية لميزان القوى، وللسيطرة على الفضاء بواسطة الثورة العلمية والتكنولوجية؟

٢ - الأزمة العالمية: مركز الجاذبية المتحرك

يكشف الوصف والتحليل الأولي لمزاج "الأزمة" العام في أيامنا - التي يطلق عليها اسم، "الأزمة العالمية" - تناقضا مفاجئا مع الطرح أو الوضع المعتادين للمشكلة. إنها ليست أزمة اقتصادية، رغم أن عوامل الأزمة الاقتصادية ذات جاذبية مستمرة: مثل الصدع الذى يزداد عمقا بين مجتمعات الشمال الصناعية المتقدمة والجنوب المتخلف أو النامي، ومشكلة مصادر الطاقة، والبعد الغذائي، وأزمات الديون التي تخفى جانبيها، وهوامش الفقر التي تزداد اتساعا بين الفئات المهملة في المجتمعات الصناعية المقدمة من النمط الرأسمالي، وصعوبات الجمع بين التخطيط المركزي والتنمية والمبادرة الاقتصاديين الشاملين المرنين.. الخ.

منذ ١٩٤٥ ومنذ بدء المرحلة الأولى لعلاقات الاستقطاب الدولي الثنائي، وهي المرحلة المسماة. "بالحرب الباردة"، التي أدت إلى المرحلة الثانية "من التعايش السلمي" ونحو المرحلة الأولى من "الانفراج" - وحتى المواجهة الجغرافية/ الإستراتيجية والسياسية الجديدة التي غالبا ما تسمى "الحرب الباردة الجديدة" - كان للبعد السياسي/ الإستراتيجي للأزمة بصفة خاصة، صلة وثيقة بالموه-سوع. فمن ناحية، أدى الجو العام المتعلق "بالأمن" إلى النمو المخيف لترسانات الأسلحة الإستراتيجية والنووية المتقدمة، في حين أنه في الجانب الآخر من النهر، كانت هنالك حركات السلام التي حاول تيارها العام أن يجعل العقل يدرك الخطر القاتل لذلك النهج السياسي الإستراتيجي.

ومع تصاعد الأخطار انتقل التحقيق إلى معرفة أسباب أخطر وضع تمت مواجهته. وإذا كانت السيطرة على الفضاء، أى البعد السياسي لصراع القوة عبر التاريخ بين متنافسين رئيسيين مختلفين قد أمكن تحقيقه، وكما يمكن تحقيقه بالأسلحة الإستراتيجية الكلاسيكية، بما في ذلك التكنولوجيا المتقدمة، فلماذا إذا نشهد

نهج "ما بعد شفا الهاوية"، وانتقال تكنولوجيا التسليح من الكلاسيكى إلى النووى؟ وهذا تساؤل مزعج بشكل خاص بقدر ما يكون هنالك إجماع فريد بين كل المتخصصين وكذلك بين الجمهور العام، إلى حد أن النمط الحالى من السلاح النووى، ناهيك عن كمياته المذهلة، لا يخدم أى أغراض سياسية مهما كان نوعها: فلم نعد نواجه أخطار الحرب النووية، نظرا لاستحالة تحقيق أى أهداف سياسية عن طريق هذا العنف المركز. وليس من المتوقع تحقيق أى سيطرة على الفضاء، فكل الفضاء ومكوناته وما يشغله ستنم إبادته عشرات، بل مئات المرات فى نفس لحظة بدء الهجوم النووى والهجوم المضاد الذى لا مفر منه. ومن ثم إذا كان من المستحيل تحقيق أى هدف سياسى، فكيف لنا أن نفسر الأسباب العميقة الكامنة وراء هذا النهج الفريد فى لامنطقية للتعامل مع مشكلات الميدان السياسى / الإستراتيجى؟ وكيف لنا أن نفسر الطبيعة الشيطانية لسياسة "الردع المتبادل"؟ هل كنتيجة لبنية الاستقطاب الكامل الثنائى فى القوة العالمية كما سبق الإشارة إليه؟ أو أن عدم كفاية النهج السياسى / الإستراتيجى، الذى أفسح له التحليل الاقتصادى المجال تدريجيا يبدو أكثر إزعاجا لأن الرأى العام قد قادوه تدريجيا للاعتقاد بأن هذا النهج سيكون كافيا، فى وقت سادت فيه "أولوية السياسة" بعد أجيال عديدة من النزعة الاقتصادية. ولأول مرة فى تاريخ الجنس البشرى، لا يعالج بنو الإنسان القابضون على زمام السلطة الاجتماعية فى مركز المجتمعات البشرية، المشكلة بطريقة تمكن من إيجاد حلول مختلفة، وإنما بطريقة إذا ما طبقت ستؤدى ببساطة إلى إبادة الجنس البشرى ذاته.

ومن هنا بدأ البحث عن الجذور العميقة لأسباب الأزمة العالمية.

وتدريجيا، أصبح أكثر وضوحا عاما بعد عام، أن المزاج العام برمته، فلسفة ونغمة المشروع الحضارى الذى تعيش فيه قد أصبحت فى خطر. وكما حدث فى القرن الخامس عشر، وعلى أساس "قائض القيمة التاريخى" المتراكم، نجحت أوروبا فى تركيز موارد هائلة أفضت إلى الثورة الصناعية وظهور البرجوازية مترافقة مع الظهور الموازى للفلسفات العلمية والعقلانية وصولا إلى النزعة

العلمية. وبعد قرون من الإيمانية وتقبل أنماط العالم الواقعة خلف خبرة البشرية. شعرت أوروبا أن الوقت قد حان لتكوين رؤيتها البرومثيوسية عن الإنسان باعتباره خالق الكون المادى المصدر، والمالك، والسيد، وفى الحقيقة خالق كل شئ. وأدت هذه الفلسفة للمشروع الحضارى فى أوروبا - وفيما بعد فى العالم الغربى بأكمله - إلى اندفاع أهوج لغزو الفضاء والسيطرة عليه وامتلاك أجزائه المكونة - سواء كانت هذه موارد أم بشرا - من أجل تغيير العالم. وبدأت النزعة الإنتاجية اللامحدودة التى أدت إلى نزعة استهلاكية لا محدودة، وأفضت فى المجتمعات الأكثر تقدما، إلى المتعة بلا حدود، باعتبارها المعالم (الخصائص) الجديدة للجنس البشرى.

ومع ذلك، فإن طبيعة هذا المشروع الحضارى لا يمكن إلا أن تفضى إلى تكرار المواجهات العنيفة، تحديدا من أجل السيطرة على الفضاء، وموارده وتحدياته وما يعد به. تلك كانت جذور التقاليد الفريدة لقتل الأخوة بعضهم بعضا الذى ميز الحروب الأوروبية، التى إلى أدت إلى تقسيم لا رحمة فيه للأمم والمناطق الإثنية والمجتمعات منذ نهاية عصور الظلام وحتى ذروتها فى حرب (١٩١٤ - ١٩١٨) والحرب العالمية ما بين (١٩٣٩ - ١٩٤٥). وهو تطور وجد له صدى يضاهيه وحشية، فى الحروب الاستعمارية، وبناء الإمبراطوريات والإمبريالية والهيمنة.

ومما لا شك فيه، أن المناطق الحضارية والثقافية الجغرافية الأخرى، قد شهدت صراعات وحروبا وافرة، ومع ذلك، فإن القالب التكويني للمشروعات الحضارية للشرق قد طرحت نهجا مجتمعيًا وقدمت الوحدة والحل الوسط على الجدلية الطاردة مركزيا التى تودى إلى فرض الهيمنة. وكان ذلك باختصار، هو معنى الإجماع اليابانى، والتقاليد الصينية فى الجدلية المنطقية التكاملية، والأمة الإسلامية، والإجماع الإفريقي، وكلها تضاهى العديد من الطرق منطق الثقافات المركبة فى الهند، وثقافات الفلاحين الهنود فى نصف الكرة الغربى.

فى الحقيقة، فإن رغم وجود تناظر مدهش بين الجانبين، فمما لا شك فيه أن الاندفاع الموضوعى الفريد لأوروبا نحو الهيمنة العالمية، منذ عهد الاكتشافات

البحرية حتى اليوم، هو الذى أعطى مشروعاتها الحضارى، وما رافقه لديها من مزاج عام وفلسفة فردانية وبروميثيوسية، ومركزيتها فى تقرير المسار الذى يقود العالم إلى الأخطار المميّنة الحاضرة للحالية للمحرقة النووية. فرغم كل شئ، كان المركز الرئيسى للهيمنة الغربية هو الذى قرر استخدام القنبلة الذرية الأولى - ضد دولة شرقية - مطلقة بذلك نغمة الكابوس التى ازدادت حدتها منذ هيروشيما وناجازاكي.

وهكذا فإن الأسباب الجذرية الكامنة وراء الأزمة العالمية الراهنة (هذا الاصطلاح يستخدم من أجل الاختصار ككلمة كودية) أخذت مرة أخرى فى الانتقال من البؤرة السياسية الإستراتيجية على القلب الحضارى، منذ الفترة الانتقالية (١٩٤٩ - ١٩٧٣) حيث انطلقت عمليات كبيرة ومفاجئة "على الجانب الآخر للنهر"، أى فى المركزين الحضاريين فى الشرق، الثورة الصينية وما تبعها من عمليات تحديث وتحول ثقافى، والمنطقة العربية الإسلامية حول مصر، تواجه هيمنة الإمبريالية والنزعة العلمية من خلال سلسلة حروب ومواجهات أدت إلى أزمة النفط والإستراتيجية الحضارية المضادة للغرب فى وقت تحرير فيتنام.

وتحقيق هذا التحول فى مركز الجاذبية بسرعة غير عادية. ففى نهاية المطاف تحقق الانتقال من النزعة الاقتصادية إلى المجال السياسى الاستراتيجى فى منتصف الثلاثينيات وحتى هيروشيما، فى حين أن القلب الحضارى بدأ فى الظهور بعد ذلك مباشرة، فقد حدث تغيران رئيسيان فى جيلين - بعد قرن من النزعة الاقتصادية.

وتفسر هذه السرعة ذاتها ازدهار التوجهات السائدة الآن فى المنطقة التحليلية والموجهة نحو العمل التى تعالج "الأزمة العالمية". وتتمثل هذه التوجهات فى انبعاث السلم كضرورة حتمية، وباعتباره أعرض نقطة للالتقاء الأمثل، وانبعاث نزعات، سواء كانت فلسفات أو أديانا أو مراجعة للأيديولوجيات، والبحث الحضارى النابع مباشرة من التحليل التاريخى لتشكيل مشروعات حضارية مختلفة، ومضامينها وأهدافها.

وتظهر تدريجيا فى مناطق الالتقاء التى تربط العناصر التكوينية المختلفة لتلك الاندفاعات المختلفة على نحو ظاهر. وعلى كل حال سرعان ما تبدو هذه جميعا قادرة على بناء جسور، وضم الأيدى - فمن المؤكد بعمق أنه ما لم تقم البشرية بالتعامل مع مشروعاتها الحضارية ومقدماتها الفلسفية بشجاعة وبعد نظر، فإنه لن يكون بالإمكان تجنب يوم القيامة.

٣ - التوجهات نحو المنظور

إن نظرة أدق على المدى التاريخى الأبعد، سوف تظهر أن جدليات العالم فى مرحلتنا التاريخية الحاضرة، ليست جديدة بالمرة. إنها حقيقة ثابتة أن المرحلة الانتقالية بين كل حقبتين تاريخيتين قد شهدت دائما ازدهار سمات سلبية، مردها عدم قدرة وفساد ونفسح واضح - مقترنا بمجموعة غير متماسكة من العوامل والسمات "الجديدة" - تدل على عملية غير متكررة، وتشكيل تاريخى جديد.

وفى كل مرة، كان هذا المشهد المتناقض يودى إلى موجة من الفكر السلبى، واليأس، أو على الأقل، محاسبة عميقة للذات تصل على أبعاد مؤلمة. وحتى نعرف أيضا أنه فى هذه البوتقة، ظهرت التشكيلات التاريخية الحديثة، والأفكار وأنظمة التفكير، والاتجاهات الفلسفية والدينية، وباختصار المزاج العام السائد، فى العقل والروح على حد سواء، وأهلية الجنس البشرى، التى انبعثت فى كل فترة جديدة خلاقة.

لذا يصبح أمرا محتوما على كل المدارس التكوينية الرئيسية البديلة للفكر والعمل فى كل المناطق الجغرافية / الثقافية أن تمضى لجعل القوالب الحضارية لعالمنا تجتمع على اتخاذ عمل لتبديد المزاج السائد للعقل السلبى السائد، وقبول تحديات الإبداعية، وفى المحل الأول رفض النهج الموحدة للحقيقة الأحادية الخط والثنائية. وباختصار: فإنه لا بد من قبول التوسط نحو التكافل باعتباره الطريق الذى قد يفضى إلى التغلب على الأزمات المتداخلة فى زمننا هذا، والذى يفسر على أنه الدوائر الجدلية لتغيير العالم، نحو البناء الهيكلى التدرجى لنماذج عالمية جديدة، مع الأمل فى أن يتم ذلك بنمط أقل عدوانية وأكثر تعاونا.

هذه هي الخلفية لدراسة ظهور الفكر الاجتماعي الجديد فى زمننا، زمن تحول العالم، الذى يواجه الجحيم النووى، بشجاعة وبعد نظر وأخوة.

إن هذه السلسلة من الميادين الإشكالية ترتبط مباشرة بالحاجة الأساسية التى تحس الآن لإعادة بناء الهيكل الأساسى للنظرية الاجتماعية والسياسة، القائمة على أساس المقارنة الهادفة حقا للوحدات المجتمعية الحقيقية الملموسة القابلة للمقارنة، التى تتم فى سياق المسار الجدلى. ولا شك أنه ليست هنالك ندرة فى الافتراضات المسبقة فى المجال النظرى. ومن المهم، فى هذا السياق، تعريف احتياجاتنا الحقيقية: ليس بالنسبة للنظرية الاجتماعية الهادفة فحسب، والتى ينظر إليها الآن باعتبارها حاجة ملحة ووثيقة الصلة بالموضوع من قبل مدارس فكر وعمل تكوينية مختلفة، بل ربما بدرجة أكثر من ذلك بالنسبة لتعريف مجالات فيها إشكاليات لم تجر معالجتها إلا قليلا حتى الآن وينبغى لدراسة الفكر الاجتماعى الجديد أن يشمل ما يلى:

(أ) مفهوم التقدم الذى يرى على أنه تتابع "المراحل".

(ب) تاريخية التقدم، مقارنة بالبعد العالمى للتطور الاجتماعى.

(ج) نمايز المجموعات المجتمعية إلى طبقات، وفئات، ومجموعات مهنية، واتجاهات، إضافة إلى التنوع الإقليمى والمحلى.

(د) تكوين الروح العامة الاجتماعية مقارنة بالفلسفات والأيدولوجيات الاجتماعية.

(هـ) العوامل البيولوجية فى العمليات المجتمعية، وبشكل أساسى للجنس، والعمر، منظورا إليها بصفة خاصة فى ارتباط بالسلطة الاجتماعية ورؤى العالم، الخ.

(و) مستلزمات النهج الواقعى، الحقيقى الملموس، الفلسفى للتعامل مع مشكلات الاقتصاد والمجتمع باعتبارها نسيج الدائرة الداخلية لتحويل العالم.

(ز) الانتقال من العالم المتأصل ذى التوجه الأخلاقى، إلى النمط الجديد من العالم، والمتقف كمواطن مسئول: تدريبه المطلوب فى الاقتصاد، والإستراتيجية الجغرافية، والتخطيط الاجتماعى والسياسى والفلسفة.

ح) السؤال عن أنه، إذا كان "الإنسان لا يعيش بالخبز فقط"، فكيف يستطيع التخطيط الأكثر تبصرا للكوادر الاقتصادية والاجتماعية المسؤولة عن المستقبل أن يؤخذ في الاعتبار البعد غير الاقتصادي للحياة البشرية، والذي يعاد تجميعه بصفة عامة تحت اسم "البنية القومية" وإن كان في الحقيقة مكونا من الفلسفة والدين والأيدولوجيا، والروحانيات بشكل عام.

ط) السؤال عن أنه، بعد الإخفاقات التي تدرك الآن بوضوح للنهج الاقتصادي - النقدي، ما هي آفاق الثقافة والروحانيات في إعادة تشكيل النسيج الاجتماعي / الاقتصادي للمجتمعات البشرية في زمن تحول العالم.

ي) السؤال حول مكان ودور الرؤيا، والخيال الفني، والحلم والتصوف - فيما يتعلق بنهجنا الحقيقي - الصلب.

كيف يمكن أثناء الانتقال من التكنوقراطية الذي نحن في أمس الحاجة إليه إلى الفيلسوف في المدينة، ومن مراحل التطور إلى "الجمهورية"، ومن البيروقراطية - التكنوقراطية أو التكنوقراطية - البيروقراطية إلى الفيلسوف - الملك: معالجة أصعب المعادلات الصعبة بين الواقع والخيال؟

٤ - المبادرة التاريخية

لم تحدث الأشياء التي كان من المفروض أن تحدث، وما حدث ليس هو ما كان مفروضا أن يحدث. ومن ثم، فإن المستقبل، لا يمكن بأي شكل من الأشكال، أن يكون استقراء تنبؤات فاشلة ونزعة استثنائية مدعاة، وأصبح ما يدعى بعلم استقراء المستقبل Futurology، قبل ارتباط بالواقع عن أي وقت مضى. رغم رداء الماركسية الذي يتمسح به.

فما العمل إذن؟ بلا ريب: أنه ينبغي التعلم من الحقائق.

وليس للتعلم من الحقائق علاقة من قريب أو بعيد بالتجريبية أو البراجماتية، وإنما يعنى العودة إلى القاعدة الذهبية للنهج العلمي، حيث يؤدي الاستقراء الذي تتبعه المقارنة الهادفة، من خلال الاستنتاج النقدي، إلى فهم أكثر ترابطا للحقيقة

التي تواجه المحليين والمنفذين، على حد سواء. وتكمن الصعوبة الرئيسية التي نواجهها في هذا الميدان، في أن المعلومات - التي تَدَّاع من خلال وكالات الأنباء ووسائل الإعلام الرئيسية - أصبحت اليوم في العالم الغربي خاضعة لسيطرة الدوائر الكوزموبوليتانية، وتحت الهيمنة المباشرة للمجتمع الصناعي - العسكري الأمريكي، بل وأكثر من ذلك تحت هيمنة الجهاز الصهيوني الدولي. وأدى هذا الوضع غير الواقعي كلية إلى احتجاب العالم الحقيقي - الملموس، وإلى تقديرات مستقبلية أساسا تطلعات الهيمنة، والمركزية الشديدة لتلك الدوائر الكوزموبوليتانية، والتي قدمت عروضها تحت اسم "العالمية" - وهي الخلف المعاصر للسلف العظيم "الدولية" و "الكونية" ومن هنا تأتي أهمية النضال لإعادة صياغة النظام الإعلامي الدولي - ليس باتجاه "نظام" إعلام دولي جديد، بقدر ما أن النظام لا يكون إلا نظاما سياسيا عالميا ولكن بطريقة تمكن من تجسيد الضرورة الحتمية بالاعتماد على المعلومات التي يقدمها المنقون الأساسيون المنغمسون في العمل داخل ثقافتهم ومجتمعاتهم القومية، والمسئولون عن شعوبهم والمطلعون اطلاقا أصيلا على الرؤى الجغرافية / الثقافية للعالم السائد في المناطق الثقافية / الجغرافية المختلفة، كما هو الحال أيضا بالنسبة لمدارس الفكر والعمل الرئيسية البديلة الموجودة في كل من تلك المناطق.

فعلى سبيل المثال، فإنه لمن السخف، وهذا أقل ما يقال، أن نرى كل ذلك القدر من الإعلام المشوه، وازدهار المعرفة العلمية المزعومة التي قادت إلى نتائج كارثية - فلم يكن في مقدور أى من المعاهد المطلعة أو الصحفيين في الصحافة الكوزموبوليتانية أن يتنبأ بالثورة الإيرانية وتأثيرها على الوضع العالمي، رغم حرب قتل الأشقاء لبعضهم البعض في الخليج التي تصاعدت حداثها بشدة وسرعة بين العراق وإيران. ولم يتمكن أحد من التنبؤ بأن غالبية من يطلق عليهم جيل أحداث بيركلي في ١٩٦٨، سيكونون اليوم في خدمة المركب الصناعي - العسكري وسياساته العدوانية، ولم يتمكن أحد من أن يقيم أو يفهم أن غالبية بلدان أمريكا اللاتينية، المشغولة بالديون المتصاعدة تستطيع مقاومة العاصفة ومواجهة البنك الدولي وصندوق النقد الدولي بأنفة وبطريقتها، ولم يكن أحد يتخيل أن أمريكا

الوسطى سوف ترفع عالياً رايات الاستقلال والاشتراكية، وعلى بعد بضعة كيلومترات من القواعد الحربية الرئيسية لجارتها الشمالية. إن قمة المعلومات التي يدعى أنها موضوعية والمعرفة العلمية، قد أمكن الوصول إليها في الشرق الأوسط وبالتحديد بعد حرب أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٣، وفي لبنان، فالإذلال وتحطيم ما يسمى بالتفوق العسكرى وقدره الجيش الإسرائيلى العنصرى المعتدى، ومسانديه من العسكريين الأمريكين، بدعمهم الأسطول السادس سوف يسجل فى التاريخ السياسى العسكرى الحديث، باعتباره انهياراً أكثر أهمية من انهيار فيتنام، فهى تكشف وبطريقة فريدة، أمراض التحليل والعمل السياسى المستند على مثل تلك المعلومات الخاطئة التى اختلفتها وقدمتها تلك الأوساط الكوزموبوليتانية المسممة.

وإذا ما رغبت القوى الرئيسية فى الغرب أن تفهم العمليات الجارية فى العالم اليوم، فى هذه الفترة من التحول الراديكالى، فإنها حسناً تفعل لو عالجت أولاً وقبل كل شئ هذه المشكلة الخطرة، والتى تقوض قدرتها على القيام بعمل هادف. ويمكن ذكر أمثلة أخرى من قبل العديد من المحللين. ويكفى هنا لهدفنا أن ننهى بهذه الملاحظة.

مما له عظيم الأهمية - بالنسبة لمستقبل الجنس البشرى - تلك العملية الخاصة بالتطبيع والتقارب هذه بين القوتين الاشتراكيتين الرئيسيتين فى عصرنا هذا، وهما اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وجمهورية الصين الشعبية. وهنا أيضاً، ومرة أخرى، يؤدى الإعلام المضلل والتحليل المحرف إلى طمس دفق وسرعة هذه العملية الكبرى وطبيعتها الحقيقية - الملموسة، لأنه بتقاربهما معاً، سيغدو بمقدور هذين المركزين الهائلين للقوة والنفوذ اللذين يقفان تحت راية الاشتراكية، ميزان القوى العالمى وبالتالى المسار المستقبلى للبشر، تغييراً حاسماً.

وبمقدورنا بالفعل أن نشاهد الآثار الأولى لهذه العملية الهائلة: ألا وهى بدء تمهيد الطريق نحو إعادة توحيد محتمل لدولتى كوريا فى ظل اتحاد كونفيدرالى كورى، وبداية علاقات واقعية، تقضى إلى التطبيع بين فيتنام والصين، بعد أن أصبح هنالك سعى تدريجى للوصول إلى حل للمأساة الكمبودية، فى الوقت الذى

بدأت فيه عملية مماثلة في أفغانستان، والتقارب بين شبه القارة الهندية وكل من الصين والاتحاد السوفيتي؛ والدور المركزي الجديد الذي بدأت تلعبه اليابان كقوة عالمية، سواء باعتبارها عامل التحديث الأول للصين والمساهمة في تطوير مناطق هامة في عالم القارات الثلاث، وربما سيبيريا غدا، يدا بيد مع الاتحاد الفيدرالي الكوري، والدور الفعال الذي لعبته مجموعة الكونتادورا لدول أمريكا اللاتينية والمدعومة حاليا من قبل عدد من دول أمريكا الجنوبية من أجل الحفاظ على السلام في أمريكا الوسطى والتعاون الوثيق مع حركة عدم الانحياز؛ والتزايد التدريجي في أهمية وفعالية حركة عدم الانحياز، كجسر وساطة، ضاربة جذورها بعمق في الواقعية السياسية، رغم التناقضات والتباينات الهائلة؛ والكفاح التحريري المنذع حاليا في جنوب أفريقيا، المدعوم بكل قوة من قبل كل الدول الاشتراكية وحركة عدم الانحياز، وكل القوى المعادية للإمبريالية في أفريقيا والمخروط الجنوبي، إضافة إلى تعاطف قطاعات واسعة في أوروبا وأمريكا الجنوبية، إلى جانب غيرها.

إن هذه العملية، التي نعتبرها حاسمة بالنسبة لمستقبل الإنسانية، تدخل الآن طريق التلاقى مع حركة عدم الانحياز، وبشكل أساسي مع نواتها الصلبة - الراديكالية المؤلفة من الدول الوطنية المستقلة المعادية للإمبريالية في آسيا، والعالم العربي، وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وتسير هذه العملية، كما نستطيع أن نلاحظ، قدما بسرعة التقارب الصيني السوفيتي، وسوف تؤدي إلى اليوم الذي سيصبح فيه التحالف التاريخي بين مجموعة دول العالم الاشتراكية والجهة الرئيسية للقوى والدول المعادية للإمبريالية واقعا أساسيا في عصرنا، في عالم ستصبح فيه الإستراتيجية النووية شيئا لا يجوز التفكير فيه. ما لم تبدأها بالطبع دولة عدوانية صغيرة، أو مجموعة دول، بحيث يصبح لها تأثير لا يمكن التنبؤ به على المسرح الدولي؛ كإسرائيل وجنوب أفريقيا.

وإذ ننظر من خلال تطور عالمنا في عملية تحول راديكالية، لا يسعنا إلا أن نلاحظ الضعف التدريجي للنظام العالمي، سواء في المؤسسات الرسمية لأنظمة الأمم المتحدة ذاتها، كما جاء مؤخرا على لسان أمينها العام، وتناقص أهمية ودور

المنظمات غير الحكومية، التى غالبا ما لعبت دور الشعار الذى يعمل من ورائه مجموعات العمل الكوزموبوليتانية عبر القومية. كما أصبحت مصالحها وأصبح ممثلوها الشرعيون فى مركز الفعل فى العالم أكثر من أى وقت مضى.

ومن ثم، دعونا نبتهج. ودعونا نقيم عملية التحول الهائل الجارية أمام أعيننا وخلال حياتنا. دعونا نمعن النظر فى التقدم الهائل لقوى الاشتراكية والتحرر الوطنى. ودعونا أيضا نلاحظ النمو الموازى لقوى العدوان والإمبريالية والعنصرية.

إن طريق السياسة الواقعية، ولا ريب، متداخل عضويا مع التفاوض المأساوى، ورؤية للتاريخ التى تتيح لغالبية شعوب هذا العالم أن تأخذ المبادرة التاريخية بأيديها فى النهاية، رغم الأفكار السلبية والأخطاء والمعوقات والهجمات المضادة التى لا مفر منها.

إن العالم يتغير - الآن تحت سمعنا وبصرنا.

ولقد حان الوقت لدراسة إمكانية تطوير مجموعة متنوعة من الطرق والنماذج والقوالب للحضارة الروحية الاشتراكية الجديدة، فالحل الوسط التاريخى الممكن أمامنا وهو الآن يتحدى التزامنا وإيماننا ومواهبنا. وكذا، تصورنا ورؤيتنا للتاريخ.

لحظة "ريح الشرق" في صياغة المشروع الحضارى الجديد

هل يلتفت العرب والمسلمون إلى العالم؟

إلى العالم كما هو - لا عالم الماضى، سواء أكان ماضيهم، أم ماضينا، أو ماضى القوى الغازية المعادية؟ قد يبدو السؤال غريبا، أو مبالغا فيه بعض الشيء. ولكننا منظر الساحة العربية خاصة فى قلب دائرة الحضارة الإسلامية المعاصرة، يدفع المراقب، دعنا من المشارك: إلى ذهول وإحباط.

- ١ -

أقول هذا بمناسبة انسياق العرب والمسلمين - وخاصة شعوب عالمنا العربى - إلى ترديد السؤال - لنسأل: كيف نكون مثل الغرب؟ أين نحن من حضارة أوروبا وعنفوان أمريكا؟ حتى السؤال الساذج: كيف يمكن أن نقنع "الغير" - أى الغرب - بأننا على حسن النوايا وطهارة القلب، وكأننا نتمثل نمطه الرائد. الغريب هنا، أننا نتصور، أولا، أننا والغرب نمثل الكون كله - بينما تلتئى الإنسانية يعيشون فى آسيا، ومن بينهم الغالبية العظمى من المسلمين، من تركيا إلى إندونيسيا - بالإضافة إلى القارة الإفريقية وقطاعات مهمة من العالم المحيط. والغريبة أيضا، فى المقام الثانى تلك التى تنشأ من تصور غالبيتنا، وخاصة الطلائع السياسية والفكرية، بأن الغرب هو القدوة، بينما يؤكد أعلام الثقافة الغربية أنفسهم - من شبنجلر إلى توينبى - حتى أنصار البنيوية والتفكيكية وما بعد الحداثة العدمية أن الغرب دخل بخطى مهتزة إلى مرحلة الانحدار التدرجى بالنسبة لما كان عليه حتى بداية القرن العشرين، وهو قرن الحروب الإقليمية والعالمية الكبرى حتى مستوى أعمال السلاح الذرى لإبادة مئات الآلاف من اللا - غربيين عام ١٩٤٥، والملايين من الشعوب التواقعة إلى تحررها فى كوريا وفيتنام والجزائر وإفريقيا السوداء.

يتم هذا فى الوقت الذى تتجه فيه أمريكا الوسطى والجنوبية (أمريكا اللاتينية) من المكسيك إلى أقاصى شىلى الجنوبية إلى التعامل مع آسيا، وخاصة آسيا الشرقية، من سيبيريا حتى إندونيسيا حول الصين مركزا، إدراكا منه أن صحوة هذا العالم تمثل جوهر نهضة الشرق فى عصرنا، وكذا مستقبل صياغة حضارة العالم الجديد. إن جامعات أمريكا اللاتينية ومراكز البحث فيها، وكذا القطاع الأوسع من المثقفين والعلماء ورواد الاقتصاد والتكنولوجيا يتعاملون اليوم فى المقام الأول مع آسيا الشرقية، إلى حد بدأ يتعدى العلاقات التقليدية بالولايات المتحدة - مما يجعلهم يتجهون تدريجيا وموضوعيا إلى طرح التساؤل الحضارى بعبارات لم تألفها مثل: أمريكا اللاتينية وصحوة آسيا، دورة الأفكار فى عالم الجنوب، دائرة المحيط الهادى بونقة لبزوغ حضارة جديدة - جنبا إلى جنب مع التساؤل عن الغرب والتفاعل معه.

وبما أن العالم كما هو موضوعيا، وواقعا، عمليا لا يقتصر على الدائرة الإسلامية. الغربية، فإنه يصبح لزاما علينا أن نتعامل مع هذا العالم الجديد بعقول صاغية وإرادة صادقة، دون إهمال الدائرة التقليدية التى مازالت مهيمنة. من هنا كان التساؤل عن عملية صياغة المشروعات الحضارية - الثقافية الجديدة فى مختلف دوائر الشرق وخاصة فى القارة الآسيوية - موضوعنا اليوم.

- ٢ -

كلمات قلائل عن الصياغة التاريخية للمجتمعات والأمم الشرقية.

لاحظ علماء الجغرافيا التاريخية أن أكبر الأنهار تخرق آلاف الكيلومترات من سواحل المحيط والبحار حتى أعماق القارات بين الصحارى والهضاب والجبال فتتيح للتجمعات البشرية القاطنة فيها إمكانية الزراعة، بشرط أن يتم التحكم فى مجرى الأنهار، وهو دور مراكز السلطة الاجتماعية، أى الدولة. أصبحت هذه المناطق الخصبة مقاما للحضارات القديمة فاتحة التاريخ كما هو الحال فى حوض النيل ومنطقة ما بين النهرية ومساحة الجانج الحضرية ومساحات الأنهار الصينية الكبرى وخاصة النهر الأصفر ونهر يانج تسي كيانج. كانت هذه أرض

الحضارات الفرعونية والفارسية والصينية ومعها ومن حولها ومن التقاطع معها مساحات الثقافات القديمة المتعاملة مع الدائرة الحضارية الرئيسية.

كان الأمر في أوروبا، وما زال، مغايراً: مساحات محدودة تحيط بها البحار وتتمتع بالأمطار للرى الطبيعي، مما أجل من ظهور وسطوة الدولة المركزية، وكذا ساعد على الاتجاه إلى البحار فكانت الاكتشافات، ومن بعدها موجات الاستعمار.

الصياغة التاريخية لمجتمعات الشرق الحضارى دفعت بالجماعة والجهد الجماعى إلى المقدمة، على علاقة دائمة وتفاعل جدلى مركب مع مراكز السلطة الاجتماعية. فى هذا المناخ التاريخى الجغرافى كان طبيعياً أن تظهر منظومات من الأفكار والرؤى تعكس هذا التضامن المجتمعى ومركزه السلطة، كانت هذه تربة الديانات الكبرى: الديانات التوحيدية الثلاث، كلها انبثق من الشرق - من سيناء ثم فلسطين وشبه الجزيرة العربية، وكذا الديانات الآسيوية الأخرى، وخاصة البوذية هذا جبننا إلى جنب مع منظومات فلسفية - حضارية قامت مقام الديانات فى القارة الصينية الكونفوشيسية خاصة، والتأويلية، وكذا فى اليابان وكوريا وفيتنام.

ليس من الغريب، ما دام الأمر كذلك أن تستمر هذه الفكرية والرؤى - الديانات والفلسفات الحضارية الكبرى، عبر الزمان، وكأن الزمان لا غلبة له إطار صياغة الأركان التكوينية الثابتة لمعظم سكان المعمورة. والملاحظ أيضاً أن هذه الاستمرارية الفكرية والبرجوازية تثير ثائرة دوائر مؤثرة فى الغرب عبر التاريخ: من حروب الفرنجة (الحروب الصليبية) إلى فلسطين وأفغانستان، من اختراق وسحق القوى البشرية وابتزاز الثروات المعدنية فيما أصبح اليوم، عالم الجنوب، أى القارات الثلاث أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا.

العدوانية ضد القارات الثلاث، وخاصة مجتمعات الشرق الحضارى، لم تنقطع منذ البداية، وخاصة منذ ظهور بدايات الطبقات البرجوازية فى أوروبا حتى عصر هيمنة القطب الواحد التى نحياها، وقد بلغت عنفوانها فى عملية سحق الأمم والدول تحقيقاً لمخطط الهيمنة العالمية الصهيونى - الأمريكى.

كان من الطبيعى، إذن، أن تسعى مجتمعات الشرق الحضارى إلى تطوير منظومات الأفكار والرؤى الكبرى إلى عدد من الدوائر التكوينية المؤثرة فى إقامة

صرح نظم اجتماعية وسياسية كبرى تجمع بين استمرارية الحضارات والثقافات التاريخية من ناحية وبينه التعامل مع تحديات العصور الحديثة إلى حد التفوق من ناحية أخرى.

كانت هذه هي القسمة المميزة من هبات وثورات مجتمعات الشرق الحضارى فى العصر الحديث والمعاصر منذ منتصف القرن الثامن عشر فى مصر والصين، فى اليابان والمغرب، من جنوب شرق آسيا إلى آسيا الوسطى. الكل يسعى إلى الإبقاء على العروة الوثقى بين التراث الحضارى / الحى - دون الطقوسيات - من ناحية والفعالية المتميزة بل والطليعية، وخاصة فى الانتقال بخطى متعجلة من عمليات تغيير العالم حتى بدايات صياغة عالم جديد.

كان هذا، على وجه التحديد، الجو مناسب والتربة خصبة لظهور بدايات منظومة رؤى مستقبلية بدأت تتخذ شكل المشروعات الحضارية الثقافية الجديد.

- ٣ -

يتساءل الشرق: لماذا الانحدار؟

وما هى مناهج النهضة؟ تساؤلات تجمع بين جميع دوائر الشرق الحضارى دون استثناء، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة من الحدة. الإيقاع أسرع بكثير فى الحضارات القديمة وكذا الدوائر الجيو - ثقافية العريقة فى إطار هذه الحضارات، بينما يضعف بشكل ملحوظ فى الدوائر المحدثه. ومن هنا كانت حدة التساؤل وسرعة إيقاع التحليل والإجابة أول ما كانت فى دائرتى الحضارة الصينية والإسلامية الآسيوية - الإفريقية حول محورها المصرى السنى وإيران الشيعية. وكذا لحقت بها - عمقا وإيقاعا - ثقافات كوريا - اليابان وقيتنام ثم ماليزيا والدائرتين البوذية والهندوسية.

كانت الإجابة على الشطر الأول من التساؤل - لما الانحدار؟ - تركز فى المقام الأول على الانعكاس التاريخى - الحضارى تحت ضربات الاستعمار والإمبريالية القائمة من الغرب. كان العرب والمسلمون همزة الوصل بين اليونان

وروما من ناحية وأوروبا فى عصورها السوداء من ناحية أخرى. ولولا نقل العلوم والمعارف والفلسفة، ولولا اقتباس أوروبا للتكنولوجيا العربية والإسلامية المتقدمة، من الطب إلى الفلك، لما كان لبوادر النهضة الأوروبية أن تتبدى بعد أجيال من الظلمات. وكذا الأمر بالنسبة لصدره الصين فى مجال العلوم والتكنولوجيا بالوجه الأعم حتى بداية القرن السادس عشر، كما أثبتته كبير العلماء الموسوعيين فى القرن العشرين، أستاذنا الأجل جوزيف نيدهام. والحق أن طلائع التجار والحرفيين الأوروبيين استطاعوا أن يركزوا هذه الترسنة المقاومة من الشرق فى موانئهم، وهى التى انطلقت منها قوافل الاكتشافات البحرية واقتحام أمريكا الوسطى والجنوبية، ثم أفريقيا وأخيرا آسيا بين القرن الخامس عشر والتاسع عشر.

وفى مواجهة هذا "الظلم التاريخى" اتجهت مجتمعات حضارات الشرق إلى الالتفاف حول الأركان الثابتة والإمسك بكوكبة من المعانى والقيم التى وفرت لها قدرا واسعا من الإمكانيات والطاقات. كان الهدف، فى الأساس، هو التعبئة الداخلية لضمان قدر ممكن من القوة على الصمود والانطلاق. من هنا بدأت مسيرة صياغة مجموعة من المفاهيم والرؤى والمشاريع صاغت على مر الأجيال كوكبة المشروعات الحضارية للشرق منذ القرن الثامن عشر حتى اليوم. التنوع فيما بين هذه المشاريع قائم، حسب نسبة مختلف العوامل التى صاغت خصوصيتها عبر التاريخ. ولكننا الساحة المشتركة - أى الجوهر - يكاد يكون واحدا.

أولا - أولوية الجماعة والروح الجماعية بدلا من الفرد والفردانية. الثبات والاستمرار، وكذا الوثبة والإبداع لا سبيل إليها إلا بالتعبئة الأوسع، ومن هنا أولوية معانى الحضارة والدين والثقافة والأمة والقومية والوطن والأسرة فى مواجهة ابتزاز الطاقة باسم أولوية الفرد الذى تصور مفكرو العلمانية الأوروبية بين القرنين السادس والثامن عشر أنه سيد أو مالك الكون، من حقه وفى استطاعته أن يستولى على طبيبات الطبيعة وينتج منها كل ما يشاء من منتجات بدون قيد أو شرط أى بدون حدود، وكذا أن يمارس المتعة دون رقيب ولا حدود.

كانت هذه هى الفلسفة السائدة فى دول أوروبا الرأسمالية الحديثة منذ القرن الثامن عشر تحديدا. وقد نجحت فى تحقيق الكثير من الإنجازات، ولكننا بثمن

الباهظ وعدوانية لا حدود لها، إذ أصبحت الحرب والقتال والاختراق والاستبعاد والاستغلال سمات تاريخ استيلاء الرأسمالية الغربية على معظم العالم حتى بداية القرن العشرين، جوهر "قائض القيمة التاريخي" وإذا بدت أولوية الجماعة والروح الجماعية، أى المنهج الجماعى (Communitarian approach) فى بداية الأمر نوعا من الاتجاه المحافظ، فقد أدرك الجميع أن هذه الجماعة نجحت فى حماية معظم الجماعات الشرقية المستهدفة بادئ الأمر ذى بدء، إلى أن أتاحت لها معانى الامتياز فى مجالات التنمية والإنتاج. أى أن الصمود بفضل الإمساك بالروح الجماعية تحول فى القرن العشرين وخاصة منذ عام ١٩٤٥، إلى انفتاح الانطلاق الصاروخى فى مجالات الإنتاج المختلفة التى كانت حتى هذا الحين ملكا للغرب وحتى فى الأساس. من هنا كانت قصة "النمور الآسيوية"، من هنا كانت أعجوبة اليابان الذى استطاع فى ربع قرن أن ينطلق من التدمير الناتج من الضرب بالقنابل الذرية لكل من هيروشيما وناجازاكي إلى حريق طوكيو الكبير على أيدى القوات الأمريكية ليصبح ثانى أكبر قوة اقتصادية فى العالم فى السبعينيات. من هنا أيضا كانت وثبة الصين، بقيادة الحزب الشيوعى الصينى حول الرئيس ماوتسى تونج، منذ ١٩٤٩ - وقد فاقت عملية التنمية فى نحو ربع المعمورة جميع المعدلات التى يعرفها تاريخ البشرية حتى اليوم.

الروح الجماعية، المنهج الجماعى وقد اتخذ أشكالا متعددة: التآليف الوفاقي (consensus) فى اليابان "التقاوض جوهر الوجود" (ماوتسى تونج) موحدا نظاهرتى (Yin and yang) فى الصين الكونفوشية والتاوية، الأمة فى عالمنا الإسلامى، الإجماع الذى نادى به رئيس تنزانيا منيرى شعارا لإفريقيا - هكذا أقامت شعوب الشرق لتلاقى الأوسع، فى مواجهة منظومة الصراع ضد الاضطهاد والسيطرة، حتى حلم الهيمنة الأحادية القطب التى بدأت تستنفر الغالبية العظمى من شعوب ودول العالم أجمع.

ثانيا - التنمية الإنسانية والاجتماعية بدلا من مجرد التنمية الاقتصادية. أى أن الهدف دوما من عملية زيادة قدرات الفرد والمجتمع فى مختلف مراحل التاريخ،

وخاصة التاريخ الحديث والمعاصر، يجب أن تكون تنمية شاملة تعنى بازدهار طاقات وقدرات الجماعات والأفراد ورفع مستوى علمهم ومعرفتهم وذوقهم الفنى، وذلك فى قلب مجتمعات تعنى بحقوق جميع أفرادها فى الحياة الكريمة والعدالة فى توزيع الأعباء والمنافع. التنمية إذن ليست عملية كمية تعبر عن إحصاءات الإنتاج ومعدلات الإنتاجية ومعدلات صعود (وكذا هبوط) الأسواق المالية.

مرة أخرى يشهد التاريخ الاجتماعى والاقتصادى المعاصر أن هذا النموذج هو خير تأمين للإنسانية الإنسان وازدهار المساحة الأوسع من المجتمعات البشرية - بدلا من الأرقام القياسية لإنجازات رجال المال المتلاعبين بالأسواق.

ثالثا - السلام بين الشعوب، على أن يكون سلاما قائما على العدل والإنصاف، وليس مجرد "عملية" سلام تكريس موازين القوى والمظالم القائمة. السلام ليس هدفا فى حد ذاته، خاصة لو قاد إلى الاستسلام. إن نضال الشعوب التحررى وجهادها فى سبيل الحفاظ على معانى حياتها الاجتماعية واستقلال أراضيها وكرامة شعوبها أمر مقدس. وكذا فإن السعى إلى العدالة بين المجتمعات والشعوب نفس المجال لنظام دولى يؤلف بين المصالح الواقعية المشروعية وكرامة الأمم والشعوب، بحيث تقيد جميع الأطراف من ثمار الإنتاج والتبادل والتعاون العملى للسيطرة على الظواهر الطبيعية والأمراض المزمنة. أى أن العدالة لا تقتصر منافعها على المجتمعات والشعوب المضطهدة أو الأقل نموا، بل إنها الضمان الوحيد لاستمرار تقدم المجتمعات الطليعية فى جو من المقبولية والأمن.

رابعا - البعد الروحى على تنوع صورته: منظومة التراث والرؤى الحضارية، الدين، القيم الأخلاقية. أى البعد الذى يتعدى حياة الإنسان ونشاط المجتمعات ليتعامل مع الصيرورة. ومقولة الزمان. وإن كانت الشعوب لا تحيا بالخبز وحده، وإن كانت فى حاجة إلى مراجع فكرية وقيمية، فإنها أيضا لا تستطيع أن تدير ظهرها لما هو غائب، ويقيم.

وعلى الرغم من حملة قطاع واسع من قوى وأعلام الفكر والعمل فى المجتمعات الصناعية المتقدمة، وخاصة فى الغرب، لم تتمكن من استبعاد تطلع الإنسان إلى الما بعد

خامسا - السلطة المجتمعية تقدم على أساس مركز قوى قادر على الحفاظ على السيادة واستقلالية القرار فى تفاعل مثمر مع السواد الأعظم من الشعب. يتم ذلك فى عصرنا على حدة جبهة وطنية متحدة تجمع جميع القوى السياسية من ناحية، وكذا كافة المدارس الفكرية التقدمية - دون أدنى استثناء.

التساؤلات الفلسفية الكبرى ما زالت حية فى نفس الإنسان، بل وإنها ازدادت حدة بعد ارتفاع مستوى التهديدات. تساؤلات "الفلسفة الأزلية" "philosophia perennis": ما الحياة؟ ما الإنسان؟ ما العالم؟ ما الكون؟ ما المطلق؟ ما الله؟ ما العالم الآخر؟ من نحن؟ ولم نحن؟ وإلى أين؟ وأخيرا: ما الزمان؟

الإبهام يحاصر العقل والفكر التساؤلى. ومن هنا رأينا أن مكانة بعد التعالى، بعد مساحة الحياة الروحية تزداد أهمية باضطراد، يواسى القلوب ويغذى الأفئدة وييسر الرضا - ما دام أن الإجابات العلمية المحددة لم ترد بعد، ولعلها لن ترد أبدا.

وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإن هذا المستوى / العامل الروحى لحياة الإنسان والمجتمعات يتيح إقامة منظومات من القيم والمعايير الأخلاقية التى تهذب الحياة - ولا تحاصرهما - وتتيح فسحة للأمل وتستبعد الناحية البهيمية فى العلاقات بين الناس وتتف فى وجه العدمية، طريق العنف والدمار. ولذا فإن البعد الروحى يواكب حياة الغالبية العظمى من المجتمعات والشعوب على تنوعها - وخاصة فى مختلف دوائر الشرق الحضارى. وليس غريبا أن تنتج قطاعات وتيارات من العالم الغربى إلى نهج الإحياء الدينى أو الجمع بين الإيمان والعمل (مثل لاهوت التحرر) وكلها خطوات على طريق ما يطلق عليه حوار الأديان، وعندنا أن جوهره هو تواكب الأديان وتلاقىها حول مساحة المعاملات الإنسانية المشتركة بعيدا عن المواجهات اللاهوتية.

- ٤ -

هذه، إذن، هى الوجهة التى يجب علينا أن ندير قلوبنا وأنظارنا إليها فى المقام الأول، بدلا من حصر عقولنا وأفئدتنا فى مجال التفاعل والصراع القائم منذ أجيال مع حضارة الغرب، لا بهدف إهمالها، وهو أمر غير معقول ولا مفيد، وإنما من

أجل دعم ما تصبو إليه الشعوب والمجتمعات العربية والإسلامية من نهضة صادقة
واقعية شاملة يدا في يد مع القوى الرئيسية في الحضارات والثقافات الأخرى التي
تعمل في عصرنا على صياغة عالم جديد.

ريح الشرق، إذن تتير الطريق تستتير الهمم، تفتح لكل ذراعها تعمل ما هو
إيجابي وريادي على أساس ثابت عاقل متسامح من الأركان والتوجيهات. أملنا
وكذا دعوتنا.

المؤلف في سطور

الدكتور أنور عبد الملك

- دراسات في الثقافة الوطنية - دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٧ - الطبعة الثانية.
- الجيش والحركة الوطنية - دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٤ دار المروة، القاهرة، ٢٠٠٢.
- المجتمع المصري والجيش (١٩٥٢ - ١٩٧٠) - الطبعة الثانية (المعتمدة من المؤلف) دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٤.
- الفكر العربي في معركة النهضة - دار الآداب، بيروت، ١٩٧٤، الطبعة الثانية، ١٩٧٨.
- مدخل إلى الفلسفة، ترجمة وتقديم مؤلف د. جون لويس، الدار المصرية للكتب، القاهرة ١٩٥٧، الطبعة الثانية، دار الحقيقة بيروت، ١٩٧٣.
- نهضة مصر - الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣.
- ربح الشرق - دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٣.
- تغيير العالم - عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٥.
- الشارح المصري والفكر - الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩.
- القومية والاشتراكية (الكتاب الثاني من "الجدلية الاجتماعية") - دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩١.
- الإبداع والمشروع الحضاري، كتاب الهلال، ١٩٩١.
- في اصول المسألة الحضارية. دار الهلال، القاهرة ٢٠٠٤.
- نحو استراتيجية حضارية. دار الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٥.

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

أحمد نرويش	جون كوين	١- اللغة العليا
أحمد فؤاد بليغ	ل. مادمو باتيكار	٢- الوثنية والإسلام (ط١)
شوقى جلال	جورج جيمس	٣- التراث المسروق
أحمد الحضرى	إنجا كاريتيكوفا	٤- كيف تتم كتابة السيناريو
محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	٥- ثريا فى غيبوبة
سعد مصلوح ووفاء كامل فايد	ميلكا إفتيش	٦- اتجاهات البحث اللسانى
يوسف الأنطكى	لوسيان غولدمان	٧- العلوم الإنسانية والفلسفة
مصطفى ماهر	ماكس فريش	٨- مشعل الحرائق
محمود محمد عاشور	أندير. س. جودى	٩- التغيرات البيئية
محمد معتمد وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى	چيرار چينيت	١٠- خطاب الحكاية
هناء عبد الفتاح	فيسوالفا شيمبوريسكا	١١- مختارات شعرية
أحمد محمود	ديليد براونستون وأيرين فراث	١٢- طريق الحرير
عبد الوهاب علوب	روبرتسن سميث	١٣- ديانة الساميين
حسن المودن	جان بيلمان نويل	١٤- التحليل النفسى للأدب
أشرف رفيق عفيفى	إنوارد لوسى سميث	١٥- الحركات الفنية منذ ١٩٤٥
يإشرافد لحد عثمان	مارتن برنال	١٦- أثينة السوداء (ج١)
محمد مصطفى بنوى	فيليب لاركين	١٧- مختارات شعرية
طلعت شاهين	مختارات	١٨- الشعر التسانى فى أمريكا اللاتينية
نعم عطية	جورج سفيريس	١٩- الأعمال الشعرية الكاملة
يمنى طريف الخولى وبنوى عبد الفتاح	ج. ج. كراوثر	٢٠- قصة العلم
ماجدة العنانى	صمد بهرنجى	٢١- خوخة وآلف خوخة وقصص أخرى
سيد أحمد على الناصرى	چون أنتيس	٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين
سمعيد توفيق	هانز جيورج جادامر	٢٣- تجلى الجميل
بكر عباس	باتريك بارندر	٢٤- ظلال المستقبل
إبراهيم الدسوقى شتا	مولانا جلال الدين الرومى	٢٥- مثنوى (٦ أجزاء)
أحمد محمد حسين هيكل	محمد حسين هيكل	٢٦- بين مصر العام
يإشرافد: جابر عصفور	مجموعة من المؤلفين	٢٧- التنوع البشرى الخلاق
منى أبو سنة	چون لوك	٢٨- رسالة فى التسامح
بدر الديب	چيمس ب. كارس	٢٩- الموت والوجود
أحمد فؤاد بليغ	ل. مادمو باتيكار	٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)
عبد الستار الطوجى وعبد الوهاب علوب	جان سوفاجيه - كلود كاين	٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى
مصطفى إبراهيم فهمى	ديفيد روي	٣٢- الانتقراض
أحمد فؤاد بليغ	أ. ج. هوبكنز	٣٣- اقتصادى لأفريقيا القريية
حمدة إبراهيم المنيف	روجر آلن	٣٤- الرواية العربية
خليل كافت	پول ب. ديكسون	٣٥- الأسطورة والحداثة
حياة جاسم محمد	والاس مارتن	٣٦- نظريات السرد الحديثة

٣٧-	واحة سبوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	ألن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عبد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمد ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزروع	أوكثافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	مارلين تاندرس
٤٥-	التراث المنفور	روبرت دين وچون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتي
٤٩-	الإسلام في البلقان	ه . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكي
٥١-	مسار الرواية الإسبانية أمريكية	داريو بيانوبيا وخ . م . بينياليستي	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسي التدميمي	ب. نوقايس وس . روجسيفيتز ووجر بيل	لطفي قطيع وعادل دمرداس
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحي
٥٥-	ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكي
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطي
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونيتث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتن	صبرى محمد عبد الفتى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهري
٦٢-	لذة النص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان رود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أول القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمالوك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجيد والسيد الذاتية	أنثويه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التطيل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسپنسكى	سعيد الفانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة النمر»	الكسندر بوشكين	مكارم الفمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرفاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (ج١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم اليسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جينز	أحمد زايد ومحمد محبى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	السرحد والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	لصاحب ومضامين المسرح الإسباني المعاصر	كارلوس ميغيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فينرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتنا الحب الاول والصحة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويزو بايخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنتقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصياغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روينسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساطة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليت	رشيد بنحو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آباء (شعر)	عبد الوهاب المؤنب	محمد بنيس
١٠٤-	أويرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الفقار مكارى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	عبد العزيز شويل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبيرامتى	أشرف على شعور
١٠٧-	مررة اللذانى فى الشعر الأندلسى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بواوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنه بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيغسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

أحمد حسان	سادى پلانت	١١٣- راية التمرد
نسيم مجلى	وول شوينكا	١١٤- مسرحيا حصاد كوني وسكان المستقع
سمية رمضان	فرچينيا وولف	١١٥- غرفة تخمس المرء وحده
نهاد أحمد سالم	سينثيا نلسون	١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)
منى إبراهيم وهالة كمال	ليلى أحمد	١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام
ليس النقاش	بث بارون	١١٨- النهضة النسائية فى مصر
بإشراف: روف هياس	أميرة الأزهرى سنبل	١١٩- النساء والأسرة وقوانين الخلق فى التاريخ الإسلامى
مجموعة من المترجمين	ليلى أبو لغد	١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط
محمد الجندى وإيزابيل كمال	فاطمة موسى	١٢١- الدلائل الصغرى فى كتابة المرأة العربية
منيرة كروان	جوزيف فوجت	١٢٢- نظام السببية القديم والنموذج المثالى للبشر
أنور محمد إبراهيم	أنيتل الكسندرو فنانولينا	١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
أحمد فؤاد بلبع	چون جواى	١٢٤- النهر الكائن: نوهام الرأسمانية العالية
سمحة الخولى	سيدرك ثورپ ديفى	١٢٥- التحليل الموسيقى
عبد الوهاب علوب	فولفانج إيسر	١٢٦- فعل القراءة
بشير السباعى	صفاء فتحى	١٢٧- إرهاب (مسرحية)
أميرة حسن نويرة	سوزان باسنيت	١٢٨- الأدب المقارن
محمد أبو العطا وأخرون	ماريا دولورس أسيس جاروت	١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة
شوقى جلال	أندريه جوندز فرانك	١٣٠- الشرق يصعد ثانية
لويس قطر	مجموعة من المؤلفين	١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى
عبد الوهاب علوب	مايك فيذرستون	١٣٢- ثقافة العولة
طلعت الشايب	طارق على	١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)
أحمد محمود	بارى ج. كيمب	١٣٤- تشريح حضارة
ماهر شفيق فريد	ت. س. إليوت	١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت
سحر توفيق	كينيث كونو	١٣٦- فلاحو الباشا
كاميليا صبحى	جوزيف مارى مواريه	١٣٧- منكرات شابت على الصلة الفرنسية على مصر
وجيه سمعان عيد المسيح	أندريه جلوكسمان	١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
مصطفى ماهر	ريتشارد فاچنر	١٣٩- باريسفيل (مسرحية)
أمل الجبرى	هربرت ميسن	١٤٠- حيث تلقى الأثوار
نعيم عطية	مجموعة من المؤلفين	١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية
حسن بيومى	أ. م. فورستر	١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل
عدلى السمعى	ديرك لاينر	١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى
سلامة محمد سليمان	كارلو جولونى	١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)
أحمد حسان	كارلوس فوينتس	١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)
على عبدالرؤف البعبى	ميجيل دى ليس	١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)
عبدالغفار مكوى	تانكريد دورست	١٤٧- مسرحيتان
على إبراهيم منوفى	إنريكي أندرسون إمبرت	١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية
أسامة إسبر	عاطف فضول	١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأندريس
منيرة كروان	روبرت ج. ليتمان	١٥٠- التجربة الإغريقية

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، ج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣- غرام الفراغة	فيولين قانونيك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	چي أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التمساني
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامي الكنجوي	عبدالعزیز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٩- الايديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومي
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسباني	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيرى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (ج ١)	جورجون مارشال	ياشراف: محمد الجوهري
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات النعلب (قصص أطفال)	أ.ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين التبتين والطمانين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- في عالم طاغور	رابندرناث طاغور	شكري محمد عياد
١٦٨- دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرائك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنري تروايا	حصه إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- الله الأسمى الأمريكي من الثلاثينات إلى الثمانينات	فنتست ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنزوة (شعر)	و.ب. بيتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- جان كوكو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤- القاهرة: حالة لا تمام	هانز إيندورفر	نسوقي سميد
١٨٥- أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنورود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألين كرتان	بدر الديب

سعيد الغانمي	بول دي مان	المسي والبصيرة: مقالات في بلاغة النقد المعاصر	١٨٩-
محسن سيد فرجاني	كونفوشيوس	محاورات كونفوشيوس	١٩٠-
مصطفى حجازي السيد	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	الكلام رأسمال وقصص أخرى	١٩١-
محمود علوي	زين العابدين الراغي	سياحت نامه إبراهيم بك (ج١)	١٩٢-
محمد عبد الواحد محمد	بيتر أبراهامز	عامل المنجم (رواية)	١٩٣-
ماهر شفيق فريد	مجموعة من النقاد	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي الحديث	١٩٤-
محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	شتاء ٨٤ (رواية)	١٩٥-
أشرف الصباغ	فالنتين راسيوتين	المهلة الأخيرة (رواية)	١٩٦-
جلال السعيد الحفناوي	شمس العلماء شبلي النعماني	سيرة الفاروق	١٩٧-
إبراهيم سلامة إبراهيم	إدوين إمري وآخرون	الاتصال الجماهيري	١٩٨-
جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد	يعقوب لاندوا	تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	١٩٩-
فخري لبیب	جيرمي سيبيروك	شمايا التنمية: المقاربة والبدائل	٢٠٠-
أحمد الأنصاري	جوزايا رويس	الجانب البني للثقافة	٢٠١-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ نقد الأدبي الحديث (ج١)	٢٠٢-
جلال السعيد الحفناوي	ألفاف حسين حالي	الشعر والشاعرية	٢٠٣-
أحمد هويدي	زالمان شازار	تاريخ نقد العهد القديم	٢٠٤-
أحمد مستجير	لويجي لوقا كافاللي-سفورزا	الجنينات والشعوب واللغات	٢٠٥-
علي يوسف علي	جيمس جلايك	الهولوية تصنع علماء جديداً	٢٠٦-
محمد أبو العطا	رامون خوتاسندير	ليل أفريقي (رواية)	٢٠٧-
محمد أحمد صالح	دان أوريان	شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	٢٠٨-
أشرف الصباغ	مجموعة من المؤلفين	السرد والمسرح	٢٠٩-
يوسف عبد الفتاح فرج	سنائي الغزنوي	مثنويات حكيم سنائي (شعر)	٢١٠-
محمود حمدي عبد الغني	جوناثان كلر	فريديان دوسوسير	٢١١-
يوسف عبدالفتاح فرج	مرزيان بن رستم بن شروين	قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان	٢١٢-
سيد أحمد علي الناصري	ريمون فلاور	مصر منذ قدم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	٢١٣-
محمد محيي الدين	أنتوني جيننز	قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	٢١٤-
محمود علوي	زين العابدين الراغي	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	٢١٥-
أشرف الصباغ	مجموعة من المؤلفين	جوانب أخرى من حياتهم	٢١٦-
نادية البنهاوي	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	مسرحيتان طبيعيتان	٢١٧-
علي إبراهيم منوفي	خوليو كورتاثان	لعبة الحجلة (رواية)	٢١٨-
طلعت الشايب	كارو إيشجورو	بقايا اليوم (رواية)	٢١٩-
علي يوسف علي	باري پاركر	الهولوية في الكون	٢٢٠-
رقت سلام	جريجوري جوزدانس	شعرية كفافى	٢٢١-
نسيم مجلى	رونالد جراي	فرايز كافكا	٢٢٢-
السيد محمد نقادي	باول فيرابند	العلم في مجتمع حر	٢٢٣-
منى عبدالظاهر إبراهيم	برانكا ماجاس	دمار يوغسلافيا	٢٢٤-
السيد عبدالظاهر السيد	جابريل جارشيا ماركيث	حكاية غريق (رواية)	٢٢٥-
طاهر محمد علي البريري	ديفيد هريت لورانس	أرض المساء وقصائد أخرى	٢٢٦-

- ٢٢٧- المسرح الإسباني في القرن السابع عشر خوسيه ماريا ديث بوركي
- ٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن جانيت وولف
- ٢٢٩- مأزق البطل الوحيد نورمان كيجان
- ٢٣٠- عن الذباب والفتران والبشر فرانسواز جاكوب
- ٢٣١- الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحة) خايمي سالوم بيدال
- ٢٣٢- ما بعد المعلومات ثوم ستونير
- ٢٣٣- فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي آرثر هيرمان
- ٢٣٤- الإسلام في السودان ج. سينسر تريمنجهام
- ٢٣٥- ديوان شمس تيريزي (ج١) مولانا جلال الدين الرومي
- ٢٣٦- الولاية ميشيل شوكيفيتش
- ٢٣٧- مصر أرض الوادي رويين فيدين
- ٢٣٨- العولة والتحرير تقرير لمنظمة الانكتاد
- ٢٣٩- العربي في الألب الإسرائيلية جيل راماز - رايوخ
- ٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار كاي حافظ
- ٢٤١- في انتظار البرابرة (رواية) ج. م. كوتزي
- ٢٤٢- سبعة أنماط من القموض وليم إميسون
- ٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١) ليثي بروفنسال
- ٢٤٤- الغليان (رواية) لورا إسكيبييل
- ٢٤٥- نساء مقاتلات إليزابيتا أديس وآخرين
- ٢٤٦- مختارات قصصية جابريل جارشيا ماركيث
- ٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والعذاعة في مصر والتر أرميرست
- ٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحة) أنطونيو جالا
- ٢٤٩- لغة التمزق (شعر) راجو شتامبوك
- ٢٥٠- علم اجتماع العلوم دومنيك فينك
- ٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (ج٢) جورجون مارشال
- ٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية مارجو بدران
- ٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية ل. أ. سيمينوف
- ٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة ديف روينسون وجودي جروفز
- ٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون ديف روينسون وجودي جروفز
- ٢٥٦- أقدم لك: نيكارت ديف روينسون وكريس جارات
- ٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة وليم كلى رايت
- ٢٥٨- الفجر سير أنجوس فريز
- ٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور نخبة
- ٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (ج٢) جورجون مارشال
- ٢٦١- رحلة في فكر زكي نجيب محمود زكي نجيب محمود
- ٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية) إنوارو منونتا
- ٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن جون جرين
- ٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة هوراس وشلي
- السيد عبدالظاهر عبدالله
- ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
- أمير إبراهيم العمري
- مصطفى إبراهيم فهمي
- جمال عبدالرحمن
- مصطفى إبراهيم فهمي
- طلعت الشايب
- فؤاد محمد عكود
- إبراهيم الدسوقي شتا
- أحمد الطيب
- عنايات حسين طلعت
- ياسر محمد جاد الله وعيسى مديولى أحمد
- نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
- صلاح محجوب إدريس
- ابتهسام عبدالله
- صبرى محمد حسن
- بإشراف: صلاح فضل
- نادية جمال الدين محمد
- توفيق على منصور
- على إبراهيم منوفى
- محمد طارق الشرقاوى
- عبداللطيف عبدالحليم
- رفعت سلام
- ماجدة محسن أبانلة
- بإشراف: محمد الجوهري
- على بدران
- حسن بيومى
- إمام عبد الفتاح إمام
- إمام عبد الفتاح إمام
- إمام عبد الفتاح إمام
- محمود سيد أحمد
- عبادة كحيلة
- فاروجان كازانجيان
- بإشراف: محمد الجوهري
- إمام عبد الفتاح إمام
- محمد أبو العطا
- على يوسف على
- لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمعتم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عروكي
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزي (ج٢)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج٢)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقي جلال
٢٧٢-	الآديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي في مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة يارارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	د. س. إلييه شاعرًا وثالثًا وكاتبًا مسرحيًا	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التمساني
٢٧٧-	الجنينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزي
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرذ	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرؤوف البمبي
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبينديس	أحمد عثمان
٢٨٥-	رحلة خواجه حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمعتم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج موناى	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج١)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج٢)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	برالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وويل موريز	بدر النيب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	دينيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة مدينتي في الأدب الإنجليزي والفرنسي (ج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء جامين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة مدينتي في الأدب الإنجليزي والفرنسي (ج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندي
٣٠٢-	أقدم لك: فنجنشتمين	جون هيتون وجودى جروفرز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٢- أقدم لك: بوذا	جين هوب ويورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارت	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديفيد بايبنر وهوارد سليتا	محمود مكي
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف چونز ويورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١- مقال في المنهج الفلسفي	ر.ج كوانجود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وايم بيبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايبير بيان	محمد عبدالله الجعدي
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	چانيس مينيك	هويدا السباعي
٣١٥- جرائم في العالم العربي	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كامليليا صبحي
٣١٦- محاكمة سقراط	أي. ف. ستون	نسليم مجلي
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايتري سيففاك وكريستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لغة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (٧، ٦ ج١)	ليفي برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة في تاريخ الفن الغربي	دبليو يوجين كلينباور	خالد ملف حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يوناني قديم	هانم محمد فوزي
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدي	محمود علاوي
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كريستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (ج١)	نخبة	توفيق علي منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شيرد	سامي صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراي	سامية دياب
٣٣٢- شهر الفصل وقصص أخرى	نخبة	علي إبراهيم منوفي
٣٣٣- الإسلام في بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالي ساروت	فتحي العشري
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	چوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوي
٣٣٩- تاريخ الأدب في إيران (ج٢)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيردروجلو	فخري لبيب

٣٤١-	قصائد من رلك (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمي
٣٤٢-	سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٣٤٣-	العالم البرجوازي الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤-	الموت في الشمس (رواية)	بيتر بالانجيرو	سمير عبد ربه
٣٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	بونيه ندائي	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدي	جمال الجزيري
٣٤٧-	الصبيبة الطائشون (رواية)	چان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨-	التصوفة الأولين في الأدب التركي (ج١)	محمد فؤاد كويريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١-	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصاري
٣٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣-	الفن الإسلامي في الأتلي: الزخرفة الهندسية	باسيليو يابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٣٥٤-	الفن الإسلامي في الأتلي: الزخرفة النباتية	باسيليو يابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٣٥٥-	التيارات السياسية في إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوي
٣٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعي
٣٥٧-	متون هرمس	تيموثي فريك وبيتر غاندي	عمر الفاروق عمر
٣٥٨-	أمثال الهوسا العامة	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٣٥٩-	محاوره بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشاروني
٣٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه چاكوب ونويلا باركان	ليلى الشرييني
٣٦١-	التصحر: التهديد والمواجهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وأمال شاور
٣٦٢-	تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد چيبسون	صبري محمد حسن
٣٦٤-	حادثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥-	سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧-	القلم الجريء	مجموعة من المؤلفين	البراق عبدالهادي رضا
٣٦٨-	المصطلح السري: معجم مصطلحات	چيرالڊ پرنس	عابد خزندار
٣٦٩-	المرأة في أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوي	فوزية العشماوي
٣٧٠-	الفن والحياة في مصر الفرعونية	كليلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١-	التصوفة الأولين في الأدب التركي (ج٢)	محمد فؤاد كويريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣-	كيف تعد رسالة نكتوراه	أوميرتو إيكو	علي إبراهيم منوفي
٣٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦-	الفنض وأحلام السنهن (مسرحيات)	چان أنوي وآخرون	إيوار الخراط
٣٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (ج٤)	إيوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

جمال عبدالرحمن	سنييل باث	٢٧٩- ملك في الحقيقة (رواية)
شيرين عبدالسلام	جوتتر جراس	٢٨٠- حديث عن الخسارة
رانيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٢٨١- أساسيات اللغة
أحمد محمد نادی	بهاء الدين محمد اسفنديار	٢٨٢- تاريخ طبرستان
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	٢٨٣- هنية الحجاز (شعر)
إيزابييل كمال	سوزان إنجيل	٢٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد علي بهزادراد	٢٨٥- مشترى العشق (رواية)
ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٢٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي
بهاء جاهين	جون دن	٢٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)
محمد علاء الدين منصور	سمعدى الشيرازي	٢٨٨- مواظ سمعدى الشيرازي (شعر)
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٢٨٩- تفاهم وقصص أخرى
عثمان مصطفى عثمان	إم. في. روبرتس	٢٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى
منى الدويبي	مايف بينشي	٢٩١- الحافلة الليككية (رواية)
عبداللطيف عبدالهليم	فرناندو دي لاجرانجا	٢٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
زينب محمود الخضيرى	ندوة لويس ماسينيون	٢٩٣- في قلب الشرق
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٢٩٤- القوى الأربع الأساسية في الكون
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	٢٩٥- آلام سياوش (رواية)
محمود علوي	تقي نجاري راد	٢٩٦- السافاك
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيتي شين	٢٩٧- أقدم لك: نيتشه
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودي وهوارد ريد	٢٩٨- أقدم لك: سارتر
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميروفيتش وآلن كوركس	٢٩٩- أقدم لك: كامى
باهر الجوهري	ميشائيل إنده	٤٠٠- مومو (رواية)
ممدوح عيد المنعم	زيادون ساردر وآخرون	٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات
ممدوح عبدالمنعم	ج. ب. ماك إيغوى وأوسكار زاريت	٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكينج
عماد حسن بكر	تودور شتورم وجوتفرد كوار	٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايات)
طلبة خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤- تعويذة الحسى
حمادة إبراهيم	أندريه جيد	٤٠٥- إيزابييل (رواية)
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦- المستعربون الإسبان في القرن ١٩
طلعت شاهين	مجموعة من المؤلفين	٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر بإتلام كتابه
عنان الشهاري	چوان فوشركنج	٤٠٨- معجم تاريخ مصر
إلهامى عمارة	پرتراند راسل	٤٠٩- انتصار السعادة
النزوى يغورة	كارل بوير	٤١٠- خلاصة القرن
أحمد مستجير	چينييفر اكerman	٤١١- همس من الماضى
بإشراف: صلاح فضل	ليفى برونسفال	٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج. ٢، ٣، ٤)
محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)
أمل الصبان	باسكال كازانوفا	٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب
أحمد كامل عبدالوحيه	فريريش دورينمات	٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)
محمد مصطفى بنوى	أ. ا. رتشاردز	٤١٦- مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر

مجاهد عبد المنعم مجاهد	٤١٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (جده) رينيه ويليك
عبد الرحمن الشيخ	٤١٨- سياسات الزهر العاكمة في مصر الشمانية جين هاثواي
نسيم مجلى	٤١٩- العصر الذهبي للإسكندرية جون مارلو
الطيب بن رجب	٤٢٠- مكرو ميچاس (قصة فلسفية) فواتير
أشرف كيلانى	٤٢١- الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامى الأول روى متحدة
عبدالله عبدالرازق إبراهيم	٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١) ثلاثة من الرحالة
وحيد النقاش	٤٢٣- إسرارات الرجل الطيف نخبة
محمد علاء الدين منصور	٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق (شعر) نور الدين عبدالرحمن الجامى
محمود علاوى	٤٢٥- من طلوس إلى فرح محمود طلوسى
محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب	٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى نخبة
ثريا شلبى	٤٢٧- بانديراس الطاغية (رواية) باي إنكلان
محمد أمان صافى	٤٢٨- الخزانة الخفية محمد هوتك بن داود خان
إمام عبدالفتاح إمام	٤٢٩- أقدم لك: هيجل ليود سبنسر وأندزجى كروز
إمام عبدالفتاح إمام	٤٣٠- أقدم لك: كانط كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى
إمام عبدالفتاح إمام	٤٣١- أقدم لك: فوكو كريس هوروكس وزوران جفتيك
إمام عبدالفتاح إمام	٤٣٢- أقدم لك: ماكياثلى باتريك كيرى وأوسكار زاريت
حمدي الجابرى	٤٣٣- أقدم لك: جويس ديفيد نوريس وكارل فلنت
عصام حجازى	٤٣٤- أقدم لك: الرومانسية بونكان هيث وجوى بورهام
ناجى رشوان	٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة نيكولاس زديرج
إمام عبدالفتاح إمام	٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١) فردريك كويلستون
جلال الحفناوى	٤٣٧- رحلة هندي في بلاد الشرق العربى شبللى النعمانى
عايدة سيف البولة	٤٣٨- بطلات وضحايا إيمان ضياء الدين بييرس
محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب	٤٣٩- موت المرابى (رواية) صدر الدين عينى
محمد طارق الشرقاوى	٤٤٠- قواعد اللهجات العربية الحديثة كرستن بروستاد
فخرى لبيب	٤٤١- رب الأشياء الصغيرة (رواية) أرونداتى روى
ماهر جويجاتى	٤٤٢- حتشيسوت: المرأة الفرعونية فوزية أسعد
محمد طارق الشرقاوى	٤٤٣- اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتطورها كيس فرستينغ
صالح علمانى	٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة لاوريت سيجورنه
محمد محمد يونس	٤٤٥- حول وزن الشعر پرويز نائل خاتلوى
أحمد محمود	٤٤٦- التحالف الأسود ألكسندر كوكيرن وجيفرى سانت كلير
الطاهر أحمد مكى	٤٤٧- ملحمة السيد تراث شعبى إسبانى
محمى الدين اللبان وإليم دارود مرقس	٤٤٨- الفلاحون (ميراث الترجمة) الأب عيروط
جمال الجزيرى	٤٤٩- أقدم لك: الحركة النسوية نخبة
جمال الجزيرى	٤٥٠- أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية صوفيا فوكا وريبيكا رايت
إمام عبد الفتاح إمام	٤٥١- أقدم لك: الفلسفة الشرقية ريتشارد أوزيرون ويوزن فان لون
محيمى الدين مزيد	٤٥٢- أقدم لك: لينين والثورة الروسية ريتشارد إيجينازنى وأوسكار زاريت
حليم طويسون ومزاد الدهان	٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة چان لوك آرئو
سوزان خليل	٤٥٤- خمسون عاماً من السينما الفرنسية رينيه بريدال

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كويلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزمهر إلى السوريين	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	النولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلّة	مايكل بارنتى	حصّة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب ويطولات فرعونية	ثيولين قانونيك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلى	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الانصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد الننة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرزاق إبراهيم
٤٧٢-	نون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	نون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	يام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرچينيا دانيلسون	عادل هلال عثمانى
٤٧٦-	أرض الحباب بعيدة: بيرم التونسي	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج ولى شى لونج	عبد العزيز حمدي
٤٧٩-	المقهسى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدي
٤٨٠-	تساي ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدي
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير چاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چاميل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التقى	هانسن روبييرت ياكس	رشيد بنحو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالطيم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسرل: الفلسفة علماً دقيقاً	إدموند هُسرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسعار اليقاف	محمد قاندى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	چى فارچيت	محمد رفعت عواد

- ٤٩٣- خطابات إلى طالب الصورتيات هارولد بالمر
٤٩٤- كتاب الموتى: الخروج في النهار نصوص مصرية قديمة
٤٩٥- اللويي إدوارد تيفان
٤٩٦- الحكم والسياسة في أفريقيا (ج١) إكوانو يانولي
٤٩٧- الطلمانية والنوع والدولة في الشرق الأوسط نادية العلي
٤٩٨- النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث جويث تاكر ومارجريت مريونز
٤٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع مجموعة من المؤلفين
٥٠٠- في طفراتي: دراسة في السيرة القاتلة للعربية تيتز روكي
٥٠١- تاريخ النساء في القرب (ج١) آرثر جولد هامر
٥٠٢- أصوات بديلة مجموعة من المؤلفين
٥٠٣- مختارات من الشعر الفارسي الحديث نخبة من الشعراء
٥٠٤- كتابات أساسية (ج١) مارتن هايدجر
٥٠٥- كتابات أساسية (ج٢) مارتن هايدجر
٥٠٦- ربما كان قديساً (رواية) أن تيلر
٥٠٧- سيدة الماضي الجميل (مسرحية) بيتر شيفر
٥٠٨- المولوية بعد جلال الدين الرومي عبدالباقى جلياناري
٥٠٩- الفقر والإحسان في عصر سلطين المالك آدم صبرة
٥١٠- الأرملة الماكرة (مسرحية) كارلو جولوني
٥١١- كوكب مرقع (رواية) أن تيلر
٥١٢- كتابة النقد السينمائي تيموثي كوريغان
٥١٣- العلم الجسور تيد أنتون
٥١٤- مدخل إلى النظرية الأدبية جوثان كولر
٥١٥- من التقليد إلى ما بعد الحداثة فنوي مالطي نوجلاس
٥١٦- إرادة الإنسان في علاج الإدمان أرنولد واشنطن ونونا باوندي
٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى نخبة
٥١٨- استكشاف الأرض والكون إسحق عظيموف
٥١٩- محاضرات في المثالية الحديثة جوزايا رويس
٥٢٠- الباع الفرنسي بمصر من الطم إلى المشروع أحمد يوسف
٥٢١- قاموس تراجم مصر الحديثة آرثر جولد سميث
٥٢٢- إسبانيا في تاريخها أميركو كاسترو
٥٢٣- الفن الطليطلي الإسلامي والمذبح باسيليو بابون مالدونادو
٥٢٤- الملك لير (مسرحية) وايم شكسبير
٥٢٥- موسم صيد في بيروت وقصص أخرى دنيس جونسون
٥٢٦- أقدم لك: السياسة البيئية ستيفن كروول ووايم وانكين
٥٢٧- أقدم لك: كافكا بيغيد زين ميروفيتس وروبرت كرمب
٥٢٨- أقدم لك: ترنيسكي والماركسية طارق علي وفل إيفانز
٥٢٩- بدائع العلامة إقبال في شعره الأردى محمد إقبال
٥٣٠- مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية رينيه جينو
- محمد صالح الضالع
شريف الصيفي
حسن عبد ربه المصري
مجموعة من المترجمين
مصطفى رياض
أحمد علي بدوي
فيصل بن خضراء
طلعت الشايب
سحر فراج
هالة كمال
محمد نور الدين عبدالمعزم
إسماعيل المصنق
إسماعيل المصنق
عبدالحاميد فهمي الجمال
شوقي فهمي
عبدالله أحمد إبراهيم
قاسم عبده قاسم
عبدالرازق عيد
عبدالحاميد فهمي الجمال
جمال عبد الناصر
مصطفى إبراهيم فهمي
مصطفى بيومي عبد السلام
فدوى مالطي نوجلاس
صبرى محمد حسن
سمير عبد الحميد إبراهيم
هاشم أحمد محمد
أحمد الأنصاري
أمل الصبان
عبدالوهاب بكر
علي إبراهيم منوفي
علي إبراهيم منوفي
محمد مصطفى بدوي
نادية رفعت
محيى الدين مزيد
جمال الجزيري
جمال الجزيري
حازم محفوظ
عمر الفاروق عمر

٥٣١-	ما الذى حثَّ فى محثِّه ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢-	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لوبا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزیز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل منتجتون ولورانس هاريزون	شموقى جلال
٥٣٧-	الحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالفار مكاوى
٥٣٨-	النفس والأخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلز	محمد الحيدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رؤف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهلاس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة زق
٥٤٢-	قصص مختارة من الألب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	پاتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلاتى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدي الجابرى
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودى وأن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبين ويون فان لون	حمدي الجابرى
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كويلى ولينتا جانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وييرو	حمدي الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميچيل دى ثريانتس	على عبد الرؤف البعبى
٥٥٣-	مدخل لشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لولرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	إستراتيجية الأمريكية لقرن الحادى والعشرين	أناثولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	أقدم لك: چان بونديار	كريس هوروكس وزوران چيفتك	حمدي الجابرى
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيوبين ساردارويورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	اللاس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين بلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خايننتو بينابينتى	هبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عش القرب (مسرحية)	خايننتو بينابينتى	هبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	بيورا ج. جيونز	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المقتضب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصول فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩-	موقع الثقافة	هومي بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسي	سير روبرت هاي	يوسف الشاروني
٥٧١-	تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دي ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب في زمن القراعة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فريد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتي	جمال الجزيري
٥٧٤-	مصر القديمة في عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥-	الاقتصاد السياسي للعولة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثريانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشري محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كواودي	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وفنت	أيومي ميزوكوشي	محمد إبراهيم وعصام عبد الوهف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكي	جون ماهر وجودي جرونز	محبي الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (مج ١)	جون فيزد وبول سيجرز	بإشراف: محمد قحى عبدالهادي
٥٨١-	الحققي يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجزيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود دولت آبادي	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزيث مالمكوس وروي أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصيني	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزیز حمدي
٥٨٨-	أمحوتب الثالث	أنيس كابرول	ماهر جويجاتي
٥٨٩-	تمبكت العجيبة	فيلكس دييوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدي عبدالله
٥٩١-	الشاعر والفكر	هوراتيس	علي عبدالنواب علي وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (ج١)	محمد صبري السوريوني	مجدي عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	بول فاليري	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزي
٥٩٥-	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج٢)	إكوانو بانولي	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية في العالم	روبرت نيجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروياروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكثبان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومي علي قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهريين	محمود علاوي
٦٠٠-	الإسلام في التاريخ	برنارد لويس	مفحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان فوت	أمين بكر وسمر الشيشكلي
٦٠٢-	ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثة	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزیز
٦٠٣-	النقد الثقافي	أرثر أيزنبرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج ١)	پاتريك ل. أبوت	توفيق علي منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إنست زيبروسكي (المصغير)	مصطفى إبراهيم فهمي
٦٠٦-	قصة البردي اليوناني في مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدني

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (ج١)	هارى سينت قبليى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (ج٢)	هارى سينت قبليى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المحجبة	رفائيل لويث جوشمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيدىولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسى	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كوان مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير (رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١١٩٧ إلى ١١٩٩	أليس بيسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	اللولكود والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفتاح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبيى	توماش ماستاك	بشير السباعى
٦٢١-	رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نواذر جحا الإيرانيى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥-	الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهمسة الأمريكية	تيقولاى جويات	عزة الخيسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	يأشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	بولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وقنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكويدي وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التثيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يواندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتز	يذر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وأرين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	ألكسياد	الأميرة أناكرومينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وودوين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الرياضادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السبيل الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون تينيه	فتحي العشري
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	چی دی مویاسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة في الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذي لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستتر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسي
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض العمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساستري	ممدوح البستاوي
٦٥٧-	محاكم التقنيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أريغال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبري التهامي
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبد اللطيف عبد العظيم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبري التهامي
٦٦٢-	رحلة إلى الجنود	داسو سالديار	صبري التهامي
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعي
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راي هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوامل أخرى	پول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمين	جمال عبد الناصر ومدحت الجبار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القائمة لعلم الاجتماع الفريسي	ألفن جولنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولمة	فريدريك جيمسون وماساو ميوشي	ليلى الجبالي
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	رول شوينكا	نسيم مجلي
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بركر	ماهر البطولي
٦٧١-	قل لي كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسي للأطفال	نخبة	إبتهاح سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوي
٦٧٤-	ديوان الإمام الخميني	آية الله العظمى الخميني	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدني
٦٧٦-	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدني
٦٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (ج١، ج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمي
٦٧٨-	تاريخ الأدب في إيران (ج١، ج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمي
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	المدنية الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شلقين غريال
٦٨١-	هل يوجد نص في هذا الفصل؟	ستانلي فش	أحمد الشيمي
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكري	صبري محمد حسن

صبري محمد حسن	تي. م. ألوكي	سكن واحد لكل رجل (رواية)	٦٨٣-
رزق أحمد بهنسي	أوراثيو كيروجا	الاصال القصصية الكلمة (ثا كها) (جا)	٦٨٤-
رزق أحمد بهنسي	أوراثيو كيروجا	الاصال القصصية الكلمة (الصمراء) (جا)	٦٨٥-
سحر توليقي	ماكسين هونج كنجستون	امراة محارية (رواية)	٦٨٦-
ماجدة العناني	فتانة حاج سيد جوادى	محبوبة (رواية)	٦٨٧-
فتح الله الشيخ وأحمد السماحي	فيليب م. دوير وريتشارد أ. موار	الانفجارات الثلاثة العظمى	٦٨٨-
هناء عبد الفتاح	تادروش روجيليتش	الملف (مسرحية)	٦٨٩-
رمسيس عوض	(مختارات)	محاكم التفتيش في فرنسا	٦٩٠-
رمسيس عوض	(مختارات)	ألبرت أينشتاين: حياته وغمائمه	٦٩١-
حمدي الجابري	ريتشارد أيبجانسي وأوسكار زاريت	أقدم لك: الوجبة	٦٩٢-
جمال الجزيري	حائيم برشيت وآخرون	أقدم لك: القتل الجماعي (المحرقة)	٦٩٣-
حمدي الجابري	جيف كولينز وويل مايلين	أقدم لك: بريدا	٦٩٤-
إمام عبدالفتاح إمام	ديف روينسون وجودي جروف	أقدم لك: رسل	٦٩٥-
إمام عبدالفتاح إمام	ديف روينسون وأوسكار زاريت	أقدم لك: روسو	٦٩٦-
إمام عبدالفتاح إمام	روبرت ونفين وجودي جروف	أقدم لك: أرسطو	٦٩٧-
إمام عبدالفتاح إمام	ليود سينسر وأندريجي كروز	أقدم لك: عصر التنوير	٦٩٨-
جمال الجزيري	إيفان وارد وأوسكار زاريت	أقدم لك: التحليل النفسي	٦٩٩-
بسمة عبدالرحمن	ماريو يارجاس يوسا	٧٠٠- الكاتب وواقعه	
منى البرنس	وليم رود فليمان	٧٠١- الذاكرة والصداع	
عبد العزيز فهمي	جوستينيان	٧٠٢- ملوة جوستيان في الله الرباني (ببراه الترجمة)	
أمين الشواربي	إدوارد جرانفيل براون	٧٠٣- تاريخ الأدب في إيران (جا)	
محمد علاء الدين منصور وآخرون	مولانا جلال الدين الرومي	٧٠٤- فيه ما فيه	
عبدالحاميد منكور	الإمام الغزالي	٧٠٥- فضل الأئمان من رسائل حجة الإسلام	
عزت عامر	جونسون ف. يان	٧٠٦- الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	
وفاء عبدالقادر	هوارد كاليجل وآخرون	٧٠٧- أقدم لك: فالتر بنيامين	
رواف عباس	دونالد مالكولم ريد	٧٠٨- فزاعة من؟	
عادل نجيب بشري	ألاريد أدلر	٧٠٩- معنى الحياة	
دعاء محمد الخطيب	إيان هاتشباي وجوموران - إليس	٧١٠- الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	
هناء عبد الفتاح	ميرزا محمد هادي رسوا	٧١١- نرة التاج	
سليمان البستاني	هوميروس	٧١٢- الإلياذة (جا) (ميراث الترجمة)	
سليمان البستاني	هوميروس	٧١٣- الإلياذة (جا) (ميراث الترجمة)	
حنّا صاوه	لامنيه	٧١٤- حديث القلوب (ميراث الترجمة)	
أحمد فتحي زغلول	إسمون ديمولان	٧١٥- سر تهم الإنجليز السكسنيين (ببراه الترجمة)	
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	٧١٦- جامعة كل المعارف (جا)	
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	٧١٧- جامعة كل المعارف (جا)	
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	٧١٨- جامعة كل المعارف (جه)	
جميلة كامل	م. جولديرج	٧١٩- مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	
على شعبان وأحمد الخطيب	دونام جونسون	٧٢٠- مداخل إلى البحث في تعلم اللغة الثانية	

٧٢١-	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج ١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لييب عبد الفنى
٧٢٢-	الصفحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافى أحمد التطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبد الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيين فى المغرب	غييرمو غوثالييس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولمة: تنمية العمالة والنمو	موريس أليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيبا كلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	أن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: الفكر والأشئ بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل (مسرحية)	وايم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكي
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج ١)	هوارد زن	شعبان مكارى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج ٢)	پاتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	مشق من مسر ما قبل التاريخ إلى الثورة الملوكية	جيرار دى جودج	محمد عواد
٧٣٩-	مشق من الإمبراطورية التشعبية حتى قرونه المعاصرة	جيرار دى جودج	محمد عواد
٧٤٠-	خطابات السلطة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكواندا	رزق بهنسى
٧٤٣-	الثقافة: منظور داروينى	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المآثر السلطانية	بيك المنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج ١)	جوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧-	الاستعارة فى لغة السينما	تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوجيا لغات العالم	ل.ج. كالفين	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عثمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢-	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال فارصلى	نمر عارورى
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنا مارى شيميل	عبد السلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسمائى خلال القرن العشرين	أندرو ب. بيبكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦-	ذات العيون الساحرة	إنريكي خاردييل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	پاتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨-	الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبد الحميد

جلال الحفناوى	مولوى سيد محمد	النثر الأردى	٧٥٩-
السيد الأسود	السيد الأسود	الدين والتصور الشعبى للكون	٧٦٠-
فاطمة ناعوت	فيرجينيا رواف	جيبو مثقلة بالحجارة (رواية)	٧٦١-
عبدالعال صالح	ماريا سوليداد	المسلم عنواً و صديقاً	٧٦٢-
نجوى عمر	أثريكو بيا	الحياة فى مصر	٧٦٣-
حازم محفوظ	غالب الدهلوى	ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	٧٦٤-
حازم محفوظ	خواجه مير درد الدهلوى	ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف)	٧٦٥-
غازى برو و خليل أحمد خليل	تييرى هنتش	الشرق المتخيل	٧٦٦-
غازى برو	نسيب سمير الحسينى	الغرب المتخيل	٧٦٧-
محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى	حوار الثقافات	٧٦٨-
رندا النشار وضياء زاهر	فريدريك هتمان	أدباء أحياء	٧٦٩-
صبرى التهامى	بينيثو بيريث جالدوس	السيدة بيرفيكتا	٧٧٠-
صبرى التهامى	ريكارلو جويرالديس	السيد سيجوندو سوميرا	٧٧١-
محسن مصيلحى	إليزابيث رايت	بريخت ما بعد الحداثة	٧٧٢-
بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى	چون فيزر ويول ستيرجز	دائرة المعارف الدولية (ج٢)	٧٧٣-
حسن عبد ربه المصرى	مجموعة من المؤلفين	الديمقراطية الأمريكية: التاريخ والمركبات	٧٧٤-
جلال الحفناوى	نذير أحمد الدهلوى	مرآة العروس	٧٧٥-
محمد محمد يونس	فريد الدين العطار	منظومة مصيبت نامه (مج١)	٧٧٦-
عزت عامر	چيمس إ. ليدسى	الانفجار الأعظم	٧٧٧-
حازم محفوظ	مولانا محمد أحمد ورضا القادرى	صفوة المديح	٧٧٨-
سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى	نخبة	خيوط العنكبوت وقصص أخرى	٧٧٩-
سمير عبد الحميد إبراهيم	غلام رسول مهر	من أنب الرسائل الهندية حجاز ١٩٢٠	٧٨٠-
نبيلة بدران	هدى بدران	الطريق إلى بكين	٧٨١-
جمال عبد المقصود	مارفن كارلسون	المسرح المسكون	٧٨٢-
طلعت السروجى	فليك چورچ ويول ويلدنچ	العولة والرعاية الإنسانية	٧٨٣-
جمعة سيد يوسف	ديفيد أ. وولف	الإساءة للطفل	٧٨٤-
سمير حنا صادق	كارل ساجان	تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	٧٨٥-
سحر توفيق	مارجريت أتوود	المذبذبة (رواية)	٧٨٦-
إيناس صادق	جوزيه بوفيه	العودة من فلسطين	٧٨٧-
خالد أبو اليزيد البلتاجى	ميروسلاف فرنز	سر الأهرامات	٧٨٨-
منى الدروبي	هاچين	الانتظار (رواية)	٧٨٩-
جيهان العيسى	مونيك بونتو	الفرانكفونية العربية	٧٩٠-
ماهر جويجأتى	محمد الشيمى	الطيور ومعامل الطيور فى مصر القديمة	٧٩١-
منى إبراهيم	منى ميخائيل	دراسات حول القمص الصغيرة لإدريس ومطرب	٧٩٢-
رؤف وصلى	چون جريفيش	ثلاث رؤى للمستقبل	٧٩٣-
شعبان مكارى	هوارد زن	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج٢)	٧٩٤-
على عبد الرؤوف البمبى	نخبة	مختارات من الشعر الإسباني (ج١)	٧٩٥-
حمزة المزينى	نعوم تشومسكى	أفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	٧٩٦-

طلعت شاهين	نخبة	الرواية في ليلة معتمة (شعر)	٧٩٧-
سميرة أبو الحسن	كاترين جيلدرود ودافيد جيلدرود	الإرشاد النفسي للأطفال	٧٩٨-
عبد الحميد فهمي الجمال	آن تيار	سلم السنوات	٧٩٩-
عبد الجواد توفيق	ميشيل ماكارثي	قضايا في علم اللغة التطبيقي	٨٠٠-
بإشراف: محسن يوسف	تقرير دولي	نحو مستقبل أفضل	٨٠١-
شربين محمود الرفاعي	ماريا سوليداد	مسلمو غرناطة في الآداب الأوروبية	٨٠٢-
عزة الخميسي	توماس باترسون	التغيير والتنمية في القرن العشرين	٨٠٣-
درويش الحلوجي	دانييل ميرفيل-ليجييه وچان بول ويلام	سوسيولوجيا الدين	٨٠٤-
طاهر البربري	كانزو إيشيجيرو	من لا عزاء لهم (رواية)	٨٠٥-
محمود ماجد	ماجدة بركة	الطبقة العليا المتوسطة	٨٠٦-
خيرى دومة	ميريام كوك	يحي حقي: تشریح مفكر مصري	٨٠٧-
أحمد محمود	بيفيد دابليو ايش	الشرق الأوسط والولايات المتحدة	٨٠٨-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وجوزيف كروپسي	تاريخ الفلسفة السياسية (ج١)	٨٠٩-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وجوزيف كروپسي	تاريخ الفلسفة السياسية (ج٢)	٨١٠-
حسن النعمي	جوزيف أ. شومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادي (مج٢)	٨١١-
فريد الزاهي	ميشيل مافيزولي	نقل العالم: الصورة والأسلوب في الحياة الاجتماعية	٨١٢-
نورا أمين	آني إرنو	لم أخرج من ليلى (رواية)	٨١٣-
آمال الروبي	ناقتال لويس	الحياة اليومية في مصر الرومانية	٨١٤-
مصطفى ليب عبد الغني	ه. أ. ولفسون	فلسفة المتكلمين (مج٢)	٨١٥-
بدر الدين عروكي	فيليب روجيه	العدو الأمريكي	٨١٦-
محمد لطفي جمعة	أفلاطون	مائدة أفلاطون: كلام في الحب	٨١٧-
ناصر أحمد وياتسي جمال الدين	أندريه ريمون	المرفئين والتجار في القرن ١٨ (ج١)	٨١٨-
ناصر أحمد وياتسي جمال الدين	أندريه ريمون	المرفئين والتجار في القرن ١٨ (ج٢)	٨١٩-
طانيوس أفندي	وايم شكسبير	هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	٨٢٠-
عبد العزيز يقوش	نور الدين عبد الرحمن الجامي	هفت بيكر (شعر)	٨٢١-
محمد نور الدين عبد المنعم	نخبة	فن الرباعي (شعر)	٨٢٢-
أحمد شافعي	نخبة	وجه أمريكا الأسود (شعر)	٨٢٣-
ربيع مفتاح	دافيد برتش	لغة الدراما	٨٢٤-
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	عصر النهضة في إيطاليا (ج١) (ميراث الترجمة)	٨٢٥-
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	عصر النهضة في إيطاليا (ج٢) (ميراث الترجمة)	٨٢٦-
محمد علي فرج	نونالد پ كول وثريا تركي	أهل مطروح: العرب والمسيحيون والأتراك في نفس المنطقة	٨٢٧-
رمسيس شحاتة	ألبرت أينشتاين	النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	٨٢٨-
مجدى عبد الحافظ	إرنست رينان وجمال الدين الأفغاني	مناظرة حول الإسلام والعلم	٨٢٩-
محمد علاء الدين منصور	حسن كريم بور	رق العشق	٨٣٠-
محمد النادى وعطية عاشور	ألبرت أينشتاين وإيوپواد إنفلد	تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	٨٣١-
حسن النعمي	جوزيف أ. شومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادي (ج٣)	٨٣٢-
محسن البمرdash	فرنو شمبدرس	الفلسفة الألمانية	٨٣٣-
محمد علاء الدين منصور	ذبيح الله صفا	كنز الشعر	٨٣٤-

علاء عزمي	بيتر أوربان	تشيوخوف: حياة في صور	٨٣٥-
منصور البستاي	مرثيس غارتيا	بين الإسلام والغرب	٨٣٦-
علي فهمي عبدالسلام	ناتاليا فيكي	عناكب في المصيدة	٨٣٧-
لبنى صبري	نعوم تشومسكي	في تفسير متعب بوش ومقالات أخرى	٨٣٨-
جمال الجزيري	ستيوارت سين ويورين فان لون	أقدم لك: النظرية النقدية	٨٣٩-
فوزية حسن	جوتفولد ليسينج	الخواتم الثلاثة	٨٤٠-
محمد مصطفى بدوي	وليم شكسبير	هملت: أمير الدانمارك	٨٤١-
محمد محمد يونس	فريد الدين العطار	منظومة مصبيت نامه (مج٢)	٨٤٢-
محمد علاء الدين منصور	نخبة	من روائع القصيد الفارسي	٨٤٣-
سمير كريم	كريمة كريم	دراسات في الفقر والعولة	٨٤٤-
طلعت الشايب	نيكولاس جويات	غياب السلام	٨٤٥-
عادل نجيب بشري	ألفريد أدلر	الطبيعة البشرية	٨٤٦-
أحمد محمود	مايكل ألبرت	الحياة بعد الرأسمالية	٨٤٧-
بغداد الهادي أبو ريدة	يوليوس فلهاوزن	تاريخ النولة العربية (ميراث الترجمة)	٨٤٨-
بدر توفيق	وليم شكسبير	سونيات شكسبير	٨٤٩-
جابر عصفور	مقالات مختارة	الخيال، الأسلوب، الحداثة	٨٥٠-
يوسف مراد	كلود برنار	الطب التجريبي (ميراث الترجمة)	٨٥١-
مصطفى إبراهيم فهمي	ريتشارد دوكنز	العلم والحقيقة	٨٥٢-
علي إبراهيم منوفي	باسيليو بابون مالدونادو	السيرة في الفن: سيرة للفن والمصور (مج١)	٨٥٣-
علي إبراهيم منوفي	باسيليو بابون مالدونادو	السيرة في الفن: سيرة للفن والمصور (مج٢)	٨٥٤-
محمد أحمد حمد	جيرارد ستيم	فهم الاستعارة في الأدب	٨٥٥-
عائشة سويلم	فرانثيسكو ماركيث يانو بيانويا	القضية الروسية من وجهة نظر أخرى	٨٥٦-
كامل عويد العامري	أندريه بريتون	نانجا (رواية)	٨٥٧-
بيومي قنديل	ثيو هرمانز	جوهرة الترجمة: عبور الحدود الثقافية	٨٥٨-
مصطفى ماهر	إيف شيميل	السياسة في الشرق القديم	٨٥٩-
عادل صبحي تكل	فان بلمان	مصر وأوروبا	٨٦٠-
محمد الخولي	چهن سميث	الإسلام والمسلمون في أمريكا	٨٦١-
محسن الدمرداش	أرتور شنييتسلر	ببغاء الكاكابو	٨٦٢-
محمد علاء الدين منصور	علي أكبر دلفي	لقاء بالشعراء	٨٦٣-
عبد الرحيم الرفاعي	دورين إنجرامز	أوراق فلسطينية	٨٦٤-
شوقي جلال	تيري إيجلتون	فكرة الثقافة	٨٦٥-
محمد علاء الدين منصور	مجموعة من المؤلفين	رسائل خمس في الآفاق والانس	٨٦٦-
صبري محمد حسن	ديفيد مايلو	المهمة الاستثنائية (رواية)	٨٦٧-
محمد علاء الدين منصور	ساعد باقري ومحمد رضا محمدي	الشعر الفارسي المعاصر	٨٦٨-
شوقي جلال	روين لونيوار وآخرون	تطور الثقافة	٨٦٩-
حمادة إبراهيم	نخبة	عشر مسرحيات (ج١)	٨٧٠-
حمادة إبراهيم	نخبة	عشر مسرحيات (ج٢)	٨٧١-
محسن فرجاني	لاوتسو	كتاب الطائر	٨٧٢-

٨٧٣-	معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤-	النهر الخالد (مج ١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٥-	النهر الخالد (مج ٢)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦-	دراسات في الموسيقى الشرقية (ج ١)	هنري جورج فارمر	أمانى المنياوى
٨٧٧-	أدب الجدل والدفاع في العربية	موريتس شتينثيدر	صلاح محجوب
٨٧٨-	ترحال في صحراء الجزيرة العربية (ج ١، مج ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٧٩-	ترحال في صحراء الجزيرة العربية (ج ١، مج ٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٨٠-	الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك	عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه
٨٨١-	المستعبرون : خدمة وخيانة	جلال آل أحمد	سلوى عباس
٨٨٢-	أغاني شيراز (ج ١) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٣-	أغاني شيراز (ج ٢) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٤-	تعلم الأطفال الصغار	باربرا تيزار ومارتن هيوز	محمد رشدى سالم
٨٨٥-	روح الإروهاب	جان بودريار	بدر عربكي
٨٨٦-	الترجمة والإمبراطورية	دوجلاس روبنسون	ثائر ديب
٨٨٧-	غزليات سعدى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٨٨٨-	أزهار مسلك الليل (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت
٨٨٩-	سارتورس (ميراث الترجمة)	وليم فوكنر	ميخائيل رومان
٨٩٠-	منتخبات أشعار فراغى	مخومقلى فراغى	الصفصافى أحمد القطورى
٨٩١-	مفاوضات مع الموتى	مارجريت أنثويد	عزة مازن
٨٩٢-	تاريخ المسيحية الشرقية	عزيز سوريال عطية	إسحاق عبيد
٨٩٣-	عبادة الإنسان الحر	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة
٨٩٤-	الطريق إلى مكة	محمد أسد	رفعت السيد على
٨٩٥-	وادی الفوضى (رواية)	فريدريش دورينغماث	يسرى خميس
٨٩٦-	شعر الضفاف الأخرى	نخبة	زين العابدين فؤاد
٨٩٧-	اختراق الجزيرة العربية	بيفيد جورج هوجارث	صبرى محمد حسن
٨٩٨-	الإسلام والعلم	برويز أمير على	محمود خيال
٨٩٩-	الدبلوماسية الفاعلة	بيتر مارشال	أحمد مختار الجمال
٩٠٠-	تيارات نقدية محدثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٩٠١-	مختارات من شعر لى جاو شينج	لى جاو شينج	عبد العزيز حمدى
٩٠٢-	آلهة مصر القديمة وأساطيرها	روبرت أرنولد	مروة اللقى
٩٠٣-	أفلام ومناهج (مج ١)	بييل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٤-	أفلام ومناهج (مج ٢)	بييل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٥-	تراث الهند	ج. ث. جارات	جلال السعيد الحفناوى
٩٠٦-	أسس الحوار في القرآن	هيربرت بوسه	أحمد هويدى
٩٠٧-	أرثر.. متعة الحياة (رواية)	فرانسواز جيبود	فاطمة خليل
٩٠٨-	الحلقة النقدية	بيفيد كورتز هوى	خالد حامد
٩٠٩-	الفنون والآداب تحت ضغط المولة	چورست سمايرز	طلعت الشايب
٩١٠-	بروميثيوس بلا قيود	دافيد س. ليندس	مى رفعت سلطان

عزت عامر	جون جريسين	٩١١- غبار النجوم
يحيى حقى	روايات مختارة	٩١٢- ترجمات يحيى حقى (ج١) (ميراث الترجمة)
يحيى حقى	مسرحيات مختارة	٩١٣- ترجمات يحيى حقى (ج٢) (ميراث الترجمة)
يحيى حقى	ليزمووند ستيفوارت	٩١٤- ترجمات يحيى حقى (ج٣) (ميراث الترجمة)
منيرة كروان	روجر چست	٩١٥- المرأة فى أثينا: الواقع والقانون
سامية الجندى وعبدالعظيم حماد	أنور عبد الملك	٩١٦- الجدلية الاجتماعية

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٩٧٠ / ٢٠٠٦

